

الإمتاع والمؤانسة

تأليف
أبي حيان التوحيدي



المكتبة العصرية
مسقط - بيروت

كِتَابُ
الْمُتَاعِ وَالْمَوَانِسَةِ

تَأليف
أبي حَيَّانَ التُّوحِيدِي

وَهُوَ مَجْمُوعُ مَسَامِرَاتٍ وَدِفْعَانُونَ شَتَّى
حَاضِرٍ بِهَا الْوَزِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْعَارِضُ فِي عِدَّةٍ لِيَاك

اعْتَنَى بِهِ وَرَاجَعَهُ
هَيْثَمُ خَلِيفَةُ الطَّعِيمِي

الجزء الأول

المكتبة العصرية
مكة - بيروت



شركة أبناء شريف الأضرى
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة الحضرة

الخندق العميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥

تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١

بيروت - لبنان

• الدارة النشرية الجديدة

الخندق العميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥

تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١

بيروت - لبنان

• المطبعة الحضرة

بوليغار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١

تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ ٧ ٠٠٩٦١

صيدا - لبنان

٢٠١١ م - ١٤٣٢ هـ

Copyright© all rights reserved

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز نسخ أو تسجيل أو إستعمال أي جزء من
هذا الكتاب سواء كانت تصويرية أم الكترونية
أم تسجيلية دون إذن خطي من الناشر.

E. Mail

alassrya@terra.net.lb

alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت

www.almaktaba-alassrya.com

ISBN 9953-34-112-5

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وبعده:
فإن أبا حيان التوحيدي، من المفكرين المسلمين المبدعين، ضرب بسهم في كل
علم من علوم عصره، مثقف متمرد على مواضع عصره، الحالم بالانتقال إلى عالم
واعد.

تجمع كتبه إلى عمق الفكرة أناقة العبارة ورشاقة الأسلوب. من أجل ذلك فإن
بعض المؤرخين يلقبونه بالجاحظ الثاني، وإن كتابه «الإمتاع والمؤانسة» الذي بين
أيدينا من أمتع كتبه وأنسها، ومن أهم آثاره. حيث أبدى برأيه في الكثير من القضايا
النقدية والمسائل الخلافية وعالج فيه الكثير من الموضوعات من أخبار أدبية وشعر ونثر
ولغة وفلسفة ومنطق وسياسة وحيوان وطعام وشراب ومجون وغناء وتاريخ وتحليل
لشخصيات العصر من ساسة وعلماء وفلاسفة وأدباء. مما جعله مرآة لزمانه وجعلنا
نعرف ما هي الصراعات الفكرية والثقافية في عصره.

وإننا في المكتبة العصرية، لما التزمنا نشر الكتاب الهادف فإنه يسرنا أن نقدم
للقرء الكرام هذا الكتاب «الإمتاع والمؤانسة» في طبعته الجديدة اعتماداً على طبعته
الأولى التي أصدرها أحمد أمين وأحمد الزين، وقد قدمنا نبذة عن المؤلف وسيرته
وإنتاجه وعلاقته بالحكام، وخرزنا بعض أحاديث الكتاب واخترنا بعضاً من هوامش
الأستاذ أحمد أمين وأحمد الزين.

وأخيراً نرجو من الله تعالى أن يوفقنا في عملنا وأن يجعله في ميزان حسناتنا إنه
قريب مجيب.

ترجمة المؤلف

اسمه :

أبو حيان علي بن محمد بن العباس التّوحيدي المعروف بأبي حيان التّوحيدي، كان بارعاً في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه وعلم الكلام على رأي المعتزلة، معجباً بالجاحظ وسلك في تصانيفه مسلكه. نعته ياقوت الحموي بـ«شيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ومحقق الكلام ومتكلم المحققين وإمام البلغاء...».

ورغم مكانة أبي حيان هذه وإسهاماته في العديد من العلوم والفنون، فلم يفرده واحد من مؤلفي كتب التراجم والطبقات بترجمة قبل ياقوت الحموي (٥٧٥ - ٦٢٦هـ) الذي يعد أول من نظر إليه نظرة متأنية اتضحت له معها شخصيته وعلمه وأدبه، وتعجب من إهمال المؤرخين له مع ما له من المنزلة الرفيعة التي أطلعها عليها تقصّيه لأحواله وقراءاته المنظمة لكتبه، حتى قال الصّفدي: «وقد طَوّل ياقوت في ترجمته زائداً إلى الغاية».

أصله^(١):

من الصعب أن يقطع برأي في الأصل الذي انحدر منه أبو حيان التوحيدي، فإن البعض ليزعم أنه فارسي من أصل شيرازي أو نيسابوري أو واسطي، بينما يزعم آخرون أنه عربي نشأ في بغداد، ثم وفد بعد ذلك على شيراز. وعلى الرغم من أن ياقوت الحموي يعترف في ترجمته لأبي حيان جهل أصله ونشأته، خصوصاً وأن «أحدًا لم يذكره في كتاب، ولا دمجّه في خطاب»، إلا أنه يميل إلى الظن بأن أبا حيان كان فارسي الأصل، قدم بغداد وأقام بها مدة، ثم مضى بعد ذلك إلى مدينة الري. ويُستنتج من تضاعيف أحاديث أبي حيان أنه كان يجهل اللغة الفارسية، إلا أن هذا الجهل لا يكفي لإثبات أصله العربي، إذ من الجائز أن يكون قد انحدر عن أصل فارسي، ثم استوطن بغداد مع قومه النازحين إليها، فأتقن العربية، وتعصّب المعرب، وتكفل بالردّ على الشعوبية. ويميل بعض الباحثين إلى القول بأن التوحيدي كان «من أولئك الموالى الذين اختلطت فيهم الدماء والعناصر، فكونت مزيجاً غريباً. على أنه كان يشعر بواشجة قربي مع الغرباء

(١) أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، بقلم د. زكريا إبراهيم، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة، ص ١٢ - ١٦.

والأفاقيين، حتى كان لا يخالط إلا الغرباء والمجتدين الأديباء الأرياء، وما هذا إلا لشعوره بأنه واحد منهم، إذ كان يرتد إليهم، مهما زجره عن ذلك زاجر من كبار القوم»^(١). وأصحاب هذا الرأي يستنتجون أنه من المرجح أن يكون أبو حيان فارسي الأصل، مع احتمال دخول أجناس أخرى في تكوينه العنصري.

وأما القائلون بعربيته، فإنهم يؤكدون أنه ليس في مؤلفاته ما يشير إلى فارسيته، فضلاً عن أنه لو كان يمت إلى فارس بصلة النسب، لباهى بذلك في عصر كانت الدولة فيه للفارس، وكانت صلته بأمرائهم وحكامهم في القرن الرابع أملاً وهدفه. على أنه يلاحظ أن أبا حيان قد زار بلاد الفرس، وكتب رسالة «في العلوم» وجّه فيها الحديث إلى الفارسيين فقال: «أطال الله بقاءكم... وجعل حظ الغريب السلامة بينكم، إذا فاتته الغنيمة منكم... وبعد فإنني لم أرد ببلادكم من العراق مباحياً لكم، ولا حضرت مجالسكم طاعناً فيكم، ولا تأخرت عنكم متطاولاً عليكم... الخ». وواضح من هذه العبارات أن أبا حيان كان يعتبر نفسه غريباً في بلاد الفرس، ولو أنه كان فارسي الأصل، لانتزه هذه الفرصة للتقرب من الفارسيين أو التودّد إليهم. وعندما وجه الوزير ابن العارض الشيرازي إلى أبي حيان السؤال التالي: «أفضل العرب على العجم، أم العجم على العرب؟»، فيروي التوحيدى للوزير حديثاً مسهباً لابن المقفع - وكان فارسياً أصيلاً - يقول فيه إن العرب «أعقل الأمم، لصحة الفطرة، واعتدال البنية، وصواب الفكر، وذكاء الفهم!» وعلى الرغم من أن الوزير يعلّق على هذه الرواية بقوله: «ما أحسن ما قال ابن المقفع! وما أحسن ما قصصت وما أتيت به!» إلا أننا نرى أبا حيان يستطرد فيقول: «إن لكل أمة فضائل وريذائل، ولكل قوم محاسن ومساوئ، ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحلّها وعقدتها كمال وتقصير». والتوحيدى يريد بهذه العبارة أن يطمئن الوزير إلى قلة احتفاله بالفوارق العنصرية والخلافات الجنسية، فلا فرق بين فارسيّ وعربيّ، ولا موضع لتفضيل إنسان على آخر لأصله أو نشأته أو وراثته! والتوحيدى يضيف إلى هذا أن الفضائل الماثورة، التي تنسب في العادة إلى كل أمة من الأمم المشهورة «ليست لكل واحد من أفرادها، بل هي الشائعة بينها، ومن جملتها من هو عار من جميعها، وموسوم بأضدادها... (بدليل أن) الفرس لا تخلو من جاهل بالسياسة، خال من الأدب، داخل في الرعاع والهمج، كما أن العرب لا تخلو من جبان جاهل طياش بخيل عبي...».

مولده:

تبعاً لما ذكره عن نفسه، فإن مولده يجب أن يكون بين سنتي ٣١٠/٩٢٢ م و٣٢٠/٩٣٢ م في شيراز أو نيسابور أو واسط، وانتقل في تاريخ مجهول لنا إلى بغداد.

(١) عبد الرحمن بدوي، مقدمته على كتاب «الإشارات الإلهية» لأبي حيان التوحيدى.

أما نسبه «التَّوْحِيدِي» فيقول ابن خلكان: «لم أر أحداً ممن وضع كتب الأنساب تعرَّض إلى هذه النسبة لا السَّمْعاني ولا غيره، لكن يقال إن أباه كان يبيع التوحيد ببغداد وهو نوع من التمر». ونَقَلَ السيوطي عن شيخه ابن حجر قوله: «يحتمل أن تكون إلى التوحيد الذي هو الدين فإن المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد. ويذهب الدَّهبي إلى أنه هو الذي نسب نفسه إلى التوحيد، مثلما سُمي ابن تومرت أتباعه بالموحدين، وكما يسمي صوفية الفلاسفة نفوسهم بأهل الوحدة وبالاتحادية.

كان أبوه فيما يقال تاجراً متنقلاً يبيع نوعاً من التمر المعروف باسم «التوحيد». ولا يوجد في كتب أبي حيان أية إشارة إلى أسرته، ولا أية قرينة يستدل منها على لقبه. وهذا ما حدا بعض الباحثين إلى القول بأن الرجل كان يعلم أنه نشأ من أسرة دقيقة الحال، عديمة النسب والحسب، فلم يكن يجد داعياً للحديث عن نشأته، أو الإشارة إلى أسرته. ويمضي أحد الباحثين إلى حد أبعد من ذلك فيقول: «لا تسألني متى ولد، ولا أين ولد، فذلك رجل نشأ في بيئة خاملة لم تكن تطمع في مجد، حتى تقيد تاريخ ميلاده».

بيد أن بعضاً من الباحثين استنتجوا تاريخ مولده من إشارتين: الأولى منهما وردت في «المقابسات»، وفيها يعترف التوحيدى بأنه قد جاوز العقد الخامس من عمره، وينص في الوقت نفسه على أنه أُلّف هذا الكتاب سنة ٣٦٠ هجرية، والثانية منهما وردت في الرسالة التي كتبها إلى القاضي أبي سهل بن محمد سنة ٤٠٠ هـ، وفيها يقول إنه قد بلغ «عشر التسعين». وعلى ذلك يكون أبو حيان قد ولد - كما قال معظم مؤرخي سيرته - في العشرة الثانية بعد الثلاثمائة، أي حوالي سنة ٣١٠ أو ٣١١ هجرية (على وجه التقريب).

عاش التوحيدى طفولة معذبة «منعه الحياء من الخوض فيها، فاكتفى بالصمت الذي هو أبلغ من كل كلام». وكان هذا الحرمان سبباً في التجائه إلى الدرس والتحصيل، عله يجد فيه تعويضاً عن بعض ما فاته من نعم الحياة. ويخيل أن أبا حيان كان يتحدث عن نفسه حينما راح يقول: [وهكذا] اشتد في طلب العلم تشميره، واتصل في اقتباس الحكمة رواحه وبكوره، وكانت الكلمة الحسناء أشرف عنده من الجارية العذراء، والمعنى المقوم أحب إليه من المال المكوم...». ويتأيد هذا الظن إذا عرفنا أن اهتمام أبي حيان بالعلم والدراسة قد صرفه عن التفكير في الزواج وإنجاب النسل، فلم يعرف عنه أنه تزوج أو رزق أولاداً بدليل قوله هو نفسه: إنه ظل طول عمره لا يجد حوله «ولداً نجيباً، وصديقاً حبيباً، وصاحباً قريباً، وتابعاً أديباً، ورئيساً منيباً». ويظهر أن ميله إلى التنقل، وولعه بالأسفار، قد حالاً بينه وبين الاستقرار، فلم يكن في وسعه أن يفكر في تكوين أسرة، أو أن يقنع من العيش بتربية بعض الأبناء! صرف التوحيدى القسم الأكبر من حياته في بغداد، وكان يتنقل بين بغداد، والري،

ونيسابور، وشيراز، وغيرها. . وأغلب الظن أن معظم هذه الأسفار كان إما طلباً للعلم، أو بحثاً عن الرزق، مما حدا ببعض إلى القول بأن أبا حيان كان دائماً «قلق الركاب، لا يكاد يستقر في مكان إلا ويزعجه أمر إلى ارتياد سواه».

شيوخه:

الأساتذة الذين درس عليهم كل واحد منهم إما أن يكون متخصصاً بفرع من فروع المعرفة أو بفروع عدة. فقد درس في حياته الفلسفة والمنطق على أكبر عالمين فيهما في القرن الرابع، وهما يحيى بن عدي المتوفى سنة ٣٦٤هـ، وأبو سليمان المنطقي المتوفى سنة ٣٩١هـ. ويحيى بن عدي فيلسوف نصراني قيل إنه انتهت إليه رئاسة أهل المنطق في زمانه، وقد ترجم كتب أرسطو إلى العربية ولخص مؤلفات أستاذه الفارابي وشرح فلسفته. ولعل أثره في التوحيدي يظهر بصورة خاصة في كتاب (المقابسات)، وكان أبو سليمان المنطقي من أعظم علماء المنطق، وقد اعتزل الرؤساء لعورة إصابته بالبرص، فلزم منزله، ووفد عليه العلماء والطلاب حتى غدا منزله مقيلاً لأهل العلوم القديمة، وكان يجمع إلى العلم بالمنطق إماماً بالأدب والشعر. وعلاقته بالتوحيدي كانت وثيقة كما تدل على ذلك عبارة الوزير ابن سعدان للتوحيدي «... فقد بلغني أنك جاره ومعاشره ولصيقه ومجاوره، وقافي خطوه وأثره، وحافظ غاية خبره»، بل إن قفطي تصور أن التوحيدي كان يغشى منازل الرؤساء لينقل أخبارها إلى النطقي.

ودرس التوحيدي الفقه الشافعي والتفسير على القاضي أبي حامد المرودي المتوفى سنة ٣٦٢هـ، وقد نقل عنه الكثير وروى عنه، حتى إن ابن أبي الحديد يقول: «إن التوحيدي كان يسند إلى المرورودي ويقول: وإنما أولع بذكر ما يقوله هذا الرجل، لأنه أنبل من شاهدته في عمري، وكان بحراً يتدفق حفظاً للسير، وقياماً بالأخبار، واستنباطاً للمعاني، وثباتاً على الجدل، وصبراً على الخصام». وفي مادة فقه الشافعي، درس التوحيدي على أبي بكر محمد بن علي القفال بن إسماعيل الشاشي المتوفى سنة ٣٦٥هـ، الذي قيل فيه إنه كان فقيهاً محدثاً أصولياً لغوياً شاعراً.

ودرس أيضاً على القاضي أبي الفرج النهرواني المتوفى سنة ٣٩٠هـ، وكان فقيهاً أديباً شاعراً وصفه ابن خلكان بأن له «أنسة بسائر العلوم»، وكان أهل زمانه يقولون عنه: «إذا حضر القاضي أبو الفرج، فقد حضرت العلوم كلها». ووصفه صاحب (الفهرست) بأنه كان «في نهاية الذكاء وحسن الحفظ وسرعة الخاطر في الجوابات».

ودرس التوحيدي على علي بن عيسى الزماني المتوفى سنة ٣٨٤هـ، وكان إماماً في اللغة والأدب وذا معرفة بعلم الكلام كما تدل على ذلك عبارة ابن خلكان: «جمع علم الكلام والعربية». وعده ياقوت في طبقة أبي علي الفارسي والسيرافي. وقال فيه ابن خلكان: «لم ير قط مثله علماً بالنحو وغازة في الكلام، وبصراً بالمقالات

وإيضاحاً للمشكل، مع تأله وتنزه ودين ويقين، وفصاحة وفقاهة وعفافة ونظافة». وقد كان للرماني باع طويل كذلك في التفسير على طريقة المعتزلة؛ إذ وضع تفسيراً للقرآن، بلغ من قيمته أن قال الصاحب بن عباد رداً على من اقترح عليه أن يصنف تفسيراً: «وهل ترك علي بن عيسى الرماني شيئاً؟».

وقرأ التوحيدي على أبي محمد جعفر الخلدي المتصوف الزاهد، وأبي الحسين ابن سمعون المتوفى سنة ٣٨٧هـ الذي وصف بأنه وحيد عصره في الكلام على الخواطر وحسن الوعظ وحلاوة الإشارة ولطف العبارة، وهو الذي وصفه ابن الجوزي بـ«الناطق بالحكمة»، بالإضافة إلى العامري الفيلسوف، والنوشجاني، وأبي الخير اليهودي، وجماعة من مشايخ النصارى الذين كانوا متحرين بالفلسفة ومحبين لأهلها، وأبي الوفاء المهندس المتوفى سنة ٣٧٦هـ.

مهنته وثقافته ومؤلفاته :

لجأ أبو حيان منذ مطلع شبابه إلى مهنة الوراق، حيث كان ينصرف إلى نسخ الكتب لقاء أجر زهيد، وظل صيته مغموراً لا يبارح دكاكين الوراقين، فلم يحفل به أحد، ولم ينتشر أمره بين مثقفي وأدباء عصره، إذ كان يصل الليل بالنهار في مهنته دون أن يعلم أحد شيئاً عن ظروف حياته العائلية والاجتماعية والإنسانية، حتى صمم أخيراً سنة ٣٥٠هـ وهو على أبواب الأربعين، على وجه التقريب، على الخروج من عالمه والنظر إلى ما حوله في عصر زهت فيه معظم العلوم والمعارف.

والحقيقة تُقال أنه كان لمهنة الوراق أثر بارز وأساسي على ثقافة أبي حيان، فقد أفسحت له في المجال أمام قراءة شتى أنواع الكتب وأشكالها فقويت حافظته وتوقد ذهنه واتسعت مداركه وتنوعت ثقافته، مما جعله يشعر بنهم كبير إلى العلم، فطفق يغزو مجالس العلماء والأدباء والمفكرين ويحضر حلقات التدريس عندهم.

إن نظرة سريعة على أساتذة أبي حيان ترينا أسباب نبوغه، وتنوع معلوماته، وهو إلى جانب ذلك كان شغوفاً بكل علم متتبعاً كل ثقافة، حتى غدا موسوعياً واسع الأفق خصب الخيال فيلسوفاً مع الفلاسفة، متكلماً مع المتكلمين، لغوياً مع اللغويين ومتصوفاً مع المتصوفين، ثم إنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، محقق الكلام ومتكلم المحققين وإمام البلغاء، فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة، كثير التحصيل للعلوم واسع الدراية والرواية. لذلك كان من الطبيعي أن تكثر مؤلفاته وتنوع موضوعاتها،

علاقته مع الحكام^(١) :

نتقل من «عهد الطلب» إلى «عهد التنقل»، قام أبو حيان بمحاولات عديدة.

(١) أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، للدكتور زكريا إبراهيم، ص ٤٢ - ٦٢.

بقصد الخروج من ضائقته المالية، ونيل الحظوة لدى الوزراء والكبراء. فاتصل أبو حيان التوحيدي بالوزير أبي محمد الحسن بن محمد المهلبي - وزير معز الدولة - الذي كان محباً لأهل العلم والأدب، عطوفاً على الكتاب والأدباء، والظاهر أن التوحيدي قد جاهر أمام الوزير ببعض الآراء الحرة التي لم يرض عنها المهلبي، خصوصاً وأن الشائع عنه أنه كان بعيداً كل البعد عن روح التسامح مع أصحاب العقائد والبدع، فنفاه من بغداد. وهذا ما رواه ابن فارس في «الفريدة والخريدة» حين قال إن الوزير المهلبي وقف على جميع دخلته، وسوء عقيدته، وما يبطنه من الإلحاد، وما يرومه في الإسلام من الفساد، وما يلصقه بأعلام الصحابة من القبائح، وما يضيفه إلى السلف الصالح من الفضائح، فطلبه (أي الوزير المهلبي)، وسمع بذلك أبو حيان «فاستتر منه، ومات في الاستتار، وأراح الله منه، ولم يؤثر عنه إلا مثلبة أو مخزية» والسبب في اتهام أبي حيان بسوء العقيدة والزندقة والانحلال إنما هو ذلك الكتاب الذي قيل إنه ألفه باسم «الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي»، وهو الكتاب الوحيد الذي يظهر أنه أعرب فيه عن بعض الآراء الصوفية التي تتنافى - في الظاهر - مع قواعد الإسلام.

وقد عدَّ ابن الجوزي زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الرأوندي وأبو حيان التوحيدي وأبو العلاء المعري. واعتبر أبا حيان أشهرهم على الإسلام لأنهما صرَّحا بزندقتهما وهو مَجْمَع ولم يُصْرَح، كذلك فقد رماه الذَّهَبِي بسوء الاعتقاد ووصفه بالضال الملحد، كما وصفه ابن فارس بالكذب وقلة الدين والورع وبالقدح في الشريعة والقول بالتعطيل، وقال ابن حجر: كان صاحب زندقة وانحلال.

أما محب الدين ابن النجَّار، مؤرخ العراق، فقد دافع عنه وقال: إنه «كان صحيح الاعتقاد»، وذهب إلى ذلك أيضاً تاج الدين السُّبُكِي قائلاً:

«ولم يثبت عندي إلى الآن من حال أبي حيان ما يوجب الوقعة فيه، ووقعت على كثير من كلامه فلم أجد منه إلا ما يدل على أنه كان قوي النفس مزدرياً بأهل عصره».

وقد اعتبر عبد الرحمن بدوي أبا حيان أديباً وجودياً في القرن الرابع الهجري، ويضيف أن المستقصي لمراميه البعيدة لا يعدم أن يجد سنداً لاتهامه بأنه كان في القليل رقيق الدين أو أنه كان يلونه بلون خاص به لا ينظر إليه أصحاب السنة نظرة الرضا، ويعتقد أن تكفير ابن الجوزي له إنما هو من نوع تكفيره الصوفية عامة. ومع ذلك، فلا نملك الوثائق الكافية للحكم في هذه المسألة حكماً صحيحاً؛ لأن الرسالة التي يمكن أن تكون الفيصل في هذا الأمر وهي: (كتاب الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي) لم تصل إلينا، وعنوانها يدعو بالفعل إلى الكثير من التساؤل.

وأياً ما كان الأمر، - إلى أن يأتي دليل مضاد - فإن التوحيدي كان على الأقل

يؤمن بسلطة عليا فوق الكون، كما كان يؤمن بهذا أيضاً أستاذه أبو سليمان المنطقي السجستاني .

ونتيجة لسوء اعتقاده، في زعم خصومه، نفاه من بغداد الوزير المهلبى، كما طلبه صاحب كافي الكفاة ليقبله بعد أن اطلع على ما قيل إنه كان يخفيه من القدرح في الدين، فالتجأ إلى أعدائه وظل مستتراً إلى أن مات في الاستار .

غادر أبو حيان بغداد - راضياً أم كارهاً - بقصد الرحيل إلى الريّ للاتصال بأبي الفضل بن العميد . وكان لابن العميد - في ذلك الوقت - قدر مهيب، فقد كان الشعراء يقصدون بابه لكرمه وسخائه، كما كان الناقدون يثنون عليه لفصاحته وبلاغته . ومن بين الذين مدحوا ابن العميد من الشعراء - كما هو معروف - أبو الطيّب المتنبّي، كما أنى عليه من بين الفلاسفة مسكويه الذي عهد إليه ابن العميد بمنصب «خازن كتبه» . وكان أبو حيان ينتظر من ابن العميد، أن ينقذه من براثن الفقر، وأن يسبغ عليه الكثير من العطايا، ولكن الظاهر أنه لم يظفر منه بما كان يطمع فيه .

ومهما يكن من شيء، فقد غادر أبو حيان بغداد حوالي سنة ٣٦٧ هجرية قاصداً مدينة الري مرة أخرى للاتصال بالوزير صاحب بن عباد . وقد كانت خيبة أمله في ابن العميد الوالد وابن العميد الابن (أي في أبي الفضل وأبي الفتح) سبباً في إقباله على باب صاحب، آملاً أن يجد عنده ما لم يظفر به عند ابن العميد . وكان التوحيدى قد سمع عن كرم صاحب، فقصده «بأمل فسيح، وصدور رحيب»، ولكنه لم يستطع أن ينال حظوته، لرفضه أن يكون كاتب الإنشاء . وقد روى التوحيدى قصة وقوفه بباب صاحب فقال إنه لما وصل مدينة الري، قال له صاحب: «الزم دارنا، وانسخ لنا هذا الكتاب، فقلت: أنا سامع مطيع، ثم قلت لبعض الناس في الدار مسترسلاً: إنما توجهت من العراق إلى هذا الباب، وزاحمت منتجعي هذا الربيع، لأتخلص من حرفة الشؤم، فإن الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة؛ فمنى إليه هذا أو بعضه أو على غير وجهه، فزاده تنكراً . وكان الرجل خفيف الدماغ لا يعرف الحلم إلا بالاسم»^(١) . .

وواضح من هذه القصة أن أبا حيان لم يكن ينتظر من صاحب بن عباد أن يعهد إليه بعمل من أعمال الوراقة التي كان قد سئمها وتمنى التخلص منها! ويعترف التوحيدى نفسه بأن صاحب طلب إليه يوماً أن يقرأ عليه الرسالة التي كان قد توسل بها إلى أبي الفتح بن العميد - وكان الوزيران خصمين لدودين - فقرأها التوحيدى عليه، مما أهاج حفيظة صاحب ضده، خصوصاً وأن التوحيدى قد وصف فيها ابن العميد بأنه «سيد الناس»، وأنه «الشمس المضيئة بالكرم، والقمر المنير بالجمال، والنجم الثاقب

(١) مثالب الوزيرين، لأبي حيان التوحيدى ص ٢٠٣ .

بالعلم، والكوكب الوقاد بالجود، والبحر الفياض بالمواهب... الخ»^(١).

ولا شك أن التوحيد لم يكن موفقاً كل التوفيق حينما تلا تلك الرسالة على مسامع الصاحب بن عباد، حتى وإن كان هو الذي أمره بذلك وألح عليه فيه، مما جعل المقربين إلى الصاحب يقولون لأبي حيان: «جنيت على نفسك، حين ذكرت عدوّه عنده بخير، وبينت عنه وجعلته سيد الناس...!».

ويروي أبو حيان في موضع آخر أن الصاحب بعث يوماً بخادمه إلى أبي حيان، طالباً منه نسخ ثلاثين مجلدة من رسائله، بدعوى أنها مطلوبة في الحال لمدينة خراسان، فما كان من التوحيد سوى أن أجابه - بعد ارتياح -: «هذا طويل، ولكن لو أذن لي، لخرجت منه فقراً كالغرر. لو رقى بها مجنون لأفاق، ولو نفث على ذي عاهة لبرأ، لا تمل، ولا تستغث، ولا تعاب، ولا تسترث...». والظاهر أن هذا الكلام قد رفع إلى الصاحب على وجه مكروه، دون أن يعلم أبو حيان من أمره شيئاً، فقال ابن عباس: «طعن في رسائلي وعابها، ورغب عن نسخها، وأزرى بها؛ واللّه لينكرنّ مني ما عرف، وليعرفنّ حظه إذا انصرف!» ويبدو أن الصاحب قد وجد في مسلك أبي حيان تطاولاً منه على رئيسه ووليّ نعمته، فإن التوحيد قد ادعى لنفسه القدرة على تمييز الغث من السمين في رسائل الصاحب نفسه، وكأنه كان أعلم منه بالرديء والجيد من الكلام! ومع ذلك فإنّ أبا حيان يدهش لما قاله الصاحب: لأنه حين عاب رسائل ابن عباد، فإنه لم يطعن في القرآن، ولم يرم الكعبة بخرق الحيز، ولم يسلح في زمزم...!

«... وما ذنبي يا قوم إذا لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلدة؟ ومن هذا الذي يستحسن هذا التكليف حتى أعذره في لومي على الامتناع؟ أي إنسان ينسخ هذا القدر، وهو يرجو بعده أن يمتعه اللّه ببصره أو ينفعه بيده؟ ثم ما ذنبي إذا قال لي: من أين لك هذا الكلام المفوّف المشوّف الذي تكتب إليّ به في الوقت بعد الوقت؟ فقلت: وكيف لا يكون كما يوصف، وأنا أقطف من ثمار رسائله، وأستقي من قليب علمه، وأشيم بارقة أدبه، وأرد ساحل بحره، وأستوكف قطر مزنه! فيقول: كذبت وفجرت لا أم لك! ومن أين في كلامي الكدية (أي التوسل) والشحذ والضرع والاسترحام؟! كلامي في السماء، وكلامك في السّماء...!»^(٢).

وقد حاول التوحيد أن يبرّر موقفه من الصاحب فقال: «ولكنني ابتليت به، وكذلك هو ابتلي بي، ورماني عن قوسه مُغرِقاً، فأفرغت ما كان عندي على رأسه

(١) مثالب الوزيرين، نفسه، ص ٣٣٢.

(٢) نفسه، ص ٣٢٦.

مغيظاً، وحرمني فازدريته، وحققني فأخزيتته، وخصني بالخيبة التي نالت مني، فخصصته بالغيبة التي أحرقتة، والبادي أظلم، والمتصف أعذر...».

ومهما يكن من شيء فقد انتهت العلاقة بين الرجلين بالقطيعة، إذ فارق التوحيدي فناء الصاحب بن عباد سنة ٣٧٠هـ، بعد صلة دامت حوالي ثلاث سنوات، رجع على أثرها إلى مدينة السلام صفر اليمين! والتوحيدي يقرر أن الصاحب لم يعطه طوال هذه المدة درهماً واحداً، أو ما قيمته درهم واحد، على الرغم من كل ما نسخه له! وهو يقول أيضاً إنه إذا كان قد هجا الصاحب فما ذلك إلا لما جرّعه إياه من مرارة الخيبة بعد الأمل؛ وما حمله عليه من الإخفاق بعد الطمع؛ «مع الخدمة الطويلة، والوعد المتصل، والظن الحسن، حتى كأني خصصت بخساسته وحدي، أو وجب أن أعامل بها دون غيري». وأما ياقوت الرومي فإنه يقول إن أبا حيان كان قد قصد ابن عباد بالري، فلما لم يرزق منه، رجع عنه ذاماً له، وكان أبو حيان مجبولاً على الغرام بثلب الكرام، فاجتهد في الغض من ابن عباد، ولكن فضائل ابن عباد كانت تأبى إلا أن تسوقه إلى المدح وإيضاح مكارمه، فانقلب ذمّه له مدحاً^(١)! وهناك رواية أخرى يرويها الخوانساري مؤداها أن التوحيدي كان سيئ العقيدة، قليل الورع، فلما وقف ابن عباس على حقيقة أمره، طلبه ليقتله، فهرب والتجأ إلى أعدائه، ونفق عليهم بزخرفته وكذبه. ويميل البعض إلى استبعاد هذه الرواية الأخيرة لعدم وجود قرائن تشهد بفساد عقيدة أبي حيان، اللهم إلا أن يكون اتهامه بالزندقة مجرد وسيلة اتخذ منها الصاحب ذريعة للثأر من خصمه (أبي حيان) والتشهير به وتجريح سمعته!

ولكن إذا كان أبو حيان لم يوفق في صلواته بأبي الفضل ابن العميد وابنه أبي الفتح بن العميد، وإذا كان الحظ لم يحالفه أيضاً في علاقته بالصاحب بن عباد، فإن الظاهر أنه كان أكثر توفيقاً مع الوزير ابن العارض أبي عبد الله الحسن بن سعدان (المتوفى سنة ٣٧٥هـ) وزير صمصام الدولة البويهية. وقد كانت حلقة الاتصال بين أبي حيان وابن سعدان شخصية عالمة فاضلة التقى بها التوحيدي في فارس، فسرعان ما توثقت بينهما أواصر المودة، وتلك هي شخصية أبي الوفاء المهندس البوزجاني الذي أهدى إليه أبو حيان من بعد كتابه «الإمتاع والمؤانسة» تقديراً له واعترافاً بفضله. وقد توطدت العلاقة بين أبي حيان والوزير وابن سعدان، فنسخ له كتاب الحيوان للجاحظ، وألف له رسالة في «الصدقة والصديق» وسامره بكل تلك الأقاويص والأحاديث التي رواها في «الإمتاع والمؤانسة» الكتاب الذي بين أيدينا. وقد كان لابن سعدان ناحية علمية أدبية صورها أبو حيان في كتبه «فهو واسع الاطلاع، له مشاركة جيدة في كثير من فروع العلم من أدب وفلسفة وطبيعة وإلهيات وأخلاق، يدل على

ذلك حواراه الذي يحكيه أبو حيان . . فهو يسأل أسئلة عميقة، وينقد الإجابة عنها نقداً قيماً». ولم يكن لدى التوحيدي من اللباقة والكياسة ما يستطيع معه مجالسة الوزراء ومسامرة الكبراء، بدليل ما وصفه به صديقه أبو الوفاء حين قال إنه: «غر لا هيئة له في لقاء الكبراء، ومحاورة الوزراء»؛ ومع ذلك فقد وصله أبو الوفاء بابن سعدان، وهياً له الفرصة للاختلاء بالوزير، والإلقاء إليه بما شاء واختار! وكان أول ما طلبه أبو حيان من الوزير أن يأذن له بتوجيه الخطاب إليه بالكاف والتاء، ليتكلم من غير تكلف أو كناية أو حرج أو تعريض! ولم يلبث أبو حيان أن اطمأن إلى مجالس الوزير، فكان يتكلم في حضرته بصراحة، ولم يكن يتحرج في رواية أقذع النوادر والملح، بل كان يبدي رأيه في حاشية الوزير نفسه دون خوف أو خشية! ويبدو أن أبا حيان قد وجد لدى ابن سعدان صدراً رحباً، وأذناً صاغية، ويبدأ بمدودة، فإننا نراه يكتب إلى الوزير قائلاً: «قد شاهدت ناساً في السفر والحضر، صغاراً وكباراً وأوساطاً، فما شاهدت من يدين بالمجد، ويتحلى بالجود ويرتدي بالعفو، ويتأزر بالحلم ويعطي بالجفاف، ويفرح بالأضياف، ويصل الإسعاف بالإسعاف، والاتحاف بالاتحاف، غيرك. واللّه إنك لتهب الدرهم والدينار وكأنك غضبان عليهما، وتطعم الصادر والوارد كأن اللّه قد استخلفك على رزقهما؛ ثم تتجاوز الذهب والفضة إلى الثياب العزيزة، والخلع النفيسة والخيل العتاق، والمراكب الثقال، والغلمان والجواري، حتى الكتب والدفاتر وما يضمن به كل جواد؛ وما هذا من سجايا البشر، إلا أن يكون فاعل هذا نبياً صادقاً، وولياً لله مجتبياً».

وعلى الرغم من أن أبا حيان لم يكن يتردد في مفاتحة الوزير ابن سعدان برأيه في بعض جلساته، فلم يسلم من تعريضه أناس كابن شاهويه وبهرام بن سعيد وأبي عيسى عليّ بن زرعة النصراني وابن عبيد الكاتب وغيرهم من ندماء ابن سعدان، إلا أن الصلة لم تنقطع تماماً بينهما، حتى في الفترة التي اشتدت فيها أعباء الوزارة على ابن سعدان. وإن كان يشكو أحياناً إلى صديقه أبي الوفاء المهندس تغافل الوزير عنه، ويلح في تذكير أبي الوفاء بعود الوزير، ولكن ليس ما يبرّر القول بانقطاع الصلة بين أبي حيان وابن سعدان، بدليل أن أبا حيان ظل يذكره بالخير حتى بعد وفاته. ولكن يشاء سوء الطالع أن يلاحق التوحيدي إلى النهاية، فقد بقي ابن سعدان في الوزارة مدة قصيرة، إذ ظهر له عام ٣٧٥ (هجريّة) خصم لدود هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الذي ظل يكيد له وينصب الشباك للإيقاع به، حتى قبض عليه هو وأصحابه وأودعوا السجن. واستوزر صمصام الدولة أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، فوشى بابن سعدان لديه وأدخل في روعه أن ابن سعدان يؤلّب الثوار عليه، فأمر صمصام الدولة بقتله، والتنكيل بأعوانه، وكان ذلك في نهاية عام ٣٧٥هـ.

ويبدو أن أبا حيان قد خشي أن يلاحقه أعوان الوزير الجديد، لأنه كان من

رجالات الوزير المقتول، فأثر الاختفاء عن أعين رجال ابن يوسف، وهرب إلى شيراز حيث راح يتردد على المتصوفة ويعيش معهم. وأخباره خلال تلك الفترة التي ظلّ فيها متخفياً قليلة، ولكن الظاهر أنه كان يعيش في فقر مدقع، بدليل قوله: «لقد غدا شبابي هرماً من الفقر، والقبر عندي خير من الفقر» أو قوله: «لقد قال أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنساً بالوحشة، قانعاً بالوحدة، معتاداً للصمت، ملازماً، للحيرة، محتملاً للأذى، يائساً من جميع من ترى، متوقفاً لما لا بدّ من حلوله، فشمس العمر على شفا، وماء الحياة إلى نضوب، ونجم العيش إلى أفول، وظل التلبث إلى قلوب».

وزاد من حقد التوحيدي على الناس وتشاؤمه من الحياة، ما لاحظته من انصراف الناس عنه، وقسوة الحياة عليه، فلم يلبث أن أحرق ما لديه من مصنفات، ضناً بها على من لا يعرف قدرها بعد موته، وأبو حيان يتعلل أيضاً بمرضه وشيخوخته خصوصاً بعد كل ما قاساه من شظف المعيشة وآلام الحياة، فيقول: «لقد كلّ البصر، وانعقد اللسان، وجمد الخاطر، وذهب البيان، وملك الوسواس، وغلب الياس، من جميع الناس. . . ولو علمت في أي حال غلب عليّ ما فعلته، وعند أي مرض، وعلى أية عسرة وفاقه، لعرفت من عذري أضعاف ما أبديته، واحتججت لي بأكثر ما نشرته وطويته». وواضح من هذه الكلمات أن أبا حيان يشير إلى حالته النفسية السيئة، فإنه يرى فيها من العذر ما يكفي لتبرير فعلته، فالرجل يشعر بأن هذه الكتب لم تعد تعبر عن حالته النفسية الراهنة ثم هو يدرك أنها تعبر عن إخفاقه في الظفر بما كان يأمل من مجد أدبيّ، وهو لهذا وذاك لا يرى داعياً للتمسك بها أو الحرص عليها^(١). هذا إلى أن الشعور بقرب الرحيل قد وُلد في نفس التوحيدي ثورة كبرى على أعزّ ما كان يملك، فلم يتردد في التمرد حتى على كتبه العزيزة التي طالما شاركته حلو الحياة ومرّها! «وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب؟ وهل المنهوم بها إلا كالحريرص الجشع عليهما؟ وهل المغرم بحبها إلا كمكائرها؟ هيهات! الرحيل واللّه قريب، والثواء قليل، والمضجع مقض، والمقام ممض، والطريق مخوف، والمعين ضعيف، والاعتزاز غالب، واللّه من وراء هذا كله طالب. . .»^(٢).

ولا يُعرف ماذا كان من أمر التوحيدي بعد إحراقه لكتبه عام ٤٠٠هـ. وليس بين أيدينا من المراجع ما يقطع بنوع الحياة أو أسلوب المعيشة الذي عاشه أبو حيان في سنواته الأخيرة. ولئن كان بعض الباحثين قد ظن أنه توفي في مطلع القرن الخامس الهجري، إلا أن الظاهر أن الأجل قد امتد به إلى العام الرابع عشر من القرن الخامس،

(١) عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، المقدمة.

(٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي ٢٤/٥. نقلاً عن زكريا إبراهيم، ص ٦٢.

بدليل أن أبا إسحاق إبراهيم بن يوسف الشيرازي قد روى أنه استمع إلى التوحيدي في شيراز سنة ٤١٠هـ ثم عاد إلى بغداد سنة ٤١٤هـ بعد وفاة أبي حيان. ولا بد من أن يكون أبو حيان قد أمضى هذه الفترة الطويلة من الشيخوخة في التعبد والتنسك والاستغفار، بصحبة بعض إخوانه ومريديه من الصوفيين، إلى أن قضى بشيراز ودفن فيها على ما جاء في كتاب «وفيات الأعيان». وبذلك يكون التوحيدي قد عمّر طويلاً، إذ مات عن مائة وأربعة أعوام! وقد روى فارس بن بكران الشيرازي - وكان من أصحاب التوحيدي - الساعات الأخيرة من حياة صاحبه فقال: «لما احتضر أبو حيان كان بين يديه جماعة فقالوا: اذكر الله، فإن هذا مقام خوف، وكل يسعى لهذه الساعة، وجعلوا يذكرونه ويعظونه، فرفع رأسه إليهم وقال: كأني أقدم على جندي أو شرطي، إنما أقدم على رب غفور، وقضى!».

إنتاجه:

ليس غريباً على إنسان اتخذ من القلم حرفته، أن يجيء إنتاجه الفكري خصباً وافراً، خصوصاً وأنه قد عاش أكثر من قرن بأكمله! ولكن الظاهر أن حادثة إحراق التوحيدي لكتبه في أواخر أيام حياته قد حالت دون وصول الكثير من مصنفاته إلينا، فضلاً عن أن بعض هذه الكتب لم يكن من المرغوب فيه، فلم يكن من المستحسن اقتناؤها أو الاحتفاظ بها!

ومن المعروف عن أبي حيان أنه كان غزير الإنتاج، حريصاً على النقل والرواية، محبباً للبحث والجدل. ولئن كان موضوع هذه الكتب لم يقف عند الفلسفة والأدب، بل قد امتد أيضاً إلى الكلام والفقه والشريعة والتصوف والنحو واللغة، إلا أن أبا حيان قد التزم في معظمها أسلوباً واحداً، ألا وهو أسلوب المحاوراة والمسامرة، فجاءت كتبه «سهلة المأخذ، بعيدة عن التكلف والتعسف، بريئة من اللبس والغموض».

ونتيجة للإهمال الذي عاش فيه أبو حيان طوال العشرين عاماً الأخيرة من حياته مستتراً متخفياً، أحرق كتبه لقلّة جدواها وضناً بها على من لا يعرف قدرها بعد موته.

يقول السيوطي قائلاً: لعل النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كُتبت عنه في حياته وخرّجت عنه قبل حرقها، وربما كان لاشتغاله بالنسخ وتأليفه كتبه وتقديمها إلى بعض رؤساء عصره أملاً في مجازاته عليها سبباً في بقاء العديد منها ونجاته من الحرق.

وعندما أقدم أبو حيان على ذلك نحو عام ٤٠٠هـ - ١٠٠٩م كتب إليه القاضي أبو سهل علي بن محمد يَعدُّله على صنيعه ويُعرفه فُبِح ما اعتمد من الفعل وشنيعه.

فكتب إليه أبو حيان معترداً عن ذلك بكتاب مؤرخ في شهر رمضان سنة أربعمائة. ونظراً لأهمية هذا الكتاب الذي يوضح فيه أبو حيان الأسباب التي دعت إلى

ذلك وكيف سبقه إلى هذا الفعل علماء كبار، وتراجعه فيه عن بعض ما اعتقده من أمور جعلت المتأخرين يتهمونه بالإلحاد والزُّندقة، حيث يقول: «أسأل الله رب الأولين أن يجعل اعترافي بما أعرفه موصولاً بنزوعي عما اقترفته. إنه قريب مجيب» فيما يلي نصّ هذا الكتاب المهم:

قال يقوت الحموي في كتابه: معجم الأدباء (٢٩٤ - ٢٩٩).

وكان أبو حيّان قد أحرق كتبه في آخر عمره لقلّة جدواها، وضناً بها على من لا يعرف قدرها بعد موته.

وكتب إليه القاضي أبو سهل عليّ بن محمّد يعذّله على صنيعه، ويعرّفه قبج ما اعتمد من الفعل وشنيعه. فكتب إليه أبو حيّان يعتذر من ذلك: حرسك الله أيّها الشيخ من سوء ظنّي بمودّتك وطول جفائك، وأعاذني من مكافأتك على ذلك، وأجارنا جميعاً ممّا يسود وجه عهدٍ إن رعيناه كئنا مستأنسين به، وإن أهملناه كئنا مستوحشين من أجله، وأدام الله نعمته عندك، وجعلني على الحالات كلّها فداك.

وافاني كتابك غير محتسبٍ ولا متوقّع على ظمإٍ برّح بي إليه، وشكرت الله تعالى على التعمّة به عليّ، وسألته المزيد من أمثاله، الذي وصفت فيه بعد ذكر الشوق إليّ، والصبابة نحوي، ما نال قلبك والتهب في صدرك من الخبر الذي نمي إليك فيما كان منّي من إحراق كتبي النفيسة بالنار وغسلها بالماء، فعجبت من انزواء وجه العذر عنك في ذلك، كأنك لم تقرأ قوله جلّ وعزّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. وكأنك لم تأبه لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، وكأنك لم تعلم أنّه لا ثبات لشيءٍ من الدّنيا وإن كان شريف الجواهر كريم العناصر، ما دام مقلّباً بيد اللّيل والتهار، معروضاً على أحداث الدّهر وتعاود الأيّام. ثمّ إنّي أقول: إن كان - أيّدك الله - قد نقب خفّك ما سمعت، فقد أدمى أظفلي^(١) ما فعلت، فليهن عليك ذلك، فما انبريت له، ولا اجترأت عليه حتّى استخرت الله عزّ وجلّ فيه أيّاماً وليالي، وحتّى أوحى إليّ في المنام بما بعث راقد العزم، وأجدّ فاتر النّيّة، وأحيا ميت الرّأي، وحثّ على تنفيذ ما وقع في الرّوع وتريع في خاطر، وأنا أجود عليك الان بالحجّة في ذلك إن طالبت، أو بالعذر إن استوضحت، لتثوق بي فيما كان منّي، وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي: إنّ العلم - حاطك الله - يراد للعمل، كما أنّ العمل يراد للتّجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم، كان العلم كلاً على العالم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاً وأورث ذلاً، وصار في رقبة صاحبه غلاً - وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار - ثمّ اعلم علّمك الله الخير أنّ هذه الكتب حوت من أصناف العلم سرّه وعلايته، فأما ما كان

(١) أي باطن الأصابع.

سراً فلم أجد له من يتحلّى بحقيقته راغباً، وأمّا ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالباً، على أتّي جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ولمدّ الجاه عندهم فحزمت ذلك كله، - ولا شكّ في حُسن ما اختاره الله لي وناطه بناصيتي، وربطه بأمرّي - وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حجّة عليّ لا لي، وممّا شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه، أتّي فقدت ولدأ نجيباً، وصديقاً حبيباً، وصاحباً قريباً، وتابعاً أديباً، ورئيساً منيباً، فشقّ عليّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفّحوها، ويتراءون نقضي وعيبي من أجلها فإنّ قلت: ولم تسمهمُ بسوء الظن، وتقرع جماعتهم بهذا العيب؟ فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنةً فما صح لي من أحدهم وداد، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظاً؟ ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، وي طرح في قلب صاحبه الألم، وأحوال الزمان بادية لعينك، بارزة بين مسائك وصباحك، وليس ما قلته بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك، وشدة تبعلك وتفرغك، وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيت به بما قدّمته ووصفته، وبما أمسكت عنه وطويته، إما هرباً من التطويل، وإما خوفاً من القال والقليل. وبعد؛ فقد أصبحت هامة اليوم أو غد فإنني في عشر التسعين، وهل لي بعد الكبرية والعجز أمل في حياة لذيذة، أو رجاء لحال جديدة؟ ألسنت من زمرة من قال القائل فيهم:

[الطويل]

نروح ونغدو كل يوم وليلة وعمّا قليل لا نروح ولا نغدو
وكما قال الآخر:

[الطويل]

تفوّقتُ درّات الصبا في ظلاله إلى أن أتاني بالفطام مشيب
وهذا البيت للورد الجعدي وتماهه يضيق عنه هذا المكان، والله يا سيدي لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان في هذا الصقع من الغرباء والأدباء والأحباء لكفي، فكيف بمن كانت العين تقرّ بهم، والنفس تستنير بقربهم، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والري، وما والى هذه المواضع، وتواتر إلي نعيهم، واشتدت الواعية بهم، فهل أنا إلا من عنصرهم؟ وهل لي محيد عن مصيرهم؟ أسأل الله تعالى رب الأولين أن يجعل اعترافي بما أعرفه موصولاً بنزوعي عما أقترفه، إنه قريب مجيب. وبعد، فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم، ويؤخذ بهديهم،

ويعشى إلى نارهم، منهم: أبو عمرو بن العلاء، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف، دفن كتبه في بطن الأرض فلم يوجد لها أثر.

وهذا داود الطائي، وكان من خيار عباد الله زهداً وفقهاً وعبادةً، ويقال له تاج الأمة، طرح كتبه في البحر وقال ينجيها: نعم الدليل كنت، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول، وبلاء وخمول.

وهذا يوسف بن أسباط: حمل كتبه إلى غار في جبل وطرحه فيه وسد بابه، فلما عوتب على ذلك قال: دلنا العلم في الأول ثم كاد يضلنا في الثاني، فهجرناه لوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل ما أردناه.

وهذا أبو سليمان الداراني جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار، ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك.

وهذا سفيان الثوري: مزق ألف جزء وطيرها في الريح وقال: ليت يدي قطعت من هاهنا بل من هاهنا ولم أكتب حرفاً.

وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي سيد العلماء قال لولده محمد: قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار.

وماذا أقول وسامعي يصدق أن زماناً أحوج مثلي إلى ما بلغك، لزماناً تدمع له العين حزناً وأسى، ويتقطع عليه القلب غيظاً وجوى وضنى وشجى، وما يصنع بما كان وحدث وبان، إن احتجت إلى العلم في خاصة نفسي فقليل، والله تعالى شافٍ كافٍ، وإن احتجت إليه للناس ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس، إلى أن تفي الأنفاس بعد الأنفاس، «ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون». فلم تُعتَى عيني - أيدك الله - بعد هذا بالحبر والورق والجلد والقراءة والمقابلة والتصحيح وبالسواد والبياض، وهل أدرك السلف الصالح في الدين الدرجات العلى إلا بالعمل الصالح، وإخلاص المعتقد والزهد الغالب في كل ما راق من الدنيا وخدع بالزبرج، وهوى بصاحبه إلى الهبوط؟ وهل وصل الحكماء القدماء إلى السعادة العظمى إلا بالاقتصاد في السعي، وإلا بالرضا بالميسور، وإلا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم؟ فأين يذهب بنا وعلى أي باب نحط رحالنا؟ وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب؟ وهل المنهوم بها إلا كالحريرص الجشع عليهما؟ وهل المغرم بحبها إلا كمكائرها؟ هيهات، الرحيل والله قريب، والثواء قليل، والمضجع مقص، والمقام ممض، والطريق مخوف والمعين ضعيف، والاعتزاز غالب، والله من وراء هذا كله طالب، نسأل الله تعالى رحمةً يظلمنا جناحها، ويسهل علينا في هذه العاجلة غدوها ورواحها، فالويل كل الويل لمن بعد عن رحمته بعد أن حصل تحت قدره. فهذا هذا.

ثم إني - أيدك الله - ما أردت أن أجيبك عن كتابك لطول جفائك، وشدة التوائك عمن لم يزل على رأيك مجتهداً في محبتك على قربك ونأيك، مع ما أجده من انكسار النشاط وانطواء الانبساط لتعاود العلل علي وتخاذل الأعضاء مني، فقد كلَّ البصر وانعقد اللسان وجمد الخاطر وذهب البيان، وملك الوسواس وغلب اليأس من جميع الناس، ولكنني حرست منك ما أضعته مني، ووفيت لك بما لم تف به لي، ويعزُّ علي أن يكون لي الفضل عليك، أو أحرز المزية دونك، وما حداني على مكاتبك إلا ما أتمثله من تشوقك إلي وتحرقك علي، وأن الحديث الذي بلغك قد بدد فكرك، وأعظم تعجبك، وحشد عليك جزعك، والأول يقول:

وقد يجزُع المرءُ الجليدُ ويبتلي عزيمةَ رأي المرءِ نائبةَ الدهرِ
تُعاوِذه الأيامُ فيما ينوبه فيقوى على أمرٍ ويضعفُ عن أمرٍ
على أنني لو علمت في أي حال غلب علي ما فعلته، وعند أي مرض وعلى أية عسرة وفاقاة لعرفت من عذري أضعاف ما أبديته، واحتججت لي بأكثر مما نشرته وطويته، وإذا أنعمت النظر تيقنت أن لله جلَّ وعزَّ في خلقه أحكاماً لا يعاثرُ عليها ولا يغالب فيها، لأنه لا يبلغ كنهها ولا يُنال غيبها، ولا يعرف قابها ولا يقرع بابها، وهو تعالى أملك لنواصينا، وأطلع على أذانينا وأقاصينا، له الخلق والأمر، ويده الكسر والجبر، وعلينا الصمت والصبر إلى أن يوارينا اللحد والقبر، والسلام. **إِنَّ سَرَكَ - جعلني الله فداك -** أن تواصلني بخبرك، وتعرفني مقر خطابي هذا من نفسك فافعل، فإني لا أدع جوابك إلى أن يقضي الله تعالى تلاقياً يسر النفس، ويذكر حديثنا بالأمس، أو بفراقٍ نصير به إلى الرمس، ونفقد معه رؤية هذه الشمس، والسلام عليك خاصاً بحق الصفاء الذي بيني وبينك، وعلى جميع إخوانك عاماً بحق الوفاء الذي يجب عليّ وعليك، والسلام.

وكتب هذا الكتاب في شهر رمضان سنة أربعمائة^(١). [اه]

مؤلفاته:

ورغم حرقه لكتبه فقد ترك أبو حيان للمكتبة العربية من مؤلفاته الكثيرة والمتنوعة ما يضعه في مصاف الطبقة الأولى من المثقفين، فهذا ياقوت الحموي يذكر له في معجمه عدة كتب أهمها:

١ - كتاب رسالة الصديق .

٢ - كتاب الرد على ابن جنبي في شعر المتنبي .

٣ - كتاب الإمتاع والمؤانسة [وهو الذي بين أيدينا].

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدياء ص(٢٩٤ - ٢٩٩).

- ٤ - كتاب الإشارات الإلهية .
- ٥ - كتاب الزلفة، أو الزلفى .
- ٦ - المقابسة، (المقابسات) .
- ٧ - كتاب تقرّيز الجاحظ .
- ٨ - كتاب ذم الوزيرين .
- ٩ - كتاب الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي .
- ١٠ - كتاب الرسالة في صلوات الفقهاء في المناظرة .
- ١١ - كتاب الرسالة البغدادية .
- ١٢ - كتاب الرسالة في أخبار الصوفية .
- ١٣ - كتاب الرسالة في الحنين إلى الأوطان .
- ١٤ - كتاب البصائر وهو عشرة مجلدات .
- ١٥ - كتاب المحاضرات والمناظرات .

وهنالك كتب أخرى سوى هذه التي ذكرها ياقوت هي :

كتاب الحوامل والشوامل، ورسائل عدة مثل حكاية أبي القاسم البغدادي،
ورسالة الحياة، ورسالة السقيفة، ورسالة في علم الكتابة، ورسالة في العلوم، ومناظرة
بين أبي بشر متى بن يونس وأبي سعيد السيرافي .

وأما كتبه المطبوعة والمنشورة فهي :

- ١ - رسالة الصديق والصدّاقة .
- ٢ - الإمتاع والمؤانسة .
- ٣ - الإشارات الإلهية .
- ٤ - ثلاث رسائل (العلوم، السقيفة، علم الكتابة) .
- ٥ - البصائر والذخائر .
- ٦ - حكاية أبي القاسم البغدادي .
- ٧ - مما نشره أحمد فارس الشدياق، صاحب «الجوائب» بالأستانة: رسالتان للعلامة
الشهير أبي حيان التوحّيدي، رسالة الصداقة والصديق، ورسالة العلوم سنة ١٨٨٤ .
- ٨ - المقابسات .
- ٩ - مناظرة بين أبي بشر متى بن يونس القبائي وأبي سعيد السيرافي في المنطق اليوناني
والنحو العربي .

- ١٠ - الحوامل والشوامل .
 - ١١ - ذم الوزيرين .
 - ١٢ - رسالة القاضي أبي سهل .
 - ١٣ - رسالة الحياة .
 - ١٤ - رسالة السقيفة .
 - ١٥ - رسالة في علم الكتابة .
- أما كتبه المفقودة فيرجح أنها :
- ١ - رسالة في : الرد على ابن جني في شعر المتنبي .
 - ٢ - رسالة في : الحنين إلى الأوطان .
 - ٣ - رسالة في : صلوات الفقهاء في المناظرة .
 - ٤ - رسالة في : الصوفية .
 - ٥ - رسالة في : أخبار الصوفية .
 - ٦ - رسالة في : البغدادية .

نبذة عن كتاب الإمتاع والمؤانسة

كتاب «الإمتاع والمؤانسة» الذي اضطلع بتحقيقه الأستاذان أحمد أمين وأحمد الزين (والذي تقدمه للقارئ الكريم، اعتماداً على طبعتهما) ظهر على ثلاثة أجزاء صدرت في السنوات ١٩٣٩، و١٩٤٢، و١٩٤٤ على التوالي. وربما كان هذا المؤلف الضخم من أقوم كتب التوحيد، وأنفعها، وأمتعها، خصوصاً وأن الأستاذين المحققين قد عنيا بتصحيح الكتاب ومراجعته، فجاء التصحيح والتحريف فيه على أضييق نطاق. وقد كتب المرحوم أحمد أمين مقدمة قيّمة، روى فيها قصة تأليف التوحيد لهذا الكتاب نذكرها هنا لأهميتها فقال: ولتأليف أبي حيان لهذا الكتاب قصة ممتعة، ذلك أن أبا الوفاء المهندس كان صديقاً لأبي حيان وللوزير أبي عبد الله العارض، فقرب أبو الوفاء أبا حيان من الوزير، ووصله به، ومدحه عنده، حتى جعل الوزير أبا حيان من سُمّاره؛ فسامره سبعاً وثلاثين ليلة كان يحادثه فيها، ويطرح الوزير عليه أسئلة في مسائل مختلفة فيجيب عنها أبو حيان.

ثم طلب أبو الوفاء من أبي حيان أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير من حديث، وذكره بنعمته عليه في وصله بالوزير، مع أنه «أي أبا حيان» ليس أهلاً لمصاحبة الوزراء لقبح هيئته وسوء عاداته وقلة مراته وحقارة لبسته، وهدده إن هو لم يفعل أن يغض عنه، ويستوحش منه، ويوقع به عقوبته، وينزل الأذى به.

فأجاب أبو حيان طلب أبي الوفاء، ونزل على حكمه، وفضل أن يدون ذلك في كتاب يشتمل على كل ما دار بينه وبين الوزير من دقيق وجليل وحلو ومر، فوافق أبو الوفاء على ذلك، ونصحه أن يتوخى الحق في تضاعيفه وأثنائه، والصدق في إيراده، وأن يطنب فيما يستوجب الإطتاب، ويصرح في موضع التصريح.

«فكان من ذلك كتاب الإمتاع والمؤانسة»

من هو الوزير أبو عبد الله العارض الذي سامره أبو حيان؟ لقد بحثت عنه في مظانه فلم أوفق إلى العثور عليه، وقبل ذلك عني المرحوم أحمد زكي باشا بالبحث والسؤال عنه من بعض علماء الشرق والغرب فكان حظه حظي.

وأخيراً رجحت أنه هو الوزير أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان وزير صمصام الدولة البويهية، وقد ورد اسمه هكذا في كل ما راجعت من كتب التاريخ أمثال: (تجارب الأمم) وذيله (وابن الأثير)، ولم يلقيه أحد منهم (بالعارض)؛ وكلمة (العارض) كما في كتاب (الأنساب للسمعاني) معناها: «من يعرف العسكر ويحفظ أرزاقهم، ويوصلها إليهم ويعرضهم على الملك إذا احتيج إلى ذلك» فالظاهر أن الوزير أبا عبد الله لقب هذا اللقب إما لأنه تولى هذا العمل قبل أن يتولى الوزارة، أو كان هذا لقباً لأسرته؛ ودليلي على ذلك أمور:

١ - أنه ورد في صدر هذا الكتاب أن أبا الوفاء ذكر لأبي حيان: أنك لما انكفأت من الرّي إلى بغداد في آخر سنة ٣٧٠ مغيظاً من ابن عباد، وعدتلك صلاح حالك، وأن أوصلك إلى الأستاذ أبي عبد الله العارض، ثم جاء وصف أبي عبد الله هذا بالوزير.

ونحن إذا رجعنا إلى من استوزر فيما بين سنة ٣٧٠ وسنة ٣٧٥ لم نجد وزيراً يكنى بأبي عبد الله إلا الوزير أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان، فقد استوزره صمصام الدولة سنة ٣٧٣ وقلته سنة ٣٧٥.

٢ - جاء في أثناء كتاب «الإمتاع والمؤانسة» أن أبا حيان قص على الوزير أنه سمع رجلاً على جسر بغداد يقول وقد رأى ابن بقية الوزير المشهور مصلوباً بعد أن مات عضد الدولة: «سبحان الله! عضد الدولة تحت الأرض وابن بقية فوق الأرض»، فلما سمع الوزير ذلك قال: استأذنت الملك في دفن ابن بقية فدفن.

وقد ذكر المؤرخون أن ابن بقية دفن في عهد صمصام الدولة؛ ولم يكن لصمصام الدولة وزير يكنى بأبي عبد الله غير ابن سعدان

٣ - ومما يستأنس به أن أبا حيان كان متصلاً بالوزير ابن سعدان وألف له كتاب «الصدقة والصديق» وقد ذكر في أوائله «أن السبب كان في إنشاء هذه الرسالة أني ذكرت شيئاً منها لزيد بن رفاعة أبي الخير، فنامه إلى ابن سعدان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة قبل تحمله أعباء الدولة وتدييره أمر الوزارة حين كانت الأشغال خفيفة، والأحوال على أذلالها جارية، فقال لي ابن سعدان: قد قال لي زيد عنك كذا وكذا. قلت: قد كان ذلك. قال: فدوّن هذا الكلام وصله بصلاته... فجمعت ما في هذه الرسالة». فاتصال أبي حيان بابن سعدان وتأليفه له كتاب «الصدقة والصديق» يرجح الظن بأنه هو أبو عبد الله العارض.

نعم كان من رجال صمصام الدولة من اسمه أبو الحسن بن عمارة العارض استخدمه صمصام الدولة في السفارة بينه وبين أعدائه أحياناً، ولكن يبعد أن يكون هو الذي ألف له كتاب الإمتاع والمؤانسة - لأن كنيته أبو الحسن والذي ألف له الكتاب أبو عبد الله - ولأن أبا الحسن لم يكن وزيراً لصمصام الدولة. وفي الكتاب النص في مواضع متعددة على أنه ألفه لوزير.

٤ - ذكر في كتاب «الإمتاع والمؤانسة» أصدقاء أبي عبد الله العارض وعدد منهم ابن زرعة وأبا الوفاء المهندس ومسكويه والأهوازي وبهرام وابن شاهويه، وأنهم كانوا يلازمونه وأنهم أهل مجلسه، وعدد في كتاب الصداقة والصديق أصدقاء ابن سعدان فإذا هم هم؛ فاتحاد الأصدقاء وتوافقهم واجتماعهم في مجلس وزير يرجح الظن جداً بأن ابن العارض هو ابن سعدان.

٥ - جاء في «كتاب الإمتاع والمؤانسة» أن الوزير سأل أبا حيان عما يقول الناس فيه. فقال له: «سمعت بباب الطاق قوماً يقولون: اجتمع الناس اليوم على الشط، فلما نزل الوزير ليركب الزبذب صاحوا وضجوا وذكروا غلاء القوت وعوز الطعام وتعذر الكسب وغلبة الفقر، وأنه أجابهم بجواب مُرّ مع قطوب الوجه وإظهار التبرم». وهذه الأوصاف كلها تنطبق على ما ذكره أبو شجاع في كتابه: «ذيل تجارب الأمم» عن حادثة جرت لابن سعدان.

وابن سعدان هذا استوزره صمصام الدولة البويهية سنة ٣٧٣ لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة. جاء في كتاب «ذيل تجارب الأمم لأبي شجاع»: «وفيها [أي في سنة ٣٧٣] خُلع على أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان خلع الوزارة - وكان رجلاً باذلاً لعطائه، مانعاً للقاءه، فلا يراه أكثر من يقصده إلا ما بين نزوله من درجة داره إلى زبذبه؛ ومع ذلك فلا يخيب طالب إحسان منه في أكثر مطلبه... فبسط يده في الإطلاقات والصلوات... وأحدث من الرسوم استيفاء العشر من جميع ما تسبب به الأولياء والكتّاب والحواشي من أموالهم... وانضاف إلى ضيق خلقه ما اتفق في وقت نظره من غلاء سعر، فتطيرت العامة ورجموا زبذبه، وشغبوا الديلم عليه، وهجموا على نهب داره، وانتهت الحال إلى ركوب صمصام الدولة إلى مجتمعهم حتى تلافاهم وردّهم».

وقد ظل ابن سعدان في الوزارة إلى سنة ٣٧٥ حتى ظهر له خصم هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، فظل يكيد له وينصب الشباك للإيقاع به.

وحدث أن ابن سعدان أراد أن يعين أباه كاتباً لوالده صمصام الدولة لما مات كاتبها، فقال أبو القاسم لصمصام الدولة: «إن ابن سعدان قد استولى على أمورك، وملك عليك خزائنك وأموالك، فإذا تم له حصول والده مع السيدة حصلنا تحت الحجر معه». وتمت المكيدة ولم يعين أبوه. ثم قبض على ابن سعدان وأصحابه وأودعوا السجن، واستوزر صمصام الدولة هذا الواشي أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، ولم يكتف أبو القاسم بمجلس ابن سعدان فانتهاز فرصة خروج نائر على صمصام الدولة اسمه «أسفار بن كردويه» يريد خلعه، فدس أبو القاسم إلى صمصام الدولة أن ابن سعدان متصل بهذا النائر وأن الذي جرى كان من فعله وتدبيره، وأنه لا

يؤمن ما يتجدد منه في محبسه، فأمر صمصام الدولة بقتله، فقتل سنة ٣٧٥.

وكان لابن سعدان ناحية أخرى علمية أدبية يصورها أبو حيان في كتبه، فهو واسع الاطلاع، له مشاركة جيدة في كثير من فروع العلم من أدب وفلسفة وطبيعة وإلهيات وأخلاق، يدل على ذلك حوارته الذي يحكيه أبو حيان في كتابه الإمتاع والمؤانسة والمقاسبات، فهو يسأل أسئلة عميقة، وينقد الإجابة عنها نقداً قيماً.

وفوق ذلك كان له في وزارته منتدى يجمع كثيراً من جلة العلماء والأدباء منهم ابن زرعة الفيلسوف النصراني، وابن مسكويه صاحب (تهذيب الأخلاق) (وتجارب الأمم)، وأبو الوفاء المهندس الذي ستحدث عنه، وأبو سعد بهرام بن أردشير، ومن الشعراء ابن حجاج الشاعر الماجن المشهور، ومن الكتاب أبو عبيد الخطيب الكاتب، وأبو حيان صاحبنا.

وكان له مجلس شراب يجلس إليه بعض هؤلاء فيتفاكهون ويتنادرون ويذهبون في فنون الحديث كل مذهب، ومجلس جد يتحاورون فيه ويتناقشون في الفلسفة والأخلاق والأدب.

وكان يباهي بمجلسه ويفخر به على مجالس الأمراء المعاصرين له، مثل المهلبي وابن العميد والصاحب بن عباد. فيقول في أصحابه هؤلاء: «ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير، . . . وأن جميع ندماء المهلبي لا يفون بواحد من هؤلاء، وأن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل من فيهم، وأن ابن عباد ليس عنده إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون». فلا عجب - إذن - أن يكون من نتاج ابن سعدان الوزير العالم هذا الكتاب الذي نحن بصده؛ كتاب «الإمتاع والمؤانسة».

وأما أبو الوفاء الذي وصل أبا حيان بابن سعدان والذي ألف أبو حيان له «الإمتاع والمؤانسة» ودون له فيه كل ما دار بينه وبين الوزير في سبع وثلاثين ليلة، فهو محمد بن محمد بن يحيى البوزجاني. ترجم له ابن النديم في (الفهرست) وابن خلكان في (وفيات الأعيان)؛ وقال فيه هذا الأخير: «إنه أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس - وهو القيم بهذا الفن - يبالغ في وصف كتبه، ويعتمد عليها في أكثر مطالعاته ويحتج بما يقوله وكان عنده من تأليفه عدة كتب. . . وكانت ولادته سنة ٣٢٨ بمدينة بوزجان، وقدم العراق سنة ٣٤٨، وتوفي سنة ٣٧٦». وقد ذكر ابن خلكان أنه نقل تاريخ الوفاة هذا من شيخه ابن الأثير. ولكن الذي في ابن الأثير أنه عدّ وفاته في حوادث سنة ٣٨٧، فإما أن ابن خلكان أخطأ في النقل أو أن الناسخ أخطأ في الكتابة.

وكان أبو الوفاء هذا من ندماء ابن سعدان كما تقدم، وقد وصفه ابن سعدان في

جملة ما وصف من أصحابه. فقال: «وأما أبو الوفاء فهو واللّه ما يقعد به عن المؤانسة الطيبة والمساعدة المطربة والمفاكهة اللذيذة والمواتاة الشهية، إلا أن لفظه خراساني، وإشارته ناقصة، هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد، والبغدادى إذا تخرسن كان أعلى وأظرف من الخراساني إذا تبغدد».

إلى هنا رأينا أن الكتاب ألف لأبي الوفاء المهندس، نقل فيه أبو حيان ما دار بينه وبين ابن سعدان. ولكن القفطي في كتابه «أخبار الحكماء» عند ترجمته لأبي سليمان المنطقي أورد كلاماً يناقض ما نقول، سواء في ذلك من ألف له الكتاب، ومن دار الحديث بينه وبين أبي حيان.

فقد ذكر: «أن أبا سليمان كان أعور، وكان به وَضَح، وكان ذلك سبب انقطاعه عن الناس ولزومه منزله، فلا يأتيه إلا مستفيد وطالب علم، وكان يشتهي الإطلاع على أخبار الدولة وعلم ما يحدث فيها... وكان أبو حيان التوحيدي من بعض أصحابه المعتمدين به، وكان يغشى مجالس الرؤساء ويطلع على الأخبار، ومهما عَلِمه من ذلك نقله إليه وحاضره به، ولأجله صنف كتاب «الإمتاع والمؤانسة» نقل له فيه ما كان يدور في مجلس أبي الفضل عبد اللّه بن العارض الشيرازي عندما تولى وزارة صمصام الدولة بن عضد الدولة». وأنا أرجح خطأ القفطي في الوجهين معاً.

فأما في الأول: فإن النسخة التي بيدي تذكر أنه ألفه لأبي الوفاء المهندس لا لأبي سليمان المنطقي. ويقول في صدر الكتاب: إنه ألفه رداً لجميل أبي الوفاء إذ كان هو الذي أوصله لأبي عبد اللّه. وعندما يأتي ذكر أبي الوفاء في ثنايا الكتاب، ويسأل أبو عبد اللّه أبا حيان عن رأيه فيه يمدحه ويشني عليه، ويقول: كيف أذمه وهو الذي أوصلني بك، وقد سبق أن أثبتنا أن أبا الوفاء كان من ندماء أبي عبد اللّه.

ودليل آخر، وهو أن أبا حيان في بعض كلامه في الكتاب يستجدي من ألف له الكتاب، وقد كان أبو الوفاء المهندس في منزلة تسمح له بذلك، فإنه رجل جليل القدر يلقبه الوزير بشيخنا. أما أبو سليمان فكان فقيراً كما ذكر ذلك أبو حيان في هذا الكتاب، وكانت صلة أبي حيان به صلة علمية لا صلة مالية، فمن البعيد جداً أن يستجديه أبو حيان.

ودليل ثالث: وهو أن الوزير أبا عبد اللّه سأل أبا حيان في الكتاب عن أبي سليمان هذا، فذكر له أوصافه، وفيها ما عو عيب لأبي سليمان كقوله: إنه يجتمع مع قوم للشراب، ويذكر بعضهم الوزير بالسوء، فلو كان أبو حيان ألفه لأبي سليمان لكان بعيداً كل البعد أن يذكر هذا الحديث.

ودليل رابع: وهو أن أبا حيان ينقل في كتابه هذا عن أبي سليمان، ويذكر آراءه،

وينقل بعض رسائله إلى الوزير، ولو كان يؤلف الكتاب لأبي سليمان لاستغنى عن ذكر ما يعرفه أبو سليمان عن نفسه من أقواله ورسائله، ولكان أبو حيان في ذلك كمن ينقل إلى البئر ماء، وإلى الكنز ذهبه، وهذا غير مألوف ولا مستساغ.

لهذا كله نرجح خطأ القفطي فيما ذهب إليه من أنه ألفه لأبي سليمان المنطقي. كما نرجح خطأه في الشق الثاني، وهو أن أبا حيان دوّن فيه ما كان يدور بينه وبين أبي الفضل عبد الله بن العارض الشيرازي وزير صمصام الدولة.

ذلك لأن النسخة التي بين أيدينا يذكر فيها أبو حيان أنه دوّن فيه ما دار بينه وبين أبي عبد الله العارض لا أبي الفضل عبد الله بن العارض. وقد راجعنا كتب التاريخ التي بين أيدينا وأحصينا فيها من تولى الوزارة لصمصام الدولة، فلم نجد من بينهم أبا الفضل عبد الله بن العارض الشيرازي الذي ذكره القفطي وكما تقول دائرة المعارف الإسلامية في مادة أبي حيان تبعاً له.

نعم رأينا من يسمي أبا الفضل الشيرازي، وكان يعيش في هذا العصر ولكن اسمه أبو الفضل محمد بن عبد الله بن المرزبان الشيرازي لا أبو الفضل عبد الله الشيرازي كما يقول القفطي. وكان هذا كاتباً لا وزيراً، وكان صديقاً لأبي علي المحسن التنوخي، ونقل عنه كثيراً في كتابه «نشوار المحاضرة» ولقبه الكاتب لا الوزير. والذي ألف له الإمتاع والمؤانسة وزير لا كاتب.

يضاف إلى ذلك ما ذكرنا قبل من البراهين.

فالكاتب - في رأينا - كتب لأبي الوفاء المهندس لا أبي سليمان المنطقي ودون فيه ما دار في مجلس ابن سعدان لا أبي الفضل الشيرازي.

وصف الكتاب: قال القفطي في وصفه: «وهو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم، فإنه خاض كل بحر، وغاص كل لجة، وما أحسن ما رأيت على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو: ابتدأ أبو حيان كتابه صوفياً وتوسطه محدثاً، وختمه سائلاً ملحفاً»^(١).

قسم أبو حيان كتابه إلى ليال، فكان يدون في كل ليلة ما دار فيها بينه وبين الوزير على طريقة قال لي وسألني وقلت له وأجبتة. وكان الذي يقترح الموضوع دائماً هو الوزير. وأبو حيان يجيب عما اقترح، وكان الوزير يقترح أولاً موضوعاً حسبما اتفق ويتنظر الإجابة؛ فإذا أجاب أبو حيان أثارت إجابته أفكاراً ومسائل عند الوزير فيستطرد إليها ويسأله عنها، فقد يسأل سؤالاً يأتي في أثناء الإجابة عنه ذكر لابن عباد أو ابن العميد أو

(١) أخبار الحكماء للقفطي، ص ٢٨٣.

أبي سليمان المنطقي، فيسأله الوزير عنهم وعن رأيه فيهم، وهكذا، يستطرد من باب لباب، حتى إذا انتهى المجلس كان الوزير يسأله غالباً أن يأتيه بطرفة من الطرائف يسميها غالباً: «ملحة الوداع» فيقول الوزير - مثلاً -: إن الليل قد دنا من فجره، هات ملححة الوداع. وهذه الملححة تكون - عادة - نادرة لطيفة أو أبياتاً رقيقة، وأحياناً يقترح الوزير أن تكون ملححة الوداع شعراً بدوياً يشم منه رائحة الشيخ والقيصوم وهكذا.

وأحياناً يكلفه الوزير أن يتم له المسألة المعروضة في رسالة؛ فقد سأله مرة عن المصادر التي تجيء على وزن تفعال، فأجابه أبو حيان عن بعضها، ثم طلب منه الوزير أن يجمع له ما جاء في اللغة منها.

وأحياناً يتخذ الكلام شكل حوار. فأبو حيان - مثلاً - يروي عن ديوجانيس أنه سئل: متى تطيب الدنيا؟. فقال: «إذا تفلسف ملوكها، وملك فلاسفتها»؛ فلم يرض الوزير عن هذا، وقال: إن الفلسفة لا تصح إلا لمن رفض الدنيا وفرغ نفسه للدار الآخرة؛ فكيف يكون الملك رافضاً للدنيا وقالياً لها، وهو محتاج إلى سياسة أهلها، والقيام عليها باجتلاب مصالحها ونفي مفسادها! - وأطال في ذلك - وفي كثير من الأحيان يعلق الوزير على إجابة أبي حيان بالاستحسان أو الاستهجان مع ذكر أسباب ذلك.

وأحياناً يطلب إليه الوزير أن يحضّر له رسالة في موضوع، ثم يتلوها عليه في جلسة مقبلة كما فعل مرة، إذ كلفه أن يكتب له في المجون والملح، ففعل أبو حيان وقرأها عليه في مجلس. قال أبو حيان: «فلما قرأتها على الوزير قال: ما علمت أن مثل هذا الحجم يحوي هذه الوصايا والملح». وأونة يثير الوزير مسائل أشكلت عليه في اللغة والفلسفة والاجتماع يعرضها على أبي حيان ويطلب منه الجواب فيفعل.

ويحدث أحياناً أن الوزير يدفع لأبي حيان برقعة فيها أسئلة يطلب إليه أن يفكر في الإجابة عنها، ويتصل بغيره من العلماء ليأخذ رأيهم فيها؛ كما حدث مرة أنه دفع إليه رقعة بخطه فيها مطالب، وقال: باحث عنها أبا سليمان وأبا الخير، ومن تعلم أن في محاورته فائدة. وكان في الرقعة أسئلة منها عن الروح وصفته ومنفعته، وما المانع أن تكون النفس جسماً أو عرضاً أو هباءً؛ وهل تبقى؟ وإن كانت تبقى فهل هي تعلم ما كان الإنسان فيه ههنا... الخ. ويقول الوزير في آخر هذه الرقعة: «إن هذا وما أشبهه شاغل لقلبي وجاثم في صدري، ومعترض بين نفسي وفكري، وما أحب أن أبوح به لكل أحد»؛ ويأمره بأن يكتب خطه فإن أراد أن يعرض هذه المسائل مكتوبة على أبي سليمان فلينسخها بخطه هو. ثم سأل أبو حيان أبا سليمان وذكر إجابته عنها ونقلها إلى الوزير، وعلى هذا النمط يجري تأليف الكتاب.

وموضوعات الكتاب متنوعة تنوعاً ظريفاً لا تخضع لترتيب ولا تبويب، إنما

تخضع لخطرات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث . حتى لنجد في الكتاب مسائل من كل علم وفن؛ فآداب وفلسفة وحيوان ومجون وأخلاق وطبيعة وبلاغة وتفسير وحديث وغناء ولغة وسياسة وتحليل شخصيات لفلاسفة العصر وأدبائه وعلمائه وتصوير للعادات وأحاديث المجالس، وغير ذلك مما يطول شرحه .

فلما أراد أبو حيان أن يدوّن لأبي الوفاء ما دار بينه وبين الوزير زاد فيه ونمق الحديث . وكان يدوّن جزءاً ويرسله إلى أبي الوفاء ويتبعه بجزء آخر وهكذا . . .

وحدث هو نفسه عن ذلك كله في أول الجزء الثاني فقال: «قد فرغت من الجزء الأول على ما رسمت لي القيام به، وشرفنتني بالخوض فيه، وسردت في حواشيه أعيان الأحاديث التي خدمت بها مجلس الوزير، ولم آل جهداً في روايتها وتقويمها، ولم أجنح إلى تعمية شيء منها، بل زبرجت كثيراً بناصع اللفظ مع شرح الغامض، وصلته المحذوف، وإتمام المنقوص، وحملته إليك على يد «فائق» الغلام، وأنا حريص على أن أتبعه بالجزء الثاني، وهو يصل إليك في الأسبوع إن شاء الله .

وقد خاف أبو حيان من بعض ما ورد في الكتاب؛ فإنه في حديثه مع الوزير عاب أشخاصاً من رجالات الدولة الذين يستطيعون إيذائه، فرجا أبو الوفاء أن يحفظ هذا الكتاب سراً، فقال: «وأنا أسألك ثانية على طريق التوكيد كما سألتك على طريق الاقتراح أن تكون هذه الرسالة مصونة عن عيون الحاسدين العيايين، بعيدة عن تناول أيدي المفسدين المنافسين، فليس كل قائل يسلم، ولا كل سامع ينصف» .

وقد أنجز أبو حيان وعده، وأرسل إليه الجزء الثاني على يد غلامه فائق أيضاً . ثم أرسل إليه الجزء الثالث وهو الأخير، وقال في أوله:

«قد أرسلت إليك الجزءين الأول والثاني . وهذا الجزء - وهو الثالث قد والله ألقيت فيه كل ما في نفسي من جد هزل، وغث وسمين، وشاحب ونضير، وفكاهة وأدب، واحتجاج واعتذار . . . ولأنه آخر الكتاب ختمته برسالة وصلتها بكلام في خاص أمري» .

وعلى هذا الوضع ينتهي الكتاب .

ولست أستبعد أن يكون أبو حيان قد تزيد فيه، واخترع أشياء لم تجر في مجلس الوزير، فقد عرف عنه أمثلة من هذا القبيل، فقد اتهمه العلماء من قبل ومنهم ابن أبي الحديد بأنه وضع الرسالة المشهورة المعزوة إلى أبي عبيدة على لسان أبي بكر وعمر في حق علي بن أبي طالب، ولعل هذا التزيد كان من ضمن الأسباب التي دعت أن يرجو أبا الوفاء في أن يكون الكتاب سراً، فإنه أَلَّفَ الكتاب في حياة الوزير، وخشي أن الوزير يطلع عليه فيعلم مقدار ما تزيد .

أما أنه ألفه في حياة الوزير، فالدليل عليه ما جاء في نسخه ميلانو: «أنشئت هذه الرسالة في رجب سنة ٣٧٤» والوزير ابن سعدان ظل وزيراً من سنة ٣٧٣ إلى سنة ٣٧٥ كما تقدم^(١).

* * *

- (١) انتهى النقل عن الأستاذ أحمد أمين من مقدمته لكتاب الإمتاع والمؤانسة .
- (*) اعتمدنا في ترجمة المؤلف على كتاب: أبو حيان التوحيدي، للدكتور زكريا إبراهيم، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة.
- ولمزيد الاطلاع، تراجع مصادر ترجمة أبي حيان.
- ياقوت الحَمَوِي: «معجم الأدباء»، ١ - ٢٠، تحقيق: أحمد فريد رفاعي، القاهرة ١٩٣٦، ١٥ : ٥ - ٥٢.
- ابن خَلْكَان: «وفيات الأعيان»، ١ - ٨، تحقيق: إحسان عباس، بيروت - دار صادر ١٩٦٧ - ١٩٧٣، ٥ : ١١٢ - ١١٣.
- النَّوَوِي: «تهذيب الأسماء واللغات»، ١ - ٤، القاهرة ٢ : ٢٢٣.
- الدَّهْبِي: «سير أعلام النبلاء»، ١ - ٢٥، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرين، بيروت - مؤسسة الرسالة ١٧ : ١١٩ - ١٢٣.
- «ميزان الاعتدال»، ١ - ٤، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٤، ٤ : ٥١٨.
- السُّبْكِي: «طبقات الشافعية الكبرى»، ١ - ١٠، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة - هجر للطباعة والنشر ١٩٩٣، ٥ : ٢٨٦ - ٢٨٩.
- الصَّفْدي: «الوافي بالوفيات»، ١ - ١٨، ٢١ - ٢٤، تحقيق: مجموعة من العلماء، بيروت - نشرات الإسلامية - ٦، ١٩٤٩ - ١٩٩٢، ٢٢ : ٣٩ - ٤١.
- الإسنوي: «طبقات الشافعية»، ١ - ٢، تحقيق: عبد الله الجبوري، بغداد - وزارة الأوقاف ١٣٩٠هـ، ١ : ٣٠١ - ٣٠٣.
- ابن حجر العسقلاني: «لسان الميزان»، ١ - ٦، الهند - حيدر آباد الدكن، ٦ : ٣٦٩ - ٣٧٢.
- السُّيوطي: «بغية الوعاة»، القاهرة ١٣٢٦هـ، ٣٤٨ - ٣٤٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال أبو حَيَّانَ التُّوحِيدِيّ: نجا من آفات الدنيا من كان من العارفين ووصلَ إلى خيرات الآخرة من كان من الزاهدين، وظَفِرَ بالفوز والنعيم مَنْ قَطَعَ طَمَعَهُ مِنَ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، والحمد لله رب العالمين، وصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِينَ.

أما بعد؛ فَإِنِّي أَقُولُ مِنْبَهًا لِنَفْسِي، ولَمَنْ كَانَ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِي: مَنْ لَمْ يُطْعَ نَاصِحَهُ بِقَبُولِ مَا يَسْمَعُ مِنْهُ، وَلَمْ يُمَلِّكْ صَدِيقَهُ كُلَّهُ فِيمَا يَمْتَلِكُهُ كُلَّهُ، وَلَمْ يَتَّقِدْ لِيَبَانِهِ فِيمَا يُرِيدُهُ^(١) إِلَيْهِ وَيُطْلِعُهُ عَلَيْهِ؛ وَلَمْ يَرَ أَنَّ عَقْلَ الْعَالِمِ الرَّشِيدِ، فَوْقَ عَقْلِ الْمُتَعَلِّمِ الْبَلِيدِ؛ وَأَنَّ رَأْيَ الْمَجْرُبِ الْبَصِيرِ، مُقَدِّمٌ عَلَى رَأْيِ الْعَمْرِ^(٢) الْغَرِيرِ فَقَدْ حَسِرَ حَظَّهُ فِي الْعَاجِلِ، وَلَعَلَّهُ أَيْضًا يَخْسِرُ حَظَّهُ فِي الْآجِلِ؛ فَإِنَّ مَصَالِحَ الدُّنْيَا مَعْقُودَةٌ بِمَرَاشِدِ الْآخِرَةِ، وَكَلِيَّاتِ الْحَسَنِ فِي هَذَا الْعَالَمِ، فِي مَقَابِلَةِ مَوْجُودَاتِ الْعَقْلِ فِي ذَلِكَ الْعَالَمِ؛ وَظَاهِرٌ مَا يُرَى بِالْعِيَانِ مُفْضٍ إِلَى بَاطِنٍ مَا يَصْدُقُ عَنْهُ الْخَبَرُ؛ وَبِالْجَمْلَةِ، الدَّارَانِ مُتَّفَقَتَانِ فِي الْخَيْرِ الْمَغْتَبَطِ بِهِ، وَالشَّرِّ الْمَنْدُومِ عَلَيْهِ؛ وَإِنَّمَا يَخْتَلِفَانِ بِالْعَمَلِ الْمُتَقَدِّمِ فِي إِحْدَاهُمَا، وَالْجِزَاءِ الْمُتَأَخِّرِ فِي الْآخَرِي؛ وَأَنَا أَعُوذُ بِاللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْجَبَّارِ الْعَزِيزِ الْكَرِيمِ الْمَاجِدِ أَنْ أَجْهَلَ حَظِّي، وَأَعْمَى عَنِ رُشْدِي، وَأَلْقِي بِيَدِي إِلَى الشَّهْلُكَةِ، وَأَتَجَانَّفَ إِلَى مَا يَسُوءُنِي أَوْلَا وَلَا يَسْرُنِي آخِرًا؛ هَذَا وَأَنَا فِي ذَيْلِ الْكُهُولَةِ وَبَادِئَةِ الشَّيْخُوخَةِ، وَفِي حَالٍ مَنْ إِنْ لَمْ تَهْدِهِ التَّجَارِبُ فِيمَا سَلَفَ مِنْ أَيَّامِهِ، فِي حَالِي سَفَرِهِ وَمُقَامِهِ؛ وَفَقْرِهِ وَغِنَائِهِ، وَشِدَّتِهِ وَرَخَائِهِ، وَسَرَائِهِ وَضُرَائِهِ، وَخَيْفَتِهِ وَرَجَائِهِ؛ فَقَدْ انْقَطَعَ الطَّمَعُ مِنْ فَلَاحِهِ وَوَقَعَ الْيَأْسُ مِنْ تَدَارُكِهِ وَاسْتِصْلَاحِهِ؛ فَإِلَى اللَّهِ أَفْرَعُ مِنْ كُلِّ رَيْبٍ وَعَجَلٍ، وَعَلَيْهِ أَتَوَكَّلُ فِي كُلِّ سَوْءٍ وَأَمَلٍ، وَإِيَّاهُ أَسْتَعِينُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ.

قد فهمتُ أَيُّهَا الشَّيْخُ^(٣) - حَفِظَ اللَّهُ رُوحَكَ، وَوَكَّلَ السَّلَامَةَ بِكَ، وَأَفْرَغَ الْكَرَامَةَ عَلَيْكَ، وَعَصَبَ كُلِّ خَيْرٍ بِحَالِكَ، وَحَشَدَ كُلِّ نِعْمَةٍ فِي رِحَابِكَ وَرَجِمَ هَذِهِ الْجَمَاعَةَ الْهَائِلَةَ - مِنْ أَبْنَاءِ الرَّجَاءِ وَالْأَمَلِ - بِعِنَايَتِكَ، وَلَا قَطْعَكَ مِنْ عَادَةِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَلَا

(١) يريدُه ويطلبُه.

(٢) مَنْ لَمْ يَجْرِبِ الْأُمُورَ وَالْجَاهِلِ الْأَبْلَهَ.

(٣) يريدُه به أبا الوفا المهندس.

ثَنِي طَرْفَكَ عَنِ الرَّقَّةِ لَهُمْ، وَلَا زَهْدَكَ فِي اصْطِنَاعِ حَالِيهِمْ وَعَاطِلِيهِمْ، وَلَا رَغْبَ بكَ عَنِ قَبُولِ حَقِّهِمْ لِبَعْضِ بَاطِلِهِمْ، وَلَا ثَقْلَ عَلَيْكَ إِدْنَاءَ قَرِيبِهِمْ وَبَعِيدِهِمْ، وَإِنَّا لَمَسْتَحَقُّهُمْ وَغَيْرِ مَسْتَحَقُّهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا فِي نَفْسِهِمْ وَأَقْصَى مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ مَوَاسَاتِهِمْ، مِنْ بَشْرِ تَبْدِيهِ، وَجَاهِ تَبْدَلِهِ، وَوَعْدِ تَقْدُمِهِ، وَضَمَانِ تَوْكُّدِهِ، وَهَشَاشَةِ تَمَرُّجِهَا بِبِشَاشَةِ، وَتَبَسُّمِ تَخْلُطِهِ بِفُكَاةِهَا فَإِنَّ هَذِهِ كُلُّهَا زَكَاةُ الْمَرْوَةِ، وَرِبَاطُ التَّعْمَةِ، وَشَهَادَةُ بِالْمَحْتَدِ الزَّكِيِّ وَالْعِرْقِ الطَّيِّبِ وَالْمَنْشَأِ الْمَحْمُودِ، وَالْعَادَةِ الْمَرْضِيَّةِ؛ وَهِيَ مُؤَذِّنَةٌ بِأَنَّ الْمِنْحَةَ رَاهِنَةٌ^(١)، وَالْمَوْهَبَةُ قَاطِنَةٌ، وَالشُّكْرُ مَكْسُوبٌ، وَالْأَجْرُ مَذْخُورٌ، وَرِضْوَانُ اللَّهِ وَاقِعٌ؛ وَأَسْأَلُ اللَّهَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ أَلَّا يُسْهِمَ^(٢) وَجْهِي عِنْدَكَ، وَلَا يُزِلَّ قَدَمِي فِي خِدْمَتِكَ، وَلَا يُزَيِّعَنِي^(٣) إِلَى مَا يَقْطَعُ مَادَّةَ إِحْسَانِكَ وَعَائِدَةَ رَأْيِكَ وَنَافِعَ نَيْتِكَ وَجَمِيلَ مَعْتَقِدِكَ، بِمَنِّهِ وَلَطْفِهِ.

فَهَمْتُ جَمِيعَ مَا قَلْتَهُ لِي بِالْأَمْسِ فَهَمًّا بَلِيغًا، وَوَعِيْتَهُ وَغَيًّا تَامًا؛ وَبَانَ لِي الرُّشْدُ فِي جَمَلِيَّتِهِ وَتَفْصِيلِهِ، وَالصَّلَاحُ فِي طَرْفِيهِ وَوَسْطِهِ، وَالغَنِيمَةُ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، وَالشَّفِيقَةُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ. وَأَنَا أَعِيدُهُ هَهُنَا بِالْقَلَمِ، وَأَرَسُمُهُ بِالخَطِّ وَأَقْيِدُهُ بِاللِّفْظِ، حَتَّى يَكُونَ اعْتِرَافِي بِهِ أَرْسَى وَأَثْبَتَ، وَشَهَادَتِي عَلَى نَفْسِي أَقْوَى وَأَوْكَدَ، وَنُكُولِي عَنْهُ أَبْعَدَ وَأَصْعَبَ، وَحُكْمُكَ بِهِ لِي وَعَلَيَّ أَمْضَى وَأَنْفَذَ.

قَلْتَ لِي - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى تَوْفِيقَكَ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، وَفِي كُلِّ رَأْيٍ وَنَظَرٍ - :
إِنَّكَ تَعْلَمُ يَا أَبَا حَيَّانَ أَنَّكَ انْكَفَأْتَ مِنَ الرَّيِّ إِلَى بَغْدَادَ فِي آخِرِ سَنَةِ سَبْعِينَ بَعْدَ فُوتِ مَأْمُولِكَ مِنْ ذِي الْكِفَايَتَيْنِ^(٤) - نَضَرَ اللَّهُ وَجْهَهُ - عَاتِبًا عَلَى ابْنِ عَبَادٍ^(٥) مَغِيظًا مِنْهُ، مَقْرُوحَ الْكَبِدِ، لَمَّا نَالَكَ بِهِ مِنَ الْجِرْمَانِ الْمُرِّ، وَالصَّدِّ الْقَبِيحِ، وَاللِّقَاءِ الْكَرِيهِ، وَالْجَفَاءِ الْفَاحِشِ، وَالْقَدْعِ^(٦) الْمَوْلَمِ وَالْمَعَامَلَةِ السَّيِّئَةِ، وَالتَّغَافُلِ عَنِ الثَّوَابِ عَلَى الْخِدْمَةِ، وَحَبْسِ الْأَجْرَةِ عَلَى التَّنْخِصِ وَالْوَرِاقَةِ، وَالتَّجَهُمِ الْمَتَوَالِي عِنْدَ كُلِّ لِحْظَةٍ وَلَفْظَةٍ.

وَذَكَرْتَ فِي الْجُمْلَةِ شِقَاءَ اتِّصَالِ بكَ فِي سَفَرِكَ ذَلِكَ، وَعِنَاءَ نَالِ مَنْكَ فِي عُرْضِ^(٧) أَحْوَالِكَ؛ وَلَعَمْرِي إِنَّ السَّفَرَ فَعُولٌ لِهَذَا كُلِّهِ وَلَا أَكْثَرَ مِنْهُ؛ فَأَرَعَيْتِكَ بِصُرِي، وَأَعْرَتِكَ سَمْعِي، وَسَاهَمْتِكَ فِي جَمِيعِ مَا وَقَرْتَهُ فِي أَدْنَى الْجَزَعِ وَالتَّوَجُّعِ وَالتَّاسِطِ

(١) أي دائمة.

(٢) أي تغيّر الحال، والسهوم تغيّر الوجه وعبوسه من الهم.

(٣) يعيلني.

(٤) ذو الكفایتین: لقب لأبي الفتح علي بن أبي الفضل محمد المعروف بابن العميد.

(٥) وابن عبادة: هو الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن أبي الحسن عباس ولد سنة ٣٢٦هـ. وتوفي

سنة ٣٨٥هـ.

(٦) المنع والزجر.

(٧) أي أكثر أحوالك.

والتفجّع؛ وضمّنتُ لك تلافِي ذلك كلّه بحاقٍ^(١) الشفقة وخالصِ الضمير، ووعدتُك صلاحَ الحال عن ثباتِ النية، وصحةِ العقيدة، وقلتُ: أنا أرعى حقك القديم حين التقينا (بأرجان)، وأنا على باب (ابن شاهويه) الفقيه، وعهدك الحديث حين اجتمعنا بمدينة السلام سنة ثمان وخمسين؛ وأوصلُك إلى الأستاذ أبي عبد الله العارض - أدام الله تأييده - وأخطب لك قبولاً منه، وتخفيفَ الإذن عليك، وامتلاءَ الطُرف بك، ونيلَ الخطوة بخدمتك وملازمتك؛ وفعلتُ ذلك كلّه حتى استكتبتُك (كتاب الحيوان) لأبي عثمان الجاحظ، لعنايتك به، وتوفُّرك على تصحيحه، ثم حَضنتُ^(٢) لك هذه الحال إلى يومنا هذا؛ وهو الوزير العظيم الذي افتقرت الدولة إلى نظره وأمره ونهيه، وإلى أن يكون هو المُبرِّم والناقض، والرافع والواضع، والكافي والوافي، والمقرب لخدمتها ونصائحتها، والمزحزح لحسدتها وأعدائها؛ والراعي لرعيّتها ودَهْمائها، والناهض بأثقالها وأعبائها، أعانه الله على ما تولاه، وكفاه المهمّ في دنياه وأخراه، بمته وقدرته.

نعم، وربّبت ذلك كلّه، ولم أقطع عنك عادتِي معك في الاسترسال والانبساط، والبر والمواساة، والمساعدة والمواتاة، والتعصّب والمحاماة.

أفكان من حقّي عليك في هذه الأسباب التي ذكرتها، وفي أخواتها التي تركتها كراهةَ الإطالة بها؛ أنّك تخلو بالوزير - أدام الله أيامه - ليالي متتابعةً ومختلفة، فتحدّثه بما تحبّ وتريد، وتُلقي إليه ما تشاء وتختار، وتكتبُ إليه الرُّقعةَ بعد الرُّقعة؛ ولعلّك في عُرضِ ذلك تعدو طُورك بالتشّدق وتجوّزُ حدّك بالاستحقار، وتتطاوُل إلى ما ليس لك، وتغلطُ في نفسك، وتَسسى زلةَ العالم، وسقطةَ المتحرّري، وخجلةَ الواثق؛ هذا وأنت غرّ لا هيئةَ لك في لقاء الكُبراء، ومحاورةِ الوزراء؛ وهذه حالٌ تحتاج فيها إلى عادة غير عادتك، وإلى مِرانٍ سوى مِرانك، وليسّةٍ لا تشبه لبستك؛ وقَلّ مَنْ قُرّب من وزيرٍ خدَم فأجاد، وتكلّم فأفاد، وبُسط فزاد؛ إلاّ سَكِر، وقَلّ مَنْ سَكِر إلاّ عثر وقَلّ من عثر فانتعش، وما زهد في هذه الحال كثيرٌ من الحكماء الأولين والعُباد الرّبانين؛ إلاّ لغلظها وصعوبتها، ومكروه عاقبتها، وشدة الصبر على عوارضها ورواتبها، وتفسُّخ^(٣) المتن^(٤) بين حوادثها ونوائبها.

والعجب أنك مع هذه الخلة تظنّ أنها مطويةٌ عني وخافيةٌ دوني، وأنك قد بلغت الغاية وادعَ القلب، وملكتَ المكانةَ ثاني العنان؛ وقد انقطعتُ حاجتُك عني وعمن هو

(١) أي صادق الشفقة وكاملها.

(٢) أي كفلتها لك وحفظتها عليك.

(٣) أي الضعف والعجز عن النهوض.

(٤) أي الظهر.

دونني، ووقع الغنى عن جاهي وكلامي ولطفي وتوصيلي؛ وجهلت أن من قدر على وُصولك، يقدر على فصولك^(١)، وأن من صعد بك حين أراد، ينزل بك إذا شاء، وأن من يُحسِن فلا يُشكر، يجتهد في الاقتصاد حتى يُعذر.

وبعد، فما أطيل، ولعلَّ لهبَ المَوجِدَة يزداد، ولسانَ الغيظ يغلو، وطباعَ الإنسان تحتد، والندم على ما أسلفت من الجميل يتضاعف؛ ولست أنت أول من برَّ فعق، ولا أنا أول من جُفيَ ففق. وهذا فراقٌ بيني وبينك وأخرُ كلامي معك، وفاتحةٌ يأسي منك؛ قد غسلت يدي من عهدك بالأشنان البارقي، وسلوت عن قربك بقلب معرض وعزم حي؛ إلا أن تطلعني طلع جميع ما تحاورتما وتجادبتما هُذب الحديث عليه، وتصرفتما في هزله وجده، وخيره وشره، وطيبه وخبيثه، وباديه ومكتومه؛ حتى كأني كنتُ شاهداً معكما ورقيباً عليكما، أو متوسطاً بينكما، ومتى لم تفعل هذا، فانتظر عُقبى استيحاشي منك، وتوقَّع قلةً عُفولي عنك، وكأني بك وقد أصبحت حِران حيران يا أبا حيان، تأكل أصبعك أسفاً، وتزدردُ ريقك لهفاً، على ما فاتك من الحوطة لنفسك، والنظر في يومك لغدك، والأخذ بالوثيقة في أمرك، أتظنن بغراتك وغمارتك، وذهابك في فُسولتك^(٢) التي اكتسبتها بمخالطة الصوفية والغرباء والمجتدين الأدياء الأردباء؛ أنك تقدر على مثل هذه الحال، وأنام منك على حسن الظن بك، والثقة بصدرك ووردك، وأطمئن إلى حركك وجردك وأتعامى عن حرك وبردك؛ هيهات؛ رقدت فحلمت، فخييراً رأيت وخيراً يكون.

على هذا الحد كان مقطع كلامك في موجدتك، وإلى هنا بلغ فيض عتبك ولائمتك؛ وفي دون ذلك تنبيه للنائم، وإيقاظ للساهي، وتقويم لمن يقبل التقويم؛ وقد قال الأول:

ألا إنما يكفي الفتى عند زيغِه من الأود البادي ثقاف المقوم
فقلت لك: أنا سامع مطيع، وخادم شكور، لا أشترى سخطك بكل صفراء
وبيضاء^(٣) في الدنيا؛ ولا أنفر من التزام الذنب والاعتراف بالتقصير؛ ومثلي يهفو
ويجمح، ومثلك يعفو ويصفح؛ وأنت مولئ وأنا عبد، وأنت أمر وأنا مؤتمر، وأنت
متمثل وأنا ممثّل، وأنت مصطنع وأنا صنيعة، وأنت منشي وأنا مُنشأ، وأنت أول وأنا
آخر، وأنت مأمول وأنا أمل، ومتى لم تغفر لي الذنب البكر، والجنابة العذراء،
والبادرة النادرة؛ فقد أعنتني على ما كان مني، ودللت على مللك لي؛ وأنت كنت
مترصداً لهذه الهفوة ومعتقداً في مقابلتها هذه الجفوة؛ وكرمك يأبى عليك هذا،
ومثولي بين يديك خدمةً لك يحظره عليك.

(١) أي خروجك من عند الوزير.

(٢) الغرارة: الغفلة، والغمارة: الجهل والبلاهة، والفسولة: الضعف والخسة وقلة المروءة.

(٣) أي الذهب والفضة.

هذا وأنا أفعل ما طالبتني به مِنْ سَرْدٍ جميع ذلك، إلا أنّ الخوض فيه على البديهة في هذه الساعة يَشْتَقُّ ويصعبُ بعقب ما جرى من التفاوض، فإن أذِنْتَ جمعته كلّه في رسالة تشتمل على الدقيق والجليل، والحلو والمُرّ، والطريّ والعاسي، والمحبوب والمكروه.

فكان مِنْ جوابك لي: افعل. ونعم ما قلت وهو أَحَبُّ إِلَيَّ وأقربُ إلى إرادتي، وأخَصَرُ لما أريغُ^(١) منه، وأدخُلُ في الحجّة عليك ولك؛ وأغسَلُ للوسخ الذي بيني وبينك، وأزهَرُ للسراج الذي طَفَى عني وعنك، وأجذبُ لعنان الحجّة إن كانت لك، وأنطقُ عن العذر إن اتّضح بقولك؛ وإذا عزمْتَ فتوكل على الله؛ وليكن الحديثُ على تباعد أطرافه، واختلافِ فنونه مشروحاً، والإسنادِ عالياً متصلاً، والامتِنُ تاماً بيتناً، واللفظُ خفيفاً لطيفاً، والتصريحُ غالباً متصدراً، والتعريضُ قليلاً يسيراً وتَوَخَّ الحقُّ في تضاعيفه وأثناؤه، والصدقُ في إيضاحه وإثباته؛ واتقِ الحذفَ المُخِلَ بالمعنى، والإلحاقَ المتصلَ بالهذر، واحذرْ تزيينه بما يشينه، وتكثيره بما يقلّله، وتقليله عمّا لا يُستغنى عنه؛ واعمدْ إلى الحَسَنِ فزد في حُسنه، وإلى القبيحِ فانقُص من قبحه؛ واقصد إمتاعي بجمعة نظمه ونثره، وإفادتي من أوّله إلى آخره؛ فلعلّ هذه المثاقفة^(٢) تَبْقَى وتُروى، ويكون في ذلك حُسنُ الذكري؛ ولا تُومئْ إلى ما يكون الإفصاحُ عنه أحلى في السمع، وأعدبُ في النفس، وأعلّقْ بالأدب؛ ولا تُفصِحْ عمّا تكون الكنايةُ عنه أسترَ للعيب، وأنقى للريب؛ فإنّ الكلامَ صَليفاً تَيّاه لا يستجيب لكل إنسان، ولا يَصحِبُ كلّ لسان؛ وخطره كثير، ومتعاطيه مغرور، وله أرن^(٣) كَارِنِ المَهْرِ وإبَاءِ كِبَاءِ الحُرُونِ، وزهو كزهو المَلِكِ، وخَفَقَ كخَفَقِ البرق؛ وهو يتسهّل مرّة ويتعسر مراراً، ويذللُ طوراً ويعزّ أطواراً؛ ومادته من العقل والعقلُ سريعُ الحُؤُولِ خفي الخداع؛ وطريقه على الوهم، والوهم شديد السَّيْلان ومجراه على اللسان، واللسان كثير الطغيان؛ وهو مركّب من اللفظ اللغوي والصوغ الطباعي، والتأليف الصناعي، والاستعمال الاصطلاحي، ومُستملاهُ من الحجا، ودزيه بالتمييز، ونسجه بالرفقة، والحجا في غاية النشاط وبهذا البؤن يقع التباين ويتسع التأويل، ويجول الذهن، وتمطّطى الدعوى، ويفزعُ إلى البرهان، ويبرأ من الشبهة، ويُعثرُ بما أشبه الحجّة وليس بحجّة؛ فاحذر هذا التعت وروادفه، واتقِ هذا الحُكم وقوائفه^(٤)؛ ولا تعشق اللفظ دون المعنى ولا تهو المعنى دون اللفظ؛ وكن من أصحاب البلاغة والإنشاء في

(١) أي أطلب وأريد.

(٢) أي المطارحة في العلم والأدب ومذاكرتهما.

(٣) أي النشاط.

(٤) أي توابعه.

جانِب، فإن صناعتهم يُفْتَقِر فيها أشياء يؤاخذ بها غيرُهم، ولست منهم، فلا تشبّه بهم، ولا تجرِ على مثالهم، ولا تنسُج على منوالهم، ولا تدخل في غمارهم، ولا تكثُر ببياضك سوادهم، ولا تُقَابِل بفهاهتك براعتهم، ولا تجذب بيدك رِشَاءهم، ولا تحاول بباعك مطاولتهم، واعرف قدرك تسلّم، والزم حدك تأمن؛ فليس الكَوْدُن^(١) من العتيق في شيء، ولا الفقيرُ من الغنيّ على شيء؛ أما سمعت قول الناس: ليس الشاميّ للعراقيّ بصاحب، ولا الكرديّ من الجنديّ بساخر، فإن طال^(٢) فلا تُبَل، وإن تَشَعَّب فلا تكترث، فإن الإشباع في الرواية أشقى للغليل، والشرح للحال أبلغ إلى الغاية، وأظفر بالمراد، وأجرى على العادة.

فكتبت: (بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، أقول أيها الشيخ - عطّف اللّه قلبك عليّ، وألهمك الإحسان إليّ - في جواب جميع ما قلته واجداً عليّ وعاتباً، وقابضاً، وباسطاً، ومرشداً، وناصحاً؛ ما يُعرف الحق فيه، ويستبين الصواب منه، غير خائن لك، ولا جانح إلى مخالفتك، ولا مُريغ^(٣) للباطل معك، ولا جاحد لأيديك القديمة والحديثة، ولا منكِر لنعمتك الكافية الشافية، ولا غاطٍ على فواضلك المجتمعة والمتفرقة، ولا تاركٍ لشيء هو عليّ من أجل شيء هو لي، ولا معرض عن شيء هو لي بسبب شيء هو عليّ؛ بل أجهّز دقّه وجلّه إليك حتى تراه بسدّه وغباره، وأجلوه عليك حتى تلحظه بردائه وإزاره. كأي لم أسمع قول الأوّل^(٤):

والكفر مَخْبِثَةٌ لِنَفْسِ الْمُنْعِمِ والشكر مَبْعَثَةٌ لِنَفْسِ الْمَفْضِلِ

أنا أدعك واجداً عليّ، وأرقد وأنت ماقت لي، وأجد حسّ نعمة أنت وهبتّها إليّ، وألذّ عيشاً أنت أدقنتني حلاوته. أنسى أيديك وهي طوق رقبتي، وتُجاة عيني، وحشوّ نفسي، وراحة جِلمي، وزاد حياتي، ومادّة روعي؟ هيهات، هذا بعيد من القياس، وغير معهود بين أحرار الناس؛ الذين لهم اهتمام بصون أغراضهم، وحرص على إكرام أنفسهم؛ قد عَبَقُوا بفوائح الفتوة، وعَلِقُوا بحبائل المروءة، وشَدَّوْا^(٥) من الحكمة أشرف الأبواب؛ واعتزّوا من الأدب إلى أعز حرم؛ وحازوا شرفاً بعد شرف، وانحازوا عن نطف بعد نطف^(٦) ونظروا إلى الدنيا بعين بصيرة، وعزّفوا أنفسهم عن زهرتها بتجربة صادقة.

(١) الفرس الهجين. (٤) قائله عترة العبسي.

(٢) أي الكلام. (٥) أي أخذوا.

(٣) أي مريد. (٦) أي العيب والفساد.

فأول ما أبدأك به أنني ظننت ظناً لا كيقين أن شيئاً مما كنت فيه مع الوزير - أدام الله أيامه، وقصم أعداءه - ليس مما يهتك، ولا هو مما يفرغ سمعك سماعك له؛ وحسبت أيضاً أنني إن بدأت بشيء منه ردلتني عليه وتنقصتني به، ورزيت عليّ فيه؛ وأنت ربّما قلت: لم بدأت بما لم أسألك عنه ولم أرخص لك فيه، هلاً كظمت عليّ جرتك، وطويت ما بين جنبك وما عليّ مما يدور بين الصاحب وخادمه والرؤساء، والناظرين في أمور الدهماء^(١) والمتصفحين لأحوال العامة والخاصة، ولهم أسرار وغيوب لا يقف عليها أقرب الناس إليهم، وأعزّ الناس عليهم، وأنت أيضاً فلم تسألني عنه، فكان في تقديري أنك قد عرفت وصولي في وقت دون وقت، وأنت قد حملت أمري على الخدمة التي ليس للعلم بها فائدة، ولا في الإعراض عنها فائدة.

وإذ جرى الأمر على غير ما كان في حسابي وتلبّس بظني، فإني أهدي ذلك كله بغثائه وسمانته، وحلاوته ومرارته، ورقته وخثارته في هذا المكان؛ ثم أنت أبصر بعد ذلك في كتمانهِ وإفشائه، وحفظهِ وإضاعته وسترهِ وإشاعته؛ ووالله ما أرى هذا أمراً صعباً إذا وصل إلى مرادك ولا كلفة شاقة إذا أكسبني مرصّاتك؛ وإن كان ذلك يمرّ بأشياء كثيرة ومختلفة، متعصية غريبة، منها ما يشيط به الدم المحقون، ويُنزَع من أجله الرُوح العزيز، ويُستصغر معه الصّلب، ولا يُقنع فيه بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر؛ وإن كان فيها أيضاً غير ذلك مما يضحك السنّ، ويُفكّه النفس، ويدعو إلى الرشاد، ويدلّ على النصح، ويؤكد الحرمة، ويعقد الدمام، وينشر الحكمة، ويشرف الهمة، ويلقح العقل، ويزيد في الفهم والأدب ويفتح باب اليمن والبركة، ويُتفق بضاعة أهل العلم في السوق الكاسدة، ويوقظ العيون الناعسة، ويبلّ الشنّ المتغصّف، ويُندي الطين المترشّف؛ ويكون سبباً قوياً على حُسن الحال وطيب العيش، فإن هذه العاجلة محبوبة، والرّفاهية مطلوبة، والمكانة عند الوزراء بكلّ حولٍ وقوةٍ مخطوبة، والدنيا حلوةٌ خضرةٌ وعذبةٌ نضرة، ومن شفّ^(٢) أمّله شقّ عمله؛ ومن اشتدّ إلحاحه، توالى غدؤه ورواحه، ومن أسره رجاؤه، طال عناؤه، وعظّم بلاؤه؛ ومن التهب طمعه وحرصه، ظهر عجزه ونقصه.

وفي الجملة:

من لم يكن لله متّهماً لم يُمس محتاجاً إلى أحدٍ
ولا بدّ من فتى يعين على الدهر، ويُغني عن كرام الناس فضلاً عن لثامهم،
ويدلّل قعود الصبر، ويُجمّ راحلة الأمل، ويحلّي مرّ اليأس؛ والغزلة محمودةٌ إلا أنّها

(١) أي جماعة الناس.

(٢) أي زاد، أو أسقمه.

محتاجة إلى الكفاية، والقناعة مَرَّة فِكْهَةٌ ولكنها فقيرةٌ إلى البلغة، وصيانة النفس حسنة إلا أنها كُلفَةٌ مُحرجة إن لم تكن لها أداة تُجِدُّها وفاشية^(١) تَمُدُّها، وتركُ خدمة السلطان غيرُ الممكن ولا يستطاع إلا بِيدِينِ متين، ورغبة في الآخرة شديدة، وفِطامٍ عن دار الدنيا صعب، ولسانٍ بالحلو والحامض يَلْعُج.

قال ابن السَّمَاك: لولا ثلاثٌ لم يقع حَيْفٌ، ولم يُسَلَّ سيفٌ: لقمةٌ أسوَجٌ من لقمة، ووجه أصبَحُ من وجه، وسِلْكٌ «أنعمَ من سِلْكٍ»، وليس كلُّ أحدٍ له هذه القوَّة، ولا فيه هذه المُنَّة^(٢) والإنسان بَشَرٌ، وبِنِيَّتِهِ متهافئة وطِينَتُهُ منتشرة، وله عادةٌ طالبة، وحاجةٌ هاتكة، ونفسٌ جَموح، وعينٌ طموح؛ وعقلٌ طفيف، ورأيٌ ضعيف، يهفو لأوَّل رِيح، ويستخيلُ لأوَّل بارق؛ هذا إذا تخلَّص من قُرْئاءِ السوء، وسلم من سوارقِ العقل، وكان له سلطان على نفسه، وقَهْرٌ لشهواته، وقَمْعٌ لهوائجه وقبول من ناصحه، وتهيؤٌ في سعيه، وتبؤءٌ في مَعَانِ حَظِّهِ، وائتمامٌ بسعادته، واستبصارٌ في طلب ما عند ربِّه، واستنصافٌ من هواءِ المُضِلِّ لعقله المرشِد، هذا قليلٌ وصعب ولو قلتُ معدومٌ أو مُحال في هذا الزمن العسير والدهر الفاسد، لما خفتُ عائقاً يعوقني، ولا حسوداً يردُّ قولِي.

قال ابن السَّمَاك: اللّهُ المستعان على ألسُنِ تَصِفِ وقلوبِ تَعْتَرِفِ، وأعمالِ تَخْتَلِفِ. وقال معاوية لأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث - ورآه لا يلي له عملاً، ولم يقبل منه نائلاً -: يا ابن أخي، هي الدنيا، فإمّا أن تَرْضَعَ معنا؛ وإمّا أن تَرْتَدِعَ عَنَّا.

وربّما قال بعض المتكلمين: قد قال بعض السلف ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا من ترك الآخرة للدنيا ولكنَّ خيركم من أخذ من هذه وهذه. وهذا كلام مقبول الظاهر موقوف الباطن. وربما قال آخَرٌ من المتقدمين: (اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً). وهذا أيضاً كلامٌ منمَّق، لا يرجع إلى معنى محقَّق؛ أين هو من قول المسيح - عليه السلام - حين قال: الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب متى بَعُد أحدكم من أحدهما قَرُب من الآخر؛ ومتى قَرُب من أحدهما بَعُد من الآخر. وأين هو من قول الآخر: الدنيا والآخرة ضَرْتَانِ، متى أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، ومتى أسخطت إحداهما أرضيت الأخرى.

وهذا لأنَّ الإنسان صغيرُ الحجم، ضعيفُ الحَوْل، لا يستطيع أن يجمع بين شهواته وأخذِ حظوظِ بدنه وإدراكِ إرادته، وبين السعي في طلب المنزلة عند ربِّه بأداء فرائضه، والقيام بوظائفه، والثبات على حدود أمره ونهيه.

(١) تجدها أي تجدها، والفاشية: ما انتشر من المال.

(٢) أي القوة.

فإن صَفَّقَ وجهه وقال: نَعْمَل تارة لهذه الدار وتارة لتلك الدار، فهذا المذنب الذي لا هو من هذه ولا من هذه؛ ومن تَخَنَّتْ وتَلَيَّثْ لم يكن رجلاً ولا امرأة، ولا يكون أباً ولا أمًّا؛ وهذا كما نرى.

ونرجع فنقول: ونعوذ باللَّه من الفقر خاصَّة إذا لم يكن لصاحبه عيادٌ من التقوى، ولا عِمادٌ من الصبر، ولا دِعامَةٌ من الأتفة، ولا اصطبَارٌ على المرارة.

وقد بُلِينا بهذا الدهر الخالي من الرَبانِيين الذين يُصَلِحون أنفسهم ويصَلِحون غيرهم بفضل صلاحهم، الخاوي من الكرام الذين كانوا يتسعون في أحوالهم، ويوسعون على غيرهم من سَعَتِهِم، وكانوا يهتمون بذخائر الشكر المعجَّل في الدنيا، ويحرصون على ودائع الأجر المؤجَّل في الآخرة؛ ويتلذذون بالشناء، ويهتزون للدعاء؛ وتملكهم الأريحية عند مسألة المحتاج، وتعترهم الهزة معها والابتهاج وذلك لعشقهم الشناء الباقي؛ والصنيع الواقعي؛ ويرون الغنيمة في الغرامة، والربح في البذل، والحظ في الإيثار، والزيادة في النقص؛ أعني بالزيادة: الخلف المنتظر من الله؛ وبالنقص: العطاء؛ ورأيْتُ الناس يعيبون ابن العميد حين قال: أنا أعجب من جهل الشاعر الذي قال:

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقتَه فالمالُ لك

قال: ولو كان هذا صحيحاً كان لا ينبغي أن يُكْتَسَبَ المال، لأنه ليس في ترك كسبه أكثر من إخراجه بالإنفاق. هذا لقولهم بحكمته وعقله وتحصيله، وصواب الجاهل لا يُستحسن كما يُستبجح خطأ العاقل.

نعم، وكانوا إذا ولَّوا عدلوا، وإذا ملَّكوا أفضلوا، وإذا أعطوا أجزلوا، وإذا سُئلوا أجابوا وإذا جادوا أطابوا، وإذا عالوا صبروا، وإذا نالوا شكروا؛ وإذا أنفقوا وأسوا، وإذا امتحنوا تأسوا؛ وكانوا يرجعون إلى نقائب ميمونة، وإلى ضرائب^(١) مأمونة؛ وإلى ديانات قوية، وأمانات ثخينة؛ وكان لهم مع الله أسرار طاهرة، وعلانية مقبولة؛ ومع عباد الله معاملة جميلة، ورحمة واسعة ومعدلة فاشية؛ وكانت تجارتهم في العلم والحكمة، وعادتهم جارية على الضيافة والتكرمة؛ وكانت شيمتهم الصفح والمغفرة وربحهم من هذه الأحوال النجاة والكرامة في الأولى والعاقبة؛ وكانوا إذا تلاقوا تواصلوا بالخير، وتناهوا عن الشر؛ وتناقسوا في اتخاذ الصنائع، وأدخار البضائع (أعني صنائع الشكر، وبضائع الأجر).

فذهب هذا كله، وتاه أهله؛ وأصبح الدين وقد أُخْلِقَ لبوسه، وأوحشَ مأنوسه،

(١) أي الطبايع والسجايا.

واقْتُلِعْ مغْرُوسُهُ؛ وصار المنكّر معروفاً، والمعروفُ منكرًا، وعاد كلُّ شيءٍ إلى كدِرِهِ وخائِرِهِ، وفاسدِهِ وضائِرِهِ؛ وحَصَلَ الأمرُ عَلَيَّ أن يقالَ: فلانٌ خفيفُ الرُّوحِ، وفلانٌ حَسَنُ الوجهِ، وفلانٌ ظريفُ الجملةِ، حلُوُ الشمائلِ، ظاهرُ الكَيْسِ، قويُّ الدَّسْتِ^(١) في الشُّطْرُنِجِ، حَسَنُ اللَّعْبِ في التَّرْدِ، جَيِّدٌ في الاستخراجِ، مدبِّرٌ للأموالِ، بَدُولٌ للجَهْدِ، معروفٌ بالاستقصاءِ لا يُغْضِي عن دائقِ، ولا يتغافل عن قيراطٍ؛ إلى غير ذلك مما يَأْتُفُ العالِمُ من تكثيرِهِ، والكاتبُ من تسطيرِهِ.

وهذه كُلهَا كُنَايَاتٌ عن الظلمِ والتجديفِ، والخساسةِ والجهلِ وقَلَّةِ الدِّينِ وحبِّ الفسادِ، وليس فيها شيءٌ مِمَّا قَدَمْنَا وصفَهُ عن القومِ الَّذِينَ اجْتَهَدُوا أن يكونوا خلفاءِ اللَّهِ على عبادِ اللَّهِ بالرَّأفَةِ والرِّقَّةِ والرحمةِ والاصطناعِ والعدلِ والمعروفِ.

وأرجعُ عن هذه الشُّكْيَةِ الطويلةِ اللَّاذِعَةِ والبليَّةِ العامَّةِ الشاملةِ؛ إلى عينِ ما رَسَمْتُ لي ذِكْرَهُ، وكَلَّفْتَنِي إِعادَتَهُ؛ عانِذاً بِاللَّهِ في صَرَفِ الأذى عَنِّي وَسَوْقِ الخيرِ إِلَيَّ؛ ولا تَذْأُ بِكْرَمِكَ الَّذِي رَشْتَنِي بِهِ إلى السَّاعَةِ، وكَفَيْتَنِي بِهِ مَوْوَنَةَ الخِدمةِ لغيرِكَ من هذه الجماعةِ؛ والأعمالُ بخواتيمِها، والصُّدُورُ بأعجازِها؛ وأنتُ أُولَى الناسِ بالصَّفْحِ والتجاوُزِ عَنِّي إذا عرَفْتَ براءَتِي في كلِّ ما يتعلَّقُ بي من ذمامِكَ؛ ويجبُ عَلَيَّ من الحَقِّ في مودَّتِكَ، والاعتصامِ بِحبْلِكَ والانتجاعِ^(٢) من عُشْبِكَ، والارتغاءِ من لَبْنِكَ.

(١) أي الحيلة.

(٢) الانتجاع أي طلب المعروف.

الليلة الأولى

وصلتُ أيُّها الشيخ - أطال الله حياتك - أول ليلة إلى مجلس الوزير - أعزَّ الله نصره، وشدَّ بالعصمة والتوفيق أزره - فأمرني بالجلوس، ويسَّط لي وجهه الذي ما اعتراه منذ خُلِق العُبوس؛ ولطَّف كلامه الذي ما تبدَّل منذ كان لا في الهزل ولا في الجدِّ، ولا في الغضب ولا في الرضا.

ثم قال بلسانه الذَّلِيق، ولفظه الأنيق: قد سألتُ عنك مرَّاتٍ شيخنا أبا الوفاء، فذكر أنك مراغ لأمر البيمارستان من جهته، وأنا أزيُّ بك عن ذلك، ولعليّ أعرضك لشيءٍ أنبه من هذا وأجدى، ولذلك فقد تاقَت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتأنيس، ولأتعرَّف منك أشياء كثيرةً مختلفة ترَدُّد في نفسي على مرِّ الزمان، لا أحصيها لك في هذا الوقت، لكنتي أنثرها في المجلس بعد المجلس على قدر ما يسنح ويعرِّض، فأجبتني عن ذلك كلُّه باسترسال وسكونٍ بال؛ بملء فيك، وجَمَّ خاطرك، وحاضرِ علمك؛ ودَغ عنك تفتنَّ البغداديين... (١) مع عفو لفظك، وزائد رأيك، وربح ذهنك؛ ولا تجبنُ جبن الضعفاء، ولا تتأطرَّ تأطرَّ الأغبياء (٢)؛ واجزم إذا قلت، وبالغ إذا وصفت؛ واصلدق إذا أسندت، وافصل إذا حكمت، إلا إذا عرَّض لك ما يوجب توقُّفاً أو تهادياً؛ وما أحسن ما قال الأول:

لا تَفدَحُ الظَّنَّةُ في حُكْمِهِ شيمُته عدلٌ وإنصافٌ
يَمضي إذا لم تَلقَه شبهةً وفي اعتراضِ الشكِّ وقافٌ
وقد قال الأول:

أبالي البلاء وإنِّي امرؤٌ إذا ما تبَيَّنتُ لِمَ أرتبُ
وكن على بصيرة أنِّي سأستدلُّ ممَّا أسمعُه منك في جوابك عمَّا أسألك عنه على صدقك وخلافه، وعلى تحريفك وقرافه.

فقلتُ: قبلُ كلُّ شيءٍ أريد أن أجاب إليه يكون ناصري على ما يراد منِّي فيأتي إن مُنِعته نكلتُ، وإن نكلتُ قلَّ إفصاحي عما أطالب به وخِفْتُ الكَسَاد،

(١) كلمة مطموسة، وتفنن البغداديين: استطرادهم في الكلام وخروجهم فيه من فن إلى فن.

(٢) التأطر: التجسس والتثني، شبه به وقوف الغبي وتردده في جواب ما يسأل عنه.

وقد طَمَعْتُ بِالنَّفَاقِ^(١) وانقلبت بالخيبة، وقد عقدتْ خِنَصْرِي على المسألة .

فقال - حَرَسَ اللَّهُ رُوحَهُ -: قل - عافاك الله - ما بدا لك، فأنت مجاب إليه ما دمتَ ضامناً لبلوغ إرادتنا منك، وإصابة غرضنا بك .

قلت: يُؤدِّن لي في كاف المخاطبة، وتاء المواجهة، حتى أتخلص من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض، وأركب جدد القول من غير تقيّة ولا تحاش ولا مُحاشاة ولا انجياش .

قال: لك ذلك، وأنت المأذون فيه، وكذلك غيرك، وما في كاف المخاطبة وتاء المواجهة؟ إن الله تعالى - على علو شأنه، وبسطة ملكه، وقدرته على جميع خلقه - يواجه بالتاء والكاف، ولو كان في الكناية بالهاء رفعةً وجلالةً وقدر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحقّ بذلك ومقدماً فيه، وكذلك رسوله ﷺ والأنبياء قبله - عليهم السلام - وأصحابه - رضي الله عنهم - والتابعون لهم بإحسان - رحمة الله عليهم - وهكذا الخلفاء، فقد كان يقال للخليفة: يا أمير المؤمنين أعزك الله، ويا عمرُ أصلحك الله؛ وما عاب هذا أحد، وما أُنِفَ منه حسيب ولا نسيب، ولا أباه كبيرٌ ولا شريفٌ؛ وإني لأعجب من قوم يرغبون عن هذا وشبهه، ويحسبون أن في ذلك ضعةً أو نقيصاً أو خطأً أو زرابيةً، وأظن أن ذلك لعجزهم وفُسُولِهِمْ^(٢)، وانخزالهم وقتلهم وضؤولتهم، وما يجدونه من الغضاضة في أنفسهم، وأن هذا التكلف والتجبر يححوان عنهم ذلك النقص، وذلك النقص يتنفي بهذا الصلّف؛ هيهات، لا تكون الرياسة حتى تصفو من شوائب الخيلاء، ومن مقابح الزهو والكبرياء .

فقلتُ: أيها الوزير، قد خالطت العلماء، وخدمت الكبراء وتصفحت أحوال الناس في أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم، فما سمعتُ هذا المعنى من أحد على هذه السّياقة الحسنة والحجّة الشافية والبلاغ المبين؛ وقد قال بعض السلف الصالح: «ما تعاضم أحد على من دونه إلا بقدر ما تصاعَرَ لِمَنْ فوقه». والتصاعر دواء النفس، وسجية أهل البصيرة في الدنيا والدين؛ ولذلك قال ابن السّمّاك للرشيد - وقد عَجِبَ من رفته وحسن إصاخته لموعظته وبلغ قبوله لقوله وسرعة دمعته على وجنته -: «يا أمير المؤمنين، لتواضعك في شرفك أشرف من شرفك، وإني أظن أن دمعتك هذه قد أطفأت أودية من النار وجعلتها برداً وسلاماً» .

قال: هذا باب مُفترقٌ فيه، ورَجَعْنَا إلى الحديث فإنه شهِيّ، سيّما إذا كان من خطرات العقل، قد خُدم بالصواب في نعمة ناعمة، وحروف متقاومة؛ ولفظ عَذْب،

(١) النفاق ضد الكساد.

(٢) الخسة والضعف .

ومأخذ سهل؛ ومعرفة بالوصل والقطع، ووفاء بالنثر والسجع؛ وتباعدي من التكلف الجافي، وتقارب في التلطف الخافي، قاتل الله ذا الرمة حيث يقول:

لها بَشْرٌ مِثْلُ الحَرِيرِ وَمَنْطِقٌ رَخِيمٌ الحِوَاشِي لا هُرَاءَ ولا نَزْرُ
وكنتْ أُنشِدُ أَيَّامَ الصِّبَا هذا بالذال، وكان ذلك من سوء تلقين المعلم؛ وبالعراق رُدَّ عليّ وقيل: هو بالزاي؛ وقد أجاد القَطاميّ أيضاً وتغزل في قوله:

فَهَنَّ يَنْبِذَنَ من قول يُصِبنَ به مواقع الماء من ذي الغلّة الصادي
قلتُ: ولهذا قال خالد بن صفوان حين قيل له: أتملّ الحديث؟ قال: إنّما يُملّ العتيق، والحديث معشوق الحسّ، بمعونة العقل، ولهذا يُولّع به الصبيان والنساء.

فقال: وأي معونة لهؤلاء من العقل ولا عقل لهم؟

قلتُ: ههنا عقلٌ بالقوّة وعقلٌ بالفعل، ولهم أحدهما وهو العقل بالقوّة، وههنا عقلٌ متوسطٌ بين القوّة والفعل مُزْمِع، فإذا برز فهو بالفعل، ثم إذا استمرّ العقل بلغ الأفق؛ ولفرط الحاجة إلى الحديث ما وضع فيه الباطل، وحُلبط بالمُحال ووُصل بما يُعجب ويضحك ولا يُؤول إلى تحصيل وتحقيق، مثل (هزار أفسان)^(١) وكلّ ما دخل في جنسه من ضروب الخرافات، والحسّ شديد اللّهج بالحادث والمُحدث والحديث، لأنّه قريب العهد بالكون، وله نصيب من الطرافة. ولهذا قال بعض السلف: «حادثوا هذه النفوس فإنها سريعة الدثور»، كأنّه أراد اضقلوها واجلّوا الصدا عنها، وأعيدوها قابلةً لودائع الخير، فإنها إذا دثرت - أي صدت، أي تغطت؛ ومنه الدثار الذي فوق الشعار - لم يُنتفع بها؛ والتعجب كلّهُ منوط بالحادث؛ وأما التعظيم والإجلال فهما لكلّ ما قدّم: إمّا بالزمان، وإمّا بالدهر؛ ومثال ما يقدم بالزمان الذهب والياقوت وما شابههما من الجواهر التي بعد العهد بمبادئها، وسيمتدّ العهد جداً إلى نهاياتها؛ وأمّا ما قدّم بالدهر، فكالعقل والنفس والطبيعة؛ فأما الفلّك وأجرامه المزدهرة في المعانقة العجيبة، ومناطقه الخفية، فقد أخذت من الدهر صورةً إلهيةً، وأحدثت فيما سلف منها صورةً زمانيةً.

فقال: بقي أن يتصل به نعتُ العتيق والخلق.

فكان من الجواب أنّ العتيق يقال على وجهين: فأحدهما يشار به إلى الكرم والحسن والعظمة، وهذا موجودٌ في قول العرب: «البيت العتيق»؛ والآخر يشار به إلى قدّم من الزمان مجهول. فأما قولهم: «عبد عتيق»، فهو داخل في المعنى الأول، لأنّه أكرم بالعتق، وارتفع عن العبودية، فهو كريم. وكذلك «وجه عتيق» لأنّه أعتقته الطبيعة من الدمامة والقبح. وكذلك «فرس عتيق».

(١) كتاب في الخرافات نقل ابن النديم معنى هذا الاسم ألف خرافة.

وأما قولهم: «هذا شيء خَلَقَ»، فهو مضمَّن معنيين: أحدهما يشار به إلى أنّ مادته بالية؛ والآخر أنّ نهايةَ زمانه قريبة. وكان ابنُ عَبَاد قال لكتابه مرّة - أعني ابنِ حسولة - في شيء جرى... «نعم، العالمُ عتيق ولكن ليس بقديم» أي لو كان قديماً لكان لا أول له، ولَمَّا كان عتيقاً كان له أول، ومن أجل هذا الاعتقاد وصفوا الله تعالى بأنّه قديم، واستحسنوا هذا الإطلاق. وقد سألتُ العلماء البُصراء عن هذا الإطلاق، فقالوا: ما وجدنا هذا في كتاب الله - عز وجل - ولا كلام نبيّه - ﷺ - ولا في حديث الصحابة والتابعين. وسألتُ أبا سعيد السِّيرافيّ الإمامَ: هل تعرف العرب أنّ معنى القديم ما لا أول له؟ فقال: هذا ما صح عندنا عنهم ولا سبق إلى وهمنا هذا منهم، إلا أنهم يقولون: «هذا شيء قديم» و«بيان قديم» ويسرّحون وهمهم في زمانٍ مجهولٍ المبدأ.

فقال: قد مرّ في كلامك شيء يجب البحث عنه، ما الفرق بين الحادث والمُخَدَّث والحديث؟

فكان من الجواب أنّ الحادث ما يُلحَظ نفسه والمُخَدَّث ما يُلحَظ مع تعلُّقٍ بالذي كان عنه محدثاً. والحديث كالمُتوسِّط بينهما مع تعلُّقٍ بالزمان ومن كان منه. وههنا شيء آخر، وهو الحَدَثان والحِدَثان؛ فأما الأول فكأنه لما هو^(١) مضارعٌ للحادث، وأما الحِدَثان فكأنه اسم للزمان فقط، لأنه يقال: «كان كذا وكذا في حِدَثان ما وليّ الأمير»، أي في أول زمانه، وعلى هذا يدور أمرُ الحدث والأحداث والحادث والحوادث. «وفلان حِدَثٌ مُلوكٌ» كله من ديوان واحد وواد واحد وسَبَك واحد.

قال: «ما الفرق بين حَدَثٌ وحَدَثٌ؟»

قلت: لا فرق بينهما إلا من وجهة أنّ حَدَثٌ تابعٌ لِقَدُمٍ، لأنه يقال: أَخَذَهُ ما قَدُمَ وما حَدَثٌ؛ فإذا قيل لإنسان: حَدَثٌ يا هذا. فكأنه قيل له: صِلْ شيئاً بالزمان يكون به في الحال، لا تقدّم له من قبل.

ثم رجعتُ فقلت: ولفوائد الحديث ما صنّف (أبو زيد) رسالة لطيفة الحجم في المَنظَر، شريفة الفوائد في المَخْبَر، تَجْمَعُ أصنافاً ما يُقْتَبَسُ من العلم والحكمة والتجربة في الأخبار والأحداث، وقد أحصاها واستقصاها وأفاد بها. وهي حاضرة.

فقال: احمِلْها واكتبها، ولا تَمِلْ إلى البخل بها على عادة أصحابنا الغثا. قلت: السمع والطاعة.

ثم رويْتُ أنّ عبد الملك بن مروان قال لبعض جلسائه: قد قضيتُ الوطر من كلِّ شيء إلا من محادثة الإخوان في الليالي الزُّهر، على التلال العُفر.

وأحسن من هذا ما قال عمر بن عبد العزيز قال: واللّه إنّي لأشتري ليلة من

(١) أي موضوع لما هو.

ليالي عبید اللہ بن عبد اللہ بن عتبة بن مسعود بألف دينار من بيت مال المسلمين .
فقيل : يا أمير المؤمنين ، أتقول هذا مع تحريك وشدة تحفظك وتنزهك؟ فقال : أين
يذهب بكم؟ واللہ إني لأعود برأيه ونصحه وهدايته على بيت مال المسلمين بألوف
وألوف دنانير، إن في المحادثة تلقيحاً للعقول، وترويحاً للقلب، وتسريحاً للهمم،
وتنقيحاً للأدب .

قال : صدق هذا الإمام في هذا الوصف، إن فيه هذا كله .

قلت : وسمعتُ أبا سعيد السيرافي يقول : سمعتُ ابن السراج يقول : دخلنا على
ابن الرومي في مرضه الذي قضى فيه ، فأشَدنا قوله :

ولقد سئمتُ مآربي فكأن أطيَبَها خبيثُ
إلا الحديدَ فإِنَّه مثلُ اسمه أبداً حديثُ

وقال سليمان بن عبد الملك : «قد ركبنا الفارة، وتبطنا الحسنة، ولبسنا اللين،
وأكلنا الطيب حتى أجمناه^(١)، وما أنا اليوم إلى شيءٍ أحوجُّ مني إلى جليس يضع عني
مؤونة التحفظ ويحدثني بما لا يمجّه السمع، ويطرِب إليه القلب». وهذا أيضاً حقٌّ
وصواب، لأنَّ النفس تَمَلُّ، كما أنَّ البدن يَكَلُّ؛ وكما أن البدن إذا كلَّ طلب الراحة،
كذلك النفس إذا مَلَّتْ طلبت الرُّوح وكما لا بد للبدن أن يستمدَّ ويستفيد بالجمام الذاهب
بالحركة الجالبة للنَّصَب والضجر، كذلك لا بد للنفس من أن تطلب الرُّوح عند تكاثف
المَلل الداعي إلى الحرج فإن البدن كثيفُ النفس، ولهذا يُرَى بالعين، كما أن النفس
لطيفة البدن، ولهذا لا توجد إلا بالعقل؛ والنفس صفاء البدن، والبدن كدَرُ النفس .

فقال : أحسنتَ في هذه الروايات على هذه التوشیحات وأعجبني ترخُّمك على
شيخك أبي سعيد، فما كلُّ أحدٍ يَسمح بهذا في مثل هذا المقام، وما كلُّ أحدٍ يأبه لهذا
الفاعل؛ هات مِلحة الوداع حتى نفرق عنها، ثم نأخذ ليلةً أخرى في شجون الحديث .

قلت : حَدَّثنا ابن سيف الكاتب الراوية، قال : رأيت جَحْظَةَ قد دعا بِناءً ليبي له
حائطاً، فحضر، فلَمَّا أَمسى اقتضى البِناءَ الأجرة، فتمَّا كسا^(٢) وذلك أن الرجل طلب
عشرين درهماً؛ فقال جَحْظَةَ : إنما عملتَ يا هذا نصفَ يومٍ وتطلب عشرين درهماً؟
قال : أنت لا تدري، إني قد بنيت لك حائطاً يَبقى مائة سنة؛ فبيئتما هما كذلك وَجَبَ
الحائطُ وسقط؛ فقال جَحْظَةَ : هذا عملك الحَسَن؟ قال : فأردتَ أن يَبقى ألف سنة؟
قال : لا، ولكن كان يَبقى إلى أن تستوفي أجرتك . فضحك - أضحك اللہ سنه - .

(١) أي كرهناه ومللناه .

(٢) أي تشاحا في الأجرة .

الليلة الثانية

ثم حضرت ليلة أخرى، فقال: أول ما سألك عنه حديث أبي سليمان المنطقي كيف كان كلامه فينا، وكيف كان رضاه عنا ورجاؤه بنا، فقد بلغني أنك جازمه ومعاشره، ولصيقه وملازمه وقافي خطوه وأثره، وحافظ غاية خبره.

فقلت: واللّه أيها الوزير، ما أعرف اليوم ببغداد - وهي الرقعة الفسيحة الجامعة، والعرضة^(١) العريضة الغاصة - إنساناً أشكر لك، وأحسن ثناء عليك، وأذهب في طريق العبودية معك، منه؛ ولقد سكر الأذان وملا البقاع بالدعاء الصالح، رفعه الله إليه، والثناء الطيب أشاعه الله؛ وقد عمل رسالة في وصفك ذكر فيها ما أتاك الله وفصلك به من شرف أعراقك، وكرم أخلاقك وعلو همتك، وصدق حدسك وصواب رأيك، وبركة نظرك، وظهور عنائك، وخصب فئاتك، ومحبة أوليائك، وكمد أعدائك، وصباحة وجهك، وفصاحة لسانك، ونبل حسبك، وطهارة غيبك، ويمن نقيبتك، ومحمود شيمتك، ودقيق ما أودع الله فيك وجليل ما نشر الله عنك، وغريب ما يرى منك، وبديع ما ينتظر لك من المراتب العلية، والخيرات الواسعة والدولة الوادعة، وهي تصل إلى مجلسكم في غد أو بعده - إن شاء الله - وكان هذا منه قياماً بالواجب، فإنك نعشت روحه وكان خفت، وبصرتة وكان عشي؛ وأنبت جناحه وكان قد حصّ، وبالرسم الذي وصل إليه لأنه كان قنيط منه وهو قنوط، وسمعتة يقول مراراً: من يذكرني وقد مضى الملك - رضوان الله عليه - ومن يخلفه في مصلحتي، ويجري على عادته معي؟ ومن يسأل عني، ويهتم بحالي؟ هيهات، فقد والله بالأمس من يطول تلفتنا إليه ويدوم تلهفنا عليه، إن الزمان بمثله لبخيل، كان والله شمس المعالي وغرة الزمن وحامل الأتقال، وملتمى الفُقّال، ومحقق الأقوال والأفعال، ومجري لجم الأحوال على غاية الكمال؛ كان والله فوق المتمنى، وأعلى من أن يلحق به نظير، أو يوجد له مماثل؛ لذته لمخ في تهذيب الأمور، وهواه وقف على صلاح من في إصلاحه صلاح ونفي من في نفيه تطهير؛ ولولا أن عمر الفتى الأزيجي قصير، لكننا لا نبثلي بفقده، ولا نتحرق على فوت ما كان لنا بحياته؛ الدنيا ظلوم، والإنسان فيها مظلوم.

(١) أي الساحة الواسعة.

فلَمَّا وصل إليه ذلك الرِّسْم - وهو مائة دينار - وحاجتُه ماسَّة إلى رَغيف، وحوَّلُه وقوَّتُه قد عجزا عن أجرة مسكنه، وعن وجه غداثه وعشائه عاش.

وممَّا زاد في حديث الرِّسْم أنه وصل إليه مع العذر الجميل، والوعدِ العريض الطويل؛ ولو رأيتَه وهو يترقَّل ويتحنك لعجبت.

فقال: سررتني لسروره بما كان منِّي، وإن عشتُ كففتُ الزمان عن ضيِّمِه، وَقَلَلْتُ عنه حدَّ نابه، ولولا الضَّمانة^(١) مانعة عن نفسه، ومُتَمَّنِّع معها بنفسه؛ لَعَشِيَّ هذا المجلس فيكم فاستأنس وأنس، ولكنته على حال لا محتمل له عليها، ولا صبر عليه معها؛ أتَحْفَظ ما قال البديهي فيهِ؟ قلت: نعم، قال: أنشدني، فرويتُ:

أبو سليمانَ عالِمٌ فَطِنٌ ما هو في عِلْمِه بمنتَقَصِ
لكن تطيَّرتُ عند رؤيتِه من عَوَرٍ مُوجِحِشٍ ومن بَرَصِ
وبابنِه مِثْلُ ما بوالده وهذه قِصَّة من القصصِ

فقال: قاتله الله، فلقد أوجع وبالغ، ولم يحفظ ذمام العِلْم، ولم يقض حق الفتوة. حدَّثني عن درجته في العلم والحكمة، وعَرَّفني محلَّه فيهما من محلِّ أصحابنا ابن زرعة وابن الخمار وابن السمح والقومسي ومسكويه ونظيف ويحيى بن عدي وعيسى بن علي.

فقلتُ: وصف هؤلاء أمر متعذر، وبابٌ من الكلفة شاق؛ وليس مثلي من جَسَرَ عليه، وبلغ الصواب منه؛ وإنما يصفهم من نال درجة كلِّ واحد منهم، وأشرف بعد ذلك عليهم؛ فعرف حاصلهم وغائبهم، وموجودهم ومفقودهم.

فقال: هذا تحايلٌ لا أرضاه لك، ولا أسلمه في يدك، ولا أحتمله منك؛ ولم أطلب إليك أن تعرفهم بما هو معلوم الله منهم، وموهبه لهم، ومسوقه إليهم، ومخلوعه عليهم، على الحد الذي لا مزيد فيه ولا نقص؛ إنما أردتُ أن تذكر من كلِّ واحد ما لاح منه لعينيك، وتجلَّى لبصيرتك، وصار له به صورة في نفسك؛ فأكثر وصف الواصفين للأشياء على هذا يجري، وإلى هذا القدر ينتهي.

فقلتُ: إذا قنع مني بهذا، فإنني أخدُم بما عندي، وأبلغ فيه أقصى جهدي. أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظراً، وأفعرهم غوصاً، وأصفاهم فكراً، وأظفرهم بالدرر، وأوقفهم على الغرر؛ مع تقطع في العبارة، ولكنته ناشئة من العجمة وقلة نظير في الكتب، وفرط استبداد بالخاطر، وحسن استنباط للعويص، وجرأة على تفسير الرمز، وبخل بما عنده من هذا الكنز.

(١) أي العاهة في الجسد.

وأما ابن زرعة فهو حَسَنُ الترجمة، صحيحُ النقل، كثيرُ الرجوع إلى الكتب، محمودُ النقل إلى العربية، جيدُ الوفاء بكلِّ ما جلَّ من الفلسفة؛ ليس له في دقيقتها منفذ، ولا له من لغزها مأخذ، ولولا توزع فكره في التجارة، ومحبتُّه في الربح، وحرصُه على الجَمْع؛ وشدَّتُه على المنع؛ لكانت قريحته تستجيب له، وغائمه تُدرُّ عليه؛ ولكنه مبددٌ مندَّد، وحبُّ الدنيا يُعمي ويُصم.

وأما ابن الخمار ففصيح، سَبَطُ الكلام، مديدُ النَّفس، طويلُ العنان مَرَضِيُّ النقل، كثيرُ التدقيق، لكنه يخلط الدُّرَّةَ بالبعرة ويُفسد السمين بالعث، ويَرَقَعُ الجديد بالرتِّ؛ ويشين جميع ذلك بالزُّهو والصلْفُ ويزيد في الرقم والسُّوم، فما يجديه من الفضل يرتجعه بالنقص؛ وما يعطيه باللطف يسترده بالعنف؛ وما يصفيه بالصواب، يكدره بالإعجاب. ومع هذا يُصرَع في كل شهر مرَّة أو مرّتين.

وأما ابن السمح، فلا ينزل بفنائهم، ولا يسقى من إنائهم؛ لأنه دونهم في الحفظ والنقل والنظر والجدل، وهو بالمتبع أشبه، وإلى طريقة الدعوي أقرب، والذي يحطه عن مراتبهم شيان: أحدهما بلادة فهمه، والآخر حرصُه على كسبه؛ فهو مستفرغ مُحَّ^(١) البال مأسور العقل، يأخذ الدائق والقيراط والحبة والطسوج والفلس بالصروف والوزن والتطفيف؛ والقلب متى لم يُنقَّ من دنس الدنيا لم يعبَق بفوائح الحكمة، ولم يتصرَّج برذع الفلسفة، ولم يقبل شعاع الأخلاق الطاهرة المُفضية إلى سعادة الآخرة.

وأما القومسي أبو بكر، فهو رجل حسنُ البلاغة، حلُو الكناية، كثيرُ الفقر العجيبة، جماعةٌ للكتب الغربية؛ محمود العناية في التصحيح والإصلاح والقراءة، كثير التردد في الدراسة؛ إلا أنه غيرُ نصيح في الحكمة؛ لأن قريحته ترابية، وفكرته سحابية؛ فهو كالمقلد بين المحققين، والتابع للمتقدمين؛ مع حبِّ للدنيا شديد، وحسد لأهل الفضل عتيد.

وأما مسكويه، فقير بين أغنياء، وعيبي بين أبناء، لأنه شاد، وأنا أعطيته في هذه الأيام (صفو الشرح لإيساغوجي) وقاطيغورياس، من تصنيف صديقنا بالرِّي. قال: ومن هو؟ قلت: أبو القاسم الكاتب غلامُ أبي الحسن العامري، وصححه معي؛ وهو الآن لائد بابن الخمار، وربما شاهد أبا سليمان وليس له فراغ، ولكنه محسن في هذا الوقت للحسرة التي لحقته فيما فاته من قبل.

فقال: يا عجباً لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل ورأى من كان عنده وهذا حظّه! قلتُ: قد كان هذا، ولكنه كان مشغولاً بطلب الكيمياء مع أبي الطيب الكيمائي الرازي، مملوك الهمة في طلبه والحرص على إصابته مفتوناً بكتب أبي زكرياء،

وجابر بن حيان؛ ومع هذا كان إليه خدمةٌ صاحبه في خزانة كُتبه؛ هذا مع تقطيع الوقت في حاجاته الضرورية والشهوية؛ والعمر قصير، والساعات طائفة، والحركات دائمة والفُرصُ بُروق تأتلق، والأوطار في عرضها تجتمع وتفترق، والنفوسُ على فواتها تذوب وتحترق؛ ولقد قَطَنَ العامريُّ الرِّيَّ خمس سنين جُمعة، ودرس وأملى وصنَّفَ ورَوَى فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة، ولا وعى مسألة، حتى كأنه بينه وبينه سدٌّ؛ ولقد تجرَّع على هذا التواني الصابَ والعلقم، ومضغ بقمه حنظل الندامة في نفسه، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه حين لم ينفذ ذلك كله. وبعدُ فهو ذكيٌّ حَسَنُ الشُّعرِ نقيُّ اللفظ، وإن بقي فعساه يتوسط هذا الحديث، وما أرى ذلك مع كلفه بالكيمياء، وإفناق زمانه وكَدِّ بدنه وقلبه في خدمة السلطان، واحتراقه في البخل بالدائق والقيراط والكسرة والخرقة؛ نعوذ بالله من مدح الجود باللسان، وإيثار الشَّخِّ بالفعل، وتمجيد الكرم بالقول ومفارقته بالعمل؛ وهذا هو الشقاء المصوب على هامة من بُلِّيَ به، والبلاء المعصوبُ بناصية من غلب عليه.

وأما عيسى بن علي، فله الذُّزع الواسع والصَّدْرُ الرحيب في العبارة، حجة في النقل والترجمة، والتصرف في فنون اللغات، وضروب المعاني والعبارات؛ وقد تصفَّح ما لم يتصفَّح كثير من هذه الجماعة، وقلَّب بخزائن الكبراء والسادات، وأعين بالعمر الطويل والفراغ المديد؛ ولكنّه مع هذا الفضل الكثير بخيل بكلمة واحدة، ونصيح على ورقة فارغة، لسودائه الغالبة عليه، ومزاجه المتشيط بها.

وأما نظيف، فإنه متوسط، لا يسفل عن أقلهم حظاً ولا يعلو على أكثرهم نصيباً؛ ويده في الطب أطول، ولسانه في المجالس أجول؛ ومعه رفق وحذق في الجدَل.

وأما يحيى بن عدي، فإنه كان شيخاً ليين العريكة فروقة^(١)، مشوه الترجمة، رديء العبارة، لكنه كان متأتماً^(٢) في تخريج المختلفة وقد برع في مجلسه أكثر هذه الجماعة، ولم يكن يلوذ بالإلهيات، كان ينهر فيها ويضلل في بساطها، ويستعجم عليه ما جل، فضلاً عما دق منها؛ وكان مبارك المجلس.

فقال: ما قصرت في وصف هذه الطائفة، وتقريب البغية التي كانت داخله في نفسي منهم.

حدَّثني عن مذاهبهم في النفس وما يقولون فيها؛ وإلى أين ينتهون من يقينهم بشأنها، وكيف ثقتهم ببقائها بعد فناء أبدانها؟

فقلت: علمت أنني لا أجد ما أريد من حديث النفس عند أصحابنا الباقين، أعني أبا الوفاء علي بن يحيى السامري والصميمري والقوهي والصوفي وغلّام زحل

(١) أي الشديد الفزع.

(٢) أي مترقفاً متلطفاً.

والصاعانيّ، وكذلك غيرهم أعني ابن عبدان وابن يعقوب وابن لالا وابن بكش وابن قوسين والحرّانيّ، لأن هؤلاء ليسوا يحرثون هذه الأرض، ولا يرقّمون هذا البزّ ولا يجّهزون هذا المتاع ولا يتعاملون به؛ هذا ينظر في المرض والصحة والداء والدواء، وهذا يعتبر الشمس والقمر، وليس فيهم من يذكر كلمة في النفس والعقل والإله، حتى كأنه محظور عليهم، أو قبيح عندهم.

وقلت: إنّ هؤلاء القوم - أعني الطائفة الأولى - متفقون في الاعتراف بأنها جوهر باقٍ خالد؛ فأما اليقين فما الحكم به لهم، لأنهم لو كانوا على ذلك - أعني واجدين لليقين ذاتيين لحلاوته - لما كدحوا للدنيا التي تزول عنهم ويزولون عنها مضطرين؛ فلو أنهم كانوا على ثلج من النفس، ويقظة من العقل، واستبصارٍ من القلب، وسكون من البرهان، لما تعجلوا هذه اللذات المنقوصة، والأوطار الفاضحة، والشهوات الخسيسة، مع التّبعات الكثيرة والأوزار الثقيلة؛ ولا عجب فإنه إذا كانت الرّكّابة العائقة تمنع الإنسان من العَدُوّ والسّفَر، ومن سرعة الخطو، لأن الحركة قد بطلت بالرّكّابة الداخلة عليه في أعضائه وآلاته، فأئّي عجب من أن تكون النفس التي استعبدها الشهوات الغالبة، والعقيدة الرديئة، والأفعال القبيحة مَعوقّة ممنوعة من الصعود إلى مَعانق الفلّك ومخارف النجوم وعالم الرّوح ومَقعد الصدق ومقام الأمن ومحلّ الكرامة ومَراد الخلد وبلد الأبد ومَعانِ السرمد.

قال: هذا كلام تام؛ وسأسألك بعد هذا عن النفس وما تحفظ عنهم فيها لكن تَمّم لي ما كتنا فيه، كيف علمُ أبي سليمان بالنجوم وأحكامها؟ قلت: لا يتجاوز التقويم. ثم قال: فما تقول في الأحكام؟ قلت: أنشدت منذ أيام:

علم النجوم على العقول وبال وطلاب حق لا يُنال محال

وقلت أيضاً: علم الأحكام لا يجوز في الحكمة أن يكون مدركاً مكشوفاً مخاطباً به معروفاً؛ ولا يجوز أن يكون مقنوطاً منه مطرّحاً مجهولاً؛ بل الحكمة توجب أن يتوسّط هذا الفنّ بين الإصابة والخطأ حتى لا يُستغنى عن اللّيّاذ بالله أبداً، ولا يقع اليأس من قبّله أبداً؛ وعلى هذا سخر الله الإنسان وقِيضه وخيّر بين الأمور وفوضه؛ ومَنع من الثقة والطمأنينة إلا في معرفته وتوحيده وتقديسه وتمجيده، والرجوع إليه؛ انظر إلى حديث الطب فإنّ هذه الصناعة توسّطت الصواب والخطأ، لتكون الحكمة سارية فيها، واللفظ معهوداً بها؛ لأن الطب كما يبرأ به العليل، قد يهلك معه العليل؛ فليس بسبب أن بعض المدبّرين بالطب هلك لا ينبغي أن يُنظر في الطب؛ وليس بسبب أن بعض المرضى برأ بالطب وجب أن يعول عليه؛ انظر إلى هذا التوسط في هذه الحال ليكون التدبير الإلهيّ والأمر الربوبيّ نافذين في هذه الخلائق بوساطة ما

بينه وبينها؛ ولتكون المصلحة بالغة غايتها؛ وهذه سياسة دار الفناء، الجامعة لسكانها على البأساء والنعماء؛ وهكذا، فانظر إلى حديث البحر وركوب البأس المتيقن فيه، وجوب الطول والعرض وإصابة الريح، وطلب العلم، كيف تَوَسَّطَ بين السلامة والعطب، والنجاة والهلكة، فلو استمرت السلامة حتى لا يوجد من يَغْرَقُ وَيَهْلِكُ، لكان في ذلك مَفْسَدَةٌ عَامَةٌ؛ ولو استمرت الهلكة حتى لا يوجد من يَسْلَمُ وينجو، لكان في ذلك مفسدة عامة، فالحكمة إذا ما تَوَسَّطَ هذا الأمر حتى يشكر الله من ينجو وَيُسَلِّمَ نفسه لله من يهلك. قلت: وبعد هذا فهذا العلم عويص غامض عميق، وقد فُقد العلماء به، الملهَمون فيه؛ ومعول أهله على الحَدْسِ والظَّنِّ، وعلى بعض التجارب القديمة التي تَكْذِبُ مرَّةً وتَصُدِّقُ مرَّةً؛ وبالصدق يَغْتَبِرُ الإنسان، وبالكذب يعرى من فوائده؛ فالنقص قد دخله، والخلل قد شَمِلَه؛ وليس يجب أن يوهب له زمانٌ عزيز، فوراءه ما هو أهمُّ منه وأجدرُّ وأرشدُّ وأهدى.

قال: هذا حسن، حدَّثني بالذي أفدَّت اليوم.

قلت: قال أبو سليمان: العلم صورة المعلوم في نفس العالم، وأنفس العلماء عالمة بالفعل، وأنفس المتعلمين عالمة بالقوة. والتعليم هو إبراز ما بالقوة إلى الفعل. والتعلم هو بروز ما هو بالقوة إلى الفعل. والنفس الكلية عالمة بالفعل، والنفس الجزئية عالمة بالقوة؛ وكل نفس جزئية تكون أكثر معلوماً وأحكم مصنوعاً فهي أقرب إلى النفس الكلية تشبهاً بها، وتصيراً لها.

قال: هذا في الحُسن نهاية، وقد اكتهل الليل، وهذا يحتاج إلى بدء زمان، وتَفْرِيقِ قلب، وإصغاءٍ جديد. هات خاتمة المجلس.

قلت له: قرأنا يوم الجمعة على أبي عبيد الله المرزبانِي لعبد الله بن مُضَعَب:

إذا استمتعتُ منك بلحظ طرفي	حَيِّي نصفي ومات عليك نصفي
تلذذُ مقلتي ويزدوب جسمي	وعيشي منك مقرون بحتفي
فلو أبصرتني والليل داج	وخدي قد تَوَسَّطَ بطن كفي
ودمعي يستهلُّ من المآقي	إذا لرأيت ما بي فوق وصفي

وانصرفتُ.

الليلة الثالثة

قال لي ليلة أخرى: حدّثني أبو الوفاء عنك حديثَ الخُرَاسانيّ، فأريد أن أسمعك منك . قلت: كنت قائماً عشية على زُنُبرية^(١) الجسر في الجانب الشرقي والحاج يدخلون، وجمالهم قد سدت عرض الجسر - أنتظر جوازها وخفة الطريق منها، فرأيت شيخاً من أهل خُرَاسان ذكّر لي أنّه من أهل سَنجَان واقفاً خلفَ الجمال يسوقها، ويحفظ الرحال التي عليها، حتى نظر إلى الجانب الغربي فرأى الجذع عليه ابنُ بَقِيّة - وكان وزيراً صلبه الملك لذنوب كانت له - فقال: لا إله إلا الله، ما أعجب أمور الدنيا وما أقلّ المفكر في عبّرها وغيرها، عضد الدولة تحت الأرض وعدوه فوق الأرض!

قال: هكذا حدّثني أبو الوفاء، ولذلك استأذنت في دفنه، وكان كلام الشيخ سبباً في ذلك .

قال: بلغني أن أبا سليمان يزور في أيام الجمعة رسلَ سجستان لَمَّا^(٢) ويظلّ عندهم طاعماً ناعماً، ويأنس بأنك معه، فمن يحضر ذلك المكان؟ فقلت: جماعة؛ وآخر من كان في هذا الأسبوع الماضي ابنُ جبلة الكاتب، وابن برمويه، وابن الناظر أبو منصور وأخوه، وأبو سليمان وبندار المغني وغزال الراقص، وعلم وراء الستارة .

فقال: ما الذي حفظت من حديث عنهم، وما يجوز أن يُلقَى إلينا منهم؟ فقلت: سمعت أشياء، ولست أحبّ أن أسيم نفسي بنقل الحديث وإعادة الأحوال فأكون غامزاً وساعياً ومفسداً. قال: معاذ الله من هذا، إنّما تدلّ على رشد وخير، وتُضِلّ عن غيِّ وسوء، وهذا يلزم كلّ من أثر الصلاح الخاصّ والعامّ لنفسه وللناس، واعتقد الشفقة، وحثّ على قبول النصيحة؛ والنبويّ ﷺ قد سمع مثل هذا وسأل عنه، وكذلك الخلفاء بعده، وكلّ أحد محتاج إلى معرفة الأحوال إذا رجع إلى مرتبة عالية أو محظوظة .

فقلت: وجدّ ابن برمويه: يذكر أشياء هي متعلّقة بجانبك، ويرى أنها لو لم تكن

(١) السفينة التي في الجسر في الجانب الشرقي من بغداد يعبر عليها السالكون .

(٢) جمعاً، أي يزورهم مجتمعين .

لكان مجلسك أشرف، ودولتك أعز، وأيامك أذوم، ووليك أحمد، وعدوك أكمد. قال: ما هذا الاسترسال كله إلى ابن شاهويه؟ وما هذا الكلف ببهرام؟ وما هذا التعصب لابن مكبخا؟ وما هذا السكون إلى ابن طاهر؟ وما هذا التعويل على ابن عبدان؟ وما من هؤلاء أحد إلا يريش عدوه ويبريه ويضل صاحبه ويغويه. أما ابن شاهويه فشيخ إزراء^(١) وصاحب مخرقة^(٢) وكذب ظاهر، كثير الإيهام، شديد التمويه، لا يرجع إلى ود صادق، ولا إلى عقد صحيح وعهد محفوظ؛ وإنما كان الماضي يقربه لغرض كان له فيه من جهة هؤلاء المخربين القرامطة، وكان أيضاً مذموم الهيئة، فكان لا يتبس إلا بما يقويه ويحرس حاله، واليوم هو رخي اللب^(٣)، جاذب لكل سبب؛ وليس هناك كفاية ولا صيانة ولا ديانة ولا مروءة؛ وبعد، فهو مشؤوم نكد، ثقل الروح، شديد البهت قوله الإفساد وعادته تأجيل المهنأ والشماتة بالعاثر والتشفي من المنكوب.

وأما بهرام فرجل مجوسي معجب ذميم، لا يعرف الوفاء ولا يرجع إلى حفاظ، غرضه أن يتبجح في الدنيا بجاهه، ولا يبالي أين صار بعاقبته؛ وهو يخض^(٤) مع ذلك عليه في كل ما هو مديره ومدبره.

وأما ابن مكبخا، فرجل نصراني أرعن خسيس، ما جاء يوماً بخير قط لا في رأي ولا في عمل ولا في توسط؛ وأصحابنا يلقبونه بقفا وهو منهمك بين اللذائذ، هممه أن يتحسى دن الشراب في نفس أو نفسين، ثم يسقط كالجدع اليابس لا لسان ولا إنسان.

وأما ابن طاهر فرجل يدعي للناس أنه لولا مكانته وكفايته وحسبه ورأيه ومشورته لكانت هذه الوزارة سراياً، وهذه المملكة خراباً؛ هذا مع الشر الذي في طبعه وعادته؛ فإن جرى خير انتحل، وزعم أنه من نتائج رأيه؛ وإن وقع شر عصبه برأس صاحبه، وادعى أنه استبد به؛ ومع هذا فهو يعيب هذه المراءاة.

وما أدري كيف استكفى هذه الجماعة حوله؟ وكيف يظاهر^(٥) هو بها ويسكن إليها؟ وما فيهم إلا من وكده الرجس والإفساد والأخذ بالمصانعة وإغراء الأولياء بما يعود بالوبال على البريء والسقيم وعلى الزكي والظنين؛ هؤلاء سباع ضارية، وكلاب عاوية؛ وعقارب لساعة، وأفاع نهاشة، وقى الله هذا الإنسان الحر المبارك الكريم

(١) أي الغش والتليس.

(٢) أي الحمق والكذب.

(٣) أي متسع الحال.

(٤) أي يغري الناس بالوزير ويفسد قلوبهم عليه.

(٥) أي يعاون.

الرحيم، فإنه شريف النفس طاهر الطَّويَّة، لَيِّنُ العريكة، كثيرُ الديانة، وهذه أخلاق لا تصلح اليوم مع الناس، قال الشاعر^(١):

ومن لا يَدُذُّ عن حوضه بسلاحه يهدمُ ومن لا يظلم الناسَ يُظلم
وقال:

ومن لا يَدُذُّ عن حوضه الناسَ أو يكن له جانب يشتدُّ إنَّ لان جانبُ
يَطأُ حوضَه المستوردون وتَغشَّه شوائبُ لا تَبقى عليها النقائبُ
وما ضاع قولهم: لا تكن حلواً فتؤكل، ولا مرّاً فتُعاَف. ليس الحَذَرُ يقي فكيف
التهور، أهنا لحيئُ تُسحبُ كلَّ يوم، وطوارقُ تُتوقَّعُ كلَّ ليلة! والتوكُّل والاستسلام
يليقان بأهل الدين في طلب الآخرة؛ فأما أصحاب الدنيا وأربابُ المراتب، فيجب أن
يدعوا الهويَنا جانباً، ويشمروا للنفع والضَّر؛ والخير والشرُّ ويكون ضُرُّهم أكثر،
وشرُّهم أغلب؛ ورهبوت خير من رَحْموت.

ولهذا قال الأعرابي:

أنا الغلام الأعسَزُ الخيِرُ فيَّ والشُّرُّ
والشُّرُّ فيَّ أكثَرُ

وهذا معنى بديع، ولم يُرد أن البداء بالشرِّ خير من الخير، وإنما أراد أنني أتقي
بالشر، وإذا أقبل الشرُّ قلتُ له: مرحباً، وأدفع الشرَّ ولو بالشر، والحديد بالحديد
يُفْلح^(٢). وقد قال الآخر:

وفي الشرِّ نِجاةٌ حِيـ من لا ينجيك إحسانُ
وقال ابن دارة:

إذا كنت يوماً طالب القومِ فاطرُحْ مقالتهُم واذهب بهم كلَّ مذهبِ
وقاربُ بذي حلم وباعدُ بجاهل جلوب عليك الشرُّ من كلِّ مَجَلِبِ
فإن حذبوا فاقعسْ وإن هم تقاعسوا ليستمسكوا ممّا يريدون فاحذبِ
وإن حلبوا خُلفين فاحلبْ ثلاثة وإن ركبوا يوماً لك الشرِّ فاركبِ

وقال الحجاج بن يوسف أبو محمد - وهو من رجالات العرب وقد قهر العجم
بالدهاء والزكاة - «لو أخذتُ من الناس مائة ألف، كان أرضى عني من أن أفرق فيهم
مائة ألف». كان الناس بالأمس مزموين مخطومين، يقوم كل واحد بنفسه على نفسه،

(١) هو زهير بن أبي سلمى.

(٢) أي يشق.

وَيَتَّهَمُ غَدَهُ لَمَّا جَنَاهُ فِي أَمْسِهِ؛ لِأَنَّ الْمَلِكَ السَّعِيدَ سَاسَهُمْ، وَقَوْمَ زَيْغَهُمْ، وَقَلَّمَ أَظْفَارَهُمْ؛ وَشَغَلَهُمْ بِالْحَاجَةِ عَنِ الْبَطْرِ وَالْأَشْرِ، وَبِالْكَفَايَةِ عَنِ الْقَلْقِ وَالضَّجْرِ؛ وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِتَرْكِ الْخَوْضِ فِيمَا لَا مَرْجُوعَ لَهُ بِخَيْرٍ؛ وَكَانُوا لَا يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ بِهِ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ بِمَكَانِهِ، فَسَلِبُوهُ فَتَنَّفَسَ خَنَاقَهُمْ، وَاتَّسَعَ نَطَاقَهُمْ، فَامْتَطَى كُلُّ وَاحِدٍ هَوَاهُ، وَيُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِي مَهْوَاهُ.

قال: وههنا أشياء أخرى غير هذه، ولكن من يسمع ويقبل؟ ومع هذا فالأمور صائرة إلى مصايرها، كما أنها صادرة عن مصادرها.

فقال له ابن جبلة: ما عندي إلا أن الوزير - أبقاه الله - عارفٌ بهم ومستبطنٌ لأمرهم؛ مع العشرة القديمة، والملايسة المتصلة، والخبرة الواقعة؛ ولكن لا بد لمن كان في محلّه ورفعته من جماعةٍ يقربهم، ويرجع إليهم ويسمع منهم، وينظر بأعينهم، ويصغي بأذانهم، ويتناول بأيديهم.

فقال له مجابياً: إن كان عارفاً بهم، ومستبطناً لأمرهم، وخبيراً بشأنهم؛ فلم سلّطهم وبسّطهم، وحدّد أربابهم، وقوى أسنانهم، وفتح أشداقهم، وطول أعناقهم وقطع أرباقهم؛ وأبطرهم فأسكرهم، حتى صاروا يجهلون أقدارهم، وينسون ما كانوا فيه من القلّة والذلّة؟ هلا رتب كل واحد منهم فيما تظهر به كفايته ولا يرفعه إلى ما يظن معه الظنّ الفاسد، ولم يضحك في وجوههم، ويغضي على جنائتهم؟ أما بلغه أن ابن يوسف قال: تشبّهه بابن شاهويه لأنه قد أعدّه للهرب إلى القرامطة إن دهمه أمر؟ وأنسه ببهرام إنما هو لاستمداد الفساد منه، وتقديمه لابن طاهر للسرقة على يده، وفرحه بابن مكينا للسخرية به، وتقريبه لابن الحجاج للسخف، ولهجه بابن هارون للهزء واللعب.

قال له ابن جبلة: من أراد أن يحسن القبيح عند رضاه، ويقبح الحسن عند سُخْطِهِ فَعَلَّ، وَلَا يَخْلُو أَحَدٌ تَهَبَ رِيحُهُ، وَيَعْلُو شَأْنُهُ، وَيَنْفُذُ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ مِنْ حَاسِدٍ وَقَارِفٍ، وَمُدْخَلٍ^(١) وَمُرْجِفٍ، عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ بُنِيَتِ الدَّارُ، وَعَلَيْهَا جَرَتِ الْأَقْدَارُ، إِنْ كُنْتَ تَنْكُرُ هَذَا الرَّهْطَ، فَاعْرِفْ لَهُ الرَّهْطَ الْآخَرَ؛ فَإِنَّكَ تَعْرِفُ بِذَلِكَ حُسْنَ اخْتِيَارِهِ وَجَمِيلِ انْتِقَائِهِ وَمَحْمُودَ رَأْيِهِ.

قال: من هم؟

قال: أبو الوفاء المهندس، وابن زرعة المتفلسف، وابن عبيد الكاتب، ومسكويه، والأهوازيّ والعسجدي. فأين هؤلاء الغامطة؟^(٢) قومٌ همهم أن يأكلوا رغيفاً ويشربوا قدحاً، لا هم ممن يُقْتَبَسُ مِنْ عِلْمِهِمْ وَلَا هُمْ يَتَكَلَّفُونَ لَهُ نَصْحاً، وَهَيْبَتَهُ

(١) القارف: الكاذب الظالم، والمدخل: العائب.

(٢) إشارة إلى الجماعة السابقة.

تعوقهم عن ذكر شيء في الدولة من تلقائهم إلا أن يكون شيء يتعلّق بهم على معنى خاصّ؛ فهو يَنُود^(١) هكذا وهكذا حتى يبلغ منهم ما قَدَر عليه .

فلما سمع الوزير هذا كلّه قال: سألقي إليك في جواب هذه المسألة ما تخدمني به إن لاقيتهم في مجلس آخر على وجه يُخفي أنك له ملقنٌ مُحَمَّل كأنك ساؤه عنه غيرُ حافل به؛ وقد تقطع الليل، ويحتاج في هذا الحديث إلى استئناف زمان، بعد استيفاء جِمام .
ثم أنشدتُ قول الشاعر:

إني لأصفح عن قومي وألبسهم على الضغائن حتى تبرأ الميثرُ
ثم قال: ما الميثر؟ قلت: هي الضغائن التي ذكرها في حشو البيت، واحدها ميثرٌ، كأنه أراد وألبسهم على الضغائن [حتى تبرأ الضغائن] فرجع من لفظ إلى لفظ ضرورة القافية لَمَّا كان معناه واحداً؛ قال: لمن هذا البيت؟ قلتُ: لا أحفظ اسمَ شاعره، ولكن أحفظ معه أبياتاً. قال: هاتها؛ فأنشدتُ أوّل ذلك:

يأئها الرجل المُزجِي أذيتَه هل أنت عن قولك العوراءَ مزدجرُ
إني إذا عُدَّ مِبْطَاءً إلى أمد لا يستطيع حِضاري المقرف البَطْرُ
لاقي قناتي مِضْراً عَشْوَزَنَةً^(٢) لا قادح قد تبعأها ولا خورُ
إني لأصفح عن قومي وألبسهم على الضغائن حتى تبرأ الميثرُ
قال: اكتبها. قلت: أفعلُ، وانصرفتُ، فما أعاد عليّ بعد ذلك شيئاً مما كان.

(١) أي يتحرك ويتمايل .

(٢) الصلبة الشديدة .

الليلة الرابعة

قال لي بعد ذلك في ليلة أخرى: كيف رضاك عن أبي الوفاء؟ قلت: أَرْضَى رِضاً بَأْتَمَ شُكْرٍ وَأَحْمَدِ ثَنَاءٍ؛ أَخَذَ بِيَدِي، وَنَظَرَ فِي مَعَاشِي، وَنَشَطَنِي وَبَشَرَنِي، وَرَعَى عَهْدِي، ثُمَّ خَتَمَ هَذَا كُلَّهُ بِالنِّعْمَةِ الْكَبِيرَى، وَقَلَّدَنِي بِهَا الْقِلَادَةَ الْحَسَنَى، وَشَمَلَنِي بِهَذِهِ الْخِدْمَةِ، وَأَذَاقَنِي حَلَاوَةَ هَذِهِ الْمِزْيَةِ، وَأَوْجَهَنِي عِنْدَ نَظْرَائِي.

قال: هات شيئاً من الغزل. فأنشدته:

كَلَانَا سِوَاءَ فِي الْهَوَى غَيْرِ أَتْهَا تَجَلَّدُ أَحْيَاناً وَمَا بِي تَجَلَّدُ
تَخَافُ وَعَيْدَ الْكَاشِحِينَ وَإِنَّمَا جَنُونِي عَلَيْهَا حِينَ أَنْهَى وَأُبْعَدُ

ثم قال: غالب ظنني أن نصراً غلاماً خواشاهه ما هرب من فنائي إلا برأيك وتجسيرك؛ فإن ذلك عبد، ولا جراءة له على مثل هذا التذود والشذوذ، فقد قال لي القائل: إنك من خلصائه.

فقلت: واللّه الذي لا إله إلا هو ما كان بيني وبينه ما يقتضي هذا الأُنس وهذا الاسترسال، إنما كنا نلتقي على زنبرية^(١) باب الجسر بالعشايا وعند البيمارستان وعلى باب أبي الوفاء؛ وإنما ركنت إليه لمرقعة وتاسومته عند ما كنت رأيته عند صاحبه بالرّي سنة تسع وستين وهو متوجه إلى قابوس بجرجان، في المذلة الدائمة والحال المربوطة؛ ولو نبس لي بحرف من هذا، أو كنت أشعر بأقل شيء منه، لكنت أقوله لأبي الوفاء قضاء لحقه، ووفاء بما له في عني من مننه وخوفاً من هذا الظن بي، وقصوراً عن اللائمة لي.

قال: أفما تعرف أحداً تسأله عنه ممن كان يخالطه ويباسطه؟

قلت: ما رأيته إلا وحده؛ وكم كان زمان التلاقي؟ كان أقل من شهر، أفي هذا القدر يتوكد الأُنس وترتفع الحشمة وتستحكم الثقة ويقع الاسترسال والتشاور؟ هذا بعيد.

قال: هذا المتخلف كنت قد قرّبته وربّته، ووعدته ومنيته؛ وتقدمت إلى أبي الوفاء بالإقبال عليه، والإحسان إليه، وإذكاره بأمره في الوقت بعد الوقت، حتى أزيده نباهة وتقديماً، فترك هذا كله وطوى الأرض كأنه هارب من حبس، أو خائف

(١) السفينة التي في الجسر يعبر عليها السالكون.

من عذاب . ويقال في الأثر: إن بعض الصّفيحيين^(١) قال: لله قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل، ما أكثر من يفرّ من هذه الكرامة، ويقوى - على ترفّ جَمّ - على الهوان، ويصبر على البلاء، ويقلّ في العافية! إنّ السجايا لمختلفة، وإنّ الطباع لمتعادية؛ فلمّا يُرى شخصان يتساكلان في الظاهر إلاّ يتباينان في الباطن .
قلتُ: كذلك هو .

قال: حدّثني لِمَ امتنعتَ من النفوذ مع ابن موسى إلى الجبل فيما رَسَمنا له أن يتوجّه فيه؟ ولقد أطلتُ التعجّب من هذا وكزرتُهُ على أبي الوفاء .

فقلتُ: منعني من ذلك ثلاثة أشياء: أحدها أن ابن موسى لم يكن من شكلي ولا أشدّ للصدّ هوناً من مصاحبة الصّد، لأنّه سوداويّ وجعد . والآخر أنّه قيل: ينبغي أن تكون عيناً عليه، وأنا لو قررت لك الحديث لما رأيتُه لائقاً بحالي، فكيف إذا قرنتُ برجل باطلي لو مرّ بوهمه أمري لدهدّهني من أعلى جبل في الطريق . والآخر أنّي كنت أفد مع هذا كله على ابن عبّاد - وهو رجل أساء إليّ وأوحشني، وحاول على لسان صاحبه ابن شاهويه أن أقلب إليه ثانياً؛ وكنت أكره ذلك، وما كنتُ آمنُ ما يكون منه ومتي، والمجنون المطاع، مهروب منه بالطباع .

وبعد، فليس لي حاجةٌ في مثل هذه الخدمة، لأن صدر العمر خلا متي عارياً من هذه الأحوال، وكان وسطه أضعفَ حملاً، وأبعد من القيام به والقيام عليه .
فقال: ما كان عندي هذا كله .

قال: إنّي أريد أن أسألك عن ابن عبّاد فقد انتجعته وخبرته وحضرتُ مجلسه، وعن أخلاقه ومذهبه وعادته، وعن علمه وبلاغته، وغالب ما هو عليه، ومغلوب ما لديه؛ فما أظنّ أنّي أجد مثلك في الخبر عنه، والوصف له، على أنّي قد شاهدته بهمذان لَمّا وافى، ولكني لم أعجّمه، لأن اللبث كان قليلاً، والشغل كان عظيماً، والعائق كان واقعاً .

فقلت: إنّي رجل مظلوم من جهته، وعاتبٌ عليه في معاملتي، وشديد الغيظ لحرمانني، وإن وصفته أزيّنتُ منتصفاً، وانتصفتُ منه مسرفاً، فلو كنتُ معتدل الحال بين الرضا والغضب، أو عارياً منهما جملة، كان الوصف أصدق، والصدق به أخلق، على أنّي عملت رسالة في أخلاقه وأخلاق ابن العميد أودعتها نفسي الغزير، ولفظي الطويل والقصير، وهي في المسوّد ولا جسارة لي على تحريرها، فإنّ جانبه مهيب، ولمكره ديب، وقد قال الشاعر:

إلى أن يغيب المرء يُرجى ويُتقى ولا يعلم الإنسان ما في المغيبِ

(١) نسبة إلى الصفيح وهو من أسماء السماء، يريد المتعبدين المتعلقة قلوبهم بالعالم العلوي .

قال: دع هذا كله، وانسخ لي الرسالة من المسوَّدة، ولا يَمْنَعَنَّكَ ذاك فإنَّ العين لا ترمفُّها والأذن لا تسمعها واليد لا تنسخها.

وبعد، فما سألتك إلا وصفه بما جُبل عليه، أو بما كسب هو بيديه من خير وشر؛ وهذا غير منكر ولا مكروه، لأمر الله تعالى، فإنه مع علمه الواسع، وكرمه السابغ، يصف المحسن والمسيء، ويثني على هذا ويثنُو^(١) على ذاك؛ فاذا كر لي من أمره ما خفَّ اللفظ به وسبق الخاطرُ إليه وحضر السببُ له.

قلت: إنَّ الرجل كثيرُ المحفوظ حاضرُ الجواب فصيحُ اللسان؛ قد نتفَّ من كل أدب خفيفِ أشياء، وأخذ من كل فنِّ أطرافاً؛ والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة، وكتابته مهجَّنة بطرائقهم، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب؛ وهو شديد التعصُّب على أهل الحكمة والناظرين في أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد؛ وليس عنده بالجزء الإلهي خبر، ولا له فيه عين ولا أثر؛ وهو حسن القيام بالعروض والقوافي؛ ويقول الشعر، وليس بذلك، وفي بديهته غزارة. وأما رويته فخوازة؛ وطالعه الجوزاء، والشعرى قريبة منه؛ ويتشيع لمذهب أبي حنيفة ومقالة الزيدية، ولا يرجع إلى الرقة والرأفة والرحمة، والناس كلُّهم محجمون عنه، لجرأته وسلطته واقتداره وبسطته؛ شديد العقاب طفيف الثواب، طويل العتاب؛ بذية اللسان؛ يعطي كثيراً قليلاً (أعني يعطي الكثير القليل)، مغلوبٌ بحرارة الرأس، سريع الغضب، بعيد الفئنة قريب الطيرة، حسودٌ حقودٌ حديد، وحسده وقفٌ على أهل الفضل، وحفده سارٍ إلى أهل الكفاية؛ أما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته، وأما المنتجعون فيخافون جفوته؛ وقد قتل خلقاً، وأهلك ناساً، ونفى أمة، نخوة وتعتناً وتجبراً وزهواً؛ وهو مع هذا يخدعه الصبي، ويخلبه الغبي؛ لأنَّ المدخل عليه واسع، والمأني إليه سهل؛ وذلك بأن يقال: مولانا يتقدم بأن أعار شيئاً من كلامه، ورسائل منشوره ومنظومه؛ فما جُبَّت الأرض إليه من فرغانة ومصر وتفليس إلا لأستفيد كلامه وأفصح به، وأتعلَّم البلاغة منه؛ لكأنما رسائل مولانا سور قرآن، وفقره فيها آيات فرقان؛ واحتجاجه من ابتدائها إلى انتهائها برهان فوق برهان؛ فسبحان من جمَعَ العالم في واحد، وأبرز جميع قدرته في شخص. فيلين عند ذلك ويدوب، ويلهَى عن كلِّ مهمٍّ له، وينسى كلَّ فريضة عليه ويتقدم إلى الخازن بأن يُخرج إليه رسائله مع الورق والورق ويسهل له الإذن عليه، والوصول إليه، والتمكّن من مجلسه؛ فهذا هذا.

ثم يعمل في أوقات كالعيد والفضل شعراً، ويدفعه إلى أبي عيسى بن المنجم، ويقول: قد نحلَّتْ هذه القصيدة، امدحني بها في جملة الشعراء، وكن الثالث من

(١) أي يخبر عنه بذنوبه.

الهَمَجِ المُشْدِيدِينَ . فيفعل أبو عيسى - وهو بغداديّ محكِّك^(١) قد شاخ على الخدائع وتَحَنَّتْ - ويُشَدِّد، فيقول له عند سماعه شِعْرَه في نفسه ووصفَه بلسانه، ومدَّحَه من تحبيره: أَعِدْ يا أبا عيسى، فإنك - واللَّه - مُجِيد زَهْ يا أبا عيسى واللَّه، قد صفا ذَهْنُكَ، وزادت قريحَتُكَ، وتَنَقَّحت قوافيك؛ ليس هذا من الطَّرَازِ الأوَّلِ حين أنشدتَنا في العيد الماضي، مجالسُنَا تُخْرِجُ الناسَ وتَهَبُّ لهم الذكاءَ، وتزيد لهم الفطنة، وتحوِّلُ الكَوْدَانَ^(٢) عَتِيقًا، والمحمَّرَ جَوَادًا؛ ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بجائزة سنِيَّة؛ وعطيَّة هنيئة؛ ويغيظ الجماعة من الشعراء وغيرهم، لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرض مضرعاً ولا يزن بيتاً ولا يذوق عرُوضاً.

قال يوماً: من في الدار؟ فقيل له: أبو القاسم الكاتب وابن ثابت؛ فعَمِلَ في الحال بيتين، وقال لإنسان بين يديه: إذا أذنتُ لهذين فادخُلْ بعدهما بساعة وقل: «قد قلتُ بيتين، فإن رسمتَ لي إنشادهما أنشدتُ» وازعم أنك بُدِئتَ بهما، ولا تجزع من تأفُّفي بك، ولا تفزع من نُكْرِي عليك، ودفعَ البيتين إليه، وأمره بالخروج إلى الصحن؛ وأذن للترجلين حتى وصلا؛ فلما جلسا وأنسا دخل الآخر على تَفِيئتهما، ووقف للخدمة، وأخذ يتلمَّظُ يُرِي أنه يقرض شِعراً؛ ثم قال: يا مولانا، قد حضرني بيتان، فإن أنت أذنتَ لي أنشدتُ. قال: أنت إنسان أحرَقَ سخيْف، لا تقول شيئاً فيه خير، اكفني أمرَكَ وشِعْرَكَ. قال: يا مولانا، هي بديهتي، فإن نُكِرْتَنِي ظلمتَنِي؛ وعلى كلِّ حال فاسمع، فإن كانا بارعين وإلا فعاملني بما تحبُّ. قال: أنت لجوج، هاتِ. فأنشد:

يأتيها الصاحب تاج العلاء لا تجعلني نُهْرَةَ الشامِ
بمُلاحِدِ يَكْنَى أبا قاسمٍ ومُجَبَّرِ يُعْزَى إلى ثابتِ

قال: قاتلك الله، لقد أحسنتَ وأنت مسيء. قال لي أبو القاسم: فكذتُ أتفقاً غيظاً، لأتِي علمت أنها من فعلاته المعروفة؛ وكان ذلك الجاهل لا يقرض بيتاً. ثم حدَّثني الخادمُ الحديثَ بنصه.

والذي غلَّطه في نفسه وحَمَلَه على الإعجاب بفضله والاستبداد برأيه، أنه لم يُجِبَهُ قَطُّ بتخطئة، ولا قوبل بتسوئة؛ ولا قيل له: أخطأت أو قصرت أو لحتت أو غلِطت أو أخللت، لأنه نشأ على أن يقال له: أصاب سيّدنا، وصدق مولانا، ولله دَرُه، ولله بلاؤه، ما رأينا مثله، ولا سمعنا من يقاربه، من (ابن عبدكان) مضافاً إليه؟ ومن (ابن ثوابة) مقيساً عليه؟ ومن (إبراهيم بن العباس) الصُّلويّ [إذا جُمِعَ بينهما؟] من (صريع الغواني) من (أشجع السلمي) إذا سلك طريقهما، ومَتَّحَ برشائهما، وقَدَحَ بزئدِهما؟ قد استدرك مولانا على (الخليل) في العروض، وعلى (أبي عمرو بن

(٢) أي الفرس الهجين.

(١) أي مجرب مدرب.

العلاء) في اللغة وعلى (أبي يوسف) في القضاء، وعلى (الإسكافي) في الموازنة، وعلى (ابن نوبخت) في الآراء والذيانات، وعلى (ابن مُجاهد) في القراءات؛ وعلى (ابن جرير) في التفسير، وعلى (أرسطوطاليس) في المنطق، وعلى (الكِندي) في الجزء^(١)، وعلى (ابن سيرين) في العبارة، وعلى (أبي العيَنة) في البديهة، وعلى (ابن أبي خالد) في الخط، وعلى (الجاحظ) في الحيوان، وعلى (سهل بن هارون) في الفِقر، وعلى (يوحنا) في الطب؛ وعلى (ابن رَبن) في الفردوس، وعلى (عيسى بن دأب) في الرواية، وعلى (الواقدي) في الحفظ، وعلى (النجار) في البَدل، وعلى (ابن ثوابة) في التفقه، وعلى (السري السَّقَطي) في الخطرات والوساوس، وعلى (مُزبد) في النوادر، وعلى (أبي الحسن العروضي) في استخراج المعنى، وعلى (بني بَرَمَك) في الجود، وعلى (ذي الرياستين) في التدبير، وعلى (سَطِيح) في الكهانة، وعلى (ابن المحيّا خالد بن سنان العَبسي) في دعواه؛ هو والله أولى بقول (أبي شريح أوس بن حَجَر التميمي) في (فضالة بن كلدة):

الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

قد يسبق المدح إلى من لا يستحقه، ويصير المال إلى من لا يليق به أن يكون ميلاً^(٢) حتى إذا وجد من كان لذلك مستحقاً منحه ووفّر عليه.

فتراه عند هذا الهدر وأشباهه يتلوى ويتبسّم، ويطير فرحاً ويتقسّم ويقول: ولا كذا؛ ثمرة السُّبُق لهم، وقصّرنا أن نلحقهم، أو نَقْفُو أثرهم ونشقْ غبارهم أو نردْ غِمَارَهُمْ. وهو في كل ذلك يتشاكى ويتحایل، ويلوي شدقه، وابتلع ريقه، ويردُّ كالآخذ، ويأخذ كالمتمتع، ويغضب في عَرَض الرضا، ويرضى في لبوس الغضب، ويتهالك ويتمالك، ويتقابل ويتمایل؛ ويحاكي المومسات، ويخرج في أصحاب السماجات؛ ومع هذا كله يظن أن هذا خافٍ على نُقادِ الأخلاق وجَهابذة الأحوال، والذين قد فرغهم الله لتتبع الأمور، واستخراج ما في الصدور، واعتبار الأسباب؛ وذلك أنه ليس بجيد العقل، ولا خالص الحمق؛ وكل كدر بالتركيب فقلما يصفو، وكل مركب على الكدر فقلما يعتدل؛ إلا أن الانحراف متى كان إلى جانب العقل كان أصلح من أن يكون إلى طرف الحمق؛ والكامل عزيز، والبريء من الآفات معدوم؛ إلا أن العليل إذا قيض الله له طبيياً حاذقاً رفيقاً ناصحاً كان إلى العافية أقرب، وللشفاء أرجى، ومن العطب أبعد، وبالاختياط أعلق، أعني أن العاقل إذا عَرَف من نفسه عيوباً معدودة، وأخلاقاً مدخولة، استطب لها عقله، وتطبب فيها بعقله، وتولّى تدبيرها برأيه ورأي خُلصانه، فتقى ما أمكن نفيه، وأصلح ما قبل إصلاحه، وقلل ما استطاع تقليده؛

(١) أي الجزء الذي لا يتجزأ، المسمى: الجوهر الفرد.

(٢) أي ذو مال.

فقد يجد الإنسان الرَّمَصَ في عينه فينحّيه، ويبتلى بالبرَص في بدنه فيخفيه .
وقد أفسده أيضاً ثقةً صاحبه به، وتحويله عليه، وقلّة سماعه من الناصح فيه ؛
فغدير بازدهاء المال والعلم والاعتدال والأمر والكفاية وطاعة الرجال وتصديق الجلّساء
والعادة الغالبة؛ وهو في الأصل محدود^(١) لا جرم ليس يُقله مكانٌ دلالاً وترفاً، وعُجْباً
وتبهاً وصلفاً؛ وانديراء^(٢) على الناس، وازدراء للصغار والكبار، وجبهاً للصادر
والوارد؛ وفي الجملة، صيغارُ آفاته كبيرة، وذنوبه جمّة .

ولكن الغنى ربّ غفور

قال: ما صدرُ هذا البيت؟ فأنشده الأبيات، وهي لعروة بن الورد في الجاهلية،
وكان يقال له عروة الصعاليك، لأنه كان يؤويهم ويحسن إليهم كثيراً:

ذريتي للغني أسعى فإني	رأيت الناس شرهم الفقيرو
وأبعدهم وأهونهم عليهم	وإن أمسى له حسبٌ وخير
ويقصيه الندي وتزدرية	حليلته وينهزه الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال	يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم	ولكن الغنى ربّ غفور

فقال: لا شك أن المسودة جامعة لهذا كله . قلت: تلك تُجرع في دسّ كاعدي
فرعوني . فقال: أجدّ تحريرها، وعليّ بها، ولك الضمان ألا يراها إنسان، ولا يدور
بذكرها لسان . قلت: السمع والطاعة .

قال: قد تركنا من حديثه ما هو أولى مما مرّ بنا؛ كيف بلاغته من بلاغة ابن
العميد؟ وأين طريقته من طريقة ابن يوسف والصابي؟

قلت: قد سألت جماعة عن هذا، فأجابني كل واحد بجواب إذا حكيتّه عنه كان
ما يقال فيه ألصق، وكنّ من الحكم عليه وله أبعده .

قال: صف هذا .

قلت: سألت ابن عبيد الكاتب عن ابن عباد في كتابته فقال: يرتفع عن
المتعلمين فيها بدرجة أو بدرجتين . وقال عليّ بن القاسم: هو مجنون الكلام، تارة
تبدو لك منه بلاغة فسّر، وتارة يلقاك بعبيّ باقل؛ تحريف كثير في المعاني، وإحالة في
الوضع، وغلط في السجع، وشروء عن الطبع .

وقال ابن المرزبان: هو كثير السرقة، سيئ الإنفاق، رديء القلب والعكس، فروقة^(٣)

(١) أي محظوظ .

(٢) أي الفزع .

(٣) أي اندفاع وتهجم .

في إيراده، هزيمته قبل هُجومه . وإحجامه أظهر من إقدامه . وقال الصابي : هو مجتهد غير موفق، وفاضل غير منطوق ولو خطأ كان أسرع له، كما أنه لما عدا كان أبطأ عليه؛ وطباع الجبلي مخالِف لطباع العراقي، يشب مقارِباً فيقع بعيداً، ويتناول صاعداً فيتقاعسُ قعيداً.

وقال عليّ بن جعفر: ممّ كانت الطبائع! هو يكذب نفسه بحسن الظنّ في البلاغة، وطياعه تصدّق عنه بالتخلف، فهو يشين اللفظ ويحيل المعنى، فأما شينه اللفظ فبالجفوة والغلظة والإخلال والفجاجة؛ وأما إحالته فبالإبعاد عن حومة القصد والإرادة؛ والعجب أنه يحفظ الطمّ والرّم^(١) من النثر والنظم؛ ثم إذا ادّعاها يقع دونهما سقوطاً، أو يتجاوزهما فُروطاً؛ هذا مع الكبر الممقوت والتشيع الظاهر، والدعوى العارية من البيّنة العادلة.

وأما أحسن ما كتب به أحمد بن إسماعيل بن الخطيب إلى آخر: الكبر - أعزك الله - معرض يستوي فيه الثيبه ذكراً، والخامل قدرأ، ليس أمامه حاجب يمنعه، ولا دونه حاجز يحظره؛ والناس أشدّ تحفظاً على الرئيس المحظوظ، وأكثر اجتلاء لأفعاله، وتتبعاً لمعاييه، وتصقحاً لأخلاقه، وتنقيراً عن خصاله منهم عن خامل لا يُعبأ به، وساقط لا يُكترث له؛ فيسيرُ عيب الجليل يقدح فيه، وصغير الذنب يكبر منه، وقليل الذم يسرع إليه؛ ولابن هندو في هذا المعنى:

العيب في الرجل المذكورِ مذكورُ والعيب في الخامل المستورِ مستورُ
كفؤفة الطُفّر تخفى من مهانتها ومثلها في سواد العين مشهورُ

وقال الزهيري: قد نجم بأصبهان ابن لعباد في غاية الرقاعة والوقاحة والخلاعة وإن كان له يوم، فسيشقى به قوم. سمعته يقول هذا سنة اثنتين وخمسين في مجلس من الفقهاء.

وقال ابن حبيب: قال بعض الحكماء: إن للنفس أمراضاً كأمراض البدن إلا أن فضل أمراض النفس على أمراض البدن في الشرّ والضرر كفضل النفس على البدن في الخير؛ وصاحبنا - يعني ابن عبّاد - مريض عندنا، صحيح عند نفسه، زُيف بنقدنا، جيّد بنقده؛ ولو قامت السوق على ساقها، وتناصف المتعاملون فيها، ولم يقع إكراه في أخذ ولا إعطاء، عُرف البهرج^(٢) الذي ضرب خارج الدار والجيّد الذي ضرب داخل الدار.

وقال أحمد بن محمد: إذا أنصفنا التزامنا مزية العراقيين علينا بالطبع اللطيف والمأخذ القريب، والسجع الملائم، واللفظ المونوق، والتأليف الحلو، والسبوبة

(٢) أي الرديء.

(١) أي العدد الكثير.

الغالبية، والموالاة المقبولة في السَّمْع، الخالبة للقلب العابثة بالروح، الزائدة في العقل، المشعلة للقريحة، الموقوفة على فضل الأدب، الدالّة على غزارة المغتَرَف، النائية عن عادة كثير من السلف والخلف؛ وابن عبّاد بُلِيّ في هذه الصناعة بأشياء كلّها عليه لا له، وخاذلته لا ناصرته، ومُسَلِمته لا مُنْقِذته؛ فأول ما بُلِيّ به أنّه فقد الطبع، وهُوَ العمود؛ والثاني العادة وهي المؤاتية؛ والثالث الشغف بالجاسي^(١) من اللفظ وهو الاختيار الرديء؛ والرابع تتبّع الوحشيّ، وهو الضلال المبين؛ والخامس الذّهاب مع اللفظ دون المعنى؛ والسادس استكراه المقصود من المعنى، واللفظ على الثبوة؛ والسابع التعاطل المجهول بالاعتراض؛ والثامن إلف الرسوم الفاسدة من غير تصفّح ولا فحص؛ والتاسع قلة الاتعاظ بما كان - للثقة الواقعة في النفس - من الفئات، والعاشر تنفيق المتاع بالاقتدار في سوق العزّ، وهذه كلّها سبل الضلالة، وطرق الجهالة. قال: وليس شيء أنفع للمنشئ من سوء الظنّ بنفسه، والرجوع إلى غيره وإن كان دونه في الدرجة وليس في الدنيا محسوب إلا وهو محتاج إلى تثقيف، والمستعين أحزَم من المستبدّ، ومن تفرّد لم يكمل، ومن شاور لم ينقص، وقد يستعجم المعنى كما يستعجم اللفظ، ويشرّد اللفظ كما يندّد المعنى، وينثر النظم كما ينتظم النثر وينحل المعقّد كما يعقّد المنحلّ.

والمدار على اجتلاب الحلاوة المذوقة بالطبع، واجتناب الثبوة المموجة بالسمع؛ والقريحة الصافية قد تكدر، والقريحة الكدرة قد تصفو، وشرّ آفات البلاغة الاستكراه، وأنصح نصائحها الرضا بالعمو. وقال: كان ابن المقفّع يقف قلمه كثيراً؛ فقليل له في ذلك، فقال: إنّ الكلام يزدحم في صدري فيقف قلمي لأتخيره.

والكتاب يُتصفّح أكثر من تصفّح الخطاب، لأن الكاتب مختار والمخاطب مضطر؛ ومن يرّد عليه كتابك فليس يعلم أسرع فيه أم أبطأت وإنما ينظر أصبّت فيه أم أخطأت، وأحسنّت أم أسأت؛ فإبطاؤك غير إصابتك كما أنّ إسرارك غير مُعَف على غلظك.

قال: هذا كله مفيد فأين هو من غيره من أصحابنا؟

قلت: في الجملة هو أبلغ من ابن يوسف، وأغرر وأحفظ وأزوى وأجم ركيّة، وأعدب مؤرداً، وأبعد من التفاوت؛ وليس ابن يوسف من ابن عبّاد في شيء.

فأما ابن العميد فإني سمعت ابن الجمل يقول: سمعت ابن ثوبة يقول: أول من أفسد الكلام أبو الفضل، لأنه تخيل مذهب الجاحظ وظنّ أنّه إن تبعه لحقه، وإن تلاه أدركه، فوقع بعيداً من الجاحظ، قريباً من نفسه؛ ألا يعلم أبو الفضل أنّ مذهب

(١) أي الجاف الصلب.

الجاحظ مدبرٌ بأشياء لا تلتقي عند كلِّ إنسان ولا تجتمع في صدر كلِّ أحد: بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفرغ والعشق والمنافسة والبلوغ؛ وهذه مفاتيحُ قلما يملكها واحد، وسواها مغالِقُ قلما ينفكُّ منها واحد.

وأما ابنُه ذو الكفائيتين، فلو عاش كان أبلغ من أبيه، كما كان أشعرَ منه؛ ولقد تشبه بالجاحظ فافتضح في مكاتبته لإخوانه، ومجائته في كلامه ومسائله لمعلمه التي دلّتنا على سرقة وغارته وسوء تأتّيه، في تسترّه وتغطّيه؛ ومن شاءَ حمقَ نفسه؛ وكان مع هذا أشدَّ الناس ادعاء لكل غريبة، وأبعدَ الناس من كلِّ قريبة؛ وهو نزر المعاني، شديد الكلف باللفظ؛ وكان أحسدَ الناس لمن خطَّ بالقلم، أو بلغ باللسان، أو فلج في المناظرة، أو فكّه بالنادرة، أو أغرّب في جواب، أو اتسع في خطاب؛ ولقد لقي الناسُ منه الدواهيَ لهذه الأخلاق الخبيثة، وقد ذكرتُ ذلك في الرسالة، وإذا بيّضتُ وقفتَ عليها من أولها إلى آخرها إن شاء الله؛ وانصرفتُ.

الليلة الخامسة

قال لي ليلة أخرى: ألا تتمم ما كتنا به بدأنا. قلت: بلى.

فأما أبو إسحاق فإنه أحب الناس للطريقة المستقيمة، وأمضاهم على المَحَجَّة الوسطى، وإنما يُنقَم عليه قِلَّة نصيبه من النحو؛ وليس ابن عباد في النحو بذاك؛ ولا كان أيضاً ابن العميد إلا ضعيفاً؛ وكان يذهب عنه الشيء اليسير. وأبو إسحاق معانيه فلسفية، وطباعه عراقية، وعادته محمودة؛ لا يثب ولا يزب، ولا يكبل ولا يكهم^(١)، ولا يلتفت وهو متوجه، ولا يتوجه وهو ملتفت. وقال لنا: إمامي ابن عبدكان، وهو قد أوفى عليه، وإن كان احتدى على مثاله؛ وفنوته أكثر، ومأخذه أخفى، وخاطره أوقد، وناظره أنقد، ورؤضه أنصر، وسراجه أزهر، ويزيد على كل من تقدم بالكتاب «التاجي»، فإنه أبان عن أمور وكفى في مواضع، وشن الغارة في الصبح المنير مع الرعيل الأول، ودل على التفلسف، وعلى الاطلاع على حقائق السياسة ولو لم يكن له غيره لكان به أعرق الناس في الخطابة، وأعرق الكتاب في الكتابة، هذا ونظمه منثور، ومنثور منظوم؛ إنما هو ذهب إبريز كيفما سبك فهو واحد، وإنما يختلف بما يُصاغ منه ويشكل عليه؛ هذا مع الظرف الناصع والتواضع الحسن، واللّهجة اللطيفة، والخلق الدمث، والمعرفة بالزمان والخبرة بأصناف الناس؛ وله فنون من الكلام ما سبقه إليها أحد، وما ماثله فيها إنسان. وإني لأزحم من لا يسلم له هذا الوصف، لأنه إما أن يكون جاهلاً، وإما عالماً؛ فإن كان جاهلاً فهو معذور، وإن كان عالماً فهو ملوم، لأنه يدل من نفسه - بدفع ما يعلمه - على حسده، والحاسد مهين.

قال: هل كان في زمان هؤلاء من يلحق بهم، ويدخل في زميرتهم؟

قلت: نعم، أبو طالب الجراحي من آل علي بن عيسى كتب للمزبان ملك الديلم بعد ما انتجع فناء ابن العميد أبي الفضل، فحسده وطرده، وعص بعد ذلك على ناجذه ندماً على سوء فعله، ولقي منه أبو طالب الأمرين؛ ورسائله مبثوثة.

وأبو الحسن الفلكي، وكان من أهل البصرة، ووقع إلى المراغة ونواحيها وهو حسن الديباجة، رقيق حواشي اللفظ؛ وهو أحدتهم غزباً، وأغزروهم سكباً، وأبعدهم مناحاً وأعدبهم نقاخاً^(٢)، وأعطفهم للأول على الآخر وأنشروهم للباطن من الظاهر. وقرأت له:

(٢) أي الماء البارد العذب.

(١) أي يضعف.

«فإن رأى أن ينظر نظراً راحماً متعطفاً، إلى نادماً متلهفاً؛ ويجهل العفو عن فرطته وكفرانه، صدقةً عن بسطته وسلطانه؛ فأجدرُّ الناس بالاعتذار أقدرُّهم على الانتصار؛ فعَلَّ - إن شاء الله تعالى -».

وله مكاتبات واسعة بينه وبين رجل من أهل المراغة يقال له: محمد بن إبراهيم، من أهل (سُرَّ مَنْ رَأَى) وفي الجملة، الفضل في الناس مَبْثُوثٌ، وهم منه على جدود^(١)؛ والمردول هو العاري من لُبُوسِهِ، المتردّد بين تخلّفه ونقصه.

قال: فكيف يتم له ما هو فيه مع هذه الصفات التي تذكرها؟
قلتُ: واللّه لو أنّ عجوزاً بلهاء، أو أمةً وزهاء^(٢) أقيمت مُقامه، لكانت الأمور على هذا السياق.

قال: وكيف ذاك؟

قلتُ: قد أمِن أن يقال له: لِمَ فعلتَ، ولمَ لَمْ تفعل؟ وهذا باب لا يتفق لأحدٍ من خَدَم الملوكة إلا بجدِّ سعيد، ولقد نُصِحَ صاحبه الهَرَوِيُّ في أموال تاوية^(٣)، وأمورٍ من النظر عارية؛ فقَدَفَ بالرقعة إليه حتى عَرَفَ ما فيها، ثم قتل الرافع خنقاً. هذا وهو يدين بالوعيد، وله نظائر، ولنظائره نظائر، ولكن ليس له ناظر، ولا فيه مُناظر. وقال لي الثقة من أصحابه: ربّما شَرَعَ في أمر يُحْكَم فيه بالخطأ فيقلبه جدّه صواباً، حتى كأنه عن وحي؛ وأسرار الله في خلقه عند الارتفاع والانحطاط خفيّة في أستار الغيب، لا يهتدي إليها ملكٌ مقرب، ولا نبيٌّ مرسل، ولا وليٌّ مهذب؛ ولو جرت الأمور على موضوع الرأي وقضية العقل، لكان معلماً في مصطبة على شارع، أو في دار لتان^(٤)؛ فإنه يخرج الإنسان بتفهيّقه وتشادّقه، واستحقاره واستكباره، وإعادته وإبدائه، وهذه أشكال تُعجب الصبيان ولا تنفّرهم من المعلمين، ويكون فرحهم بها سبباً للملازمة والحرص على التعلّم والحفظ والرواية والدراسة.

قال: هذا قدرٌ كافٍ إلى أن تبيّض الرسالة؛ هات مُلحة الوداع.

قلتُ: قال أبو العيناء: قال أبو دعلج: قال المهديّ: بايع؛ قلتُ: أبايعكم [علام؟ قال]: على ما بويع رسول الله ﷺ يوم صِفِّين. قال كردين أبو سيّار المسمعيّ: إن رسول الله ﷺ لم يدرك صِفِّين، إنما كانت صِفِّين بين عليّ ومعاوية. فقال درست بن رباط الفُقَيْميّ أبو شعيب: قد علم الأميرُ هذا، ولكن أحبّ التسهيل على الناس، وانصرفْتُ.

(١) أي الحظوظ.

(٢) أي الحمقاء.

(٣) أي هالكة.

(٤) الثاني: الدهقان، أو زعيم الإقليم.

الليلة السادسة

ثم حضرته ليلة أخرى فأول ما فاتح به المجلس أن قال: أتفضل العرب على العجم أم العجم على العرب؟

قلت: الأمم عند العلماء أربع: الروم، والعرب، وفارس، والهند؛ وثلاث من هؤلاء عجم، وصعب أن يقال: العرب وحدها أفضل من هؤلاء الثلاثة، مع جوامع ما لها، وتفاريق ما عندها.

قال: إنما أريد بهذا الفُرس.

فقلت: قبل أن أحكم بشيء من تلقاء نفسي، أروي كلاماً لابن المقفع، وهو أصيل في الفُرس عريق في العجم، مفضل بين أهل الفضل؛ وهو صاحب (اليتيمة) القائل: تركت أصحاب الرسائل بعد هذا الكتاب في ضحاح من الكلام.

قال: هات على بركة الله وعونه.

قلت: قال شبيب بن شبة: إنا لوقوف في عرصة المرزد - وهو موقوف الأشراف ومجتمع الناس وقد حضر أعيان المصر - إذ طلع ابن المقفع، فما فينا أحد إلا هس له، وارتاح إلى مُساءلته، وسررنا بطلعته؛ فقال: ما يقفكم على مُتون دوابكم في هذا الموضع؟ فوالله لو بعث الخليفة إلى أهل الأرض يتغي مثلكم ما أصاب أحداً سواكم، فهل لكم في دار ابن برثن في ظل ممدود، وواقية من الشمس، واستقبال من الشمال، وترويح للدواب والغلمان، ونتمهد الأرض فإنها خير بساط وأوطؤه، ويسمع بعضنا من بعض فهو أمد للمجلس، وأدر للحدِيث. فسارعنا إلى ذلك، ونزلنا عن دوابنا في دار ابن برثن نتسم الشمال، إذ أقبل علينا ابن المقفع، فقال: أي الأمم أعقل؟ فظننا أنه يريد الفُرس، فقلنا: فارس أعقل الأمم، نقصد مقاربتة، ونتوخي مصانعة. فقال: كلا، ليس ذلك لها ولا فيها، هم قوم علموا فتعلموا، ومثل لهم فامتثلوا واقتدوا وبدنوا بأمر فصاروا إلى اتباعه، ليس لهم استنباط ولا استخراج. فقلنا له: الروم. فقال: ليس ذلك عندها، بل لهم أبدان وثيقة وهم أصحاب بناء وهندسة، لا يعرفون سواهما، ولا يحسنون غيرهما. قلنا: الفصين. قال: أصحاب أثاث وصنعة، لا فكر لها ولا روية. قلنا: فالترك. قال: سباع للهراش. قلنا: فالهند. قال: أصحاب وهم ومخرقة وشعبذة وحيلة. قلنا: فالزنج. قال: بهائم هاملة. فرددنا الأمر إليه. قال: العرب. فتلاحظنا

وَهَمَسَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ، فَعَاظَهُ ذَلِكَ مَنَّا، وَامْتَقِعَ لَوْنُهُ، ثُمَّ قَالَ: كَأَنَّكُمْ تَنْظُنُونَ فِيَّ مَقَارِبَتَكُمْ، فَوَاللَّهِ لَوُدِدْتُ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ لَكُمْ وَلَا فِيكُمْ وَلَكِنْ كَرِهْتُ أَنْ فَاتَنِي الْأَمْرُ أَنْ يَفُوتَنِي الصَّوَابُ، وَلَكِنْ لَا أَدْعُكُمْ حَتَّى أُبَيِّنَ لَكُمْ لِمَ قَلْتُ ذَلِكَ، لِأَخْرَجَ مِنْ ظِلَّةِ الْمَدَارَاةِ، وَتَوَهُمِ الْمَصَانَعَةِ؛ إِنْ الْعَرَبُ لَيْسَ لَهَا أَوْلُ تَوَهُمِهِ وَلَا كِتَابٌ يَدُلُّهَا، أَهْلُ بِلَدِّ قَفْرٍ، وَوَحْشَةٍ مِنَ الْإِنْسِ، أَحْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي وَحْدَتِهِ إِلَى فِكْرِهِ وَنَظَرِهِ وَعَقْلِهِ؛ وَعَلِمُوا أَنَّ مَعَاشَهُمْ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ فَوَسَمُوا كُلَّ شَيْءٍ بِسَمْتِهِ، وَنَسَبُوهُ إِلَى جِنْسِهِ وَعَرَفُوا مَصْلِحَةَ ذَلِكَ فِي رَظْبِهِ وَيَابِسِهِ، وَأَوْقَاتِهِ وَأَزْمَتِهِ، وَمَا يَصْلُحُ مِنْهُ فِي الشَّاةِ وَالْبَعِيرِ؛ ثُمَّ نَظَرُوا إِلَى الزَّمَانِ وَاخْتِلَافِهِ فَجَعَلُوهُ رِبِيعِيًّا وَصَيْفِيًّا، وَقَيْظِيًّا وَشَتَوِيًّا؛ ثُمَّ عَلِمُوا أَنَّ شَرِبَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ، فَوَضَعُوا لِذَلِكَ الْأَنْوَاءَ؛ وَعَرَفُوا تَغْيِيرَ الزَّمَانِ فَجَعَلُوا لَهُ مَنَازِلَهُ مِنَ السَّنَةِ؛ وَاحْتَاجُوا إِلَى الْإِنْتِشَارِ فِي الْأَرْضِ، فَجَعَلُوا نَجُومَ السَّمَاءِ أَدَلَّةً عَلَى أَطْرَافِ الْأَرْضِ وَأَقْطَارِهَا، فَسَلَكُوا بِهَا الْبِلَادَ؛ وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ شَيْئًا يَنْتَهُونَ بِهِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَرْغَبُهُمْ فِي الْجَمِيلِ، وَيَتَجَنَّبُونَ بِهِ الدَّنَاءَ وَيَحْضَهُمْ عَلَى الْمَكَارِمِ؛ حَتَّى إِنْ الرَّجُلُ مِنْهُمْ وَهُوَ فِي فِجٍّ مِنَ الْأَرْضِ يَصِفُ الْمَكَارِمَ فَمَا يُبْقِي مِنْ نَعْتِهَا شَيْئًا، وَيُسْرِفُ فِي ذَمِّ الْمَسَاوِيءِ فَلَا يَقْصُرُ؛ لَيْسَ لَهُمْ كَلَامٌ إِلَّا وَهُمْ يَتَحَاضُّونَ بِهِ عَلَى اصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ ثُمَّ حَفِظَ الْجَارُ وَبَدَّلَ الْمَالَ وَابْتَنَاءَ الْمَحَامِدِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَصِيبُ ذَلِكَ بِعَقْلِهِ، وَيَسْتَخْرِجُهُ بِفَطْنَتِهِ وَفِكْرَتِهِ فَلَا يَتَعَلَّمُونَ وَلَا يَتَأَدَّبُونَ، بَلْ نَحَازُ^(١) مُؤَدَّبَةً، وَعَقُولٌ عَارِفَةٌ، فَلِذَلِكَ قَلْتُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ أَعْقَلُ الْأُمَّمِ، لِصِحَّةِ الْفِطْرَةِ وَاعْتِدَالِ الْبِنْيَةِ وَصَوَابِ الْفِكْرِ وَذِكَاةِ الْفَهْمِ. هَذَا آخِرُ الْحَدِيثِ،

قال: ما أحسن ما قال ابن المقفّع! وما أحسن ما قصصته وما أتيت به! هات الآن ما عندك من مسموع ومستنبط.

فقلت: إن كان ما قال هذا الرجل البارع في أدبه المقدم بعقله كافياً فالزيادة عليه فضل مستغنى عنه، وإعقابُه بما هو مثله لا فائدة فيه.

فقال: حدّ الوصف في التزيين والتقبيح مختلف الدلائل على ما يُعتقَدُ صوابُه وخطوُه، متباين؛ وهذه مسألة - أعني تفضيل أمة على أمة - من أمهات ما تدارأ الناس عليه وتدافعوا فيه؛ ولم يرجعوا منذ تناقلوا الكلام في هذا الباب إلى صلح متين واتفاق ظاهر.

فقلت: بالواجب ما وقع هذا، فإن الفارسي ليس في فطرتِه ولا عادته ولا منشئه أن يعترف بفضل العربي، ولا في جبلة العربي وديدنه أن يقرّ بفضل الفارسي. وكذلك الهندي والرومي والتركي والديلمي؛ وبعد، فاعتبار الفضل والشرف موقوف على شيئين: أحدهما ما خص به قوم دون قوم في أيام النشأة بالاختيار للجيّد والردّيء، والرأي الصائب والفائل، والنظر في الأول والآخر. وإذا وقف الأمر على هذا فلكلّ

أمة فضائلُ ورذائلُ ولكلُّ قومٍ محاسنٌ ومساوٍ، ولكلُّ طائفةٍ من الناسٍ في صناعتها وحلِّها وعقدتها كمالٌ وتقصيرٌ؛ وهذا يَقْضِي بَأَنَّ الخيراتِ والفضائلِ والشُرُورَ والنقائصِ مُفَاضَّةٌ على جميعِ الخَلْقِ، مفضوِضَةٌ بينَ كلِّهم.

فللفُزُسِ السياسةِ والآدابِ والحدودِ والرسومِ؛ وللرُومِ العلمِ والحكمةِ؛ وللهندِ الفِكرِ والرويةِ والخفةِ والسُخرِ والأناةِ؛ وللتُّركِ الشجاعةِ والإقدامِ؛ وللزُّنْجِ الصبرِ والكَدِّ والفرحِ؛ وللعربِ التَّجْدَةَ والقِرَى والوفاءِ والبلاءِ والجودِ والدِّمامِ والخطابةِ والبيانِ.

ثم إنَّ هذه الفضائلُ المذكورةِ، في هذه الأممِ المشهورةِ، ليست لكلِّ واحدٍ من أفرادها، بل هي الشائعةُ بينها؛ ثم في جملتها مَنْ هو عارٍ من جميعها، وموسوم بأضدادها، يعني أنه لا تخلو الفُزُسُ من جاهلٍ بالسياسةِ، خالٍ من الأدبِ، داخلٍ في الرِّعاعِ والهَمَجِ؛ وكذلك العربُ لا تخلو من جبانٍ جاهلٍ طَيَّاشٍ بخيلٍ عيبيٍّ وكذلك الهندُ والرُّومُ وغيرُهم؛ فعلى هذا إذا قوبلَ أهلُ الفضلِ والكمالِ من الرُّومِ بأهلِ الفضلِ والكمالِ من الفُزُسِ، تلاقوا على صراطٍ مستقيمٍ، ولم يكن بينهم تفاوتٌ إلا في مقاديرِ الفضلِ وحدودِ الكمالِ، وتلك لا تخصُّ بل تلمُّ. وكذلك إذا قوبلَ أهلُ النقصِ والرذيلةِ من أمةٍ بأهلِ النقصِ والخساسةِ من أمةٍ أخرى، تلاقوا على نَهْجٍ واحدٍ، ولم يقع بينهم تفاوتٌ إلا في الأقدارِ والحدودِ؛ وتلك لا يُلْتَفَتُ إليها، ولا يعارُ^(١) عليها؛ فقد بان بهذا الكشفُ أنَّ الأممِ كلَّها تقاسمتِ الفضائلِ والنقائصِ باضطرارِ الفِطْرَةِ، واختيارِ الفِكرَةِ. ولم يكن بعد ذلك إلا ما يتنازعه الناسُ بينهم بالنسبةِ الترايبيَّةِ، والعادةِ المنشئيةِ والهوى الغالبِ من النَّفْسِ الغضبيَّةِ، والتزعاجِ الهائجِ من القوَّةِ الشهويةِ.

وها هنا شيءٌ آخرٌ، وهو أصلٌ كبيرٌ لا يجوز أن يخلو كلامنا من الدلالةِ عليه والإيماءِ إليه، وهو أنَّ كلَّ أمةٍ لها زمانٌ على ضدها، وهذا بيِّنٌ مكشوفٌ إذا أرسلتِ وهمك في دولةِ يونانٍ والإسكندرِ، لَمَّا عَلَبَ وساسَ ومَلَكَ ورأسَ وفتقَ ورتقَ ورَسَمَ ودبَّرَ وأمرَ، وحَتَّ وزجرَ، ومحا وسَطَّرَ، وفعلَ وأخبرَ؛ وكذلك إذا عطفتِ إلى حديثِ كسرى أنوشروانَ وجدتِ هذه الأحوالُ بأعيانها، وإن كانت في عُلفٍ غيرِ عُلفِ الأولِ، ومعارِضَ غيرِ معارِضِ المتقدمِ؛ ولهذا قال أبو مسلمٍ صاحبُ الدولةِ حين قيل له: أي الناسِ وجدتهم أشجعَ؟ فقال: كلُّ قومٍ في إقبالِ دولتهم شجعانٌ. وقد صدقَ؛ وعلى هذا كلُّ أمةٍ في مبدأِ سعادتها أفضلُ وأنجدُ وأشجعُ وأمجدُ وأسخى وأجودُ وأخطبُ وأنطقُ وأزأى وأصدقُ؛ وهذا الاعتبارُ ينساقُ من شيءٍ عامٍّ لجميعِ الأممِ، إلى شيءٍ شاملٍ لأمةٍ أمةٍ إلى شيءٍ حاوٍ لطائفةٍ طائفةٍ، إلى شيءٍ غالبٍ على قبيلةٍ قبيلةٍ،

إلى شيءٍ معتادٍ في بيتٍ بيت، إلى شيءٍ خاصٍّ بشخصٍ شخص وإنسانٍ إنسان؛ وهذا التحول من أمةٍ إلى أمة، يشير إلى فيض جود الله تعالى على جميع برّيته وخليقته بحسب استجابتهم لقبوله، واستعدادهم على تطاول الدهر في نيل ذلك من فضله ومن رقيّ إلى هذه الرّبوّة بعين لا قدّى بها، أبصر الحقّ عياناً بلا مزيّة، وأخبر عنه بلا فرية؛ ومتى صدق نظرك في مبادئ الأحوال وأوائل الأمور وضح لك هذا كلّه كالنهار إذا متّع^(١)، واستنار كالقمر إذا طلع؛ ولم يبق حينئذٍ ريب في عرفان الحقّ وحصول الصواب، إلّا ما يلتاث بالهوى، ويسمّج بالتعصب، ويَجلب اللّجاج، ويخرج إلى المَحك^(٢)؛ فهناك يطيح المعنى ويضلّ المراد.

فإذا آثرت أن تعرف صحة هذا الحكم وصواب هذا الرأي، فاسمع ما أرويه، قال إسحاق بن إبراهيم الموصليّ: انصرف العباس بن مزداق السلميّ من مكة فقال: «يا بني سليم، إني رأيت أمراً، وسيكون خيراً، رأيتُ بني عبد المطلب كأنّ قُدودهم الرّماح الرّدينيّة، وكأنّ وجوههم بدور الدّجّة وكان عمائمهم فوق الرجال ألوية، وكان منطقتهم مطرُ الوئيل على المَحَل؛ وإن الله إذا أراد ثمرأ غرس له غرساً، وإن أولئك غرسُ الله؛ فترقبوا ثمرته وتوكّفوا غيئه، وتغيّثوا ظلاله، واستبشروا بنعمة الله عليكم به». ولقد قرّع العباس بهذا الكلام باب الغيب، وشعر بالمستور، وأحسّ بالخافي، وأطلع عقله على المستتر، واهتدى بلطف هاجسه إلى الأمر المُرمع، والحادث المتوقّع؛ وهذا شيء فاش في العرب، لطول وخذيتها، وصفاء فكرتها، وجودة بنيتها واعتدال هيتها، وصحة فطرتها، وخلاء ذرعها، واتقاد طبعها، وسعة لغتها وتصاريف كلامها في أسمائها وأفعالها وحروفها، وجولانها في اشتقاقاتها، ومآخذها البديعة في استعاراتها، وغرائب تصرفها في اختصاراتها، ولطف كنياتها في مقابلة تصريحاتها، وفنون تبجحها في أكناف مقاصدها، وعجيب مقاربتها في حركات لفظها؛ وهذا وأضعافه مسلّم لهم، وموقر عليهم، ومعروف فيهم ومنسوب إليهم، مع الشجاعة والتّجدة والدّمّام والضيافة والفطنة والخطابة والحميّة والأنفة والحفاظ والوفاء، والبذل والسّخاء، والتّهالك في حب الثناء والتّكل الشديد عن الذم والهجاء؛ إلى غير ذلك ممّا خُصت به في جاهليّتها قبل الإسلام، ممّا لا سبيل إلى دفعه وجحوده، والبُهت فيه، والمكابرة عليه؛ وقد سمعنا لغاتٍ كثيرة - وإن لم نستوعبها - من جميع الأمم، كلغة أصحابنا العجم والروم والهند والترک وخوارزم وصقلاّب وأندلس والزنج، فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوغ العربيّة، أعني الفرج التي في كلماتها، والفضاء الذي نجده بين حروفها، والمسافة التي بين مخارجها، والمعادلة التي ندوقها في

(١) أي ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال.

(٢) أي المنازعة والتماذي في اللجاج.

أمثلتها، والمساواة التي لا تُجحد في أبنيتها؛ وإذا شئت أن تعرف حقيقة هذا القول، وصحة هذا الحكم، فالحظ عرض اللغات الذي هو بين أشدها تلابساً وتداخلًا، وترادفًا وتعاضلاً وتعسراً وتعوضاً، وإلى ما بعدها ممّا هو أسلس حروفاً، وأرقّ لفظاً، وأخفّ اسماً؛ وألطف أوزاناً، وأحضر عياناً؛ وأحلى مخرجاً وأجلى منهجاً وأعلى مدرجاً؛ وأعدل عدلاً، وأوضح فضلاً، وأصحّ وصلاً إلى أن تنزل إلى لغة بعد لغة، ثم تنتهي إلى العربية، فإنك تحكم بأن المبدأ الذي أشرنا إليه في العوائص والأغماض، سرى قليلاً قليلاً حتى وقف على العربية في الإفصاح والإيماض.

وهذا شيء يجده كل من كان صحيح البنية، بريئاً من الآفة، متنزهاً عن الهوى والعصبية، محباً للإنصاف في الخصومة، متحرّياً للحق في الحكومة، غير مسترق بالتقليد، ولا مخدوع بالإلف، ولا مسخر بالعادة.

وإنّي لأعجب كثيراً ممّن يرجع إلى فضل واسع، وعلم جامع؛ وعقل سديد، وأدب كثير، إذا أبى هذا الذي وصفته، وأنكر ما ذكرته؛ وأعجب أيضاً فضل عجب من الجيّهاني في كتابه وهو يسبّ العرب، ويتناول أعراضها ويحطّ من أقدارها، ويقول: يأكلون اليرابيع والضباب والجُرذان والحيات ويتغاورون ويتساورون، ويتهاجون ويتفاحشون، وكأنهم قد سلخوا من فضائل البشر، ولبسوا هُبّ الخنازير. قال: ولهذا كان كسرى يسمي ملك العرب: «سكان شاه»، أي ملك الكلاب. قال: وهذا لشدة شبههم بالكلاب وجرائها، والذئاب وأطلائها^(١)، وكلاماً كثيراً من هذا الصّوب أرفع قدره عن مثله، وإن كان يضع من نفسه بفضل قوله. أتراه لا يعلم لو نزل ذلك القفر وتلك الجزيرة وذلك المكان الخاوي وتلك الفيافي والموامي، كل كسرى كان في الفرس، وكل قيصر كان في الروم، وكل بلهور كان بالهند، وكل بغفور كان بخراسان، وكل خاقان كان بالترك وكل أخشاد كان بفرغانة وكل صبهبذ كان من أسكنان وأرذوان، ما كانوا يعدّون هذه الأحوال، لأن من جاع أكل ما وجد، وطعم ما لحق، وشرب ما قدر عليه، حباً للحياة، وطلباً للبقاء، وجزعاً من الموت، وهرباً من الفناء. أترى أنوشروان إذا وقع إلى فيافي بني أسد وبرّ (وبار) وسفوح طيبة، وزمل يبرين وساحة هببير، وجاع وعطش وعري، أما كان يأكل اليزبوع والجُرذان؛ وما كان يشرب بول الجمّل وماء البئر، وما أسن في تلك الوهدات؟ أو ما كان يلبس البرجذ والخميصة والسمل من الثياب وما هو دونه وأخشن؟ بلى واللّه، ويأكل حشرات الأرض ونبات الجبال، وكل ما حمض ومّر، وخبث وضرّ، هذا جهل من قائله، وخيف من منتجله؛ على أن العرب - رحمك اللّه - أحسن الناس حالاً

(١) أي أولادها.

وعيشاً إذا جادتهم السماء، وصدقتهم الأثواء^(١)؛ وازدانت الأرض، فهُدلت الثمار، وأطردت الأودية، وكثر اللبن والأقِط والجبن واللحم والرُطب والتمر والقمح، وقامت لهم الأسواق، وطابت المرباع وفسا الخِضب، وتوالى النَّساج، واتصلت الميرة، وصدق المصاب وأزْفَع^(٢) المنتجع، وتلاقت القبائل على المحاضر، وتَقاولوا وتضايفوا، وتعاقدوا وتعاهدوا، وتزاوروا وتناشدوا؛ وعقدوا الذَّمم، ونطقوا بالحكم؛ وقرّوا الطُّراق، ووَصَلوا العُفَاة، ورَوَّدوا السابِلة، وأرشدوا الضُّلال، وقاموا بالحَمالات^(٣) وفكّوا الأسرى، وتداعوا الجفلى^(٤)، وتعافوا الثَّقرى^(٥)، وتنافسوا في أفعال المعروف؛ هذا وهم في مساقط رؤوسهم، بين جبالهم ورمالهم، ومناشئ آبائهم وأجدادهم، وموالد أهلهم وأولادهم، على جاهليتهم الأولى والثانية، وقد رأيت حين هبت ريحهم وأشرق دولتهم بالدعوة، وانتشرت دعوتهم بالملّة، وعزّت ملتهم بالنبوّة، وغلبت نبوتهم بالشريعة، ورسخت شريعتهم بالخلافة، ونُضرت خلافتهم بالسياسة الدينيّة والدنيويّة، كيف تحوّلت جميع محاسن الأمم إليهم وكيف وقعت فضائل الأجيال عليهم من غير أن طلبوها وكدحوا في حيازتها أو تعبوا في نيلها، بل جاءتهم هذه المناقب والمفاخر، وهذه النوادر من المآثر عفواً، وقطنت بين أطناب بيوتهم سهواً رهواً؛ وهكذا يكون كل شيء تولاّه الله بتوفيقه، وساقه إلى أهله بتأييده، وحلّى مستحقّه باختياره؛ ولا غالب لأمر الله، ولا مبدل لحكم الله، ولذلك قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]. ولله في خلقه أسرار، تتصرّف بها دوائر الليل والنهار، وتذلّلها مجاري الأقدار، حتى يُنتهى بمحبوبها ومكروهها إلى القرار.

عزّ إلهاً معبوداً، وجلّ ربّاً محموداً مقصوداً. وبعد، فالذي لا شك فيه من وصف العرب، ولا جاحد له من حالها، أنه ليس على وجه الأرض جيلٌ من الناس ينزلون القفر، وينتجعون السحاب والقطر؛ ويعالجون الإبل والخيل والغنم وغيرها، ويستبدون في مصالحهم بكل ما عزّ وهان، وبكل ما قلّ وكثُر، وبكل ما سهل وعسر؛ ويرجون الخير من السماء في صوبها، ومن الأرض في نباتها؛ مع مراعاة الأوان بعد الأوان، وثقةً بالحال بعد الحال وتبصرةً فيما يُفعل ويُجتنب؛ ما للعرب فيما قدّمنا وصفه، وكزّنا شرحه من علمهم بالخِضب والجذب، واللين والقسوة، والحرّ والبزْد،

(١) أي الأمطار.

(٢) المصاب: المقصد. وأرْفَع: وسع.

(٣) أي الديات.

(٤) أي دعا بعضهم بعضاً إلى الطعام دعوة عامة لا تخصيص لها.

(٥) الدعوة الخاصة.

والرياح المختلفة والسحاب الكاذبة، والمخايل الصادقة، والأنواء المحمودة والمذمومة، والأسباب الغريبة العجيبة.

وهذا لأنهم مع توحشهم مستأنسون، وفي بواديههم حاضرون، فقد اجتمع لهم من عادات الحاضرة أحسن العادات، ومن أخلاق البادية أظهر الأخلاق.

وهذا المعنى على هذا النظم قد عدمه أصحاب المदन وأرباب الحضر، لأن الدناءة والرقة والكيس والهين والخلاصة والخداع والحيلة والمكر والخب تغلب على هؤلاء وتملكهم، لأن مدار أمرهم على المعاملات السيئة، والكذب في الحس، والخلف في الوعد.

والعرب قد قدسها الله عن هذا الباب بأسره، وجبلها على أشرف الأخلاق بقدرته؛ ولهذا تجد أحدهم وهو في بت^(١) حافياً حاسراً يذكر الكرم، ويفتخر بالمحمدة، ويتحل التجدة، ويحتمل الكل^(٢)، ويضحك في وجه الضيف ويستقبله بالبشر، ويقول: أحده إن الحديث من القرى. ثم لا يقنع ببث العرف وفعل الخير والصبر على النوائب حتى يحض الصغير والكبير على ذلك ويدعو إليه، ويستنهضه نحوه، ويكلفه مجهوده وعفوه.

وقد قيل لرجل منهم في يوم شات وهو يمشي في سمل^(٣): أما تجد البزد يا أبا العرب؟ فقال: أمشي الخيزلي ويدفتني حسبي. والفارسي لا يحسن هذا الثمط، ولا يذوق هذا المعنى ولا يحلم بهذه اللطيفة؛ وكذلك الرومي والهندي وغيرهما من جميع العجم.

ومما يدل على تحضرهم في باديتهم، وتبديهم في تحضرهم، وتحليلهم بأشرف أحوال الأمرين، أسواقهم التي لهم في الجاهلية، مثل دومة الجندل بقرى كلب وهي النصف بين العراق والشام، كان ينزلها الناس أول يوم من شهر ربيع الأول، فيقيمون أسواقهم بالبيع والشراء، والأخذ والعطاء؛ وكان يعشرهم أكيدر دومة، وربما غلبت على السوق كلب فيعشرهم^(٤) بعض رؤساء كلب؛ فيقوم سوقهم إلى آخر الشهر، ثم ينتقلون إلى سوق هجر، وهو المشقر في شهر ربيع الآخر، فتقوم أسواقهم؛ وكان يعشرهم المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم، ثم يرتحلون نحو عمان، فتقوم سوقهم بديار دبا، ثم بصحار، ثم يرتحلون فينزلون إرم، وقرى الشحر فتقوم أسواقهم أياماً، ثم يرتحلون فينزلون عدن أبين، ومن سوق عدن تشتري اللطائم وأنواع الطيب،

(١) كساء غليظ من صوف أو وبر.

(٢) الكل أي الضعيف.

(٣) أي الخلق البالي من الثياب.

(٤) أي يأخذ منهم العشر.

ولم يكن في الأرض أكثر طيباً، ولا أحذق صناعاً للطيب من عدن؛ ثم يرتحلون فينزولون الرابية من حضرموت، ومنهم من يجوزها ويرد صنعاء، فتقوم أسواقهم بها، ومنها كانت تجلب آلة الخرز والأدم والبُرود، وكانت تجلب إليها من معافر، وهي معدن البرود والجبر ثم يرتحلون إلى عكاظ وذي المجاز في الأشهر الحرم، فتقوم أسواقهم بها، فيتناشدون ويتحاجون ويتحادون، ومن له أسير يسعى في فدائه، ومن له حكومة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة من بني تميم، وكان آخرهم الأقرع بن حابس؛ ثم يقفون بعرفة، ويقضون ما عليهم من مناسكهم؛ ثم يتوجهون إلى أوطانهم.

وهذه الأسواق كانت تقوم طول السنة، فيحضرها من قرب من العرب ومن بعد. هذا حديثهم، وهم همّل لا عز لهم إلا بالسؤدد، ولا معقل لهم إلا السيف، ولا حصون إلا الخيل، ولا فخر إلا بالبلاغة.

ثم لما ملكوا الدور والقصور والجنان والأودية والأنهار والمعادن والقلاع والمُدن والبلدان والسهل والجبل والبر والبحر، لم يقعدوا عن شأو من تقدم بآلاف سنين، ولم يعجزوا عن شيء كان لهم؛ بل أبروا عليهم وزادوا، وأغربوا وأفادوا، وهذا الحكم ظاهر معروف، وحاضر مكشوف؛ ليس إلى مرده سبيل ولا لجاحده ومنكره دليل.

فليستحي الجيهاني بعد هذا البيان والكشف والإيضاح، بالإنصاف من القذع والسفّه اللذين حشا بهما كتابه، وليرفع نفسه عما يشين العقل، ولا تقبله حكام العدل؛ وصاحب العلم الرصين، والأدب المكين؛ لا يسلب خصمه على عرضه بلسانه، ولا يستدعي مّر الجواب بتعرضه ويرضى بالميسور في غالب أمره؛ فإن العصبية في الحق ربما خذلت صاحبها وأسلمته؛ وأبدت عورته، واجتلبت مساءته؛ فكيف إذا كانت في الباطل ونعوذ بالله أن نكون لفضل أمة من الأمم جاحدين، كما نعوذ به أن نكون بنقص أمة من الأمم جاهلين. فإن جاحد الحق يدل من نفسه على مهانة، وجاهل النقص يدل من نفسه على قصور؛ فهذا هذا؛ وفي الجملة المسلمة، والدعوة المرسلة، أن أهل البر وأصحاب الصحارى الذين وطأهم الأرض، وغطاؤهم السماء، هم في العدد أكثر وعلى بسيط الأرض أجول، ومن الترفه والرفاهية أبعد، وبالحول والقوة أعلق وإلى الفكرة والفطنة أفزع، وعلى المصالح والمنافع أوقع، ومن المخازي آنف وللقبائح أعيف؛ وهذا للدواعي الظاهرة، والحاجات الضرورية، والعلائق الحاضرة على الألفة والمودة، والشدائد المؤدبة، والعوارض الآلزية^(١)؛ ولهذا يقال: عيب الغنى أنه يورث البلادة، وفضيلة الفقر أنه يبعث الحيلة؛ وهذا معنى كريم، لا يُقرُّ به إلا كل نقاب عليم.

(١) أي الثابتة الشديدة.

وقال الجيهاني أيضاً: ممّا يدل على شرفنا وتقدّمنا وعزّنا وعلوّ مكاننا، أنّ الله أفاض علينا النعم، ووسّع لدينا القسّم وبوّأنا الجنان والأرياف، ونعمنا وأترّفنا. ولم يفعل هذا بالعرب، بل أشقاهم وعدّبهم، وضيّق عليهم وحرّمهم، وجمّعهم في جزيرة حرجة، ورُقعة صغيرة، وسقاهم بأرثق ضاح؛ وبهذا يُعلّم أنّ المخصوص بالنعمة والمقصود بالكرامة فوق المقصود بالإهانة.

فأطال هذا الباب بما ظنّ أنّه قد ظفّر بشيء لا جواب عنه، ولا مقابل له؛ ولو كان الأمر كما قال لما خفي على غيره وتجلّى له، بل قد خصت العرب بعد هذا بأشياء تطول حسرةً من فاتته عليها، ولا يفيد التفاتة بالغيظ إليها؛ وقد دلّ كلامه على أنّه جاهل بالنعمة، غافل عمّا هو سرّ الحكمة.

وعنده أنّ الجاهل إذا لبس الثوب الناعم، وأكل الخبز الحواري وركب الجواد، وتقلّب على الحشية، وشرب الرحيق، وباشرّ الحسنة، هو أشرف من العالم إذا لبس الأظمار، وطعم العشب، وشرب الماء القراح، وتوسّد الأرض، وقنع باليسير من رخي العيش، وسلا عن الفضول؛ هذا خطأ من الرأي، ومردود من الحكم، عند الله تعالى أولاً، ثم عند جميع أهل الفضل والحجاء، وأصحاب التقى والنهي؛ وعلى طريقته أيضاً أن البصير أشرف من الأعمى، والغنيّ أفضل من الفقير.

ألا يعلم أنّ المدار على العقل الذي من حرّمه فهو أنقص من كلّ فقير، وعلى الذين الذي من عريّ منه فهو أسوأ حالاً من كلّ موسر؛ ونعمة الله على ضربين: أحد الضربين عمّ به عباده، وغمر بفضله خليقته، بدءاً بلا استحقاق وذلك أنّه خلق ورزق وكفل وحفظ ونعش وكلاً وحرس وأمهل وأفضل ورهب وأجزل؛ وهذا هو العدل المخلوط بالإحسان، والتسوية المعمومة بالتفضل والقدرة المشتملة على الحكمة؛ والضرب الثاني هو الذي يستحقّ بالعمل والاجتهاد والسعي والارتداد، والاختيار والاعتقاد؛ ليكون جزاءً وثواباً، ولهذا حرّم العاصي المخالف، وأنال الطائع الموافق؛ فقد بان الآن أنّ المدار ليس بالجنان والترفة، ولا بالذهب والفضة، ولا الوبر والمدّر.

وقد مرّ هذا الكلام كلّه فليسكن من الجيهاني جأشه، وليفارقه طيشه؛ وليعلم أنّ من أنصف أعطى بيده، وسلّم الفضل لأهله؛ فإنّ التواضع للحق رفعة، والترفع بالباطل ضعة.

وهنا بقية ينبغي أن يتبصّر فيها؛ من عرف النقص البحت، والنقص المشوب بالزيادة؛ والفضل الصّرف، والفضل الممزوج بالنقيصة لم يجحد بالهوى المغوي فضلاً، ولم يدّع للعصية المُرديّة شرفاً، ولم يُنكر بالحسد مزية؛ والخلق كلّهم في نعم الله تعالى مشتركون، وفي أياديهم مغموسون وبمواهبه متفاضلون، وعلى قدرته متصرفون؛ وإلى مشيئته صائرون، وعن حكيمته مخبرون، ولآلائه ذاكرون، ولنعماته

شاكرون، ولأبياديه ناشرون، وعلى اختلاف قضائه صابرون، ولثوابه بالحسنات مستحقون، ولعقابه بالسيئات مستوجبون، ولعفوه برحمته منتظرون، والله خبير بما يعملون، وبصير بما يُسرون وما يُعلنون، وأبو سليمان يقول من الجماعة: العَرَبُ أَذْهَبُ مَعَ صَفْوِ الْعَقْلِ؛ ولذلك هم بذكر المحاسن أْبْدَه، وعن أصدادها أَنْزَه. ولو كانت رَوَيْتُهُمْ فِي وَزْنِ بَدِيهِتِهِمْ، كان الكمال؛ ولكن لَمَّا عَزَّ الْكَمالُ فِيهِمْ، عَزَّ أَيْضاً فِي غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَّمِ، فالأُمم كُلُّها شَرَعٌ واحِدٌ فِي عَدَمِ الْكَمالِ إِلَّا أَنَّهُمْ مُتفاضِلون بَعْدَ هَذَا فِيمَا نالوه بِالخُلُقَةِ الْأولى، وبالاختيار الثاني؛ واختلفت أَبصارهم فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فأما ما مُنِعَه الْإِنسانُ فِي الْأَوَّلِ فلا عَثَبٌ عَلَيْهِ فِيهِ، لأنَّه لا يُقال للأعمى: لِمَ لا تَكُونُ بِصِيراً، ولا يُقال للطويل: لِمَ لا تَكُونُ قَصِيراً وقد يُقال للقصير: سَدِّ طَرْفَكَ، واكْحُلْ عَيْنَكَ، ومُدِّ نَظْرَكَ؛ كما يُقال للطويل؛ تَطامُنْ، فِي هَذَا الزُّقَاقِ حَتَّى تَدْخُلَ، وتَقاصِرَ حَتَّى تَصِلَ؛ وأما ما لَمْ يُمنَعه الْإِنسانُ فِي الْأَوَّلِ، بل أُعْطِيَهُ وَوُهَبَ لَهُ، فهو فِيهِ مُطَلَّبٌ بما عَلَيْهِ وله كما أَنَّهُ مُطالَبٌ بما لَهُ عَلَيْهِ.

وقال الجيهاني أيضاً: ليس للعرب كتاب إقليدس ولا المجسطي ولا الموسيقي ولا كتاب الفلاحة، ولا الطب ولا العلاج، ولا ما يجري في مصالح الأبدان، ويدخل في خواص الأنفس.

فليعلم الجيهاني أن هذا كله لهم بنوع إلهي لا بنوع بشري، كما أن هذا كله لغيرهم بنوع بشري لا بنوع إلهي، وأعني بالإلهي والبشري الطباعي والصناعي؛ على أن الإلهي هؤلاء قد مازجه بشري هؤلاء، وبشري هؤلاء قد شابه إلهي هؤلاء؛ ولو علم هذا الزاري لعلم أن المجسطي وما ذكره ليس للفرس أيضاً، وما عندي أنه مكابر فِدَعِي هذا لهم. فإن قال: هو لليونان، ويونان من العجم، والفرس من العجم، فأنا أخرج هذه الفضيلة من العجم إلى العجم فهذا منه حيف على نفسه، وشهادة على نفسه؛ لأنه لو فاجر يونان لم يستطع أن يدعي هذا للفرس، ولا يمكنه أن يقول: نحن أيضاً عجم، وفضيلتكم في هذه الكتب والصناعة متصلة بنا، وراجعة إلينا. ومتى قال جبة بالمكروه وقوبل بالقدح^(١)، وقيل له: صه، كما يقال للجاهل - إن لم تقل له: «احسأ» كما يقال - في كل الأحاديث، وإن أغفلته ظلمت نفسي؛ ومن حابي خصمه غلب.

قال القاضي أبو حامد المزوروذبي: لو كانت الفضائل كلها بعقدها وسميتها، ونظمها ونثرها، مجموعة للفرس، ومصبوبة على رؤسهم، ومعلقة بأذانهم، وطالعة من جباههم؛ لكان لا ينبغي أن يذكروا شأنها، وأن يخرسوا عن دقها وجلها، مع نيكهم الأمهات والأخوات والبنات فإن هذا شيء كريه بالطباع، وضعيف بالسمع،

ومردود عند كل ذي فطرة سليمة، ومستبشع في نفس كل من له جبلة معتدلة. قال: ومن تمام طغيانهم، وشدة بهتانهم، أنهم زعموا أن هذا بإذن من الله تعالى، وبشريعة أتت من عند الله، والله تعالى حرّم الخبائث من المطعومات فكيف حلّل الخبائث من المنكوحات؟ قال: وكذب القوم، لم يكن زرادشت نبياً، ولو كان نبياً لذكره الله تعالى في عرض الأنبياء الذين نوّه بأسمائهم وردّد ذكرهم في كتابه، ولذلك قال النبي ﷺ: «سُتُوا بهم سنة أهل الكتاب» لأنه لا كتاب لهم من عند الله منزل على مبلغ عنه. وإنما هو خرافة خدعهم بها زرادشت بقوة المَلِكِ الَّذِي قَبْلَ ذَلِكَ مِنْهُ وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَيْهِ طَوْعاً وَكَرْهاً، وَتَرْغِيباً وَتَرْهِيباً؛ وكيف يبعث الله نبياً يدعو إلى إلهين اثنين؟ وهذا مستحيل بالعقل، وما خلق الله العقل إلا ليشهد بالحق للمُحِقِّ والباطل للمُبْطِلِ؛ ولو كان شرعاً لكان ذلك شائعاً عند أهل الكتابين، أعني اليهود والنصارى؛ وكذلك عند الصابئين، وهم كانوا أكثر الناس عناية بالأديان والبحث عنها، والتوصل إلى معرفة حقائقها، ليكونوا من دينهم على ثقة؛ فكيف صارت النصارى تعرف عيسى، واليهود تعرف موسى؛ ومحمد ﷺ - يذكرهما ويذكر غيرهما، كداود وسليمان ويحيى وزكريا، وغير هؤلاء، ولا يذكر زرادشت بالنبوة وأنه جاء من عند الله تعالى بالصدق والحق كما جاء موسى وعيسى... (١) لكتي بُعثتُ ناسخاً لكلّ شريعة، ومجدّداً لشريعة خضني الله بها من بين العرب.

قال: وهذا بيانٌ نافع في كذبهم؛ وإنما جاءوا إلى وهي فرقعوه، وإلى حرامٍ بالعقل فأباحوه، وإلى حبيثٍ بالطبع فارتكّبوه وإلى قبيحٍ في العادة فاستحسنوه.

وقد وجدنا في البهائم ما إذا أُنزِي الفحلُ منها على أمه لم يطاوع، وإذا أُكْرِه وَخُدِعَ وَعَرَفَ غَضَبَ عَلَى أَهْلِهِ وَنَدَّ عَنْهُمْ، وَشَرَّرَ عَلَيْهِمْ؛ فما تقول في خُلُقٍ لا تَرْضاه البهيمة، ولا تطاوعه فيه الطبيعة، بل ياباه حسه مع كُلوله وتبرُد شهوته مع اشتعالها، ويرضاه هؤلاء القوم مع عُجْبِهِمْ بعقولهم، وكِبْرِهِمْ في أنفسهم.

ولو كان زرادشت أقام لهم على هذه الخصلة اللثيمة والفعلة الذميمة كل آية وكل برهان، ونثر عليهم نجوم السماء، وأطع لهم الشمس من المغرب، وفتت لهم الجبال، وغَيَّضَ لَهُمَ الْبَحَارَ، وَأَرَاهِمُ الثَّرِيًّا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ تَخْتَرِقُ السَّكَّكَ وَتَشْهَدُ لَهُ بِالصِّدْقِ، لكان من الواجب بالعقل وبالغيرة والحَمِيَّةِ وبالأنفة وبالتعزُّزِ وبالتعزُّزِ ألا يجيبوه إلى ذلك، ويشكّوا في كل آية يرون منه، ويقتلوه، ويكُلُّوا به.

ولكن بمثل هذا العقل قبلوا من مزدك ما قبلوه مرّة، ولو عاملوا زرادشت بما عاملوا به مزدك ما كان الأمر إلا واحداً، ولا كان الحق إلا منصوراً، ولا كان الباطل

(١) كلام سقط من الأصل.

إلا مقهوراً، ولكن اتَّفَقَ على مزدكٍ مَلِكٍ عاقلٍ فَوَضَعَ باطله، واتفق لزرادشت ملك ركيك فَرَفَعَ باطله؛ وما نَزَعَ اللهُ عنهم المُلْكُ إلا بالحق، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

ثم قال: وبعد، فكل شيء خارج من الحكمة الإلهية والعقلية والطبيعية فهو ساقطٌ بَهْرَجَ، ومردودٌ مردول، إذا فعله جاهلٌ عُذِرَ بالجهل، وإذا أتاه عالمٌ عُذِلَ للعلم.

قال: وكانت العرب بهذا الخلق الذميم، وهذا الفعل اللثيم، لو فعلته أَعَذَرَ، لأنهم أشدُّ عُلمةً من غيرهم وأكثرُ تهيجاً، وأقوى على البِضَاعِ، وأوثب على النساءِ يدلُّك على هذا غَزْلُهُمْ وعشْقُهُمْ ونظْمُهُمْ ونثرهم وفراعْمُهُمْ وشهوْتُهُمْ، وتراهم مع هذه الدواعي والبواعث لم يستحسنوا هذا ولم يفعلوه، ولو أكرههم على هذا مكره ودعاهم إليه داع لما أطاعوه، ولذلك لم يَنْجُم منهم ناجم بالحيلة فدعا إلى هذا؛ ولو كان لكان أولَ مَنْ دُقَ رأسه بالعمد، وُبِعِجَ بطنه بالخنجِر؛ وما منعهم من هذا إلا الأنفس الكريمة، والطباع المعتدلة، والشكائم الشديدة، والأرواح العيِّفة، والعادات الرضية، والضرائب الطيبة؛ وكان وأدُّ البنات عندهم أنقى للمعاير، وأطرَدَ للقبايح من هذا الذي استحسنته زرادشت وقبل منه الفرس، وهم يدعون الحكم والعلم والحزم والعزم، ولفرط جهلهم وغلبة شهوتهم غَفَلُوا عما يجوز أن يكون الله سبحانه مبيحاً له أو حاضراً، أو مطلقاً أو مانعاً، أو محللاً أو محرماً؛ هيهات ما كلف الله أهل العقل القيام بالدين والتصفح للحق من الباطل إلا لما شرفهم به في العاجل، وعرضهم له في الآجل؛ والعاقبة للمتقين.

قال أبو الحسن الأنصاري - وكان حاضراً -: الهند أوضح عذراً في هذا الحديث لأنهم جعلوه من باب الثربة في بيوت الأصنام، وبلغوا مرادهم بهذه الخديعة، ولم ينسبوا إلى الله شيئاً منه، ولا استجازوا الكذب عليه، ولا علَّقوه أيضاً على نبي من عند الله، بل رأوه صواباً بالوضع ثم طابت أنفسهم من هذا الفعل بالمران والعادة. وبعد؛ ففعلولهم مدخولة، والبارع منهم قليل، وهم إلى الإفك والوهم والسحر أميل، وفي أبوابها أدخل.

ثم قال أبو الحسن: انظر إلى جهل زرادشت في هذا الحكم وإلى ضعف عقول الفرس في قبولهم منه هذا الفعل، وخيّر بينها وبين عقول العرب، فإنهم قالوا: «اغتربوا لا تَضُؤُوا»^(١). واستفاض هذا منهم حتى سُمِعَ من صاحب الشريعة ﷺ، وذلك أن الضوى مكروه؛ والعرب قالت هذا بالإلهام، لقرائحهم الصافية، وأذهانهم

(١) أي تزوجوا في بعاد الأنساب لا في الأقارب، لا تضوى أولادكم أي تضعف.

الواقدة، وطينتهم الحرّة، وأعراقهم الكريمة، وعاداتهم السليمة: وإنما شعروا بهذا لأن الضوَى الواصلَ إلى الأبدان هو سارٍ في العقول، ولكن الفُرس عن هذا السّر غافلون، ولا يفتن لهذا وأمثاله إلا الألمعيون الأحوذيون؛ ثم قال: أنشد الأصمعيّ عن العرب قولَ قائلهم في مدح صاحب له:

فتى لم تلده بنتٌ عمّ قريبةً فيضوى وقد يَضوى رديدُ الأقاربِ
قال: وقالت العرب: «أضواه حقه»: إذا نَقَصَه. قال: وقال آخرٌ لولده: واللّه
لقد كفيتك الضؤولة، واخترتُ لك الخؤولة.

وقال أيضاً: العرب تقول: «ليس أضوى من القرائب، ولا أنجب من الغرائب»
وقال الشاعر:

أنذرتُ من كان بعيدَ الهَمِّ تزويجَ أولادِ بناتِ العمِّ
ليس بناجٍ من ضوىٍ أو سُقمٍ وأنت إن أطعمته لا يَنمي
وقال الأسدّي يفتخر:

ولستُ بضائويٍّ تموج عظامُه ولادته في خالد بعد خالد
تردد حتى عمّه خال أمه إلى نسب أدنى من السر واحد

ثم قال: والعرب لم تُرد بهذا إلا نقص الذهن والعقل، لأنّها لو أرادت نقصان الجسم لكانت مخطئة، لأنّهم يريدون سمانة الجسم مع السلامة والصلابة. ثم قال: وعلى هذا طباع الأرض، ولذلك يقال: إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض، لأنّ الرياح إذا اختلفت حولت تراب أرض إلى أرض، وإذا كان الاغتراب يؤثر من التراب إلى التراب، فبالحريّ أن يؤثر الإنسان في الإنسان بالاغتراب، لأن الإنسان أيضاً من التراب.

قال أبو حامد: فما ظنك بقوم يجهلون آثار الطبيعة، وأسرار الشريعة؟ ما أذلّهم الله باطلاً، ولا سلبهم ملكهم ظالماً، ولا ضربهم بالخزي والمهانة إلاّ جزاءً على سيرتهم القبيحة، وكذبهم على الله بالجرأة والمكابرة، وما الله بظلام للعبيد.

فلما بلغ القول مداه قال: لله درُّ هذا النَّفس الطويل والنَّفث الغزير! لقد كنتُ قرماً إلى هذا النوع من الكلام، ففرغ نفسك لرسمه في جزء لأنظر فيه، وأشرب النفس حلاوته، وأستنتج العقيم منه؛ فإنّ الكلام إذا مرّ بالسمع حلق، وإذا شارفَه البصر بالقراءة من كتاب أسفّ؛ والمحلق بعيد المنال، والمُسيف حاضر العين، والمسموع إذا لم يملكه الحفظ تذكّر منه الشيء بعد الشيء بالوهم الذي لا انعقاد له، والخيال الذي لا معرّج عليه. فقلت: أفعل سامعاً مطيعاً - إن شاء الله -.

الليلة السابعة

ولما عدتُ إليه في مجلس آخر، قال: سمعتُ صياحك اليوم في الدار مع ابن عبيد، فقيم كنتما؟

قلتُ: كان يذكر أن كتابة الحساب أنفع وأفضل وأعلق بالملك، والسلطان إليه أحوج، وهو بها أغنى من كتابة البلاغة والإنشاء والتحرير، فإذا الكتابة الأولى جد، والأخرى هزل؛ ألا ترى أن التشاؤق والتفيهق والكذب والخداع فيها أكثر؛ وليس كذلك الحساب والتحصيل والاستدراك والتفصيل. قال: وبعد هذا فتلك صناعة معروفة بالمبدأ، موصولةً بالغاية، حاضرة الجدوى، سريعة المنفعة؛ والبلاغة زخرفة وحيلة، وهي شبيهة بالسراب، كما أن الأخرى شبيهة بالماء. قال: ومن خساسة البلاغة أن أصحابها يُسرقعون ويُستحَمَقون؛ وكان الكتاب قديماً في دُور الخلفاء ومجالس الوزراء يقولون: اللهم إنا نعوذ بك من رَقاعة المنشئين، وحماقية المعلمين، وركاكة النحويين، والمنشئ والمعلم والنحوي إخوة وإن كانوا لعالات؛ والآفة تشملهم والعادة تجمعهم، والنقص يغمهم، وإن اختلفت منازلهم، وتباينت أحوالهم. قال: ولو لم يكن من صنعة الإنشاء إلا أن المملكة العريضة الواسعة يُكتفى فيها بمنشئ واحد، ولا يُكتفى فيها بمائة كاتب حساب... وإذا كانت الحاجة إلى هذه أمس، كانت الأخرى في نفسها أخس؛ وبعد، فمصالح أحوال العامة والخاصة معلّقة بالحساب؛ على هذه الجديلة والوتيرة يجري الصغار والكبار والعلية والسفلة، وما زال أهل الحزم والتجارب يحثون أولادهم ومن لهم به عناية على تعلّم الحساب، ويقولون لهم: هو سلّة الخبز. وهذا كلام مستفيض؛ ومن عبر عما في نفسه بلفظ ملحون أو محرّف أو موضوع غير موضعه وأفهم غيره، وبلغ به إرادته، وأبلغ غيره، فقد كفى؛ والزائد على الكفاية فضل والفضل يُستغنى عنه كثيراً، والأصل يُفتقر إليه شديداً، قال: ومن آفات هذه الكتابة أن أصحابها يُقرّفون بالريبة، ويُرْمون بالآفة، كآل الحسن بن وهب وآل ابن ثَوابة.

قال: هذه ملحمة منكرة؛ فما كان من الجواب؟

قلتُ: ما قام من مجلسه إلا بعد الذلّ والقَمَاءة، وهكذا يكون حال من عاب القمر بالكلف، والشمس بالكسوف، وانتحل الباطل ونصر المبطل، وأبطل الحق

وزرى على المحقِّق. قلت: أيها الرجل، قولك هذا كان يسلم لو كان الإنشاء والتحرير والبلاغة بآئنة من صناعة الحساب والتحصيل والاستدراك وعمل الجماعة وعقد المؤامرة^(١). فأما وهي متصلة بها وداخله في جملتها ومشملة عليها وحاوية لها، فكيف يطرد حُكْمُك وتسلم دعواك؟ ألا تعلم أن أعمال الدواوين التي ينفرد أصحابها فيها بعمل الحساب فقيرة إلى إنشاء الكتب في فنون ما يصفونه ويتعاطونه؛ بل لا سبيل لهم إلى العمل إلا بعد تقدمة هذه الكتب التي مدارها على الإفهام البليغ والبيان المكشوف والاحتجاج الواضح، وذلك يوجد من الكاتب المنشئ الذي عبته وعرضته، وهذه الدواوين معروفة، والأعمال فيها موصوفة؛ وأنا أحصيتها لك كي تعلم أنك غالب وعن الصواب فيها منحرف:

فمنها ديوان الجيش، وديوان بيت المال، وديوان التوقيع والدار، وديوان الخاتم، وديوان القَص، وديوان التَّقْد والعيار ودُور الضرب، وديوان المظالم وديوان الشرطة والأحداث؛ هذا إلى توابع هذه الدواوين مثل باب العين والمؤامرات، وباب النوادر والتواريخ، وإدارة الكتب ومجالس الديوان وقَبْل وبعد، كما يلزم كاتب الحساب أن يعرف وجوه الأموال حتى إذا جباها وحصلها عمل الحساب أعماله فيها، فلا يُمكنه أن يَجِبِي إلا بالكتب البليغة والحجج اللازمة واللطائف المستعملة، ومن تلك الوجوه الفَيء، وهو أرض العنوة وأرض الصلح وإحياء الأرض والقطائع والصفايا والمقاسمة والوضائع وجزية رؤوس أهل الذمة وصدقات الإبل والبقر والغنم وأخماسُ الغنائم والمعادن والركاز والمال المدفون، وما يخرج من البحر وما يؤخذ من التجار إذا مرّوا بالعاشر واللُّقطة والضالّة وميراث من لا وارث له ومال الصدقة؛ إلى غير ذلك من الأمور المحتاجة إلى المكاتبات البالغة على الرسوم المعتادة والعادات الجارية، كعهد يُنشأ في إصلاح البريد وتقسيط الشرب، وكتاب في العمارة وإعادة ما نقص منها، وفي حَزْر العَلّة والدياس، وفي الدوالي والدواليب والعَرَافات، وفي القلب والقسمة، وفي تقدير الخُضْر المبكرة وفي المساحة وفي الطراز، وفي الجوالي، وفي قبض فرائض الصدقات، وفي افتتاح الخراجات، إلى غير ذلك من كُتُب المحاسبين.

فإن قلت: «هذا كلّه مستغنى عنه» كابرته وبهتت، لأن مدار المال ودُورَه، وزيادته ووفوره على هذه الدواوين التي إما أن يكون حظّ البلاغة فيها أكثر، وإما أن يكون أثر الحساب فيها أظهر، وإما أن يتكافأ؛ فعلى جميع الأحوال لا يكون الكاتب كاملاً، ولا لاسمه مستحقاً، إلا بعد أن ينهض بهذه الأثقال، ويجمع إليها أصولاً من الفقه مخلوطة بفروعها، وآيات من القرآن مضمومة إلى سعته فيها، وأخباراً كثيرة

(١) المؤامرة عمل تجمع فيه الأوامر الخارجة في مدة أيام الطمع ويوقع السلطان في آخره بإجازة ذلك.

مختلفة في فنون شتى لتكون عُدة عند الحاجة إليها، مع الأمثال السائرة والأبيات النادرة؛ والفقر البديعة؛ والتجارب المعهودة، والمجالس المشهودة، مع خطّ كبير مسبوك، ولفظ كوشي مَحُوك؛ ولهذا عزّ الكامل في هذه الصناعة، حتى قال أصحابنا: ما نظنّ أنّه اجتمع هذا كله إلّا لجعفر بن يحيى فإن كتابته كانت سوادية، وبلاغته سحباتية، وسياسته يونانية، وآدابه عربية، وشماله عراقية؛ أفلا ترى كيف غرق الحساب في غمار هذه الأبواب؟

ثم اعلم أن البليغ مُستَمَل بلاغته من العقل، ومأخذه فيها من التمييز الصحيح، وليس كذلك الحساب في متناوله فلو ظنّ ظانّ بأن مدار المُلْك على الحساب - فهو صحيح - ولكن بعد بلاغة المنشى، لأن السلطان يأمر وينهى ويلاطف ويخاطب ويحتج ويعنف ويوعد ويعد ويضمن ويمني ويعلق الأمل ويؤكد الرجاء ويحسم المأذة الضارة ويذيق الرعية حلاوة العدل ويجتنبهم مرارة الجور، ثم يجبي، فإذا جبي احتاج إلى الحساب حتى يكون بالحاصل عالماً، ثم يتقدّم بتوزيع ذلك على الحساب حتى يكون من الغلط آمناً، فانظر إلى المنزلتين كيف اختلفتا؟ وكيف حصلت المزية لإحدهما؛ ولو أنصفت لعلمت أن الصناعة جامعة بين الأمرين، أعني الحساب والبلاغة؛ والإنسان لا يأتي إلى صناعة فيشققها نصفين ويشرف أحد النصفين على الآخر.

وأما قولك: «إحدى الصناعتين هزل والأخرى جدّ» فيسما سؤلث لك نفسك على البلاغة، هي الجدّ، وهي الجامعة لثمرات العقل، لأنها تُحقّق الحقّ وتُبطل الباطل على ما يجب أن يكون الأمر عليه؛ ثم تحقيق الباطل وإبطال الحقّ لأغراض تختلف، وأغراض تأتلف، وأمور لا تخلو أحوال هذه الدنيا منها من خير وشرّ، وإباء وإذعان، وطاعة وعصيان، وعدل وعدول^(١)، وكفر وإيمان، والحاجة تدعو إلى صانع البلاغة وواضع الحكمة وصاحب البيان والخطابة؛ وهذا هو حدّ العقل والآخر حدّ العمل.

وأما قولك: «الإنشاء صناعة مجهولة المبدأ، والحساب معروف المبدأ» فقد خرقت، لأنّ مبدأها من العقل، وممرّها على اللفظ، وقرارها في الخطّ؛ وأنت إذا قلت هذا دللت من نفسك على أنه ليس لك ما تبصر به هذا المبدأ الشريف وهذا الأوّل اللطيف.

وأما قولك: «والبلاغة زخرفة وهي شبيهة بالسراب» فقد أوضحنا لك فيه ما كفى، فإن لم يكف فأنت محتاج إلى بيّنة أخرى.

وأما قولك: «إن أصحابها يُسترقعون» فهذا شنع من القول، ولو عرفت الصدق فيه لم تنس به ولم تنطق بحرف منه، فإن فيه زراية على السلف الصالح والصدر

(١) العدول: الجور.

الأول، ولو وجب أن يُستترَق البليغ إذا كان عاقلاً، لوجب أن يُستعقل العيى إذا كان أحمق؛ وهذا خُلف.

وأما قولك: «المنشئ والمعلم والنحوي إخوة في الركافة» فما يتعلم الناس إلا من المعلم والعالم والنحوي وإن ندر منهم واحد قليل البضاعة من الحق.

وأما قولك: «إن المملكة تكتفي بمنشئ واحد» فقد صدقت، وذلك أن هذا الواحد في قوته يفي بأحاد كثيرة، وهؤلاء الأحاد ليس في جميعهم وفاء بهذا الواحد، وهذا عليك لا لك. لكن بقي أن تفهم أنك محتاج إلى الأساكفة أكثر مما تحتاج إلى العطارين، ولا يدل هذا على أن الإسكاف أشرف من العطار، والعطار دون الإسكاف؛ والأطباء أقل من الخياطين، ونحن إليهم أحوج، ولا يدل على أن الطبيب دون الخياط.

وأما قولك: «ما زال الناس يحثون أولادهم على تعلم الحساب ويقولون: هو سلة الخبز» فهو كما قلت، لأن الحاجة إليه عامة للكبار والصغار؛ وأشرف الصناعات يحتاج إليها أشرف الناس، وأشرف الناس المملك، فهو محتاج إلى البليغ والمنشئ والمحزر، لأنه لسانه الذي به ينطق، وعينه التي بها يبصر، وعيبتة التي منها يستخرج الرأي ويستبصر في الأمر، ولأنه بهذه الخاصة لا يجوز أن يكون له شريك، لأنه حامل الأسرار، والمحدث بالمكنونات، والمفضى إليه بنات الصدور.

وأما قولك: «من عبّر عما في نفسه بلفظ ملحون أو محرّف وأفهم غيره فقد كفى» فكيف يصحّ هذا الحكم ويُقبل هذا الرأي؟ والكلام يتغير المراد فيه باختلاف الإعراب، كما يتغير الحكم فيه باختلاف الأسماء، وكما يتغير المفهوم باختلاف الأفعال؛ وكما ينقلب المعنى باختلاف الحروف؛ ولقد قال رجل بالرّيّ كان نبيلاً في حاله جليلاً في مرتبته عظيماً عند نفسه: «اقعد حتى تتغدى بنا» وهو يريد: «حتى تتغدى معنا»؛ فانظر إلى هذا المحال الذي ركه بلفظه وإلى المراد الذي جانبته بجهله؛ ولهذا نظائر غير خافية عليك ولا ساقطة دونك وكفى بالبلاغة شرفاً أنك لم تستطع تهجينها إلا بالبلاغة، ولم تهتد إلى الكلام عليها إلا بقوتها؛ فانظر كيف وجدت في استقلالها بنفسها ما يُقلها ويُقل غيرها؛ وهذا أمر بديع وشأن عجيب.

وأما قولك: «ومن آفاتها أن أصحابها يُقرّون بالرية ويُنالون بالعيب» فهذا ما لا يستحقّ الجواب، وما يضرّ الشمس نباح الكلاب؛ وصيانة اللسان عن هذا النوع أحسن؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: لو كان المرء أقوم من قذح لوجد له غامز. وآل ابن وهب وابن ثوبة كانوا أنبل وأفضل وأعقل من أن يُظنّ بهم ما لا يُظنّ بخساس

العبيد وسفهاء الناس وداصة^(١) الرعيّة وسفلة العامّة؛ على أنا ما سمعنا هذا إلا في مجلس ابن عبّاد، منه وممن كان يخيّط في هواه، ويتحرى بمثل هذه الأحاديث رضاه؛ وحسده لهم في صناعتهم يبعثه على هذه الأكاذيب عليهم؛ فالعجيب أنه يظن أن كذبه على غيره ينفي الصدق عن نفسه؛ ولو نزه لسانه ومجلسه ومذهبه وأبوتّه لكان أولى به وأزین له، ولكن النعمة والقدرة إذا عديمتا عقلاً سائساً وحزماً حارساً وديناً متيناً وطريقاً قويمًا أوردتا ولم تُصدرا وحذلتا ولم تنصرا؛ ونعوذ بالله من نعمة تحورُ بلاءً، ومرحباً ببلاءٍ يورث يقظة ويكون تمحيصاً لما نقص من التقصير؛ ولكن من هذا الذي يشرب فلا يسكر ولا يئمل؟ ومن هذا الذي إذا سكر عقل؟ ومن هذا الذي إذا صحا لا يعتقب من شرايه خماراً يصدع الرأس ويمكن الوسواس؟

فقال: هذه جملة قامعة لمن ادعى دعواه أو نحا منحاه؛ وأتى لك هذا؟ لِمَ لا تُداخلُ صاحبَ ديوانٍ ولمَ ترضى لنفسك بهذا اللبوس؟

فقلت: «أنا رجلٌ حبُّ السلامة غالبٌ عليّ، والقناعةُ بالطفيف محبوبَةٌ عندي».

فقال: كنييت عن الكسل بحبّ السلامة، وعن الفُسولة بالرضا باليسير.

قلت: إذا كنت لا أصلُ إلى السلامة إلا بالفُسولة، ولا أتطعم الراحة إلا بالكسل، فمرحباً بهما.

فقال: لكل إنسان رأيٌ واختيارٌ وعادةٌ ومنشأٌ ومألوفٌ وقُرْناءٌ متى زُحزح عنها قَلِقَ، ومتى أُرِيغَ على سواها فَرِقَ؛ أظنُّ أنه قد نصّف اللّيل. قلت: لعلّه. قال: في الدّعة؛ قد خبأتُ لك مسألة، وسألقيها عليك بعدها - إن شاء الله تعالى - وانصرفت.

الليلة الثامنة

وقال لي مرة أخرى: أوصل وهب بن يعيش الرقي اليهودي رسالة يقول في عرضها بعد التقريظ الطويل العريض: إن هنا طريقاً في إدراك الفلسفة مذلة مسلوكة مختصرة فسيحة، ليس على سالكها كد ولا شق في بلوغ ما يريد من الحكمة ونيل ما يطلب من السعادة وتحصيل الفوز في العاقبة؛ وإن أصحابنا طولوا وهولوا وطرحوا الشوك في الطريق، ومنعوا من الجواز عليه غشا منهم وبخلاً ولؤم طباع وقلة نصح وإتباعاً للطالب وحسداً للراغب، وذلك أنهم اتخذوا المنطق والهندسة وما دخل فيهما معيشة ومكسبة، ومأكلة ومشربة، فصار ذلك كسور من حديد لطلاب الحكمة والمحبين للحقيقة والمتصفحين لأنحاء العالم، وكلاماً هذا معناه، وإلى هذا يرجع مغزاه.

فكان من الجواب: قد عرفتُ مذهب ابن يعيش في هذا الباب، وهو جاري، وكتب هذه الرسالة على هذا الطراز بالأمس إلى المليك السعيد سنة سبعين، وتقرّب بها، ونفعته بالمسألة والتفقد له، فإنه شديد الفقر، ظاهر الخصاص، لاصق بالدقعا؛ وللذي قاله وادعاه، وقصده وانتحاه، وجه واضح وحجة ظاهرة؛ وللذي قاله أصحابنا - أعني مخالفه - وجه أيضاً وتأويل وللقولين أنصار وحماة، وحفظة ورعاة.

قال: هات - على بركة الله - فإني أحب أن أسمع في هذا الخطب كل ما فيه وأكثر ما يتصل به؛ فكان من الجواب أن ابن يعيش يريد بهذه الخطبة أن عمر الإنسان قصير، وعلم العالم كثير، وسره مغمور؛ وكيف لا يكون كذلك وهو ذو صفائح مرگبة بالوضع المحكم، وذو نضائد مزينة بالتأليف المعجب المتقن؛ والإنسان الباحث عنه وعمّا يحتويه ذو قوى متقاصرة، وموانع معترضة، ودواع ضعيفة، وإنه مع هذه الأحوال منتبه بالحس، حالم بالعقل، عاشق للشاهد، ذاهل عن الغائب، مستأنس بالوطن الذي ألفه ونشأ فيه، مستوحش من بلد لم يسافر إليه ولم يلّم به وإن كان صدر عنه، فليس له بذلك معرفة باقية ولا ثقة تامة؛ وإن الأولى بهذا الإنسان المنعوت بهذا الضعف والعجز أن يلتمس مسلكاً إلى سعادته ونجاته قريباً ويعتصم بأسهل الأسباب على قدر جهده وطوقه؛ وإن أقرب الطرق وأسهل الأسباب هو في معرفة الطبيعة والنفس والعقل والإله تعالى، فإنه متى عرف هذه الجملة بالتفصيل، وأطلع على هذا التفصيل بالجملة، فقد فاز الفوز الأكبر ونال المملك الأعظم، وكفي مؤونة عظيمة في

قراءة الكتب الكبار ذوات الورق الكثير، مع العناية المتّصل في الدرس والتصحيح والنّصّب في المسألة والجواب، والتنقيح عن الحق والصواب.

وهذا الذي قاله ابن يعيش ليس بحيف ولا خارج عن حومة الحق، وإن كان الأمر فيه أيضاً صعباً وشاقاً وهائلاً وعاملاً، ولكن ليس لكّل أحد هذه القوّة الفائضة، وهذه الخصوصية الناهضة؛ وهذا الاستبصار الحسّن، وهذا الطبع الوقاد، والذهن المنقاد، والقريحة الصافية والاستبانة والتأمل، لأن هذه القوّة الإهيّة، فإن لم تكن إهيّة فهي ملكية؛ وإن لم تكن ملكية فهي في أفق البشرية، وليس يوجد صاحب هذا النعت إلا في الشاذّ النادر، وفي دهر مديد بين أمة جمّة العدد؛ والفائق من كل شيء والبائن من كل صنف عزيز في هذا العالم الوحشي، كما أن الرديء والفاقد معدوم في هذا العالم الإلهي، ويمكن أن يقال بالمثل الأدنى: إن من يتكلم بالإعراب والصحة ولا يلحن ولا يخطئ ويجري على السليقة الحميدة والضريبة السليمة، قليل أو عزيز، وإنّ الحاجة شديدة لمن عدم هذه السجية وهذا المنشأ إلى أن يتعلّم النحو ويقف على أحكامه، ويجري على منهاجه، ويفي بشروطه في أسماء العرب وأفعالها وحروفها وموضوعاتها ومستعملاتها ومهملاتها؛ ومتى اتفق إنساناً بهذه الحلية وعلى هذا النجار، فلعمري إنّه غني عن تطويل النحويين كما يستغني قارض الشعر بالطبع عن علم العروض، وهكذا يستغني صاحب تلك القوّة التي أشار إليها ابن يعيش عن ذلك، ولكن أين ذلك الفرد والشاذّ والنادر؟ فإن حضر فما تفعل معه إلا أن تقلده وتأخذ عنه وتتبعه.

وإنما المدار على أن تكون أنت بهذا الكمال حائزاً لهذه الغاية، ولا سبيل لك إليها من تلقاء نفسك، وإنما هو شيء يأتي من تلقاء غيرك، فإذن بالضرورة وبالواجب ينبغي أن تخطو على آثار المنطقيين والطبيعيين والمهندسين بالزحف والعناء والتكلف والدءوب حتى تصير متشبهاً بذلك الرجل الفاضل والواحد الكامل والبدیع النادر؛ فقد بان من هذا القدر صواب ما أشار إليه ابن يعيش وانكشف أيضاً وجه ما حث عليه مخالفوه؛ ولا عيب على المنقوص أن يطلب الزيادة ببذل المجهود، وإن الكامل مربوط بما منح من العطيّة من غير طلب.

وأما قوله في صدر كلامه: «إن القوم صدّوا عن الطريق وطرخوا الشوك فيه، واتخذوا نشر الحكمة فحاً للمثالة العاجلة»، فما أبعد، بل قارب الحقّ فإن «متى» كان يُملي ورقة بدرهم مقتدرٍ وهو سكران لا يعقل، ويتهمك، وعنده أنه في ربح، وهو من الأخسرين أعمالاً، الأسفلين أحوالاً.

ثم إنّي أيها الشيخ - أحيك الله لأهل العلم وأحيى بك طالبيه - ذكرت للوزير مناظرة جرت في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات بين أبي سعيد السيرافي وأبي بشر متى واختصرتها.

فقال لي: اكتب هذه المناظرة على التمام فإن شيئاً يجري في ذلك المجلس النبیه بين هذين الشيخين بحضرة أولئك الأعلام ينبغي أن يُغتنم سماعه، وتوَعَى فوائده، ولا يُتَهاوَنَ بشيء منه.

فكتبتُ: حدّثني أبو سعيد بلُمع من هذه القِصّة. فأما علي بن عيسى الشيخ الصالح فإنّه رواها مشروحة.

لما انعقد المجلس سنة ستّ وعشرين وثلاثمائة، قال الوزير ابن الفرات للجماعة - وفيهم الخالديّ وابن الأخشاد والكتبيّ وابن أبي بشر وابن رباح بن كعب وأبو عمرو قدامة بن جعفر والزهرّيّ وعلي بن عيسى الجِزّاح وابن فِراس وابن رشيد وابن عبد العزيز الهاشميّ وابن يحيى العلويّ ورسول ابن طغج من مصر والمرزبانّيّ صاحب آل سامان -: ألا يتندب منكم إنسان لمناظرة متّى في حديث المنطق، فإنّه يقول: لا سبيل إلى معرفة الحقّ من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشرّ والحجّة من الشبهة والشكّ من اليقين إلا بما حويناها من المنطق وملكانها من القيام به، واستفدناها من واضعه على مراتبه وحدوده، فاطلعنا عليه من جهة اسمه على حقائقه. فأحجم القوم وأطرقوا. قال ابن الفرات: واللّه إن فيكم لَمَن يفي بكلامه ومناظرته وكسر ما يذهب إليه وإنّي لأعدّكم في العلم بحاراً، وللدّين وأهله أنصاراً، وللحقّ وطّالبه مناراً؛ فما هذا الترامز والتغامز اللدّان تجلّون عنهما؟ فرجع أبو سعيد السيرافيّ رأسه فقال: اعذر أيّها الوزير، فإن العلم المصون في الصدر غير العلم المعروض في هذا المجلس على الأسماع المُصَيخَة والعيون المحدّقة والعقول الحاذة والألباب الناقدة؛ لأنّ هذا يستصحب الهيبة، والهيبة مكسرة، ويجتلب الحياء، والحياء مغلبة؛ وليس البراز في معركة خاصّة كالمصاع في بقعة عامّة.

فقال ابن الفرات: أنت لها أبا سعيد، فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك، والانتصار في نفسك راجع إلى الجماعة بفضلك. فقال أبو سعيد: مخالفة الوزير فيما رسّمه هُجْنَة، والاحتجاجُ عن رأيه إخلاد إلى التقصير؛ ونعوذ باللّه من زلّة القَدَم، وإياه نسأل حُسن المعونة في الحرب والسلم.

ثمّ واجه متّى فقال: حدّثني عن المنطق ما تعني به؟ فإنّا إذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه وردّ خطئه على سننٍ مرضيٍّ وطريقة معروفة.

قال متّى: أعني به أنّه آلة من آلات الكلام يُعرَف بها صحيح الكلام من سقيمه، وفاسد المعنى من صالحه، كالميزان، فإنّي أعرف به الرُّجحان من النقصان، والشائل من الجانح.

فقال أبو سعيد: أخطأت، لأنّ صحيح الكلام من سقيمه يُعرَف بالنظم المألوف والإعراب المعروف إذا كنّا نتكلّم بالعربيّة؛ وفاسد المعنى من صالحه يُعرَف بالعقل إذا كنّا نبحث بالعقل؛ وهَبِكْ عرفتِ الراجح من الناقص من طريق الوزن، فمن لكّ

بمعرفة الموزون أيّما هو حديد أو ذهب أو شَبَهٌ^(١) أو رصاص؟ فأراك بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدّها؛ فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك، وفي تحقيقه كان اجتهادك، إلاّ نفعاً يسيراً من وجه واحد، وبقيت عليك وجوه، فأنت كما قال الأوّل:

حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

وبعد، فقد ذهب عليك شيء هاهنا، ليس كل ما في الدنيا يوزن، بل فيها ما يوزن، وفيها ما يُكال، وفيها ما يُذرع، وفيها ما يُمسح وفيها ما يُحزّر وهذا وإن كان هكذا في الأجسام المرئية، فإنه على ذلك أيضاً في المعقولات المقررة؛ والإحساسات ظلال العقول تحكيها بالتقريب والتباعد، مع الشبه المحفوظة والمماثلة الظاهرة.

ودع هذا؛ إذا كان المنطق وَضَعَهُ رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها، فمن أين يلزم التزك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه قاضياً وحكماً لهم وعليهم، ما شهد لهم به قبلوه، وما أنكروه رفضوه؟

قال متى: إنما لزم ذلك لأن المنطق بحث عن الأغراض المعقولة والمعاني المدركة، وتصفح للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة؛ والناس في المعقولات سواء ألا ترى أنّ أربعة وأربعة ثمانية سواء عند جميع الأمم، وكذلك ما أشبهه.

قال أبو سعيد: لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة وطرائقها المتباينة إلى هذه المرتبة البينة في أربعة وأربعة وأتتهما ثمانية، زال الاختلاف وحضر الاتفاق، ولكن ليس الأمر هكذا، ولقد موّهت بهذا المثال، ولكم عادة بمثل هذا التمويه.

ولكن مع هذا أيضاً إذا كانت الأغراض المعقولة والمعاني المدركة لا يوصل إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف، أفليس قد لظمت الحاجة إلى معرفة اللغة؟ قال: نعم. قال: أخطأت، قل في هذا الموضع: بلى. قال: بلى، أنا أقلدك في مثل هذا. قال: أنت إذأ لست تدعوننا إلى علم المنطق، إنما تدعو إلى تعلم اللغة اليونانية وأنت لا تعرف لغة يونان، فكيف صرت تدعوننا إلى لغة لا تفي بها؟ وقد عفت منذ زمان طويل، وباد أهلها، وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها، ويتفاهمون أغراضهم بتصاريقها؛ على أنك تنقل من السريانية، فما تقول في معان متحوّلة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية، ثم من هذه إلى أخرى عربية؟

قال متى: يونان وإن بادت مع لغتها، فإن الترجمة حفظت الأغراض وأدت المعاني، وأخلصت الحقائق.

قال أبو سعيد: إذا سلّمت لك أنّ الترجمة صدقت وما كذبت، وقوّمت وما حرّفت، ووَزنت وما جَزفت، وأنها ما التاثت ولا حافت، ولا نقصت ولا زادت، ولا قدّمت ولا أخرت، ولا أخلّت بمعنى الخاصّ والعامّ ولا بأخصّ الخاصّ ولا بأعمّ العامّ - وإن كان هذا لا يكون، وليس هو في طبائع اللغات ولا في مقادير المعاني - فكأنك تقول: لا حجة إلا عقول يونان، ولا برهان إلا ما وضعوه، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه.

قال متى: لا، ولكنهم من بين الأمم أصحاب عناية بالحكمة والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه، وعن كلّ ما يتصل به وينفصل عنه، وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر وانتشر ما انتشر وفشا ما فشا ونشأ ما نشأ من أنواع العلم وأصناف الصنائع؛ ولم نجد هذا لغيرهم.

قال أبو سعيد: أخطأت وتعصبت ومِلت مع الهوى، فإنّ عِلْمَ العالم مبثوث في العالم بين جميع من في العالم، ولهذا قال القائل:

العالم في العالم مبثوث ونحوه العاقل محشوث

وكذلك الصناعات مفوضة على جميع من على جَدَدِ الأرض؛ ولهذا غلب عِلْمٌ في مكان دون عِلْم، وكثرت صناعة في بقعة دون صناعة؛ وهذا واضح والزيادة عليه مشغلة؛ ومع هذا فإنما كان يصحّ قولك وتسلم دعواك لو كانت يونانُ معروفةً من بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة، والفطنة الظاهرة، والبنية المخالفة، وأنهم لو أرادوا أن يخطئوا لما قدّروا، ولو قدّروا أن يكذبوا ما استطاعوا وأن السكينة نزلت عليهم، والحقّ تكفّل بهم، والخطأ تبرأ منهم؛ والفضائل لصقت بأصولهم وفروعهم، والردائل بعدت من جواهرهم وعروقهم؛ وهذا جهلٌ ممّن يظنّه بهم، وعنادٌ ممّن يدّعيه لهم؛ بل كانوا كغيرهم من الأمم يصيبون في أشياء ويخطئون في أشياء، ويعلمون أشياء ويجهلون أشياء، ويصدقون في أمور ويكذبون في أمور، ويحسِنون في أحوال ويسئون في أحوال؛ وليس واضح المنطق يونانُ بأسرها، إنما هو رجل منهم، وقد أخذ ممّن قبله كما أخذ عنه ممّن بعده؛ وليس هو حجّة على هذا الخلق الكثير والجَمّ الغفير، وله مخالفون منهم ومن غيرهم؛ ومع هذا فالاختلاف في الرأي والنظر والبحث والمسألة والجواب سنخ^(١) وطبيعة، فكيف يجوز أن يأتي رجل بشيء يرفع به هذا الخلاف أو يحلّله أو يؤثّر فيه؟ هيهات هذا محال، ولقد بقي العالم بعد منطقته على ما كان عليه قبل منطقته؛ فامسح وجهك بالسלוّة عن شيء لا يستطيع لأنّه منعقد بالفطرة والطباع؛ وأنت لو فرغت بالك وصرفت عنايتك إلى معرفة هذه اللّغة التي تحاورنا بها، وتجارينا فيها، وتدارس أصحابنا بمفهوم أهلها وتشرح كتب يونانَ بعبارة أصحابها، لعلمت أنّك غنيّ عن معاني يونان كما أنك غنيّ عن لغة يونان.

(١) السنخ: الأصل.

وها هنا مسألة، تقول: إن الناس عقولهم مختلفة، وأنصباؤهم منها متفاوتة. قال: نعم. قال: وهذا الاختلاف والتفاوت بالطبيعة أو بالاكتساب؟ قال: بالطبيعة. قال: فكيف يجوز أن يكون هاهنا شيء يرتفع به هذا الاختلاف الطبيعي والتفاوت الأصلي؟ قال متى: هذا قد مر في جملة كلامك آنفاً. قال أبو سعيد: فهل وصلته بجواب قاطع وبيان ناصح؟ ودع هذا؛ أسألك عن حرف واحد، وهو دائر في كلام العرب، ومعانيه متميزة عند أهل العقل؛ فاستخرج أنت معانيه من ناحية منطوق أرسطاطاليس الذي تدل به وتباهي بتفخيمه، وهو (الواو) ما أحكامه؟ وكيف موقعه؟ وهل هو على وجه أو وجوه؟

فبُهِتَ متى وقال: هذا نحو، والنحو لم أنظر فيه، لأنه لا حاجة بالمنطوق إليه، وبالنحو حاجة شديدة إلى المنطق، لأن المنطق يبحث عن المعنى، والنحو يبحث عن اللفظ، فإن مر بالمنطوق باللفظ فبالعرض، وإن عثر النحوي بالمعنى فبالعرض والمعنى أشرف من اللفظ، واللفظ أوضع من المعنى.

فقال أبو سعيد: أخطأت، لأن الكلام والنطق واللغة واللفظ والإفصاح والإعراب والإبانة والحديث والإخبار والاستخبار والعرض والتمني والنهي والحض والدعاء والنداء والطلب كلها من واد واحد بالمشاكلة والمماثلة، ألا ترى أن رجلاً لو قال: «نطق زيد بالحق ولكن ما تكلم بالحق، وتكلم بالفحش ولكن ما قال الفحش، وأعرب عن نفسه ولكن ما أفصح، وأبان المراد ولكن ما أوضح، أو فاه بحاجته ولكن ما لفظ، أو أخبر ولكن ما أنبا»، لكان في جميع هذا محرّفاً ومناقضاً وواضعاً للكلام في غير حقه، ومستعملاً للفظ على غير شهادة من عقله وعقل غيره؛ والنحو منطوق ولكنه مسلوخ من العربية، والمنطق نحو، ولكنه مفهوم باللغة، وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعي والمعنى عقلي؛ ولهذا كان اللفظ بائداً على الزمان، لأن الزمان يقفو أثر الطبيعة بأثر آخر من الطبيعة ولهذا كان المعنى ثابتاً على الزمان، لأن مستملي المعنى عقل والعقل إلهي، ومادة اللفظ طينية، وكل طيني متهايت؛ وقد بقيت أنت بلا اسم لصناعتك التي تتحلها، وأتلك التي تزهى بها، إلا أن تستعير من العربية لها اسماً فتعار، ويسلم لك ذلك بمقدار؛ وإذا لم يكن لك بد من قليل هذه اللغة من أجل الترجمة فلا بد لك أيضاً من كثيرها من أجل تحقيق الترجمة واجتلاب الثقة والتوقي من الخلة اللاحقة.

فقال متى: يكفيني من لغتكم هذه الاسم والفعل والحرف، فإني أتبلغ بهذا القدر إلى أغراض قد هدبثها لي يونان.

قال أبو سعيد: أخطأت، لأنك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها؛ وكذلك أنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف، فإن الخطأ والتحريف في الحركات كالخطأ والفساد

في المتحرّكات، وهذا باب أنت وأصحابك ورهطك عنه في غفلة؛ على أنّ هاهنا سرّاً ما علّق بك، ولا أسفر لعقلك؛ وهو أن تعلم أن لغة من اللغات لا تُطابق لغةً أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها، في أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها، واستعارتها وتحقيقها، وتشديدها وتخفيفها، وسعتها وضيقها ونظمها ونثرها وسجعها، ووزنها وميلها، وغير ذلك ممّا يطول ذكره؛ وما أظنّ أحداً يدفع هذا الحكم أو يشكّ في صوابه ممن يرجع إلى مُسكّة من عقل أو نصيب من إنصاف، فمن أين يجب أن تُثَقّ بشيء تُرجم لك على هذا الوصف؟ بل أنت إلى تعرّف اللغة العربيّة أحوجّ منك إلى تعرّف المعاني اليونانية؛ على أنّ المعاني لا تكون يونانية ولا هندية، كما أنّ اللغات تكون فارسيّة وعربيّة وتركيّة؛ ومع هذا فإنّك تزعم أن المعانيّ حاصلّة بالعقل والفحص والفكر، فلم يبق إلاّ أحكام اللّغة، فلم تُزري على العربيّة وأنت تشرح كتب أرسطوطاليس بها، مع جهلك بحقيقتها؟

وحَدّثني عن قائل قال لك: حالي في معرفة الحقائق والتصفح لها والبحث عنها حال قوم كانوا قبل واضع المنطق، أنظر كما نظروا، وأتدبّر كما تدبّروا، لأنّ اللغة قد عرفتها بالمنشأ والوراثه، والمعاني نقرتُ عنها بالنظر والرأي والاعتقَاب والاجتهاد. ما تقول له؟ أتقول: إنّه لا يصحّ له هذا الحكم ولا يستتبّ هذا الأمر، لأنه لا يعرف هذه الموجودات من الطريق التي عرفتها أنت؟ ولعلّك تفرح بتقليده لك - وإن كان على باطل - أكثر ممّا تفرح باستبداده وإن كان على حقّ؛ وهذا هو الجهل المبين، والحكم المّشين.

ومع هذا، فحدّثني عن الواو ما حكمه؟ فإني أريد أن أبيّن أنّ تفخيمك للمنطق لا يغني عنك شيئاً، وأنت تجهل حرفاً واحداً في اللغة التي تدعو بها إلى حكمة يونان، ومَنْ جهل حرفاً أمكن أن يجهل حرفاً، ومن جهل حرفاً جاز أن يجهل اللغة بكمالها، فإن كان لا يجهلها كلّها ولكن يجهل بعضها، فلعلّه يجهل ما يحتاج إليه، ولا ينفعه فيه علم ما لا يحتاج إليه. وهذه رتبة العامّة أو رتبة من هو فوق العامّة بقدر يسير؛ فلم يتأبى على هذا ويتكبّر، ويتوهّم أنه من الخاصّة وخاصّة الخاصّة، وأنه يعرف سرّ الكلام وغامض الحكمة وخفيّ القياس وصحيح البرهان؟

وإنما سألتك عن معاني حرف واحد، فكيف لو نثرتُ عليك الحروف كلّها، وطالبتُك بمعانيها ومواضعها التي لها بالحق، والتي لها بالتجوّز؛ سمعتكم تقولون: إن «في» لا يعرف النحويّون مواقعها، وإنما يقولون: هي «للوّعاء» كما يقولون: «إن الباء للإلصاق»؛ وإن «في» تقال على وجوه: يقال: «الشيء في الإناء» «والإناء في المكان» «والسائس في السياسة» «والسياسة في السائس».

أترى أن هذا التشقيق هو من عقول يونان ومن ناحية لغتها؟ ولا يجوز أن يُعقل هذا بعقول الهند والترك والعرب؟ فهذا جهلٌ من كلّ من يدّعيه، وخطلٌ من القول الذي أفاض

فيه؛ النحويُّ إذا قال «في» للوعاء فقد أفصح في الجملة عن المعنى الصحيح، وكنتى مع ذلك عن الوجوه التي تظهر بالتفصيل؛ ومثل هذا كثير، وهو كافٍ في موضع التَّكْنِيَةِ.

فقال ابن الفرات: أيها الشيخ الموقن، أجبه بالبيان عن مواقع «الواو» حتى تكون أشدَّ في إفحامه، وحقَّق عند الجماعة ما هو عاجز عنه، ومع هذا فهو مشنَّع به.

فقال أبو سعيد: للواو وجوه ومواقع: منها معنى العطف في قولك: «أكرمت زيدا وعمراً» ومنها القسم في قولك: «والله لقد كان كذا وكذا» ومنها الاستئناف في قولك: «خرجتُ وزيد قائم» لأن الكلام بعده ابتداء وخبر، ومنها معنى رُبِّ التي هي للتقليل نحو قولهم^(١):

وقاتِمِ الأعماقِ خاويِ المختَرِقِ

ومنها أن تكون أصلية في الاسم، كقولك: واصلٌ وابدٌ وافيٌ، وفي الفعل كذلك، كقولك: وَجَلَّ يُوَجِّلُ؛ ومنها أن تكون مقحمة نحو قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَلَكُمُ اللَّجِينِ وَنَدَيْتُهُ﴾ [الصفات: ١٠٣، ١٠٤]، أي نادينا؛ ومثله قول الشاعر^(٢):

فلما أجزنا ساحةَ الحيِّ وانتحى

المعنى: انتحى بنا؛ ومنها معنى الحال في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي آلِهِمْ وَكَهْلَهُمْ﴾ [آل عمران: ٤٦] أي يكلم الناس في حال كهولته؛ ومنها أن تكون بمعنى حرف الجرِّ، كقولك: استوى الماء والخشبة أي مع الخشبة.

فقال ابن الفرات لمتى: يا أبا بشر: أكان هذا في نحوك.

ثم قال أبو سعيد: دع هذا، ها هنا مسألة علاقتها بالمعنى العقلي أكثر من علاقتها بالشكل اللفظي، ما تقول في قول القائل: «زيد أفضل الإخوة»؟ قال: صحيح. قال: فما تقول إن قال: «زيد أفضل إخوته»؟ قال: صحيح، قال: فما الفرق بينهما مع الصَّحَّة؟

فبَلَّحَ^(٣) وَجَنَحَ وَغَصَّ بِرِيقِهِ.

فقال أبو سعيد: أفتيت على غير بصيرة ولا استبانة؛ المسألة الأولى جوابك عنها صحيح وإن كنت غافلاً عن وجه صحتها؛ والمسألة الثانية جوابك عنها غير صحيح وإن كنت أيضاً ذاهلاً عن وجه بطلانها.

قال متى: يبين لي ما هذا التهجين؟

(١) شطر من بيت شعر لرؤبة بن العجاج.

(٢) شطر من بيت شعر لامرئ القيس.

(٣) أي أعيب وعجز.

قال أبو سعيد: إذا حضرت الحَلَقَة استفدت، ليس هذا مكان التدريس هو مجلس إزالة التلبس، مع من عادته التمويه والتشبيه؛ والجماعة تعلم أنك أخطأت، فلم تدعي أن النحوي إنما ينظر في اللفظ دون المعنى، والمنطقي ينظر في المعنى لا في اللفظ؟ هذا كان يصح لو أن المنطقي كان يسكت ويحيل فكره في المعاني، ويرتب ما يريد بالوهم السانح والخاطر العارض والحَدَس الطارئ؛ فأما وهو يرغب أن يبرز ما صح له بالاعتبار والتصفح إلى المتعلم والمُنَاطِر، فلا بد له من اللفظ الذي يشتمل على مراده، ويكون طباقاً لغرضه، وموافقاً لقصده.

قال ابن الفرات لأبي سعيد: تَمَّم لنا كلامك في شرح المسألة حتى تكون الفائدة ظاهرة لأهل المجلس، والتبكيث عاملاً في نفس أبي بشر.

فقال: ما أكره من إيضاح الجواب عن هذه المسألة إلا مَلَل الوزير؛ فإن الكلام إذا طال مُلَّ.

فقال ابن الفرات: ما رغبت في سماع كلامك وبين المَلَلِ علاقة؛ فأما الجماعة فحرضها على ذلك ظاهر.

فقال أبو سعيد: إذا قلت: «زيد أفضل إخوته» لم يجز، وإذا قلت: «زيد أفضل الإخوة» جاز؛ والفصل بينهما أن إخوة زيد هم غيرُ زيد، وزيدٌ خارج عن جملتهم. والدليل على ذلك أنه لو سأل سائل فقال: «من إخوة زيد» لم يجز أن تقول: زيد وعمرو وبكر وخالد وإنما تقول: بكر وعمرو وخالد، ولا يدخل زيد في جملتهم، فإذا كان زيد خارجاً عن إخوته صار غيرهم، فلم يجز أن تقول: أفضل إخوته، كما لم يجز أن تقول: «إن حمارك أفره البغال» لأن الحمير غير البغال، كما أن زيدا غير إخوته، فإذا قلت: «زيد خير الإخوة» جاز، لأنه أحد الإخوة، والاسم يقع عليه وعلى غيره، فهو بعض الإخوة، ألا ترى أنه لو قيل: «من الإخوة»؟ عددته فيهم، فقلت: «زيد وعمرو وبكر وخالد» فيكون بمنزلة قولك: «حمارك أفره الحمير» لأنه داخل تحت الاسم الواقع على الحمير. فلما كان على ما وصفنا جاز أن يضاف إلى واحد منكور يدل على الجنس، فتقول: «زيد أفضل رجل» و«حمارك أفره حمار» فيدل «رجل» على الجنس كما دلَّ الرجال؛ وكما في «عشرين درهماً ومائة درهم».

فقال ابن الفرات: ما بعد هذا البيان مزيد، ولقد جلَّ علم النحو عندي بهذا الاعتبار وهذا الإسفار.

فقال أبو سعيد: معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك، وإن زاغ شيء عن هذا النعت فإنه لا يخلو من أن يكون سائغاً بالاستعمال النادر والتأويل البعيد، أو مردوداً لخروجه عن عادة القوم الجارية على

فطرتهم . فأما ما يتعلّق باختلاف لغات القبائل فذلك شيء مسلّم لهم ومأخوذ عنهم ، وكلّ ذلك محصور بالتتبع والرواية والسماع والقياس المطّرد على الأصل المعروف من غير تحريف ، وإنما دخل العُجب على المنطقيّين لظنهم أن المعاني لا تُعرّف ولا تُستوضح إلا بطريقهم ونظرهم وتكلّفهم ، فترجموا لغةً هم فيها ضعفاء ناقصون . وجعلوا تلك الترجمة صناعة ، وأدّعوا على النحويين أنهم مع اللفظ لا مع المعنى .

ثم أقبل أبو سعيد على متى فقال : أما تعرف يا أبا بشر أن الكلام اسم واقع على أشياء قد ائتلفت بمراتب ، وتقول بالمثل : هذا ثوب والثوب اسم يقع على أشياء بها صار ثوباً ، لأنّه نسج بعد أن غزل ، فسدّاته لا تكفي دونه لُحْمته ولُحْمته لا تكفي دون سدّاته ، ثم تأليفه كنسجه ، وبلاغته كقصارته ورقّة سلّكه كرقّة لفظه ، وغلظ غزله ككثافة حروفه ، ومجموع هذا كلّ ثوب ، ولكن بعد تقدمة كلّ ما يُحتاج إليه فيه .

قال ابن الفرات : سله يا أبا سعيد عن مسألة أخرى ، فإن هذا كلّما توالى عليه بان انقطاعه ، وانخفض ارتفاعه ، في المنطق الذي ينصره ، والحقّ الذي لا يُبصره .

قال أبو سعيد : ما تقول في رجل يقول : «لهذا عليّ درهم غير قيراط ؛ ولهذا الآخر عليّ درهم غير قيراط» .

قال : مالي علم بهذا التَّمط .

قال : لست نازعاً عنك حتى يصحّ عند الحاضرين أنك صاحب مخرقة ورزق^(١) ، هاهنا ما هو أخفّ من هذا ، قال رجل لصاحبه : «بكم الثوبان المصبوغان» ، وقال آخر : «بكم ثوبان مصبوغان» وقال آخر : «بكم ثوبان مصبوغين» بيّن هذه المعاني التي تضمّنها لفظ لفظ .

قال متى : لو نثرث أنا أيضاً عليك من مسائل المنطق أشياء لكان حالك كحالي .

قال أبو سعيد : أخطأت ، لأنك إذا سألتني عن شيء أنظر فيه ، فإن كان له علاقة بالمعنى وصحّ لفظه على العادة الجارية أجبث ، ثم لا أبالي أن يكون موافقاً أو مخالفاً ، وإن كان غير متعلّق بالمعنى رددته عليك ، وإن كان متّصلاً باللفظ ولكن على وُضع لكم في الفساد على ما حشوتهم به كتبكم رددته أيضاً لأنه لا سبيل إلى إحداث لغة في لغة مقرّرة بين أهلها .

ما وجدنا لكم إلا ما استعرتهم من لغة العرب كالسبب والآلة والسلب والإيجاب والموضوع والمحمول والكون والفساد والمهمّل والمحصور ، وأمثلة لا تنفع ولا تُجدي ، وهي إلى العبيّ أقرب ، وفي الفهاهة أذهب .

ثم أنتم هؤلاء في منطقتكم على نقص ظاهر ، لأنكم لا تفون بالكتب ولا هي

(١) ورد في اللسان ومستدرك التاج : رجل زرق : أي خداع .

مشروحة، فتدعون الشُّعر ولا تعرفونه وتذكرون الخطابة وأنتم عنها في منقطع التراب؛ وقد سمعتُ قائلكم يقول: الحاجة ماسة إلى كتاب البرهان. فإن كان كما قال فلمَ قُطِع الزمانُ بما قبله من الكتب، وإن كانت الحاجة قد مسّت إلى ما قبل البرهان، فهي أيضاً ماسةٌ إلى ما بعد البرهان، وإلا فلمَ صُنِّف ما لا يُحتاج إليه ويُسْتغنى عنه. هذا كله تخليط وِزْزِق وتهويل ورعد وبرق.

وإنما بودّكم أن تشعلوا جاهلاً، وتستدلّوا عزيزاً؟ وغايتكم أن تهوّلوا بالجنس والنوع والخاصّة والفصل والعرض والشخص، وتقولوا: الهلّية والأينية والماهية والكيفية والكمية والذاتية والعرضية والجوهرية والهولوية والصورية والأينية والليسية والنفسية؟ ثم تتناولون فتقولون: «جننا بالسُّخر» في قولنا: «لا»^(١) في شيء من «ب» و«ج» في بعض «ب»، ف، «لا» في بعض «ج» و«لا» في كل «ب» و«ج» في كل «ب» فإذاً «لا» في كل «ج»؛ هذا بطريق الخُلف، وهذا بطريق الاختصاص.

وهذه كلّها خرافات وتُرّهات، ومغالق وشبكات؛ ومن جاد عقله وحسن تمييزه ولطف نظره وثقّب رأيه وأنارت نفسه استغنى عن هذا كلّ - بعون الله وفضله - وجودة العقل وحسن التمييز ولطف النظر وثقوب الرأي وإنارة النفس من منائح الله الهنيئة، ومواهبه السنية، يختص بها من يشاء من عباده وما أعرف لاستطالتكم بالمنطق وجهاً، وهذا الناشئ أبو العباس قد نقض عليكم وتبع طريقكم، وبين خطاكم، وأبرز ضعفكم، ولم تقدروا إلى اليوم أن تردّوا عليه كلمة واحدة مما قال، وما زدت على قولكم: لم يعرف غرضنا ولا وقف على مرادنا، وإنما تكلم على وهم. وهذا منكم تحاجز ونكول ورضى بالعجز وكلول، وكل ما ذكرتم في الموجودات فعليكم فيه اعتراض هذا قولكم في «يفعل وينفعل» لم تستوضحوا فيهما مراتبهما ومواقعهما، ولم تقيفوا على مقاسمهما، لأنكم قنعتم فيهما بوقوع الفعل من «يفعل» وقبول الفعل من «ينفعل»، ومن وراء ذلك غايات خفيت عليكم، ومعارف ذهبّت عنكم وهذا حالكم في الإضافة.

فأما البدل ووجوهه، والمعرفة وأقسامها، والنكرة ومراتبها، وغير ذلك مما يطول ذكره، فليس لكم فيه مقال ولا مجال.

وأنت إذا قلت لإنسان: «كن منطقياً»، فإنما تريد: كن عقلياً أو عاقلاً أو اعقل ما تقول لأن أصحابك يزعمون أن النطق هو العقل؛ وهذا قول مدخول، لأن النطق على وجوه أنتم عنها في سهو.

وإذا قال لك آخر: «كن نحوياً لغوياً فصيحاً» فإنما يريد: افهم عن نفسك ما تقول، ثم رُم أن يفهم عنك غيرك.

(١) كذا، ولعله: لا «أ» في شيء من «ب» و«ج» في بعض «ب» ف«أ» إذن لا في «ج» و«أ» لا في كل «ب» و«ج» في بعض «ب» ف«أ» إذن ليس في «ج».

وقدّر اللفظ على المعنى فلا يَفْضَلُ عنه، وقدّر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه؛ هذا إذا كنتَ في تحقيق شيء على ما هو به. فأما إذا حاولتَ فَرَشَ المعنى وبَسَطَ المراد فأجُلُّ اللفظ بالروادف الموضّحة والأشباه المقرّبة، والاستعارات الممتعة، وبين المعانيّ بالبلاغة، أعني لَوْحٍ منها لشيء حتى لا تصاب إلا بالبحث عنها والشوق إليها، لأن المطلوب إذا ظَفِرَ به على هذا الوجه عزّ وجلّ، وكَرُمَ وعلا، واشرح منها شيئاً حتّى لا يمكن أن يُمتَرى فيه أو يُتَعَبَ في فهمه أو يُعَرَّجَ عنه لاغتماضه؛ فهذا المذهب يكون جامعاً لحقائق الأشباه ولأشباه الحقائق؛ وهذا بابٌ إن استقصيته خرج عن نَمَطٍ ما نحن عليه في هذا المجلس؛ على أنّي لا أدري أيؤثر فيك ما أقول أو لا؟

ثم قال: حدّثنا هل فصلتم قطّ بالمنطق بين مختلفين، أو رفعتم الخلاف بين اثنين؛ أترك بقوة المنطق وبرهانته اعتقدت أن الله ثالث ثلاثة، وأن الواحد أكثر من واحد، وأن الذي هو أكثر من واحد هو واحد، وأن الشرع ما تذهب إليه، والحقّ ما تقول؟ هيهات، هاهنا أمور ترتفع عن دعوى أصحابك وهذيانهم، وتدقّ عن عقولهم وأذهانهم.

ودع هذا، هاهنا مسألة قد أوقعت خلافاً، فارفع ذلك الخلاف بمنطقتك:

قال قائل: «فلان من الحائط إلى الحائط» ما الحكم فيه؟ وما قدّر المشهود به لفلان؟ فقد قال ناس: له الحائطان معاً وما بينهما. وقال آخرون: له النصف من كلّ منهما. وقال آخرون: له أحدهما. هات الآن آيتك الباهرة، ومعجزتك القاهرة، وأنّي لك بهما، وهذا قد بان بغير نظرك ونظر أصحابك.

ودع هذا أيضاً؛ قال قائل: «من الكلام ما هو مستقيم حسن، ومنه ما هو مستقيم محال، ومنه ما هو مستقيم قبيح، ومنه ما هو محال كذب، ومنه ما هو خطأ». فسّر هذه الجملة. واعترض عليه عالم آخر، فاحكم أنت بين هذا القائل والمعترض وأرنا قوّة صناعتك التي تميّز بها بين الخطأ والصواب، وبين الحقّ والباطل؟ فإن قلت: كيف أحكم بين اثنين أحدهما قد سمعتُ مقالته، والآخر لم أحصل اعتراضه؟ قيل لك: استخرج بنظرك الاعتراض إن كان ما قاله محتملاً له، ثم أوضح الحقّ منهما، لأن الأصل مسموع لك، حاصل عندك وما يصحّ به أو يردّ عليه يجب أن يظهر منك، فلا تتعاسر علينا، فإن هذا لا يخفى على أحد من الجماعة.

فقد بان الآن أنّ مركب اللفظ لا يحوز مبسوط العقل؛ والمعاني معقولة ولها اتّصال شديد وبساطة تامّة؛ وليس في قوّة اللفظ من أيّ لغة كان أن يملك ذلك المبسوط ويحيط به، ويتصّب عليه سوراً، ولا يدع شيئاً من داخله أن يخرج، ولا شيئاً من خارجه أن يدخل، خوفاً من الاختلاط الجالب للفساد، أعني أنّ ذلك يخلط الحقّ بالباطل، ويشبه الباطل بالحقّ؛ وهذا الذي وقع الصحيح منه في الأول قبل وضع المنطق، وقد عاد ذلك الصحيح في الثاني بعد المنطق؛ وأنت لو عرفت تصرف

العلماء والفقهاء في مسائلهم، ووقفت على غورهم في نظرهم وغوصهم في استنباطهم، وحسن تأويلهم لما يرد عليهم، وسعة تشقيقهم للوجوه المحتملة والكنيات المفيدة والجهات القريبة والبعيدة، لحققت نفسك، وازدرت أصحابك، ولكان ما ذهبوا إليه وتابعوه عليه أقل في عينك من السها عند القمر، ومن الحصا عند الجبل. أليس الكندي وهو علم في أصحابك يقول في جواب مسألة «هذا من باب عد». فعذ الوجوه بحسب الاستطاعة على طريق الإمكان من ناحية الوهم بلا ترتيب، حتى وضعوا له مسائل من هذا الشكل وغالطوه بها وأرؤه أنها من الفلسفة الداخلة، فذهب عليه ذلك الوضع، فاعتقد فيه أنه صحيح وهو مريض العقل فاسد المزاج حائل الغريزة مشوش اللب.

قالوا له: أخبرنا عن اضطكاك الأجرام، وتضاعف الأركان؟ هل يدخل في باب وجوب الإمكان؟ أو يخرج من باب الفقدان إلى ما يخفى عن الأذهان؟ وقالوا له أيضاً: ما نسبة الحركات الطبيعية إلى الصور الهيلولانية؟ وهل هي ملابسة للكيان في حدود النظر والبيان، أو مزائلة له مزائلة على غاية الأحكام؟

وقالوا له: ما تأثير فقدان الوجدان في عدم الإمكان عند امتناع الواجب من وجوبه في ظاهر ما لا وجوب له لاستحالته في إمكان أصله؟ وعلى هذا فقد حفظ جوابه عن جميع هذا على غاية الركاكة والضعف والفساد والفسالة والسُخف. ولولا التوقي من التطويل لسردت ذلك كله، ولقد مرّ بي في خطه: التفاوت في تلاشي الأشياء غير مُحاط به، لأنه يلاقي الاختلاف في الأصول والاتفاق في الفروع؛ وكل ما يكون على هذا النهج فالتكيرة تُراجم عليه المعرفة، والمعرفة تُناقض التكيرة، على أن التكيرة والمعرفة من باب الألبسة العارية من ملابس الأسرار الإلهية، لا من باب الإلهية العارضة في أحوال البشرية.

ولقد حدثنا أصحابنا الصابئون عنه بما يُضحك الثكلى ويُشمت العدو ويُغزّر الصديق، وما ورث هذا كله إلا من بركات يونان وفوائد الفلسفة والمنطق ونسأل الله عصمة وتوفيقاً نهتدي بهما إلى القول الراجع إلى التحصيل، والفعل الجاري على التعديل، إنه سميع مجيب.

هذا آخر ما كتبت عن علي بن عيسى الرّماني الشيخ الصالح بإملائه. وكان أبو سعيد قد روى لَمَعاً من هذه القصة.

وكان يقول: لم أحفظ عن نفسي كل ما قلت، ولكن كتب ذلك أقوام حَضروا في ألواح كانت معهم ومحابر أيضاً؛ وقد اختل علي كثير منه.

قال علي بن عيسى: وتقوَّض المجلس وأهله يتعجبون من جأش أبي سعيد الثابت ولسانه المتصرف ووجهه المتهلّل وفوائده المتتابعة.

وقال الوزير ابن الفرات: عين الله عليك أيها الشيخ، فقد نذيت أكباداً وأقررت عيوناً، وبيضت وجوهاً، وحكت طرازاً لا يبلية الزمان، ولا يتطرق إليه الحدثان.

قلت لعلي بن عيسى: وكم كانت سنُّ أبي سعيد في ذلك الوقت؟

قال: مولده سنة ثمانين ومائتين، وكان له يوم المناظرة أربعون سنة، وقد عبث الشيب بلهازمه^(١) مع السمت والوقار والدين والجِدِّ، وهذا شعار أهل الفضل والتقدم، وقل من تظاهر به أو تحلى بحليته إلا جلَّ في العيون وعظم في النفوس، وأحبتة القلوب، وجرت بمدحه الألسنة.

وقلت لعلي بن عيسى: أما كان أبو عليّ الفسويّ النحوويّ حاضرَ المجلس؟ قال: لا، كان غائباً، وحُدث بما كان، فكان يكتُم الحسد لأبي سعيد على ما فاز به من هذا الخبر المشهور، والثناء المذكور.

فقال لي الوزير عند منقطع هذا الحديث: ذكرتني شيئاً قد دار في نفسي مراراً، وأحبيت أن أقف على واضحه؛ أين أبو سعيد من أبي عليّ، وأين عليّ بن عيسى منهما، وأين ابنُ المراغي أيضاً من الجماعة؟ وكذلك المرزبانيّ وابن شاذان وابن الوراق وابن حيويه؟

فكان من الجواب: أبو سعيد أجمعُ لشمل العلم، وأنظّم لمذاهب العرب وأدخل في كلِّ باب، وأخرج من كلِّ طريق، وألزم للجادّة الوسطى في الدين والخلق، وأروى في الحديث، وأقصى في الأحكام، وأفقه في الفتوى، وأحضر بركة على المختلفة، وأظهر أثراً في المقتبسة. ولقد كتب إليه نوح بن نصر - وكان من أدباء ملوك آل سامان - سنة أربعين كتاباً خاطبه فيه بالإمام وسأله عن مسائل تزيد على أربعمئة مسألة، الغالب عليها الحروف، وباقى ذلك أمثال مصنوعة على العرب شكَّ فيها فسأل عنها؛ وكان هذا الكتاب مقروناً بكتاب الوزير البلعميّ خاطبه فيه بإمام المسلمين، ضمّنه مسائل في القرآن وأمثالاً للعرب مشكّلة.

وكتب إليه المرزباني بن محمد ملك الديلم من أذربيجان كتاباً خاطبه فيه بشيخ الإسلام، سأله عن مائة وعشرين مسألة، أكثرها في القرآن، وباقى ذلك في الروايات عن النبي ﷺ وعن أصحابه رضوان الله عليهم.

وكتب إليه ابن جنزابة من مصر كتاباً خاطبه فيه بالشيخ الجليل، وسأله فيه عن ثلاثمئة كلمة من فنون الحديث المروي عن النبي ﷺ وعن السلف.

(١) اللهازم: جمع لهزمة بكسر اللام، وهي مجتمع اللحم بين الماضغ والأذن. أو هي العظم الناتئ في اللحية تحت الأذن، وهما لهزمتان، ويريد هنا الشعر النابت عليهما.

وقال لي الدارقطني سنة سبعين: أنا جمعت ذلك لابن حنزابة على طريق المعونة .
 وكتب إليه أبو جعفر ملك سجستان على يد شيخنا أبي سليمان كتاباً يخاطبه فيه
 بالشيخ الفرد، سأله عن سبعين مسألة في القرآن، ومائة كلمة في العربية وثلاثمائة بيت
 من الشعر، هكذا حدثني به أبو سليمان؛ وأربعين مسألة في الأحكام وثلاثين مسألة في
 الأصول على طريق المتكلمين .

قال لي الوزير: وهذه المسائل والجواب عنها عندك؟ قلت: نعم. قال: في كم
 تقع؟ قلت: لعلها تقع في ألف وخمسمائة ورقة، لأن أكثرها في الظهور. قال: ما
 أحوجنا إلى النظر فيها والاستمتاع بها والاستفادة منها! وأين الفراغ وأين السكون؟
 ونحن كل يوم نُدفع إلى طامة تُسي ما سلف، وتوعد بالدهية، اللهم هذه ناصيتي
 بيدك، فتولني بالعصمة، واخصمني بالسلامة، واجعل عقباي إلى الحسنی .

ثم قال: صل حديثك .

قلت: وأما أبو علي فأشد تفرداً بالكتاب^(١) وأشد إكباباً عليه، وأبعد من كل
 ما عداه مما هو علم الكوفيين، وما تجاوز في اللغة كُتب أبي زيد، وأطرفاً مما
 لغيره؛ وهو متقد بالغيب على أبي سعيد، وبالחסد له، كيف تم له تفسير كتاب
 سيبويه من أوله إلى آخره بغريبه وأمثاله وشواهد وأبياته ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾
 [المائدة: ٥٤]، لأن هذا شيء ما تم للمبرد ولا للزجاج ولا لابن السراج ولا لابن
 درستويه مع سعة علمهم، وفيض كلامهم .

ولأبي علي أطراف من الكلام في مسائل أجاد فيها ولم يأتل، ولكنه قعد على
 الكتاب على النظم المعروف .

وحدثني أصحابنا أن أبا علي اشترى شرح أبي سعيد في الأهواز في توجهه إلى
 بغداد سنة ثمان وستين - لاحقاً بالخدمة المرسومة به، والتدامة الموقوفة عليه - بألفي
 درهم؛ وهذا حديث مشهور، وإن كان أصحابه يأبون الإقرار به إلا من زعم أنه أراد
 النقض عليه، وإظهار الخطأ فيه .

وقد كان الملك السعيد - رضي الله عنه - هم بالجمع بينهما فلم يُقَض له ذلك،
 لأن أبا سعيد مات في رجب سنة ثمان وستين وثلاثمائة .

وأبو علي يشرب ويتخالع ويفارق هدي أهل العلم وطريقة الربانيين وعادة
 المتنسكين .

(١) أي كتاب سيبويه .

وأبو سعيد يصوم الدهر، ولا يصلي إلا في الجماعة، ويقيم على مذهب أبي حنيفة، ويلى القضاء سنين، ويتأله ويتحرج، وغيره بمعزل عن هذا؛ ولولا الإبقاء على حُزمة العلم، لكان القلم يجري بما هو خافٍ ويخبر بما هو مُجْمَعٌ ولكن الأخذ بحكم المروءة أولى، والإعراض عما يجلب اللائمة أحرى.

وكان أبو سعيد حسن الخط، ولقد أراه الصيَمريُّ أبو جعفر على الإنشاء والتحرير فاستغنى وقال: هذا أمر يُحتاج فيه إلى دُرْبة وأنا عارٍ منها، وإلى سياسة وأنا غريب فيها:

وَمِنَ الْعَنَاءِ رِيَاضَةُ الْهَرَمِ

وحدثنا النَّضْرِيُّ أبو عبد الله - وكان يكتب النوبة للمهلبِي - بحديث مَقْدَدِ لأبي سعيد هذا موضعه، قال: كُنْتُ أَخْطُ بَيْنَ يَدَيِ الصَّيْمَرِيِّ أَبِي جَعْفَرَ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ، فَالْتَمَسَنِي يَوْمًا لِأَنَّ أَجِيبَ ابْنَ الْعَمِيدِ أَبَا الْفَضْلِ عَنِ كِتَابِ فُلْمِ يَجِدُنِي، وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ السِّيْرَانِيُّ بِحَضْرَتِهِ؛ فَظَنَّ أَنَّهُ بِفَضْلِ عِلْمِهِ أَقْوَمُ بِالْجَوَابِ مِنْ غَيْرِهِ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ وَيَجِيبَ، فَأَطَالَ فِي عَمَلِ نَسْخَةٍ كَثُرَ فِيهَا الضَّرْبُ وَالْإِصْلَاحُ، ثُمَّ أَخَذَ يَحْرُرُ، وَالصَّيْمَرِيُّ يَقْرَأُ مَا يَكْتُبُهُ، فَوَجَدَهُ مُخَالَفًا لِجَارِي الْعَادَةِ لَفْظًا، مَبَايِنًا لِمَا يَرِيدُهُ تَرْتِيبًا.

قال: ودخلت في تلك الحال، فتمثل الصيَمريُّ بقول الشاعر:

يَا بَارِي الْقَوْسِ بَزِيًّا لَيْسَ يُصْلِحُهُ لَا تَظْلَمُ الْقَوْسَ، أَعْطَى الْقَوْسَ بَارِيهَا

ثم قال لأبي سعيد: خُفِّفْ عَلَيْكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ وَادْفَعْ الْكِتَابَ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ تَلْمِيذِكَ لِيَجِيبَ عَنْهُ، فَخَجَلَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، فَلَمَّا ابْتَدَأْتُ الْجَوَابَ مِنْ غَيْرِ نَسْخَةٍ تَحْيِيرٍ مَنِّي أَبُو سَعِيدٍ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا الْأَسْتَاذُ، لَيْسَ بِمَسْتَنْكَرٍ مَا كَانَ مِنِّي، وَلَا بِمَسْتَكْرَهٍ مَا كَانَ مِنْكَ، إِنَّ مَالَ الْفَيْءِ لَا يَصْحَحُ فِي بَيْتِ الْمَالِ إِلَّا بَيْنَ مَسْتَخْرَجٍ^(١) وَجَهْبَذٍ، وَالْكِتَابُ جَهَابِذَةُ الْكَلَامِ، وَالْعُلَمَاءُ مَسْتَخْرَجُوهُ. فَتَبَسَّمَ الصَّيْمَرِيُّ وَأَعْجَبَهُ مَا سَمِعَ، وَقَالَ: عَلَى كُلِّ حَالٍ مَا أَخْلَيْتَنَا مِنْ فَائِدَةٍ.

وكان أبو سعيد بعيد القرين، لأنه كان يُقرأ عليه القرآن والفقه والشروط والفرائض والنحو واللغة والعروض والقوافي والحساب والهندسة والحديث والأخبار وهو في كل هذا إمامًا في الغاية وإمامًا في الوسط.

وأما علي بن عيسى فعالي الرتبة في النحو واللغة والكلام والعروض والمنطق، وعيب به، إلا أنه لم يسلك طريق واضح المنطق، بل أفرد صناعة، وأظهر براعة، وقد عمل في القرآن كتاباً نفيساً، هذا مع الدين الثخين، والعقل الرزين.

(١) مستخرج الأموال: أي جابها ومحصلها: والجهبذ الناقد العارف بالجيد والرديء.

وأما ابن المِراغبي فلا يَلْحَقْ بهؤلاء، مع براعة اللفظ، وسعة الحفظ، وعزّة النفس، وبلبل الريق^(١)، وغزارة الثَّنْث، وكثرة الرواية؛ ومن نظر في كتاب البهجة له عرف ما أقول، واعتقد فوق ما أصف، ونَحَلْ أكثر ممّا أبْدُل.

وأما المرزُبانيّ وابن شاذان وابن القِزْمِيسينيّ وابن حَيَوَيْنه فهم رواة وحملة ليس لهم في ذلك نَقْطٌ ولا إعجاب، ولا إسراج ولا إجماع.

فقال: فصِلْ حديثك عن هؤلاء بحديث أصحابنا الشعراء، صف لي جماعتهم، واذكر لي بضاعتهم، وما خصّ كل واحد منهم.

قلت: لست من الشعر والشعراء في شيء، وأكره أن أخطو على دَخْص^(٢)، وأحتسبي غير محض.

قال: دع هذا القول، فما حُضْنَا في شيء إلى هذا الوقت إلا على غاية ما كان في النفس، ونهاية ما أفاد من الأئس.

فكان من الوصف:

أما السَّلَامِيّ فهو حلو الكلام، متسق النظام، كأنما يَبْسِمُ عن ثغر الغمام خفيّ السرقة، لطيف الأخذ، واسع المذهب، لطيف المغارس، جميل الملابس؛ لكلامه لَيْطَةٌ بالقلب^(٣)، وعبثٌ بالرُّوح، وبرْدٌ على الكبد.

وأما العاتميّ فغليظ اللفظ، كثير العُقْد، يحبُّ أن يكون بدويّاً فُحّاً، وهو لم يَتِمَّ حَضْرِيّاً؛ غزيرُ المحفوظ، جامعٌ بين النظم والنثر، على تشابهٍ بينهما في الجفوة وقلة السَّلَامَةِ، والبعد من المَسْلُوك، بادي العورة فيما يقول، لكنّما يُبْرِز ما يُخْفِي، ويكدر ما يُصْفِي، له سَكْرَةٌ في القول إذا أفاق منها خُمِرٌ وإذا خُمِر سَدِرٌ^(٤)؛ يتناول شاخصاً، فيتضاءل متقاعساً؛ إذا صدق فهو مهين، وإذا كَذَب فهو مَشِين.

وأما ابن جَلْبَات فمجنون الشعر، متفاوت اللفظ، قليل البديع، واسع الحيلة، كثير الزُوق، قصير الرُشاء، كثير العُثَاء؛ غَرَّة نَفَاقَه^(٥) ونَفَقَه نِفَاقَه.

وأما الخالغ فأديب الشعر، صحيح النُّحت، كثير البديع، مستوي الطريقة،

(١) كناية عن الاتساع في الكلام.

(٢) أي على مزلة ومزلة للأقدام.

(٣) أي التصاقه به وتعلق.

(٤) خمر أي أصيب بالخمّار وهو ألم في الرأس وصداع يعقبان السكر. وسدر: تحير أو لم يبالي ما صنع ولم يهتم.

(٥) أي الرواج ونفقته: روجه.

متشابهة الصناعات، بعيداً من طرفة المتحير، قريباً من فرصة المتخير؛ كان ذو الكفائيتين يقدمه بالرّي، ويقبله على التّشر والطّي.

وأما مسكويه فلطيف اللفظ، رطب الأطراف، رقيق الحواشي، سهل المآخذ، قليل السّكب، بطيء السّبك؛ مشهور المعاني، كثير التواني؛ شديد التّوقي، ضعيف التّرقّي؛ يرد أكثر ممّا يصدر، ويتطاوّل جهده ثم يقصّر؛ ويطير بعيداً ويقع قريباً، ويسقي من قبل أن يغرس، ويمتخ من قبل أن يُميه؛ وله بعد ذلك مآخذ كشذو^(١) من الفلسفة، وتأثت^(٢) في الخدمة، وقيام برسوم النّدامة^(٣)؛ وسنة في البخل، وغرائب من الكذب؛ وهو حائل^(٤) العقل لشغفه بالكيمايا.

وأما ابن نباتة فشاعر الوقت، لا يدفع ما أقول إلّا حاسد أو جاهل أو معاند، قد لحق عصابة (سيف الدولة) وعدا معهم ووراءهم، حسن الحذو على مثال سكان البادية، لطيف الاتّمام بهم، خفي المغاص في واديهم، ظاهر الإطلال على ناديهم؛ هذا مع شعبة من الجنون وطائف من الوسواس.

وأما ابن حجاج فليس من هذه الزّمرة بشيء، لأنّه سخيّف الطريقة بعيد من الجدّ، قريع في الهزل؛ ليس للعقل من شعره منال، ولا له في قرضه مثال؛ على أنّه قويم اللفظ، سهل الكلام، وشمائله نائية بالوقار عن عادته الجارية في الخسار؛ وهو شريك ابن سكرة في هذه الغرامة^(٥)؛ وإذا جدّ أفعى، وإذا هزل حكى الأفعى.

وله مع ذي الكفائيتين مناظرة طيبة. قال: ما هي؟ قلت: لما ورد ذو الكفائيتين سنة أربع وستين وهزم الأتراك مع أفتكين، وكان من الحديث ما هو مشهور، سأل عن ابن حجاج - وكان متشوقاً له لِمَا كان يُقرأ عليه من قوافيه، فأحبّ أن يلقاه، لأنّه ليس الخبر كالمعاينة، والمسموع والمبصر كالأنثى والذكر؛ ينزع كل واحد منهما إلى تمامه؛ فلما حضره أبو عبد الله احتبسَه للطعام، وسمع كلامه، وشاهد سَمته، واستحلّى شمائله، فقام من مجلسه؛ فلما خلا به قال: يا أبا عبد الله، لقد والله تُهت عجباً منك، فأما عَجبي بك فقد تقدّم؛ لقد كنت أقبلي ديوانك، فأتمنتى لقاءك، وأقول: من صاحب هذا الكلام، أطيّشُ طائش، وأخفُ خفيف، وأغرّمُ غارم؛ وكيف يجالس من يكون في هذا الإهاب؟ وكيف يقارب من ينسلخ من ملابس الكتاب

(١) شدا شدوا: أخذ طرفاً من العلم والأدب.

(٢) أي التلطف.

(٣) أي حرفة المنادمة على الشراب.

(٤) أي متغير متحول من الاستواء إلى العوج.

(٥) أي الخسران.

وأصحاب الآداب؛ حتى شاهدتُك الآن، فتهالكُت على وقارك وسكون أطرافِك، وسكون لفظِك، وتناسُبِ حركاتِك، وفرطِ حياتِك وناصرِ ماءِ وجهِك، وتعاذِلِ كُلِّك وبعضِك؛ وإنك لمن عجائب خَلَقِ اللهُ وطُرفِ عبادِه؛ واللَّه ما يصدُق واحد أُنك صاحب ديوانِك، وأن ذلك الديوان لك، مع هذا التنافي الَّذي بين شِعرك وبينك في جدِّك. فقال أبو عبد الله: أيها الأستاذ، وكان عجبِي منك دون عجبِك مني، لو تقارعنا على هذا لفلجت عليك بالتعجب منك. قال: لأنِّي قلت إذا ورد الأستاذ فسألني منه خُلُقاً جافياً وفضلاً غليظاً وصاحب رواسير وآكلِ كوامخ وجبلياً دَيْلمياً متكائباً متعاطماً، حتى رأيتك الآن وأنت اللطف من الهواء، وأرقُّ من الماء، وأغرزلُ من جميل بن مَعمر، وأعدبُ من الحياة، وأرزُ من الطُود، وأغرزلُ من البحر، وأبهي من القمر، وأندى من العَيْث، وأشجعُ من اللَّيث، وأنطقُ من سَحبان، وأندى من العَمام، وأنفدُ من السَّهام، وأكبُرُ من جميع الأنام.

فقال أبو الفتح وتبسَّم: هذا أيضاً من ودائع فضلك^(١)، وباعثِ تفضلك. ووصله وصرَّفه.

قال: لم يكن هذا الحديث عندي.

وأما بشر بن هارون فليس من هذه الطبقة في شيء، لكنه يقرُص فيحزُّ ويشتَّم فيهزُّ، ويجرح فيجهزُّ؛ والمدَّهؤون^(٢) منه كثير؛ «وأصحابنا يستحسنون قول ابن الحجاج في الوزير حين يقول:

لله دَرُ الحسين من قمر رُدَّت إليه وزارة الشمس

فقال: إن قبلتُ هذا منهم خفتُ أن يقال: مادح نفسه يقرئك السلام؛ وما أصنع بهذا البيت وهو مضموم إلى كل بيت سخيف في القصيدة».

ثم قال: وجب أن نصف قبل هذا عصابة العلماء، فلم تركنا ذكرهم ونحن لا نخلو في حديثهم من غرَّة لائحة، وفائدة نافعة، وصواب زائد في العقل وفضيلة على الأدب، وجليم يُزدان به في وقت الحاجة، وحكمة يستعان بها في داهمة؛ ورأي يكون مقيلاً للتمييز عند تهجيرنا به.

قلت: أما أبو عبد الله الجعل فقد شاهدته. قال: صدقت، ولكن لم أقف على مذهبه ودخلته وسيرته في اعتقاده.

قلت: كان الرجل ملتهب الخاطر، واسع أطراف الكلام، مع غثاثة اللفظ، وكان يرجع إلى قوَّة عجيبة في التدريس، وطول نَفَس في الإملاء، مع ضيق صدر عند لقاء

(١) أي من فضلك الذي تودعه لدينا فنحفظه لك ونؤديه إليك.

(٢) أي المبتلون بالدواهي منه.

الخصم ومُعَارَكَةِ الْقِرْنِ، بعيد العهد بالمِصَاعِ والدِفَاعِ والوَقَاعِ؛ وكان سببُ هذا الجبن والحَوَرِ قَلَّةَ الصُّرَاوَةِ عَلَى هَذِهِ الْأَحْوَالِ؛ ولقد خَزِيَ فِي مَشَاهِدٍ عَظِيمَةٍ.

وأما يقينه فكان ضعيفاً؛ وأما سيرته فكانت واقفةً على حبِّ الرياسة وبذل المال والجاه إذا حضراً، مع تعصّب شديد لمن قدّمه وأحبّه، وإنحاءٍ مفرطٍ على من عاداه، وكان حَوْضُهُ فِي الدَّوَلِ والوَلَايَاتِ - ولهذا رغب عنه الواسطيّ وكان أخا ورع ودين وقال: هذا منفرٌ عن الدين والمذهب، ودافعٌ للناس عن القول بالحق، وطارحٌ للشبهة في القلوب -.

وكان يجهر بهذا وأشباهه، ولكن كان جاه الرجل لا يُنتَقَصُ بهذا القدر وركنُه لا يتخلخل على هذا الهدّ، لأسباب انعقدت له، وأصحاب ذبوا عنه.

وأما ابن الملاح فشيخ حسن المعرفة بالمذهب، شديد التوقّي، محمود القناعة ظاهر الرضا؛ تدلُّ سيرته الجميلة على أنّه حَسَنُ الْعَقِيدَةِ.

وأما ابن المعلم فحَسَنُ اللِّسَانِ والجَدَلِ، صبور على الخصم، كثيرُ الحيلة ظنِينٌ^(١) السَّرِّ، جميل العَلَانِيَةِ.

وأما أبو إسحاق النصيبي فدقيق الكلام، يشكّ في النبوات كلّها، وقد سمعتُ منه فيها شُبُهًا، ولُغْتُهُ مَعْقَدَةٌ، وله أدب واسع؛ ولقد أَضَلَّ بِهِمَذَانِ كَاتِبَ فخر الدولة ابنَ المرزبان. وحمله على قَلَّةِ الاكتراث بظلم الرعيّة، وأراه أنه لا حرج عليه في غَبْنِهِمْ لأنهم بهائم، وما خرج من الجبل حتى افتضح.

وأما ابن خيران فشيخ لا يعدو الفقه، وفيه سلامة.

وأما الدَّارَكِي فقد اتخذَ الشَّهَادَةَ مَكْسَبَةً، وهو يأكل الدنيا بالدين، ويغلب عليه اللُّوَاطُ، ولا يرجع إلى ثقة وأمانة؛ ولقد تهتكَ بِنَيْسَابُورَ قَدِيمًا، وبيغدَادَ حَدِيثًا؛ هذا مع الفدامة والوخامة؛ ولقد نَدَّ بِجُعَلِ غَلَامٍ، وهو اليوم قاضي الري. وابن عباد يَكْنُفُهُ وَيَقْرَبُهُ ليكون داعية له ونائباً عنه، وليس له أصل وهو من سواد همذان، وأبوه كان فلاحاً، ولقد رأيتُه، إلا أنه أتى لابن عباد في سَمْتِهِ ولزوم ناموسه حتى خَفَّ عَلَيْهِ، وهو اليوم قارون؛ وقد علت رتبته في الكلام حتى لا مزيد عليها، إلا أنه مع ذلك نَعِلُ^(٢) الباطن، خبيث الخبء، قليل اليقين؛ وذلك أن الطريقة التي قد لزموها وسلكوها لا تفضي بهم إلا إلى الشك والارتياب، لأن الدِّينَ لم يأت بِكَمْ وَكَيْفٍ فِي كُلِّ بَابٍ، ولهذا كان لأصحاب الحديث أنصار الأثر، مزية على أصحاب الكلام وأهل النظر؛ والقلبُ الخالي من الشبهة أسلم من الصدر المحشوُّ بالشكِّ والريبة، ولم يأت

(١) أي متهم.

(٢) النغل: الفاسد السيء.

الجَدَل بخير قطّ . وقد قيل : من طلب الدين بالكلام ألحد ، ومن تتبّع غرائب الحديث كُذِب ، ومن طلب المال بالكيمياء افتقر . وما شاعت هذه الوصية جُزافاً ، بل بعد تجربة كرّرها الزمان ، وتناولت عليها الأيام ؛ يتكلم أحدهم في مائة مسألة ويورد مائة حجة لا ترى عنده خشوعاً ولا رقة ، ولا تقوى ولا دَمعة ؛ وإن كثيراً من الذين لا يكتبون ولا يقرءون ولا يحتجّون ولا يناظرون ولا يُكرمون ولا يفضّلون خيراً من هذه الطائفة وألين جانباً ، وأخشع قلباً ، وأتقى لله عزّ وجلّ ، وأذكرُ للمعاد ، وأيقن بالثواب والعقاب ، وألق من الهفوة ، وألوذُ بالله من صغير الذنب ، وأرجع إلى الله بالتوبة ؛ ولم أر متكلماً في مدة عمره بكى خشية ، أو دمعت عينه خوفاً ، أو أفلح عن كبيرة رهبة ؛ يتناظرون مستهزئين ويتحاسدون متعصّبين ، ويتلاقون متخادعين ، ويصنّفون متحاملين ؛ جدّ الله عروقهم ، واستأصل شأفتهم ، وأراح العباد والبلاد منهم ؛ فقد عظمت البلوى بهم ، وعظمت آفتهم على صغار الناس وكبارهم ؛ ودبّ داؤهم ، وعسر داؤهم ؛ وأرجو ألا أخرج من الدنيا حتى أرى بنيانهم متضعباً ، وساكنه متجعجعا^(١) .

قال : فما تقول في ابن الباقلاني؟ قلت :

فما شرّ الثلاثة أمّ عمرو بصاحبك الذي لا تصبِحينا^(٢)

يزعم أنه ينصر السنة ويُفجم المعتزلة وينشر الرواية ؛ وهو في أضعاف ذلك على مذهب الخُرُميّة ، وطرائق الملحّدة .

قال : والله إن هذا لمن المصائب الكبار والمحن الغلاظ ، والأمراض التي ليس لها علاج .

ثم قال : إنّ الليل قد ولّى ، والنعاس قد طرق العين عابثاً ؛ والرأي أن نستجم لننشط ، ونستريح لنتعب ؛ وإذا حضرت في الليلة القابلة أخذنا في حديث الخلق والخلق - إن شاء الله - وأنا أزودك هذا الإعلام ليكون باعثاً لك على أخذ العتاد بعد اختماره في صدرك ، وتجيل الحال به عند خوضك وفيضك ولا تجبن جبن الضعفاء ، ولكن قلّ واتسع مجاهراً بما عندك ، منفقاً ممّا معك . وانصرفت .

(١) أي ضارباً بنفسه الأرض من وجع .

(٢) البيت للشاعر عمرو بن كلثوم .

الليلة التاسعة

وعدت ليلة أخرى فقال: فاتحة الحديث معك، فهات ما عندك.

فكان من الجواب: أن أخلاق أصناف الحيوان الكثيرة مؤتلفة في نوع الإنسان، وذلك أن الإنسان صفو الجنس الذي هو الحيوان، والحيوان كدر النوع الذي هو الإنسان والإنسان صفو الشخص الذي هو واحد من النوع، وما كان صفواً ومُصاصاً^(١) بهذا النظر انتظم فيه من كلّ ضرب من الحيوان خُلِقَ وخُلِقَانِ وأكثر، وظهر ذلك عليه وبطن أيضاً بالأقل والأكثر والأغلب والأضعف، كالكُمُون الذي في طباع السبع والفأرة، والثبات الذي في طباع الذئب، والتحرز الذي في طباع الجاموس من بنات الليل، والحذر الذي في طباع الخنزير، والتقدم الذي في طباع الفيل أمام قطيعه تمثلاً بصاحب المقدمة.

وكذلك ضد ذلك في الخنزير تمثلاً بصاحب الساقة، وكالحراسة التي في طباع الكلب، وكأوب الطير إلى أوكارها التي تراها كالمعاقل وغيرها بالدغل والأشب والغياض.

ولهذا قال بعض الحكماء: خذ من الخنزير بُكورَه في الحوائج، ومن الكلب نُصحَه لأهله، ومن الهرة لطف نَفْسها عند المسألة.

وقالت الترك: ينبغي للقائد العظيم أن يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان: سخاء الديك، وتحتن الدجاجة، ونجدة الأسد، وحملة الخنزير وروغان الثعلب، وصبر الكلب، وحراسة الكركي، وحذر الغراب، وغارة الذئب، وسمن بعروا، وهي دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء.

ولما وهب الإنسان الفطرة، وأعين بالفكرة؛ ورُفِد بالعقل، جمع هذه الخصال وما هو أكثر منها لنفسه وفي نفسه، وبسبب هذه المزية الظاهرة فَضَّل جميع الحيوان حتى صار يبلغ منها مراده بالتسخير والإعمال واستخراج المنافع منها وإدراك الحاجات بها؛ وهذه المزية التي له مستفادة بالعقل، لأن العقل ينبوع العلم، والطبيعة ينبوع الصناعات، والفكر بينهما مستملٍ منهما ومؤدٌ بعضها إلى بعض بالفيض الإمكاناني

(١) أي العصابة.

والتوزيع الإنساني؛ فصوابُ بديهةِ الفكرة من سلامة العقل، وصوابُ رويةِ الفكرة من صحّة الطباع، وصحّة الطباع من موافقة المزاج، وموافقة المزاج بالممدد الاتفاقي والاتفاقي الغيبي؛ أعني بهذا أن وجه الحادث المجهول عندنا اتفاق، ووجه الحادث المعلوم عند الله عزّ وجلّ غيب؛ فلو ظهر هذا الغيب لبطل الاتفاق، ولو بطل الاتفاق لارتفع الغيب.

فانقسمت الأحداث بين ما هو على جديلة واحدة معروفة، وبين نادر لا يدوم العهد به، فدلّ ما ظهر واستمرّ على ما جاد به ووهب، ودلّ ما غاب واستتر على ما تفرّد به وغلب.

ولما كان الحيوان كلّه يعمل صنائعه بالإلهام على وتيرة قائمة، وكان الإنسان يتصرّف فيها بالاختيار، صحّ له من الإلهام نصيب حتى يكون رفقاً له في اختياره، وكذلك يكون النحل أيضاً، صحّ له من الاختيار قسط في إلهامه حتى يكون ذلك مُعيناً في اضطرابه، إلا أن نصيب الإنسان من الإلهام أقلّ كما أن قسط سائر الحيوان من الاختيار أنزر؛ وثمرة اختيار الإنسان إذا كان مُعاناً بالإلهام أشرف وأدوم وأجدى وأنفع وأبقى وأرفع من ثمرة غيره من الحيوان إذا كان مرفوداً بالاختيار، لأن قوّة الاختيار في الحيوان كالحلم كما أن قوّة الإلهام في الإنسان كالظلّ.

ومراتب الإنسان في العلم ثلاث تظهر في ثلاث أنفس، فأحدهم مُلهم فيتعلّم ويعمل، ويصير مبدأً للمقتبسين منه، المقتدين به، الآخذين عنه، الحاذين على مثاله، المارّين على غراره، القافين على آثاره؛ وواحد يتعلّم ولا يُلهم فهو يماثل الأول في الدرجة الثانية، أعني التعلّم؛ وواحد يتعلّم ويُلهم، فتجتمع له هاتان الخلتان، فيصير بقليل ما يتعلّم كثيراً للعمل والعلم بقوة ما يُلهم ويعود بكثرة ما يلهم مصقياً لكل ما يتعلّم ويعمل.

والكلام في هذه المواضع ربّما جَمَح فلم يمكن كفه، فينبغي أن يضح العذر إذا عرض تفاوت في الترتيب، ودخل الخلل من ناحية التقريب.

وقال أبو سليمان لنا في هذه الأيام: الإنسان بين طبيعته وهي عليه وبين نفسه وهي له، كالمنتهب المتورّع، فإن استمد من العقل نوره وشعاعه قوي ما هو له من النفس، وضعف ما هو عليه من الطبيعة وإلا فقد قوي ما هو عليه من الطبيعة وضعف ما هو له من النفس.

وحكى لنا فقال: كان للحكماء الأولين مثلّ يضرّبونه ويكتبونه في هياكلهم ومتعبّاتهم وهو: «المَلِك الموكّل بالدنيا يقول: إنّ ههنا خيراً وههنا شراً، وههنا ما ليس بخير ولا شر، فمن عرف هذه الثلاثة حقّ معرفتها تخلّص مني، ونجا سليماً، وبقي كريماً، وملك نعيماً عظيماً.

ومن لم يعرفها قتلته شرّ قتلته، وذلك أني لا أقتله قتلاً وحيّاً^(١) يستريح به منّي، ولكن أقتله أولاً فأولاً في زمان طويل، بحسرات على قوت مأمول بعد مأمول، وبلايا يكون بها كالمغلول المكبول».

قال: هذا كلام شريف في أعلى ذروة الحكمة، لكنك خلّيت يدك من طرف الحديث في الخلق.

قلت: إذا طاب الحديث باسترسال السجّية ووقوع الطمأنينة لها الإنسان عن مباديه، وسال مع الخاطر الذي يستهويه، ولتحفظ الإنسان في قوله وعمله من الخطل والزّلل حدّ إذا بلغه كلّ الخاطر واختل.

ثم نعود فنقول: أخلاق الإنسان مقسومة على أنفسه الثلاث: أعني النفس الناطقة، والنفس الغضبية، والنفس الشهوانية، وسمات هذه الأخلاق مختلفة بعرض واسع.

ويمكن أن يقال في نعتها على مذهب التقريب: إنها بين المحمودة وبين المذمومة، وبين المشوبة بالحمد والذم، وبين الخارجة منهما. فمن أخلاق النفس الناطقة - إذا صفت - البحث عن الإنسان ثم عن العالم، لأنه إذا عرف الإنسان فقد عرف العالم الصغير، وإذا عرف العالم فقد عرف الإنسان الكبير، وإذا عرف العالمين عرف الإله الذي بجلوه وجد ما وجد، وبقدرته ثبت ما ثبت، وبحكمته ترتب ما ترتب؛ وبمجموع هذا كله دام ما دام.

بهذا البحث يتبين له ما تشتمل عليه القوة الغضبية والقوة الشهوية فإن توابع هاتين القوتين أكثر، لأنهما بالتركيب أظهر، وفي الكثرة أدخل وعن الوحدة أخرج؛ فإذا ساستهما الناطقة حذفت زائدتهما، ونفت فواضلهما ووقت نواقصهما، وذيلت قوالصهما أعني إذا رأت غلّمة في الشهوية أخدمت نارها، وإذا وجدت السرف في الغضبية قصرت عنانها؛ فحينئذ يقومان على الصراط المستقيم، فيعود السّفه جِلماً أو تحالماً، والحسد غبطة أو تغابطاً والغضب كظماً أو تكاظماً، والغّي رُشداً أو تراشداً، والطيش أناة أو تانياً وصرّفت هذه الكوامن في المكامن - إذا سارت سورتها، وثارَت نُورَتها - على مناهج الصواب، تارة بالعضة واللطف، وتارة بالرّجر والعنف وتارة بالأنفة وكبر النفس، وتارة بإشعار الحذر، وتارة بعلو الهمة؛ وهناك يصير العفو عند القادر الدّ من الانتقام، والعفّاف عند الهائج الدّ من قضاء الوطر، والقناعة عند المحتاج أشرف من الإسفاف، والصداقة عند الموتور أثر من العداوة، والمداراة عند المُحفظ أطيّب من المماراة.

وفي الجملة، الخلق الحسّن مشتقّ من الخلق، فكما لا سبيل إلى تبديل الخلق كذلك لا قدرة على تحويل الخلق، لكنّ الحضّ على إصلاح الخلق وتهذيب النفس لم

(١) أي سريعاً.

يقع من الحكماء بالعَبَث والتجزييف، بل لمنفعة عظيمة موجودة ظاهرة .
ومثاله أن الحبشي يتدلك بالماء والعَسُول لا يستفيد بياضاً، ولكن ليستفيد نقاءً
شبيهاً بالبياض . ويقال للمهذار: «أَكْفُفْ» لا ليكف عن النطق، ولكن ليؤثر الصمت .
ويقال للموتور: «لا تحقد» لا ليزول عنه ما حنق عليه، ولكن ليتكأف الصبر ويتناسى
الجزء على هذا أبداً .

وقد تقرّر بالحكمة الباحثة عن الإنسان وطرائق ما به وفيه أن أحواله مختلفة،
أعني أن كل ما يدور عليه ويحور إليه مقابل بالضدّ أو شبيه بالضدّ كالحياة والموت،
والنوم واليقظة، والحسن والقبيح، والصواب والخطأ، والخير والشر، والرجاء
والخوف، والعدل والجور، والشجاعة والجبن، والسخاء والبخل، والحلم والسفه،
والطيش والوقار، والعلم والجهل، والمعرفة والنكرة والعقل والخمق، والصحة
والمرض، والاعتدال والانحراف، والعفة والفجور والتنبه والغفلة، والذكر والنسيان،
والذكاء والبلادة، والغبطة والحسادة والدمائة والكزازة، والحق والباطل، والغني
والرشد، والبيان والحصر والثقة والارتياب، والطمأنينة والثهمة، والحركة والسكون،
والشك واليقين والخلاعة والوقار، والتوقّي والتهوّر، والإلف والممل، والصدق
والكذب والإخلاص والنفاق، والإحسان والإساءة، والنصح والغش، والمدح والذم
وعلى هذا الجزر والسخب؛ ولعل هذه الصفات بلا آخر ولا انقطاع .

فما ينبغي أن يُعنى الإنسان المحبُّ للتبصرة، المؤثر للتذكرة، الجامع للنافع له،
النافي للضارّ به في هذه الأحوال التي وصفناها بأسمائها معرفةً - ما استطاع - باجتلاب
محمودها واجتناب مذمومها، وتمييزه مما يكمن فيه أو تقليله، أو إطفاء جمرته، أو
اجتناء ثمرته، والطريق إلى هذا التمييز واضح قريب، كأن تنظر إلى الحياة والموت
فتعلم أن هذين ليسا من الأخلاق ولا ممّا يعالج بالاجتهاد، وإلى النوم واليقظة فتعلم
أنهما ضروريان للبدن من وجه، وغير ضروريين من وجه، فتتفهي منهما ما خرج عن
حدّ الضرورة وتسلم البدن ما دخل في حدّ الضرورة؛ ولا يكثرن الإنسان نومّه ولا
سهره، ولكن يطلب العدل بينهما بقدر جهده .

فأمّا الحسن والقبيح فلا بدّ له من البحث اللطيف عنهما حتى لا يجور فيرى
القبيح حسناً والحسن قبيحاً، فيأتي القبيح على أنه حسن، ويرفض الحسن على أنه
قبيح؛ ومناشئ الحسن والقبيح كثيرة: منها طبيعي، ومنها بالعادة، ومنها بالشرع،
ومنها بالعقل، ومنها بالشهوة، فإذا اعتبر هذه المناشئ صدق الصادق منها وكذب
الكاذب، وكان استحسانه على قدر ذلك، ومثال ذلك الكبر فإنه مَعيب بالنظر الأول،
لكنه حسن في موضعه بالعلة الداعية إليه، والحال الموجبة له .

وأما الصواب والخطأ فأمران عارضان للأقوال والأفعال والآراء، وليسا بخُلُقَيْن مَخْضِيَيْن، ولكنهما موكولان إلى نور العقل، فما أشرقَ عليه العقل بنوره فهو صواب، وما أفلَ عنه العقل بنوره فهو خطأ.

وأما الخير والشر فهما في العموم والشُمول ليسا بدون الصواب والخطأ لهما مناط بكلّ شيء، ويغلبان على الأفعال، وإن كان أحدهما عدماً للآخر.

وأما الرجاء والخوف فهما عَرَضَان للقلب بأسباب بادية وخافية، ولا يدخلان في باب الخُلُق من كل وجه ولا يخرجان أيضاً بكل وجه وهما كالعمادَيْن للإنسان قد استُصلِح لهما، ورُبِط قِوَامُهُ بغلبتهما وضَعْفُهُمَا.

وأما العدل والجور فقد يكونان خُلُقَيْن بالفِطْرَة، ويكونان فِعْلَيْن بالفِكرَة وجانباهما بالفِعْل أَلْصَق، وإلى الاكتساب أقرب.

وأما الشجاعة والجهن فهما خُلُقَان متصلان بالخُلُق، ولهذا يعزّ على الشجاع أن يتحوّل جباناً، ويتعذّر على الجبان أن يصير شجاعاً، وكذلك طرفاهما داخلان في الخُلُق أعني التهورَ والتوقي.

وأما السخاء والبخل فهما خُلُقَان محضان أو قريبان من المَخْض، ولهذا تعلقَ الحمد والذم بهما وبأصحابيهما، والمدح والهجو سريا إليهما واتصلا بهما؛ وقد يندم السخيّ على بذله كثيراً خوفاً من الإملاق، فلا يستطيع ذلك إذا أخذته الأريحية، وحرّكته اللؤذعية، وقد يلوم البخيل نفسه كثيراً إذا سلّقت الألسنة الحداد، وجُبه بالتوبيخ، وشمخ عند رؤيته الأنف، وغُضنّ الجبين وأولمّ بالعدل وقوبل؛ ومع ذلك فلا يَزْشَح إلا على بطاء وكُلْفَة وتضجّر؛ والكلام في هذين الخُلُقَيْن طويل، لأنهما أدخل في تلاقي الناس وتعاطيهم في عشرتهم ومعاملتهم.

وأما الحِلْم والسّفه فهما أيضاً خُلُقَان، والأخلاق تابعة للمزاج في الأصل، ولذلك قلنا: إن الخُلُق ابنُ الخُلُق، والولد شبيهٌ بوالده؛ وفي الجملة، كل ما يمكن أن يقال فيه للإنسان «لا تفعل هذا»، «وأقلل من هذا وكف عنه» فإنه في باب الأفعال أدخل، وكل ما لم يَجْزُ أن يقال ذلك فيه فهو في باب الأخلاق أدخل، ثم لبعض هذا نسبة إلى الخُلُق أو الخُلُق، إما ظاهرة غالبية وإما خفية ضعيفة.

وأما الطَيْش والوَقَار فهما يختلطان بالحلم والسّفه ويجريان معهما؛ فليس ينبغي أن يُنْشَر الكلامُ ويطولَ الشرح.

وأما الجهل والعلم فليسا من الأخلاق ولا من الخُلُق وإنما يُبرزان من صاحب الأخلاق والخُلُق للمزاج أثرين قويتين واحدهما عدَم والآخر وجدان، والعدم لا يكون أعدمَ من عدم، والوجدان يكون أبيضَ من وجدان.

وأما المعرفة والنكرة فهما في جوار العلم وضده، ولكنهما أعلق بالحبس وألصق بالنفسين، أي الشهوية والغضبية.

وأما العقل والحُمتق فليسا من الخُلُق، والكلام في تفسير العقل مشهور، وعدمه الحمتق.

وأما الصحة والمرض فليسا أيضاً من الأخلاق، ولكنهما يوجدان في الإنسان بواسطة النفس، إما في البدن، وإما في العقل، ولذلك يقال: أمراض البدن، وأمراض النفس، وصحة البدن وصحة النفس.

وأما الاعتدال والانحراف فهما يدخلان في الخُلُق بوجه، ويخلصان منه بوجه، ويعتَمَن أعراض البدن وأعراض النفس، ويوصف بهما الإنسان، على أن الانحراف المطلق لا يوجد، والاعتدال المطلق لا يوجد، ولكن كلاهما بالإضافة.

وأما العفة والفجور فخلقان لهما جَمرة وهُمود، والحاجة تمس إلى العدل في استعمال العفة ونفي الفجور، وإذا قويت العفة حالت عصمة، وإذا غلب الفجور صار عدواناً.

وأما التنبه والغفلة فقريبان من الخُلُق ويغلبان على الإنسان، إلا أن فرط التنبه موصول بالوحي، وفرط الغفلة موصول بالبهيمية.

وأما الذكر والنسيان فليسا بخلقين محضين، ومنشؤهما بالمزاج، وأحدهما من علائق النفس العالمة، والآخر من علائق النفس البهيمية.

وأما الذكاء والبلادة فهما خُلُقان، ونعتهما كنعت الذكر والنسيان، إلا أن هذين يعرضان في الحين بعد الحين، والأخريان كالراسخين في الطينة.

وأما الغبطة والحسد فخلقان رُسيم الأول منهما بأن تتمنى لنفسك ما أوتيته صاحبك ورُسيم الثاني بأن تتمنى زوال ما أوتيته صاحبك وإن لم يصل إليك. ورسوم هذه الأخلاق أسهل من تحديدها، لكننا تركنا ذلك، لأن الكلام الذي كان يجري هو على مذهب الخدمة.

على أن مراتب هذه الأخلاق مختلفة، فيبعد أن يعمها حد واحد، وإنما اختلفت منازلها لأنها تارة تصفو بقوة النفس الناطقة، وتارة تكدر بالقوتين الأخرين؛ ولبعضها حدة بالزيادة، ولبعضها كلة بالنقص، فلم يكن التحديد يُفصل كل ذلك، فلم نخرج على شيء عجزنا عنه قبل أخذنا فيه.

وتنم بقية ما علق بهذه الجملة، فنقول:

وأما الدماثة والكزازة فخلقان محضان تابعان للمزاج، ثم المران يزيدهما قوة

وَضَعْفًا؛ وهما للنعته أقرب، كالسهولة والعسر؛ ولذلك يقال: «ما أذمَّتْ هذه الأرض»، أي ما أرحاها وألينها؛ وفي المثل:

«دَمَّتْ لَجَنِيكَ قَبْلَ النَّوْمِ مَضْطَجِعًا»^(١)

وأما الحق والباطل فليسا من الخُلُق ولا الخَلْق في شيء، وهما من نتائج المعرفة والنكرة، لأنك تعرف الحق وتنكر الباطل، وذلك لأغراض تتبعهما، ولواحق تلتبس بهما.

وأما العَيِّ والرُّشد فليسا من الخُلُق، لكنهما من علائق الأفعال الحميدة والذميمة؛ وللرأي والعقل فيهما مدخل قوي وحظ تام.

وأما البيان والحَصْر فليس بينهما وبين الخُلُق علاقة، وإنما يتبعان المزاج ويزيد فيهما وينقص الجهد والتواني والطلب والقصور.

وأما الثقة والارتباب فخلقان يغلبان ينفعان ويضران ويحمدان ويذمَّان، ألا ترى أنه يقال: لا تثق بكلِّ أحد، «ولا تَرْتَبْ بكلِّ إنسان» وهكذا الطَّمَأِينَةُ والثَّهْمَةُ، لأنهما في طيهما.

وأما الحركة والسكون فليسا من حديث الخُلُق في شيء لأنهما عامان لجميع الأحوال سواء كان العمل مباشراً أم كان معتقداً.

وفي الحركة والسكون كلامٌ واسع، وذلك أن ههنا حركة إلهية، وحركة عقلية، وحركة نفسية، وحركة طبيعية، وحركة بدنية، وحركة فلكية، وحركة كوكبية، وحركة كأنها سكون. فأما السكون فهو ضرب واحد، لأنه في مقابل كلِّ حركة ذكرناها. فإذا اعتبرت هذه المقابلة في كلِّ مقابل لحظ الانقسام في السكون، كما وجد الانقسام في الحركة. والحركة أوضح برهان على كلِّ موجود حسي، والسكون أقوى دليل على كلِّ موجود عقلي؛ وهذا القدر كافٍ في هذا الموضوع.

وأما الشكُّ واليقين، فمن علائق النفس الناطقة، ولهذا لا يقال في الحيوان الذي لا ينطق: له يقين وشك.

وأما الخلاعة والوقار، فقد تقدّم البحث عنهما.

وأما التوقّي والتهور، فهما خُلُقان في جميع الحيوان، ويغلبان على نوع الإنسان، لأنَّ العقل يُبطل أحدهما، والحسَّ يغلب الآخر.

وأما الإلف والمَلَل فخلقان محضان، يُذمَّان ويحمدان على قدر المألوف والمملول، وإن كان جريان العادة قد وُفِّر الحمد على الإلف، والذم على المَلَل.

(١) بيت شعر، عجزه: لا تسلكن طريقاً غير مأمون.

وقد مُدِح زيد فقيل: هو ألوف. وذَمَّ عمرو فقيل: هو مَلُول.

وأما الصّدق والكذب؛ فمن علائق النفس الناقصة والكاملة؛ وقد يكونان راسخين فيلحقان بالخلُق، إلا أن الصّدق ممدوح، والكذب مذموم، هذا في النظر الأول، وقد يَعْرِض ما يوجب المصير إلى الكذب لِيُنَجِي به؛ فهما إذن بعد الحقيقة الأولى وقَفَّ على الإضافة؛ وقد وجدنا من كَذَبَ لِيَتَنَفَّع، ولم نجد من صَدَقَ لِيَكْتَسِب الضرر.

وأما الإخلاص والنفاق، فهما يُلحقان بالخلُق، ولكنهما يَصُدْران عن عقيدة القلب وضمير النفس.

وأما الإحسان والإساءة، فهما يعمّان الأفعال والأقوال، فإذا رَسَخَ اعتيادهما استحالا خُلُقَيْن.

وأما التّضح والغِشُّ، فهما خُلُقَان، وطَرَفاهما يتعلقان بالخلُق.

وكذلك الطَّمع واليأس، والحبّ، والبغض، واللّهَج والسُّلُو، وما شاكل هذا الباب.

ولم يَجِرْ هذا كلّه في المذاكرة بالحضرة، ولكن رأيت من تمام الرسالة أن أضَمَّ هذا كلّه إلى حَوْمَتِهِ، وأبْلَغَ الممكن من مقتضاه في تتمته.

وقال لي: هاتِ الوَداع، فإنّ الليل قد همّ بالإقلاع.

قلت: قال أبو سعيد الذهبيّ الطيب: لو علم الذي يَحْمِلُ الباذنجان أنّ على ظهره باذنجاناً لَصَالَ على الثيران.

فضنحك - أضحكك الله سيئه، وحقق في كلّ خير ظنه - وقال: إن كنت تحفظ في غرائب أخلاق الحيوان شيئاً فاذكره إذا حضرت، فقد مرّ في أخلاق الإنسان ما يكفي مجلس الإمتاع والمؤانسة، فإذا ضَمَّ هذا إلى ذلك كان للإنسان فيه تبصر كافٍ، وتذكُّر شافٍ. وصدّق - صدّق الله قوله - لأن الإنسان أشرف الحيوان، وإنما كان هكذا لأنه حاز جميع قوى الحيوان ثم زاد عليه بما ليس لشيء منه، فصار رباً له سائساً، ومصرفاً له حارساً، ونظر إلى ما سُخِرَ له منه فاعتبر، وقاد نفسه إلى حَسَن ما رأى، وعزَّفها عن قبيح ما وَجَدَ، ولم يَجْزُ في الحكمة أن يُحرَم الإنسان هذا مع ما فيه من المواهب السنية؛ والمناخ الهنية، فإن قال قائل: فالملائكة إذن قد حُرمت هذه الفضيلة؟ فليعلم هذا القائل أن المَلَكَ لما خُلِقَ كاملاً لم يكلف أن يكمل ويتكامل ويستكمل، فصار كل شيء يطلبه ويتوخاه سبباً إلى كماله المُعَدُّ له وغايته المقصودة. فإن زاد فقال: فهلا خُلِقَ كاملاً؟ فليعلم أن كلامه على طريق الجدَل، لا على طريق البحث عن العِلل، لأنه قد جهل أنّه بالحكمة وجب أن يكون الأمر مقسوماً بين ما يحوز الكمال بالجِبلة، وبين ما يكسب الكمال بالقصد.

ولمَّا وَجِبَ هذا بالحكمة سَرَتْ إليه القدرة، وساح به الجود، واشتملت عليه المشيئة، وأحاطت به الحكمة، وشاعت فيه الربوبية.

وههنا زيادةٌ في شرح الخُلُق يتم بها الكلام؛ فليس من الرأي أن يقع الإخلال بذكرها، لأنَّها مكشوفة ظاهرة، وهي أنَّ الإنسان إذا غلبت الحرارة عليه في مزاج القلب يكون شجاعاً نزالاً، ملتهباً، سريع الحركة والغضب قليل الحقد، زكي الخاطر، حسن الإدراك.

وإذا غلبت عليه البرودة يكون بليداً، غليظ الطباع، ثقیل الروح.

وإذا غلبت عليه الرطوبة يكون لين الجانب، سمح النفس، سهل التقبل كثير النسيان.

وإذا غلبت عليه اليبوسة يكون صابراً، ثابت الرأي، صعب القبول يضبط ويحتد، ويُمسِك ويبخل؛ وهذا النعت على هذا التنزيل - وإن كان مفهوماً - فأسرار الإنسان في أخلاقه كثيرة وخفية، وفيها بدائع لا تكاد تنتهي، وعجائب لا تنقضي؛ وقد قال الأول:

كُلُّ امرئٍ راجعٌ يوماً لشيئته وإن تخلَّق أخلاقاً إلى حين
وقال آخر:

إِزْجِعْ إلي خِيمَكَ المعروفِ دَبْدَبُهُ إنَّ التخلَّق يأتي دُونَهُ الخُلُقُ
ولولا أن النزوع عن الخُلُق شاقٌّ لما قالوا: تخلَّق فلان.

وقد قيل أيضاً: «وخالق الناس بخُلُق حسن»، وعلى هذا يجري أمرُ الضريبة والطبيعة والتحيَّة والغريزة والتَّجِيزَة والسَّجِية والشَّيمة، وربما قيل: الطبيعة أيضاً، ثم العادة تاليةٌ لهذه كلها، أو زائدة فيما نقص فيها، وموقدة لما حَمَدَ منها.

الليلة العاشرة

ولما عُدْتُ في الليلة الأخرى ونَعِمْتُ بهذه الفضيلة، تفضّل وقال: ما في العلم شيءٌ إلّا إذا بُدئ بالكلام فيه اتّصل وتسلسل حتّى لا يوجد له مَقَطَع ولا منفذ. ثم قرأتُ عليه نوادرَ الحيوان، وغرائبَ ما كنتُ سمعتهُ ووجدتهُ، فزاد عجباً وأنا أرويه في هذا المكان حتى يكون تذكراً وفائدة - إن شاء الله تعالى.

يقال: إن أسنان الرجل اثنتان وثلاثون سنّاً.

وأَسنان المرأة ثلاثون سنّاً.

وأَسنان الخَصى ثمانٌ وعشرون سنّاً.

وأَسنان البقر أربعٌ وعشرون سنّاً.

وأَسنان الشاة إحدى وعشرون سنّاً.

وأَسنان التَّيس ثلاثٌ وعشرون.

وأَسنان العنز تسع عشرة سنّاً.

الذي ذكر من أصناف الحيوان أنه يكتسب معاشه ليلاً: البومة والوَطواط.

ومن الحيوان الوحشي ما يستأنس سريعاً: الفيل.

ويحكى أن الحيوان الذي أسنانه قليلة عمره قصير، والذي أسنانه كثيرة

عمره طويل.

الفيلُ إذا وُلد نبتت أسنانه في الحال، فأما أسنانه الكبار وأنيابه الكبار فتظهر إذا

شَبَّ وكَبُر.

قلب جميع الحيوان موضوعٌ في الوسط من الصدر ما خلا الإنسان، فإن قلبه

مائل إلى الجانب الأيسر.

الأفعى تبيض في رحمها، ثم يصير هناك حيواناً.

الشعر المولود مع الإنسان شعرُ الرأس والأشعار والحاجبين.

وأول ما ينبت بعد ذلك شعر العانة وشعر الإبطين وشعر اللحية:

(إن خُصي الإنسان قبل احتلامه لم ينبت في جسده الشعر الذي يتأخّر نباته،

وإن خُصي بعد احتلامه فإن ذلك الشعر يزول، ما خلا شعر العانة فإنه يبقى).

المرأة إذا احتبس طمئتها ربما خرج لها شعرٌ يسيرٌ في موضع اللحية .
 شعر الحاجبين ربما طال عند الكبر .
 وشعر الأشفار لا يطول .
 للآرانب في داخل أشداقها شعر ، وكذلك تحت أرجلها .
 القنفذ في فيه خمس أسنان في عمقه .
 والبرية منها تسفد قائمة وظهر الأنثى لاصق بظهر الذكر .
 الرجال يشتاقون إلى الجماع في الشتاء ، والنساء في الصيف .
 الخنزير إذا تمت له من ولادته ثمانية أشهر ينزو على الأنثى .
 الكلبة تحمل وتبقى ستين يوماً ويوماً ، وهذا أطول ما يكون ، ولا تضع قبل أن
 يتم حملها ستين يوماً ، فإن وضعت قبل ذلك فإنها لا تربى ولا يبقى لها ولد .
 الفيل الذكر ينزو إذا تمت له خمس سنين ، وزمان هياجه ونزوه أيام الربيع
 والأنثى تحمل سنتين ، ولا تضع إلا واحداً .
 إذا باض الطائر وما كان من أصنافه يخرج من البيضة الطرف العريض ثم يرق
 بعد ذلك .
 كل ما كان من البيض مستطيلاً محدد الطرف فهو يفرخ الإناث وما كان مستديراً
 عريض الأطراف يفرخ الذكور .
 وجرب من إناث الطير أنها إذا لم تجلس على البيض تمرض .
 القبج إذا هاج ووقفت الأنثى قبالة الذكر ، وهبت الريح من ناحية الذكر مقبلة
 إلى ناحيتها حملت من ساعتها .
 الحمامة إذا نُفِثت ريشة من ريشها احتبس بيضها أكثر مما لها بالطبع .
 مبدأ خلق الفرخ من بياض البيضة ، وغداؤه من الصفرة ، فإذا خرج فرخان كان
 أحدهما أكبر جثةً من الآخر ، والذكر منهما من البيضة الأولى ومن الثانية الأنثى .
 الفاخنة تعيش أربعين عاماً .
 والحجل يعيش عشرين عاماً .
 الرخمة تُفرخ على صحور مشرفة عالية لا ينالها أحد ، ولا توجد رخمة وفراخها
 إلا في القرط^(١) .
 العقاب يجلس على البيض ثلاثين يوماً ، وكذلك كل طائر عظيم الجثة مثل الإوز وما
 أشبهه ، والمتوسط الجثة يجلس على البيض عشرين يوماً ، كالجدأة والبزاة وما أشبه ذلك .

(١) الجبل الصغير أو رأس الأكمة .

إناث الغربان تجلس على البيض جلوساً دائماً، والذكر يأتيها بالطعم حينئذ.
الْحَجَلُ تَعْمَلُ عَشِينَ يَجْلِسُ الذَّكَرُ عَلَى وَاحِدٍ، وَالْأُنْثَى عَلَى وَاحِدٍ.

الطاوس يعيش خمساً وعشرين سنة، وفي هذه المدة تنتهي ألوان ريشه.
ويحضن بيضه ثلاثين يوماً. قيل: وربما أكثر قليلاً، ويبيض في كل سنة مرة واحدة،
وعدد بيضه اثنتي عشرة بيضة، ويلقي ريشه في زمن الخريف وبعده قليلاً، وذلك حين
يلقي الشجر ورقه، فإذا بدا أول الشجر وظهرت فروعه، ونبت ورقه بدأ ريشه ينبت.

الدُّلْفِين له لبن، ويُرضع، ويحمل عشرة أشهر، وتلد في الصيف ولا تلد في
زمان آخر البتة، وربما غاب تحت الموج في الماء ثلاثين يوماً لا يظهر؛ وهو محب
لخبرته يأكله.

الجمل الذكّر يكره قرب الفرس ويقاؤه إذا تمكن منه.

الشاة إن مطرت بعد نزوها انتقض حملها.

العنم إذا أنزيت والريخ جنوب تضع أولادها إناثاً؛ وإن كانت العروق التي تحت
السُن الكباش الفحول بيضاً فإن إناث العنم تضع حُملاً بيضاً، وإن كانت العروق
سوداً فإنها تضع حُملاً سوداً. وإن كانت لونين تكون مختلفة؛ وإن كانت شُفراً
خرجت شُفراً.

العنم إذا هاجت المُسِنَّة منها أولاً فالسنة ذات خضب، وإن هاجت الفتية أولاً
فالسنة رديئة على العنم.

الكلب السلوقي ينزو إذا تم له ثمانية أشهر، والأنثى منها تحمل ستين يوماً،
وربما زادت يوماً أو يومين، وجراؤها عمي اثنين وعشرين يوماً. ومنها ما تحمل ثلاثة
أشهر وتكون جراؤها عمياً سبعة عشر يوماً.

إناث الكلاب تطمّث في كل سبعة أيام وتبول جالسة، ومنها ما ترفع رجلها
عند البول.

ذكور الكلاب ترفع أرجلها للبول إذا تمت لها من ولادتها ثمانية أشهر وبعضها
في ستة أشهر.

ذكور الكلاب السلوقية تعيش عشر سنين، وإناثها اثنتي عشرة سنة، ومن
أجناسها ما تعيش عشرين سنة، وإناثها كلها أطول أعماراً من الذكور.

قال أوميروس الشاعر: إن كلب أديسوس هلك وهو ابن عشرين سنة.

وليس تلقى الكلاب شيئاً من أسنانها سوى النابين، فإذا تم للكلب أربعة
أشهر أبقاهما.

البقر تُلقِي أسنانها لستتين، وإذا كثر نزوُ الذكور منها وحملُ الإناث يكون ذلك علامةً شتاء وجُودِ أمطار وخصب، وإناثها تَطْمَثُ.

إناث الخيل تضع أولادها في أحد عشر شهراً، أو في الثاني عشر.

الحيات رَغِبَةٌ نَهْمَةٌ، قليلة شرب الماء، لأنها لا تضبط أنفسها، وإذا شمت الشراب فإنها تشتاق إليه جداً.

الأسد إذا بال رفع رجله كما يرفع الكلب.

البقر تشتهي شرب الماء الصافي النقي، والخيل على الضد فإنها تشرب مثل الجمال الماء الكثير الغليظ.

الغنم في الخريف تشرب الماء الذي تصيبه ريح الشمال، وذلك الوقت أوفق لها.

الدُّرَّاج إذا هبَّت الرِّيح شمالاً تتزاوج وتُخَصِّب، وإن كانت جنوباً ساءت حالها ومرضت.

السّمك الذي يأوي إلى الشطوط من ناحية البرّ ألدّ من الذي يأوي الدُّجج وما كان منها مستطيلاً الجثة فهو يُخَصِّب في الصَّيف وهبوب الشمال؛ والعريض الجثة على ضد ذلك، وأكثر ما يصاد السمك قبل طلوع الشمس لكُلبه على الرعي، وطلب الطُّعْم.

والسمك الجاسي الجلد يخصب في السنة المطيرة، لأن ماء البحر يحلو فيها.

الكلب له ثلاثة أمراض: الكُلب، والدُّبْحَةُ - وهو القاتل لها - والثُّقْرَس.

والداء الذي يقال له الكُلب يعرض للجمال أيضاً، فإذا كلبَ الجمل بَخِرَ ولم يؤكل لحمه.

الخيّل إذا أَلقت حوافرها وقت تَنْصُل نبت لها حافر آخرُ عاجلاً، لأن نباته يطلع مع نصول الحافر. وعلامة ذلك اختلاج الخصية اليمنى.

ويعرض للخيّل داء شبيه بالكُلب، وعلامته استرخاء آذانها إلى ناحية أعرافها، وامتناعها من العَلْف، وليس لهذا الداء علاج إلا التسكين.

لا يكون في بلد الهند خنزير. لا أنيس ولا بريّ، وفي أرض تُعرف بكذا يجرّ البقر كما يجرّ الغنم، وفي أرض الثوبة تولد الكباش نابتة القرون.

وإناث الكلاب السُّلوقية أسرع إلى الأدب من الذكور.

جميع أجناس الحيوان إناثها أقل جرأة وأجزع، ما خلا الذئبة، فإنها أصعب خُلُقاً وأجراً من الذكور.

العُقاب والثَّيْن يتقاتلان، والعقاب تأكل الحيات حيثما وجدتتها.

الغُذاف يخطف بيض البومة نصف النهار فيأكله، لأنَّ البومة لا تبصر بصرأً حاداً في ذلك الوقت. فإذا كان الليل شدت البومة على بيض الغُذاف فأكلته.

بين العنكبوت وبين الجرذون شرّ، لأن الحردون يأكل العنكبوت.

عصفور الشوك يقاتل الحمار، لأن الحمار إذا مرّ بالشوك أفسد عشه، فإذا نهق بالقرب منه وقع بيضه، وإن كان فيه فراخ خرجت منه، فلهذه العلة يطير هذا العصفور حول الحمار وينقره.

والغراب يعادي الثور والحمار وينقرهما.

والحية تعادي الخنزير وابن عرس، لأنهما يأكلان الحية حيث وجداها.

الغُذاف مصادق للثعلب، والثعلب مصادق للحية، « والسبب في عداوة العصفور للحمار أن معاش العصفور من بزر الشوك وفيه يبيض، وهو وكره، والحمار يرعى ذلك الشوك إذا كان رطباً ».

البقر يكون في الجبال إذا ضلّت بقرة تبعثها الأخرى، ولذلك الرعاة إذا لم يجدوا بقرة واحدة وعدموها طلبوا سائر البقر وفقدوها من ساعتهم.

الخييل إذا ضلت الأنثى منها أو هلكت ولها ولد فإن إناث الخييل ترضعه وترتيه، وذلك أن جنس الخييل في طباعها حُبّ أولادها.

الأيائل تلقى قرونها في أماكن عسيرة صعبة، لا تُرتقى لئلا تؤخذ؛ ولذلك قيل في المثل: حيث تلقي الأيائل قرونها، فإذا ألقته توقت أن تظهر إلى أن تنبت، كأنها قد ألقته سلاحها. وقيل: إنه لم يعاين أحد القرن الأيسر من قرنيها، لأن فيه منفعة عظيمة.

وإذا وضعت أولادها أكلت مشائمها من ساعتها، ولا يمكن أخذها لأنها تأكل من قبل أن تقع على الأرض.

والأيائل تصاد بالصّفير والغناء، ويفعل ذلك رجلان أحدهما يغني ويصفر، والآخر يرشقها بالسهم، فلا يصغائها إلى الصفير والغناء لا تحذر السهام.

ويقال إن الأيائل إذا كانت أذناه قائمتين فهو يسمع كل شيء ولا يخفي عليه ما يراد به، وإن كانتا مسترخيتين خفي ذلك عليه.

الفهد إذا أكل العشب التي تسمى خانقة الفهود يطلب زبل الإنسان فيأكله ويتعالج به.

ابن عرس إذا قاتل الحية أكل السذاب مخالفة للحية.

اللقالق إذا خرجت من قتال بعضها بعضاً تضع على الجرح صعترأً برياً.

يقال إن ذكور العصافير تبقى سنة فقط، والدليل على ذلك - أنها من قبل أطواقها

التي في أعناقها - لا تظهر في الربيع، بل بعد ذلك بأيام، لأنها لا تُبقي شيئاً من الذكور التي كانت من العام الماضي، فأما إناثها فهي أطول أعماراً.

إذا دنا الصياد من عش القَبَج تخرج الأنثى من بين يديه وتطمعه في صيدها حتى تهرب فراخها، ثم تطير وتدعو فراخها إليها.

وإناث القَبَج تبيض خمس عشرة بيضة، والذكر منها يطلب موضع بيض أنثاه فيدحرجه - مخافة أن تقعد عليه وتشتغل عنه - فيفسده، وهي تحتال أبدأ في الهرب منه وتُخفي موضع عُشها، فتبيض في أماكن خفية، ومتى قصدها قامت عنه وأطمعت في نفسها حتى تبعد عن أماكن بيضها، فإذا بعد طارت ثم احتالت في الرجوع إليه. الهدهد يعمل عشه من زبل الإنسان، فلذلك رائحته كريهة.

العقاب تصيد منذ حين الغداة إلى وقت الرواح، فأما من أوان الرّواح إلى أن يترحل النهار فهي قاعدة في مكانها لا تتحرك.

ومنقار العقاب الأعلى ينشأ ويعظم ويتعقّف حتى يكون ذلك سبب هلاكها لأنها لا تنال به الطعم، فإذا فضلت للعقاب فضلة من طعمه وضعها في عُشه لحاجة فراخه إليها. أصناف الطير المعقّفة المخالب لا تجلس على الصخر إلا في الفَرَط، لأنّ خشونة الصخر مخالفة لتعقّف مخالبتها.

النحل تعمل عُشها في زمانين: في الربيع والخريف. والعسل الذي عمله في الربيع أشدّ بياضاً وأجود من الذي عمله في الخريف. وأضعف العسل يكون أبدأ في أعلى الإناء، والنقيّ الطيب في أسفله. الأسد عظامه جاسية جداً، وإن دُلكت بعض عظامه ببعض خرجت منها نار كما تخرج من الحجارة.

الحيوان الذي له شعر في أشفار عينيه ليس في أشفار عينيه شعر إلا الشعر الأعلى. والنعام لها أشفار في الجفنين الأعلى والأسفل. القنفذ تبيض خمس بيضات، وليس هو ببيضاً بالحقيقة، بل هو على صورة البيض، يُشبه الشحم.

قلب كل حيوان طرفه حاد، وهو أصلب من سائر جسده، وهو موضوع في وسط الصدر سوى الإنسان، فإنه مائل فيه إلى الناحية اليسرى، لأنه يكون بإزاء الجانب الأيسر فيعادل الناحية اليمنى، فإن اليسرى من الإنسان أكثر برداً. وليس في قلوب جميع الحيوان عظم إلا في الخيل، وفي جنس من البقر، فإن في قلب هذين عظماً دون غيرهما من الحيوان.

وكل حيوان له قلبٌ كبيرٌ يكون جزوعاً.
الكلاب الهندية تتولد من كلب وسبع شبيه بالكلب.
والحمار حيوان بارد، ولذلك لا يكون الوحشيّ منها إلا في المكان البارد.
ذكور البغال لا تشم أبوال إنائها كسائر ذوات الحافر.
بيض الطير فيه لونان: بياض وُصفرة.
ويبيض السمك فيه لون واحد.
إذا كانت الريح جنوباً كان المولود أنثى، لأن الجنوب إذا هبت رطبت وإذا
أشملت كان المولود ذكراً.
عيون جميع الصبيان ساعة ولادتهم شُهل^(١)، ثم تنتقل إلى الطباع الغالبة عليها.
وعيون جميع الحيوان لون واحد، كالبقر فإن عيونها سود. وعيون البشر ألوان كثيرة.
صاحب العين الناتئة لا يُبصر ما بعد عنه بصرأ جيداً، والغائرة تُبصر ما بعد
عنها، لأن حركتها لا تتفرّق ولا تتبدّد.
الفهد ربما نكح الدبّ فيتولد بينهما سبُع مختلف المنظر، لا يتناول الناس
ويصيد الكلاب ويأكلها ويستخفي في الشجر، فإذا مرّ به أُيّل مفاجأة وثب عليه وأنشب
مخالبه في أكتافه ومصّ دمه حتى يضعف الأيّل ويسقط فيجتمع عليه هذا الصنف من
السباع فيأكله، فإن اجتاز بها أسد نهضت عنه وتركت الفريسة له تقرّباً إليه.
بأرض يونان معزى جعدة الصوف، يقال لها: المعزى البرية، فإذا أصابت
قرونها شيئاً من قُضبان الكرم لم يَبت ورقه ولا ثمره، بل يجفّ مكانه ويسقط ما عليه
من الورق والثمر.
السُّلخفاة تخرج من البحر إلى الرمل فتبييض فيه، حتى إذا بلغ أوانه وخرج أولادها،
فما كان ناظراً إلى ناحية البحر كان بحرياً، وما كان وجهه إلى ناحية البرّ كان برياً.
والسُّلاحف تمتنع من الذُكران، فيأتيها بعود يحملها في فمه، ويدنو منها، فإذا
رأت ذلك العود سكنت له.
وما كان من السُّلاحف بحرياً فخرَج إلى البر وأصابه حرّ الشمس لم يستطع
الرجوع إلى البحر وبقي حتى هلك. وما كان برياً فوقع إلى ناحية البحر تَلّف ولم
يستطع الرجوع إلى البرّ وهلك.
الثعلب يهيب عُشه ووكّره ذا سبعة أجمرة، فإذا طرقت الكلاب وغيرها مما
يتخوّف في جحر خرج من غيره.

(١) هو أن يشرب سواد العين زرقه. وقيل أن تشوب الحدقة حمرة.

وإذا قارب الزرع أن يُسَنبِلَ دخل الثعلب فيه وتمعك فرحاً به، فيفسد ذلك الزرع، ولذلك سمى احتراق الشعر: داء الثعلب، لأنه يُسَقِطُه كما يُذهب ورق السنبل والشوكة.

القنفذ يعمد إلى الكرمة فيحرّكها فيقع منها العنب، فيتمرغ فيه حتى يملأ شوكة ويعود إلى عُشّه، فإذا بصرت به جراؤه أطافت به تلتقط ذلك الحب من شوكة وتأكله.

الذئب إذا هُيئَ من معاه وتَرَّ وهَيئَ من مَعَى الشاة وتَرَّ، ثم عُلِّقا بالآت الملاهي، ثم ضرب بهما، صوت المعمول من الذئب، وخرس الوتر المعمول من الشاة.

وكل شاة يتناول الذئب من لحمها يكون لحمها لذيداً، وكل جزة صوف تُهيأ من الشاة التي قد تناول الذئب منها قَمِلَ الثوب المعمول منها مِنْ قِبَلِ سَمِّ أسنانه.

الكلب إذا مَرَضَ أَكَلَ حَلْفَاءَ رَطْبَةً.

والأَيْلُ إذا مَرَضَ أَكَلَ حَيَّةً.

والضَّبُعُ إذا مَرَضَ أَكَلَ كَلْباً.

الأسد إذا أَكَلَ كَلْباً فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدْ ضَرَسَ فَيَزُولُ ذَلِكَ.

الرخمة إذا ضعفت بصرها بقرت مرارة إنسان.

الأعنز البرية تألف حيتانا بحرية، وتدع الجبال وتسلق طريقاً بعيداً حتى تأتي البحر لمكان تلك الحيتان، فلما عرف ذلك الملاحون سلخوا جلود تلك الأعنز، ودنوا بها من شاطئ البحر على ظهورهم، فإذا نظرت تلك الحيتان إليها فيصيدها الملاحون.

ليس من السباع شيء ضلّبه عظم واحد بلا حَرَزٍ إلا الأسد والضبع.

من ربط على بدنه شيئاً من أسنان الذئب ولبسه لم يخف الذئب.

والفرس الذي يعلّق عليه شيء من أسنان الذئب يكون سريع الجري.

المعزى البرية تكون ضلّبة القرون، تأوي أطراف الجبال وما كان مُشْرِفاً من الصخور على أودية، فإن بصرت بالصياد ألقت أنفسها من تلك الصخور لتقيها بقرونها، فإن سقطت على غيرها هلكت، وفي قرونها خرزات مستديرات على قدر ما يكون عددُ سنيها.

والعجب أنها تحفظ إنائها عند الكِبَرِ وتتعهدها بالمطعم والمشرب تحمله على أفواهاها.

المعزى البرية إذا صيد شيء من سخالها تبعته ورضيت بالعبودية مع ولدها وفي أطراف قرونها جِحرَة تننفس منها، فإن سُدَّتْ هلكت مكانها.

الوَرشَانُ يحترز بأن يضع ورق الغار في عُشّه.

والجدأة تضع في عُشها ورق العُليق تتحرّز به .
الخطاف يضع في عشه قضيبَ كَرُفَس .
التدْرُج يضع في عُشه سَرَطاناً نهريّاً .
جميع السباع والدوابّ عند المشي تقدّم اليد اليمنى والرجل اليسرى .
لا تكون الزرافة إلا في أرض قليلة الماء .
إذا هم أصحاب الخيل أن يُنزّو حماراً على فرس جَزُوا عُرفها فتقرّ حينئذٍ وتدلّ
لكدّم الحمار لها .
بيونانَ ثيران لها أربعة قرون لا ترضى بمجامعة البقر، بل تجامع إناث الخيل،
ويتولد بينهما خيول عجيبة المنظر .
الجاموس لا ينام أصلاً وإن أرخى عينيه إرخاء يسيراً، لكنّه ساهرٌ الليل والنهار .
الجمل إذا وَقَعَ على الناقة وَقَعَ الضراب سُتِرَ عن الرجال، فإن نظر إليه
رجل غَضِب .
قالت الروم: إن السُّور يتولد من مجامعة الفهد لبعض السباع .
لا ينام البوم إلا إغفاءة .
ومن العجب أن السُّور يكون صافي العين كثير البريق عند امتلاء الهلال وينقص
ذلك الصفاء والبريق عند نقصان الهلال .
الأفعى إذا جامعها الذكر واسمه الأفعوان تحوّلت إليه، فإن ظفرت به أكلت
رأسه من شدة عشقها له .
دَكَر العقرب اسمه عُقْرُبَان، أسود صغير، سريع المشي، جادّ الذهب، الجِرْدُون
تفسيره بالعربية الذي يخرج من الزعفران .
التمساح لا يكون إلا في النيل ونهر بَأَرْض الهند يقال له: الرّيسيس وبييض
كبيض الإوز، وربما يُولد منه حَرَاذِينُ صغار، ثم يكبر حتى يبلغ طوله عشر أذرع،
ويزداد طولاً كلما ازدادت سنو حياته .
وسنّه اليسرى نافعة لحمى النافض .
وذكر أنّه يجامع ستين مرّة في حركة واحدة ومحلّ واحد .
الحمار الوحشيّ يتولد بين الفرس والفيل، وله قرن يَنبت من أنفه كأنه سيف،
وإن ضرب شجرة قطعها وبه يقاتل الفيل ويبعج بطنه بقرنه، ولم يُعَاين من هذا الجنس
أثنى قط .
في البحر حوت يقال له: البوس، يتولد من الصاعقة إذا كانت في البحر وإن

وُضع ذلك الحوت بين اثنين فأكلا منه تحاباً ولا يحقد أحد على صاحبه، ويتأخيان أحسن الإخاء.

كلب الماء أبداً ذنبه على ظهره واقع مع انطباق والتواء، يرعى نبات الأرض، وهو شديد الجزع من النار، فإذا كان الليل خرج الصيادون بأيديهم شعل النار، فيأتون مجتمها، وتلك لا تتحرك لجزعها من النار حتى تؤخذ، وإن كان منها ذكر لم يجمع أنثى قط، وإذا أرادت المجامعة فإنها تجتمع وتجلد فتفترخ.

وإن أخذ منها صياد بشبكة واحداً وثبت كلها حتى تدخل الشبكة آبية فراق بعضها بعضاً.

ومن لبس جورباً من جلودها وبه يقرس انتفع به جداً. وإذا ابتلي إنسان برُعاف ثم أخذ قطعة من جلدها، ثم انقعه في لبن واشتمه انقطع ذلك الرُعاف.

اليرابيع إذا اجتمعت في موضع ارتفع رئيس لها حتى يكون في موضع مشرف أو على صخرة أو تل ينظر منه إلى الطريق من كل ناحية، فإن رأى أحداً مقبلاً أو سبعاً صرّ بأسنانه وصوت، فإنه سمعته انصرفت عن الموضوع إلى جحرتها فإذا أغفل ذلك وعانت البقية سبعاً أو راجلاً قبل أن يراه ذلك الرئيس انصرفت إليه وقتلته لتضييعه أو غفلته. وإذا كان حسن الرُضد مضت اليرابيع فقطعت أطراً ما يكون من الخضرة وأطيب العشب فحملته بأفواها حتى تأتيه تحية وتكرمة.

وإذا كانت في جحرتها خرج الرئيس أولاً فيبصر الطريق، فإن لم ير أحداً صرّ بأسنانه وصوت لها لتخرج فترعى.

في البحر حوت يقال له: موفى، ضعيف الجسد، قليل القوة، إذا جاع خرج إلى الشاطئ فاستلقى على الرمل فأقام شوكة في رأسه، فإذا نظر إليه حوت آخر جاء مسرعاً ليأكله يظن أنه ميت، فيدخل بطنه تلك الشوكة فيقتله بها ويأكله.

وإذا ألقى الملاح صنارته ولقيت ذلك الحوت رمى مكانه بتلك الشوكة الحادة يد الملاح فتخدر ويترح أداة صيده.

فإذا رأى الحوت أن الصنارة داخلت أضلاعه غلبت الظلمة على بصره ومات من ساعته.

وفي جلد هذا الحوت عجب، وهو أن الصاعقة لا تدنو من جلده، والملاحون يغطون سفنهم به عندما يتبينون الصواعق ووقوع المطر، ويدنو هذا الحوت إلى طرف مقدم السفينة فيمسك بطرفه اللطيف، فلو اجتمعت الرياح كلها بأشد هبوبها لم تستطع تحريك تلك السفينة، فمن أخذ من جلدها وسمر به شراع السفينة لم يخف على سفينته غرقاً.

السريع الحُضْر أربعة: الثُّور والحَرِيش وعنز الجبل وكباشها .
عدو الحيات أربعة: القنفذ والفيل والأيل والعَقَعق .
الجبان اثنان: الأرنب والأيلُ .
ذو الزهو ثلاثة: الفرس والديك والطاوس .
ذو حدة السمع ثلاثة: الذئب والحمار والحُلد .
القادر في التزاوج ثلاثة: العصفور والحمام والعَقَعق .
ذو الشهوة ثلاثة: العصفور والثور والباشقُ .
المتحارس بالليل اثنان: الكركي والبط .
نافي فراخه ثلاثة: النعام والغُداف والعُقاب .
محب الظلمة ثلاثة: البوم والخفّاش والحُلد .
ذو حدة البصر ثلاثة: العقاب والظبي والباشق .
من أخذ لسان ضبع ومر به بين الكلاب لم تكلم عليه .
من مر بمكان كثير الضباع فأخذ بيده أصلاً من أصول عنب الحية هربت منه .
وعنّب الحية هو الحنظل .
وذكر الحُبّارى يقال له: الحَرْب .
إذا أراد إنسان أن يتزوج امرأة فليُنظر إلى أبيها وأخيها فإنها بعيانه وبين
يديه أحدهما .
من الحيوان ما لا يشبه الولد الوالد كالذبابة والنحل والدَّبْر .
أما الذبابة فتضع أولادها توائم لا صور لها حين تولد، غير أن أمها تهيب
صُورها، وتسويها بلحسها إياها بألسنتها . . .
وأما الدَّبْر فإنها تلد دوداً يتصور بعد ذلك .
الضفادع والغيالم والسرطانات لا ضرر عليها في ماء ولا بيس، لكنهما عندها
سيان لا تهلك في بر ولا تُخنق في بحر .
كلُّ ما أكل اللحم فهو ذو أسنان قواطع صلاب، وأعناقٍ قصارٍ شداد، ومخالبٍ
وأظفارٍ حداد، ومناقيرٍ معققةٍ جذابة .
للأسد ثلاث طبائع: الأولى منها أنه إذا مشى فشم ريح الصيادين عفى على آثاره
بدنّه لكيلا يتبعه الصيادون ويقفوا عليه في عرينه فيتصيدوه .
والثانية أن اللبوة تلد شبلها ميتاً، فلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه في اليوم الثالث
فينفخ في منخره فيبعثه .
والثالثة أنه يفتح عينيه إذا نام وهما يقظتان .

ومن تمسح بشحم كلى الأسد ومشى بين السباع لم يخفها ولم تقربه؛ وإن افترس الأسد الفريسة ولم يأكلها ميز أن ريحها متينة جداً.

وأصناف الحيوان التي تلغ الدم بألستها: الكلاب والسنانير.

الأسد: تضع أولادها غير منفتحة العيون، وإنما تفتح بعد ذلك.

وأما الأسد خاصة فليس له من جنسه قرين، ولا يرى شيئاً من السباع كفواً له فيصحبه، ولا يقرب شيئاً من بقايا فريسته بالأمس ولو جهده الجوع ويهرؤ زيرهُ كثيراً من الحيوان الذي هو أعظم منه جسماً وقوة.

وإنما تلد اللبؤة واحداً ويخرق بطن أمه بأظفاره ويخرج منه.

الثعلب إذا جاع فلم يقدر على صيد عمداً إلى أرض شديدة الحر وإلى موضع الطير إذا حمي، فاستلقى على ظهره ونظر إلى فوق، ثم اختلس نفسه وأخذ به داخلاً حتى ينتفخ انتفاخاً شديداً فيحسبه الطير قد مات، فيقع عليه ليأكل منه كما يأكل الجيفة، فإذا اجتمع الطير انتفض سريعاً وقبض على ما وجد فأكله، لأنه ذو خب ومكر، كذلك طبيعته إن أصابه ضرر فأثر فيه آثاراً وكلم فيه كلوماً أخذ من صمغ شجرة تدعى قنطورياً فأبرأها به.

القرد أهيأ الحيوان لقبول التعليم، وهو لعوب غضوب سريع الجس، لا يكون في بلد كثير السباع، عدو لجميع الحيوان، مليح الإهاب، نهوش خطوف، إلا أنه إذا شبع نام في غاره ثلاثة أيام، فإذا خرج صاح بصوت عالٍ تخرج منه رائحة طيبة، فيجتمع إليه الحيوان لحسن صوته.

ومن أراد خنله فليتمسح بشحم الضبع ويدخل عليه في غاره، فإنه لا يمتنع؛ خفيف الجرم، حديد الشد يقظان.

دابة يقال لها بالفارسية (بادستر) إذا طلبه القانص استلقى لظهره وأراه أنه لا خصية له، كأنه قد علم ما يطلب منه.

خلق الجبان من الحيوان الخائف سريع الحضر سريع الحركة، وجعل الصنف الجريء العادي بطيء الحضر مبدأ.

الضبع مخالفة لجميع أجناس الحيوان، وذلك أنها تصير مرة ضبعاً ذكراً ومرة أنثى، تلغح أحياناً كالذكر، وتقبل اللقاح أحياناً كالأنثى.

وطبيعتها أنها إذا رأت الكلب في ليلة مغمرة مشت على الآثار ووطئت ظلّه فوقه.

«ومن قتل ضبعاً وأخذ لسانه ومرّ بين الكلاب لم تكلب عليه، ولم تعرض له.

ومن مرّ بمكان كثير الضباع فأخذ بيده أصلاً من حنظل، أسكتها عنه وهربت منه».

القنفذ عدو الحيات، إذا قبض على حية تركها تضطرب على شوكة حتى تموت، فإذا ماتت قطعها قطعاً.

الدب يقتل الثور، والغالب عليه الانجحار في مغارته.

الفيل ليس له شهوة السّفاد، فإذا أراد الولد أتى رياضاً وجناناً فيها اللّقاح هو وإنائه فهيج له اللّقاح برائحته وقوة حرارته شهوته فتسافدت، فإذا ولدت وولدت قائمة، لأن أوصالها ليست موالية كأوصال التي تلد باركة وراضة غير أنها تلد في الماء حذراً على دغفلها أن يموت إذا وقع على الأرض، فلذلك تدخل ساحل البحر حتى يبلغ الماء بطنها فتضع ولدها على الماء كالفراس الوثير والذكر في ذلك يحرسها وولدها من الحية.

ما أشدّ عداوة الفيل للحية؛ حيثما أصاب الفيل الحية وطئها وقتلها.

وإن هو سقط على جنبه لم يستطع القيام، إنما نومُه إذا اتكأ على شجرة.

ومن هناك - لما عرّف أهل تلك البلاد كيف نومُه - يأتون الشجرة فينشرونها بالمنشار، فإذا أتاها الفيل واتكأ عليها وقعا على الأرض معاً، وحينئذ يشتد صياحه بصوت رفيع، ويجمع إليه لذلك فيلة كثيرة تحاول معاونته على النهوض والانبعاث، فلا تقدر على ذلك، فتصيح جماعتها بصوت واحد جزعاً من ضعف حيلتها وعجزها حتى يأتي الفيل الذي هو في الجسم أصغر، وفي الحيلة أكبر منها، فيدخل مشفره تحت الفيل الساقط، وتفعل كفعله جميعاً في إدخال مشافيرها تحته حتى تدعمه فينبعث، وإنما كوّن رأس الفيل في عنق قصير، وكوّن له بدل العنق الطويل المشفر الطويل ليكتفي به من الضيق؛ وبه يتناول طعامه وشرابه.

وخلقت قوائمه غير منفصلة، لكنّها كالأساطين المصمّمة والسوّاري الوثيقة لتحمل الكثير الثقيل؛ وربطت بعراقيب صغار غير منحنية ولا منثنية على الأوصال، لكن عظامه مفرغة إفراغاً.

تطول أعمارها إلى ثلاثمائة سنة؛ غير أن القردان والبقر تعلق بالفيلة فتؤذيها.

السّمندل: دابة لا تخاف النار، لأنها لا تحرقها، وإن دخلت أخذوداً متأججاً مضطرباً بالنار لم تحفل بذلك، وصارت النار التي تُبِيد الأجسام مبعثاً لهذه الدابة المهيئة الحقيرة، تستلذّ التقلب فيها استلذاذ القلب بالهواء البسيط وهبوب أرواحه الطيبة؛ ونضارة جلدها وتنقيته بالنار، فيزداد بالنار حسن لون.

الأزنب من طباعها الجبن والخوف، وهي كثيرة الولادة.

الكلب ذو فحص واقتفاء للأثر، وبشمه يسترشد ويهتدي ويستدل إذا شمّ المولى

عرّفه إن كان له أو لغيره.

ومن طباعه الترضي والبصبة والهشاشة لمن عرفه .

ليس في الحيوان أشدّ حباً لصاحبه منه، فإن أشار له على صيد وثب ناصباً رأسه رافعاً ذنبه مستعداً كالفارس البطل والشجاع التجد، مع نشاطه في الطلب وهو يعلم أن الصيد ليس بحاضر، لكن ذلك منه حسن طاعة .

فأما حب بعض جراء الكلاب لبعض إذا كان أخاه لأم ولأب فمما قد عهد وشوهد، وذلك أنه حيث كان يُطرح لها الطعام في الوسط، فلا يخطف واحد منها ذلك، لكنها تتعاطاه بينها بسكون وتمكين بعضها لبعض، غير مستأثرة به ولا محاربة عليه .

الفرس من طباعه الزهو والحرارة وشهوة الإناث للسفاد . وإن وطئ الفرس أترّ وطء الذئب ارتعد وخرج الدخان من جسده كله .

الذئب إذا رأى الإنسان مبطئاً خطوه وهو ساكن سكت عنه، فإن رآه خاف وجبن اجترأ وحمل عليه وكبسه .

وليس كل ذئب يعدو، ولكن هو الذي يكون ضارياً؛ وفيه خلتان: إحداهما أن يكون منفرداً يمشي وحده، والأخرى حدة سمعه، إن خفي عليه مكان الغنم أتى مكاناً وعوى صوتين أو ثلاثة، ثم سكت منصتاً لأصوات الكلاب التي مع الغنم ونباحها حين سمعت عواءه، فإذا سمع نباح الكلاب شدّ مسرعاً نحوها، قاصداً إليها؛ فإذا قرب من الغنم مال إلى ناحية أخرى خالية من حرس الكلاب فاخطف ما أمكنه خطفه من الغنم .

حمار الوحش إذا ولدت الأنثى الأولاد الذكور جاء الفحل فانتزع خصي تلك الذكور وقطعها بأسنانه لكيلا تُصَادَ أو تُشاركه في طروقة، إلا أن الأنثى ربّما وضعت ولدها في مكان غامض حتى يشتد جسمه وتصلب حوافره، ويقوى بالشّد على النجاة من الفحل، ولهذا السبب يقلّ منها الفحول .

الحريش دابة صغيرة في جرم الجدي ساكنة جداً، غير أن لها من قوة الجسم وسرعة الحضر ما يعجز القناص عنها، ثم لها في وسط رأسها قرن واحد منتصب مستقيم، به تناطح جميع الحيوان فلا يغلبها شيء .

احتل لصيدها بأن تعرض لها فتاة عذراء وضيئة، فإذا رأتها وثبت إلى جبرها كأنها تريد الرضاع، وهذه محبة فيها طبيعية ثابتة، فإذا هي صارت في جبر الفتاة أرضعتها من ثديها على غير حضور اللبن فيها حتى تصير كالثشوان من الخمر والوسنان من النوم، فيأتيها القناص على تلك الحال فيشدّ من وثاقها على سكون منها بهذه الحيلة .

الأيّل عدو الحيات إن قربت منه حية فانجحرت في صدع صفا ملاء الأيّل فاه من الغدير أو من حيث وجد فدفعه في ذلك الصدع، ثم اجتذب الحية إليه بالقوة حتى

يقتلها، وإن كانت فوق أنزلها، وكذلك إن كانت أسفل، فإن كان جائعاً أكل ما أصاب منها، وإن لم يكن به جوع قتلها وتركها فصارت الحيات ذوات السم الزعاف المُميت لكل من أصابه أو خالط بدنه غذاء هذه الأيام، ويكون ملائماً لها لذيذاً عندها.

وإن دَخَنَ البيت الذي فيه الحيات بدخان حريق قرن الأيئل فَرَّتْ منه كُلُّها خوفاً.

على أن الأيئل نفسه جبانٌ شديد الرعب، إذا أكل الحية بدأ بذئبها حتى ينتهي إلى رأسها، ثم يقطعه بأسنانه، وأكبرُ من ذلك أنه يتعلّق برؤوسها وتبقى في الهواء. وتكثرُ فيه المِرّة وَيَعَطِّشُ عطشاً شديداً فيَعُوجُ إلى غدِيرِ الماء.

الغزال، يقال: ليس في الحيوان أبصر من الطّباء؛ ويقال لها باليونانية النّظارة والمُبصرة.

الشور دابةٌ عَمُولٌ كدودٌ مقدّرٌ جسمه بقدر قوته. من طبيعته كثرةُ المنى وتوقدُ شهوة السّفاد، إن لم يُخصَّ لم يذللّ للعمل ولم يسكن ولم يصحّ جسمه لأنّ العُلْمَةَ تحلّ جسمه وتنحله، والخِصَاءُ يَقْطَعُ ذلك كله. وبينه وبين الذّبّ عداوةٌ شديدة.

أعنزُ الجبل وكباشه وهي الأزواء والتيايل هذا جنس متمرّد في الجبال سريع الخُضر في الشواحق والتوقل^(١) فيها وطبيعتها أن تلد توائم.

قد يوجد من البهائم ما لا يحيل، فأما أنثى الخيل إذا كانت حاملاً فوطئت أثر الذّب بحافرها أجهضت حملها.

الحمارُ في طبيعته معرفة صوت الإنسان الذي اعتاد استماعه وإيناسه، لا يضلّ عن طريق سلّكه مرّة ولا يخطئه، إذا ضلّ ركبهُ الطريق هداه وحمله على المَحَجَّة.

وأما حِدّة السمع، فليس في البهائم فيما يُذكر أحدٌ سمعاً منه.

اليأمورة دابةٌ وحشية نافرة، لها قرنان طويلان، كأنهما منشاران تنشر بهما الشجر؛ إذا عطشت وردت الفرات وعليه غياطل^(٢) وغياض ملتفة أشجارها تفرعت من أغصانها غصونٌ طوال دقاق مشبكة، فإذا شربت ريّها وأرادت الصّدْر اشتهد الاستتار والعدوّ بين تلك الأشجار «ولجّت هناك» فعلق قَرْنَاهَا بتلك الغصون اللدنة المتينة، وكلّما عالجتها لتفيلت ازدادت ارتباطاً فإذا ضجرت مما وقعت فيه عجت جزعاً، وسَمِعَ الفئاص صوتها فأتوها فقتلواها.

الجمل: حقد، يرتصد من ضاربه الفرصة والخلوة لينتقم منه؛ فإذا أصاب ذلك لم يستبق صاحبه، فأما ظهره فذو سنام مقبّب يكون لكثرة الحمل واحتمال الثقل،

(١) الصعود.

(٢) الكثير الملتف من الشجر والنبات.

وأوصال ركبته وعراقيبه كبار صلاب، وأوتارها وعروقتها متينة شديدة، وعصبه وثيق لم يشتد بضغط التحام مفاصله واتصالها ولم يسترخ مطوياً، لكنها هيئت على الاعتدال ليهون عليه بذلك البروك والنهوض بحمله، مع تسهيل الارتقاء عليه في ذلك.

البغال: نوع هجين قد أنبئنا أنه لا يلد، إلا أنه أهدى للطريق للناس وأثبت حفظاً. الشيران وكل ذي قرن لا يأخذه الفواق.

وأما سباع الطير وآكلات اللحم منها فصلاب الأظفار، حُجْنُ^(١) المناقير ذات حدة وقوة، قوينة الأجنحة.

والنواض^(٢) التي فيها القوادم أكثر طيراً.

الديك صليفي طبيعته، غير أن له مع ذلك إيقاظاً للنائم بصياحه في آناء الليل، والتبشير بإقبال الصبح وطلوع الشمس، يؤنس السيارات في السفر بصياحه في الليل، ويحرضهم على السير، مع إيقاظه الفلاحين لعملهم، والصنّاع لصناعتهم، وإذا سمع المرضى صوته داخلهم من ذلك رَوْحٌ وخفة من مرضهم.

الطاوس يحب الزينة، غير عفيف الطبيعة، يدعو زهوه وحرصه على التزين إلى نشر ذنبه وعقده كالطاق لتراه الأنثى بحسن زينته.

الكرائي تتحارس بالليل؛ ويجعل الحارس منها يتردد في المحلة ويهتف بصوت يسمع محذراً، فإذا قضى نوبته استراح وأعقبه الذي كان مستريحاً نائباً عنه حتى تقضي كلها ما يلزمها من الحراسة، فإذا طارت لم تطر متقطعة، لكنها تطير نَسْقاً غير مشتتة، يقدّمها واحد منها كالرأس والهادي لها حتى تتلوه كلها لازمة صفها، ثم يعقبه بعده آخر متقدم حتى يصير المتقدم الأول متأخراً في آخرها، وتقتسم كرامة المتقدم كلها بالسوية؛ وفيها ما يبعد سفره وينتقل عن مصيفه إذا هجم الشتاء.

البط له يقظة حراسة تدل على حدة حسه.

الجراد معروف الحال.

العقاب تطلب عين الماء، فإذا أصابتها تحلق طائرة إلى حر الشمس وهو موضوع دورانها فيحترق ريشها وما كان من جناح، ثم تغوص في تلك العين فإذا هي قد عادت شابة «وتذهب ظلمة عينيها».

وأما الطريح فيقيض الله له طائراً يقال له: قاس، فيضمه إليه ولا يدعه يهلك، ولكنه يقويه ويربّيه مع أفراخه.

(١) أي معوجة.

(٢) فراخ العقاب التي وفرت أجنحتها وقويت على الطيران.

وأجنحة العقبان مفصلة شبيهة ريشها .
وبصرها قويٌّ بعيد تحت الشعاع المستنير .
ويقال : إنها أبصر الطير .
الحَجَل يأتي أعشاش نظرائه فيسرق بيضها ثم يحضنها، فإذا تحركت الفراخ
وطارت لحقت بأمهاتها .

البوم مأواه ومحلّه الخراب، يوافقّه الليل، لأنّه بالليل بصير وبالنهـار كليل، مع
حبّه التوحد والخلوّة بنفسه، وبينه وبين الغريبان عداوة ما تنقضي .
النسر يتخذ وكره في المكان العالي المرتفع، وعليه يقع وفيه ينـام كالراصد، إما
في ذروة الجبل أو في وسطه من شظاياها وثناياها وموضع المنعة .

وإذا حملت زوجته مضى إلى الهند فأخذ من هناك حجراً كهيئة الجوزة إذا حرك
سُمع به صوتٌ حَجِرٍ آخَرَ - يتحرك في وسطه - كصوت الجرس، فإن عسرت على
زوجته الولادة جعلت ذلك الحجر تحتها وعلت عليه فيذهب عنها العُسر .

قال : ورأيت مرة أنثى من جنس الطير ماتت زوجها فامتنعت من الطعام والنوم
ليالي كثيرة صارت فيها كالنائحة الباكية على زوجها بتنفّس الصعداء وزفّرات الحزن لا
تلقط أياماً متتابعة شيئاً .

البُزاة من طبيعتها أن تداوي أنفسها وفراخها فلا تموت، لأنها تستعمل في بعض
المرض والداء نبتة تعرفها وتعرف طبها . . . « ومنه ما ينقص ويزيد »؟ .

النعام : لا يعول أفراده إلا أياماً يسيرة، ثم يدحضها ويطردها من عنده إنكار لها .
الغُذاف لا يبيض ولا يفرخ من سفاد، فإذا أفرخت أنشاه فراخاً لم يزقها ولم
يطعمها، إلا أن البقّ والبعوض يقع عليها لزهومتها وتنت لحمها، فتفتح أفواهها وتبلغ
ما دخل فيها من ذلك البقّ، فهو يمسكها ويقويها .

أنحاء طيران الطير مختلفة كاختلاف الطير، بعضها يطير قريباً من الأرض كالبط
وما أشبهه، وبعضها يرتفع، غير أنه لا يُبعد، كالحمام والغريبان، وبعضها يحلق
تحليقاً، كالعقاب والصقور والأجادل والبُزاة .

وما كان من الطير بدنه أعظم من جناحه فهو قريب الطيران من الأرض، لسرعة
إعياء أجنحته واضطراره إلى الوقوع على الأرض .

البيضانّي والأبغث : هذا طائر يحبُّ ولده، فإذا تحركت فراخه ودرجت ضربت
وجهه بأجنحتها فيدعوه المَحْكُ والغضب المطبوعان فيه إلى قتلها، فإذا ماتت اكتأب
عليها الأبوان وأقاما عليها شبه المأتم ثلاثة أيام، ثم إن الأمّ في اليوم الثالث تشقّ
جنبها حتى يقطر دُمها على تلك الفراخ، فيصير ذلك نشوراً لها بعد موتها .

مالك الحزين يَنْشُلُ الحيتانَ من الماء فيأكلها وهي طعامه؛ لا يُحسِن السباحة، فإن أخطأه انتشالَ فجاع طرَحَ نفسه على شاطئِ النهر في بعض ضحضاحه، فإذا اجتمعت إليه السمك الصغار لتأكله أسرع لأكل ما يؤكل منه.

من الطير ما يَلْفَح من هبوب الريح، لا يحتاج إلى تراوُج ولا إلى سِفاد.

والخفّاش له خصيتان كَخَصَى الحيوان، وله أربع قوائم وأسنان حداد كأسنان ذوات الأربع، يُرْضِع ولده من اللبن إرضاعاً، وجلده أملس.

العَفْعَق لا يأوي تحت سقْف ولا يستظِلُّ به، ولكنه يهَيِّئ وَكْرَه في المواضع المشرفة العالية والعراء الكاشف وجه الهواء الفسيح؛ وطبيعته الزنا وخيانة الزوج، فإذا باضت الأنثى بيضها حصنته بورق الدُّلب وغطته كيلا يقربه الخفّاش، فإن مسّه مرق البيض من ساعتِهِ وفَسَد.

النحل يلد من غير لقاح الذكور.

الحية إذا هَرِمَتْ وكلّ بصرها واسترخى جلدها دخلت في صدع صفاة ضيق أو جُحر ضاغط يعسر عليها النفوذ فيه حتى ينسلخ عنها جلدها فتأتي عين الماء فتغمس فيها حتى يقوى لحمها وينعصب، فإذا هي فعلت ذلك عادت شابة كما كانت. فإذا أرادت أن تضيء عينها أكلت الرازيانج الرطب فاشتفت عينها واحتد بصرها، وإن ضُربت ضربة بقصبة استرخت فلم تستطع الفرار، فإن ثبتهَا وَثَبَتْ وسعت هاربة.

إن أنقِع الحَسَك^(١) في الماء ثم نُضِح ذلك الماء بين يدي جُحر الحية فرت من هناك.

وإن وُضِع في جُحرها أصل جِمَصِ رَطْب فَرَّت أيضاً.

وإن رأت الحية إنساناً غريباً استحيث منه ولم تقرّبه.

وإن رآته كاسياً حملت عليه بجرأة شديدة؛ وما أشدّ طلبها لأثرها؛ وإن شدخ

رأسها ماتت من ساعتها.

السَّمْسِمَة، وهي حية حمراء برّاقة، إذا كبرت وأصابها وجع العين وكبدت^(٢)

التمست حائطاً مُقابل المشرق، فإذا تبدّت الشمس أهدت إليها بصرها قدر ساعة فإذا

دخل شعاع الشمس عينها كشط عنها العمى والإظلام، ولا تزال تفعل ذلك سبعة أيام

حتى يتجدد بصرها تاماً.

(١) نبات له ثمرة شائكة مدحرجة تعلق بأصواف الغنم.

(٢) أي ذهب صفاؤها.

الأفعى تزاوج دابةً بحرية، تأتي الأفعى شفير البحر فتصوت، وصوتها مهيج لتلك الدابة البحرية.

من أحرق عقرباً طردَ برائحة حريقها عقارب ذلك البيت.

فأما حمة العقرب فهي جوفاء كهيئة المِزمار معقفة الرأس مكوّنة للذغ، فإذا ضربت شيئاً تحركت فخرج سمها وجرى في حمتها وسرى في المَلدوغ.

الإناث من بنات عرسٍ إنما تَلقح من أفواها وتلد من آذانها.

من عادة هذا الجنس أن يسرق ما وجد من حليّ الذهب والفضة، ويخبؤه في جحرته، فإن وجد أيضاً في البيت حُبوباً خلط بعضها ببعض، كأن عملهُ عملُ الطباخين في خلط التوابل.

الفار الفارسيّ أطيّبُ ريحاً من كلّ طيب.

وإن أخذ إنسان جرذاً فربطه في بيت فرّت منه الجرذان كلها.

وإن وُضع في جحر الجرذ البري ورقُ الدُفلى ماتت الجرذان.

الدودة الهندية هي دودة القز، لها في رأسها قرنان، ثم تتحول بيضة ثم تتصور في هيئة أخرى، ذات جناحين عريضين منتصبين، وصناعتها دِمّقس الحرير.

النمل عمول مواظب، فإذا جمَعَ الحبّ قطعهُ كيلاً يَنتب إذا أصابه الندى والبلة، ويخرجه ويسطه عند فم الجحر، فإذا ييس أدخله.

ومن جرب طبائع النمل أدرك عِلْمَ أزمان المطر والصّخو.

ومن أراد أن يقتل النمل فليدقّ الكبريت والحبق ويذرهما في جحرته. ولا يولد من تزاوج، ولكنه يخرج منه شيء قليل صغير فيقع في الأرض فيصير بيضاً، ثم يتصور من البيض بالهيئة التي تُرى، وإذا شمت الورد مُوتت وأجنتها مُدمجةً لاصقة بها.

البق والبعوض لا يتاج لهما، وإنما تُتَجَل^(١) من عَفن الماء ووسخه وتثنيه.

ومن وضع عُصن العنب في موضع تحت سريره لم يقربهُ بق ولا بعوض.

ومن أراد ألا يتأذى بالبراغيث فليحفر في وسط البيت حُفرة ويملاها دم تيس فإن البراغيث تجتمع هناك.

وإن وُضع في الحفرة ورقُ دِفلى ماتت البراغيث.

الخُلد غيرُ ذي عيين، دائم الحفر في غير نفع؛ وطعامه من أصول النبات وعروقه الذاهبة في الأرض، فهو يصيب ذلك في خلال حفره.

(١) أي تولد.

يقال: إنَّ في بلد كذا نهراً ماؤه في البحر منحدرأ إليه على حال طبيعته ستَّ ساعات، وفي الستَّ الثاني يَحْتَبِس ماؤه في يَنْبوعه ويُرَى جوفُه ناضباً قد يَبَس .
ونهر آخرَ يجري في كلِّ سبع سنين نهر كبريت، ولا يكون فيه سمك، لأن ماءه يتغير في كلِّ يوم ثلاثَ مرَّات، ويَنْبعث منه شبه ثور ليس له رأس .

وأهل الشَّام إذا أرادوا أخذه ألقوه في سفينة، ولا يستطيعون قطعَه بفأس ولا كسره بحجر، إنما يؤتى بالماء المُتِن ودم الحيض فيُخلطان جميعاً ثم يُنضحان عليه، فإذا وقعا عليه تحلل وتكثَّل كتلاً صغاراً، وتُستعمل في أشياء يُتفَع بها .

عين النار تنبع منها نارٌ تضيء بالليل للسيارات فلا تطفأ ولا تحتاج إلى شيء يمسكها، لكنَّها محفوظة بالحجارة؛ إن حَمَل إنسانٌ منها شُعلة قَبَس إلى موضع لم تُوقد .
البحر الميت يقال له ذلك لأنه يموت فيه كلُّ حي .

السُّرطان ينسلخ جلده في السنة سبعَ مرَّات، ويتخذ بجُخره بابين: أحدهما شارعٌ إلى الماء، والآخر إلى اليُبس؛ وإذا سلخ جلده سدَّ عليه الشارِع إلى الماء لكيلا يدخل السمكُ فيأكله؛ إلا أنه يدع الذي إلى اليبس مفتوحاً فتصيبه الريح وما يَنْفَع لحمه ويعصمه، فإذا اشتدَّ لحمه وعاد إلى حاله فَتَح ذلك المسدود وسَلَك في الماء وطلب طعمه وما يقيم حياته .

الزامور حوت صغير الجسم إلفٌ لأصوات الناس، مستأنسٌ باستماعها ولذلك يصحب السفن متلذذاً بأصوات الناس، فإذا رأى الحوت الأعظم يريد الاحتكاكُ بها وكسرها، وتَبَّ الزامور ودخل أذنه، فلا يزال زامراً فيها حتى يفرَّ الحوت إلى الساحل يطلب خَزَفاً أو صخرة، فإذا أصاب ذلك لا يزال يضرب به رأسه حتى يموت .

وركَّاب السفينة يحبونه ويطعمونه ويتفقّدونه، ليدوم إلفُه لهم وصحبته لسفيتهم، ويسلموا به من ضرر السمك العادي .

وإذا ألقوا شبكةً ليصطادوا السمك فوقع فيها الزامور خلّوه حياً وأخذوه وأعتقوا لكرامته أصناف السمك الواقع في الشبكة أحياء .

وإني قرأت هذا الفصل على الوزير - كبت الله كلَّ شأنى له - في ليلتين، فتعجب وقال: ما أوسع رحمة الله؛ وما أكثر جُند الله؛ وما أغرب صنَع الله . قلتُ: نعم؛ وما أغفل الإنسان عن حقِّ الله الذي له هذا المُلك المبسوط، وهذا الفلَّك المربوط؛ وهذه العجائب التي تصعد فوق العقول التامة بالاعتبار والاختبار بعد الاختبار؛ وإنما بثَّ الله تعالى هذا الخلق في عالمه على هذه الأخلاق المختلفة والخلق المتباينة، ليكون للإنسان المشرف بالعقل طريقٌ إلى تعرُّف خالقها، وبيان

لصحة توحيده له بما يشهد من أعاجيبها، ونيل لرضوانه بما يتزود من عبره التي يجد فيها، وليكون له موقظ منها وداع حاد إلى طاعة من أباها وأبرزها، وخلطها وأفردّها.

فقال: قد كنت قلت: إنه يجري كلام في النفس منذ ليلال، فهل لك في ذلك؟ قلت: أشد الميل وأوحاه، لكن بشرط أن أحكي ما عندي، وأروي ما حصلت من هذه العصابة بسماعي وسوالي. فقال: نستأنف الخوض في ذلك - إن شاء الله - فإن الثعسة قد جذبت العين، فأنا كما قال:

قد جعل الثعاسُ يغرّنيديني^(١) أدفعه عني ويسرّنيديني^(٢)
أنشدني أبياتاً ودّعني بها، ولتكن من سراة نجد، ليشتّم منها ريح الشّيح
والقيصوم.

فأنشدته لأعرابي قديم:

مطرنا فلما أن رويننا تهادرت
ورامت رجالاً من رجال ظلامه
ونصت ركاباً للصبأ فتروحت
وطئن فناء الحي حتى كأنه
بني عمنا لا تعجلوا ينضب الثرى
فلو قد تولى النبت وامتيرت القرى
وصار عيوف الخود وهي كريمة
وصار الذي في أنفه خنزوانة
أولئك أيام تبيّن ما الفتى
فعجب وقال: هذا جنى غرس قد جذأ أصله، ونزيع قليب قد غار مدّه
وجززه، وانصرفت.

(١) يريد أن الثعاس يغلبه ويعلوه.

الليلة الثالثة عشرة

فلما حضرت ليلةً أخرى قال: هات.

قلتُ: إن الكلام في النفس صعب، والباحثون عن غيبها وشهادتها وأثرها وتأثيرها في أطراف متناوذة^(١) وللنظر فيهم مجال، وللوهم عليهم سلطان، وكلُّ قد قال ما عنده بقدر قوته ولحظه، وأنا آتي بما أحفظه وأرويه، والرأي بعد ذلك إلى العقل الناصح والبرهان الواضح.

قال بعض الفلاسفة: إذا تصفحنا أمرَ النفس لحظناها تفعل بذاتها من غير حاجة إلى البدن، لأن الإنسان إذا تصوّر بالعقل شيئاً فإنه لا يتصوره بألة كما يتصور الألوان بالعين والروائح بالأنف، فإن الجزء الذي فيه النَّفس من البدن لا يسخن ولا يبرد ولا يستحيل من جهة إلى أخرى عند تصوّره بالعقل، فيظنّ الظانّ منا أنّ النفس لا تفعل بالبدن، لأنّ هذه الأمور ليست بجسم ولا أعراض جسمية.

وقد تعرف النفس أيضاً الآن من الزمان والوحدّة واليقظة، وليس لأحد أن يقول: إن النفس تعرف هذه الأشياء بحسّ من الإحساس، فيفعل النفس إذن يفارق البدن، وتأليف البرهان أن يكون على أن يقال: للنفس أفعال تخصّها خلوّ من البدن، مثل التصور بالعقل، وكلُّ ما له فعل يخصّه دون البدن فإنه لا يفسد بفساد البدن عند المفارقة.

وقال أيضاً: وجدنا الناس متفقين على أن النفس لا تموت، وذلك أنهم يتصدّقون عن موتاهم، فلولا أنهم يتصورون أن النفس لا تموت، ولكنها تنتقل من حال إلى أخرى إما إلى خير وإما إلى شر؛ ما كانوا يستغفرون لهم، وما كانوا يتصدّقون على موتاهم ويزورون قبورهم.

وقال أيضاً: النفس لا تموت، لأنها أشبه بالأمر الإلهي من البدن، إذ كان يدبّر البدن ويرأسه.

والله جلّ وعزّ المدبّر لجميع الأشياء، والرئيس لها. والبدن أشبه شيء بالشيء الميت من النفس إذ كان البدن إنما يحيا بالنفس.

وقال أيضاً: النفس قابلة للأضداد، فهي جوهر، فالفائدة أن النفس جوهر.

(١) أي متقابلة.

وقال: النفس ليست بهيُولى، فلو كانت هيُولى لكانت قابلةً للعِظَم، فليست النفس إذاً بهيُولى.

وقال: ليست النفس بجسم، لأن النفس نافذة في جميع أجزاء الجسم الذي له نفس، والجسم لا ينفذ في جميع أجزاء الجسم؛ ولا هيُولى، لأن النفس لو كانت هيُولى لكانت قابلةً للمقادير والعِظَم، وفائدة هذا أن النفس جوهر على طريق الضرورة.

وقال آخر: حركةٌ كلُّ متحركٍ تنقسم قسمين: أحدهما من داخل، وهو قسمان: قسم كالطبيعة التي لا تسكن البتة، كحركة النار ما دامت ناراً، وقسمٌ هو كحركة النفس تهيج أحياناً وتسكن أحياناً، وكحركة جسد الإنسان التي تسكن إذا خرجت نفسه وصار جيفة.

والقسم الآخر من خارج، وهو قسمان: أحدهما يُدفع دفعاً كما يُدفع السهم ويُطلق عن القوس، والآخر يُجرُّ جرّاً كما تُجرُّ العَجَلَة والجيفة.

وقال: فنقول: ليس يَخفى أن جسدنا ليس مدفوعاً دَفْعاً ولا مجروراً جرّاً ولَمَّا كان كلُّ مدفوعٍ أو مجرورٍ متحركٌ من خارج متحركاً لا محالة من داخل، فالجسد إذْهُن متحركٌ من داخل اضطراراً.

وقال: إن كان جسدنا متحركاً من داخل، وكان كلُّ متحركٍ من داخل إمَّا متحركاً حركةً طبيعيةً لا تسكن، وإمَّا نفسيةً تُسكن.

فليس يَخفى أن حركة جسد الإنسان ليست بدائمة لا تسكن، بل ساكنة لا تدوم، وكانت حركة كلِّ ما سكنت حركته فلم تدم ليست حركةً طبيعيةً لا تسكن، بل نفسيةً من قبَل نفسٍ تحركه وتحثه.

وقال: إن كانت النفس هي التي تُحيي الإنسان وتحركه، وكان كلُّ محركٍ يحرك غيره حياً قائماً موجوداً، فالنفس إذاً حيةٌ قائمة موجودة.

وقال أيضاً: النفس جوهر لا عَرَض، وحَدّ الجوهر أنه قابل للأضداد من غير تغير، وهذا لازم للنفس، لأنها تُقبَل العلم والجهل، والبِرّ والفُجور والشجاعة والجبين، والعفة وضدها، وهذه أشياء أضداد، من غير أن تتغير في ذاتها، فإذا كانت النفس قابلةً لحَدّ الجوهر، وكان كلُّ قابلٍ لحَدّ الجوهر جوهرًا فالنفس إذاً جوهر.

وقال: قد استبان أن النفس هي المحيية المحركة للجسد الذي هو الجوهر ولما كان كلُّ مُحَيٍّ محركٌ للجوهر جوهرًا فالنفس إذاً جوهر.

وقال: لا سبيل أن يكون المُحَيَّا المحركُ جوهرًا ويكون المحيِّي المحركُ غيرَ جوهر، فإذا كانت هي المحيية المحركة للجسد، وكان لا يمكن أن يكون المحيِّي المحركُ للموجود غيرَ موجود، فالنفس إذاً لا يمكن أن تكون غيرَ موجود.

وقال: إن كانت النفس بها قُوى وحيأة الجسد، فيمتنع أن يكون قوامها بالجسد، بل بذاتها التي قامت بها حياة الجسد.

وقال: إن كانت النفس قائمة بذاتها التي قامت بها حياة الجسد، فما كان قائماً بذاته فهو جوهر، فالنفس إذا جوهر.

وقد أملى علينا أبو سليمان كلاماً في حديث النفس هذا موضعه، ولا عذر في الإمساك عن ذكره ليكون مضموماً إلى غيره، وإن كان كل هذا لم يجز على وجهه بحضرة الوزير - أبقاه الله ومد في عمره - لكن الخوض في الشيء بالقلم مخالف للإضافة باللسان، لأن القلم أطول عناناً من اللسان، وإفشاء اللسان أحرَج من إفشاء القلم، والغرض كله الإفادة، فليس يكثُر الطويل.

قال: ينبغي أن نعرف باليقظة التامة أن فينا شيئاً ليس بجسم له مدات ثلاث: أعني الطول والعرض والسَّمك، ولا يجزأ من جسم ولا عَرَض من الأعراض، ولا حاجة به إلى قوة جسمية، لكنّه جوهر مبسوط غير مُدرَك بحس من الإحساس. ولما وجدنا فينا شيئاً غير الجسم وضدّ أجزائه بحدته وخاصته، ورأينا له أحوالاً تُباين أحوال الجسم حتى لا تُشارك في شيء منها وكذلك وجدنا مباينته للأعراض، ثم رأينا منه هذه المباينة للأجسام والأعراض إنّما هي من حيث كانت الأجسام أجساماً والأعراض أعراضاً؛ قضينا أنّ هاهنا شيئاً ليس بجسم ولا جزء من الجسم، ولا هو عَرَض، ولذلك لا يقبل التغيّر ولا الحيلولة، ووجدنا هذا الشيء أيضاً يطّلع على جميع الأشياء بالسواء ولا يناله فتور ولا ملال، ويتضح هذا بشيء أقوله: كلّ جسم له صورة فإنّه لا يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى البتة إلا بعد مفارقتة الصورة الأولى، مثل ذلك أنّ الجسم إذا قبل صورة أو شكلاً كالتلثيث، فليس يقبل شكلاً آخر من التربيع والتدوير إلا بعد مفارقة الشكل الأول. وكذلك إذا قبل نقشاً أو مثلاً فهذا حاله، وإن بقي فيه من رسم الصورة الأولى شيء لا يقبل الصورة الأخرى على النظم الصحيح، بل تُنقش فيه الصورتان، ولا تتم واحدة منهما، وهذا يطرد في السَّمع وفي الفضة وغيرها إذا قبل صورة نقش في الخاتم؛ ونحن نجد النفس تقبل الصور كلها على التمام والنظام من غير نقص ولا عجز، وهذه الخاصة ضدّ لخاصة الجسم، ولهذا يزداد الإنسان بصيرة كلما نظر وبحث وارتأى وكشف.

ويتضح أيضاً عن كُتب أن النفس ليست بعَرَض، لأنّ العَرَض لا يوجد إلا في غيره، فهو محمول لا حامل وليس هو قواماً، وهذا الجوهر الموصوف بهذه الصفات هو الحامل لما لها أن تحمّل، وليس له شبه من الجسم ولا من العَرَض.

وكان يقول: إذا صدق النظر، وكان الناظر عارياً من الهوى، وصحّ طلبه للحق

بالعشق الغالب، فإنه لا يخفى عليه الفرق بين النفس المحرّكة للبدن، وبين البدن المتحرّك بالنفس.

قال: ولما عرضت الشبهة لقوم قصر نظرهم، ولم يكن لهم لحظ ولا اطلاع فظنّوا أنّ الرباط الذي بين النفس والبدن إذا انحلّ فقد بطلاً جميعاً.

وهذا ظنٌّ فيه عَسْفٌ، لأنّهما لم يكونا في حال الارتباط على شكل واحد وصورة واحدة، أعني أنّهما تبايَنا في تصاحبهما وتصاحباً في تباينهما.

ألا تَرَى أنّ البدن كان قِوامه ونظامه وتمامه بالنفس؟ هذا ظاهر.

وليس هذا حُكْمَ النَّفْسِ في شأنها مع البدن، لأنّها واصلته في الأوّل عند مسقط النطفة، فما زالت تربيّه وتغذيّه وتُخَيِّيه وتُسَوِّيّه حتّى بلغ البدن إلى ما تَرَى، ووُجِدَ الإنسانُ بها، لأنّ النفس وحدها ليست بإنسان، والبدن وحده ليس بإنسان، بل الإنسان بهما إنسان، فإذا الإنسان نصيبه من النفس أكثر من نصيبه من البدن.

وهذه الكثرة توجد في الأوّل من ناحية شرف النفس في جوهرها، وتوجد في الثاني من جهة صاحب النفس الذي هو الإنسان بما يستفیده من المعارف الصحيحة، يضمّه إلى الأفعال الواجبة الصالحة، فأمر المعارف الصحيحة معرفة الله الواحد الحق باليقين الخالص، وأمر الأفعال الواجبة الصالحة العبادة له والرضوان عنه.

وغاية المعرفة الاتّصال بالمعروف، وغاية الأفعال الواجبة الفوز بالنعيم والخلود في جوار الله، وهذا هو الصراط المستقيم الذي دعا إلى الجواز عليه كل من رجع إلى بصيرة وأوى إلى حُسن سيرة.

فأما من هو عن هذا كلّه عمّ، وعمّا يجب عليه ساء، فهو في قَطيع النعم، وإن كان متقلّباً في أصناف النعم.

وكان يقول كثيراً: الناس أصناف في عقولهم: فصنّف عقولهم مغمورة بشهواتهم، فهم لا يُبصرون بها إلا حظوظهم المعجّلة، فلذلك يكذّون في طلبها ونيلها، ويستعينون بكلّ وسع وطاقة على الظفر.

وصنّف عقولهم منتبهة، لكنّها مخلوطة بسببات الجهل، فهم يحرضون على الخير واكتسابه، ويخطئون كثيراً، وذلك أنّهم لم يكملوا في جيّبتهم الأولى وهذا نعت موجود في العباد الجهّلة والعلماء الفجرة، كما أنّ النعت الأوّل موجود في طالبي الدنيا بكلّ حيلة ومحالة.

وصنّف عقولهم ذكيّة ملتبهة، لكنّها عميّة عن الآجلة، فهي تدأب في نيل الحُظوظ بالعلم والمعرفة والوصايا اللطيفة والسُّنعة الرّبانية، وهذا نعت موجود في العلماء الذين لم تتلج صدورهم بالعلم، ولا حقّ عندهم الحقّ اليقين؛ وقصّروا عن

حال أبناء الدنيا الذين يَشْهَرُونَ في طلبها السيوف الحداد، ويطيّلون إلى نيلها السواعد الشّداد فهم بالكيد والحيلة يَسْعُونَ في طلب اللذة وفي طلب الراحة .

وصنف عقولهم مضيئة بما فاءَ عليها من عند الله تعالى باللطف الخفي، والاصطفاء السنّي، والاجتباء الزكي، فهم يحلمون بالدنيا ويستيقظون بالآخرة؛ فتراهم حضوراً وهم غَيَّب، وأشياءاً وهم متباينون .

وكل صنف من هؤلاء مراتبهم مختلفة، وإن كان الوصف قد جمعهم باللفظ .

وهذا كما تقولُ: «الملوك ساسةٌ، ولكل واحد منهم خاصةٌ»؛ وكما يقولون: «هؤلاء شعراء ولكل واحد منهم بحر»؛ «وهؤلاء بلغاء ولكل واحد منهم أسلوب» وكما تقول: «علماء ولكل واحد منهم مذهب» .

وعلى هذا أبو سليمان - حفظه الله - إذا أخذ في هذا الطريق أطرب، لسعة صدره بالحكمة، وفيض صوبه من المعرفة، وصحة طبيعته بالفطرة .

وقال: إنّنا بعدَ هذا المجلس تركنا صنفاً لم نرسمه بالذكر، ولم نعرض له بالاستيفاء، وهم الهمج الرّعاع الذين إن قلت: «لا عقول لهم» كنت صادقاً، وإن قلت: «لهم أشياء شبيهة بالعقول» كنت صادقاً؛ إلا أنهم في العدد، من جهة النسبة العنصرية والجبلّة الطينية والفطرة الإنسية، وفي كونهم في هذه الدار عمارة لها ومصالح لأهلها؛ ولذلك قال بعض الحكماء: «لا تسبوا الغوغاء فإنهم يُخرجون الغريق ويُطفئون الحريق ويؤنسون الطريق ويشهدون السوق» .

فضحك - أضحك الله ثغره، وأطال عمره، وأصلح شأنه وأمره - فقال: قد جرى في حديث النفس أكثر مما كان في النفس، وفيه بلاغ إلى وقت، وأظن الليل قد تمطى بصلبه، وناء بكلّكله^(١) . وانصرفت .

(١) يشير إلى قول امرئ القيس يخاطب الليل:

فقلت له لما تمطى بصلبه
أردف أعجازاً وناء بكلّك
كنى بذلك عن طول الليل .

الليلة الرابعة عشرة

ومرّ بعد ذلك في عرض السَّمَر: ما تقلّد امرؤ قِلادةً أفضل من سكينته. فقال: ذكّرْتَنِي شيئاً كنتُ مهتمّاً به قديماً، والآن قرعت إليّ بابَه؛ ما السكينة؟ فإني أرى أصحابنا يردّدون هذا الاسم ولا يبسطون القول فيه. فكان من الجواب:

سألت أبا سليمان عن السكينة ما هي؟ فقال: السكائن كثيرة: طبيعية، ونفسية وعقلية، وإلهية. ومجموعة من هذه بأنصباة مختلفة، ومقادير متفاوتة ومتباعدة. والسكينة الطبيعية اعتدال المزاج بتصالح الأُسْطُقْسَات، تحدث به لصاحبه شارة تسمى الوقار، ويكون للعقل فيها أثر باد، وهو زينة الرّواء المقبول. والسكينة النفسية مماثلة الرّوية للبديهة، ومواطأة البديهة للرّوية، وقصد الغاية بالهيئة المتناسبة، يحدث بها لصاحبها سَمْتٌ ظاهر ورُتُوٌّ دائم وإطراقٌ لا وُجومٌ معه، وغيبة لا غفلة معها، وشهامة لا طيش فيها.

والسكينة العقلية حُسن قبول الاستفاضة بنسبة تامة إلى الإفاضة؛ ومعنى هذا أن القابل مستغرق بقوة المقبول منه، وبهذه الحال يحدث لصاحبها هدى يشتمل على وزن الفكر في طلب الحقّ مع سكون الأطراف في أنواع الحركات.

والسكينة الإلهية لا عبارة عنها على التحديد، لأنها كالحلم في الانتباه وكالإشارة في الحلم، وليست حلماً ولا انتبهاً في الحقيقة، لأن هذين نعتان محمودان في عالم السيلان والتبدّل، جاربان على التخيل والتجوّز بزوائد لا ثبات لها ونواقص لا مبالاة بها، رُوحانية في رُوحانية، كما يقال: «هذا صفوٌ هذا»؛ و«هذا صفو الصّفو» ومن لحظ هذه الكيفية وبُوشِر صدره بهذه الحقيقة استغنى عن رسوم محدودة بألفٍ ولام، وحقائق مكنونة في عرض الكلام؛ وإذا جهلنا أشياء هي لأهل الأُنس بلُغات قد فُطروا عليها، وعبارات أُسّوا بها، كيف نجد السبيل إلى الإفصاح والإشارة إليها.

فهذا باب واضح، والطمع في نيله نازح؛ وإذا كان المَنال صعباً في الموضوع الذي عمدنا إليه، فكيف يكون حالنا في البحث عما في حيز الألوهية وبحبوحه الرّبوبيّة، ولا كون هناك ولا ما نسبته للكون؛ وأقوى ما في أيدينا أن نتعلّل بالوجود،

فالموجود والوجدان والجود، وهذه كلها غليظة بالإضافة إلينا وفوق الدقيقة بالإضافة إلى أعيانها.

فَعَلَى هذا: الصمْتُ أوجدُ للمراد من التُّطوق، والتسليمُ أظفرُ بالبغيّة من البحث. قال البخاريّ: فشيء كهذا بدقيقه وإشكاله، وغموضه وخفائه، كيف يظهر على جِبَلَة بشرية وبنية طينية وكميّة مادّية وكيفيّة عنصريّة؟

فقال: يا هذا، إنما يشعّ من هذه السكينة على قدر ما استودع صاحبها من نور العقل، وقبس النفس، وهبة الطبيعة، وصحة المزاج، وحسن الاختيار واعتدال الأفعال، وصلاح العادة، وصحة الفكرة، وصواب القول، وطهارة السرّ ومساواته للعلائية، وغلبته بالتوحد، وانتظام كلّ صادر منه ووارد عليه.

وها هنا تمحى الجِبَلَة البشريّة، وتتبدّد الجِبَلَة الطينية، وتبيد الكميّة المادّية وتعفو الكيفيّة العنصريّة، ويكون السلطان والولاية والتصريف والسياسة كلها لتلك السكينة التي قدّمنا وصفنا لها، واشتدّ وجدنا بها، وطال شوقنا إليها ودام تحديقنا نحوها، واتصل رُؤونا إليها، وتناهت نَجوانًا بذكرها.

وهذا هو الخَلع الذي سمعتُ بذكره، واللُّباس الذي سألت عنه، أعني خَلع ما أنت منه إنسان، وليس ما أنت به مَلَك. اللّهُ المستغاثُ منكم، ما أشدّ بلواي بكم، لِمَ [لا] تتحرّكون إلا إلى ما لا سكون لكم فيه؟ ولم تسألون عمّا لا اطلاع لكم عليه؟ سلوا ربكم أعيناً بصيرة، وآذاناً واعية، وصدوراً طاهرة، وقوّة متتابعة، فإنكم إذا مُنحتموها هديتم لها، وإذا حُرِّمتموها قُطعتم دونها، ولا حول ولا قوّة إلا باللّهِ.

قال البخاريّ: وقد تركنا يا سيّدنا حديث السكينة المجموعة من هذه الجملة بأنصبا مختلفة.

فقال: لا عجب أن يُنشأ العالمُ بكلِّ ما فيه في هذه الحومة التي لُدنا بها وحاوَلنا الوصولَ إليها؛ وأيّ شيء أعجَب في هذا المقام، رسم أو قوام، أو ثبات أو دوام، إلا له نصيب من عناية اللّهِ تعالى الكريم.

نعم، والسكينة المجموعة من كلِّ ما سلف القول فيه تَقاسمها نوع الإنسان بالزيادة والنقصان، والغموض والبيان، والقلة والكثرة، والضعف والقوّة، وهذا يتبين بأن تَقسيم الطيش والحدّة والعجلة والخفة على أصحابها، فتجدُ التفاوتَ ظاهراً.

وكذلك إذا قسمت الهدوء والقرار والسكون والوقار على أهلها، فإنك تجد التباينَ مكشوفاً والاختلافَ ظاهراً.

ثم قال: أما السكينة التي هي في أعلى المراتب فهي لأشخاص هم فوق البشَر،

وليس لهم نسبة من الخلق إلا الخلقة الحسيّة والعشرة البشريّة، وإلا فهم في ذروة عالية، ومحلّة إلهيّة.

قال: وأما السكينة التي تلي هذه فهي للأنبياء على اختلاف حظوظهم منها لأنّها مرتبات تنقسم بين المنام واليقظة انقساماً متفاوتاً بالعرض الحامل للصدق وللشبه بالصدق، وللحقّ وللقرّب من الحق، وللصحيح والتالي للصحيح، ثم يختلف بيانهم عن ذلك بالتعريض والإيضاح، والكناية والإفصاح، والتشبيه والاستعارة.

قال: فأما السكينة التي تتلو هذه فهي التي تظهر على طائفة تخلف الأنبياء، وذلك أنّ بقايا قواهم يرثها الذين صحبهم، واستضاءوا بنورهم، وفهموا عنهم، ولقنوا منهم، ودخلوا في زمّرتهم، وحاكوهم في السّمائل والأخلاق، وسلكوا منهاجهم في القياد والسياق، وصلّحوا سفراء بين الأبعدين، كما كانوا سُجّراء^(١) للأقربين، وهم الذين يفسرون الغامض، ويوضحون المشكل، ويبسطون المطويّ، ويشرحون المكتبيّ، ويبرزون المراد والمعنى، ويوطّدون الأساس، ويرفعون الالتباس، وينفون الوحشة ويحدثون الإيناس.

وأما السكينة الباقية فهي مفضوذة على أتباع هؤلاء بالسّهام العلوية، والمقادير العدليّة، والمناسيب العقلية، من غير جور ولا حيف، ولا انحراف ولا ميل.

فقال البخاري: أهي - أعني السكينة - في معنى فاعلة أو مفعولة؟

فقال: الفضاء أعرض مما تظن، وإن كان في غاية العرض؛ والذروة أعلى من أن ترام وإن كان الإنسان يطلبها بالبسط والقبض.

هي بوجه في معنى فاعلة إذا شعرت بتأثيرها، وبوجه آخر في معنى مفعولة إذا شعرت بتأثيرها. وبوجه آخر، ليست من هذين القبيلين في شيء إذا لحظتها في معانيها قبل تأثيرها وتأثيرها، وأنت تعتبر حد الفاعل والمفعول من شكل اللفظ ووزن الترتيب، بشائع العادة وقائم العرف، والسكينة وراء هذا كلّها بالحق والواجب والصحة والتمام فإنها صراط الله للمخصوصين بالاستقامة عليه، فإذا شهدت المخصوص بها كانت عبارتك عن الملحوظ منها مشاكلةً لعبارتك عن أخلاق رضىة وأحوال مرضية، وإذا شهدت ذلك المعنى من معاني الحق كانت عبارتك متلجلجة لا نظام لها ولا تعادل ولا اتساق على العادة الجارية والحال الطارئة؛ فأحقّ ما ينبغي لطالب الحكمة واللائذ بهذه الحومة أن يبحث وينظر، ويكشف وينقّر، ويستقصي ويسبّر ويسأل ويستبصر؛ حتى إذا بلغ هذه الآفاق، وشهد هذه الأعلام، ووجد الصواب الذي لا شوب فيه، وصادف اليقين الذي لا ريب معه، وعرف الاستبانة التي تغني عن البيان، وذاق

(١) الأصدقاء الأصفياء.

المعنى الذي هو فوق العيان، أمسك وانتهى، ووقف واستغنى لا لعرض ظلام غشيه، ولكن لسلطان شعاع ملكه؛ لأن ذلك النور محيط بكل شيء دونه، ومستول على كل شيء تحته.

وكان يقول في هذا الفن إذا جدَّ به الكلام وبدا منه المكتوم وشرد عنه الخاطر؛ ما لا يُوعى بحفظ، ولا يُروى بلفظ.

وإنما كان أصحابنا ينتظرون منشوره بهذه الحروف لفظاً لينظموا منه شذراً وعقداً، وكانوا إذا تلاقوا اشتركوا في تقويم ذلك كله، وتعاونوا على تحبيره، وتصادقوا على مفهومهم منه، وتجنبوا المنازعة والشغب عليه، وأخذوا بالعفو والممكن منه، لئلا يفوتهم المعنى، ولا يتحيرون في المنتهى.

وسأله الأندلسي في هذا المجلس عن الأمم وأحوالها، ونقصها وكمالها.

فقال: اشتركت الأمم في جميع الخيرات والشرور، وفي جميع المعاني والأمور، اشتراكاً أتى على أول التفاوت ووسطه وآخره، ثم استبدت كل أمة بقوالب ليست لأختها، واشتراكهم فيها كأصول واستبداهم كالفروع، وفيما اشتركوا فيه المحمود والمذموم.

ولم يجزُ في الحكمة الإلهية غير هذه القسمة، لأن الاشتراك لو سبق بلا تفاوت لم يكن اشتراكاً، والتقاسم لو عري من الاتفاق لم يكن تقاسماً، فصار ما من أجله يفترون، به يجتمعون، وما من أجله ينتظمون، به ينتشرون.

فعلى هذا اشتركوا في الأخلاق واللغات، والعقائد والصناعات، وجرّ المنافع ودفع المضار، مع اختلافهم فيها بنوع ونوع.

ألا ترى أن لغة الهند غير لغة الروم، وكذلك الصناعة والعقيدة وما يجري مجراهما، إلا أنهم مع هذه الأصول والقواعد تقاسموا أشياء بين الفطرة والتنبيه، وبين الاختيار والتقدمة، فصار الاستنباط والغوص والتنقيب والبحث والاستكشاف والاستقصاء والفكر ليونان. والوهم والحذس والظن والحيلة والتحيل والشعبذة للهند. والحصافة واللفظ والاستعارة والإيجاز والاتساع والتصريف والسحر باللسان للعرب؛ والروية والأدب والسياسة والأمن والترتيب والرسوم والعبودية والرؤبية للفرس.

فأما الترك فلها الشجاعة. والعرب تشاركها إما بالزيادة وإما بالمساواة؛ وليس للترك بعد هذا حظ ولا دراية إلا بقسط من الظل من الشخص.

والعرب مع منطقتها البارعة لها المزية المعروفة على الترك بعدد في السياسة وإن كانت قاصرة؛ وأما الزنج والسودان فغلبت عليها الفسولة وشاكلت البهائم الضعيفة، كما شاكلت الترك السباع القوية.

قيل له: إن أبا زيد قد عمل كتاباً في أخلاق الأمم. قال: قد رأيته وقرأته وقد أفاد، وكل من تكلم على طريقة الحكماء الذين يتوخون من الأمور لُبَابِهَا، ويصرفون عنها قشورها، فله السابقة والتقدم على من يخبط كفلان وفلان.

ومن جَحَد بلاغة العرب في الخطابة وجَوْلانها كل مجال وتميُّزها باللسان فقد كَابِر. ومن أنكر تقدُّم يونان في إثارة المعاني من أماكنها وإقامة الصناعات بأسرها، وبحيِّها عن العالم الأعلى والأوسط والأسفل فقد بَهَت. ومن دفع مزية الفرس في سياستها وتدابيراتها وترتيب الخاصَّة والعامَّة بحق ما لها وعليها فقد عاند. وهكذا مَنْ دفع ما للهند.

فليس من شخص وإن كان زريباً قميئاً إلا وفيه سرٌّ كامنٌ لا يشركه فيه أحد، وإذا كان هذا في شخص على ما قلنا، فكيف إذا نظرت إلى ما يحويه النوع. وهكذا إذا ارتقيت إلى الجنس، وهذا لأن عَرَض الجنس أوسع من عَرَض النوع، كما أن عَرَض النوع أوسع من عَرَض الشخص، وليس دون الشخص تحت، كما أنه ليس فوق الجنس فوق. وأما انقسام هذه الثلاثة على هذا فليكون فضاء العالم غاصاً بالطرف والوسط والأفق وليكون سَحاً بالغاً من المصدر إلى المورد. وعلى هذا لولا الجنس لم يوجد نوعٌ، ولولا النوع لم يوجد شخص. وكذلك العكس.

قال أبو سعيد الطيب: ألعالم العلويُّ أجناس وأنواع وأشخاص؟ قال: كيف يخلو العالم العلويُّ من هذا التقسيم، وإنما هذا الذي لحقنا في العالم السفلي حكاية ذلك العالم العلويِّ حَذَو النعل بالنعل والقُدَّة بالقُدَّة. فقال له مستزيداً: فهل في البسائط الإلهية أجناس وأنواع وأشخاص؟ فقال: لا، إلا أن يتخذ شيءٌ من هنالك قراره في معارض العالم السفليِّ بقوة العالم العلويِّ، وذلك كالبرق إذا حَطَف، والنسيم إذا لطف. قال: فهل ينال البسائط نقصٌ بالإخبار بالأجزاء المركبة عنها كما ينال المركبات كمالاً بالأجزاء البسيطة عنها؟

فقال، لا، لأن ما علا يؤثر ولا يقبل التأثير؛ وما سفَّل يتأثر. ألا ترى أن ما علا من الكواكب لا يتصل بشيء دونه، وما سفَّل منها يتصل بما علا عنه. وقال له أيضاً: إذا قلنا: الرُوحانيات، فماذا ينبغي أن يلحظ منها؟

فقال: الروحانيات على أقسام؛ فقسم منها متبدِّد في المركبات من الحيوان والجَماد، وقسم منها مكتنِف للحيوان والجَماد، وبحسب هذا الاكتناف هو أبسط وألطف من القسم الأول المتبدِّد؛ وقسمٌ منها فوق القسم المكتنِف، وهو الذي منه

مادة المحيط؛ وقسم آخرُ فوق هذا الممتدّ، ثم فوق هذا ما لا يملكه وهم، ولا يُدرکه فهم؛ وذلك أنه في جناب القدس وحيث لا مرام لشيءٍ من قُوى الجنّ والإنس.

وسألتُ أبا سليمان فقلت: إنَّ عليّ بن عيسى الرّمانيّ ذكر أن التمكين من القبيح قبيح، لأن التمكين من الحَسَن حَسَن. فلو كان التمكين من القبيح قبيحاً مع كونه من الحَسَن حَسناً كان حَسناً قبيحاً؛ وهذا تناقض؛ كيف صحّة هذا الذي أومأ إليه؟

فقال: أخطأت، لأن التمكين وحده اسمٌ مجردٌ لشيءٍ محدّد، والأسماء المحدّدة دلالتهَا على الأعيان لا على صفات الأعيان أو ما يكون من الأعيان أو ما يكون في الأعيان.

والتمكين معتبرٌ بما يضاف إليه ويناط به، فإن كان من القبيح فهو قبيح لأنّه علّة القبيح، وإن كان من الحَسَن فهو حَسَن لأنّه سببُ الحَسَن.

وهذا كما تقول: هذا الدرهم نافع أو ضارٌّ؟ فيقال: إن صرفته فيما ينبغي فهو نافع، وإن أنفقته فيما لا ينبغي فهو ضارٌّ، وكذلك السيف في الآلات، وكذلك اللفظ في الكلامات، والإضافة قوّة إلهيّة سرت في الأشياء سرياناً غريزياً قاهراً متمكلاً قاسراً، فلا جرم لا ترى حسياً أو عقلياً أو وهمياً أو ظنياً أو علمياً أو عرفياً أو عملياً أو حُلُمياً أو يقظياً إلا والتصارييف سارية فيها، والإضافة حاكمة عليها.

وهذا لأن الأشياء بأسرها مصيرها إلى الله الحقّ، لأنّ مصدرها من الله الحقّ، فالإضافة لازمة، والنسبة قائمة، والمشابهة موجودة. ولولا إضافة بعضنا إلى بعض ما اجتمعنا ولا افترقنا، ولولا الإضافة بيننا الغالبة علينا ما تفاهمنا ولا تعاونا.

قال: إذا كُنّا بالتضاييف نَتَوَالَى، فبأيّ شيء بعده نَتَعَادَى؟

قال: هذا أيضاً بالإضافة، لأن الإضافة ظلّ، والشخص بالظلّ يأتلف، وبالظلّ يختلف.

وقال: ويزيدك بياناً أنّ العَدَم والوجود شاملان لنا، سائران فينا فبالوجود نتصادق، وبالعَدَم نتفارق.

وسأل^(١) مرّة عن الطَّرْب على الغناء والضرب وما أشبههما.

فكان من الجواب: قيل لسُقراط فيما ترجمه أبو عثمان الدمشقيّ: لم طَرَب الإنسان على الغناء والضرب؟ فقال: لأنّ نفسه مشغولةٌ بتدبير الزمان من داخل ومن خارج، وبهذا الشغل هي محجوبة عن خاصّ ما لها.

فإذا سمعت الغناء انكشفت عنها بعضُ ذلك الحجاب، فحَتَّت إلى خاصّ ما لها من

(١) أي الوزير.

المثالات الشريفة والسعادات الرُّوحانية من بعد ذلك العالم، لأن ذلك وطنها بالحقّ .
فأمّا هذا العالم فإنّها غريبة فيه، والإنسان تابع لنفسه، وليست النفس تابعة
للإنسان، لأنّ الإنسان بالنفس إنسان، وليست النفس نفساً بالإنسان، فإذا طربت النفس
- أعني حنّت ولحظت الرُّوح الذي لها - تحرّكت وخفّت فارتاحت واهتزّت .
ولهذا يطرح الإنسان ثوبه عنه، وربّما مزّقه كأنّه يريد أن ينسلّ من إهابه الذي
لصق به، أو يُفِلّت من حصاره الذي حُبِس فيه، ويهرول إلى حبيبه الذي قد تجلّى له
وبرز إليه .
إلا أنّ هذا المعنى على هذا التنضيد إنّما هو للفلاسفة الذين لهم عناية بالنفس
والإنسان وأحوالهما .
وأما غيرهم فطرِبُهم شبيهة بما يعتري الطيرَ وغيرها، وانصرفت .

الليلة الخامسة عشرة

وجرى مرّة كلامٌ في الممكن، فحكيتُ عن ابن يعيش الرّقبيّ فصلاً سمعته يقوله، لا بأس برسمه في هذا الموضوع، فإنّ التشاور في هذا الحرف دائم متّصل وينبغي لنا أن نبحث عنه بكلّ زحف وحبّو، وبكلّ كدّ وعَفْو.

قال: الممكن شبيهٌ بالرؤيا لا بدنّ له يستقلّ به، ولا طبيعة يتحيز فيها.

ألا ترى أنّ الرؤيا تنقسم على الأكثر والأقلّ والتساوي، وكما أنّ الرؤيا ظلٌّ من ظلال اليقظة، والظلُّ ينقص ويزيد إذا قيس إلى الشخص؛ كذلك الممكن ظلٌّ من ظلال الواجب، فطوراً يزيد تشابهاً للواجب، وطوراً ينقص تشاكها للممتنع، وطوراً يتساوى بالوسط.

قال: والواجب لا عرض له، لأنّه حدّ واحد، وله نصيب من الوحدة بدليل أنّه لا تغير له ولا حيلولة لا بالزمان ولا بالمكان ولا بالحدثان ولا بالطبيعة ولا بالوهم ولا بالعقل، بل العقل ينقاد له، والطبيعة تُسلم إليه، والوهم يفرق منه وصورة الواجب لا يخذسها الظنّ، ولا يتحكّم فيها تجويز، ولا يتسلط عليها دماغ ولا ناسخ، وهذا الحكم يطرد على الممتنع، لأنّه في مقابله على الضدّ، أعني أنّه لا بدن له، فيكون له عرض، والعرض كلّهُ للممكن بالنعته الذي سلف من الكثرة والقلة والمساواة.

ولهذا تعلّقت التكاليف به في ظاهر الحال وبادئ الأمر وعارض الشان، واستولى الوجودُ عليه بباطن الحال وخفيض الأمر وراتب الشان، لكنّ هذا الفصل الذي اشتمل على الظاهر والباطن ليس ينكشف للحسن كما ينكشف للعقل.

ولمّا كنّا بالحسن أكثر - وإن كنّا لا نخلو في هذه الكثرة من آثار العقل - لزمنا الاعترافُ بعوائد الممكن وعلائقه، والعمل عليها، والرجوع إليه إذا أمرنا أو نهينا أو ائتمرنا أو انتهينا.

ولمّا ظهر لنا بإزاء هذا الذي كنّا به أكثر أنّ لنا شبحاً آخر نحن به أقلّ وهو العقل يشهد لنا بأنّ صورة الوجوب استولت من مبدأ الأمر إلى منقطعه الذي هو في عرض الواجب إلى آخر الممتنع.

وكما لزمنا الاعتراف الأوّل لنكون به عاملين ومستعملين، ورافعين وواضعين، ولائمين وملمومين، ونادمين ومندمين؛ كذلك لزمنا الاعترافُ بسُلطان الواجب الذي لا

سبيل إلى عزله، ولا محيصَ عن الإقرار به، ولا فكاك من أطراجه بغير دافع أو مانع .
واتصل كلامُ ابن يعيش على تقطُّع في عبارته التي ما كانت أدائه تُواتيه فيها، مع تدفُّق خواطره عليها؛ فقال: الرؤيا ظلُّ اليَقْظَة، وهي واسطةٌ بين اليَقْظَة والنوم، أعني بين ظهور الحِسِّ بالحركة، وبين خفائه بالسكون .

قال: والنوم واسطة بين الحياة والموت، والموت واسطة بين البقاء الذي يتصل بالشهود وبين البقاء الذي يتصل بالخلود .

قال: وهذا نعتٌ على تسهيل اللفظ وتقريب المراد والتصوُّر؛ ودون الثَقَّة شوك القَتَاد، وازدراؤ العَلَقَم والصاب، للحواجز القائمة والموانع المعترضة من الإلف والمنشأ وغير ذلك مما يطول تعديده ويشقُّ استقصاؤه .

فقال: هذا كلامٌ ظريف، وما خلْتُ أنَّ ابنَ يعيش مع فدامته، ووَحَامَتِهِ يسحب ذَيْلَهُ في هذا المكان، ويُجري جِوَادَهُ بهذا العِنَان .

قلتُ له: إنَّ له مع هذه الحالِ مَرَامِيَّ بعيدة، ومَقاصِدَ عالية، وأطرافاً من المعاني إذا اعتلقها دَلٌّ عليها، إما بالبيان الشافي، وإما بما يكون طريقاً إلى الوَهَم الصافي .

وقلتُ: لقد مرَّ له اليومَ شيءٌ جرى بينه وبين أبي الخير اليهوديِّ استفيد منه .

قال: وما ذاك؟ انثر علينا دُرَّر هذه الطائفة التي نميل إليها بالاعتقاد وإن كنا نقع دونها بالاجتهاد؛ ونسأل الله أن يرحم ضَعْفَنَا الذي منه بُدِئْنَا ويبدلنا قوةً بها نجد قُربَنَا في آخرنا .

قلت: ذكر أن العقل لا غناء له في الأشياء التي تغلب عليها الحيلولة والسَّيْلَان والتطوُّل، كما أن الحِسَّ لا ينفذُ في الأمور التي لا تطوُّر لها بالحيلولة والتطوُّل، ولذلك عُرفت الحِكْمَةُ في الكائنات الفاشيات، وخفيت العِلْلُ والأسباب في بُدُوها وخُفْيَتِهَا وتبدُّدها وتألُّفِهَا، لكنَّ هذا الفرق والخفاء مسلَّمان للقدرة المستعلية والمشيمة النافذة .

قال: ولهذا الترتيب سرٌّ به حَسُنَ هذا النعت، وإليه انتهى هذا البحث وذلك أنَّ خَفَاءَ ما خَفِيَّ بِحَقِّ الأوَّل الحِقِّ، وبدوُّ ما بدا من نصيبِ أُطْلِقَ لِلَّذِي لا يحتمل غير هذا الثقل، ولو خُفِّفَ عنه هذا لَلحِقَ الإنسانُ البهائمَ، ولو ثَقُلَ عليه هذا لَلحِقَ الملائكة، فكان حينئذٍ لا يكون إنساناً، وقد وجب في الأصل أن يكون إنساناً كاملاً بالنَّصَب والدَّأب، ويمتعض من أن تكون صورة الإنسان عنده مُعارة، لأنه في الحقيقة حيوان غيرُ ناطق، بل يجتهد بسعيه وكدحه أن يصير إنساناً فاضلاً، ويكون في فضله وكمالِه ملكاً، أعني بالمشاكهة الإرادية لا بالمشاكهة النوعية .

قال: وغاية الحكمة منها للمباشرين لها أنَّ المعرفة تَقِفُ على حَيْلُولِهَا ولسيْلانها فقط، لا على تصفُّح أجزائها، لأنَّ الترتيب فيها يستحيل مع الزمان .

ألا ترى أنّ الرقم على الماء لا صورة له، لأن صفحة الماء لا ثبات لها، وكذلك الخطّ في الهواء، وكذلك الكائنات البائذات لا صورة لها، لأنّها لا ثبات لها، وأنت إذا وجدت شيئاً لا ثبات له لم تضمّ إليه شيئاً آخر لا ثبات له طمعاً في وقوع الثبات بينهما، هذا ما لا يدين به وهم، ولا ينقاد له ظنّ؛ ولو ساغ هذا لساغ أن يُجمع بين ما له ثبات، وبين ما له أيضاً ثبات، فيحدّث هناك سيّلاً واستحالة.

وقال: وَصَفُ العَقلِ بِشَهادَةِ الحَسَنِ، كما يكون وصف الحسّ بشهادة العقل إلا أن شهادة الحس للعقل شهادة العبد للمولى، وشهادة العقل للحس شهادة المولى للعبد؛ على أن هاتين الشهادتين لا تطردان ولا تستمرّان، لأن لكل واحد من الحس والعقل تفرّداً بخاصّ ماله، ولذلك ما وُجد حيواناً لا عقل له البتة، ووُجد في مقابلته حيّ لا حسّ له.

ثم قال: بل العقل يحكم في الأشياء الروحانية البسيطة الشريفة من جهة الصوّر الرفيعة، والعلائق التي بين المعقولات والمحسوسات ما نعت العقل، والعاقل من خلّص الباقيات الخالدات الدائمات القائمة الثابتات من حومة الكائنات الفاسدات البائذات الذاهبات الحائلات الزائلات المائلات البائذات.

ودخل في هذا التلخيص ضرب من الشكّ والتمازي والخصومة والتعادي والتعنّت إلى اختلاف عظيم، ووقفنّ عن الحكم بعد اليقين.

وقال - أدام الله سعادته - ما السجّية؟

قلت: سمعتُ الأندلسيّ يقول: فلان يمشي على سجيّته، أي طبعه.

قال: هل يقال: ظفّرتُ عليه؟

قلتُ: قد قال شاعرهم:

وكانت قريش لو ظفّرنا عليهمُ شفاءً لما في الصّدر والنقصُ ظاهرُ

قال: هذا حسن.

قلتُ: الحروف التي تتعدّى إلى الأفعال، والأفعال التي تتعدّى بالحروف؛

يراعى فيها السماعُ فقط لا القياس. هذا كان مذهب إمامنا أبي سعيد؛ وقد جاء أيضاً «ظفّر به»؛ وجاء «سخرتُ به ومنه».

ومن لا اتّسع له في مذهب العرب يظنّ أن «سخرتُ به» لا يجوز وهو صحيح.

حكاه أبو زيد.

قال: كيف يقال في جَمَلٍ به غُدّة؟ فكان من الجواب: جَمَلٌ مُغَدٌّ. قال: فكيف

يُجمع؟ فكان الجواب بأنّه في القياس ظاهر، ولكن السماع قد كفى. قال الشاعر - وهو خراش بن زُهَير:

فَقَدْتُكُمْو لَحَظْتُكُمْو إِيْنَا بَبَطُنٍ عُكَاظٍ كَالِإِبِلِ الْغِدَادِ

ضَرَبْنَاَهُمْ بِبَطْنِ عُكَاظٍ حَتَّى تَوَلَّوْا طَالِعِينَ مِنَ النَّجَادِ
 وقال - حرس الله نفسه - : مربعة الخُرَيْبِيِّ إلى أي شيء يُنسب؟ فكان من الجواب :
 يقال : رجل خُرَاسَانِيٌّ وخُرَيْبِيٌّ وخُرَاسِيٌّ، فنُسبت إلى رجل نزلها فاشتهرت به .

فقال : القَذال كيف يجمع؟ فكان من الجواب ؛ أن فَعَالاً وَفِعَالاً وَفُعَالاً وَفَعِيلًا
 وَفُعُولًا أخوات تُجمع في الأقل على أَفْعَلَةٍ، يقال : جِمار وأخْمِرة، وَغُرَابٌ وَأَغْرِبَةٌ،
 وَقَذالٌ وَأَقْدِلة، وَعَمُودٌ وَأَعْمدة .

قال : نسيت أسألك عن المسألة الأولى - أعني الخُرَيْبِيَّ - من أين لك تلك الفُتْيَا؟
 فكان من الجواب : قرأته على أبي سعيد الإمام في شرحه كتاب سيبويه .
 قال : برَّدتْ عَلِيلِي، فَإِنَّ الحِجَّةَ فِي مِثْلِ هَذَا مَتَى لَمْ تَكُنْ بِأَهْلِهَا كَانَتْ
 متجلجلة .

قال : أَنشِدْنِي شَيْئاً نَخِيماً بِهِ المَجْلِسَ، فَقَدْ مَرَّتْ طَرَائِفُ .

فَأَنشِدْتُهُ لِعُمَارَةَ بِنِ عَقِيلِ فِي بِنْتِ لَهُ :

حُبُّ تَسَاقَاهِ مُشَاشٌ أَعْظَمِي	حُبُّكَ يَا ذَاتَ الأُنَيْفِ الأَكْشَمِ
وَسَاطَهُ اللُّهُ بِلِخْمِي وَدَمِي	وَدَبُّ بَيْنِ كَبِيدِي وَمَخْرَمِي
وَلَا الَّذِي إِنْ يَتَّقَاذَمَ يُسَامِ	فَلَيْسَ بِالمَذْقِ وَلَا المَكْتَمِ
مَنْزِلَةَ الشَّيْءِ المُحَبِّ المُكْرَمِ	لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْ فُوَادِي - فاعلمي -
	وانصرفت .

الليلة السادسة عشرة

ثم عُذْتُ وقتاً آخر فقال: كُنْتُ حَكِيتُ لِي أَنَّ العَامِرِيَّ صَنَّفَ كِتَاباً عَنْوَنَهُ (بِإِنْقَاذِ البَشَرِ مِنَ الجَبْرِ والقَدَرِ)، فَكَيْفَ هَذَا الكِتَابُ؟

فَقُلْتُ: هَذَا الكِتَابُ رَأَيْتُهُ بِخَطِّهِ عِنْدَ صَدِيقِنَا وَتَلْمِيذِهِ أَبِي القَاسِمِ الكَاتِبِ وَلَمْ أَقْرَأْهُ عَلَى العَامِرِيِّ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمِ الرَّازِيَّ يَقْرُؤُهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ كِتَابُ نَفِيسٍ، وَطَرِيقَةُ الرَّجُلِ قَوِيمَةٌ، وَلَكِنَّهُ مَا أَنْقَذَ البَشَرَ مِنَ الجَبْرِ والقَدَرِ، لِأَنَّ الجَبْرَ والقَدَرَ اقْتَسَمَا جَمِيعَ البَاحِثِينَ عَنْهُمَا وَالنَّاطِرِينَ فِيهِمَا.

قال: لم قيل الجبر والقدر ولم يقل الإجمار.

فكان الجواب: أن الإجمار لغة قوم، والجبر لغة تميم، يقال: جبر الله الخلق وأجبر الخلق، وجبر بمعنى جبل؛ واللام تعاقب الراء كثيراً.

قال: فتكلم في هذا الباب بشيء يكون غير ما قاله العامري، وانقد له إن كان الحق فيما ذهب إليه ودل عليه.

فكان من الجواب: أن من لحظ الحوادث والكوائن والصوادر والأوتاي من معدن الألهيات أقرَّ بالجبر وعزَّى نفسه من العقل والاختيار والتصرف والتصريف، لأن هذه وإن كانت ناشئة من ناحية البشر، فإن منشأها الأول إنما هو من الدواعي والبواعث والصوارف والموانع التي تنسب إلى الله الحق؛ فهذا هذا.

فأمَّا من نظر إلى هذه الأحداث والكائنات والاختيارات والإرادات من ناحية المباشرين الكاسيين الفاعلين المحدثين اللائمين الملوِّمين المكلفين، فإنه يعلِّقها بهم ويُلصِقها بِرِقَابِهِمْ، وَيَرَى أَنَّ أَحَدًا مَا أُتِيَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ وَبِسُوءِ اخْتِيَارِهِ وَبِشِدَّةِ تَقْصِيرِهِ وَإِثَارِ شِقَاتِهِ.

والملاحظان صحيحان واللاحظان مصيبان، لكن الاختلاف لا يرتفع بهذا القول والوصف، لأنه ليس لكل أحد الوصول إلى هذه الغاية، ولا لكل إنسان اطلاع إلى هذه النهاية.

فلما وقعت البيئونة بين الناظرين بالطبع والنسبة لم يرتفع القول والقيله من ناحية القول والصفة، فهذا هذا.

قال - أطال الله بقاءه: - فما الفرق بين القضاء والقدر؟

فكان من الجواب: أن أبا سليمان قال: إن القضاء مصدره من العلم السابق، والقدر مؤدّه بالأجزاء الحادثة.

فقال: لم ورد في الأثر: «لا تخوضوا في القدر فإنه سرّ الله الأكبر».

فكان من الجواب: أن أبا سليمان قال لنا في هذه الأيام: إن الناموس ينطق بما هو استصلاح عام، ليكون النفع به شائعاً في سكون النفس وطيب القلب وروح الصدر.

فإن كان هذا هكذا فقد وضح أن حكمة هذا السرّ طيه، لأن عجز الناظرين يُفضي بهم إلى الحيرة، والحيرة مَضَلَّة، والمَضَلَّة هَلَكَةٌ. وإذا كانت الراحة في الجهل بالشيء، كان التعب في العلم بالشيء، وكم علم لو بدا لنا لكان فيه شقاء عيشنا، وكم جهل لو ارتفع منا لكان فيه هلاكنا؛ والعلم والجهل مقسومان بيننا ومفوضان علينا على قدر احتمال كل واحد منا للذي سبق إليه وعلّق به، ألا ترى أن علمنا لو أحاط بموتنا متى يكون؟ وعلى أي حال تحدث العلة أو المحنة أو البلاء؟ لكان ذلك مفسدة لنا، ومحنة شديدة علينا.

فانظر كيف روى الله الحكيم هذا العلم عنا، وجعل الخيرة فيه لنا.

ألا ترى أيضاً أن جهلنا لو غلب علينا في جميع أمورنا لكان فساد ذلك في عظم الفساد الأول، والبلاء منه في معرض البلاء المُتقدّم، فمن هذا الذي أشرف على هذا الغيب المكنون والسرّ المخزون فيغفل عن الشكر الخالص، والاستسلام الحسن، والبراءة من كل حَوْل وقوة.

فالاستمداد ممن له الخلق والأمر، أعني الإبداء والتكليف، والإظهار والتشريف، والتقدير والتصريف.

قال: هذا فنّ حسن، وأظنك لو تصديت للقصص والكلام على الجميع^(١) لكان لك حظّ وافر من السامعين العاملين، والخاضعين والمحافظين.

فكان من الجواب: أن التصدي للعامة خلوة^(٢)، وطلب الرفعة بينهم ضعة، والتشبه بهم نقيصة، وما تعرّض لهم أحد إلا أعطاهم من نفسه وعلمه وعقله ولوّثته ونفاقه وريائه أكثر ممّا يأخذ منهم من إجلالهم وقبولهم وعطائهم وبذلهم.

وليس يقف على القاصّ إلا أحد ثلاثة:

إمّا رجل أبله، فهو لا يدري ما يخرج من أمّ دماغه.

وإمّا رجل عاقل فهو يزدرية لتعرّضه لجهل الجهال.

(١) يريد العامة.

(٢) يريد بالخلوة هنا معنى التبذل والامتهان. يقال: خلق الثوب بتلث اللام خلوة خلاقة: إذا بلي.

وإما له نسبة إلى الخاصة من وجه، وإلى العامة من وجه، فهو يتذبذب عليه من الإنكار الجانب للهجر، والاعتراف الجالب للوصل، فالقاصّ حينئذٍ ينظر إلى تفرغ الزمان لمداراة هذه الطوائف، وحينئذٍ ينسلخ من مهمّاته النفسية، ولذاته العقلية، وينقطع عن الازدياد من الحكمة بمجالسة أهل الحكمة، إمّا مقتسباً منهم، وإمّا قابساً لهم؛ وعلى ذلك فما رأيت من انتصب للناس قد ملك إلّا درهماً وإلّا ديناراً أو ثوباً؛ ومناصبه شديدة لمماثليه وعُداته.

قال: إن الليل قد دنا من فجره، هاتِ مُلحةَ الوداع.

قلتُ: قال يعقوب صاحب (إصلاح المنطق):

دخل أعرابي الحمام فزلق فانسج، فأنشأ يقول:

وقالوا تطهّر إنّه يومُ جمعةٍ فرُحْتُ من الحمام غيرَ مطهّر
تَرَدَّيْتُ منه شارياً شجّ مفرقي بفلسين إنّي بئس ما كان متجري
وما يُحسِنُ الأعرابُ في السوقِ مشيةً فكيف ببئيت من رخام ومزمر
يقول لي الأنباطُ إذ أنا نازل «به لا بظنبي بالصريمة أعفر»^(١)

وقال - حرس الله نفسه -: كنتُ أزوي قافية هذا البيت «أعفرا»، وهذه فائدة

كنتُ عنها في ناحية؛ وانصرفت.

قد رأيتُ أيها الشيخ - حاطك الله - عند بلوغي هذا الفصل أن أختَمَ الجزء الأول بما أنتهى إليه، وأشفعه بالجزء الثاني على سبيل ما سلف نظمه ونثره، غيرَ عائج على ترتيبٍ يحفظ صُورةَ التصنيف على العادة الجارية لأهله، وعذري في هذا واضح لمن طلبه، لأنّ الحديث كان يجري على عواهنه بحسب السانح والداعي.

وهذا الفن لا ينتظم أبداً، لأنّ الإنسان لا يملك ما هو به وفيه، وإنما يملك ما هو له وإليه.

وهذا فصل يحتاج إلى نَفْسٍ مديد، ورأي يصدر عن تأييد وتسديد: والسلام، والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله الطاهرين، وسلّم تسليمًا كثيراً إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

(١) مثل يضرب في الشماتة بالرجل، يريدون أن المكروه ينزل به ولا ينزل بظني أعفر، كأنه من الخسة والهوان بحيث يفضل عليه الظني الأعفر.

كِتَابُ
الْمُتَنَاعِ وَالْمُؤَانِسَةِ

تَأليفُ
أبي حَيَّانَ التُّوحِيدِي

وَهُوَ مَجْمُوعُ مَسَامِرَاتٍ وَدِفْنُونٍ شَتَّى
حَاضِرٍ بِهَا الْوَزِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْعَارِضُ فِي عِدَّةٍ لِيَاك

اعْتَنَى بِهِ وَرَاجَعَهُ
هَيْثَمُ خَلِيفَةُ الطَّعِيمِي

الجزء الثاني

المكتبة العصرية
بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الشيخ - أطالَ اللهُ يدَكَ في الخيرات، وزاد في همَّتِكَ رَغْبَةً في اصطناع المَكْرُمات، وأجزاك على أحسن العادات في تقديم طُلابِ العِلْمِ وأهلِ البُيوتات - قد فرغْتُ في الجزء الأول على ما رَسَمْتُ في القيام به، وشرفْتَنِي بالخَوْضِ فيه، وسرَدْتُ في حواشيه أعيانَ الأحاديث التي خَدَمْتُ بها مجلسَ الوزير، ولم آلُ جُهْداً في روايتها وتقويمها ولم أحتجْ إلى تَعْمِيَةٍ شيءٍ منها، بل زَبَرَجْتُ كثيراً منها بناصِعِ اللفظ، مع شَرْحِ الغامض وِصْلَةِ المَحْذُوفِ وإِتِمَامِ المَنْقُوصِ، وَحَمَلْتُهُ إِلَيْكَ عَلَيَّ يَدَ (فائق) الغلام، وأنا حريصٌ على أَنْ أُتْبِعَهُ بِالْجُزْءِ الثَّانِي، وهو يَصِلُ إِلَيْكَ فِي الأُسْبُوعِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

وأنا أسألك ثانيةً على طريق التوكيد، كما سألتك أولاً على طريق الاقتراح، أن تكون هذه الرسالة مَصُونَةً عن عُيُونِ الحاسدين العَيَابِين، بعيدةً عن تناوُلِ أيدي المفسدين المتنافسين؛ فليس كلُّ قائلٍ يَسْلَمُ، ولا كلُّ سامعٍ يُنْصَفُ، ولا كلُّ مُتَوَسِّطٍ يُضْلَحُ، ولا كلُّ قادمٍ يُفْسَحُ له في المجلس عند القُدوم .

والبَلِيَّةُ مضاعفةٌ من جهة النُظْرَاءِ في الصناعة، وللحسد ثُورَانٌ في نفوسِ هذه الجماعة؛ وَقَلٌّ من يَجْهَدُ جُهْدَهُ في التقرب إلى رئيس أو وزير، إلا جَدَّ في إبعاده من مَرَامِهِ كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ؛ وهذا لأنَّ الزمانَ قد استحالَ عن المعهود، وجفا عن القيام بوظائف الديانات وعادات أهلِ المروءات؛ لأُمُورٍ شَرَحُهَا يَطُولُ؛ وقد كان الناس يتقلَّبون في بسِطِ الشمس؛ (أعني الدين) ففَرَّيْتُ عَنْهُمْ، فعاشوا بنور القمر، (أعني المروءة) فأفلَ دُونَهُمْ، فَبَقُوا في ظُلُمَاتِ البِرِّ وَالبَحْرِ، (أعني الجهل وقلة الحياء) فلا جَرَمَ أَعْضَلَ الدَّاءَ، وَأَشْكَلَ الدَّوَاءَ، وَغَلَبَتِ الحَيْرَةُ، وَفُقِدَ المُرْشِدُ، وَقَلَّ المُسْتَرَشِدُ؛ وَاللَّهُ المُسْتَعَانُ .

وأزجِعُ إلى ما هو الغرضُ مِنْ نسخ ما تَقَدَّمَ في الجزء الأول .

الليلة السابعة عشرة

فلما عُذْتُ إلى المجلس قال: ما تَحْفَظُ في تَفْعَالٍ وَتِفْعَالٍ، فقد اشْتَبَهَا؟ وَفَزِعْتُ إلى ابنِ عُبَيْدِ الكَاتِبِ فلم يكن عنده مَفَنَعٌ، وَأَلْقَيْتُ على مِسْكَوَيْهِ فلم يكن له فيها مَطْلَعٌ؛ وهذا دليلٌ على دُنُورِ الأدبِ وَبُورِ العِلْمِ والإِعْرَاضِ عَنِ الكَذْحِ في طلبه.
فقلتُ:

قال شيخنا أبو سعيد السِّيرَافِيُّ الإمامُ - نَضَرَ اللُّهُ وَجَهَهُ -: المَصَادِرُ كُلُّهَا على تَفْعَالٍ بفتح التاء، وإنما تَجِيءُ تَفْعَالٍ في الأَسْمَاءِ، وليس بالكثير. قال: وذكر بعضُ أهلِ اللُّغَةِ منها ستة عشر اسماً لا يوجد غيرها. قال: ها تَهَا.

قلتُ: منها التَّيْبَانُ والتَّلْقَاءُ، ومَرَّ تِهَوَاءٌ مِنَ اللَّيْلِ؛ وَتِيْرَاكُ، وَتِغْشَارُ وَتِيْرَبَاعُ، وهي مواضع؛ وَتِمْسَاحُ لِلدَّابَّةِ المَعْرُوفَةِ؛ وَالتَّمْسَاحُ الرَّجُلُ الكَذَّابُ أيضاً. وَتِجْفَافٌ وَتِمَثَالٌ وَتِمْرَادُ بَيْتِ الحَمَامِ، وَتِلْفَاقٌ، وهو ثوبان يُلْفَقَانِ. وَتِلْقَامٌ: سَرِيْعُ اللُّقْمِ.
ويقال: أَتَتِ النَّاقَةُ على تِضْرَابِهَا، أي على الوَقْتِ الذي ضَرَبَها الفَخْلُ فيه، وَتِضْرَابٌ كَثِيرُ الضَّرْبِ، وَتِقْصَارُ، وهي المِخْنَقَةُ؛ وَتِنْبَالٌ، وهو القَصِيرُ.

قال: هذا حَسَنٌ، فما تقولُ في تَذْكَارٍ؟ فَإِنَّ الحَوْضَ في هذا المِثَالِ إنما كان من أَجْلِ هذا الحَرْفِ، فَإِنَّ أَصْحَابَنَا كانوا في مَجْلِسِ الشَّرَابِ، فَاخْتَلَفُوا فيه؟ فقلتُ: هذا مَصْدَرٌ، وهو مَفْتُوحٌ.

ثم قال: اِجْمَعْ لي حُرُوفاً نِظَائِرَ لِهَذَا مِنَ اللُّغَةِ، وَاشْرَحْ ما نَدَرَ منها، وَعَرِّضْ الشُّكَّ لكثير من الناس فيها.

فقلتُ: السَّمْعُ وَالتَّطَاعَةُ مع الشَّرْفِ بِالعِزَّةِ.

وقال أيضاً: حَدَّثَنِي عن شيءٍ هو أَهْمٌ من هذا لي وَأَخْطَرُ على بالي، إني لا أزال أَسْمَعُ من زَيْدِ بنِ رِفَاعَةَ قولاً وَمَذْهَباً لا عهد لي به وَكِنَايَةً عما لا أَحْقَهُ، وَإِشَارَةً إلى ما لا يتوضَّحُ شيءٌ منه، يَذْكَرُ الحُرُوفَ وَيَذْكَرُ النُّقْطَ، وَيَزْعُمُ أن الباءَ لم تُنْقَطْ من تحت واحدةٍ إلا بسببِ، والتاءُ لم تُنْقَطْ من فوقِ اثنتين إلا لعلَّة، والألفُ لم تُعْرَ إلا لِعَرَضٍ. وَأَشْبَاهُ هذا؛ وَأَشْهَدُ منه في عَرَضٍ ذلك دَعْوَى يتعاضمُ بها وَيَتَفَنِّجُ^(١) بِذِكْرِهَا؛

(١) يفتخر بما ليس فيه.

فما حديثه؟ وما شأنه؟ وما دُخِلَتْهُ؟ وما خَبَرُهُ؟ فقد بلغني أنك تغشاه وتجلس إليه، وتكثيرُ عنده، وتورِّقُ له، ولك معه نوادرٌ مضحكة، وبوادرٌ معجبة. ومن طالت عِشْرَتُهُ لإنسانٍ صدقتْ خِبرَتُهُ به، وانكشف أمرُهُ له، وأمكنَ إطلاعه على مستكنِّ رأيه وخافي مذهبِهِ وعويصِ طريقته.

فقلتُ: أيُّها الوزير، هو الذي تعرِّفه قنلي قديماً وحديثاً بالتربية والاختبار والاستخدام، وله منك الأُخوة القديمة والنسبة المعروفة.

قال: دَع هذا وصفه لي.

قلتُ: هناك ذكاءٌ غالبٌ، وذهنٌ وقادٌ، وَيَقْظَةٌ حاضرة، وسوانحٌ متناصرة، ومتسعٌ في فنونِ النظم والنثر، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة، وحفظُ أيام الناس، وسماعٌ للمقالات، وتبصُّرٌ في الآراء والديانات، وتصرفٌ في كلِّ فنٍّ: إمَّا بالشدو^(١) الموهِّم، وإمَّا بالتبصُّر المُفهِم، وإمَّا بالتناهي المُفْجِم.

فقال: فعلى هذا ما مذهبه؟

قلتُ: لا يُنسب إلى شيء، ولا يُعرَّف برهط، لجيشانه بكلِّ شيء، وعلَيانِهِ في كلِّ باب. ولاختلاف ما يبدو من بسطةِ تبيانهِ، وسطوته بلسانه، وقد أقام بالبصرة زماناً طويلاً، وصادفَ بها جماعةً جامعةً لأصناف العلم وأنواع الصُّناعة؛ منهم أبو سليمان محمد بن معشر البيهقي، ويُعرف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني والعوقي وغيرهم، فصحبهم وخدمهم؛ وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعِشرة، وتصافت بالصدّاقة، واجتمعت على القُدس والطَّهارة والنصيحة، فوضعا بينهم مذهباً زعموا أنَّهم قرَّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنَّته، وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دُتست بالجهالات، واختلطت بالضلالات؛ ولا سبيل إلى عَسْلِها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك لأنَّها حاويةٌ للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية.

وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال؛ وصنّفوا خمسين رسالةً في جميع أجزاء الفلسفة: عِلْمِيها وَعَمَلِيها، وأفردوا لها فهرستاً وسمّوها رسائل إخوان الصِّفاء وخلان الوفاء، وكتبوا أسماءهم، وبثّوها في الوِزَاقين، ولقّنها الناس، وادَّعوا أنَّهم ما فعلوا ذلك إلا ابتغاءً وجهِ الله عزّ وجلّ وطلبَ رضوانِهِ ليخلصوا الناسَ من الآراء الفاسدة التي تضرّ النفوس، والعقائد الخبيثة التي تضرّ أصحابها، والأفعال المذمومة التي يسقى بها أهلها؛ وحشّوا هذه الرسائل بالكليم الدنيّة والأمثال الشرعية والحروف المُختملة والطُّرق الموهمة.

(١) أي أخذ العلم وتلقيه.

فقال: هل رأيت هذه الرسائل؟

قلت: قد رأيت جملةً منها، وهي مبثوثة من كلِّ فنٍ تُنفأ بلا إشباع ولا كفاية، وفيها خرافات وكنيات وتلفيقات وتلزيقات وقد عرّق الصواب فيها لغبلة الخطأ عليها. وحملتُ عدّةً منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السجستاني (محمد بن بهرام) وعرضتها عليه ونظر فيها أياماً واختبرها طويلاً؛ ثم ردّها عليّ وقال: تعبوا وما أغنوا، ونصبوا وما أجدوا، وحاموا وما وردوا، وعغّوا وما أطربوا، ونسجوا فهلّهلوا، ومشطوا فقلّقلوا^(١)؛ ظنّوا ما لا يكون ولا يُمكن ولا يُستطاع؛ ظنّوا أنهم يمكنهم أن يدسّوا الفلسفة - التي هي علمُ النجوم والأفلاك والمجسطي والمقادير وآثار الطبيعة، والموسيقى التي هي معرفة النغم والإيقاعات والتفريات والأوزان، والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالإضافات والكميات والكيفيات - في الشريعة، وأن يضمّوا الشريعة للفلسفة.

وهذا مرآةٌ دونه حدّد^(٢)؛ وقد توفّر على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا أحدًا أنبياء، وأحضر أسباباً، وأعظم أقداراً، وأرفع أخطاراً، وأوسع قوًى، وأوثق عُراً، فلم يتيّم لهم ما أرادوه، ولا بلّغوا منه ما أمّلوه؛ وحصلوا على لوثاتٍ قبيحة، ولطخاتٍ فاضحة، وألقابٍ موحشة، وعواقبٍ مخزّية، وأوزارٍ مُثقلة.

فقال له البخاريّ أبو العباس: ولم ذلك أيها الشيخ؟

قال: إنّ الشريعة مأخوذة عن الله - عزّ وجلّ - بوساطة السّفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي، وباب المناجاة، وشهادة الآيات، وظهور المعجزات، على ما يوجبُه العقل تارة، ويَجوّزُه تارة، لمصالح عامّة متقنة، ومراشد تامّة مُبيّنة؛ وفي أثنائها ما لا سبيلَ إلى البحثِ عنّه، والعوّص فيه؛ ولا بدّ من التسليم للداعي إليه، والمنبّه عليه؛ وهناك يسقطُ (لِم) وينظّلُ (كيف)، ويَزولُ (هلاً) ويذهبُ (لوز) و(لَيْت) في الرّيح، لأنّ هذه الموادّ عنها محسومة، واعتراضات المعترضين عليها مردودة، وارتياب المُرتابين فيها ضارّ، وسكون الساكنين إليها نافع؛ وجُمَلُها مُشمّلة على الخير، وتفصيلُها موصولٌ بها على حُسن التّقبّل، وهي متداولة بين متعلّق بظاهر مكشوف، ومختجّ بتأويل معروف؛ وناصرٍ باللغة الشائعة، وحامٍ بالجدل المُبين، وذابّ بالعمل الصالح، وضاربٍ للمثل السائر، وراجعٍ إلى البرهان الواضح، ومتفقٍ في الحلال والحرام، ومُستنِدٍ إلى الأثر والخبر المشهورين بين أهل المِلّة، وراجعٍ إلى اتفاقِ الأُمَّة.

وأساسُها على الورع والتّقوى، ومُنتهاها إلى العبادة وطلبِ الرّزقي.

(١) أي جعلوا الشعر شديد الجعودة

(٢) أي دفع ومنع.

ليس فيها حديثُ المنجّم في تأثيرات الكواكب وحركات الأفلاك ومقادير الأجرام ومطالع الطّوالع ومغارب الغوارب .

ولا حديثٌ تشاؤمها وتيامنُها، وهبوطها وصعودها، ونحسها وسعدها، وظهورها واستسرارها، وزجوعها واستقامتها، وتربيعها وتثليثها، وتسديسها ومقارنتها .

ولا حديثٌ صاحبِ الطبيعة الناظرِ في آثارها، وأشكال الأُسْطُقُسَّات، بثبوتها وافتراقها، وتصريفها في الأقاليم والمعادن والأبدان، وما يتعلق بالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة؛ وما الفاعل وما المنفعل منها؛ وكيف تمازجها وتزاولجها، وكيف تنافرها وتسايرها؛ وإلى أين تسري قواها، وعلى أي شيء يقف مُنتهاها .

ولا فيها حديثُ المهندسِ الباحثِ عن مقادير الأشياء ونقطةها وخطوطها وسطوحها وأجسامها وأضلاعها وزواياها ومقاطعها، وما الكرة؟ وما الدائرة؟ وما المُستقيم؟ وما المنحنى؟

ولا فيها حديثُ المنطقيِّ الباحثِ عن مراتب الأقوال، ومَناسِب الأسماء والحروف والأفعال؛ وكيف ارتباط بعضها ببعض على موضوع رجل من يونان حتى يصح بزعمه الصدق، ويُنَبذ الكذب .

وصاحبُ المنطق يرى أنّ الطبيب والمنجّم والمهندس وكل من فاه بلفظٍ وأمّ غرضاً فقراء إليه، محتاجون إلى ما في يديه .

قال: فَعَلَى هذا كيف يسوغ لإخوان الصفاء أن ينصبوا من تلقاء أنفسهم دعوة تجمع حقائق الفلسفة في طريق الشريعة؟

على أن وراء هذه الطوائف جماعة أيضاً لهم مآخذ من هذه الأغراض، كصاحب العزيمة وصاحب الطلّسم وعاير الرؤيا ومدعي السّخر وصاحب الكيمياء ومستعمل الوهم .

قال: ولو كانت هذه جائزةً وممكنةً لكان الله تعالى نبّه عليها، وكان صاحب الشريعة يُقوّم شريعته بها، ويكملها باستعمالها، ويتلافى نقصها بهذه الزيادة التي يجدها في غيرها، أو يحضّر المتفلسفين على إيضاحها بها ويتقدم إليهم بإتمامها، ويفرض عليهم القيام بكل ما يُدبّ به عنها حسب طاقتهم فيها، ولم يفعل ذلك بنفسه، ولا وكّله إلى غيره من خلفائه والقائمين بدينه؛ بل نهى عن الخوض في هذه الأشياء، وكره إلى الناس ذكرها، وتوعدهم عليها، وقال: من أتى عرافاً أو طارقاً أو حازياً^(١) أو كاهناً أو منجماً يطلب غيب الله منه فقد حارب الله، ومن حارب الله حُرب، ومن غالبه غلب، حتى قال:

(١) الطارق الذي يطرق الحصى مستخبراً إياه عن الغيب والحاذي الذي ينظر في خيلان الوجه يتكهن .

«لو أن الله حبس عن الناس القَطْرَ سبع سنين ثم أرسله لأصبحت طائفة به كافرين ويقولون: مُطرنا بنوء المِجْدَحِ»، فهذا كما ترى، والمِجْدَحُ: الدُّبْران.

ثم قال: ولقد اختلفت الأمة ضرورياً من الاختلاف في الأصول والفروع، وتنازَعوا فيها فُنُوناً من التنازع في الواضح والمُشْكل من الأحكام، والحلال والحرام، والتفسير والتأويل، والعيان والخبر، والعادة والاصطلاح؛ فما فزعوا في شيء من ذلك إلى منجم ولا طبيب ولا منطقي ولا مُهندِس ولا مُوسِقي ولا صاحب عزيمة وشغبذة وسِخِرٍ وكيمياء، لأن الله تعالى تمم الدين بنبيه ﷺ، ولم يُخَوِّجْهُ بعد البيان الوارد بالوحي إلى بيان موضوع بالرأي.

قال: وكما لم نجد في هذه الأمة من يُفزع إلى أصحاب الفلسفة في شيء من دينها، فكذلك أمة عيسى عليه السلام وهي النصارى، وكذلك المجوس.

قال: ومما يزيدك وضوحاً ويُريك عجباً أن الأمة اختلفت في آرائها ومذاهبها ومقالاتها فصارت أضناً فيها وفِرْقاً؛ كالمُرْجئة والمعتزلة والشيعية والسنية والخوارج، فما فزعت طائفة من هذه الطوائف إلى الفلاسفة، ولا حَققت مقالاتها بشواهدهم وشهادتهم، ولا اشتغلت بطريقتهم، ولا وَجَدَتْ عندهم ما لم يكن عندها بكتاب ربها وأثر نبيها.

وهكذا الفقهاء الذين اختلفوا في الأحكام من الحلال والحرام منذ أيام الصُّدر الأوَّل إلى يومنا هذا لم نَجِدْهُمْ تَظَاهَرُوا بِالْفِلاسفة فاستنصروهم، ولا قالوا لهم: أعينونا بما عندكم؛ واشهدوا لنا أو علينا بما قبلكم.

قال: فأين الدِّين من الفلسفة؟ وأين الشيء المأخوذ بالوحي النَّازل، من الشيء المأخوذ بالرأي الزائل؟

فإذا أدلُّوا بالعقل فالعقل مؤهبة من الله جلَّ وعزَّ لكلِّ عبد، ولكن بقدر ما يُدرك به ما يعلوه، كما لا يخفى به عليه ما يتلوه، وليس كذلك الوحي، فإنه على نوره المنتشر، وبيانه الميسر.

قال: وبالجملة، النبيُّ فَوْقَ الفَيْلسُوفِ، والفَيْلسُوفُ دون النبيِّ؛ وعلى الفَيْلسُوفِ أن يتبع النبيِّ، وليس على النبيِّ أن يتبع الفَيْلسُوفِ، لأنَّ النبيِّ مبعوث، والفَيْلسُوفِ مبعوث إليه.

قال: ولو كان العقل يُكتفى به لم يكن للوحي فائدة ولا غناء، على أن منازل الناس متفاوتة في العقل، وأنصباؤهم مختلفة فيه؛ فلو كنا نستغني عن الوحي بالعقل كيف كنا نضنع، وليس العقل بأشبه لواحد منا، وإنما هو لجميع الناس.

فإن قال قائل بالعبث والجهل: كلُّ عاقلٍ مَوْكُولٌ إلى قَدْرِ عَقْلِهِ، وليس عليه أن يستفيد الزيادة من غيره، لأنه مكفي به، وغير مُطالب بما زاد عليه.

قيل له: كفاك تمادياً في هذا الرأي أنه ليس لك فيه موافق، ولا عليه مُطابق؛ ولو استقل إنسانٌ واحدٌ بعقله في جميع حالاته في دينه ودنياه لاستقل أيضاً بقوته في جميع حاجاته في دينه ودنياه، وكان وَحْدَهُ يفي بجميع الصناعات والمعارف، وكان لا يحتاج إلى أحدٍ من نوعه وجنسه؛ وهذا قولٌ مزْدُولٌ ورأيٌ مَخْدُولٌ.

قال البخاري: وقد اختلفت أيضاً درجات النبوة بالوحي، وإذا ساغ هذا الاختلاف في الوحي ولم يكن ذلك ثالمًا له، ساغ أيضاً في العقل ولم يكن مؤثراً فيه.

فقال: يا هذا، اختلاف درجات أصحاب الوحي لم يُخرجهُم عن الثقة والطمأنينة بمن اصطفاهم بالوحي، وخصَّهم بالمناجاة، واجتباهم للرسالة، وأكملهم بما ألبسهم من شعار النبوة؛ وهذه الثقة والطمأنينة مفقودتان في الناظرين بالعقول المختلفة، لأنهم على بُعدٍ من الثقة والطمأنينة إلا في الشيء القليل والتزير اليسير؛ وعوارُ هذا الكلام ظاهر، وخطلُ هذا المتكلم بين.

قال الوزير: أفما سمع شيئاً من هذا المقدسي؟

قلت: بلى قد أقيمتُ إليه هذا وما أشبهه بالزيادة والنقصان، والتقديم والتأخير، في أوقات كثيرة بحضرة حمزة الوراق في الوراقين، فسكت، وما رأني أهلاً للجواب؛ لكن الجبري غلام ابن طرارة هيَّجَه يوماً في الوراقين بمثل هذا الكلام، فاندفع فقال: الشريعة طبُّ المرضى، والفلسفة طبُّ الأصحاء، والأنبياء يُطبِّون للمرضى حتى لا يتزايد مرضهم، وحتى يزول المرض بالعافية فقط. فأما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يغيرهم مرضٌ أضلاً، فبين مدبر المريض ومدبر الصحيح فرقٌ ظاهر وأمرٌ مكشوف، لأن غاية مدبر المريض أن ينتقل به إلى الصحة، هذا إذا كان الدواء ناجعاً، والطبُّ قابلاً، والطبيب ناصحاً. وغاية مدبر الصحيح أن يحفظ الصحة، وإذا حفظ الصحة فقد أفادته كسب الفضائل، وفرَّغها لها، وعرضه لاقتنائها؛ وصاحب هذه الحال فائزٌ بالسعادة العظمى، ومتبوءٌ الدرجة العليا؛ وقد صار مستحقاً للحياة الإلهية، والحياة الإلهية من الخلود والديمومة والسرمدية.

فإن كَسَبَ من يبرأ من المرض بطبِّ صاحبه الفضائل أيضاً؛ فليست تلك الفضائل من جنس هذه الفضائل، لأنَّ إحداهما تقليدية، والأخرى برهانية؛ وهذه مظنونة، وهذه مستيقنة، وهذه رُوحانية، وهذه جسمية، وهذه دهرية، وهذه زمانية.

وقال أيضاً: إنَّما جَمَعنا بين الفلسفة والشريعة لأن الفلسفة معترفةٌ بالشريعة، وإن كانت الشريعة جاحدة لها؛ وإنَّما جَمَعنا أيضاً بينهما لأن الشريعة عامة، والفلسفة خاصة، والعامة قوامها بالخاصة، كما أن الخاصة تمامها بالعامة؛ وهما متطابقتان إحداهما على الأخرى، لأنها كالظاهرة التي لا بد لها من البطانة، وكالبطانة التي لا بد لها من الظاهرة.

فقال له الجريبي: أما قولك طِبُّ الْمَرَضِي وطِبُّ الْأَصْحَاءِ وما نَسَّفتَ عليه كلامك فَمَثَلٌ لا يعبر به غيرك ومن كان في مُشْكل، لأنَّ الطبيب عندنا الحاذق في طِبِّه هو الذي يجمع بين الأمرين، أعني أنه يُبرئ المريض من مَرَضه، ويحفظ الصحيح على صحته؛ فأما أن يكون هاهنا طبيبان يعالج أحدهما الصحيح، والآخرُ يعالج المريض، فهذا ما لم نَعهده نحن ولا أنت؛ وهو شيء خارج عن العادة، فَمَثَلُكَ مردودٌ عليك، وتشنيعُك فاضحٌ لك، وكلُّ أحدٍ يَعْلَمُ أن التدبير في حفظ الصحة ودفع المرض - وإن كان بينهما فَرْقٌ - واحد، فالطَّبُّ يجمعهما، والطبيب الواحدُ يقوم بهما وبشرائطهما.

وأما قولك في الفصل الثاني: إن إحدى الفضيلتين تقليدية، والأخرى برهانية، فكلامٌ مدخول، لأنك غلطت على نفسك؛ ألا تعلم أن البرهانية هي الواردة بالوحي، النازمة للرُّشد، الداعية إلى الخير، الواعدة بحسن المآب؛ وأنَّ التقليدية هي المأخوذة من المقدمة والنتيجة، والدعوى التي يُزَجَّع فيها إلى من ليس بحجة، وإنما هو رجلٌ قال شيئاً فوافقهُ آخَرُ وخالفهُ آخَرُ، فلا الموافقُ له يرجع إلى الوحي، ولا المخالف له يَسْتَنِدُ إلى حَقِّ؛ والعَجَبُ أنك جعلت الشريعة من باب الظنِّ، وهي بالوحي، وجعلت الفلسفة من باب اليقين، وهي من الرأي.

وأما قولك: هذه رُوحانية - تعني الفلسفة - وهذه جسمية - تعني الشريعة - فزُخْرَفَةٌ لا تَسْتَحِقُّ الجواب، ولمثل هذا فليعمل المُزخرفون؛ على أنا لو قلنا: بل الشريعة هي الرُوحانية، لأنها صَوْتُ الوحي، والوحي من الله عزَّ وجلَّ، والفلسفة هي الجسمية، لأنها برزت من جهة رجل باعتبار الأجسام والأعراض، وما هذا شأنه فهو بالجِسم أشبه، وعن لُطْفِ الرُّوح أبعد لما أبعدنا.

وأما قولك: الفلسفة خاصة والشريعة عامة، فكلام ساقط لا نُورَ عليه، لأنك تشير به إلى أن الشريعة يعتقدها قوم - وهم العامة - والفلسفة يَنْتَجِلُها قوم - وهم الخاصة - فلمَ جَمَعْتُم رسائل إخوان الصفاء ودعوتهم الناسَ إلى الشريعة وهي لا تَلْزَمُ إلا للعامة، ولمَ تقولوا للناس: مَنْ أَحَبَّ أن يكون من العامة فليَتَحَلَّ بالشريعة، فقد ناقضْتُم، لأنكم حَشَوْتُم مَقالَتكم بآياتٍ من كتاب الله تزعمون بها أن الفلسفة مدلولٌ عليها بالشريعة، ثم الشريعة مدلولٌ عليها بالمعرفة، ثم هأنت تذكر أن هذه للخاصة؛ وتلك للعامة؛ فلمَ جَمَعْتُم بين مَفْتَرِقَيْنِ، وفرقتُم بين مجتمعين؛ هذا والله الجهلُ المُبين، والخُزْقُ المُشين.

وأما قولك: إنا جمعنا بين الفلسفة والشريعة لأنَّ الفلسفة معترفةٌ بالشريعة، وإن كانت الشريعة جاحدةً للفلسفة، فهذه مناقضةٌ أخرى، وإني أظنُّ أن حَسَكَ كليل، وعفلكَ عليل، لأنك قد أوضحتَ عُذْرَ أصحاب الشريعة، إذ جَحَدُوا الفلسفة، وذلك أن الشريعة لا تُذْكرها، ولا تحضُّ على الدَيْئونة بها؛ ومع ذلك فليس لهم علمٌ بأنَّ

الفلسفة قد حُتَّتْ على قبول الشريعة، ونهت عن مخالفتها، وسمتها بالناموس الحافظ لصلاح العالم.

ثم قال الجريدي: حَدَّثَنِي أَبِيهَا الشَّيْخُ: على أي شريعة دلت الفلسفة؟ أعلى اليهودية، أم على النصرانية، أم على المجوسية، أم على الإسلام، أم على ما عليه الصابئون؟ فإن هاهنا من يتفلسف وهو نصراني كابن زُرعة وابن خَمَارٍ وأمثالهما، وهاهنا من يتفلسف وهو يهودي، كأبي الخير بن يعيش، وهاهنا من يتفلسف وهو مسلم، كأبي سليمان والثوشجاني وغيرهما، أفنقول إن الفلسفة أباحت لكل طائفة من هذه الطوائف أن تدين بذلك الدين الذي نشأت عليه؟ ودع هذا ليخاطب غيرك، فإنك من أهل الإسلام بالهندي والجيلة والمنشلي والوراثه؛ فما لنا لا نرى واحداً منكم يقوم بأركان الدين، ويتقيد بالكتاب والسنة يُراعي معالم الفريضة ووظائف النافلة؟ وأين كان الصنبر الأول من الفلسفة؟ أعني الصحابة، وأين كان التابعون منها؟ ولم خفي هذا الأمر العظيم - مع ما فيه من الفوز والنعيم - على الجماعة الأولى والثانية والثالثة إلى يومنا هذا وفيهم الفقهاء والزهاد والعباد وأصحاب الورع والتقوى، والناظرين في الدقيق ودقيق الدقيق وكل ما عاد بخير عاجل وثواب آجل، هيهات لقد أسررتكم الحسوة في الارتغاء^(١) واستقيمت بلا دلو ولا رشاء، ودللتكم على فسولتكم وضعف متيكم وأردتم أن تقيموا ما وضعه الله، وتضعوا ما رفعه الله، والله لا يُغالب؛ بل هو غالب على أمره، فعَلَّ لما يُريد.

قد حاول هذا الكيد خلق في القديم والحديث، فنكصوا على أعقابهم خائبين، وكُتِبُوا لوجوههم خاسرين؛ منهم أبو زيد البلخي؛ فإنه ادعى أن الفلسفة مُقاوِدة للشريعة^(٢)، والشريعة مشاكلة للفلسفة، وأن إحداهما أم والأخرى ظئر، وأظهر مذهب الزيدية، وأنقاد لأمير خراسان الذي كتب له أن يعمل في نشر الفلسفة بشفاعته الشريعة، ويدعو الناس إليها باللطف والشفقة والرغبة، فشئت الله كلمته، وقوَّض دعامته، وحال بينه وبين إرادته، ووكله إلى حوله وقوته، فلم يتم له من ذلك شيء.

وكذلك رام أبو تمام النيسابوري، وخدم الطائفة المعروفة بالشيعة ولجأ إلى مطرف بن محمد وزير مرداويج الجيلي ليكون له به قوة، وينطق بما في نفسه من هذه الجملة، فما زادته إلا صغراً في قدره، ومهانة في نفسه، وتوارياً في بيته.

وهذا بعينه قصد العامري فما زال مطروداً من صقع إلى صقع يُنذر دمه ويُرصد

(١) الارتغاء أخذ الرغوة، وهذا مثل يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد خلافه أو لمن يظهر طلب القليل وهو يريد الكثير.

(٢) أي مساوقة لها، وفي نسخة «مقارنة».

قتله، فمرة يتحصن بفناء ابن العميد، ومرة يلجأ إلى صاحب الجيش بنيسابور، ومرة يتقرب إلى العامة بكتب يصنفها في نصرة الإسلام، وهو على ذلك يتهم ويُقرب بالاحداد؛ ويقدم العالم والكلام في الهَيُولَى والصورة والزمان والمكان، وما أشبه هذا من ضروب الهديان التي ما أنزل الله بها كتابه، ولا دعا إليها رسوله، ولا أفاضت فيها أمته.

ومع ذلك يُناغي صاحب كل بدعة؛ ويجلس إليه كل متهم؛ ويلقي كلامه إلى كل من ادعى باطناً للظاهر وظاهراً للباطن.

وما عندي أن الأئمة الذين يأخذ عنهم ويقتبس منهم، كأرسطوطاليس وسقراط وأفلاطون، رهط الكفر ذكروا في كتبهم حديث الظاهر والباطن، وإنما هذا من نسج القداحين في الإسلام، الساترين على أنفسهم ما هم فيه من التهم؛ وهذا بعينه دبره الهجريون بالأمس، وبهذا دندن الناجمون بقزوين وبثوا الدعاة في أطراف الأرض، وبدلوا الرغائب وفتنوا النفوس.

وقد سمعنا تأويلات هذه الطوائف لآيات القرآن في قوله عز وجل: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي تِلْكَ شُجْبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠] وفي قوله تعالى: ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] وفي قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشْرَ﴾ [المدثر: ٣٠] وفي قوله تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ إِبْتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] إلى غير ذلك مما يطول^(١) ويعول فدعونا من التورية والحيلة والإيهام والكناية عن شيء لا يتصل بالإرادة، والإرادة لشيء لا يتصل بالصریح، فالناس أنقذ لأديانهم وأخرص على الظفر ببغيتهم من الصبارفة لدنانيرهم ودراهمهم.

فلما انبهَرَ المقدسي بما سمع وكاد يتفري إهابه من الغيظ والعجز وقلة الحيلة قال: الناس أعداء ما جهلوا، ونشر الحكمة في غير أهلها يورث العداوة ويطرخ^(٢) الشحنة ويقدح زئد الفتنة.

ثم كَرَّ الجريُّ كَرَّ المِذْلُ وعطف عطفة الواثق بالظفر، فقال: يا أبا سليمان، من هذا الذي يَقْرُ منكُم أن عصا موسى انقلبت حية، وأن البحر انقلق، وأن يداً حرجت بينضاء من غير سوء، وأن بشراً خلق من تراب، وأن آخر ولدته أنثى من غير ذكر، وأن ناراً موجهة طرح فيها إنسان فصارت له برداً وسلاماً، وأن رجلاً مات مائة عام ثم بعث فنظر إلى طعامه وشرابه على حالئهما لم يتغيرا، وأن قبراً تفقأ عن ميته حيي، وأن طيناً دبر^(٣) فنفيخ فيه فطار، وأن قمراً انشق، وأن جذعاً حن، وأن ذنباً

(١) من عال الشيء فلاناً إذا ثقل عليه وغلبه وأهمه.

(٢) أي يلقيها في القلوب.

(٣) أي صنع كهيئة الطير.

تكلم، وأن ماء نَبَعٍ من أصابع فرّوي منه جيشٌ عظيم، وأنَّ جماعةً شَبَعَتْ من ثريدةٍ في قَدْرٍ جِسمِ قَطَاةٍ؟

وعلى هذا، إن كنتم تدعون إلى شريعة من الشرائع التي فيها هذه الخوارق والبِدائع فاعترفوا بأنَّ هذه كلها صحيحة ثابتة كائنة لا ريبَ فيها ولا مزية، من غير تأويل ولا تدليس، ولا تعليل ولا تلبس، وأعطونا خطكم بأنَّ الطبائع تفعل هذا كله، والموادُّ تواتي له، واللّه تعالى يفدر عليه؛ ودعوا التورية والحيلة والغيلة^(١) والظاهر والباطن، فإنَّ الفلسفة لئست من جنس الشريعة، ولا الشريعة من فنِّ الفلسفة، وبينهما يزمي الرامي ويهجمي الهامي؛ على أنّا ما وجدنا الديانين من المتألهين من جميع الأديان يذكرون أنّ أصحاب شرائعهم قد دعوا إلى الفلسفة وأمروا بطلبها واقتباسها من اليونانيين هذا موسى وعيسى وإبراهيم وداود وسليمان وزكريا ويحيى إلى محمد - ﷺ - لم نَحَقَّ مَنْ يعزو إليهم شيئاً من هذا الباب، ويُعلّق عليهم هذا الحديث.

قال الوزير: ما عجبني من جميع هذا الكلام إلا من أبي سليمان في هذا الاستخفار والتعصب، والاحتشاد والتعصب؛ وهو رجل يعرف بالمنطقي، وهو من غلمان يحيى بن عديّ النصراني، ويقرأ عليه كتب يونان، وتفسير دقائق كتبهم بغاية البيان.

فقلت: إنّ أبا سليمان يقول: إن الفلسفة حقٌّ لكتنها ليست من الشريعة في شيء، والشريعة حقٌّ لكتنها لئست من الفلسفة في شيء، وصاحب الشريعة مبعوث، وصاحب الفلسفة مبعوث إليه، وأحدهما مخصوص بالوحي، والآخر مخصوص ببخه، والأول مكفي، والثاني كادح، وهذا يقول: أمرتُ وعلمتُ، وقيل لي، وما أقول شيئاً من تلقاء نفسي؛ وهذا يقول: رأيتُ ونظرتُ واستحسنْتُ واستقبحتُ؛ وهذا يقول: نور العقل أهدي به؛ وهذا يقول: معي نور خالق الخلق أمشي بضيائه؛ وهذا يقول: قال الله تعالى، وقال الملك؛ وهذا يقول: قال أفلاطن وسقراط؛ ويسمع من هذا ظاهر تنزيل، وسائغ تأويل، وتحقيق سنة، واتفاق أمة؛ ويسمع من الآخر الهولولي والصورة والطبيعة والأسطقس والذاتي والعرضي والأيسي والليني، وما شاكل هذا ممّا لا يسمع من مسلم ولا يهودي ولا نصراني ولا مجوسي ولا مانوي.

ويقول أيضاً: من أراد أن يتفلسف فيجب عليه أن يعرض بنظره عن الديانات، ومن اختار التدبّر فيجب عليه أن يعرّد^(٢) بعنايته عن الفلسفة ويتحلّى بهما مُتفرّقين في مكانين على حالين مختلفين، ويكون بالدين مُتقرباً إلى الله تعالى، على ما أوضحه له صاحب الشريعة عن الله تعالى، ويكون بالحكمة مُتصفحاً لقدرة الله تعالى في هذا العالم الجامع للزينة الباهرة لكل عين، المُخيرة لكل عقل، ولا يهدم أحدهما بالآخر.

(١) الخديعة.

(٢) ينكب ويحيد.

أعني لا يَجْحَدُ ما ألقى إليه صاحبُ الشريعة مُجْمَلًا ومُفَصَّلًا، ولا يَغْفُلُ عما استخزن الله تعالى هذا الخلق العظيم على ما ظهر بقدرته، واشتمل بحكمته، واستقام بمشيئته، وانتظم بإرادته واستتم بعلمه؛ ولا يغترض على ما يتبع في عقله ورأيه من الشريعة، وبدائع آيات النبوة بأحكام الفلسفة، فإنَّ الفلسفة مأخوذة من العقل المقصور على الغاية، والديانة مأخوذة من الوحي الوارد من العلم بالقُدرة.

قال: ولعمري إنَّ هذا صعب، ولكنه جماع الكلام، وأخذ المستطاع، وغاية ما عرّض له الإنسان المؤيد باللطائف، المراح بالعلل وبضروب التكليف.

قال: ومن فضل نعمة الله تعالى على هذا الخلق أنه نهج لهم سبيلين ونصب لهم علمين، وأبان لهم نجدين^(١) ليصلوا إلى دار رضوانه إما بسلوكهما وإما بسلوك أحدهما.

فقال له البخاري: فهلا دلَّ الله على الطريقين اللذين رسمتهما في هذا المكان؟

قال: دلَّ وبَيَّن، ولكنك عم، أما قال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾

[العنكبوت: ٤٣] وفي فحوى هذا وما يعلمها إلا العالمون؟ فقد وصل العقل بالعلم،

كما وصل العلم بالعقل، لأن كمال الإنسان بهما، ألا ترى أن العاقل متى عُرِّي من

العلم قلَّ انتفاعه بعقله؟ كذلك العالم متى خُلِّي من العقل بطل انتفاعه بعلمه، أما قال:

﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَ الْأَلْبَابِ﴾؟ [البقرة: ٢٦٩] أما قال: ﴿فَاعْتَرُوا بِتَأْوِيلِ الْأَبْصَرِ﴾؟

[الحشر: ٢] أما قال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ﴾؟ [النساء: ٨٢] أما ذمَّ قوما حين قال:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾؟ [الروم: ٧] أفما قال: ﴿أَوْ مَن كَانَ

مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا!﴾

[الأنعام: ١٨] أما قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا

مُعْرِضُونَ﴾؟ [يوسف: ١٠٥] أما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ

سَاهِدٌ﴾؟ [ق: ٣٧] وكتاب الله عز وجل محيط بهذا كله، وإنما تقاد إلى طاعة

رسوله ﷺ بعد هذا فيما لا يناله عقلك، ولا يبلغه ذهنك، ولا يعلم إليه فكرك،

فأمرك باتباعه والتسليم له، وإنما دخلت الآفة من قوم دهريين مُلجدين ركبوا مطية

الجدل والجهل، ومالوا إلى الشغب بالتعصب، وقابلوا الأمور بتحسينهم وتقييحهم

وتهجينهم، وجعلوا أن وراء ذلك ما يفوت ذرعهم، ويتخلف عن لحاقه رأيهم

ونظرهم، ويغمي دون كنه ذلك بصرهم؛ وهذه الطائفة معروفة، منهم صالح بن

عبد القدوس، وابن أبي العوجاء، ومطر بن أبي الغيث، وابن الراوندي،

والصيمري، فإن هؤلاء طاحوا في أودية الضلالة، واستجروا إلى جهلهم أصحاب

الخلاعة والمجانة.

(١) يشير إلى العقل والعلم.

فقال البخاري: فما الذي تركت بهذا الوصف للذين جمعوا بين الفلُسفة والديانة؛ ووصلوا هذه بهذه على طريق الظاهر والباطن، والخفي والجلي، والبادي والمكتوم؟

قال: تركت لهم الطويل العريض، القوم زعموا أن الفلُسفة مُواطئةٌ للشريعة، والشريعة مُوافقةٌ للفلُسفة؛ ولا فَرْق بين قول القائل: قال النبي، وقال الحكيم، وأنَّ أفلاطن ما وضع كتابَ التَّواميس إلا لتعلم كيف نقول؟ وبأي شيء نبحت، وما الذي نُقدِّم ونؤخِّر، وأن الثبوة فرغ من فروع الفلسفة، وأن الفلسفة أصل علم العالم، وأنَّ النبي محتاجٌ إلى تَمِّيم ما يأتي به من جهة الحكيم، والحكيم غني عنه؛ هذا وما أشبهه؛ وأنَّ صاحب الدين له أن يُعيِّن ويورِّي ويُشير ويُكثِّي حتَّى تتم المصلحة، وتنتظم الكلمة، وتتفق الجماعة، وتثبت السُّنة، وتحلوا المعيشة، وحتى قال قائل منهم: «أوائل الشريعة أمورٌ مُبتدعة، ووسائطها سننٌ مُتَّبعة، وأواخرها حُقوقٌ منتزعة» وأين هذا النعت من قولي: «إنَّ الشريعة إلهية، والفلسفة بشرية»، أعني أن تلك بالوحي، وهذه بالعقل، وأنَّ تلك موثوقٌ بها ومُطمأنٌّ إليها، وهذه مشكوكٌ فيها مضطربٌ عليها.

قال له البخاري: فلمَ لم ينهج صاحبُ الشريعة هذه الطريق، وكان يزول هذا الخصام، وينتفي هذا الظن، وتكسد هذه السوق؟

فقال: إن صاحبَ الشريعة مستغرقٌ بالنور الإلهي، فهو محبوس على ما يراه ويُبصره، ويجده وينظره، لأنه مأخوذ بما شهده بالعيان وأذركه بالحس وناله بوديعة الصدر عن كل ما عداه، فلهذا يدعو إلى اقتباس كماله الذي حصل له، ولا يسعد بدعوته إلا من وفق لإجابته، وأذعن لطاعته، واهتدى بكلمته، والفلسفة كمال بشري، والدين كمال إلهي، والكمال الإلهي غني عن الكمال البشري، والكمال البشري فقيرٌ إلى الكمال الإلهي، فهذا هذا، وما أمر الله عز وجل بالاعتبار، ولا حث على التدبر، ولا حرَّك القلوب إلى الاستنباط، ولا حبَّب إلى القلوب البحث في طلب المكنونات، إلا ليكونَ عبادة حُكماء ألباء أتقياء أذكياء، ولا أمرَ بالتسليم ولا حَظَرَ العُلُو والإفراط في التعمق إلا ليكونَ عبادة لاجئين إليه متوكِّلين عليه، مُغتصمين به، خائفين منه، راجين له، يدعونه خوفاً وطمعاً، ويعبُدونه رعباً ورهباً، فيبين ما بين حرصاً على معرفته وعبادته، وطاعته وخدمته، وأخفى ما أخفى لتدوم حاجتهم إليه، ولا يقع الغنى عنه، وبالحاجة يقع الخضوع والتجرد، وبالاستغناء يعرض التَّجبر والتمرد؛ وهذه أمورٌ جاريةٌ بالعادة، وثابتة بالسيرة الجائرة والعادة؛ ولا سبيل إلى دفعها ورَفْعها وإنكارها وجحدها، فلهذا لزم كلُّ من أدرك بعقله شيئاً أن يتممَّ نقصه بما يجده عند من أدرك ما أدرك بوحي من ربه.

وقال أيضاً: مما يُؤكِّد هذه الجملة أنَّ الشريعةَ قد أتتْ عَلَى مَعْقُولٍ كثير، بنور الوحي المنير، ولم تأتِ الفَلَسْفَةُ على شَيْءٍ من الوحي لا كثيرٍ ولا قليلٍ.

قال: ولَيْسَ لِيُونَانَ نَبِيٌّ يُعْرَفُ، ولا رسولٌ من قِبَلِ اللَّهِ صادق، وإنما كانوا يَفْرَعُونَ إلى حُكْمائِهِمْ في وَضْعِ ناموسٍ يَجْمَعُ مِصَالِحَ حَيَاتِهِمْ ونِظَامَ عَيْشِهِمْ وَمِنَافِعَ أحوالِهِمْ في عَاجِلَتِهِمْ، وكانت ملوكُهُمْ تُحِبُّ الحِكمةَ وتؤثِّرُ أَهْلَهَا، وتَقْدُمُ من تَحَلَّى بِجِزءٍ من أَجْزَائِهَا، وكان ذلك الناموسُ يُعْمَلُ به وَيُرْجَعُ إِلَيْهِ، حتى إذا أَبْلَاهُ الزمانُ، وَأَخْلَقَهُ اللَّيْلُ والنَّهارُ، عادوا فوَضَعُوا ناموساً آخَرَ جَدِيداً بِزِيادَةِ شَيْءٍ على ما تَقَدَّمَ أو نَقْصانٍ، على حَسَبِ الأحوالِ الغالبةِ على الناسِ، والمغلوْبَةِ بينَ الناسِ، ولهذا لا يُقالُ: إن الإسْكَندَرَ في أيامِ مُلْكِهِ حينَ سارَ من المِغْرِبِ إلى المِشْرِقِ كانت شريعتهُ كذا وكذا، وكان يذْكَرُ نَبِيّاً يُقالُ له: فلان، أو قال: أنا نَبِيٌّ، ولقد وَاقَعَ داراً وَغَيْرَهُ من المِلكِ على طَريقِ الغَلْبَةِ في طَلَبِ المُلْكِ، وحيَازَةِ الدِيَارِ وَجِبايَةِ الأموالِ والسَّنْبِي والغارةِ، ولو كان للنبوَةِ ذِكرٌ ولِلنَبِيِّ حَدِيثٌ لكانَ ذلكَ مشهوراً مذكوراً، ومؤرَّخاً معروفاً.

قال الوزير: هذا كلامٌ عَجيبٌ ما سمعتُ مثله على هذا الشرح والتفصيل!

قلت: إن شَيْخَنَا أبا سُلَيْمانَ غَزِيرُ البِحرِ، واسعَ الصِدرِ، لا يُعَلِّقُ عَلَيْهِ في الأُمُورِ الرُّوحانِيَةَ والأَنْبَاءَ الإلهِيَةَ والأسرارَ الغَيْبِيَةَ، وهو طَوِيلُ الفِكرَةِ، كثيرُ الوَحْدَةِ، وقد أُوتِيَ مِزاجاً حَسَنَ الاعتدالِ، وخاطراً بَعِيدَ المَنالِ، ولساناً فَسِيحَ المِجالِ، وطَريقَتَهُ هذه التي اجْتَبَاهَا مَكْتَنَفَةً بِمِعارِضاتٍ واسعةٍ، وَعَلَيْهَا مَدَاحِلُ لِحْصَمائِهِ، وليس يَفِي كُلُّ أَحَدٍ بِتَلْخِيصِهِ لَهَا، لأنَّهُ قد أَفْرَزَ الشَّرِيعَةَ من الفِلسَفَةِ، ثم حَتَّ على اتِحالِهما معاً، وهذا شِيبَةٌ بِالمِناقِضَةِ. وقد رَأَيْتُ صاحِباً لِمُحَمَّدِ بنِ زَكَرِياءِ في هذه الأيَّامِ وَرَدَ من الرِّيِّ يُقالُ له: أبو غانِمِ الطَّبِيبِ، يُشادُّه في هذا المَوْضِعِ وَيُضايِقُهُ، وَيُلزِمُهُ القَوْلَ بما يُنْكَرُهُ على الخِصْمِ، وإذا أَذِنْتَ رَسَمْتُ كِلامَهُما في ورقاتٍ.

فقال الوزير: قد بان الغرضُ الذي رَمَى إِلَيْهِ، وتَقَلَّبُ بِهِ بِالْجِدْلِ لا يَزِيدُهُ إلا إِغْلاقاً، والقِصْدُ مَعروفٌ، والوَقُوفُ عَلَيْهِ كافٍ، ومع هذا فَلَيْتَ حَظَّنَا مِنْهُ كانَ يَتَوفَّرُ بِالتَّلَاقِيِ والِاجْتِماعِ، لا بِالرِوايَةِ والسَّماعِ، هاتِ فَائِدَةَ الوِداعِ، فَقَدْ بَلَغْتَ في المِؤانِسةِ غايَةَ الإِمْتاعِ.

قلت: أكره أن أختتم مثل هذه الفِقرِ الشريفة بما يشبه الهزلَ وينافي الجِدَّ، فإن أَذِنْتَ رَوَيْتُ ما يَكُونُ أساساً وِدْعامَةً لما تَقَدَّمَ.

قال: هاتِ ما أَحَببْتَ، فما عَهَدْنَا مِنْ رِوايَتِكَ إلا ما يَشوقُنَا إلى رِؤيتِكَ.

قلت: قال ابن المَقْفَعِ: عَمِلَ الرِّجْلُ بما يَعْلَمُ أَنَّهُ خَطَأٌ هَوَى، والهوى آفَةٌ العِفافِ، وَتَرَكَهُ العَمَلُ بما يَعْلَمُ أَنَّهُ صِوابٌ تَهاوَنَ، وَالتَّهاوُنُ آفَةٌ الدِّينِ، وإِقْدامُهُ على ما لا يَعْلَمُ أَصوابٌ هو أَمُّ خَطَأٍ لِحْجاجِ، وَالتَّلْجاجُ آفَةٌ الرِّايِ.

فقال - حَرَسَ اللَّهُ نَفْسَهُ -: ما أَكْثَرَ رَوْتَقَ هَذَا الْكَلَامِ! وما أَعْلَى رُتْبَتِهِ فِي كُنْهَ الْعَقْلِ! اكْتُبْهُ لَنَا، بَلِ اجْمَعْ لِي جُزْءاً لَطِيفاً مِنْ هَذِهِ الْفِقْرِ، فَإِنَّهَا تُرَوِّحُ الْعَقْلَ فِي الْفَيْئَةِ بَعْدَ الْفَيْئَةِ، فَإِنَّ نَوْرَ الْعَقْلِ لَيْسَ يَشْعُ فِي كُلِّ وَقْتٍ؛ بَلِ يَشْعُ وَيَبْرُقُ مَرَّةً، فَإِذَا شَعَّ عَمَّ نَفْعُهُ، وَإِذَا بَرَقَ خَصَّ نَفْعُهُ وَإِذَا خَفِيَ بَطَلَ نَفْعُهُ.

قلت: أَفْعُلُ. فقال: إِنْ كَانَ مَعَكَ شَيْءٌ آخَرَ فَادْكُرْهُ، فَإِنَّ الْحَدِيثَ الْحَسَنَ لَا يُمَلُّ، وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ، فَإِنَّهُ قِيلَ لَهُ: أَتَمَلُّ الْحَدِيثَ؟ قَالَ: إِنَّمَا يُمَلُّ الْعَتِيقُ. قَالَ: صَدَقَ خَالِدٌ، إِنَّ الْحَدِيثَ لَا يُمَلُّ مِنَ الزَّمَانِ إِلَّا فِيمَا يَلِيهِ، وَإِلَّا فَكَيْفَ يُمَلُّ فِي أَوَّلِ زَمَانِهِ وَفَاتِحَةِ أَوَانِهِ، وَإِنَّمَا الْمَلَلُ يَغْرِضُ بِتَكَرُّرِ الزَّمَانِ وَضَجْرِ الْجِسِّ وَنِزَاعِ الطَّبَعِ إِلَى الْجَدِيدِ، وَلِهَذَا قِيلَ: لِكُلِّ جَدِيدٍ لَذَّةٌ.

فحكيتُ أَنَّهُ لَمَّا تَقَلَّدَ كَسِيرَى أَنْوَشِرْزَوَانَ مَمْلَكَتَهُ عَكَّفَ عَلَى الصُّبُوحِ وَالْعَبُوقِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ وَزِيرُهُ رُقْعَةً يَقُولُ فِيهَا: إِنَّ فِي إِدْمَانِ الْمَلِكِ ضَرراً عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَالْوَجْهُ تَخْفِيفُ ذَلِكَ وَالنَّظَرُ فِي أُمُورِ الْمَمْلَكَةِ. فَوَقَّعَ عَلَى ظَهْرِ الرُّقْعَةِ بِالْفَارْسِيَّةِ بِمَا تَرَجَمْتُهُ: يَا هَذَا، إِذَا كَانَتْ سُبُلُنَا آمِنَةً، وَسِيرَتُنَا عَادِلَةً، وَالدُّنْيَا بِاسْتِقَامَتِنَا عَامِرَةً، وَعُمَّالُنَا بِالْحَقِّ عَامِلَةٌ، فَلِمَ نَمْنَعُ فَرِحَةً عَاجِلَةً؟

قال: مِنْ حَدَّثِكَ بِهَذَا؟ قلت: أَبُو سَلِيمَانَ شَيْخِنَا، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ رِضَاهُ عَنِ هَذَا الْمَلِكِ فِي هَذَا الْقَوْلِ؟

فقلت: اعْتَرَضَ فَقَالَ أَخْطَأَ مِنْ وَجْهِهِ، أَحَدُهَا أَنْ الْإِدْمَانَ إِفْرَاطٌ، وَالْإِفْرَاطُ مَذْمُومٌ؛ وَالْآخَرُ أَنَّهُ جَهْلٌ أَنْ أَمَّنَ السَّبِيلَ وَعَدَلَ السَّيْرَةَ وَعَمَّارَةَ الدُّنْيَا وَالْعَمَلَ بِالْحَقِّ مَتَى لَمْ يُوَكَّلْ بِهَا الطَّرْفُ السَّاهِرَ وَلَمْ تُحَظَّ بِالْعِنَايَةِ التَّامَّةِ، وَلَمْ تُحْفَظْ بِالْإِهْتِمَامِ الْجَالِبِ لِدَوَامِ النِّظَامِ، دَبَّ إِلَيْهَا النِّقْضُ وَالتَّقْصُ بِأَبِّ لِلانْتِقَاضِ، مُزَعِنٌ لِلدُّعَامَةِ. وَالْآخَرُ أَنَّ الزَّمَانَ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يُبْدَلَ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالتَّلَذُّذِ وَالتَّمَتُّعِ، فَإِنْ فِي تَكْمِيلِ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ بِاكتِسَابِ الرُّشْدِ لَهَا وَإِعَادِ الْعَيْيِ عَنْهَا مَا يَسْتَوْعِبُ أَضْعَافَ الْعُمُرِ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْعُمُرُ قَصِيراً، وَكَانَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الْهَوَى كَبِيراً؟! وَالْآخَرُ أَنَّهُ ذَهَبَ عَلَيْهِ أَنَّ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ إِذَا وَقَفَتْ عَلَى اسْتِهْتَارِ الْمَلِكِ بِاللَّذَاتِ، وَانْهَمَاكِهَ فِي طَلَبِ الشَّهَوَاتِ، أَزْدَرَّتْهُ وَاسْتِهَانَتْ بِهِ؛ وَحَدَّثَتْ عَنْهُ بِأَخْلَاقِ الْخَنَازِيرِ وَعَادَاتِ الْحَمِيرِ، وَاسْتِهَانَةُ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ بِالنَّاظِرِ فِي أَمْرِهَا وَالْقِيَمِ بِشَأْنِهَا مَتَى تَكَرَّرَتْ عَلَى الْقُلُوبِ تَطَرَّقَتْ إِلَى اللِّسَانِ، وَانْتَشَرَتْ فِي الْمَحَافِلِ، وَالتَّقَتَّ بِهَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَهَذِهِ مَكْسَرَةٌ لِلْهَيْبَةِ، وَقَلَّةٌ الْهَيْبَةُ رَافِعَةٌ لِلْحَشْمَةِ، وَارْتِفَاعُ الْحَشْمَةِ بَاعَثَ عَلَى الْوَتْبَةِ، وَالْوَتْبَةُ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ مِنَ الْهَلِكَةِ؛ وَمَا خِلا الْمَلِكِ مِنْ طَامِعٍ رَاصِدٍ قَطُّ وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ الْحَازِمِ أَنْ يَظُنَّ أَنَّهُ لَا ضِدَّ لَهُ وَلَا مُنَازِعَ، وَقَدْ يَنْجُمُ الضِّدُّ وَالْمُنَازِعُ

من حيث لا يحتسب، وما أكثرَ حَجَلِ الوائق! وما أقلَّ حَزَمِ الوامِق! وما أقلَّ يَقْظَةَ المائق^(١)!

ثم قال: وعلى الضدِّ متى كان السائسُ ذا تحفُّظٍ وبحثٍّ، وتتبعُ وحزمٍ وإكبابٍ على لَمِّ الشَّعْبِ وتقويمِ الأودِ وسدِّ الخللِ وتعرُّفِ المجهولِ وتحقُّقِ المعلومِ ورفعِ المنكرِ وبثِّ المعروفِ، احترستُ منه العامةُ والخاصَّةُ، واستشعرتُ الهيبةَ، والتزمتُ بينها النَّصْفَةَ، وكُفِّيتُ كثيراً من مُعاناتها ومراعاتها، وإن كان للدَّولةِ راصدٌ للغرةِ يئسَ من نُفوذِ الحيلةِ فيها، لأنَّ اللَّصَّ إذا رأى مكاناً حصيناً وعهدَ عليه حُرَّاساً لم يحدثِ نفسه بالتعرُّضِ له، وإنما يقصدُ قَصراً فيه ثُلْمَةٌ، وباباً إليه طريق، والأعراضُ بالأسبابِ، وإذا ضَعُفَ السَّببُ ضَعُفَ العَرَضُ، وإذا انقطعَ السَّببُ انقطعَ العَرَضُ.

فقال - أدام اللهُ أيامه -: هذا كلامٌ كافٍ شافٍ. وقال بعد ذلك: حدَّثني عما تسمعُ من العامةِ في حديثنا.

قلت: سمعتُ (باب الطَّاقِ) قوماً يقولون: اجتمع الناسُ اليومَ على الشُّطِّ، فلما نزل الوزير ليركبَ المركبَ صاحوا وضحوا وذكروا غلاءَ القوتِ وعوزَ الطعامِ وتعذَّرَ الكسبِ وغلبتْ الفقرُ وتهتَّكُ صاحبِ العيالِ، وأتته أجابهم بجوابٍ مرٌّ مع قُطوبِ الوجه وإظهارِ التبرمِ بالاستغاثة: بعدُ لم تأكلوا الثُّخالةَ.

فقال: واللَّهِ ما قلتُ هذا، ولا خَطَرَ لي على بالِ، ولم أقابلَ عامَّةً جاهلةً ضعيفةً جائعةً بمثلِ هذه الكلمةِ الحَشْناءِ، وهذا يقوله من طرحِ الشَّرِّ وأحبِّ الفسادِ وقصدِ الشُّنيعِ عَلَيَّ والإيحاشِ مِنِّي، وهو هذا العدوُّ الكلبُ، «يعني ابنُ يوسف» كفاني اللهُ شرَّه، وشغله بنفسه، ونكسَ كيدَه على رأسه؛ واللَّهِ لأنظرنَّ لها وللفقراءِ بمالِ أُطلِّقُه من الخِزانةِ، وأرسمُ ببيعِ الخبزِ ثمانيةِ بدرهمٍ، ويصلُ ذلك إلى الفقراءِ في كلِّ مَحَلَّةٍ على ما يذكرُ شيخُها، ويبيعُ الباقونَ على السَّعْرِ الذي يَقومُ لهم، ويشترية الغنيُّ الواجدُ؛ ففعل ذلك - أحسنَ اللهُ جزاءَهُ - على ما عرفتُ وشاهدتُ، وأبلغتُه بنشرِ الدعاءِ له في الجوامعِ والمجامعِ بطولِ البقاءِ ودوامِ العلاءِ وكبَّتِ الأعداءُ ونضِرِ الأولياءِ.

ثم كتبتُ جزءاً من الفِقْرِ على ما رَسَمَ من قَبْلِ، فلماً أوصلتُه إليه قال لي: اقرأ، فقرأته عليه، فقال: صلِّ هذا الجزءَ بجزءِ آخرَ من حديثِ النبي - ﷺ - والصحابَةِ وبيجزءٍ من الشُّعْرِ، وبشيءٍ من معاني القرآنِ، فإنه متقدِّمٌ على كلِّ شيءٍ بحسبِ ما رفعَ اللهُ من خطره، وأحوجَ إلى فهمه، ونَدَبَ إلى العملِ به، وأثابَ على التَّفكُّرِ فيه والتعجُّبِ منه.

وَعَظَّ^(١) رَجُلٌ مِنْ (جُهَيْنَةَ) (عمرو بن العاص) فِي قِصَّةِ الْحُكُومَةِ، فَقَالَ عَمْرُو لَهُ: مَا أَنْتَ وَذَلِكَ يَا تَيْسَ جُهَيْنَةَ؟ فَوَاللَّهِ مَا يَنْفَعُكَ الْحَقُّ، وَلَا يَضُرُّكَ الْبَاطِلُ، فَاسْكُتْ فَإِنَّ الظُّلْفَ لَا يَجْرِي مَعَ الْخَفِّ.

وقال بعض الحكماء: إِنَّ المُدُنَ تُبْنَى عَلَى الْمَاءِ وَالْمَرْعَى وَالْمُحْتَطَبِ وَالْحَصَانَةِ.
وقال الشاعر:

لَا حَ سُهَيْلٌ فِي الظَّلَامِ الدَّامِسِ كَأَنَّهُ نَارٌ بِكَفِّ الْقَابِيسِ
قال ربيعةُ بنِ عامرِ بنِ مالكِ في عمرو بنِ الإطنابة - حينَ دَفَعَ أُخْتَهُ وَأَخَذَ أَخَاهُ
وكانَ أسيراً في قومه، وَجَعَلَ دَفَعَ أَخِيهِ إِلَيْهِ صِدَاقَ أُخْتِهِ، وَهُوَ الَّذِي تَسْمِيهِ الْعَرَبُ
المِساهاةَ -: فَقَدَّ حَزْمِي الَّذِي هُدَيْتُ لَهُ، وَعَزَمِي الَّذِي أُرْشِدْتُ إِلَيْهِ. وقال الشاعر:

وَسَاهَى بِهَا عَمْرُو وَرَاعَى إِفْأَلَهُ فَزَيْدٌ وَتَمْرٌ بَعْدَ ذَلِكَ كَثِيرٌ
وكانت دِيَّةُ الْعَرَبِيِّ مِائَةَ وَسَقِ، وَدِيَّةُ الْهَجِينِ خَمْسِينَ وَسَقاً، وَدِيَّةُ الْمُؤَلَى عَشْرَةَ أَوْسُقٍ؛
وكانت الْعَرَبُ تَجْعَلُ دِيَّةَ الْمُعَمِّمِ الْمُخَوَّلِ مِائَةَ بَعِيرٍ، وَدِيَّةَ الْمُؤَلَى خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ بَعِيرًا.

وقال جرير:

رَأَيْتُ بَنِي نُبُهَانَ أَذْنَابَ طَيِّئِ
تَرَى شَرَطَ^(٢) الْمِعْزَى مُهَوَّرَ نَسَائِهِمْ
وقال خالدُ بنُ جعفرِ بنِ كِلابٍ:
بَلْ كَيْفَ تَكْفُرُنِي (هُوَازُنٌ) بَعْدَمَا
وَقَتَلْتُ رَبَّهُمْ زُهَيْرًا بَعْدَمَا
وَجَعَلْتُ مَهْرَ نَسَائِهِمْ وَدِيَاتِهِمْ
وقال جندلُ بنُ صَخْرٍ، وَكَانَ عَبْدًا:
وَمَا فَكُّ رِقِّي ذَاتُ دَلِّ خَدْلَجٍ
وَلَكِنْ نَمَانِي كُلُّ أَبِيضٍ خِضْرَمٍ
وَقَتَلَ الْكَلْبِيُّ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الْجَوْشَنِ الْعَطْفَانِيَّ بِقَتْلِهِ ابْنَةَ الْجَرَّاحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ
(رَوَّادًا) وَكَانُوا عَرَضُوا عَلَيْهِ الدِّيَّةَ، فَقَالَ:

شَفَيْتُ بِرَوَّادٍ غَلِيلاً وَجَدُّهُ
أَلَا لَيْتَ قَبْرًا بَيْنَ أَدْمِي وَمُطَرِّقٍ
على القلبِ مِنْهُ مُسْتَسْرٌّ وَظَاهِرٌ
يُحَدِّثُهُ عَنِّي الْأَحَادِيثَ خَابِرٌ

(١) ربما هذه الفقر في ليلة أخرى غير الليلة السابعة عشرة المتقدمة.

(٢) أي صغارها.

- وقالوا نأديه من أبيه ونفتدي فقلت: كريم ما تأديه الأباعر
ألم تر أن المال يذهب دثره وتغبر أقوال وتبقى المعايير
أدمي ومطرق: غديران بين فلك وبلاد طييء.
- سئلت ابنة الخس هل يلقح البازل^(١)؟ قالت: نعم وهو رازم، أي وإن كان لا
يقدر على القيام من الضعف والهزال. يقال: جمل بازل وناقاة بازل، ويقال: ضربته
فبركته إذا أبركته، وتبركع، ويقال: شم لي هذه الإبل، أي انظر لي خبرها.
- ويقال لولد كل بهيمة إذا ساء غذاؤه: ججن ومُحثل وجذع، وكل ما عُذي بغير
أمه يقال له: عجي، وكذلك الجحن والوغل والسغل كله السيئ الغذاء.
- سئل النبي ﷺ عن ضالة الإبل، فقال: «مالك ولها؟ معها حداؤها وسقاؤها ترد
الماء وتأكُل من الشجر حتى يأتيها ربها».
- سئل - عليه السلام - عن ضالة الغنم، فقال: هي لك أو لأخيك أو للذئب.
- قيل له عليه السلام: فاللقطة؟ قال: «تعرفها سنة وتحصي وكاءها ووعاءها
وعفاصها وعددها؛ فإن جاء صاحبها فأدّها إليه»^(٢).
- وقال أبي بن كعب: أصبت مائة دينار على عهد النبي ﷺ، فقال: «احفظ
عفاصها وكاءها وعددها فإن جاء صاحبها فأخبرك بعددها وعفاصها وكائها فأدّها إليه
وإلا فعرفها سنة، ثم استمتع بها».
- قال علي بن الحسن: خرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بقف النخلتين قال له
الأنصار: يا رسول الله، هل لك في السباق؟ قال: نعم، وهو يومئذ على التّواضح^(٣)
- وكان رسول الله ﷺ يسير في أخريات الناس، وأسامه بن زيد على العضباء ناقاة
رسول الله ﷺ، وهو في أول الناس - فقال: أين أسامة؟ فتنادى الناس حتى بلغ أسامة
الصوت، فوضع السوط في الناقة فأقبلت، فلما دنت قال رسول الله ﷺ: إن إخواننا
من الأنصار قد أرادوا السباق فأنخ ناقتك حتى ترغو، ثم علق الخيطام ثم سابقتهم؛

(١) البازل: الذي فطر نابه، أي انشق بدخوله في السنة التاسعة.

(٢) روى البخاري في صحيحه ٢٠ - باب: حكم المفقود في أهله وماله. حديث رقم ٤٩٨٦ -
عن يزيد مولى المنبعت: أن النبي ﷺ سئل عن ضالة الغنم، فقال: «خذها، إنما هي لك
أو لأخيك أو للذئب» وسئل عن ضالة الإبل فغضب وأحمرت وجنتاه، وقال: «ما لك
ولها، معها الحذاء والسقاء، تشرب الماء، وتأكُل الشجر حتى يلقاها ربها». وسئل عن
اللقطة، فقال: «أعرف وكاءها وعفاصها، وعرفها سنة، فإن جاء من يعرفها، وإلا فاخبطها
بمالك».

(٣) الإبل التي يستقى عليها.

ففعَلَ واستبقوا، فسبقتُ ناقَةَ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فجعل أسامةُ يكبِّرُ ويقول: سبق رسولُ اللَّهِ ﷺ، ورسولُ اللَّهِ يقول: سَبَقَ أسامةُ، فلَمَّا أَكثَرَ من ذلك قال له: أَقْصِرْ يا أسامةُ، فَإِنَّ إخواننا من الأنصارِ فيهم حياءٌ وحَفِيظَةٌ.

قال: وليس لشيءٍ من الحيوانِ سَنَامٌ إلا البعير، ولبعضِ البَحَائِثِ سَنَامَانِ، ولبعضِ البقرِ شيءٌ صَغِيرٌ على موضعِ الكاهِلِ. والجملُ يبولُ إلى خَلْفِ، وكذلك الأسدُ. وقضيبُ الجملِ من عَصَبِ، وقضيبُ الإنسانِ من لحمٍ وغُضْرُوفِ، وقضيبُ الذئبِ والثعلبِ من عَظْمِ، وقضيبُ ذَكَرِ الأرانبِ من عَظْمِ على صورةِ الثُّقْبِ كأنَّهُ نصفُ أنبوبةٍ مشقوقةٍ. وفي قلبِ الثورِ عَظْمٌ، وربما وُجِدَ في قلبِ الجملِ. والمرأةُ تَلِدُ من قُبُلِ، والناقةُ من خَلْفِ. وزمانُ نَزْوِ الجمالِ في (شباط). والإناثُ في الإبلِ تَحْمِلُ اثني عشرَ شهراً وتَضَعُ واحداً وتَلْفَحُ إذا بلغت ثلاثَ سنين، وكذلك الذَكَرُ، ثم تُقِيمُ الأثني سَنَةَ ثم يُنْزَى عليها.

وزعمَ صاحبُ المنطقِ أَنَّ الجملَ لا يَنْزُو على أمه، وإن اضْطُرَّ كرهه.

قال: وقد كان رجلٌ في الدَّهْرِ السَّالِفِ سَتَرَ الأُمَّ بثوبٍ ثم أرسلَ بَكَراً عليها، فلما عَرَفَ ذلك لم يُنَمِّ وقطع، وحَقَدَ على الجَمالِ فقتله.

قال: وقد كان لمملكٍ فَرَسٌ أنثى، وكان لها أَفْلاءٌ^(١)، فأراد أن تَحْمِلَ من أكرمها، فصَدَّ عنها وكرهها، فلَمَّا سَتِرَتْ وَثَبَ فركبها، فلَمَّا رُفِعَ الثُّوبُ ورأها هَرَبَ ومرَّ حُضْرًا^(٢) حتى ألقى نفسه في بعض الأودِيَةِ فهلك...^(٣)

هذا كلامُ أميرِ المؤمنين عليِّ بن أبي طالبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وجهه.

قال حُذَيْفَةُ: كُنْ في الفتنَةِ كابنِ اللَّبُونِ، لا ظَهَرَ فيزُكَبُ، ولا لَبَنَ فيُحَلَبُ.

قال ديوجانس: إِنَّ المرأةَ تُلْفَنُ الشَّرَّ من المرأةِ، كما أَنَّ الأفعى تأخذ السمَّ من الأصلة. وقال فيثاغورس: إِنَّ كثيراً من الناسِ يَرَوْنَ العمى الذي يَعْرِضُ لِعَيْنِ البَدَنِ فتأباه أنفسهم، فأما عمى عَيْنِ النَّفْسِ فإنهم لا يَرُونَهُ ولا تأباه أنفسهم، فلذلك لا يستحيون. وقال أيضاً: كما أَنَّ الذي يسلكُ طريقاً لا يَعْرِفُهُ لا يدري إلى أيِّ موضعٍ يُوَدِّيهِ، كذلك الذي يسمعُ كلاماً لا يَعْرِفُ الغرضَ فيه لا يَرِبِحُ منه إلا التعبَ.

قيل لديوجانس: أيهما أولى، طَلَبُ الغِنَى، أم طَلَبُ الحِكْمَةِ؟ فقال: للدنيا الغِنَى، وللآخرة الحِكْمَةُ.

(١) جمع فلو بكسر الفاء، وهو المهر الذي لم يبلغ الفطام.

(٢) الحضر: سرعة العدو.

(٣) سقط من الأصل.

وقيل له: متى تَطِيبُ الدُّنْيَا؟ قال: إذا تَفَلَّسَ مَلُوكُهَا وَمَلَّكَ فَلَاسِفَتْهَا.

فقال الوزير - أسعده الله -: عندي أنّ هذا الكلام مدخول، لأن الفلسفة لا تصحّ إلا لمن رَفَضَ الدُّنْيَا وِفَرَّغَ نَفْسَهُ لِلدَّارِ الْآخِرَةِ، فكيف يكونُ المَلِكُ رافضاً للدُّنْيَا وقالياً لها، وهو محتاجٌ إلى سياسةِ أهلها والقيام عليها باجتلابِ مصالحها ونفي مفسداتها، وله أولياء يحتاج إلى تدبيرهم وإقامةِ أبنيتهم والتوسعةِ عليهم ومواكبتهم ومشاربتهم ومُداراتهم والإشرافِ على سرهم وعلائيتهم، والمَلِكُ أَعْبُ من الطيبِ الذي يجمعُ معالجةً كثيرةً بضرورِ الأدويةِ المختلفةِ والأغذيةِ المتباينة؛ هذا والطيبُ فقيرٌ إلى تقديمِ النَّظَرِ في نفسه وبدنه، ونَفْيِ الأمراضِ والأعراضِ عن ظاهره وباطنه، ومن كان هكذا ومن هو أكثرُ منه وأشدَّ حاجةً وعلاقةً كيف يستطيع أن يكون مَلِكاً وحكيماً؟! ولعلَّ قائلاً يظنُّ هذا ممكناً، ويكون المَلِكُ واعياً في الحكمة بالدَّعْوَى، وقائماً بالمُلْكِ على طريقِ الأُوْلَى، وهذا إلى التياثِ الأمرِ واختلاله واختلاطه في المُلْكِ والفلسفةِ أَقْرَبُ منه إلى إحكامِ الأصلِ وإثباتِ الفرع. قال: ولهذا لم نجد نحن في الإسلام من نظر في أمر الأمة على الزهدِ والتَّقَى وإيثارِ البرِّ والهدى إلا عدداً قليلاً، والمجوسُ تزعمُ أنّ الشريعةَ مُعْرَجَةٌ عن المُلْكِ، أي الذي يأتي بها ليس له أن يُعْرَجَ على المُلْكِ، بل له أن يَكِلَ المُلْكُ إلى من يَقُومُ به على أحكامِ الدِّينِ، ولهذا قال مَلِكُنَا الفاضل: الدِّينُ والمُلْكُ أَخَوَانُ، فالدينُ أَسُّ، والمُلْكُ حَارَسٌ، فما لا أَسَّ له فهو مهدومٌ، وما لا حارسَ له فهو ضائعٌ.

فقلت له: هذا باب إن توزع القول فيه طال، وإن رُمِيَ بالقصدِ جاز، وللأئمة كلامٌ كثيرٌ في الإمامةِ والخلافةِ وما يجري مجرى التيابةِ عن صاحبِ الديانةِ على فنونٍ مختلفة، وجَمَلٌ مُتَعَدِّدٌ، إلا أنّ النَّاطِرَ في أحوالِ النَّاسِ ينبغي أن يكون قائماً بأحكامِ الشريعةِ، حاملاً للصغير والكبير، على طرائقها المعروفة، لأنَّ الشريعةَ سياسةُ الله في الخلق، والمُلْكُ سياسةُ النَّاسِ للنَّاسِ، على أنّ الشريعةَ متى خَلَّتْ من السياسةِ كانت ناقصةً، والسياسةُ متى عَرِيَتْ من الشريعةِ كانت ناقصةً، والمَلِكُ مبعوثٌ، كما أنّ صاحبَ الدِّينِ مبعوثٌ، إلا أنّ أَحَدَ البَعِثَيْنِ أَخْفَى مِنَ الْآخَرِ، والثاني أشهرُ من الأوّلِ.

قال - أطال الله بقاءه -: كنتُ أَحِبُّ أن أعلمَ من أين قلتُ: إن المَلِكُ مبعوثٌ أيضاً؟ فإن هذه الكلمة ما ثبتت في أذني قطّ، ولا خطرَتْ لي على بال.

قلتُ: قال الله عزَّ وجلَّ في تنزيله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: 247]. فَعَجِبَ وقال: كأني لم أسمع بهذا قطّ.

ذُكِرَ لِلإِسْكَنْدَرِ سُوءُ أَحْوَالِ رُؤَسَاءِ مَذْهَبِهِ لَمَّا كَانَ أبوه احتاز أموالهم وسَلَبَ أحوالهم. فقال: يجب للآباء على الأبناء إزالةَ الدَّمِ عنهم، ومحوُ الإثمِ، واستعطافُ القلوبِ عليهم، ونشرُ المحامدِ عنهم؛ وأمرُ بردِ أموالهم عليهم، وزاد في الإحسانِ

إليهم . وقال : قد بلغ من فَرْطِ شفقةِ الآباءِ على الأبناء أن يُسيئوا إلى أنفسهم لتكون الإساءةُ سبباً للإحسان إلى أولادهم ، لأنهم يرون أولادهم كأنفسهم لأنهم من أنفسهم .

فقلت : أيها الوزير ، إنني لأعجبُ من الإسكندر في الفعلِ الرَّشيدِ والقولِ السَّديدِ ، فهذا المنصورُ أبو جعفر صاحبُ الشهامةِ والصَّرامةِ أَخَذَ من وجوهِ العراقِ أموالاً بخواتيم أصحابها وأفقرهم ، وجعلها في خزائنه بعد أن كتَبَ على تلك الخرائطِ والظُّروفِ أسماءَ أهلها ، ثم وصَّى المهديَّ بردها على أصحابها بعد موته ، ووَكَّدَ ذلك عليه ، وقال : يا بُنَيَّ ، إنما أريدُ بهذا أن أُحبِّبَكَ إلى الناسِ ، ففعلَ المهديُّ ذلك ؛ فانتشرَ له الصَّيْثُ وكثرَ الدعاءُ وعَجَّتْ الأصواتُ ، وقال الناسُ : هذا هو المهديُّ الذي ورد في الأثر . فقال : هذا عَجَبٌ .

وقال سُقْرَاطُ : ينبغي لمن علم أنَّ البدنَ هو شيءٌ جُعِلَ نافعاً للنفسِ مثلَ الآلةِ للصانعِ أن يطلبَ كلَّ ما يصيرُ البدنُ به أنفعَ وأوفقَ لأفعالِ النفسِ التي هي فيه ، وأن يَهْرُبَ من كلِّ ما يُصَيِّرُ البدنَ غيرَ نافعٍ ولا موافقٍ لاستعمالِ النفسِ له .

قال أوميرُوسُ : لا ينبغي لك أن تؤثرَ عِلْمَ شيءٍ إذا عُوِّزَتْ به غَضِبَتْ ، فإنك إذا فعلتَ هذا كنتَ أنتَ القاذفُ لنفسِكَ .

وقال ديوجانسُ : من القبيحِ أن تتحرى في أغذيةِ البدنِ ما يصلحُ له ولا يكون ضاراً ، ولا تتحرى في غذاءِ النَّفسِ الذي هو العِلْمُ لئلا يكون ضاراً .

وقال أيضاً : من القبيحِ أن يكونَ الملاحُ لا يُطلقُ سفينتهِ في كلِّ ربحٍ ، ونحن نُطلقُ أنفسنا في غيرِ بحثٍ ولا اختبارٍ .

ذكر لنا أبو سليمان أن فيلسوفاً وَرَدَ مدينةً فيها فيلسوفٌ ، فوجَّهَ إليه المدنيُّ كأساً مَلأى ، يشيرُ بها إلى أن الاستغناءَ عنه واقعٌ عنده ، فطرحَ القادِمُ في الكأسِ إبرةً ، يُعلمه أن معرفتهَ تنفَّذَ في معرفتهِ .

وقال فيلسوفٌ يونانيٌّ : التقلُّبُ في الأمصارِ ، والتوسُّطُ في المجامعِ ، والتصرُّفُ في الصُّناعاتِ ، واستماعُ فنونِ الأقوالِ ، مما يزيدُ الإنسانَ بصيرةً وحكمةً وتجربةً ويقظةً ومعرفةً وعِلْماً .

قال الوزيرُ : ما البصيرةُ؟

قلتُ : لَحْظُ النفسِ الأمورَ . قال : فما الحكمةُ؟ قلتُ : بلوُغُ القاصيةِ من ذلك اللحظِ . قال : فما التجربةُ؟ قلتُ : كمالُ النفسِ بِلِحَاطِ مألها . قال : هذا حسنٌ .

قال أنكساغورسُ : كما أن الإناءَ إذا امتلأَ بما يسعُه من الماءِ ثم تُجعلُ فيه زيادةً على ذلك فاضٍ وانصبَّ ، ولعله أن يَخْرُجَ معه شيءٌ آخرٌ ؛ كذلك الذهنُ ما أمكنه أن يَضْبَطَهُ فإنه يَضْبَطُهُ ، وإن طُلِبَ منه ضبَطُ شيءٍ آخرَ أكثرَ من وَسْعِهِ تَحَيَّرَ ، ولعلَّ ذلك يُضَيِّعُ عليه شيئاً مما كان الذهنُ ضابطاً له ، وهذا كلامٌ صحيحٌ ، وإنني لأتَعَجَّبُ من

أصحابنا إذا ظنوا وقالوا: إنَّ الإنسانَ يستطيعُ حفظَ جميعِ فنونِ العلمِ والقيامَ بها والإبقاءَ عليها، ولو كان هذا مقدوراً عليه لوجد، ولو وُجد لعُرف، ولو عُرف لذكر، وكيف يجوز هذا وقلبُ الإنسانِ مُضغَّة، وقوَّتُه مقصورةٌ، وانبساطُه مُتناهٍ، واقتباسُه وحفظُه وتصوُّره وذكرُه محدودٌ؟ ولقد حدَّثني عليُّ بنُ المهديِّ الطبريِّ قال: قلتُ ببغداد لأبي بشر: لو نظرتَ في شيءٍ من الفقهِ مع هذه البراعةِ التي لك في الكلام، ومع هذا اللسانِ الذي تَحَيَّرَ فيه كلُّ حَـصَم. قال: أفعلُ، قال: فكنتُ أقرأُ عليه بالتهارٍ مع المختلِفةِ الكلامِ، وكان يقرأُ عليَّ باللَّيلِ شيئاً من الفقهِ، فلمَّا كان بعد قليلٍ أَقْصَرَ عن ذلك، فقلتُ له: ما السَّببُ؟ قال: واللَّهِ ما أَحفظُ مَسْأَلَةً جليلاً في الفقهِ إلَّا وَأَنْسى مَسْأَلَةً دقيقةً في الكلامِ، ولا حاجةً في زيادةِ شيءٍ يكونُ سبباً لِنُقْصانِ شيءٍ آخَرَ مِنِّي.

وسأل رجلٌ آخَرَ أن يُفْرَضَه مالا، فوعده ثم غدر به، فلامه النَّاسُ، فقال: لأنَّ يَحْمَرَّ وجهي مرَّةً أَحَبُّ إليَّ من أن يصفَّرَ مراراً كثيرةً.

ووليُّ أريوس ولايةً فقال له أصدقاؤه: الآن يظهرُ فضلك. فقال: ليست الولايةُ تُظهِرُ الرَّجُلَ، بل الرَّجُلُ يُظهِرُ الولايةَ.

وقال ديوجانس: الدُّنيا سوقُ المسافرِ، فليس ينبغي للعاقِل أن يشتريَ منها شيئاً فوق الكفافِ.

وقيل لاسطفانس: مَنْ صَدِيقُكَ؟ قال: الذي إذا صِرْتُ إليه في حاجةٍ وجدتهُ أشدَّ مُسارعةً إلى قضائها مِنِّي إلى طلبها.

وقال أفلاطون: إنَّ للنفسِ لَدَتَيْنِ: لُدَّةٌ لها مُجَرَّدَةٌ عن الجسدِ، ولُدَّةٌ مُشَارِكَةٌ للجسدِ، فأما التي تنفردُ بها النفسُ فهي العِلْمُ والحِكْمَةُ، وأما التي تُشَارِكُ فيها البدنُ فالطعامُ والشرابُ وغيرُ ذلك.

وقيل لسُقراط: كيف ينبغي أن تكون الدنيا عندنا؟ قال: لا تستقبلوها بتمنٍّ لها، ولا تُتبعوها بتأسفٍ عليها؛ فلا ذلك مُجِدِّ عليكم، ولا هذا راجعٌ إليكم.

وقال سُقراط: القُتَيْةُ مخدومةٌ، ومن خدم غيرَ نفسه فليس بحرّ.

وقال بعضُ ندماء الإسكندر له: إن فلاناً يسيءُ الثناءَ عليك، فقال: أنا أعلمُ أن فلاناً ليس بشيِّرٍ، فينبغي أن يُنظر هل ناله من ناحيتنا أمرٌ دعاه إلى ذلك، فَبَحَثَ عن حاله فوجدَها رتَّةً، فأمر له بصلَّةِ سنِّيَّةٍ، فبلغه بعد ذلك أنه يبسطُ لسانه بالثناءِ عليه في المحافلِ؛ فقال: أما ترون أن الأمرَ إلينا أن يقالَ فينا خيرٌ أو شرّ.

قيل لطيماتاوس: لم صِرْتُ تسيءُ القولَ في الناسِ؟ قال: لأنَّه ليس يمكنني أن أسيءَ إليهم بالفعلِ. وكان مرَّةً في صحراءٍ، فقال له إنسان: ما أحسنَ هذه الصحراءُ! قال: لو لم تُحْضِرْها أنت.

وقال غالوس: ما وجه الاهتمام بما إن لم يكن؛ أجزئاً فَوْتُهُ، وإن كان فالمنفعة به وبحضوره قليلة منقطعة.

وقال سُفْرَاط: ينبغي إذا وَعَظْتَ أَلَا تتشكَّل بشكل منتقم من عَدُوِّ، ولكن بشكل من يُسْعِطُ أو يَكْوِي بعلاجه داءً بصدیق له، وإذا وُعِظْتَ أيضاً بشيء فيه صلاحك، فينبغي أن تتشكَّل بشكل المريض للطبيب.

ركب مقاريوس في حاجة، فمرّ بزيْموس وقد تعلق به رجل يطالبه بمال اختدعه عنه وعليهما جماعة من الناس، وهو يسأله تنجيم ذلك المال عليه نجومياً ليؤديه، ويتضرّع أشدّ التضرّع. فقال منقاروس: ما طلبتُك عند هذا الرجل؟ فقال: أتاني فخدعني بالزُّهد والنُّسك عن مالي، ووعدني أن يملأ بيتي ذهباً من صنعته، فلم أزل في الاسترسال إلى ظاهره السليم حتى أفقرني باطنه السقيم. فقال له مقاريوس: إنَّ كَلَّ مَنْ بَدَلَ شيئاً إنما يَبْدُلُهُ على قَدَرٍ وَسِعِهِ؛ وكان زيْموس أتاك على حاله التي هو عليها، ولم يكن لِيَسْبَحَ لأَكْثَرَ مِنْ ذلك القَوْل؛ وأما عَمَلُ الذَّهَبِ فَبَيْنَ ظاهِر، لأنَّ فَقْرَهُ يَدُلُّ على عَجْزِهِ وَضَعْفِهِ عنه، ومن أَمَلَ الغِنَى عند الفقير فغاية ما يُمْكِنُ أن يَبْلُغَهُ أن يَصِيرَ مِثْلَهُ؛ وآخِرُ مَا يَوْمَلُ عند الفقير نَيْلُ الفَقْرِ. فقد أصبَتْ ما كُنْتُ تُحِبُّ أن تَجِدَهُ عند زيْموس؛ وهو حَظٌّ إن تَمَسَّكَتْ به لم يَغْلُ بما تَلِفَ مِنْ مالِك، ولئن كان وَعَدَكَ أن يُفِيدَكَ مالاً باطلاً فلقد أفادَكَ معدناً حقاً، من غير قصدٍ إلى نفعك. ثم أقبل على زيْموس وقال له: ما أبعد شبه معدنك من المعادن الطبيعيّة! إنَّ المعادن تَلْفُظُ الذَّهَبَ، ومعدنك هذا يَبْتَلِعُ الذهب؛ ومن جاوَرَ معدناً منها أغناه، ومن جاوَرَ معدنك أفقره؛ والمعادن الطبيعيّة تُثْمِرُ من غير قَوْل، ومعدنك يقول من غير إثمَار. فقال زيْموس: أيُّها الفاضل، لئن عِبْتَنِي فَلَسْتُ بأوَّلِ حَكِيمٍ لَقِيَّ من النَّاسِ الأَدَى. فقال له: أَجَلٌ، ولا آخِرُهُمْ ولا أوسَطُهُمْ، لكنك من الجُهَالِ الَّذِينَ لَقِيَّ النَّاسُ مِنْهُمُ الأَدَى.

فقال - أَعْلَى اللَّهِ قَوْلُهُ -: فهل لهذا الأمر - أعني الكيمياء - مزجوع؟ وهل له حقيقة؟ وما تحفظ عن هذه الطائفة؟

فكان الجواب: أما يَحْيَى بنُ عَدِيٍّ - وهو أستاذ هذه الجماعة - فكان في إضْبَعِهِ خَاتَمٌ من فِضَّةٍ يَزْعُمُ أن فِضَّتَهُ عُمِلَتْ بين يديه، وأنه شاهدَ عَمَلَهَا عِياناً، وأنه لا يَشُكُّ في ذلك.

وأما أصحابه كابن رُزَعَةَ وابن الخَمَار، فذَكَرُوا أن ذلك تمَّ عليه من فعلٍ لم يَفْطِنَ له من بَعْضِ من اغتره من هؤلاء المُخْتَالِينَ الخَدَاعِينَ.

وأما شيخنا أبو سليمان فحصلت من جوابه على أنه ممكن، ولم يذكر سبب إمكانه ولا دليل حقيقته.

وأما أبو زيد البلخي - وهو سيد أهل المشرق في أنواع الحكمة فذكر أنه مُحَالٌ ولا أضل له، وأن حكمة الله تعالى لا توجب صحة هذا الأمر، وأن صحته مفسدة عامة، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وأما مسكويه - وما هو بين يديك - فيزعم أن الأمر حقٌ وصحيح، والطبيعة لا تمنع من إعطائه، ولكن الصناعة شاقة، والطريق إلى إصابة المقدار عسيرة، وجمع الأسرار صعبٌ وبعيد، ولكنه غير مُمتنع؛ فقد مضى عمره في الإكباب على هذا البري أيام كان بناحية أبي الفضل وأبي الفتح ابنه مع رجل يُعرف بأبي الطيب، شاهدته ولم أحمد عقله، فإنه كان صاحبٌ وسواسٍ وكذبٍ وسقط، وكان مخدوعاً في أول أمره، خادعاً في آخر عمره.

وأبين ما سمعته في هذا الحديث أن الطبيعة فوق الصناعة، وأن الصناعة دون الطبيعة، وأن الصناعة تشبه بالطبيعة ولا تكمل، والطبيعة لا تشبه بالصناعة وتكمل، وأن الطبيعة قوة إلهية سارية في الأشياء واصله إليها، عاملة فيها بقدر ما للأشياء من القبول والاستحالة والانفعال والمواتاة، إما على التمام، وإما على النقصان. وقيل: إن الطبيعة لا تسلك إلى إبراز ما في المادة أبعد الطرق، ولا تترك أقرب الطرق، فلما كانت المعادن هي التي تُعطي هذه الجواهر على قدر المقابلات العلوية والأشكال السماوية والمواد السفلية والكائنات الأرضية، لم يجوز أن تكون الصناعة مساوية لها، كما لم يجوز أن تكون مُستعالية عليها، لأن الصناعة بشرية مستخرجة من الطبيعة التي هي إلهية، ولا سبيل لقوة بشرية أن تنال قوة إلهية بالمساواة؛ فأما التشبيه والتقريب والتلبيس، فيمكن أن يكون بالصناعة شيء كأنه ذهب أو فضة، وليس هو في الحقيقة، لا ذهب ولا فضة؛ وإذا كان ظهور القطن بالطبيعة وظهور الثوب بالصناعة فليس لهذه أن تعرض لهذه، ولا لهذه أن تعرض لهذه؛ والأمور مؤزونة، والصناعات متناهية؛ فإن ادعى في شيء من الصناعة ما يزيد عليها حتى تكون كأنها الطبيعة، احتيج إلى برهان واضح، وإلى عيان مصرح، لأننا نعلم أنه ما من صناعة ولا علم ولا سياسة ولا نخلة ولا حال إلا وقد حمل عليها، وزيد فيها وكذب من أجلها بما إذا طلبت صحته بالبرهان لم تجد، أو بالعيان لم تقدر.

فأما أصحاب السُّك ومن عرف بالعبادة والصَّلاح؛ فقد ادعى لهم أن الصُّفر يُصير لهم ذهباً، وشيئاً آخر يصير فضة، وأن الله عز وجل يُزَلِّلُ لهم الجبل ويُنزل لهم القطر، ويُنبئ لهم الأرض، وغير ذلك مما هو كآيات للأنبياء الذين يأتون من قِبَلِ الله بالكتب والوصايا والأحكام والمواعظ والنصائح، وربما يسمي كثير من الناس ما يظهر للزُّهاد والعباد من هذا الضرب كرامات ولا يسميها معجزات، والحقائق لا تُنْقَلِبُ بالأسماء، فإن المسمى بالكرامة هو المسمى بالمعجزة والآية.

والخَوْضُ فِي هَذَا الطَّرْفِ قَدِيمٌ، وَقَضَلُهُ فِي الْحَقِّ شَاقٌّ، وَالتَّنَازُعُ فِيهِ قَائِمٌ، وَالظَّنُّ يَعْمَلُ عَمَلَهُ، وَاليَقِينُ غَيْرُ مَظْفُورٍ بِهِ، وَلَا مَوْصُولٍ إِلَيْهِ؛ وَالتَّطَبُّعُ قَدْ أَوْلَعَتْ النَّاسَ بِادِّعَاءِ الْغَرَائِبِ، وَبَعَثَتْهُمْ عَلَى نُضْرَتِهَا بِالرَّفْقِ وَالخُرْقِ، وَالتَّسْهِيلِ وَاللَّجَاجِ، وَالمَوَاتَاةِ وَالمَحْكِ، وَلِلَّهِ فِي طَيِّ هَذَا الْعَالَمِ الْعُلُويِّ أَسْرَارٌ وَخَفَايَا وَغُيُوبٌ وَمَكَامِنٌ لَا قُوَّةَ لِأَحَدٍ مِنَ البَشَرِ بِالحِسِّ وَلَا بِالعَقْلِ أَنْ يَحُومَ حَوْلَهَا، أَوْ يَبْلُغَ عُمَقَهَا، أَوْ يُدْرِكَ كُنْهَهَا، وَمَنْ تَصَرَّفَ عَرَفَ، وَمَنْ عَرَفَ سَلِمَ، وَالسَّلَامُ.

وَحَكَى لَنَا أَبُو سَلِيمَانَ أَنَّ أَرِسْطُوطَالِيَسَ كَتَبَ إِلَى رَجُلٍ لَمْ يُشَفِّعُهُ فِي رَجُلٍ سَأَلَهُ الكَلَامَ لَهُ فِي حَاجَةٍ: إِنْ كُنْتَ أَرَدْتَ وَلَمْ تَقْدِرْ فَمَعْدُورٌ، وَإِنْ كُنْتَ قَدَرْتَ وَلَمْ تُرِدْ فَسُوفَ يَجِيءُ وَقْتُ تَرِيدَ وَلَا تَقْدِرُ.

وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: لَا تُرْفَهُوا السُّفْلَةَ فَيَعْتَادُوا الكَسَلَ وَالرَّاحَةَ، وَلَا تَجَرِّثُوهُمْ فَيَطْلُبُوا السَّرَفَ وَالشُّعْبَ، وَلَا تَأْذِنُوا لِأَوْلَادِهِمْ فِي تَعَلُّمِ الأَدَبِ فَيَكُونُوا لِرَدَاءَةِ أَصُولِهِمْ أَذْهَنَ^(١) وَأَغْوَصَ، وَعَلَى التَّعَلُّمِ أَصْبَرَ؛ وَلَا جَرَمَ فَإِنَّهُمْ إِذَا سَادُوا فِي آخِرِ الأَمْرِ خَرَبُوا بَيُوتَ العِلِّيَّةِ أَهْلَ الفَضَائِلِ.

وَقَالَ فَيْلسُوفٌ: لِلنَّفْسِ خَمْسُ قُوَى: الحِسُّ وَالوَهْمُ وَالدُّهْنُ وَالاخْتِبَارُ وَالفِكرُ. فَأَمَّا الحِسُّ فَلِحَاقُ الأَشْيَاءِ بِلا فَحِصٍّ، وَلَا يُحْتَاجُ فِي ذَلِكَ اللِّحَاقِ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَمْنُوعاً بِمَنْعٍ، وَذَلِكَ إِذَا وَجَدَ شَيْئاً أبيضَ حَكَمَ بِأَنَّهُ أبيضٌ بِلا فِكرٍ وَلَا قِيَاسٍ.

وَأَمَّا الوَهْمُ، فَإِنَّهُ يَقَعُ عَلَى الأَشْيَاءِ بِتَوْسُطِ الحِسِّ. وَأَمَّا الاخْتِبَارُ فَيُوافِقُ الفِكرَ، كَقَوْلِكَ: النِّفْسُ لَا تَمُوتُ، فَهَذَا قَوْلٌ اخْتِبَارِيٌّ بَعْدَ الفِكرِ، فَإِنْ كَانَ هَذَا هَكَذَا فَالاخْتِبَارُ لَيْسَ بِقِيَاسٍ، وَلَكِنَّهُ أَفْقُ القِيَاسِ.

وَأَمَّا الدُّهْنُ فَإِنَّهُ لَا يَهْجُمُ عَلَى أَوَائِلِ الأَشْيَاءِ. وَقَالَ آخَرٌ شَبِيهاً بِهَذَا الكَلَامِ، وَلَا بِأَسْ أَنْ يَكُونَ مَضْمُوماً إِلَيْهِ، لِيَكُونَ شَمْلُ الفَائِدَةِ أَكْثَرَ نِظَاماً وَأَقْرَبَ مَرَاماً.

قَالَ: لَيْسَ لِلْحَوَاسِّ وَالحَرَكَاتِ فِعْلٌ دُونَ أَنْ تَبْعَثَهَا القُوَّةُ المُمَيِّزَةُ، فَلذَلِكَ لَا يُحِسُّ السُّكْرَانُ وَلَا النَّائِمُ، وَكَذَلِكَ أَيْضاً البَهَائِمُ فَإِنَّهَا لَا تَصِيحُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَغْرُضَ فِي فِكْرِهَا شَيْءٌ، وَلَا تَتَحَرَّكُ إِلَّا بِانْبِعَاثِ القُوَّةِ المُمَيِّزَةِ.

وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الحَيَوَانَ ثَلَاثَةَ أرواحٍ فِي ثَلَاثَةِ أَعْضَاءٍ رِئِيسَةٍ: نَفْسِيَّةٌ فِي الدِّمَاغِ، وَحَيَوَانِيَّةٌ فِي القَلْبِ، وَطَبِيعِيَّةٌ فِي الكَبِدِ.

(١) أَي أَحْوَدُ ذَهْناً.

وفي كل واحد منها قوّةٌ مميّزةٌ بها يتم عمَلُه، فالتّي في الدِّماغ هي العقل المميّز الحارس للبدن، ومنه ينبعث الحسُّ والحركة، والتي في القلب تنبعث منها الحرارة الغريزية في جميع البدن؛ وزعموا أن تلك الحرارة هي الرُّوح؛ والتي في الكبد هي موضع الهضم والنضج، وهي التي تنضج الطعام وتغيره وتحيله دماً وتوزعُ في كل عضو ما هو ملائمٌ له، وبالجملة تجذب، وبالحابسة تحبس، وبالهاضمة تهضم، وبالذافعة تدفع.

فأما الدِّماغ فينقسم ثلاثة أقسام يَحْجُزُ بينها أغشيّة، أحدها في مقدّم الرأس موضع التخيل، والثاني في وسط الرأس موضع العقل والفكر والتمييز، والثالث في مؤخّر الرأس موضع الحفظ والذكر والقبول؛ فكلُّ واحد مما ذكرنا يخدم الآخر، وإن ضَعُفَ أحدها ضَعُفَ لضعفه الآخر، وباعتدالهنّ وسلامتهنّ قوامُ البدن والنفس.

ولكلِّ واحدٍ منها آلةٌ بها يستعين على خدمة الآخر.

قال: فكما أن الرّحى إذا نقصت شيئاً منها أو زدت أفسد الطحن؛ إمّا بزيادة أو نقصان، كذلك سائرُ خَدَمِه وآلاته.

وقال: الدِّماغ مسكن العقل، وخَدَمُه الحسُّ والحركة؛ والقلب مسكن الحرارة الغريزية، وخَدَمُه العروق الصّوارب؛ والكبد مسكن النضج والهضم، وخَدَمُه العروق غير الصّوارب.

وقال: النار تُحرق، فإذا كانت موجودةً فالدُّخان والرّماد موجودان، والدُّخان رَمادٌ لطيف، والرّمادُ دخانٌ كثيف.

وقال أبو سليمان: ذكر بعضُ البَحّاثين عن الإنسان أنّه جامعٌ لكلِّ ما تفرّق في جميع الحيوان، ثم زاد عليها وفضّل بثلاث خِصالٍ: بالعقل والنظر في الأمور النافعة والصّارة، وبالمنطق لإبراز ما استفاد من العقل بوساطة النظر، وبالأيدي لإقامة الصناعات وإبراز الصّور فيها مماثلةً لما في الطبيعة بقوّة النفس.

ولمّا انتظّم له هذا كلّهُ جمَعَ الحَيْلَ والطَّلَبَ والهَرَبَ والمَكَايِدَ والحَذَرَ، وهذا بدّل السّرعَة والخِفة التي في الحيوان، واتخذ بيده السلاح مكان الناب والمخالب والقزّن، واتخذ الجُنن لتكون وقايةً من الآفات، والعقل ينبوع العلم، والطبيعة ينبوع الصناعات، والفكر بينهما قابلٌ منهما، مؤدٌّ من بعض إلى بعض، فصوابٌ بديهية الفكر من صحّة العقل، وصوابٌ روية الفكر من صحّة الطباع.

وقال أبو العباس: الناسُ في العِلْمِ على ثلاثِ درجات، فواحدٌ يُلهم فيعلّم فيصير مبدأ، والآخر يتعلّم ولا يُلهم فهو يودّي ما قد حفظ، والآخر يُجمع له بين أن يُلهم وأن يتعلّم. فيكون بقليل ما يتعلّم كثيراً بقوّة ما يُلهم.

وقال: الإنسان بين طبيعته - وهي عليه - ونفسه - وهي له - منقسّم؛ فإن اقتبس من العقل قوَى ثوره ما هو له من النفس، وأضعف ما هو عليه من الطبيعة، فإن لم يكن يفتس بقي حيراناً أو متهوراً.

وقال سقراط: الكلام اللطيف، ينبو عن الفهم الكثيف.

وحكى لنا أبو سليمان قال: قيل لفيلسوف: ما بال المريض إذا داواه الطبيب ودخل عليه فرح به وقبل منه وكافاه على ذلك، والجاهل لا يفعل ذلك بالعالم إذا علمه ويبن له؟ فقال: لأن المريض عالم بما عند الطبيب، وليس الجاهل كذلك، لأنه لا يعلم ما عند العالم.

وقال ديوجانس لصاحبه: أما تعلم أن الحمام إذا كان سمائياً كان أغلى ثمناً، وإذا كان أرضياً كان أقل ثمناً.

قال - أبقاه الله: - هذا مثل في غاية الحُسن والوضوح.

وقال ديوجانس: المأكول للبدن، والموهوب للمعاد، والمحفوظ للعدو.

وقال فيلسوف: التهاون باليسير أساس للوقوع في الكثير.

وقال أفلاطون: مثل الحكيم كمثل النملة تجمع في الصيف للشتاء، وهو يجمع في الدنيا للأخرة.

وقال فيلسوف: من يصف الحكمة بلسانه ولم يتحل بها في سره وجهره فهو في المثل كرجل رزق ثوباً فأخذ بطرفه فلم يلبسه.

وقال السيد المسيح: إن استطعت أن تجعل كنزك حيث لا يأكله السوس، ولا تدركه اللصوص، فافعل.

قال فيلسوف: إذا نازعك إنسان فلا تجبه، فإن الكلمة الأولى أنثى وإجابتها فخلها، وإن تركت إجابتها بترتها وقطعت نسلها، وإن أجبت لها ألقتها؛ فكم من ولد ينمو بينهما في بطن واحد.

وقال فيلسوف: إن البعوضة تخيا ما جاءت وإذا شبعت ماتت.

وقال ديوجانس: إن تكن ملحاً يضحك، فلا تكن ذباباً يفسد.

وقيل لديوجانس: من أين تأكل؟ فقال: من حيث يأكل عبد له رب.

وقال ديوجانس: كن كالعروس تريد البيت خالياً.

قيل لأرسطوطاليس: إن فلاناً عاقل. قال: إذا لا يفرح بالدنيا.

وقيل لفيثاغورس: ما أملك فلاناً لنفسه! قال: إذا لا تصرعه شهوته، ولا تخدعه لذته.

وقيل لأسقليبوس: فلأن له همّة. قال: إذا لا يرضى لنفسه بدون القدر.

ومدح رجل ثيودوروس على زهده في المال قال: وما حاجتي إلى شيء البخت يأتي به، واللؤم يحفظه، والنفقة تبدده، إن قلّ غلبك الهم بتكثيره، وإن كثرتقسمك في حفظه، يخسّدك من فاته ما عندك.

ويخدعك عنه من يطمع فيه منك.

وقال سقراط: ما أحب أن تكون النفس عالمة بكل ما أعد لها؛ قيل: ولم؟ قال: لأنها لو علمت طارت فرحاً ولم تنتفع بها.

وقال ديوجانس: القلب ذو لطافة، والجسم ذو كثافة، والكثيف يحفظ اللطيف كضوء المصباح في القنديل.

وقال أفلاطون: العلم مصباح النفس، ينفي عنها ظلمة الجهل، فما أمكنك أن تضيف إلى مصباحك مصباح غيرك فافعل.

قال أبو سليمان: ما أحسن المصباح إذا كان زجاجه نقياً، وضوءه ذكياً، وزيته قوياً، وذباله سويّاً.

قيل لسقراط: ما أحسن المرء بالمرء أن يتعلمه في صغره؟ قال: ما لا يسعه أن يجهله في كبره.

قال أبو سليمان: ومن ههنا أخذ من قال: يحسن بالمرء التعلم ما حسنت به الحياة.

قيل لهوميروس: ما أضبرك على عيب الناس لك! قال: لأننا استويننا في العيب، فأنا عندهم مثلهم عندي.

وقيل للإسكندر: أي شيء أنت به أسر؟ قال: قوتي على مكافأة من أحسن إليّ بأحسن من إحسانه.

وقال ديوجانس: إن إقبالك بالحديث على من لا يفهم عنك بمنزلة من وضع المائدة على مقبرة.

ورأى ديوجانس رجلاً يأكل ويتدرّع ويكثر، فقال له: يا هذا، ليست زيادة القوة بكثرة الأكل، وربما ورد على بدنك من ذلك الضرر العظيم، ولكن الزيادة في القوة بجودة ما يقبل بدنك منه على الملاءمة.

وقال ديوجانس: الذهب والفضة في الدار بمنزلة الشمس والقمر في العالم.

قال أبو سليمان: هذا مليح، ولكن ينبغي أن تبتقى الشمس والقمر فإنهما يكسفان فيكونان سبباً لفساد كثير، ويدوبان^(١) ويُخميان فيكونان ضارّين.

وقال أفلاطون: موت الرؤساء أصلح من رأسة السُّفلة.

وقال: إذا بخل المَلِكُ بالمال كثر الإرجاف به.

وقال سولون: العلمُ صغيرٌ في الكَمِّيَّة، كبيرٌ في الكيفيَّة.

وقال أبو سليمان: يعني أن القليل منه إذا استعملته على وجه كان له إتاء ونفع فائض ودرٌّ سائخ، وغاية محمودة، وأثرٌ باق. وهذه كلها كيفياتٌ من تلك الكَمِّيَّة.

وقال أفلاطون: لا يسوسُ النفوسَ الكثيرةَ على الحقِّ والواجبِ من لا يُمكنه أن يسوسَ نفسه الواحدة.

وقال سُقراط: النفسُ الفاضلةُ لا تطغى بالفَرَح، ولا تجزَعُ من الترح، لأنها تنظر في كلِّ شيء كما هو، لا تسلُّبه ما هو له ولا تُضيفُ إليه ما ليس منه؛ والفَرَحُ بالشيء إنما يكون بالنُّظر في محاسن الشيء دون مساوئه، والتَّرْحُ إنما يكون بالنظر في مساوئ الشيء دون محاسينه؛ فإذا خَلَصَ النظرُ من شوبِ الغلط فيما يُنظر فيه انتفى الطُّغيان والجزع، وحصلَ النظامُ وربيع^(٢).

قال ديوجانس: ينبغي للإنسان أن يُنظر في المرأة، فإن كان وجهه حسناً استتقح أن يضيفَ إليه فعلاً قبيحاً، وإن كان وجهه قبيحاً امتنعَ أن يضيف قبيحاً إلى قبيح حتى يتضاعفَ القُبْح.

وقال إقراط: منزلة لطافة القلب في الأبدانِ بمنزلة لطافة الناظر في الأجفان.

وقال: للقلْبِ آفتان، وهما: الغمُّ والهَمُّ، فالغمُّ يعرض منه التَّوَم، والهَمُّ يعرض منه السَّهَر، وذلك أن الهَمَّ فكرٌ في الخَوْفِ مما سيكون، فمَنه يَغْلِبُ السَّهَر؛ والغمُّ لا فكرَ فيه، لأنه إنما يحدث لما قد مضى وكان.

وقال أفلاطون: من يصحب السلطانَ فلا يجزَعُ من قسوته، كما لا يجزَعُ العواضُ من مُلوحَةِ البَحْرِ.

قال أبو سليمان: هذا كلامٌ ضره أكثرُ من نفعه، وإتْمَانُ صاحبه بالمِثَال، والمِثَالُ يَسْتَجِيبُ للحقِّ كما يَسْتَجِيبُ للباطل، والمعولُ على ما ثَبَتَ بالدليل، لا على ما يدعى بالتمثيل، وقد يجبُ أن يُجْتَنَبَ جانبُ السلطانِ بغاية الاستطاعة والإمكان، إلا إذا كان الدهرُ سليماً من الآفات الغالبة. فقال له الأندلسي: وما صورةُ الزمانِ

(١) أي الذهب والفضة.

(٢) أي ثبت ودام.

الخالِي من الآفات؟ فقال: أن يكون الدين طَرِيًّا، والدولة مقبلة، والخضبُ عامًّا، والعِلْمُ مطلوباً، والحكمة مَزْغوباً فيها، والأخلاق طاهرة، والدعوة شاملة، والقلوب سليمة، والمعاملات متكافئة، والسياسة مغروسة، والبصائر متقاربة. فقال: هذا لو صحَّ لارتفع الكونُ والفساد اللذان هما سوسُ هذا المكان، فقال: غلظت يا أبا عبد الله، فإن الكونَ والفسادَ يكونان على حالهما، ولكنهما يقعان على معلومين للصورة الثابتة، والسياسة العامة الغالبة، كأنك لا تحس بالفرق بين زمان خضب الأرض وجذبها؛ وكما أن للأرض خضباً وجذباً؛ كذلك للأحوال والأديان وللدول صلاحٌ وفساد، وإقبالٌ وإدبار، وزيادةٌ ونقصانٌ؛ ولو كان ما خلتُه لازماً، لكننا لا نتمنى ملكاً عادلاً، ولا سائساً فاضلاً، ولا ناظراً ناظماً، ولا مدبراً عالماً؛ وكان هذا لا يُعرف ولا يُعهد، ويكون في عرضِ المُحال كونه ووجدانه؛ وليس الأمر هكذا فقد عهدنا مثل أبي جعفر بسجستان، وكان والله بصيراً خبيراً، عالماً حكيماً، يقظاً حذراً، يخلق ويُفري، ويريش ويبري، ويكسو ويُعري، ويُمرضُ ويُبيري، وهكذا مثل أبي جعفر بالأمس ملك العراق في حزامته وصرامته وقيامه في جميع أموره، بنظره وتدييره؛ وكذلك قد عهد الناس قبلنا مثل هذا، فلم يقع التعجب من شيء عليه مدارُ الليل والنهار.

وقال ديوجانس لصاحب له: اطلب في حياتك هذه؛ العلمَ والمالَ، تملك بهما الناس، لأنك بين الخاصة والعامة، فالخاصة تعظمك لفضلِكَ، والعامة تعظمك لمالك^(١).

وقال أفلاطون: إنَّ الله تعالى بقدر ما يُعطي من الحكمة يمتنع الرزق؛ قال أبو سليمان: لأنَّ العِلْمَ والمالَ كضرتين قلما يجتمعان ويضطلحان، ولأنَّ حظَّ الإنسان من المال إنما هو من قبيل النَّفس الشَّهويَّة والسَّبعيَّة، وحظُّه من العِلْمِ إنما هو من قبيل النَّفس العاقلة، وهذان الحظان كالمتعاندين والضدين. قال: فيجب على الحضيف والمميز أن يعلم بأن العالم أشرف في سنخه وعنصره، وأوليه وآخره، وسفَره وحضره، وشهادته ومغيبه من ذي المال؛ فإذا وهب له العِلْمُ فلا يأس على المال الذي يُجزئ منه اليسير، ولا يُلهب نفسه على فوته حسرةً وأسفاً؛ فالعِلْمُ مُدبِّر، والمالُ مُدبِّر؛ والعِلْمُ نَفْسِي، والمالُ جَسَدِي، والعِلْمُ أكثرُ خصوصيةً بالإنسان من المال، وآفات صاحب المال كثيرةٌ وسريعة، لأنك لا ترى عالماً سرقَ عِلْمه وترك فقيراً منه؛ وقد رأيت جماعة سُرقت أموالهم ونُهبت وأخذت، وبقي أصحابها محتاجين لا حيلة لهم؛ والعِلْمُ يزكو على الإنفاق، ويضحب صاحبه على الإملاق؛ ويهدي إلى القناعة، ويسبلُ السُّرَّ على الفاقة؛ وما هكذا المال.

(١) في نسخة: فالخاصة تفضلك بما تعلم، والعامة تعظمك بما تملك.

الليلة الثامنة عشرة

وقال مرّة: تعالِ حتّى نَجْعَلَ ليلتنا هذه مُجُونِيّة، ونأخذ من الهَزَلِ بنصيب وافر، فإنَّ الجِدَّ قد كَدَّنَا، ونالَ مِن قُوانا، وملأنا قَبْضاً وكَرْباً هاتِ ما عندك .

قلتُ: قال حَسَنونُ المَجنونون بالكوفة يوماً - وقد اجتمع إليه المُجَان يَصِف كلُّ واحد منهم لذات الدنيا - فقال: أما أنا فأصِف ما جَرَّبْتُهُ؛ فقالوا: هاتِ؛ فقال: الأَمْنُ والعافية، وصَفْعُ الصُّلَعِ الرُّزْق، وحَكُّ الجَرَب، وأكلُ الرُّمانِ في الصيف، والطلاءُ في كلِّ شهرين، وإتيانُ النِّساءِ الرُّغنِّ والصبيانِ الرُّغْر^(١)، والمَشْيُ بلا سِراويل بين يَدَي من لا تَحْتَشِمُهُ، والعزْبَدَة على الثَّقيل، وقَلَّةُ خِلاف من تحبُّهُ والتَّمَرُّسُ بالحمقى ومُواخاةُ دَوِي الوفاء، وتركُ معاشرَةِ السُّفلةِ وقال الشاعر:

أضَبَحْتُ من سُفُل الأنامِ	إذِ بَغْتُ عِزْضِي بالطَّعامِ
أضَبَحْتُ صَفْعاناً لئِي	مَ النَّفْسِ من قومِ لئامِ
في اسْتِ أُمِّ رَبَّاتِ الخِيامِ	ومن يَجُنُّ إلى الخِيامِ
نَفْسِي تحنُّ إلى الهُلا	م الموتُ من دون الهُلامِ
مِن لَحْمِ جِذِي راضِع	رَخِصِ المفاصِلِ والعِظامِ
هذا لأولادِ الخَطَطِ	يا والبَغايا والحَرَامِ
حَيِّ القُدورِ الرِّاسِيَا	تِ وإن صَمِمْنَ عن الكَلامِ
وقِصاعَهُنَّ إذا أتِي	نَكَ طافحاتِ بالسَنامِ
لَهْفِي على سِكباجَةٍ	تَشْفِي القُلوبَ من السَّقامِ
يا عاذلي أسْرَفْتِ في	عَذلِ الخَلِيعِ المُسْتَهامِ
رَجُلٍ يَعْضُ إذا نَصَحَ	تَ له على فأسِ اللُّجامِ
دَغَ عَذلَ من يَغْصِي العَدُو	لَ ولا يُصِيخُ إلى المَلامِ
خَلَعَ العِذارَ وراحَ في	ثوبِ المَعاصِي والأثامِ
شَيْخٍ يُصَلِّي قاعِداً	وَيَنِيكَ عَشْراً مِن قِيامِ

(١) جمع أزعر، وهو الذي لا شعر له.

وَيَعَافُ نَيْكَ الْغَايَا تِ وَيَشْتَهِي نَيْكَ الْغُلَامِ
وَتَرَاهُ يُزْعَدُ حِينَ يُبْذَرُ كَرُّ عِنْدَهُ شَهْرُ الصَّيَامِ
خَوْفًا مِنَ الشَّهْرِ الْمَعْدُ بِ نَفْسِهِ فِي كُلِّ عَامِ
سَلِسُ الْقِيَادِ إِلَى التَّصَا بِي وَالْمَلَاهِي وَالْحَرَامِ
مَنْ لِلْمُرُوءَةِ وَالْفُتُ هُوءَ بَعْدَ مَوْتِي وَالنُّدَامِ
مَنْ لِلسَّمَا حِ وَاللرُّمَا حِ لَدَى الْهَزَاهِزِ وَالْحُسَامِ
مَنْ لِللُّوَا طِ وَاللُّحَلَا قِ وَلِلْمُلِمَاتِ الْعِظَامِ

كان محمدُ بنُ الحسنِ الجُزْجَانِيّ متقراً في كلامه، فدخلَ الحمامَ يوماً، فقال للقيّم: أين الجليلة التي تسلخُ بها الضويطة من الإخفيق^(١)؟ قال: فصنع القيمُ قفاه بجلدة الثورِ وخرجَ هارياً، فلما خرجَ من الحمامِ وجّهَ إلى صاحبِ الشُرْطَةِ، فأخذ القيمَ وحَبَسَهُ، فلما كانَ عِشَاءُ ذلكَ اليومِ كَتَبَ إليه القيمُ رُقْعَةً يقولُ فيها: قد أبرمَني المخبوسونُ بالمسألةِ عن السببِ الذي حُيِّسْتُ له، فأما خَلَّتِني وإما عرَّفْتهم. فوجهَ مَنْ أطلَقَهُ، واتصلَ الخبرُ بالفتحِ، فحدّثَ المتوكِّلَ، فقال: ينبغي أن يُغنى هذا القيمُ عن الخِدمَةِ في الحمامِ. وأمرَ له بمائتي دينار.

قال: وكان بالبصرة مخنثٌ يجمع ويغشق بعض المهالبة، فلم يزل المخنثُ به حتى أوقعه، قال: فلقيته من غدٍ فقلت له: كيف وقعة الجفرة^(٢) عندكم البارحة؟ فقال: لما تدانت الأشخاص، وروق الكلام، والتفت الساق بالساق، ولطخ باطنها بالبزاق، وفرغ البيض بالذكور، وجعلت الرماح تمور^(٣)؛ صبر الكريم فلم يجزع، وسلم طائعا فلم يُخدع؛ ثم انصرف القوم على سلم، بأفضل غنم؛ وشفيت الصدور، وسكنت حرارة النفوس، ومات كلُّ وجد، وأصيب مقتل كلِّ هجر، واتصل الحبل، وانعقد الوصل. قال: فلو كان أعد هذا الكلام لمسألتي قبل ذلك بدهر لكان قد أجاد.

وقال أبو فرعون الشاشي:

أنا أبو فرعون فاغرف كُنيتي حلّ أبو عمرة وسط حُجرتي
وحلّ نسج العنكبوت بُرمتي أعشب تنوري وقلت جنطيتي

(١) الضويطة: الحمامة في أصل الحوض. والأخفيق: الشق في الأرض ولعله أراد التي يزال بها الوسخ من الجسد.

(٢) موضع بالبصرة، حدث به وقعة سنة سبعين بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير، وكان النصر فيها لأهل البصرة، ودامت هذه الوقعة أربعين يوماً. وفي الكلام تورية.

(٣) الذكور: السيوف، والبيض: التي تلبس على الرأس في الحرب، وتمور تضطرب. وفي الكلام تورية كما لا يخفى.

وحالَفَ القَمْلُ زَمَاناً لِخَيْتِي وَضَعَفْتُ مِنَ الهُزَالِ ضَرْطِي
 وصار تُبَّانِي^(١) كَفَافَ خُضَيْتِي أَيْرُ جِمَارٍ فِي حِرَامِ عَيْشَتِي
 أَبُو عَمْرَةَ: صاحبُ شُرْطَةِ المِخْتَارِ بنِ عُبَيْدٍ، كان لا ينزل بقوم إلا اجتاحتهم،
 فصار مثلاً لكلِّ شُؤْمٍ وَشَرٍّ. ويقال أيضاً: إنَّ أبا عَمْرَةَ اسمُ الجُوعِ، هكذا حدَّثني به أبو
 الحَسَنِ البَصْرِيُّ.

وَأَشَدَّ بِشْرُ بِنِ هَارُونَ فِي أَبِي طَاهِرٍ:

أَبَا عَبِيدِ الإلَهَ وَأَنْتَ حُرٌّ مِنَ الأَخْرَارِ مَنزُوعِ القِلَادَةِ
 سَأَلْتُكَ بِالإلَهِ لِتُخْبِرْتِي أَجَهْلُكَ مُسْتَفَادُ أُمِّ وِلَادَةِ
 فَإِنَّ يَكُ فِيكَ مَوْلُوداً فَعُدُّ وَإِنَّ يَكُ حَدِيثاً لَكَ بِاسْتِفَادَةِ
 فَوَاعِجِباً يَزِيدُ النَّاسُ فَضْلاً وَأَنْتَ تَزِيدُ نَقْصاً بِالزِّيَادَةِ!

حَكَى الصُّولِيُّ: حَدَّثَنَا مَيْمُونُ بنُ مِهْرَانَ قَالَ: كان معنا مَخْنَتٌ يَلْقَبُ بِمِشْمِشَةَ -
 وكان أُمِّيًّا - فَكَتَبَ بِحَضْرَتِهِ رَجُلٌ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ كِتَاباً، فَقَالَ المَخْنَتُ: اكْتُبْ إِلَيْهِ:
 مِشْمِشَةُ يقرأ عَلَيْكَ السَّلَامُ؛ فَقَالَ: قد فَعَلْتُ - وما كان فَعَلَ - فَقَالَ: أَرِنِي؛ فَقَالَ: هذا
 اسْمُكَ؛ فَقَالَ: هِيَهَاتَ، اسْمِي فِي الكِتَابِ شِبْهُ دَاخِلِ الأُذُنِ، فَعَجِبْنَا مِنْ جَوْدَةِ تَشْبِيهِهِ.

قال نضلة: مرزت بكتاسين أحدهما في البئر والآخر على رأس البئر؛ وإذا ضجعة،
 فقال الذي في البئر: ما الخبر؟ فقال: قُبِضَ على علي بن عيسى؟ فقال: مَنْ أَعَدُّوا بَدْلَهُ؟
 قال: ابنُ الفُراتِ؛ قال: قاتلهم الله، أخذوا المضحفَ، وَوَضَعُوا بَدْلَهُ الطَّنْبُورَ.

كتب أبو العيناء ابن مكرم: قد أصبتُ لك غلاماً من بني ناعظ، ثم من بني
 ناشرة، ثم من بني نهد. فكتب إليه: اثبتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين.

وقَدِمَ رَجُلٌ مع امْرَأَةٍ إلى القَاضِي ومَعَهَا طِفْلٌ، فقالت: هذا ابْنُهُ، فقال الرجل:
 أَعَزَّ اللهُ القَاضِي ما أَعْرَفُهُ؛ فقال القَاضِي: أتَى اللهُ فَإِنَّ النَبِيَّ ﷺ يقول: «الولدُ
 للفراس، وللعاهر الحجر»^(٢)، فهذا وأمه على فراشك؛ قال الرجل: ما تتايكننا إلا في

(١) التبان: سروال صغير يستر العورة المغلظة.

(٢) روى الإمام البخاري في صحيحه: ٣ - باب: تفسير المشبهات، حديث رقم: ١٩٤٨ - عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عتبة بن أبي وقاص، عهد إلى أخيه سعد بن أبي وقاص: أن ابن وليدة زمعة مني فاقبضه، قالت: فلما كان عام الفتح أخذه سعد بن أبي وقاص وقال: ابن أخي، قد عهد إلي فيه، فقام عبد بن زمعة فقال: أخي وابن وليدة أبي، ولد على فراشه، فتساقوا إلى النبي ﷺ، فقال سعد: يا رسول الله، ابن أخي، كان قد عهد إلي فيه. فقال عبد بن زمعة: أخي وابن وليدة أبي، ولد على فراشه. فقال رسول الله ﷺ: «هولك يا عبد بن زمعة». ثم قال النبي ﷺ: «الولد للفراس وللعاهر الحجر». ثم قال لسودة بنت زمعة، زوج =

الاست، فَمِنْ أَيْنَ لِي وَلَدٌ؟ فقالت المرأة: أَعَزَّ اللَّهُ الْقَاضِي؛ قُلْ لَهُ: مَا رَأَيْتَ؟ يُعْرِفُهُ^(١)؛ فَكَفَّ الرَّجُلُ، وَأَخَذَ بِيَدِ وَلَدِهِ وَانصَرَفَ.

قال: وَسَمِعْتُ آخَرَ يَقُولُ لَشَاطِرٍ^(٢): أَسْكُتْ، فَإِنَّ نَهْرًا جَرَى فِيهِ الْمَاءُ لَا بَدَأَ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ. فَقَالَ لَهُ الْآخَرُ: حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ الْمَاءُ تَكُونُ قَدْ مَاتَتْ ضَفَادِعُهُ.

وَمِنْ كَلَامِ الشُّطَّارِ: أَنَا الْبَغْلُ الْحَرُونَ، وَالْجَمَلُ الْهَائِجُ، أَنَا الْفِيلُ الْمُغْتَلِمُ لَوْ كَلَّمَنِي عَدُوِّي لَعَقَدْتُ شَعْرَ أَنْفِهِ إِلَى شَعْرِ أَسْتِهِ حَتَّى يَسْمُ فُسَاءَهُ، كَأَنَّهُ الْقُنْفُذَةُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْقُصَّاصِ: فِي الثَّبِيدِ شَيْءٌ مِنَ الْجَنَّةِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤] وَالثَّبِيدُ يَذْهَبُ الْحَزْنَ.

قَالَ وَسَمِعْتُ مَاجِنَةً تَقُولُ: ضُرَّ وَسْرٌ، وَقُدَّ وَازْقُدُّ، وَاطْرِيحْ وَاقْتَرِيحْ.

قَالَ ابْنُ أَبِي طَاهِرٍ: دَعَا مَرَّةً قَوْمًا وَأَمَرَ جَارِيَتَهُ أَنْ تَبْخَرَهُمْ، فَأَدْخَلَتْ يَدَهَا فِي ثُوبِ بَعْضِهِمْ فَوَجَدَتْ أُرْيَهُ قَائِمًا، فَجَعَلَتْ تَمْرُسُهُ وَتَلْعَبُ بِهِ وَأَطَالَتْ؛ فَقَالَ مَوْلَاهَا: أَيُّشٍ آخِرُ هَذَا الْعُودِ؟ أَمَا أَحْتَرَقُ؟ قَالَتْ: يَا مَوْلَايَ، هُوَ عُقْدَةٌ.

قَالَ مُزْبِدٌ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَا مَضَى إِذَا عَشِقَ الْجَارِيَةَ رَاسَلَهَا سَنَةً، ثُمَّ رَضِيَ أَنْ يَمْنُضَعَ الْعِلْكَ الَّذِي تَمْنُضَعُهُ، ثُمَّ إِذَا تَلَاقَا تَحَدَّثَا وَتَنَاشَدَا الْأَشْعَارَ، فَصَارَ الرَّجُلُ الْيَوْمَ إِذَا عَشِقَ الْجَارِيَةَ لَمْ يَكُنْ لَهُ هَمٌّ إِلَّا أَنْ يَرْفَعَ رِجْلَهَا كَأَنَّهُ أَشْهَدَ عَلَى نِكَاحِهَا أَبَا هُرَيْرَةَ.

قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: كَانُوا يَعَشِقُونَ مِنْ غَيْرِ رِيْبَةٍ، فَكَانَ لَا يُسْتَنْكَرُ مِنَ الرَّجُلِ أَنْ يَجِيءَ فَيَحْدُثُ أَهْلَ الْبَيْتِ ثُمَّ يَذْهَبُ. قَالَ هِشَامٌ: وَلَكِنَّهُمْ لَا يَرْضُونَ الْيَوْمَ إِلَّا بِالْمَوَاقِعَةِ.

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: قُلْتُ لِأَعْرَابِيٍّ: هَلْ تَعْرِفُونَ الْعَشْقَ بِالْبَادِيَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَيْكُونُ أَحَدًا لَا يَعْرِفُهُ. قُلْتُ: فَمَا هُوَ عِنْدَكُمْ؟ قَالَ: الْقُبْلَةُ وَالصُّنْمَةُ وَالشَّمَّةُ، قُلْتُ: لَيْسَ هُوَ هَكَذَا عِنْدَنَا. قَالَ: وَكَيْفَ هُوَ؟ قُلْتُ: أَنْ يَتَفَخَّذَ الرَّجُلُ الْمَرَّةَ فَيَبَاضِعَهَا. فَقَالَ: قَدْ خَرَجَ إِلَى طَلَبِ الْوَلَدِ.

= النبي ﷺ: «احتجبي منه». لما رأى من شبهه بعتبة، فما رآها حتى لقي الله. وأخرج مسلم في صحيحه كتاب الرضاع، ١٠ - باب: الولد للفراش وتوقى الشبهات، رقم ١٤٥٧/٣٦.

(ابن وليدة زمعة) الوليدة الجارية والأمة وإن كانت كبيرة، والولد المتنازع فيه هو عبد الرحمن بن زمعة، وزمعة بن قيس والد سودة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ. (ولد على فراشه) أي من امرأة كانت موطوءة له. (فتساوقا) ذهباً إليه يسوق كل منهما الآخر ليرافعا عنده. (الولد للفراش) الولد تابع لصاحب الفراش، وهو من كانت المرأة موطوءة له حين الولادة. (العاهر للحجر) للزاني الخبيثة والحرمان ولا حق له في الولد، والعرب تكني عن حرمان الشخص بقولها: له الحجر وله التراب.

(١) أي يعرف ما رأى.

(٢) من أعيا أهله عبثاً.

قال بشر بن هارون:

إن أبا موسى له لحيّة تذخُلُ في الجُحرِ بلا إذنٍ
 وصورةٌ في العينِ مثلُ القذَى ونَغمةٌ كالوَقْرِ في الأذنِ
 كم صَفَعَةٍ صاحَتْ إلى صَافِعٍ بالنَّعلِ مِنْ أَخْدَعِهِ: خُذْنِي
 وقال لنا أبو يوسف: قال جحظة: حضرتُ مجلساً فيه جماعةٌ من وجوه الكتاب،
 وعندنا قِيَّةٌ مُحَسَّنَةٌ حاضرةُ النادرة، فقال لها بعضهم: بحياتي عليك عَنِّي لي:

لست مِنِّي ولست مِنكَ فَدَعْنِي وأمضِ عَنِّي مُصَاحِباً بِسَلامٍ
 فقالت: أهكذا كان أبوك يَغْنِيكَ؟ فأخْبَلْتَهُ.

اشترى مَدِينِي رُطباً، فأخْرَجَ صاحِبُ الرُطبِ كَيْلَجَةً صَغِيرَةً لِيَكِيلَ بها، فقال
 المَدِينِي: واللَّهِ لو كَلَّتْ بها حَسَنَاتٍ ما قَبِلْتُها.

سئل أبو عُمارة قاضي الكوفة: أيُّ بنيك أثقل؟ قال: ما فيهم بَعْدَ الكَبِيرِ أثْقَلُ من
 الصَّغِيرِ إِلَّا الأَوْسَطُ.

اجتَمَعَ جماعةٌ عند جامع الصَّيْدَنانِي، فقال أحدهم: ليس للمخمور أنفع من
 سَلِجِهِ، فقال جامع: أَخَذْتُها واللَّهِ مِنْ فَمِي.

قال رجل لرؤبة: أَتَهْمِزُ الخُراً؟ قال: بِإِضْبَعِكَ يا بن الخبيثة.

وقفَ أَعْرَابِيٌّ على قوم يُسائِلُهُم، فقال لأَحَدِهِم: ما اسْمُكَ؟ قال: مانع؛ وقال
 للآخر: ما اسْمُكَ؟ قال: مُحْرَزُ؛ وقال للآخر: ما اسْمُكَ؟ قال: حافظ؛ قال: قَبِّحْكم
 اللّهُ، ما أظن الأقفال إلا من أسمائِكُمْ.

من كلام العامة: «مَنارةُ الإسكندريةِ عندك حَشْخَاشَةٌ فارغةٌ . . .».

قال جَحْظَةُ: قرأتُ على فِصٍّ ما جِئْتِ: ليلةٌ عُرْسِي؛ ثَقَبُوا بالأيْرِ كُسِي. وعلى
 فِصٍّ ما جِئْتِ أخرى: السَّحْقُ أَخْفَى والثَّيْكَ أَشْفَى.

وقال جُحَا لأبي مسلم صاحب الدعوة: إني نَذَرْتُ إن رأيتُك أن أَخَذَ منك ألفَ
 درهم. فقال: رأيتُ أصحابَ النذورِ يُعْطونَ لا يَأْخُذونَ، وأمرَ له بها.

قال السَّرِي: رأيتُ المُخَنَّثَ الَّذِي يعرفُ بالغريب، وإنساناً من العامة قد آذاه
 وطال ذلك، فالتفتَ إليه وقال له: يا مشقوق؛ نَعْلُكَ زائفة، وقميصُكَ مَقْرُون
 الحاجبين، وإزارُكَ صَدَفٌ أزرق، وأنت تَتَلَاهَى بأولادِ الملوكِ والأمراء. قال السَّرِي:
 فحجلُ العامِّي ومَرٌّ، فقلتُ له: فَسَّرُ لي هذا الغريب. فقال: إمضِ إلى ثَعْلَب. فقلت:
 ليس هذا من عَمَلِهِ؛ فَسَّرُهُ لي. قال: النعلُ الزائفةُ التي تجرُفُ الترابَ جَرَفاً، والقميصُ
 المقرون، هو الخلقُ الَّذِي في كَتِفَيْهِ رَقعتانِ أجودُ منه، فهما تُفَصِّحانِ بيانا، والإزارُ

صدفٌ أزرق، أي مخرقٌ مُفتت. فقلتُ: فقولك: يا مشقوق؟ قال: قطعُ الظهر.
 قيل للشَّعبي: أيجوز أن يصلَّى في البيعة؟ قال: نعم. ويجوز أن يُخرأَ فيها.
 وقال سعيد بن جُبَيْر: القُبلة رسولُ الجماع.

وقال الرشيد للجمَّاز: كيف مائدة محمد بن يحيى، يعني البرمكي. قال: شبرٌ
 في شبر، وصحفته من قشر الخشخاش، وبين الرغيف والرغيف مضربٌ كُرة؛ وبين
 اللُّون واللُّون فترةٌ نبي. قال: فمن يخضرها؟ قال: الكرامُ الكاتبون؛ فضحك وقال:
 لحاك الله من رجل.

قال نضلة: دخلتُ ساقيةً في الكرخ فتوضأتُ؛ فلما خرجتُ تعلق السقاء بي
 وقال: هات قطعة؛ فضرطتُ ضرطةً وقلتُ: خل الآن سبيلي فقد نقضتُ وضوئي؛
 فضحك وخلاني.

وعَدَ رجلٌ بعضَ إخوانه أن يُهديَ إليه بغلاً؛ فطالَ مَطْلُهُ، فأخذ قارورةً وبالَ فيها
 وجاء إلى الطيب وقال: انظر إلى هذا الماء، هل يُهدي إليّ بعضَ إخواني بغلاً.

حدَّثنا ابنُ الخَلال البصريُّ قال: سمعتُ ابنَ اليعقوبيِّ يقول: رأيتُ على بابِ
 المِزبَد خالداً الكاتِبَ وهو ينادي: يا معشرَ الطُرفاء، والمتخلِّقين بالوفاء؛ أليس من
 العَجَب العجيب، والنادر الغريب، أن شِعري يُزنى به ويلاطُ منذ أربعين سنةً وأنا
 أطلبُ درهماً فلا أُعطى، ثم أنشأ يقول:

أُحْرِمُ مِنْكُمْ بِمَا أَقُولُ وَقَدْ نَالَ بِهِ الْعَاشِقُونَ مَنْ عَشِقُوا
 صِرْتُ كَأَنِّي ذُبَالَةٌ نُصِبْتُ نُضِيءٌ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَخْتَرِقُ

وسمعتُ الماجنَ المعروفَ بالغرَّاب يقول: ويلك أيش في ذا؟ لا تختلطِ الجنطةُ
 بالشَّعير، أو يُضنَّعُ الباذنجان قرعاً، أو يتحوَّلُ الفُجُلُ إلى الباقلاء، ويصير الخزنوب
 إلى الأرندج.

وسمعتُ دجاجةً المخنَّتُ يقول لآخر: إنما أنت بيتٌ بلا باب، وقدمٌ بلا ساق،
 وأعمى بلا عصا، ونازٌ بلا حطَب، ونهرٌ بلا مغبَر، وحائطٌ بلا سَقْف.

وشتمَ آخرَ فقال: يا رأسَ الأفعى، ويا عصا المُكاري، ويا بُرُئسَ الجائلِيق، يا
 كَوْدَنَ القَصَّار، يا بَيْرَمَ النجَّار؛ يا ناقوسَ النصارى؛ يا ذرورَ العين، يا تَحْتَ الشَّباب،
 يا طعنَ الرُمحِ في الثُّرس؛ يا مغرقةَ القُدور، ومكئسةَ الدُّور؛ لا تُبالي أينَ وُضِعتُ؟
 ولا أيُّ جُحْرٍ دخلتُ؟ ولا في أيِّ خانٍ نزلتُ، ولا في أيِّ حَمَامٍ عمِلتُ؛ إن لم تكن
 في الكوَّةِ مِثْرَساً فَتَحَ اللصوصُ البابَ؛ يا رَحَى على رَحَى؛ ووعاءٌ في وعاء، وغطاءٌ
 على غطاء، وداءٌ بلا دواء؛ وعمى على عمى؛ ويا جُهدَ البلاء، ويا سَطْحاً بلا ميزاب،

ويا عوداً بلا مضراب، ويا فماً بلا ناب، ويا سكيناً بلا نصاب، ويا زغداً بلا سحاب،
ويا كوةً بلا باب؛ ويا قميصاً بلا مثزّر، ويا جسراً بلا نهر، ويا قرأً على قرء؛ ويا شطاً
الصّراة، ويا قَصراً بلا مِسْناة ويا وَرَقَ الكَمَاه، يا مَطْبِخاً بلا أفواه؛ يا ذَنْبَ الفار، يا
قَدراً بلا أبزار، يا رَأْسَ الطُومار، يا رسولاً بلا أَخْبَار؛ يا خَيْطَ البَوَارِي، يا رَحَى في
صَحَارِي، يا طاقاتٍ بلا سَوَارِي.

دخل أبو نواس على عنان جارية الناطفيّ فقال لها:

لو رَأَى في البَيْتِ جُخْراً لَنَزَا حتّى يموتَا
أو رَأَى في البَيْتِ ثَقْباً لَتَحَوَّلَ عَنْكَ بَوتَا
فأجابته:

زَوَجُوا هَذَا بِأَلْفِ وَأَظُنُّ الأَلْفَ قُوتَا
قَبْلَ أن يَنْقَلِبَ الدَّاءُ ءَ فَلَإِ يَأْتِي وَيُوتِي

فقال - أدام الله دولته، وبسط لده نغمته - قَدُم هذا الفَنّ على غيره، وما
ظننت أن هذا يطرد في مجلس واحد، وربّما عيب هذا الثَّمَطُ كلّ العيب، وذلك ظلم،
لأن النفس تحتاج إلى بشر. وقد بلغني أن ابن عباس كان يقول في مجلسه بعد
الخوض في الكتاب والسنة والفقہ والمسائل: احمضوا، وما أراه أراد بذلك إلا لتعديل
النفس لئلا يلحقها كلال الجد، ولتقتبس نشاطاً في المُستأنف، ولتستعد لقبول ما يرد
عليها فتسمع؛ والسلام.

الليلة التاسعة عشرة

وَرَسَمَ بِجَمْعِ كَلِمَاتِ بَوَارِعٍ، قِصَارِ جَوَامِعٍ، فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ أَشْيَاءَ كُنْتُ أَسْمَعُهَا مِنْ أَفْوَاهِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَفِيهَا قَرْعٌ لِلْحَسَنِ، وَتَنْبِيهٌُ لِلْعَقْلِ، وَإِمْتَاعٌ لِلرُّوحِ، وَمَعُونَةٌ عَلَى اسْتِفَادَةِ الْيَقَظَةِ، وَانْتِفَاعٌ فِي الْمَقَامَاتِ الْمَخْتَلِفَةِ، وَتَمَثُّلٌ لِلتَّجَارِبِ الْمَخْلُفَةِ؛ وَامْتِثَالٌ لِلْأَحْوَالِ الْمُسْتَأْنَفَةِ.

من ذلك :

«الحمد لله» مِفْتَاحُ الْمَذْهَبِ . الْبِرُّ يَسْتَعِيدُ الْحُرَّ . الْقَنَاعَةُ عِزُّ الْمُعْسِرِ . الصَّدَقَةُ كَنْزُ الْمُوسِرِ . مَا انْقَضَتْ سَاعَةٌ مِنْ أَمْسِكَ إِلَّا بَبْضَعَةٍ مِنْ نَفْسِكَ . دِرْهَمٌ يَنْفَعُ خَيْرٌ مِنْ دِينَارٍ يَضُرُّ . مِنْ سَرِّهِ الْفَسَادُ، سَاءَ الْمَعَادُ . الشَّقِيُّ مَنْ جَمَعَ لِعَيْرِهِ فَضْنَ عَلَى نَفْسِهِ بِخَيْرِهِ . زِدْ مِنْ طَوْلِ أَمَلِكَ فِي قِصْرِ عَمَلِكَ . لَا يَغُرُّكَ صِحَّةُ نَفْسِكَ، وَسَلَامَةُ أَمْسِكَ، فَمُدَّةُ الْعُمُرِ قَلِيلَةٌ، وَصِحَّةُ النَّفْسِ مُسْتَحِيلَةٌ . مَنْ لَمْ يَغْتَبِرْ بِالْأَيَّامِ، لَمْ يَنْزَجِرْ بِالْمَلَامِ . مَنْ اسْتَعْنَى بِاللَّهِ عَنِ النَّاسِ، أَمِنَ مِنْ عَوَارِضِ الْإِفْلَاسِ . مَنْ ذَكَرَ الْمَنِيَّةَ، نَسِيَ الْأُمْنِيَّةَ . الْبَخِيلُ حَارِسُ نِعْمَتِهِ، وَخَازِنُ وَرَثَتِهِ . لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ دُنْيَاهُ مَا يُعِينُهُ عَلَى عِمَارَةِ أُخْرَاهُ . مَنْ ارْتَدَى بِالْكَفَافِ، اِكْتَسَى بِالْعَفَافِ . لَا تَخْدَعَنَّكَ الدُّنْيَا بِخَدَائِعِهَا، وَلَا تَفْتِنَنَّكَ بَوْدَائِعِهَا . رَبُّ حُجَّةٍ، تَأْتِي عَلَى مُهَجَّةٍ؛ وَرُبُّ فُرْصَةٍ، تُؤَدِّي إِلَى غُصَّةٍ . كَمْ مِنْ دَمٍ، سَفَكَهُ فَمٍ . كَمْ إِنْسَانٍ، أَهْلَكَهُ لِسَانٌ . رَبُّ حَرْفٍ، أَدَّى إِلَى حَتْفٍ . لَا تُفْرِطْ، فَتَسْقُطْ . الزَّمُ الصَّمْتُ، وَأَخْفِ الصَّوْتِ . مَنْ حَسُنَتْ مَسَاعِيهِ، طَابَتْ مَرَاعِيهِ . مَنْ أَعَزَّ فُلْسُهُ، أَذَلَّ نَفْسَهُ . مَنْ طَالَ عُدُوَّتُهُ، زَالَ سُلْطَانُهُ . مَنْ لَمْ يَسْتَظْهِرْ بِالْيَقَظَةِ، لَمْ يَسْتَفِيعْ بِالْحَفَظَةِ . مَنْ اسْتَهْدَى الْأَعْمَى عَمِيٍّ عَنِ الْهُدَى . مَنْ اغْتَرَّ بِمِحَالِهِ، قَصَرَ فِي احْتِيَالِهِ . زَوَالَ الدُّوَلِ، بَاصْطِنَاعِ السُّفُلِ . مَنْ تَرَكَ مَا يَنْعِيهِ، دَفَعَ إِلَى مَا لَا يَنْعِيهِ . ظَلُمَ الْعَمَالُ، مِنْ ظُلْمَةِ الْأَعْمَالِ . مَنْ اسْتَشَارَ الْجَاهِلَ ضَلَّ، وَمَنْ جَهَلَ مَوْضِعَ قَدَمِهِ زَلَّ . لَا يَغُرُّكَ طَوْلُ الْقَامَةِ، مَعَ قِصْرِ الْاسْتِقَامَةِ، فَإِنَّ الدَّرَّةَ مَعَ صِغَرِهَا، أَنْفَعُ مِنَ الصَّخْرَةِ عَلَى كِبَرِهَا . تَجَرَّعَ مِنْ عَدُوِّكَ الْغُصَّةَ، إِنْ لَمْ تَتَلَّ مِنْهُ الْفُرْصَةَ، فَإِذَا وَجَدْتَهَا فَانْتَهَزْهَا قَبْلَ أَنْ يَفُوتَكَ الدَّرَكُ، أَوْ يَصِيبَكَ الْفَلَكُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا دُوَلٌ تَبْنِيهَا الْأَقْدَارُ، وَيَهْدِمُهَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ . مَنْ زَرَعَ الْإِحْنَ، حَصَدَ الْمِحْنَ . مَنْ بَعُدَ مَطْمَعُهُ، قَرُبَ مَضْرَعُهُ . التَّغْلِبُ فِي إِقْبَالِ جَدِّهِ، يَغْلِبُ الْأَسَدَ فِي اسْتِقْبَالِ شَدِّهِ . رَبُّ عَطَبٍ، تَحْتَ طَلَبِ . اللِّسَانُ، رِقُّ

الإنسان. من ثمرة الإحسان، كَثْرَةُ الإخوان. من سأل ما لَا يَجِبُ، أُجِيبَ بما لا يُجِبُ، وأنشدتُ:

وليس لنا عَيْبٌ سِوَى أَنْ جُودَنَا أَضْرَبْنَا والبَاسَ من كل جَانِبِ
فَأَفْتَى التُّدَى أَمْوَالَنَا غيرَ ظالم وَأَفْتَى الرَّدَى أَعْمَارَنَا غيرَ عَائِبِ
أَبُونَا أَبٌ كَانَ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ أَبٌ مِثْلُهُ أَغْنَاهُمْ بِالْمَنَاقِبِ

قال حميد بن الصَّيْمَرِيُّ لابنه: اصْحَبِ السُّلْطَانَ بِشِدَّةِ التَّوْقِي كَمَا تَصْحَبِ السَّبْعَ الضَّارِيَّ والفَيْلَ الْمُعْتَلِمَ والأَفْعَى القَاتِلَةَ؛ واصْحَبِ الصَّدِيقَ بِلِينِ الجَانِبِ والتَّوَاضُعِ؛ واصْحَبِ العَدُوَّ بِالإِعْذَارِ إِلَيْهِ والحِجَّةِ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ؛ واصْحَبِ العَامَّةَ بِالْبِرِّ والبِشْرِ واللِّطْفِ بِاللِّسَانِ.

وَقَعَ عَبْدُ الحَمِيدِ الكَاتِبُ عَلَيَّ ظَهَرَ كِتَابٍ: يَا هَذَا، لَوْ جَعَلْتَمَا تَحْمَلُهُ القِرَاطِيسُ مِنَ الكَلَامِ مَا لَأَ حَوَيْتَ جَمَالاً وَحُزَّتَ كَمَالاً.

وَوَقَعَ السَّفَاحُ مَرَّةً: مَا أَقْبَحَ بِنَا أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا لَنَا وَحَاشَيْتَنَا خَارِجُونَ مِنْهَا، فَعَجَّلَ أَرْزَاقَهُمْ، وَزِدَ فِيهَا عَلَيَّ قَدْرَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

قال الحسن بن علي: عُنْوَانُ الشَّرَفِ، حُسْنُ الخَلْفِ.
وقال جعفر بن محمد - عليهما السلام -: إِنْ لَمْ تَجْفُ، فَكَلِّمْنَا تَصْفُو.
وقال أعرابي: النخلة جِدْعُهَا نَمَاءٌ، وَلِيْفُهَا رِشَاءٌ، وَكَرْبُهَا^(١) صِلاءٌ، وَسَعْفُهَا ضِيَاءٌ، وَحَمْلُهَا غِذَاءٌ.

وقال الأصمعي: سَمِعْتُ كَسَّاحاً يَقُولُ لِغِلامٍ لَهُ: أَلَمْ أَضْغِ إِزَارَكَ، أَلَمْ أَصْنَعْ عُودَ مِجْرَفَتِكَ؟ أَلَمْ أَجْعَلْكَ كَسَّاحاً عَلَيَّ جِمَارِينَ؟

وَجَدْتُ كِتَابَ بِالْيَمَنِ فِيهِ: أَنَا فِلانَةُ بِنْتُ فِلانِ التُّبَعِيِّ، كُنْتُ أَكُلُ البَقْلَ الرَّطْبَ مِنَ الهِنْدِ وَأَنَا بِالْيَمَنِ، ثُمَّ جُعْنَا حَتَّى اشْتَرَيْنَا مَكْوكَ بُرٌّ بِمَكْوكِ دُرٍّ، مِنْ يَوْسَفَ بْنِ يَعْقُوبَ بِمِصْرَ، فَمِنْ رَأَى فِلا يَغْتَرَّ بِالدُّنْيَا.

وقال علي بن أبي طالب - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي تَغْلِبَ يَوْمَ صِفِّينَ: أَأَتْرَثُكُمْ مُعاوِيَةَ؟ فَقال: ما أَتْرَناهُ، وَلَكِنَّا أَتْرَنا القَسْبَ^(٢) الأَصْفَرَ، والبُرَّ الأَحْمَرَ، والزَّيْتِ الأَخْضَرَ.

قِيلَ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَمَّا صالِحَ مُعاوِيَةَ: يَا عارَ المُؤْمِنِينَ. فَقال: العارُ خَيْرٌ مِنَ النِّارِ.

(١) أصول السعف الغلاظ العراض.

(٢) التمر اليابس.

نظر الحجاج يوماً على المائدة إلى رجل وجأ عنق رجل آخر، فدعا بهما، فقال للواجي: علام صنعت؟ فقال: غصن بعظم فحفت أن يقتله، فوجأت عنقه فألقاه؛ فسأل الآخر فقال: صدق؛ فدعا بالطباخ فقال له: أتدع العظام في طعامك حتى يغصن بها؟ فقال: إن الطعام كثير، وربما وقع العظم في المرق فلا يزال. قال: تصب المرق على المناخل. فكان يفعل.

قال سلمة بن المحبق: شهدت فتح الأبله، فوقع في سهمي قذر نحاس، فنظرت فإذا هي ذهب فيها ثمانون ألف مثقال، فكتبت في ذلك إلى عمر، فأجاب بأن يحلف سلمة بأنه أخذها يوم أخذها وهي عنده، فإن حلف سلمت إليه، وإلا قسمت بين المسلمين، قال: فحلفت فسلمت إلي، فأصول أموالنا اليوم منها. قال بعض الحكماء: لا يضير على المروءة إلا ذو طبيعة كريمة.

(١).....

أصاب عبد الرحمن بن مدين - وكان رجل صدق بخراسان - ملاً عظيماً فجهر سبعين مملوكاً بدوابهم وأسلحتهم إلى هشام بن عبد الملك، ثم أصبحوا معه يوم الرحيل، فلما استوى بهم الطريق نظر إليهم فقال: ما ينبغي لرجل أن يتقرب بهؤلاء إلى غير الله. ثم قال: اذهبوا أنتم أحراراً، وما معكم لكم. وقال أعرابي: من قبل صلتك فقد باعك مروءته، وأذل لقدرك عزه.

كتب زياد بن عبد الله الحارثي إلى المهدي:

أنا ناديتُ عَفْوَك من قَريبِ كما ناديتُ سُخْطَك من بَعيدِ
وإن عاقبتني فليسوءِ فِعلي وما ظلمتُ عَقوبَةَ مُستَقيدِ
وإن تَضَفَّخ فإحساناً جَديداً عَطَفْتَ به على شُكْرِ جَديدِ

وقال رجل لمحمد بن نحرير: أوصني؛ فقال: اسمع ولا تتكلم، واعرف ولا تُعرف، واجلس إلى غيرك ولا تُجلسه إليك.

وقال رجل لابن أسيد القاضي: إن أمي تريد أن توصي فتحضّر وتكتب؛ فقال: وهل بلغت مبلّغ النساء؟

ودخل صاحب المظالم بالبصرة على رجل مبرّس وعنده طبيب يداويه، فأقبل على الطبيب وأهل المريض، وقال: ليس دواء المبرّس إلا الموت حتى تقل حرارة صدره، ثم حينئذ يعالج بالأدوية الباردة حتى يستبّل.

(١) موضع النقاط عبارة لابن السماك غير واضحة.

واجتازَ به بائعٌ دُرَّاجٌ فقال: بكم تبيعُ الدَّرَاجَةَ؟ فقال: بدزهم؛ فقال له: أحسين. قال: كذا بعثت. قال: نأخذُ منك اثنتين بثلاثة. قال: هما لك. قال: يا غلامُ خذْ منه، فإنه يُسهلُ البَيْعَ.

ودخل حَجَّاجُ بْنُ هَارُونَ عَلَى نَجَاحِ الْكَاتِبِ، فَذَهَبَ لِيَقْبَلَ رَأْسَهُ؛ فَقَالَ لَهُ: لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ رَأْسِي مَمْلُوءٌ بِالذَّهْنِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ عَلَيْهِ أَلْفَ رِطْلٍ خَرَاءَ لَقَبَلْتُهُ.

قُدِّمَ لابن الحَسْحَاسِ سِكْبَاجَةٌ فَقَالَ لَصَدِيقٍ لَهُ: كُلْ فَإِنَّهَا أُمُّ الْقِرَى.

وَعَزَى ابْنُ الْحَسْحَاسِ صَدِيقاً لَهُ مَاتَ ابْنَتُهُ، فَقَالَ: مِنْ أَنْتَ حَتَّى لَا تَمُوتَ ابْنَتُكَ الْبَطْرَاءُ! قَدْ مَاتَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ النَّبِيِّ ﷺ.

أَخَذَ يَعْقُوبُ بْنُ اللَّيْثِيِّ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ رَجُلًا فَاسْتَصَفَّاهُ، ثُمَّ رَأَاهُ بَعْدَ زَمَانٍ، فَقَالَ لَهُ: أَبَا فُلَانٍ، كَيْفَ أَنْتَ السَّاعَةَ؟ قَالَ لَهُ: كَمَا كُنْتُ أَنْتَ قَدِيمًا. قَالَ: وَكَيْفَ كُنْتُ أَنَا؟ فَقَالَ: كَمَا أَنَا السَّاعَةَ؛ فَأَمْرٌ لَهُ بَعْشَرَةَ آلَافٍ دِزْهَمٍ.

قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: إِذَا وُضِعَ الطَّعَامُ فَقَدْ أُذِنَ لِلْأَكْلِ.

وَقَالَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِنَّ الْعَرَبَ لَا تَصْلُحُ بِلَادَ لَا تَصْلُحُ بِهَا الْإِبِلُ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ السُّنْدِيِّ: نَظَرَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ قَدْ نَامَ فِي عَدَاةٍ مِنْ عَدَوَاتِ الصَّيْفِ طَيِّبَةَ النَّسِيمِ، فَرَكَضَهُ بِرَجْلِهِ وَقَالَ: مَالِكَ تَنَامُ عَنِ الدُّنْيَا فِي أَطْيَبِ وَقْتِهَا، ثُمَّ عَنْهَا فِي أَحَبِّ حَالَاتِهَا، ثُمَّ فِي نِصْفِ النَّهَارِ لِبُعْدِكَ عَنِ اللَّيْلِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ، وَلِأَنَّهَا رَاحَةٌ لَمَّا قَبْلَهَا مِنَ التَّعَبِ، وَجِمَامٌ لَمَّا بَعْدَهَا مِنَ الْعَمَلِ، نِمْتَ فِي وَقْتِ الْحَوَائِجِ، وَتَنَبَّهْتَ فِي وَقْتِ رُجُوعِ النَّاسِ؛ وَقَدْ جَاءَ: «قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ»^(١).

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ السُّنْدِيِّ: أَيْقَظَتْ أَعْرَابِيَّةٌ أَوْلَادَهَا لَهَا صِغَارًا قَبْلَ الْفَجْرِ فِي

(١) قَالَ الْمَنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ، شَرَحَ الْجَامِعَ الصَّغِيرَ (حَرْفِ الْقَافِ حَدِيثِ رَقْمٍ: ٦١٦٨): (قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ) مِنَ الْقَيْلُولَةِ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ وَهِيَ النَّوْمُ فِي الظَّهِيرَةِ وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ الْقَيْلُولَةُ وَالْمَقِيلُ عِنْدَ الْعَرَبِ الْاسْتِرَاحَةُ نِصْفَ النَّهَارِ وَعَمَلُ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ عَلَى أَنَّ الْقَيْلُولَةَ مَطْلُوبَةٌ لِإِعَانَتِهَا عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ، قَالَ حُجَّةُ الْإِسْلَامِ: وَإِنَّمَا تَطْلُبُ الْقَيْلُولَةَ لِمَنْ يَقُومُ اللَّيْلَ وَيَسْهَرُ فِي الْخَيْرِ فَإِنَّ فِيهَا مَعُونَةً عَلَى التَّهَجُّدِ كَمَا أَنَّ فِي السَّحُورِ مَعُونَةً عَلَى صِيَامِ النَّهَارِ فَالْقَيْلُولَةُ مِنْ غَيْرِ قِيَامِ اللَّيْلِ كَالسَّحُورِ مِنْ غَيْرِ صِيَامِ النَّهَارِ.

وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَأَبُو نَعِيمٍ فِي كِتَابِ الطَّبِّ النَّبَوِيِّ وَالدِّيْلَمِيِّ وَالبَزَارِ (عَنْ أَنَسٍ) وَرَمَزَ السُّيُوطِيُّ لِحَسَنِهِ وَوَلَيْسَ كَمَا ذَكَرَ فَقَدْ قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ مَرْوَانَ وَهُوَ كَذَابٌ أَهْ. وَقَالَ فِي الْفَتْحِ فِي سَنَدِهِ كَثِيرٌ مِنْ مَرْوَانَ مَتْرُوكٌ.

غَدَوَاتِ الرِّبِيعِ وَقَالَتْ: تَسْمَعُوا هَذِهِ الْأَرْوَاحَ، وَاسْتَنْشِقُوا هَذَا النَّسِيمَ، وَتَفْهَمُوا هَذَا النَّعِيمَ، فَإِنَّهُ يَشُدُّ مِنْ مُتِّكُمْ.

ويقال في الوصف: كأنه مِخْرَاكُ نَارٍ، وكأنه الْجَامُ^(١) صَدَى.

وَإِذَا وَصَفُوهُ بِالْقِصْرِ قَالُوا: كَأَنَّهُ عُقْدَةُ رِشَا، وَأُبْنَةُ عَصَا. وَإِذَا كَانَ ضَعِيفًا قَالُوا: كَأَنَّهُ قِطْعَةُ زُبْدٍ، وَالْمَوْلُدُونَ يَقُولُونَ: كَأَنَّهُ أُسْكُرُجَةٌ.

قال بعض السلف في دعائه: اللَّهُمَّ لَا أُحِيطُ بِنِعَمِكَ عَلَيَّ فَأَعِدَّهَا، وَلَا أَبْلُغُ كُنْهَ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فَأُحَدِّثُهَا.

دعا عطاء السندي فقال: أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِكَ الْوَاقِعِ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِكَ الْوَاسِعِ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ مَانِعٌ.

ودعا بعض السلف: اللَّهُمَّ إِنَّ قَلْبِي وَنَاصِيَتِي بِيَدِكَ لَمْ تَمْلِكْنِي مِنْهُمَا شَيْئًا، وَإِذْ فَعَلْتِ ذَلِكَ فَكُنْ أَنْتَ وَلِيَّهُمَا، فَاهْدِنَا سِوَاءَ السَّبِيلِ.

ودعا بعض الصالحين: اللَّهُمَّ مَا كَانَ لِي مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّكَ قَضَيْتَهُ وَيَسَّرْتَهُ وَهَدَيْتَهُ، فَلَا حَمْدَ لِي عَلَيْهِ؛ وَمَا كَانَ مِنِّي مِنْ سُوءٍ فَإِنَّكَ وَعَظَمْتَ وَرَجَزْتِ وَنَهَيْتِ فَلَا عُذْرَ لِي فِيهِ وَلَا حِجَّةَ.

ودعا آخر: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ سُلْطَانِ جَائِرٍ، وَنَدِيمِ فَاجِرٍ، وَصَدِيقِ غَادِرٍ، وَغَرِيمِ مَآكِرٍ، وَقَرِيبِ مُنَاكِرٍ، وَشَرِيكِ خَائِنٍ، وَحَلِيفِ مَائِنٍ، وَوَلَدِ جَافٍ، وَخَادِمِ هَافٍ، وَحَاسِدِ مُلَافِظٍ، وَجَارٍ مُلَاحِظٍ، وَرَفِيقِ كَسْلَانٍ، وَخَلِيلِ وَسْنَانٍ، وَ...^(٢) ضَعِيفٍ، وَمَرْكُوبٍ قُطُوفٍ، وَزَوْجَةٍ مَبْدُورَةٍ، وَدَارِ ضَيْقَةٍ.

قال المدائني: قال بعض السلف لابنه: اشْحَذْ طَبْعَكَ بِالْعُيُونِ وَالْفِقْرِ وَإِنْ قَلَّتْ، فَإِنَّ الشَّجْرَةَ لَا يَشِينُهَا قِلَّةُ الْحَمْلِ إِذَا كَانَ ثَمَرُهَا نَافِعًا، وَأَكْلُهَا نَاجِعًا.

وقيل للأوزاعي: ما كرامة الضيف؟ قال: طلاقه الوجه.

قال مجاهد في قول الله تعالى: ﴿صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] قال: قِيَامُهُ عَلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ.

وقال عمر بن عبد العزيز: ليس من المروءة أن تستخديم الضيف.

وقال إبراهيم بن الجنيدي: كان يقال أَرَبِعٌ لِلشَّرِيفِ لَا يَتَّبِعِي أَنْ يَأْتِفَ مِنْهُنَّ وَإِنْ كَانَ أَمِيرًا: قِيَامُهُ مِنْ مَجْلِسِهِ لِأَبِيهِ، وَخِدْمَتُهُ لِضَيْفِهِ، وَخِدْمَتُهُ لِلْعَالَمِ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ، وَإِنْ سُئِلَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ: لَا أَعْلَمُ.

(١) إناء من فضة.

(٢) بياض بالأصل.

حاتم كان يقول: العَجَلَة من الشَّيْطَانِ إلا في خمسة أشياء، فإنها مِنَ السَّئَةِ: إطعام الضَّيْفِ إِذَا حَلَّ، وتجهيزُ المَيْتِ، وتزويجُ البِكْرِ، وقضاءُ الدَّيْنِ، والتوبةُ مِنَ الذَّنْبِ.

وقال: من أظعمَ الضَّيْفَ لحمًا وخُبزَ حِنطَةَ وماءً باردًا فقد تَمَّ الضيافة.

وقال حاتم: المَزُورُ المَرَائِي إِذَا ضَافَ إِنْسَانًا حَدَّثَهُ بِسَخَاوَةِ إِبْرَاهِيمَ الخليل، وَإِذَا ضَافَهُ إِنْسَانٌ حَدَّثَهُ بِزُهْدِ عيسى بن مريم.

وقال ميمون بن ميمون: من ضافَ البخيلَ صامتَ دابَّته، واستغنى عن الكَيْفِ، وَأَمِنَ التُّخْمَةَ.

وقال بعض السلف الصالح: لأن أجمعَ إخواني على صاعٍ من طَعَامٍ أَحَبُّ إِلَيَّ من عَتِقِ رَقَبَةٍ.

قال الأعمش: كان الربيعُ بنُ خَينمِ يَصْنَعُ لنا الخبيصَ ويقدمه ويقول: اللهم اغْفِرْ لأطْيَبِيهِمْ نَفْسًا، وَأَحْسَنِيهِمْ خُلُقًا، وارْحَمَهُمْ جَمِيعًا.

وقال أنسُ بنُ مالك: كل بيت لا يدخله الضَّيْفُ لا تَدْخُلُهُ الملائكة.

ولمَّا قرأته على الوزير - بلَغَهُ اللهُ آمالَه، وزكَّى أعمالَه، وخَفَّفَ عن قلبه أثقالَه - قال: ما عَلِمْتُ أن مثلَ هذا الحَجْمِ يَحْوِي هذه الوصايا والمُلح؛ وهذه الكلمات الغرر ما فيها ما لا يجبُ أن يُحْفَظَ، واللهُ لكانها بستان في زمان الخريف، لكلُّ عَيْنٍ فيه منظرٌ، ولكل يدٍ منه مَقْطُفٌ، ولكل فَمٍ منه مَذاقٌ. إِذَا فَرَّغْتَ فَأَضِيفْ لي جزءًا أو جزءين أو ما ساعدك عليه النشاط، فإن مَوْقِعَها يَحْسُنُ، وذكْرُها يَجْمَلُ، وأثرُها يَبْقَى، وفائدَتُها تُرَوَى، وعاقبتُها تُحْمَدُ.

فقلتُ: السمع والطاعة.

الليلة العشرون

وقال لي مرة أخرى: اكتب لي جزءاً من الأحاديث الفصيحة المفيدة.

فكتبت: قال مالك بن عُمارة اللَّخْمِيّ: كنتُ أُجالِسُ في ظلِّ الكَعْبَةِ أيامَ المَوسِمِ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ وقبيصةَ بنَ ذؤيبَ وعُزوةَ بنَ الزُّبيرِ، وكنا نَحوضُ في الفِقهِ مرَّةً، وفي الذِّكْرِ مرَّةً؛ وفي أشعارِ العَرَبِ وآثارِ الناسِ مرَّةً؛ فكنْتُ لا أجدُ عندَ أحدٍ منهم ما أجدُه عندَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ من الاتساعِ في المعرفةِ والتصرُّفِ في فنونِ العلمِ والفصاحةِ والبلاغةِ، وحُسنِ استماعِهِ إذا حَدَّثَ، وحلاوةِ لَفْظِهِ إذا حَدَّثَ؛ فخلوتُ معه ذاتَ ليلةٍ فقلتُ: واللَّهِ إنِّي لَمَسرورٌ بكِ لما أشاهدُه من كثرةِ تصرُّفِكَ وحُسنِ حَدِيثِكَ، وإقبالِكَ على جَلِيسِكَ؛ فقال: إنك إن تَعشَ قليلاً فسَتَرَى العُيونَ طامحةً إليّ والأعناقَ قاصدةً نحوي، فلا عليك أن تُعملَ إليّ رِكابَكَ. فلما أَفضتُ إليه الخلافةَ شَخَصْتُ أريدُه، فوافيته يومَ جُمعةٍ وهو يَخُطِبُ الناسَ، فتصدَّيتُ له، فلما وَقَعَتْ عينُه عليّ بَسَرَ في وجهي، وأعرَضَ عني، فقلتُ: لم يُثبِنني معرفةً ولو عَرَفني ما أظهرَ نُكْرَةً. لكنني لم أَبْرَحْ مكاني حتى قُضِيَتِ الصلاةُ ودخلَ، فلم ألبثَ أن خَرَجَ الحاجِبُ إليّ فقال: مالك بن عُمارة، فقمتُ، فأخذ بيدي وأدخلني عليه، فلما رأني مَدَّ يده إليّ وقال: إنك تراءيتَ في موضعٍ لم يَجُزْ فيه إلا ما رأيتَ من الإعراضِ والانقباضِ؛ فمرحباً وأهلاً وسهلاً، كيف كنتَ بَعْدَنَا؟ وكيف كان مسيرُكَ؟ قلتُ: بخير، وعلى ما يحبه أميرُ المؤمنين. قال: أتذكرُ ما كنتُ قلتُ لك؟ قلتُ: نعم، وهو الذي أعمَلَنِي إليك؛ فقال: واللَّهِ ما هو بميراثِ ادَّعِيناهُ، ولا أثرٍ وَعَيناهُ، ولكنني أُخبرُكَ عن نفسي خِصالاً سَمَتُ بها نفسي إلى الموضعِ الذي تَرَى، ما لا حَيْثُ ذا وَدُّ ولا ذا قَرَابَةِ قَطُّ، ولا شَمِثُ بمصيبةٍ عَدُوِّ قَطُّ، ولا أعرَضْتُ عن محدثٍ حتى يَنْتَهِي، ولا قصدتُ كبيرةً من محارِمِ اللّهِ مثلَ ذَا بها واثباً عليها، وكنْتُ من قُرَيْشٍ في بَيْتِها، ومن بَيْتِها في وَسَطِها، فكنْتُ أَمَلُ أن يَرَفَعَ اللّهُ مني، وقد فَعَلَ؛ يا غلامَ، بَوَّئَه منزلاً في الدارِ. فأخذَ الغلامُ بيدي وقال: انطَلِقْ إلى رَحْلِكَ؛ فكنْتُ في أخفضِ حالٍ، وأنعمَ بال؛ وكان يَسْمَعُ كلامي وأسمعُ كلامَه، فإذا حَضَرَ عَشاؤُه أو غداؤُه أتاني الغلامُ وقال: إن شئتُ، صِرْتُ إلى أميرِ المؤمنين فإنه جالسٌ، فأمشي بلا جِذاءٍ ولا رِداءٍ فَيَرْفَعُ مَجْلِسِي، ويُقْبِلُ عليّ محادثتي، ويسألني عن العِراقِ مرَّةً، وعن الحِجازِ مرَّةً،

حتى مَضَتْ لي عشرون ليلة. فتغديتُ عنده يوماً، فلما تفرَّق الناسُ نهَضْتُ للقيام، فقال: على رِسْلِكَ أيُّها الرجل، أيُّ الأمرين أَحَبُّ إليك: المُقام عندنا، ولك النَّصْفَةُ في المعاشرة والمجالسة مع المواساة، أم الشُّخوص ولك الجِباء والكرامة؟ فقلتُ: فارقتُ أهلي وولدي على أن أُرورَ أميرَ المؤمنين، فإن أمرني اخترتُ فِئاه على الأهل والولد، قال: بل أرى لك الرجوعَ إليهم، فإنهم مُتَطَّلِعون إلى رؤيتك، فتجددُ بهم عهداً ويجددون بك مثله، والخيارُ في زيارتنا والمقام فيهم إليك وقد أمرنا لك بعشرين ألفَ دينار، وكسوناك وحملناك، أتراني مَلَأْتُ يَدَكَ أبا نَصْر؟ قلتُ: يا أميرَ المؤمنين، أراك ذاكراً لما رَوَيْت عن نَفْسِكَ. قال: أَجَلْ، ولا خيرَ فيمن يَنسى إذا وَعَد؛ ودُعْ إذا شئتَ، صَحِبَتِكَ السلامة.

قال الوزير: ما أخلَى هذا الحديث! هاتِ ما بعده.

قلتُ: قال يحيى بن أبي يعلى: لَمَّا قَدِمَ المالُ من ناحيةِ عمرَ بن عبد العزيز - رحمه الله - على أبي بكر بن حزم، قَسَمه بين الناس في المدينة، فأصاب كلُّ إنسان خمسين ديناراً، فدَعَتني فاطمة بنت الحسين - عليه السلام - فقالت: اكتب، فكتبتُ: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبدِ الله عمرَ أمير المؤمنين من فاطمة بنت الحسين سلامُ الله عليك، فإني أحمَدُ إليك اللهَ الذي لا إله إلا هو، أمَّا بعد، فأصلحَ اللهُ أمير المؤمنين وأعانه على ما تَوَلَّاه، وعَصَمَ به دينه، فإنَّ أميرَ المؤمنين كَتَبَ إلى أبي بكر بن حزم أن يَفْسِمَ فينا مالاً من الكَتِيبَةِ، ويتحرَّى بذلك ما كان يَصْنَعُ من قبله من الأئمة الراشدين المهديين، وقد بلغنا ذلك، وقَسَمَ فينا، فَوَصَلَ اللهُ أميرَ المؤمنين، وجزاه من والٍ خيرٍ ما جرى أحداً من الوُلاة، فقد كانت أصابتنا جَفَوَةً، واحتجنا إلى أن يُعْمَلَ فينا بالحق؛ فأقسُمُ بالله يا أميرَ المؤمنين لقد اختَدَمَ من آلِ رسولِ اللهِ ﷺ من لا خادِمَ له، واكتسى من كان عارياً، واستقرَّ من كان لا يجدُ ما يَسْتَقِرُّ به. وبعثتُ إليه رسولاً.

قال يحيى: فحدَّثني الرسولُ قال: قَدِمْتُ الشَّامَ عليه، فقرأ كتابها وإنه لَيُخَمَدُ اللهُ وَيَشْكُرُه، فأمر لي بعشرةِ دنانير، وبعث إلى فاطمة خَمْسَمائَةِ دينار، وقال: استعيني بها على ما يُغَوِّزُكَ، وكتب إليها كتاباً يذُكُرُ فيه فَضْلُهَا وَفَضْلَ أَهْلِ بَيْتِهَا، ويذُكُرُ ما فَرَضَ اللهُ لهم من الحق.

فرقَّ الوزير عند هذا الحديث وقال: أَذْكَرْتَنِي أَمْرَ العَلَوِيَّةِ، وأخذ القلم، واستمدَّ من الدواة، وكتب في التذكرة شيئاً، ثم أرسل إلى نقيب العَلَوِيَّةِ العُمَرِيِّ في اليوم الثاني بألف دينار، حتى تُفَرِّقَ في آل أبي طالب، وقال لي: هذا من بركة الحديث.

ثم قال: كيف تَطَاوَلَ هؤلاء القومُ إلى هذا الأمر مع بُعْدِهِم من رَجْمِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم وقُرْبِ بني هاشم منه؟ وكيف حدَّثتهم أنفسهم بذلك؟ إنَّ

عَجَبِي مِنْ هَذَا لَا يَنْقُضِي، أَيْنَ بَنُو أُمِيَّةَ وَبَنُو مَرْوَانَ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ مَعَ أَحْوَالِهِمْ
الْمَشْهُورَةِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا؟

فقلت: أيها الوزير، إذا حُقِّقَ النَّظَرُ وَاسْتُشِفَّ الْأَصْلُ لَمْ يَكُنْ هَذَا عَجِيبًا، فَإِنَّ أَعْجَازَ
الْأُمُورِ تَالِيَةٌ لَصُدُورِهَا، وَالْأَسَافِلُ تَالِيَةٌ لِأَعَالِيهَا، وَلَا يَزَالُ الْأَمْرُ خَافِيًا حَتَّى يَنْكَشِفَ سَبَبُهُ
فِيزُولُ التَّعْجُوبِ مِنْهُ، وَإِنَّمَا بَعُدَ هَذَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُعَنُوا بِهِ وَبِتَعَرُّفِ أَوَائِلِهِ
وَالْبَحْثِ عَنْ غَوَامِضِهِ، وَوَضَعِهِ فِي مَوَاضِعِهِ، وَذَهَبُوا مَذْهَبَ التَّعْصُّبِ.

قال: فما الذي خَفِيَ حَتَّى إِذَا عُرِفَ سَقَطَ التَّعْجُوبُ وَلَزِمَ التَّسْلِيمُ؟

فكان من الجواب: لا خِلافَ بَيْنِ الرُّوَاةِ وَأَصْحَابِ التَّارِيخِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تُوْفِيَ
وَعَتَابُ بْنُ أَبِي سَيْدٍ عَلَى مَكَّةَ، وَخَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ عَلَى صَنْعَاءَ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنِ حَزْبٍ عَلَى
نَجْرَانَ، وَأَبَانُ بْنُ سَعِيدٍ عَلَى الْعَاصِ عَلَى الْبَحْرَيْنِ، وَسَعِيدُ بْنُ الْقَيْسِ الْأَزْدِيُّ حَلِيفُ
بَنِي أُمِيَّةَ عَلَى جَرَشٍ وَنَحْوِهَا، وَالْمَهَاجِرُ بْنُ أَبِي أُمِيَّةَ الْمَخْزُومِيُّ عَلَى كِنْدَةَ وَالصِّدْفِ؛
وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى عُثْمَانَ، وَعُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ عَلَى الطَّائِفِ. فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ -
ﷺ أَسَسَ هَذَا الْأَسَاسَ، وَأَظْهَرَ أَمْرَهُمْ لِجَمِيعِ النَّاسِ؛ كَيْفَ لَا يَقْوَى ظَنُّهُمْ، وَلَا
يَنْبَسِطُ رَجَاؤُهُمْ، وَلَا يَمْتَدُّ فِي الْوَالِيَةِ أَمْلُهُمْ؟ وَفِي مَقَابِلَةِ هَذَا، كَيْفَ لَا يَضْعُفُ طَمَعُ
بَنِي هَاشِمٍ، وَلَا يَنْقُبُضُ رَجَاؤُهُمْ، وَلَا يَقْصُرُ أَمْلُهُمْ؟ وَهِيَ الدُّنْيَا، وَالذِّينُ عَارِضٌ فِيهَا،
وَالْعَاجِلَةُ مَحْبُوبَةٌ، وَهَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ حَدَدَ أَنْبِيَاءَهُمْ، وَفَتَحَ أَبْوَابَهُمْ؛ وَأَثَرَعَ كَأَسْهُمٍ، وَفَتَلَ
أَمْرَاسَهُمْ، وَدَلَّائِلُ الْأُمُورِ تَسْبِقُ، وَتَبَاشِيرُ الْخَبَرِ تُعْرَفُ.

قال ابن الكلبي: حَدَّثَنِي الْحَكَمُ بْنُ هِشَامِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: مَاتَ عَمِيدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ
عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ، وَكَانَتْ مَعَهُ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَخَطَبَهَا النَّبِيُّ ﷺ إِلَى
النَّجَاشِيِّ، فَدَعَا بِالْقُرَشِيِّينَ فَقَالَ: مَنْ أَوْلَاكُمْ بِأَمْرِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ؟ فَقَالَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ
الْعَاصِ: أَنَا أَوْلَاهُمْ بِهَا. قَالَ: فَزَوْجُ نَبِيِّكُمْ. قَالَ: فَزَوَّجَهُ وَمَهَّرَ عَنْهُ أَرْبَعَمِائَةَ دِينَارٍ؛
فَكَانَتْ أَوَّلَ امْرَأَةٍ مَهَّرَتْ أَرْبَعَمِائَةَ دِينَارٍ؛ ثُمَّ حُمِلَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهَا الْحَكَمُ بْنُ أَبِي
الْعَاصِ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ النَّظَرَ إِلَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَتُكْثِرُ النَّظَرَ
إِلَى هَذَا الشَّابِّ. قَالَ: أَلَيْسَ ابْنُ الْمَخْزُومِيَّةِ؟ قَالُوا: بَلَى؛ قَالَ: إِذَا بَلَغَ بَنُو هَذَا أَرْبَعِينَ
رَجُلًا كَانَ الْأَمْرُ فِيهِمْ، وَكَانَ مَرُوانُ إِذَا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ كَلَامًا قَالَ لِمُعَاوِيَةَ: وَاللَّهِ
إِنِّي لَأَبُو عَشْرَةٍ، وَأَخُو عَشْرَةٍ، وَعَمُّ عَشْرَةٍ، وَمَا بَقِيَ إِلَّا عَشْرَةٌ حَتَّى يَكُونَ الْأَمْرُ فِيَّ؛
فَيَقُولُ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ: أَخَذَهَا وَاللَّهِ مِنْ عَيْنِ صَافِيَةٍ.

فهذا - كما تَسْمَعُ - إِنْ كَانَ حَقًّا فَلَا سَبِيلَ إِلَى رَدِّهِ، وَإِنْ كَانَ مُفْتَعَلًا فَقَدْ صَارَ
دَاعِيَةً إِلَى الْأَمْرِ الَّذِي وَقَعَ نِزَاعٌ فِيهِ، وَجَالَ الْخِصَامُ عَلَيْهِ.

وهاهنا شيء آخر.

قال القَعْقَاعُ بنُ عمرو: قلتُ لعلِّي بن أبي طالب - عليه السلام - . ما حَمَلَكُم على خلافِ العباسِ بنِ عبدِ المطلبِ وتَرْكِ رَأْيِهِ؟ وهذا يَعْنِي به أن العباسَ كان قال لعلِّي - عليه السلام - في مرضِ النَّبِيِّ ﷺ: قُمْ بنا إليه لنَسْأَلَهُ عن هذا الأمرِ، فإن كان لنا أشاعُهُ في الناسِ، وإن كان في غيرنا وَصَى فينا، وكان عليُّ عليه السلامِ أبي علي عمِّه العباسِ ولم يُطَاوِعْهُ. قال القَعْقَاعُ: قال أمير المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالب - عليه السلام - في جوابه لي: لو فَعَلْنَا ذلكَ فَجَعَلْهَا في غَيْرِنَا بعد كلامنا لم نَدْخُلْ فيها أبداً، فأحْبَبْتُ أن أَكُفَّ، فإن جَعَلْهَا فينا فهو الَّذي نريد، وإن جَعَلْهَا في غَيْرِنَا كانَ رَجَاءٌ مَن طَلَبَ ذلكَ مِنَّا مَمْدوداً، ولم يَنْقَطِعْ مِنَّا ولا من الناسِ. قال القَعْقَاعُ: فكان الناسُ في ذلكَ فرقتين: فرقةٌ تَحَزَّبُ للعباسِ وتَدِينُ له، وفرقةٌ تَحَزَّبُ لِعَلِّيٍّ وتدين له. وما أَشْبَهَهُ يُضْعِفُ نفوساً، وَيَرْفَعُ رُؤوساً.

وبعد فهذا البيتُ خُصَّ بالأمرِ الأوَّلِ، أعني الدَّعْوَةَ والنَّبُوَّةَ والكَتَابَ العزیز، فأما الدنيا فإنها تَزُولُ من قوم إلى قوم، وقد رُوِيَ أبو سُفْيَانَ صَخْرُ بن حَزْبٍ وقد وقف على قبر حمزة بن عبد المطلب وهو يقول: رحمك الله يا أبا عُمارة، لقد قاتلتنا على أمرٍ صار إلينا.

فإن قال قائل: فقد وصل هذا الأمرُ بعد مدَّةٍ إلى آلِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فالجواب: صَدَقْتُ، ولكن لما ضَعُفَ الدِّينُ وتَحَلَّحَلْ رُكْنُهُ وتداوَلَه الناسُ بالغلبَةِ والقَهْرِ، فتطاوَلَ له ناسٌ من آلِ رسولِ الله ﷺ بالعَجَمِ وبِقُوَّتِهِمْ ونَهَضْتِهِمْ وعادَتِهِمْ في مساوَرَةِ المُلُوكِ، وإزالةِ الدُّوَلِ وتناوُلِ العِزِّ كيف كان، وما وَصَلَ إلى أهلِ العَدالةِ والطهارةِ والزُّهْدِ والعبادةِ والوَرَعِ والأمانةِ، ألا ترى أن الحالَ استحالَت عَجَمًا: كِسْرِيَّةً وقِيَصْرِيَّةً، فأين هذا من حديثِ النَّبُوَّةِ الناطقةِ، والإمامةِ الصادقةِ؛ هذا الربيعُ - وهو حاجب المنصور - يَضْرِبُ مَن شَمَّتَ الخليفةَ عند العَطْسَةِ، فيشكِّي ذلكَ إلى أبي جَعْفَرِ المنصور، فيقول: أصابَ الرجلُ السُّنَّةَ وأخطأَ الأدبَ. وهذا هو الجهلُ، كأنه لا يَعْلَمُ أنَّ السُّنَّةَ أشْرَفُ من الأدبِ، بل الأدبُ كلُّه في السُّنَّةِ، وهي الجامعةُ للأدبِ النبويِّ والأمرِ الإلهيِّ، ولكن لما غلبت عليهم العِزَّةُ، ودَخَلَتِ الثُّعْرَةُ في آنافِهِمْ، وظَهَرَتِ الخُنْزَوَانَةُ^(١) بَيْنَهُمْ سَمَّوْا آيِينَ^(٢) العَجَمِ أدباً، وقَدِّمُوهُ على السُّنَّةِ التي هي ثَمَرَةُ النَّبُوَّةِ، هذا إلى غير ذلك من الأمورِ المعروفةِ، والأحوالِ المتعالمةِ المتداوَلَةِ التي لا وَجْهَ لِدِكْرِهَا، ولا فائدةَ لِنشْرِهَا، لأنها مَقَرَّرَةٌ في التاريخِ، ودائرةٌ في عَرْضِ الحديثِ.

ولما كانت أوائلُ الأمورِ على ما شَرَحْتُ، وأواسِطُهَا على ما وَصَفْتُ كان من نتائجها هذه الفِتنُ والمذاهبُ، والتعصُّبُ والإفراطُ، وما تَفاقَمَ منها وزادَ ونما وعلَا وتَراقَى، وضاعتِ الحِيلُ عن تَدَارُكِهِ وإصلاحِهِ، وصارتِ العامةُ مع جَهْلِهَا، تجدُ قُوَّةً من خاصَّتِهَا مع عِلْمِهَا، فسُفِكَتِ الدِّماءُ، واستُبيحَ الحريمُ، وسُنَّتِ الغاراتُ، وخُرِبَتْ

(٢) عرفهم وعاداتهم.

(١) الخنزوانة: الكبر.

الديارات، وكثر الجدال، وطال القيلُ والقال، وفشأ الكذب والمُحال، وأصبحَ طالبُ الحقِّ حَيْران، ومحبُّ السلامة مَقْضوداً بكلِّ لسانٍ وسِنان، وصار الناسُ أحزاباً في النَّحْل والأديان^(١): فهذا نُصَيْرِي، وهذا إِسْحاقِي، وهذا جَارُودِي، وهذا قِطْعِي، وهذا جُبَّائِي، وهذا أَشْعَرِي، وهذا خَارِجِي، وهذا شُعَيْبِي، وهذا قَرْمَطِي، وهذا رَاوْنِدِي، وهذا نَجَّارِي، وهذا زَعْفَرَانِي، وهذا قَدْرِي، وهذا جَبْرِي، وهذا لَفْظِي، وهذا مستدْرِكِي، وهذا حَارِثِي، وهذا رَافِضِي، ومن لا يُحْصِي عَدَدَهَا إِلَّا اللَّهُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ؛ لَا جَرَمَ شِمَتِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ بِالْمُسْلِمِينَ، وَعَابُوا وَتَكَلَّمُوا، وَوَجَدُوا أَجْراً وَجِصاً فَبَنُوا، وَسَمِعُوا فَوْقَ مَا تَمَنَّوْا فَرَوَّأُوا.

وقال النبي ﷺ: « لا يزداد الأمر إلا صعوبة، ولا الناس إلا اتِّباعَ هَوَى، حتى تقوم الساعةُ على شرارِ النَّاسِ ».

وقال أيضاً: « بدأ الإسلامُ غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرَّابِ من أُمَّتِي »^(٢).

وقلْتُ لابن الجَلَاءِ الزَاهِدِ بِمَكَّةَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ: ما صَفَةُ هَذَا الْغَرِيبِ؟ فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ هُوَ الَّذِي يَفْرَ من مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ، وَمِنْ قَلَّةٍ إِلَى قَلَّةٍ؛ وَمَنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَمَنْ بَرًّا إِلَى بَحْرٍ، وَمَنْ بَحْرٍ إِلَى بَرٍّ، حَتَّى يَسْلَمَ، وَأَتَى لَهُ بِالسَّلَامَةِ مَعَ هَذِهِ النِّيْرَانِ الَّتِي قَدْ طَافَتْ بِالشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، وَأَتَتْ عَلَى الْحَزْتِ وَالنَّسْلِ، فَقَدَّمَتْ كُلُّ أَوْفَى، وَأَسَكَّتْ كُلُّ نَاطِقٍ، وَحَيَّرَتْ كُلَّ لَيْبٍ، وَأَشْرَقَتْ كُلَّ شَارِبٍ، وَأَمَرَّتْ عَلَى كُلِّ طَاعِمٍ؛ وَإِنَّ الْفِكْرَ فِي هَذَا الْأَمْرِ لِمُخْتَلَسٍ لِلْعَقْلِ وَكَارِثٍ^(٣) لِلنَّفْسِ، وَمُحْرِقٍ لِلْكَبِدِ.

فقال الوزير: واللَّهِ إِنَّهُ لَكَذَلِكَ، وَقَدْ نَالَ مِنِّْي هَذَا الْكَلَامِ، وَكَبُرَ عَلَيَّ هَذَا الْخَطْبُ، وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ.

وَنظَرْتُ إِلَيْهِ وَقَدْ دَمَعَتْ عَيْنُهُ وَرَقَّ فَوَادُهُ وَهُوَ - كَمَا تَعْلَمُ - كَثِيرُ التَّأَلُّهِ، شَدِيدُ التَّوَقُّي، يَصُومُ الْاِثْنِينَ وَالْخَمِيسَ، فَإِذَا كَانَ أَوَّلَ رَجَبٍ أَصْبَحَ صَائِماً إِلَى أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ

(١) انظر حول هذه الفرق كتب الفِرْقِ كمثل مقالات الإسلاميين للأشعري والملل والنحل للشهرستاني والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم.

(٢) روى مسلم في صحيحه ٦٥ - باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، وإنه يارز بين المسجدين. حديث رقم: (٢٣١) - (١٤٤).

وروى الترمذي، في سننه: ١٣ - باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً. حديث رقم: ٢٧٦٤ - عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرَّابِ».

(٣) من كرَّهه الهم إذا اشتد عليه.

شوال، وما رأينا وزيراً على هذا الدأب وبهذه العادة، لا منافقاً ولا مُخلصاً، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠] تولاّه الله أحسن الولاية، وكفاه أكمل الكفاية، إنه قريب مجيب.

فلما رأيت دَمَعَتَهُ، قلت: أيها الوزير، روي عن النبي ﷺ أنه قال: « حُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنِ بَكْتٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَحُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنِ سَهْرَتٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَحُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنِ غَضَّتٍ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ »^(١)، فقال - أحسن الله توفيقه - : هو الهلاك إن لم يُنْقِذَ اللَّهُ بِفَضْلِهِ، وَلَمْ يَتَّعَمَدْ بِعَفْوِهِ؛ لَوْ غَرِقْتُ فِي الْبَحْرِ كَانَ رَجَائِي فِي الْخِلَاصِ مِنْهُ أَقْوَى مِنْ رَجَائِي فِي السَّلَامَةِ مِمَّا أَنَا فِيهِ. قلت: إذا علم الله من ضميرك هذه العقيدة أَلْبَسَكَ ثَوْبَ عَفْوِهِ، وَحَلَّكَ بِشِعَارِ عَافِيَتِهِ وَوَلَايَتِهِ، وَكَفَاكَ كَيْدَ أَعْدَائِكَ، وَعَصَبَ بَرُؤُسِهِمْ مَا يَرِيدُونَهُ بِكَ ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

فقال: اجمع لي جزءاً من رقائق العباد وكلامهم اللطيف الحلو، فإن مرامهم شريفة، وسرائرهم خالصة، ومواعظهم رادعة، وذاك - أظن - للدين الغالب عليهم، والتأله المؤثر فيهم؛ فالصدق مقرون بمنطقهم، والحق موصول بقصدهم، ولست أجد هذا المعنى في كلام الفلاسفة، وذاك - أظن أيضاً - لخوضهم في حديث الطبائع والأفلاك والآثار وأحداث الزمان. قلت: أفعَل، فكتبت تمام ما تقدّم به، ثم كتبت بعد ورقات في حديث الشساك.

قال عتبة بن المنذر السلمي: سئل رسول ﷺ أي الأجلين قضى موسى - عليه السلام -؟ فقال: أكثرهما وأوفاهما، ثم قال رسول الله ﷺ: « إن موسى - عليه السلام - لما أراد فراق شعيب أمر امرأته تسأل أباهما أن يعطيها من نتاج غنمه ما يعيشون به، فأعطاهما ما وصعت غنمه من قالب لون ذلك العام، فلما وردت الحوض وقف موسى بإزاء الحوض فلم تصدُر منها شاة إلا ضربَ جنبها بعصاه، فوضعت قالب ألوان كلها ووضعت اثنتين أو ثلاثة كل شاة، ليس فيهن فُشوش ولا ضبوب ولا ثعول ولا كميشة تفوت الكف، فإن افتتحتم الشام وجدتم بها بقايا منها، فاتخذوها، وهي السامرية »^(٢).

(١) في الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي: باب: حرف الحاء. حديث رقم: ٣٧٠٤ - حرمت النار على عين بكت من خشية الله؛ وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله؛ وحرمت النار على عين غضت عن محارم الله أو عين فقتت في سبيل الله. التخريج (مفصلاً): الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرک عن أبي ریحانة، تصحيح السيوطي: صحيح.

(٢) في مجمع الزوائد، للحاظ الهيتمي: باب هبة ما لم يولد. حديث رقم: ٦٤٩٢ - عن عتبة بن النذر أن رسول الله ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرهما وأوفاهما ثم قال النبي ﷺ: لما أراد موسى فراق شعيب صلى الله عليهما أمر امرأته أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه =

قال جعفر بن أبي طالب للتَّجاشي في حديث: بعث الله تعالى رسولا فينا نعرف صدقه وأمانته، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبده، وأمرنا بصديق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرِّجَم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدِّماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزُّور، وأكل مال اليتيم، وقذف المُحصَنات.

وقال صاحب التاريخ: ولدت لعمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب - عليه السلام - زيدا ورقية؛ وأم أم كلثوم فاطمة بنت النبي ﷺ.

قال أنس بن مالك: صلى الناس على رسول الله ﷺ لما توفي أفراداً لم يؤمهم عليه أحد.

ولما بلغ رسول الله ﷺ ثمان سنين، هلك عبد المطلب، وهو شيبه أبو الحارث، وذلك بعد الفيل بثمان سنين، وتوفيت أمه وهو ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة، كانت قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تزيره إياهم، فماتت وهي راجعة إلى مكة.

= ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت غنمه في ذلك العام من قال لون (أي جاءت على غير ألوان أمهاتها كأن لونها قد انقلب) قال: فما مرت شاة إلا ضرب موسى جنيها بعصاه فولدت قوالب ألوانها كلها وولدت ثنتين وثلاثين كل شاة ليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا كمشة تفوت الكف ولا ثعول (الفشوش: التي يقطر لبنها من غير حلب لوسع ثقب الضرع، والضبوب: الضيقة مخرج اللبن، والكمشة الصغيرة الضرع، والثعول: التي لها حلمة زائدة). وقال رسول الله: إذا افتتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها وهي السامرية. رواه البزار وفيه ابن لهيعة وفيه كلام وبقية رجاله رجال الصحيح خلا عمر بن الخطاب السجستاني وهو ثقة ولم يضعفه أحد.

الليلة الحادية والعشرون

وسأل مرة عن المُغْنِي إذا راسله آخر^(١) لِمَ يجب أن يكون أَلَذَّ وَأَطْيَبَ، وأخلى وأغذّب؟

فكان من الجواب: أن أبا سليمان قال في جواب هذه المطالب ما يَمْنَع من اقتضابِ قَوْلٍ وتكْلِيفِ جواب، ذَكَرَ أَنَّ المسموع الواحد إنما هو بالحسّ الواحد، وربما كان الحسّ الواحد أيضاً غليظاً أو كدراً، فلا يكون لنيه اللذة به بسطٌ ونشوّ ولذآذة، وكذلك المسموع ربّما لم يكن في غاية الصفاء على تمام الأداء بالتقطيع الذي هو نفس في الهواء، فلا تكون أيضاً إنالته للذة على التمام والوفاء، فإذا تُنِّي المسموع - أعني تَوَحَّدَ التَّعْمُ بالتَّعْم - قَوِيَ الحسّ المُدْرِك، فنال مسموعين بالصناعة، ومسموعاً واحداً بالطبيعة؛ والحسّ لا يعشق الموحدة والمناسبة والاتفاق إلا بعد أن يجدها في المركّب، كما أن العقل لا يعشق إلا بعد أن ينالها في فضاء البسيط؛ فكلّما قَوِيَ الحسّ باستعماله، التذّ صاحبه بقوته حتى كأنه يسمع ما لم يسمع بحسّ أو أكثر، وكما أن الحسّ إذا كان كليلاً كان الذي يناله كليلاً، كذلك الحسّ إذا كان قوياً كان ما يناله قوياً.

قال: هذا كلّه موهوبٌ للحسّ، فما للعقل في ذلك؟ فإنّا نرى العاقل تعتريه دهشةٌ وأزحيةٌ واهتزاز.

قلت: قد أتى على مجموع هذا ومعرفته أبو سليمان في مذاكرته لابن الخمار، وذكر أن من شأن العقل السكون، ومن شأن الحسّ التهيج، ولهذا يوصف العاقل بالوقار والسكينة، ومن دونه يوصف بالطيش والعجرفة، والإنسان ليس يجد العقل وجداناً فيلتذّب به، وإنما يعرفه إمّا جملةً وإمّا تفصيلاً؛ أعني جملةً بالرسم وتفصيلاً بالحدّ، ومع ذلك يشناق إلى العقل، ويتمنى أن يناله ضرباً من الثيل ويجده نوعاً من الوجدان، فلما أبرزت الطبيعة الموسيقى في عرض الصناعة بالآلات المهيأة، وتحركت بالمناسبات التامة والأشكال المتففة أيضاً، حدّث الاعتدال الذي يُشعر بالعقل وطلوعه وانكشافه وانجلائه، فبهر الإحساس، وبثّ الإيناس، وشوّق إلى عالم الروح والتعيم، وإلى محلّ الشرف العميم، وبعث على كسب الفضائل الحسية

(١) أي تابعه في غنائه مساندة له.

والعقلية، أعني الشجاعة والجود والحلم والحكمة والصبر، وهذه كلها جماع الأسباب المكملة للإنسان في عاجلته وآجلته؛ وبالواجب ما كان ذلك كذلك، لأن الفضائل لا تفتنى إلا بالشوق إليها، والحرص عليها، والطلب لها؛ والشوق والطلب والحِرص لا تكون إلا بمشوقٍ وباعثٍ وداعٍ، فلهذا برزت الأريحية والهزة، والشوق والعزة؛ فالأريحية للروح، والهزة للنفس، والشوق للعقل، والعزة للإنسان. وما يجب أن يُعلم أن السَّمع والبصر أخصَّ بالنفس من الإحساسات الباقية، لأنهما خادما للنفس في السرِّ والعلانية، ومؤنساها في الخلوة، وممداها في التَّوم واليقظة؛ وليست هذه الرتبة لشيء من الباقيات، بل الباقيات آثارها في الجسد الذي هو مطية الإنسان، لكنَّ الفرق بين السمع والبصر في أبواب كثيرة: أطفؤها أن أشكال المسموع مركبة في بسيط، وأشكال المبصر مبسطة في مركب.

قلت: وقد حكيتُ هذا لأبي زكرياء الصَّيْمَرِيّ فَطَرِبَ وازتَاحَ وقال: ما أبعدَ نظَرَ هذا الرجل! وما أرقى لحظَه! وما أعزَّ جانبَه!

الليلة الثانية والعشرون

وقال لي مرّة أخرى: ازو لي شيئاً من كلام أبي الحسن العامريّ، فإني أرى أصحابنا يرذلونه ويذيلونه، فلا يرؤن له في هذه العُضبة قدماً، ولا يرفعون له في هذه الطائفة علماً.

فقلت: كان الرجل لكزازته وغلظ طبعه وجفاء خلقه يُنفر من نفسه، ويُغري الناس بعرضه، فإذا طُلب منه الفنّ الذي قد خُصّ به وطولب بتحقيقه وُجد على غاية الفضل.

فمن كلامه قوله: الطبيعة تدرّج في فعلها من الكلّيات البسيطة، إلى الجزئيات المركّبة، والعقل يتدرّج من الجزئيات المركّبة، إلى البسائط الكلّية، والإحاطة بالمعاني البسيطة تحتاج إلى الإحاطة بالمعاني المركّبة، ليتوصّل بتوسطها إلى إثبات إنّيّاتها، والإحاطة بالمعاني المركّبة تحتاج إلى الإحاطة بالمعاني البسيطة ليتوصّل بتوسطها إلى تحقيق إثباتها. وكما أن القوّة الحسيّة عاجزة بطباعها عن استخلاص البسائط الأوائل، بل تحتاج معها إلى القوّة العاقلة، وإن قويت لصار العقل فضلاً - كذلك أيضاً القوّة العاقلة لا تقوى بذاتها على إثبات إنّيّاتها المركّبات إلا من جهة القوّة الحسّاسة، ولو قويت عليه لصار الحسّ فضلاً للعاقلة.

قال: هذا كلامٌ بارعٌ من صدرٍ واسع، وأحبُّ أن تزيدني من نَمطه.
قلت: وقال أيضاً: الكلّيّ مُفتقرٌ إلى الجزئي لا لأن يصير بديموّمته محفوظاً بل لأن يصير بتوسطه موجوداً، والجزئيّ مُفتقرٌ إلى الكلّي لا لأن يصير بتوسطه موجوداً، بل لأن يصير بديموّمته محفوظاً.

وقال: الحال في جميع السُّبل - أعني مسالك الأشياء في تكونها صناعتية كانت أو تدبيرية أو طبيعية أو اتفافية - واحدة، مثاله أن الإنسان وإن التذّ بالذستنبان^(١) فلن يُعدّ موسيقاراً إلا إذا تحقّق بمبادئه الأولى التي هي الطّنينات وأنصاف الطّنينات، وكذلك الإنسان وإن استطاب الحلوّ فلن يسمّى حلوانياً إلا إذا عرّف بسائطه وأسطفّساته.

وقال: العلم لا يحيط بالشيء إلا إذا عرّف مبادئه القريبة والبعيدة والمتوسطة.

(١) كلمة فارسية مركبة من كلمتين: دستان معناه النعمة وبان أي الذي يضرب به.

وقال: نتوصّل إلى كُرْبِيّة القمر بما نراه من اختلاف أشكاله، أعني أنّا نراه في الدّورة الواحدة هلالياً مرّتين ومنصّفاً مرّتين وبدراً مرّة واحدة، وهذه الأشكال وإن كانت متقدّمة عندنا فإنّ كونه كُرْبِيّاً هو المتقدّم بالذات.

وقال: ما هو أكثر تركيباً فالحسُّ أقوى على إثباته، وما هو أقلُّ تركيباً فالعقل أخلصُ إلى ذاته.

وقال: الأحداث - وهي الذوات الإبداعية - الوقوف على إثباتها يغني عن البحث عن ماهياتها.

وقال: كلُّ معنى يُوجد بوجوده غيره لا يرتفع بارتفاع ذلك الذي هو غيره، بل يرتفع غيره بارتفاعه، فإنه أقدمُ ذاتاً من غيره، مثاله الجنس لا يرتفع بارتفاع واحدٍ من أنواعه، والأنواع ترتفع بارتفاع الجنس، وكذلك حالُ النّوع مع الشخص، فالجنس أقدم من النوع، والنوع أقدم من الشخص، وأعني بالجنس والنوع الطبيعيين لا المنطقيين.

وقال: معرفتنا أولاً تتعلق بالأشخاص الجزئية ثم بتوسطها ثبتت الأجناس فإذا المتقدّم بالذات غير المتقدّم إلينا.

وقال: مسألُك العقل في تعرّف المعاني الطبيعية مقابل لمسلك الطبيعة في إيجادها، لأنّ الطبيعة تتدرّج من الكلّيات البسيطة إلى الجزئيات المركّبة، والعقل يتدرّج من الجزئيات المركّبة إلى السائط الكلية.

قال أبو النضر نفيس: إنما كان هذا هكذا لأن الطبيعة متناولة من العقل والعقل مُناولٌ للطبيعة، فوجب أن يختلف الأمران، فإن قال قائل: فهلا تمّ الأمران معاً بواحدٍ منهما، أعني الطبيعة أو العقل؟ فالجواب أنّ أحدهما في العلو، والآخر في السفلى، فليس للعالي أن يهبط، ولا للسافل أن يعلو؛ فلمّا كان هذا محالاً توسّط بينهما - أعني العالِي والسافل - المناولة والتناوُل حتى اتّصل الأوّل بالثاني، وغصّ الفضاء بينهما بضروب الأفراد والأزواج، وانتظم الكلّ فلم يكن فيه خلل، ولا دونه مأتى، ولا وراءه متوهم.

وقال: الإنسان مركّب من الأعضاء الآلية بمنزلة الرأس واليدين والرّجلين وغيرها، ثم كلُّ واحد من هذه الأعضاء مركّب من الأعضاء المتشابهة الأنواع بمنزلة اللحم والعظم والعصب والشريان، ثم كل واحد من هذه الأعضاء مركّب من الأخلاط الأربعة التي هي الدم والبلغم والمرتان، ثم كل واحد من هذه الأخلاط مركّب من الأنسطقسّات الأربعة التي هي النار والهواء، والأرض والماء؛ ثم كل واحد من هذه الأنسطقسّات مركّب من الهولي والصورة.

وقال: كما أن لكل عضو قوةً تخصه بتدبيرها، كذلك لجميع البدن قوةً أخرى ضامنةً لتدبيره.

قال: وقال الحكيم في كتاب «السماء»: «علّة الأنواع والأجناس ودوامها هي الفلك المستقيم، وعلّة كون الأشخاص وتجدد حُدُوثها هي الفلك المائل، فأما الكليات المنطقية فإن طبيعتها هي القوة القياسية المستتبّة لها عند تكوّن الحسّ على واحدٍ منها.

قال أبو النضر نفيس: هذا حُكْمٌ بالوهم، ورأيٌ خرَجَ من الظنّ؛ الفلكُ المستقيم والفلكُ المائل هما بنوع الوحدة ونسبة الاتّفاق، فليس لأحدهما اختصاص بالأنواع والأجناس، ولا بتجدد الأشخاص، والدليل على هذا أن قالباً لو قلبَ قلبه ذلك لم يكن له عنه انفصال. وللرأي زلّات، كما أنّ لللسان فلّات، وللحكيم هفوات، كما أنّ للجواد عثرات؛ وما أكثر من يسكر فيقول في سُكره ما لا يعرف، وما أكثر من يغرق في النوم فيَهْذي بما لا يدري، ومن الذي حَقَّقَ عنده أنّ الفلكَ المستقيم هذا نعته، والفلكَ المائل تلك صِفته؛ هذا توهمٌ وتلفيق، لا يزجُّ مَدْعِيهِ إلى تحقيق، وقولُ أبي الحسن هذا عن الحكيم تقليدٌ، كما أنّ دعوى ذاك الحكيم توهمٌ، ومَحَبَّةُ الرُّجال للرُّجال فتنةٌ حاملَةٌ على قبول الباطل، وبُغْضُ الرُّجال للرُّجال فتنةٌ حاملَةٌ على ردِّ الحق؟ وهذا أمرٌ قد طال منه الضَّجيج، وفُزِعَ إلى الله منه بالتضرع.

قال أبو الحسن: الموجود له حقيقةٌ واحدةٌ لا تُدرَكُ إلاّ عقلاً، وليس له مَبْدَأٌ، ولو كان له مَبْدَأٌ لشاركه المبدأ في طبيعة الوجود، وليس بمتحركٍ لأنه لا مقابل له فيتحرَّكُ إليه.

وقال أبو النضر نفيس: عَنَى بهذا الموجود الحقُّ الأوَّلُ الذي هو علّة العِلل، وهو البارئُ الإله، وما أنصف، لأنه يجب أن يُقسِمَ الموجودُ بأقسامه، ويَصِفَ مرتبة كلِّ موجودٍ على ما هي عليه وعلى ما هو به حتى ينتهي من هذا الموجود الأعلى إلى آخر الموجود الأسفل، أو يصفَ الموجودَ الأسفل حتى يرتقي إلى هذا الموجود الأعلى، فإنّه ممّا يعقل ويُحسّ إلاّ وله من هذا الوجودِ نصيبٌ به استحقُّ أن يكون موجوداً، وإن كان ذلك النَّصيبُ قليلاً.

وقال: قد يوصف الشيءُ بأنه واحدٌ بالمعنى وهو كثيرٌ بالأسماء، ويوصفُ بأنّه واحدٌ بالاسم وهو كثيرٌ بالمعنى، ويوصفُ بأنه واحدٌ بالجنس وهو كثيرٌ بالأنواع، ويوصفُ بأنه واحدٌ بالنوع وهو كثيرٌ بالشُّخوص، ويوصفُ بأنه واحدٌ بالاتّصال وهو كثيرٌ بالأجزاء، وقد نقول في شيء: إنه واحدٌ بالموضوع وهو كثيرٌ بالحدود، كالنُّفحة الواحدة التي يوجد فيها اللون والطعم والرائحة، وقد يكون واحداً في الحدِّ وكثيراً في الموضوع، كالبياض الذي يوجد في الثلج والقطن والإسفيداج، وقد يكون كثيراً بالحدِّ

والموضوع كالعِلْم والحركة، فإن موضوعَ هذا الجِسْم، وموضوعَ ذاك النفس، وحدُّ أحدهما غيرُ حدِّ الآخر، وقد يكون واحداً بالموضوع والحدُّ بمنزلة السيفِ والصَّنْصَام؛ وقد نقول أشياء تكون واحدةً بالفعل، وهي بالقوة كثيرة، كالسراج الواحد؛ فأما أن يكون واحداً بالقوة وكثيراً بالفعل من وجهٍ واحد، فلا يكون، بل من جهات مختلفة.

قال أبو النضر نفيس: الواحد الذي ينقسم فتنشأ منه الكثرة غيرُ الواحد الذي لا ينقسم، والكثير الذي يتوحد حتى يكون واحداً غيرُ الكثير الذي لا يتوحد، فالواحد الذي لا ينقسم علةُ الواحد المنقسم، والكثيرُ الذي يتوحد هو علةُ الكثير الذي لا يتوحد، وبالحكمة الإلهية، ما كان هكذا حتى يكون الكثيرُ الذي يتوحد في مقابلة الكثير الذي لا يتوحد، والواحدُ الذي ينقسم في مقابلة الواحد الذي لا ينقسم، وهذه المقابلة هي عبارة عن صورة التمام الحاصل للكل، وليست هي عبارة عن صورة مزاحمة لصورة، أو كثرة غالبية لكثرة، المستغاث بالله من قصور العبارة عن الغاية، وتفاعس اللفظ عن المراد.

وقال: يُعجبني من جُملة الحِكَم الأمثال التي يَضربونها، والعيونُ التي يستخرجونها، والمعاني التي يقرّبونها.

قلت: صدقت، مثلُ قول فيلسوف: البدنُ للنفس بمنزلة الدُكَّان للصانع، والأعضاء بمنزلة الآلات، فإذا انكسرت آلات الصانع وخُرب الدُكَّان وانهدم، فإنَّ الصانع لا يقدِّر على عمله الذي كان يَعْمَله إلا أن يتخذ دُكَّاناً آخر، وآلاتٍ جُدداً آخر.

قال: أحبُّ أن أسمع شيئاً من مَثُور كلامِهِم في فنون مختلفة.

قلتُ: قال فيلسوف: العاقل يَضِلُّ عقله عند محاوَرَةِ الأحمق. قال أبو سليمان: هذا صحيح، ومثاله أنَّ العاقل إذا خاطَبَ العاقل فهَمَّ وإن اختلفت مرتبتاهما في العَقْل، فإنهما يَزْجَعان إلى سِنخ^(١) العقل، وليس كذلك العاقلُ إذا خاطَبَ الأحمق، فإنهما ضدان، والضدُّ يهْرُب من الضدِّ؛ وقد قيل لأبي الهذيل العلاف - وكان مُتكلِّمَ زمانه -: إنك لتتأظِر النَّظَام وتُدور بينكما نُوْبَات، وأحسنُ أحوالنا إذا حَضَرنا أن ننصرف شاكِّين في القاطع منكما والمنقطع، ونراك مع هذا يُناظِرُك زَنْجَوِيه الحَمَالُ فَيَقْطَعُك في ساعة. فقال: يا قوم إن النَّظَام معي على جادة واحدة لا ينحرف أحدنا عنها إلا بقدْر ما يراه صاحبه فيُدْكَره انحرافه، ويَحْمَلُه على سَنِيه فأمرنا يقرُب، وليس هكذا زنجويه الحَمَال فإنه يبتدئ معي بشيء، ثم يطفر إلى شيء بلا واصله ولا فاصله، وأبقي، فيُحَكِّم عليّ بالانقطاع، وذاك لعجزي عن رده إلى سَنَنِ الطريق الذي فارقتني أنفاً فيه.

(١) سنج العقل: أصله.

وقال فيلسوف آخر: العادات قاهرات، فمن اعتاد شيئاً في السرّ فضحه في العلانية. قال أبو سليمان: وهذا صحيح، لأن حقيقة العادة في الشيء المعهود عوّده بعد عوّده، فهي - أعني العادة - الاستمرار الذي يقهر من اعتاده، والخلوّة حال، والعلانية حال، والعادة بجريانها تهجم في الحالين ولا تفرق؛ ولهذا ما قيل: العادة هي الطبيعة الثانية؛ كأن الطبيعة عادة، ولكنها الأولى بالجيلة؛ والعادة طبيعة ولكنها الأخرى بحسن الاختيار أو بسوء الاختيار.

وقال فيلسوف: ما أكثر من ظنّ أنّ الفقير هو الذي لا يملك شيئاً كثيراً وهذا فقير من جهة العرض، فأما الفقير الطبيعيّ فالذي شهواته كثيرة وإن كان كثير المال؛ كما أن الغنيّ الطبيعيّ لا يحتاج إلى شيء وإن كان قليل المال، أي الذي ملك نفسه وقمع شهواته وأخمد لهب إرادته؛ وقد ظنّ قوم أنّ الذين منعوا من الشهوات، ووصوا بالزهد في اللذات، خانوا الناس وحالوا بينهم وبين حظوظهم، وحرّموا ما هو لهم، وصدّوهم عن محبوباتهم؛ وهذا ظنّ خطأ، وأيّ مرادٍ في هذا للواعظين والمزهدين، والذين وصّوا وأشفقوا، ورذّعوا عن الخوض في لذات النفوس الغضبية والبهيمية؟ والله ما كان ذلك منهم إلا على طريق النصيحة والشفقة والإعذار والإنذار، إلا أن يكون الذين ظنوا هذا إنما ظنّوه لأنهم رأوا بعض المزهدين راغباً، وبعض الناصحين غاشياً، وبعض الأمرين مخالفاً، وليس العمل على المختار، وعلى من آثر الغش في المقال؛ ولكن المرجع إلى ما يدلّ عليه الحق، ويشهد له العقل، ويصحّ فيه البرهان؛ أتريّ الفيلسوف غشّ في قوله لأصحابه: اقتنعوا بالقوت، وانفوا عن أنفسكم الحاجة، ليكون لكم قربة إلى الله، لأنّ الله غير محتاج، كلما احتجتم أكثر كنتم منه أبعد، واهربوا من الشرّ والإثم، واطلبوا من الخير أعمّه وأعظمه، وأبقاه وأدومه؛ واعرفوا الأبد، واطلبوا السّرمد، فإنّ من طلب الأبد ثم وجد بقي على الأبد، ومن طلب الأمد ثم وجد فنى على الأمد.

الحاجة ذلّ، والغنى عزّ، والعزّ ضدّ الذلّ؛ فمن طلب العزّ في العاجلة فقد طلب الذلّ وهو لا يدري، ومن طلب العزّ في الآجلة فقد وجد العزّ وهو يدري. في الحكمة أن يقال: اصبر على الذلّ لتنال العزّ، وليس في الحكمة اثبت على العزّ لتنال الذلّ، لهذا معكوس.

الليلة الثالثة والعشرون

وكان الوزير رَسَمَ بكتابة لَمَعَ من كلامِ الرَّسُولِ ﷺ، فَأَفْرَدْتُ ذلك في هذه الورقات، وهي:

قال ﷺ: «أشدَّ الأعمال ثلاثة: إنصافُ الناسِ مِنْ نَفْسِكَ، ومُواساةُ الأَخِ من مالِكَ، وشكرُ الله تعالى على كلِّ حالٍ».

وقال الواقدي: لَمَّا غَالَظَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عبدَ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ قالَ النَّبِيُّ - ﷺ - يا خالِدُ: ذَرُوا لي أَصْحابِي، لو كان أَحَدٌ ذَهِباً تَنفَقُهُ قَرارِيطَ في سَبيلِ اللَّهِ لَمْ تُذَرِكْ عَدْوَةً أو رَوْحَةً من عبدِ الرَّحْمَنِ^(١).

وقال عليه السلام: «إن أحدكم إذا قام إلى الصلاة تَبَشَّشَ اللَّهُ إليه، وإن أخرجها أَعْرَضَ عَنْهُ»

وقال عليه السلام: «إنما فَذْكُ طُعْمَةٍ أَطَعَمَنيها اللَّهُ حَياتي، ثم هي بين المسلمين»^(٢).

(١) عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه. حديث رقم: ٣٦٦٧٤ - عن سلمة بن الأكوع قال: لما قدم خالد بن الوليد على النبي ﷺ بعد ما صنع ببني جذيمة ما صنع عاب عبد الرحمن بن عوف على خالد ما صنع، قال: يا خالد! أخذت بأمر الجاهلية قتلتهم بعمك الفاكه قاتلك الله! وأعانه عمر بن الخطاب على خالد، فقال خالد: أخذتهم بقتل أبيك، فقال عبد الرحمن: كذبت والله لقد قتلت قاتل أبي بيدي وأشهدت على قتله عثمان بن عفان، ثم التفت إلي عثمان فقال: أنشدك الله هل علمت أني قتلت قاتل أبي؟ فقال عثمان: اللهم! نعم، ثم قال عبد الرحمن: ويحك يا خالد! ولو لم أقتل قاتل أبي كنت تقتل قوماً من المسلمين بأبي في الجاهلية؟ قال خالد: ومن أخبرك أنهم أسلموا؟ فقال: أهل السرية كلهم يخبرون أنك قد وجتهم قد بنوا المساجد وأقروا بالإسلام ثم حملتهم على السيف! قال: جاءني أمر رسول الله ﷺ أن أغير عليهم، فأغرت بأمر رسول الله ﷺ، فقال عبد الرحمن: كذبت على رسول الله ﷺ - وغالظ عبد الرحمن، وأعرض رسول الله ﷺ عن خالد وغضب عليه، وبلغه ما صنع بعبد الرحمن فقال: يا خالد! ذروا لي أصحابي، متى يُنكأ أنف المرء ينكأ المرء، ولو كان أحد ذهباً تنفقه قيراطاً قيراطاً في سبيل الله لم تدرك غدوة أو روحة من غدوات أو روحات عبد الرحمن.

(٢) روى مسلم في صحيحه ١٦ - باب قول النبي ﷺ: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة». حديث رقم: ٥٤ - ١٧٥٩ عن عروة ابن الزبير؛ أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته؛ أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ سألت أبا بكر، بعد وفاة رسول الله ﷺ، أن يقسم لها ميراثها، مما ترك رسول =

وقال عليه السلام: «المقوم قد يَأْتُمُّ ولا يَغْرُمُ».

وقال عليه السلام في دعائه: «اللَّهُمَّ اجْمَعْ عَلَى الْهُدَى أَمْرَنَا، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا، وَأَلْفَ بَيْنِ قُلُوبِنَا، واجعل قلوبنا كقلوب خيارنا، واهدنا سواء السبيل وأخرجنا من الظلمات إلى النور، واصرف عنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وذرياتنا ومعاشنا، اللهم اجعلنا شاكرين لنعمتك، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم».

وقيل له ﷺ: إن فلاناً استشهد، فقال: «كلاً، إن الشملة التي أخذها من الغنائم يوم حُتَيْنِ اشْتَعَلَتْ عليه ناراً»^(١).

وقال ﷺ: «من أطلع من صيرٍ بابٍ ففقت عينه فهي هدر»^(٢).

= الله ﷺ، مما أفاء الله عليه. فقال لها أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة». قال: وعاشت بعد رسول الله ﷺ ستة أشهر. وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك رسول الله ﷺ من خبير وفدك. وصدقته بالمدينة. فأبى أبو بكر عليها ذلك. وقال: لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به. إني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ. فأما صدقته بالمدينة فدفعتها عمر إلى علي وعباس. فغلبه عليها علي. وأما خبير وفدك فأمسكها عمر وقال: هما صدقة رسول الله ﷺ. كانتا لحقوقة التي تعروه ونوابه. وأمرهما إلى من ولي الأمر. قال: فهما على ذلك إلى اليوم.

(١) ورد في صحيح مسلم ٤٨ - باب غلظ تحريم الغلول وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. حديث رقم: ١٨٣ - (١١٥) عن أبي هريرة؛ قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر. ففتح الله علينا. فلم نغنم ذهباً ولا ورقاً. غنمنا المتاع والطعام والثياب. ثم انطلقنا إلى الوادي. ومع رسول الله ﷺ عبد له، وهبه له رجل من جذام. يدعى رفاعة بن زيد من نبي الضبيب. فلما نزلنا الوادي قام عبد رسول الله ﷺ يحل رحله. فرمى بسهم. فكان فيه حتفه. فقلنا: هنيئاً له الشهادة يا رسول الله! قال رسول الله ﷺ «كلاً. والذي نفس محمد بيده! إن الشملة لتلتهب عليه ناراً، أخذها من الغنائم يوم خيبر. لم تصبها المقاسم» قال ففرغ الناس. فجاء رجل بشراك أو شراكين. فقال: يا رسول الله! أصبت يوم خيبر. فقال رسول الله ﷺ: «شراك من نار أو شراكان من نار».

قوله: (يحل رحله) الرحل هو مركب الرجل على البعير. (فكان فيه حتفه) أي موته. وجمعه حتوف. ومات حتف أنفه أي من غير قتل ولا ضرب. (الشملة) كساء صغير يؤتز به. (بشراك) الشراك هو السير المعروف الذي يكون في النعل على ظهر القدم.

(٢) ورد في الفيض القدير شرح الجامع الصغير، للإمام المناوي حرف الهمزة حديث رقم: ٢٩٨٥ - (أيما رجل كشف ستراً) أي أزاله أو نحاه (فأدخل بصره) يعني نظر إلى ما وراء الستر من حرم أو غيرهن (من قبل أن يؤذن له) في الدخول (فقد أتى حداً لا يحل أن يأتيه) أي فيحرم عليه ذلك (ولو أن رجلاً) من أصحاب ما وراء المكشوف من الستر (فقال عينه) أي الناظر أي قذفه بنحو حصاة فقلع عينه (لهدرت) أي عينه فلا يضمنها الرامي وفيه حجة للشافعي أن من نظر من =

وقال ﷺ لرجل يذبحُ شاةً: «ازهف شَفْرَتَكَ، فإذا فَرَنْتِ فَأَرُحِ ذَبِيحَتَكَ، ودَعِهَا تَحُبُّ وتَشْخُبُ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرِي لِلدَّمِ وَأَحْلَى لِللَّحْمِ».

وقال عليه السلام: «خيرُ النَّاسِ الغنيُّ الخفيُّ التقيُّ».

وقال: «التَّاجِرُ الصَّدُوقُ إِنْ مَاتَ فِي سَفَرِهِ كَانَ شَهِيداً، أَوْ فِي حَضْرِهِ كَانَ صَدِيقاً».

وقال ﷺ: «ظَهَرَ الْمُؤْمِنُ مِشْجَبُهُ، وَبَطَنَهُ خِزَانَتُهُ، وَرَجَلُهُ مَطِيئَتُهُ، وَذَخِيرَتُهُ رَبُّهُ».

وقال ﷺ: «مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ^(١)، فَتَصَدَّقُوا، وَلَا عَفَا رَجُلٌ عَنْ مَظْلَمَةٍ إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عَزًّا وَجَلًّا وَعِزًّا وَعَفْوًا، فَاعْفُوا؛ وَلَا فَتَحَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ سَبْعِينَ بَاباً مِنَ الْفَقْرِ، فَاسْتَعْفُوا».

وقال عليه السلام: «أَجُودُ الْأَعْمَالِ: الْجُودُ فِي الْعُسْرِ، وَالْقَصْدُ فِي الْغَضَبِ، وَالْعَفْوُ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ».

= نحو كوة أو شق إلى بيت لا محرم له فيه فرماه صاحب البيت فقلع عينه هدر أوجب أبو حنيفة الضمان (ولو أن رجلاً مر على باب) أي منفذ نحو بيت (لا سترة عليه) أي ليس عليه باب من نحو خشب يستر ما وراءه عن العيون (فرأى عورة أهله) من الباب (فلا خطيئة عليه إنما الخطيئة على أهل الباب) في تركهم ما أمروا به من الستر وقلة مبالاتهم باطلاع الأجانب على عوراتهم وفي نسخ بدل الباب البيت وهو أقعد قال الزين العراقي: فيه أنه يحرم النظر في بيت غيره المستور بغير إذنه ولو ذمياً وأنه يحرم الدخول بطريق أولى.

قال المناوي: رواه أحمد والترمذي عن أبي ذر، ظاهر صنيع المصنف أن كلامهما روى الكل والأمر بخلافه فإن الترمذي لم يرو إلا بعضه وتمامه عند أحمد وقال الهيثمي: كالمندري ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث وفيه ضع. (١) روى الإمام مسلم في صحيحه ١٩ - باب استحباب العفو والتواضع. حديث رقم: ٦٩ - (٢٥٨٨) عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً. وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

قوله: (ما نقصت صدقة من مال) ذكروا فيه وجهين: أحدهما معناه أنه يبارك فيه ويدفع عنه المضرات، فينجبر نقص الصورة بالبركة الخفية. وهذا مدرك بالحس والعادة. والثاني أنه، وإن نقصت صورته، كان في الثواب المرتب عليه جبر لنقصه وزيادة إلى أضعاف كثيرة. (وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً) فيه أيضاً وجهان: أحدهما على ظاهره. ومن عرف بالعفو والصفح ساد وعظم في القلوب، وزاد عزه وإكرامه. والثاني أن المراد أجره في الآخرة وعزه هناك. (وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) فيه أيضاً وجهان: أحدهما يرفعه في الدنيا ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس ويجعل مكانه. والثاني أن المراد ثوابه في الآخرة ورفع فيه بتواضعه في الدنيا. قال العلماء: وهذه الأوجه في الألفاظ الثلاثة موجودة في العادة معروفة. وقد يكون المراد الوجهين معاً. في جميعها. في الدنيا والآخرة.

وقال عليه السلام: «إِنَّ بَيْنَ مِضْرَاعَيْ بَابِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةَ مِائَةِ عَامٍ، وَلِيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٍ مِنَ الزَّحَامِ»^(١).

وقَد عَلِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَسُولُ قَوْمٍ مِنْ بَنِي عَامِرٍ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْمَرْعَى حَوْلَ الْمَدِينَةِ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهَا دِيَارٌ لَا تُضَيِّقُ عَنْ جَارِنَا، وَإِنْ جَارِنَا لَا يُظْلَمُ فِي دِيَارِنَا، وَقَدْ أَلْجَأَتْكُمْ الْآزِمَةَ^(٢)، فَنَحْنُ نَأْذِنُ لَكُمْ فِي الْمَرْعَى وَنُشْرِكُكُمْ فِي الْمَأْوَى، عَلَيَّ أَنْ سَرَحْنَا^(٣) كَسْرَحِكُمْ، وَعَايِنَا كَعَايِنِكُمْ، وَلَا تُعِينُوا عَلَيْنَا بَعْدَ الْيَوْمِ؛ فَقَالَ: لَا نَعِينُ عَدُوًّا مَا أَقْمَنَا فِي جَوَارِكِ، فَإِذَا رَحَلْنَا فَإِنَّمَا هِيَ الْعَرَبُ تَطْلُبُ آثَارَهَا، وَتَشْفِي دُحُولَهَا؛ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا بَنِي عَامِرٍ، أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّؤْمَ كُلَّ اللَّؤْمِ أَنْ تَنْحَاشُوا عِنْدَ الْفَاقَةِ، وَتَشْبُوا عِنْدَ الْعِزَّةِ، فَقَالَ: وَأَبِيكَ إِنَّ ذَلِكَ لِلؤْمِ، وَلَنْ نَبْغِيكَ غَائِلَةً بَعْدَ الْيَوْمِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، وَأَذِّنْ لَهُمْ.

وسئل ﷺ: كَيْفَ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ: «فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، ثُمَّ يَنْقُصُ»^(٤).

(١) رواه مسلم في صحيحه ٥٣ - كتاب الزهد والرفائق. حديث رقم: ١٤ - (٢٩٦٧) عن خالد بن عمير العدوي. قال: خطبنا عتبة بن غزوان. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد. فإن الدنيا قد أذنت بصرم وولت حذاء. ولم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء. يتصاها صاحبها. وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زال لها. فانتقلوا بخير ما بحضرتكم. فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقي من شفة جهنم. فيهوي فيها سبعين عاماً لا يدرك لها قعر، والله! لتملأن. أفعجبتم؟ ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة. وليأتين عليها يوم وهو كظيظ من الزحام. ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ. ما لنا طعام إلا ورق الشجر. حتى تفرحت أشداقنا. فالتقطت برودة فشقتها بيني وبين سعد بن مالك. فاتزرت بنصفها واتزرت سعد بنصفها. فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار. وإنني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً. وإنها لم تكن نوبة قط إلا تناسخت، حتى يكون آخر عاقبتها ملكاً. فستخبرون وتجربون الأمراء بعدنا.

قوله: (أذنت) أي أعلمت. (بصرم) الصرم الانقطاع والذهاب، (حذاء) مسرعة الانقطاع. (صباية) البقية اليسيرة من الشراب تبقى في أسفل الإناء. (يتصاها) في القاموس: تصابيت الماء شربت صبايته. (قعرأ) قعر الشيء أسفله. (كظيظ) أي ممتلي. (فرحت) أي صار فيها قروح وجراح، من خشونة الورق الذي نأكله وحرارته. (سعد بن مالك) هو سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه.

(٢) الآزمة: الشدة.

(٣) السرح: المال السائم.

(٤) روى البخاري في صحيحه ١ - باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. حديث رقم:

٢ - عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول».

وقد روى ابن الكلبي عن أبيه عن ابن صالح، عن ابن عباس قال: لما كان يوم بَدْر، - قال عليّ - عليه السلام - للمقداد: أعطني فَرَسَكَ أَزْكَبَهُ، فقال له رسول الله ﷺ: أنت تقَاتِلُ راجلاً خَيْرٌ منك فارساً. قال: فَرَكِبَهُ وَوَتَرَ قَوْسَهُ وَرَمَى فَأَصَابَ أُذُنَ الْفَرَسِ فَصَرَمَهُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَمْسَكَ عَلَى فِيهِ، فَلَمَّا رَأَى عَلِيٌّ ضَحِكَهُ عَضِبَ فَسَلَّ سَيْفَهُ، ثُمَّ شَدَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ: فقتل ثمانية قبل أن يزرع، فقال عليّ - عليه السلام -: لو أصابني شرٌّ من هذا كنتُ أهله حين يقول: «أنت تقَاتِلُ راجلاً خَيْرٌ منك فارساً»، فعصيته.

وقال ﷺ: «إِنَّ امْرَأَ عَرَفَ اللَّهَ وَعَبَدَهُ وَطَلَبَ رِضَاهُ وَخَالَفَ هَوَاهُ لِحَقِيقٍ بَأَن يَفُوزَ بِالرَّحْمَةِ».

لما وردَ محمد بنُ مَسْلَمَةَ على عمرو بن العاص من جهة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، صنع عمرو له طعاماً ودعاه إليه، فأبى محمد، فقال عمرو: أُنْحَرِمُ طعامي؟ قال: لا، ولكنني لم أومر به. فقال عمرو: لعن الله زماناً عملنا فيه لابن الخطاب، لقد رأيتُه وأباه وإنهما لفي شملة ما تُوارِي أَرْسَاغَهُمَا، وإن العاصي بن وائل لفي مقطعات الديباج مززرة بالذهب. فقال محمد: أما أبوك وأبو عمرففي النار، وأما أنت فلولا ما وليت لعمر لألفيتك معتقلاً عنزاً يسرك غزرها ويسوءك بكؤها^(١)، فقال عمرو: المجالس أمانة، فقال محمد: أما ما دام عمر حياً فنعم.

دخل النبي ﷺ على فاطمة - عليها السلام - يعودها من علة، فبكت، فقال رسول الله ﷺ: ما يُبْكِيكِ؟ فقالت: قلة الطعم، وشدة السقم، وكثرة الهم.

قال عبد الله بن مسعود: شرُّ الأمور محدثاتها، وشرُّ الغنى غنى الإثم،

= قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

وروى مسلم في صحيحه ٢٣ - باب عرق النبي ﷺ في البرد، وحين يأتيه الوحي. حديث رقم: ٨٧ - (٢٣٣٣) عن عائشة؛ أن الحارث بن هشام سأل النبي ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ. ثم يفصم عني وقد وعيته. وأحياناً ملك في مثل صورة الرجل. فأعي ما يقول».

وقوله: (أحياناً) الأحيان الأزمان. ويقع على القليل والكثير. (صلصلة) الصلصلة الصوت المتدارك. وقال الخطابي: معناه أنه صوت متدارك يسمعه ولا يشته أول ما يقرع سمعه، حتى يفهمه من بعد ذلك. (يفصم) أي يقلع وينجلي ما يتغشاني منه. قاله الخطابي: قال العلماء: الفصم هو القطع من غير إبانة، وأما الفصم فقطع مع الإبانة والانفصال. ومعنى الحديث أن الملك يفارق علي أن يعود، ولا يفارقه مفارقة قاطع لا يعود.

(١) البكاء: قلة اللبن.

وخَيْرُ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، وَالْخَمْرُ جَمَاعُ الْإِثْمِ، وَالدُّنْيَا حِبَالَةُ الشَّيْطَانِ، وَالشَّبَابُ شُعْبَةٌ مِنَ الْجَنُونَ. قِيلَ لَهُ: أَتَقُولُ هَذَا مِنْ تَلْقَائِكَ؟ قَالَ: لَا، بَلْ مِنْ تَلْقَاءِ مَنْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ طَاعَتَهُ.

وقال أبو ذرٍّ رحمه الله عليه: قال لي رسول الله - ﷺ - يا أبا ذرٍّ: إني أراك ضعيفاً، وإني أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسِي، لا تأمرنَّ علي اثنين، ولا تولين مالَ يتيمٍ^(١).

وقال أبو هريرة عن النبي - ﷺ -: ستحرصون على الإمارة، وستكون حَسْرَةً وندامةً يومَ القيامة، فنعمت المُرْضِعَةُ، وبثت الفاطمة^(٢).

أبو أمامة يَرْفَعُهُ، قال: ما مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشْرَةٍ إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولاً؛ أُلْقِيَ الْعَدْلُ، أَوْ أُوثِقَ الْجَوْرُ.

قال العباسُ للنبي ﷺ: أَمْرُنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأُصِيبُ.

قال عبدُ اللهِ بنُ عمرو بن العاص: إِنْ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّجَاشِيِّ فَقَالَ لَهُ: أَقْرِضْنِي أَلْفَ دِينَارٍ إِلَى أَجَلٍ، فَقَالَ: مَنْ الْكَفِيلُ بِكَ؟ فَقَالَ: اللَّهُ. فَأَعْطَاهُ الْأَلْفَ، فَلَمَّا بَلَغَ الْأَجَلَ أَرَادَ الرَّدَّ، فَحَبَسَتْهُ الرِّيحُ، فَعَمِلَ تَابوتاً وَجَعَلَ فِيهِ الْأَلْفَ وَغَلَّفَهُ، وَأَلْفَاهُ فِي الْبَحْرِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ أَدْ حَمَلْتِكْ؛ فَخَرَجَ النَّجَاشِيُّ إِلَى الْبَحْرِ فَرَأَى سَوَاداً؛ فَقَالَ: ائْتُونِي بِهِ. فَأَتَوْهُ بِالتَّابُوتِ، فَفَتَحَهُ، فَإِذَا فِيهِ الْأَلْفُ، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ جَمَعَ أَلْفاً بَعْدَ ذَلِكَ، وَطَابَتِ الرِّيحُ وَجَاءَ إِلَى النَّجَاشِيِّ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: لَا أَقْبَلُهَا مِنْكَ حَتَّى تُخْبِرَنِي بِمَا صَنَعْتَ فِيهَا. فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي صَنَعَ، فَقَالَ النَّجَاشِيُّ فَقَدْ آدَى اللَّهُ عَنكَ، وَقَدْ بَلَغَتْ الْأَلْفُ فِي التَّابُوتِ، فَأَمْسِكْ عَلَيْكَ أَلْفَكَ.

رَأَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَجُلًا مَعَ آخِرٍ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا الَّذِي مَعَكَ؟ قَالَ: أَبِي. قَالَ: فَلَا تَمْشِ أَمَامَهُ، وَلَا تَجْلِسْ قَبْلَهُ، وَلَا تَدْعُهُ بِاسْمِهِ، وَلَا تَسْتَسِيبْ لَهُ.

قال أبو هريرة: كان جُرَيْجٌ يَتَعَبَّدُ فِي صَوْمَعَتِهِ، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، أَنَا أُمُّكَ، كَلِّمْنِي؛ فَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي؛ فَاخْتَارَ صَلَاتَهُ، فَرَجَعَتْ ثُمَّ أَتَتْهُ ثَانِيَةً فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، كَلِّمْنِي، فَصَادَفْتَهُ يُصَلِّي فَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَاخْتَارَ صَلَاتَهُ،

(١) روى مسلم في صحيحه ٤ - باب كراهة الإمارة بغير ضرورة. حديث رقم: ١٧ - (١٨٢٦) عن أبي ذر. أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر! إني أراك ضعيفاً. وإني أحب لك ما أحب لنفسِي. لا تأمرن على اثنين. ولا تولين مال يتيم».

قوله: (لا تأمرن) بحذف إحدى التاءين. أي لا تتأمرن. وكذلك قوله: تولين، أي تتولين.
(٢) روى الإمام أحمد بن حنبل مسند أبي هريرة رضي الله عنه. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنكم ستحرصون على الإمارة وستصير حسرة وندامة - قال حجاج - يوم القيامة نعمت المُرْضِعَةُ وبثت الفاطمة».

ثم جاءته فصادفته يصلي، فقالت: اللهم إن هذا ابني قد عَقَنِي فلم يكلمني فلا تُمِثْه حتى تُرِيَه المومِسات، ولو دَعَتْ عليه أن يُفْتَنَ لُفْتِن؛ قال: وكان راعي ضأن يأوي إلى ديره، فخرجت امرأة من القرية، فوقع عليها الراعي، فحملت فولدت غلاماً، فقيل لها: ممن هذا؟ فقالت: من صاحب هذه الصومعة، فأقبل الناس إليه بفؤوسهم ومساحيهم فبصروا به، فصادفوه يصلي، فلم يكلمهم، فأخذوا يهدمون ديره، فنزل وتبسّم ومسح رأس الصبي وقال: من أبوك؟ فقال: أبي راعي الضأن. فلما سمع القوم ذلك راعهم، وعجبوا، وقالوا: نحن نبني لك ما هدمنا بالذهب والفضة. قال: لا، أعيدوها كما كانت ثراباً؛ ثم عاد.

وقال أبو الدزداء: لا يُحافظ على سُبحَةِ الضحَى إلا أواب.

وقال أيضاً: ليس على سارق الحمام قطع.

وقال: إذا اخترتُم أرضاً فلا تختاروا أرمينية، فإن فيها قطعة من عذاب الله، يعني البرد.

أبو هريرة يرفعه: ويل للعرفاء، ويل للأمناء، ليتمنن أقوام يوم القيامة أنهم كانوا متعلقين بين السماء والأرض يتذبذبون من الثريا، وأنهم لم يلوا عملاً.

قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكُلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»^(١).

وقال النبي ﷺ^(٢): «كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالأمير راع على الناس

(١) روى الإمام البخاري في صحيحه ٦ - باب: من سأل الإمارة وكل إليها. حديث رقم: ٦٧٢٨ -

عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإن أعطيتها عن مسألة وكُلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها، فات الذي هو خير، وكفر عن يمينك.

وروى الإمام مسلم في صحيحه ٣ - باب نذر من حلف يميناً، فرأى غيرها خيراً منها، أن يأتي الذي هو خير، ويكفر عن يمينه. حديث رقم: ١٩ - (١٦٥٢) عبد الرحمن بن سمرة. قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمن بن سمرة! لا تسأل الإمارة. فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكُلت إليها. وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها. وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك. واث الذي هو خير».

(٢) روى الإمام البخاري في صحيحه ١٠ - باب: الجمعة في القرى والمدن. حديث رقم: ٨٥٣ -

أن عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته». قال: وحسبت أن قد قال: «والرجل راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته».

ورواه مسلم في صحيحه.

وهو مسئولٌ أقام أمرَ الله فيهم أم ضيِّع؛ والمرأة راعيةٌ على بيتها وما وليت من زوجها، ومسؤولةٌ عنهم أقامت أمرَ الله فيهم أم ضيِّعت؛ والخادمُ مسؤولٌ عن مال سيِّده أقام أمرَ الله فيه أم ضيِّع». هكذا رواه ابنُ عُتْبَةَ عن نافع عن ابنِ عَمَرَ.

قال عياض الأشعري: قدِم أبو موسى على عُمر ومعه كاتبٌ له، فَرَفَعَ حِسَابَهُ، فَأَعَجَبَ عُمر. وجاء إلى عمر كتابٌ، فقال لأبي موسى: أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على النَّاس؟ قال: إنه لا يَدْخُلُ المَسْجِدَ. قال: لِمَ؟ أَجُنُبٌ هو؟ قال: إنه نَصْرَانِي. قال: فانتَهَره، وقال: لا تُذْنِبُهُمْ وقد أفصاهم الله، ولا تُكْرِمُهُمْ وقد أهانهم الله، ولا تأتمنهم وقد خَوَّنهم الله.

قال عبدُ الله بنُ نافع: جاء رَجُلَانِ مِنَ الأنصارِ إلى النبي - ﷺ يَخْتَصِمَانِ فِي مَوَارِيثَ بَيْنَهُمَا قَدْ دَرَسَتْ لَيْسَ بَيْنَهُمَا بَيِّنَةٌ، فَقَالَ ﷺ^(١): «إِنكُمْ لَتَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْكُمْ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ، يَأْتِي بِهَا إِسْطِطَاماً^(٢) فِي عُنُقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ: فَبَكَى الرَّجُلَانِ، وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: حَقِّي لِأَخِي؛ فَقَالَ ﷺ: «أَمَّا إِذْ قُلْتُمَا هَذَا فَادْهَبَا فَاسْتَهَمَا، وَتَوَخَّيَا الْحَقَّ، وَلِيُحْلَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا صَاحِبَهُ. وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: اذْهَبَا فَاصْطَلِحَا.

ورَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - كَتَبَ إِلَى النَّجَاشِيِّ أَصْحَمَةَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّمُنَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ

(١) روى الإمام البخاري في صحيحه ٢٧ - باب: من أقام البيعة بعد اليمين. حديث رقم: ٢٥٣٤ - عن أم سلمة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً بِقَوْلِهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ، فَلَا يَأْخُذْهَا».

قوله: «أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ» أفطن وأفصح ببيان حجته وإظهار أن الحق له».

وفي ٩ - باب: إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت، فقضي بقيمة الجارية الميتة، ثم وجدها صاحبها فهي له، ويرد القيمة ولا تكون القيمة ثمناً. حديث رقم: ٦٥٦٦ - عن أم سلمة، عن النبي ﷺ قال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً فَلَا يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ».

ورواه مسلم في صحيحه - باب الحكم بالظاهر واللعن بالحجة. حديث رقم: ٤ - (١٧١٣) عن أم سلمة. قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي. ولعل بعضكم أن يكون أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ. فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ. فَمَنْ قَطَعْتَ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً، فَلَا يَأْخُذْ. فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ».

(٢) الإسْطِطَامُ: مسعار النار، وهي الحديدية التي تسعر بها.

عيسى بن مريم روح الله وكلمته، فكتب النجاشي: إلى محمد رسول الله من النجاشي أضحمة بن أبجر: سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمته وبركاته^(١).

وقال النبي ﷺ: «الكافر خب صب، والمؤمن دعب لعب».

وقال رجل للنبي - ﷺ -: «اغدِلْ فَإِنَّكَ إِلَى الْآنَ لَمْ تَعْدِلْ. فقال: وَيَلَّكَ! إذا لم أَعْدِلْ أنا فَمَنْ يَعْدِلُ^(٢)؟»

(١) في نصب الراية، للزيلعي: مسائل شتى. كتاب النبي ﷺ إلى «النجاشي ملك الحبشة». قال: وذكر الواقدي أن رسول الله ﷺ كتب إلى النجاشي كتاباً، وأرسله مع عمرو بن أمية الضمري، فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله، الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم، وروح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول، فحملت به، فخلقه من روحه، ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده، لا شريك له، والمولاة على طاعته، وأن تتبيني، وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى» قال: فكتب إليه النجاشي: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله، من أضحمة النجاشي، سلام عليك يا نبي الله، من الله ورحمة الله، وبركات الله، الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله، فما ذكرت من أمر عيسى، فرب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفريقاً وأنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك، وأصحابه، وأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه، لله رب العالمين، انتهى.

(٢) روى البخاري في صحيحه: ٢٢ - باب علامات النبوة في الإسلام حديث رقم: ٣٤١٤ أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً، أتاه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل، فقال: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل، قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل». فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فيه فأضرب عنقه؟ فقال: «دعه، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نضله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه - وهو قدحه - فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آبتهم رجل أسود، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقة من الناس».

قال أبو سعيد: فأشهد أنني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتي به، حتى نظرت إليه على نعت النبي ﷺ الذي نعته.

وأخرجه مسلم في الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم: ١٠٦٤.

«خبت وخسرت» أي أنت الخائب والخاسر إذا ظننت أنني لا أعدل، لأنك تعتقد نفسك تابعاً لمن هذه صفته. «يحقر أحدكم صلاته» يجدها قليلة ويظنها أقل ثواباً وقبولاً. «مع صلاتهم» إذا =

وقال ﷺ: «إِنَّ الْوَاحِدَ يَبِيحُ ظَهْرَهُ وَعِرْضَهُ».

وقال عُمر: رَدَّدَ الْخُصُومَ كَيْ يَضْطَلِحُوا.

وقال عليه السلام: لَا تَخْلِفُوا بِأَيْمَانِكُمْ، وَمَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيُصَدِّقْ، وَمَنْ حَلَفَ لَهُ فَلْيَقْبَلْ^(١).

وقال: مَنْ حَلَفَ يَمِينًا كَاذِبَةً يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ أَمْرِي مُسْلِمٍ لِقَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانِ^(٢).

= قارنها بصلاتهم. «لا يجاوز تراقيهم» لا يتعداها، والتراقي جمع ترقوة وهي عظم يصل ما بين ثغرة النحر والعاتق، والمراد: لا يفقهون معناه، ولا تخشع له قلوبهم، ولا يؤثر في نفوسهم، فلا يعملون بمقتضاه. «يمرقون» يخرجون منه سريعاً دون أن يستفيدوا منه. «الرمية» هو الصيد المرمي، شبه مرقومهم من الدين بمروق السهم الذي يصيب الصيد، فيدخل فيه ويخرج منه دون أن يعلق به شيء منه، لشدة سرعة خروجه. «نصله» حديدة السهم. «رصافة» هو العصب الذي يلوي فوق مدخل النصل. «قدحه» هو عود السهم قبل أن يوضع له الريش. «قدذه» جمع قذة وهي واحدة الريش الذي يعلق على السهم. «قد سبق الفرث والدم» أي لم يتعلق به شيء منهما لشدة سرعته، والفرث ما يجتمع في الكرش مما تأكله ذوات الكروش «آيتهم» علامتهم. «البضعة» قطعة اللحم. «تدردر» تضطرب وتذهب وتجيء. «حين فرقة» أي زمن افتراق بينهم، وفي رواية «على خير فرقة» أي أفضل طائفة. «نعت النبي» أي على وصفه الذي وصفه وحدده.

(١) روى ابن ماجه في سننه ٤ - باب من حلف له بالله فليرض. حديث رقم: ٢١٠١ - عن ابن عمر؛ قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يحلف بأبيه فقال: «لا تحلفوا بأبائكم. من حلف بالله فليصدق. ومن حلف له بالله فليرض. ومن لم يرض بالله، فليس من الله».

في الزوائد: رجال إسناده ثقات.

(٢) روى الإمام البخاري صحيحه ١٠ - باب: عهد الله عز وجل. حديث رقم: ٦٢٨٣ - عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من حلف على يمين كاذبة، ليقطع بها مال رجل مسلم، أو قال: أخيه، لقي الله وهو عليه غضبان». فأنزل الله تصديقه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾.

قال سليمان في حديثه: فمر الأشعث بن قيس فقال: ما يحدثكم عبد الله؟ قالوا له، فقال الأشعث: نزلت فيّ وفي صاحب لي، في بئر كانت بيننا.

وروى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده حديث عدي بن عميرة الكندي رضي الله تعالى عنه. قال أخبرني رجاء بن حيوة والعرس بن عميرة عن أبيه عدي قال: خاصم رجل من كندة يقال له امرؤ القيس بن عباس رجلاً من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض ففضى على الحضرمي بالبينة فلم تكن له بينة ففضى على امرؤ القيس باليمين فقال الحضرمي إن أمكنته من اليمين يا رسول الله ذهبت والله أو ورب الكعبة أرضي فقال رسول الله ﷺ من حلف على يمين كاذبة ليقطع بها مال أخيه لقي الله وهو عليه غضبان قال رجاء: وتلا رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فقال امرؤ القيس ماذا لمن تركها يا رسول الله قال الجنة قال فأشهد أنني قد تركتها له كلها.

وقال: مَنْ حَلَفَ يَمِينًا فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيَكْفُرْ عَنْ يَمِينِهِ (١).
وقال - عليه السلام - : لا تُسَافِرِ الْمَرْأَةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ (٢).

حَدَّثَنَا أَبُو السَّائِبِ الْقَاضِي عُثْبَةُ بْنُ عُبَيْدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمَرْزُبَانِ قَالَ: حَدَّثَنَا الْمُغِيرَةُ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ الْمِنْقَرِيُّ قَالَ: كَانَ شَرِيكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى الْقَضَاءِ بِالْكُوفَةِ، فَقَضَى عَلَى وَكَيْلٍ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُضْعَبٍ بِقَضَاءٍ لَمْ يُوَافِقْ عَبْدَ اللَّهِ، فَلَقِيَ شَرِيكًا بَبْغَدَادَ، فَقَالَ لَهُ: قَضَيْتَ عَلَى وَكَيْلِي قَضَاءً لَا يُوَافِقُ الْحَقَّ. قَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: مَنْ لَا تَنْكِرُ. قَالَ: قَدْ نَكِرْتُكَ أَشَدَّ النَّكِيرِ. قَالَ: أَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُضْعَبٍ. قَالَ: فَلَا كَبِيرٌ وَلَا طَيْبٌ. قَالَ: كَيْفَ لَا تَقُولُ هَذَا وَأَنْتَ تَشْتُمُ الشَّيْخِينَ. قَالَ: مِنَ الشَّيْخَانِ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ. قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَشْتُمُ أَبَاكَ وَهُوَ دُونَهُمَا، فَكَيْفَ أَشْتُمُهُمَا وَهُمَا فَوْقِي وَأَنَا دُونَهُمَا؟

وقال عُقْبَةُ بْنُ عَامِرِ الْجُهَنِيِّ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُؤْتَى الدُّنْيَا وَيُوسَّعَ لَهَا فِيهَا وَهُوَ لِلَّهِ عَلَى غَيْرِ مَا يُحِبُّ إِلَّا وَهُوَ مُسْتَدْرَجٌ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلَمَّا دَسُؤُا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَوَّجُوا بِمَا آوُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقَطَّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥]». قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: قَوْلُهُ ﷺ إِلَّا وَهُوَ مُسْتَدْرَجٌ، مَعْنَاهُ إِلَّا وَهُوَ مُسْتَدْرَجٌ هَلَكْتَهُ، مَاخُوذٌ مِنَ الدَّرَاجِ، وَهُوَ الْهَالِكُ، يُقَالُ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ دَبَّ وَدَرَجَ، وَيُرَادُ بِدَرَجٍ: هَلَكٌ؛ وَبَدَبٌ: مَشَى.

وقال سَعِيدُ بْنُ عَامِرِ بْنِ حُزَيْمٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ أَمْنَاءَ عَلَى خَلْقِهِ يَضُنُّ بِهِمْ عَلَى الْقَتْلِ يُعِيشُهُمْ فِي عَافِيَةٍ، وَيُمِيتُهُمْ فِي عَافِيَةٍ» (٣).

(١) روى مسلم في صحيحه: ٣ - باب نذر من حلف يميناً، فرأى غيرها خيراً منها، أن يأتي الذي هو خير، حديث رقم: ١٦ - (١٦٥١) عن عدي بن حاتم. قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين، فرأى غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خير، وليترك يمينه».

(٢) روى الإمام البخاري في صحيحه: ٤ - باب: في كم يقصر الصلاة. حديث رقم: ١٠٣٦ / ١٠٣٧ - عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «لا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم».

وأخرجه مسلم في الحج، باب: سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، رقم: ١٣٣٨. قوله: «ثلاث أيام» مسير ثلاث أيام بسير القوافل، وهي مسافة القصر عند الحنفية.

تابعه أحمد، عن المبارك، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ. وروى الإمام مسلم في صحيحه (٧٤) باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره. حديث رقم: ٤١٣ - (١٣٣٨) عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسافر المرأة ثلاثاً، إلا ومعها ذو محرم».

(٣) في الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي باب حرف الألف الحديث رقم: ٢٣٧١ - إن لله تعالى عباد يضمن بهم عن القتل، ويظيل أعمارهم في حسن العمل، ويحسن أرزاقهم، ويحييهم =

قال نَاشِرَةُ بِنُ سُمَيٍّ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ يَوْمَ الْجَابِيَةِ: إِنِّي قَدْ نَزَعْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَأَمْرُتُ أبا عُبَيْدَةَ، فَقَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَقَدْ نَزَعْتُ عَامِلًا اسْتَعْمَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَعْمَدْتُ سَيْفًا سَلَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَوَضَعْتُ لِيَوَاءَ شِدَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّكَ لِشَابٌّ قَرِيبُ الْقَرَابَةِ، وَهَذَا الْقَائِلُ هُوَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ حَفْصِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ابْنِ عَمِّ خَالِدٍ.

قال قَبِيصَةُ بِنُ الْمُخَارِقِ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الطَّرْقِ (١) وَالْعِيَاةِ وَالْخَطِّ.
قال النبي ﷺ: «الْصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسَاكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صِلَةٌ وَصَدَقَةٌ» (٢).

قَبِيصَةُ بِنُ الْمُخَارِقِ وَزُهَيْرُ بِنُ عَمْرٍو قَالَا: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى رَضْمَةَ (٣) مِنْ جَبَلٍ فَعَلَا أَعْلَاهَا حَجْرًا، وَقَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ، يَا بَنِي فَهْرٍ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَى الْعَدُوَّ

= في عافية، ويقبض أرواحهم في عافية على الفرش، فيعطيهم منازل الشهداء. تصحيح السيوطي: ضعيف.

وفي مجمع الزوائد. للحافظ الهيثمي باب فيمن طال عمره من المسلمين. الحديث رقم: ١٦٧٢١ - عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا يَضُنُّ بِهِمْ عَنِ الْفَنَاءِ (فِي نَسْخَةِ «الْقِتْلِ») وَيُطِيلُ أَعْمَارَهُمْ فِي حَسَنِ الْعَمَلِ وَيُحَسِّنُ أَرْزَاقَهُمْ وَيُحْيِيهِمْ فِي عَافِيَةِ وَيَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمْ فِي عَافِيَةِ عَلَى الْفَرَشِ وَيُعْطِيهِمْ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ.

رواه الطبراني وفيه جعفر بن محمد الواسطي الوارق ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(١) يريد بالطرق طرق الحصى وبالخط خط الرمل.

(٢) روى الإمام الترمذي في سننه: ٢٦ - باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة. حديث رقم: ٦٥٣ - عن الرباب عن عمها سلمان بن عامر يبلغ به النبي ﷺ قال: «إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ فَلْيَفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ تَمْرًا فَالْمَاءُ فَإِنَّهُ طَهُورٌ وَقَالَ: الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَانِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ».

وفي الباب عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود وجابر وأبي هريرة.

قال أبو عيسى: حديث سلمان بن عامر حديث حسن.

وروى الإمام النسائي في سننه: باب الصدقة على الأقارب. عن أم الرائح عن سلمان بن عامر عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى الْمَسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَانِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ.

ورواه للإمام أحمد بن حنبل في مسنده. حديث سلمان بن عامر رضي الله تعالى عنه. عن سلمان بن عامر قال:

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ فَلْيَفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَفْطِرْ بِمَاءٍ فَإِنَّ الْمَاءَ طَهُورٌ وَقَالَ: مَعَ الْغَلَامِ عَقِيْقَتُهُ فَأَهْرِيقُوا عَنْهُ دَمًا وَأَمِيطُوا عَنْهُ الْأَذَى وَقَالَ الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسْكِينِ صَدَقَةٌ وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَانِ صِلَةٌ وَصَدَقَةٌ.

(٣) الرضمة: الصخرة العظيمة.

فَانْطَلَقَ يُرِيدُ أَهْلَهُ، وَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ إِلَى أَهْلِهِ، فَجَعَلَ يَهْتَفُ وَأَصْبَحَاهُ.

الثُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ وَقَبِيصَةُ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ إِذَا تَجَلَّى لَشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ حَسَعٌ»^(١).

تَزَوَّجَ رَجُلٌ امْرَأَةً فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا، وَلَمْ يُسَمِّ لَهَا صَدَاقًا، فَسُئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: لَهَا صَدَاقٌ إِحْدَى نِسَائِهِ، لَا وَكَسَ وَلَا شَطَطَ، وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ، وَلَهَا الْمِيرَاثُ. فَقَامَ أَبُو سِنَانٍ فِي رَهْطٍ مِنْ أَشْجَعٍ، فَقَالُوا: لَقَدْ قَضَى فِيهَا بِقَضَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَرُوعِ بِنْتِ وَاشِقِ الْأَشْجَعِيَّةِ^(٢).

عُقْبَةُ السُّلَمِيُّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِذَا تَبَاطَأَتِ الْمَغَازِي وَكَثُرَتِ الْعَرَائِمُ وَاسْتَوْثِرَ بِالْغَنَائِمِ فَخَيْرُ جِهَادِكُمْ الرِّبَاطُ».

(١) روى مسلم في صحيحه: باب صلاة الكسوف: عن عائشة قالت: خسفت الشمس في عهد رسول الله ﷺ. فقام رسول الله ﷺ. فأطال القيام جدًا. ثم ركع فأطال الركوع جدًا. ثم رفع رأسه فأطال القيام جدًا. وهو دون القيام الأول. ثم ركع فأطال الركوع جدًا. وهو دون الركوع الأول. ثم سجد. ثم قام فأطال القيام. وهو دون القيام الأول. ثم ركع فأطال الركوع. وهو دون الركوع الأول. ثم رفع رأسه فقام. فأطال القيام. وهو دون القيام الأول. ثم ركع فأطال الركوع. وهو دون الركوع الأول. ثم سجد. ثم انصرف رسول الله ﷺ وقد تجلت الشمس. فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ. وَإِنَّمَا لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ. فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَكَبِّرُوا. وَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا. يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ إِنْ مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدَهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمْنَهُ. يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا. أَلَا هَلْ بَلَغَتْ؟». وفي رواية: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ».

وروى الإمام النسائي سننه: كتاب الخسوف. عن أبي بكره قال: قال رسول الله ﷺ إِنْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ آيَاتَانِ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَخُوفُ بِهِمَا عِبَادَهُ.

(٢) روى الإمام مالك في الموطأ، ١٤ - (باب الرجل يتزوج المرأة ولا يفرض لها صداقاً). حديث رقم: ٥٤٣ - عن إبراهيم النخعي: أن رجلاً تزوج امرأة ولم يفرض لها صداقاً، فمات قبل أن يدخل بها، فقال عبد الله بن مسعود: لها صداق مثلها من نساءها، لا وكس، ولا شطط، فلما قضى قال فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريتان، فقال رجل من جلسائه بلغنا أنه معقل بن سنان الأشجعي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، قضيت - والذي يحلف به - بقضاء رسول الله ﷺ في بروع بنت واشق الأشجعية، قال: ففرح عبد الله فرحة ما فرح قبلها مثلها لموافقة قوله قول رسول الله ﷺ. قال مسروق ابن الأجدع: لا يكون ميراث حتى يكون قبله صداق. قال محمد: وبهذا نأخذ. وهو قول أبي حنيفة والعامه من فقهاءنا.

جَبَانُ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ حُتَيْنٍ فَأَحَلَّ لَهُمْ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ كَانَ نَهَاہُمْ عَنْهَا، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ كَانَ النَّاسُ يَحْلُلُونَهَا: أَحَلَّ لَهُمْ أَكْلَ لَحْمِ الْأَضْحَاحِيِّ، وَزِيَارَةَ الْقُبُورِ، وَالْأَوْعِيَةَ^(١)، وَنَهَاہُمْ عَنِ بَيْعِ الْمَغْنَمِ حَتَّى يُقَسَمَ، وَنَهَاہُمْ عَنِ النَّسَاءِ مِنَ السَّبَابَا أَلَّا يُوطَأَنَّ حَتَّى يَصْغَنَ أَوْلَادَهُنَّ، وَنَهَاہُمْ أَلَّا تَبَاعَ ثَمَرَةٌ حَتَّى يَبْدُو صَلَاحُهَا، وَيُؤْمَنَ عَلَيْهَا مِنَ الْعَاهَةِ.

وَهَبُ بْنُ حُدَيْفَةَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الرَّجُلُ أَحَقُّ بِمَجْلِسِهِ^(٢).

حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ.

(١) روى مسلم في صحيحه باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي. واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي».

عن أبي هريرة قال: زار النبي ﷺ قبر أمه. فبكى وأبكى من حوله. فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي. فزوروا القبور. فإنها تذكركم الموت».

عن ابن بريده، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها. ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فأمسكوا ما بدا لكم. ونهيتكم عن التبيذ إلا في سقاء، فاشربوا في الأسقية كلها، ولا تشربوا مسكراً».

قوله ﷺ: «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي فيه جواز زيارة المشركين في الحياة وقبورهم بعد الوفاة، لأنه إذا جازت زيارتهم بعد الوفاة ففي الحياة أولى وقد قال الله تعالى: ﴿وَصَاحِبِهِمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ وفيه النهي عن الاستغفار للكفار». قال القاضي عياض رحمه الله: سبب زيارته ﷺ قبرها أنه قصد قوة الموعظة والذكرى بمشاهدة قبرها، ويؤيده قوله ﷺ في آخر الحديث: «فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت».

روى الإمام مسلم في صحيحه (٣٦) باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، حديث رقم:

١٠٦ - (٩٧٧) عن ابن بريده، عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فأمسكوا ما بدا لكم. ونهيتكم عن التبيذ إلا في سقاء، فاشربوا في الأسقية كلها. ولا تشربوا مسكراً».

[قوله: (وكنتم نهيتكم عن التبيذ) يعني إلقاء التمر ونحوه في ماء الظروف. إلا في سقاء. أي إلا في قربة. إنما استثنائها لأن السقاء يبرد الماء، فلا يشتد ما يقع فيه اشتداد ما في الظروف].

(٢) روى الترمذي في سننه: ٤٤ - باب ما جاء إذا قام الرجل من مجلسه ثم رجع فهو أحق به. حديث رقم:

٢٨٩٩ - عن وهب بن حذيفة أن رسول الله ﷺ قال:

«الرجل أحق بمجلسه، وإن خرج لحاجته، ثم عاد فهو أحق بمجلسه». هذا حديث صحيح غريب.

قال مالكُ بنُ عبادة الغافقي: مرَّ رسولُ اللهِ ﷺ بعبدِ اللهِ بنِ مسعود فقال: لا تُكثِرْ هَمَّكَ؛ ما يُقَدَّرُ يَكُنْ، وما تُرْزَقُ يَأْتِكَ.

خالدُ بنُ عديّ الجُهنيّ أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: من بلَّغَه مَغرُوفٌ مِن أخيه مِن غيرِ مَسْأَلَةٍ ولا إشرافِ نَفْسٍ فَلْيَقْبَلْهُ ولا يَزِدْهُ، فإنما هو رِزْقٌ ساقاه اللهُ إليه.

رافعُ بنُ مَكِيثٍ - أخو جُنْدَبِ بنِ مَكِيثٍ - شَهِدَ الحُدَيْبِيَّةَ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: « حُسْنُ المَلَكَةِ نَمَاءٌ، وسوءُ الخَلْقِ سُؤْمٌ، والصَّدَقَةُ تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ، والبرُّ زيادةٌ في العُمُرِ ».

وقال النبي ﷺ: إن يومَ الجُمُعَةِ يومٌ زينةٌ كيومِ الفِطْرِ والنَّحْرِ.

خَبَابُ بنِ الأَرْتِ - وكان من أصحابِ النبي ﷺ - قال: إن رسولَ اللهِ ﷺ صَلَّى يوماً إلى جِدَارٍ كثيرِ الجِجْرَةِ إمَّا ظُهراً أو عَصراً، فلَمَّا صَلَّى خَرَجَتْ إليه عَفْرَبٌ فَلَدَّغَتْهُ، فَعُشِّي عليه، فرَاقاه الناسُ فأفاق، فقال: « إنَّ اللهُ شَفاني وليس برُفِيتكم ».

قال الوزير: ما أحسنَ هذا المجلس.

الليلة الرابعة والعشرون

وجرى حديث الفيل ليلة فأكثرَ من حَضَرَ وصفَه بما لم يكن فيه فائدةً تُعاد، ولا غريبةً تُستَفاد، فحكيتُ: إن العلماء بطبائع الحيوان ذكروا أن الفَيْلَةَ لا تتولدُ إلا في جزائر البحار الجنوبية، وتحت مدارِ بُرجِ الحَمَلِ، والزَّرَافَةَ لا تكونُ إلا في بلاد الحَبَشَةِ، والسَّمُورَ وغزالِ المِسْكَ لا يكونانُ إلا في الصَّحاريِّ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ؛ وأما الصُّقُورُ والنُّسُورُ والبُزَاةُ وما شاكلها من الطير فإنها لا تُفْرِخُ إلا في رؤوس الجبال الشامخة والعُقَابِ. والنعام لا تُفْرِخُ إلا في البراريِّ والقفار والفلوات. والوَطْوَاطُ والطَّيْطَوَى وأمثالهما من الطير لا تُفْرِخُ إلا على سواحل البحار وشطوط الأنهار والبطائح والآجام؛ والعصافيرُ والفَوَاحِشُ وما شاكلها من الطير لا تُفْرِخُ إلا بين الأشجار والدُّحَالِ^(١) والقُرَى والبساتين.

وحدَّث ابنُ الأعرابيِّ عن هشام بن سالم - وكان مُسَيِّئاً من زَهْطِ ذِي الرُّمَةِ - قال: أكلتُ حِيَّةً بِيضَ مَكَاءَ فَجَعَلَ المَكَاءُ يُشْرِشِرُ^(٢) على رأسها ويذنو منها، حتى إذا فَتَحَتْ فاهاً تريده وهمت به ألقى في فيها حَسَكَةً؛ فأخذتُ بحلقها حتى ماتت.

وأُنشِدَ أبو عمرو الشَّيْبَانِيَّ قولَ الأَسَدِيِّ:

إِنْ كُنْتَ أَبْصَرْتَنِي قُلًّا وَمُضْطَلِّمًا فَرَبِّمَا قَتَلَ المَكَاءُ تُغْبَانَا

فقال - حرسَ اللُّهُ نَفْسَهُ -: من أين للحيوان غير الإنسان هذه الفطنة وهذه الفضيلة وهذه الجُرْأَةُ وهذه الحيلة؟

فقلتُ: شيخنا أبو سليمان يقول في هذه الأيام - وقد جرى حديثُ الحيوان وعجائب أفاعيله - إن الإحساسات التي للحيوان على أصنافه لها غَرَضٌ عظيم، وبذلك الغرض لها تفاوتٌ عظيم ظاهرٌ وخافٍ، وأفعالٌ معهودةٌ ونادرة، ولها أخلاقٌ معروفة، ومعارفٌ موصوفة؛ ولولا ذلك ما كان يقال: أصولٌ من جَمَلٍ، وأغدرٌ من ذئبٍ، وأروغٌ من نَعْلَبٍ، وأجْبِنُ من صفرد، وأجمَعُ من دَرَّةٍ^(٣)، وألْفُ من كَلْبٍ، وأهدى من

(١) جمع دحل، وهو نقب ضيق الفم متسع الأسفل حتى يمشي فيه.

(٢) المكاء: طائر، ويشرشر أي يرفرف.

(٣) النمل الأحمر الصغير.

قَطَاة، [وأحمق] من عقق، وأزهى من عُراب، وأظلم من حَيَّة. وأشدُّ عداوةً من عَقْرَب. وأخبث من قِزْد، وأخَمَقُ مِنْ حُبَارَى، وأكذَّبُ من فاختة، والأمُّ مِنْ كَلْبٍ على جيفة، وأعقُّ مِنْ ضَبِّ، وأبرُّ من هِرَّة، وأنفَرُ من ظليم^(١)، وأجرأُ من لَيْث، وأحقَّدُ من فيل؛ وعلى هذا.

قال: وكما أنّ بين آحاد نوع الإنسان تفاوتاً في الأخلاق، كذلك بين آحاد نوع الحيوان تفاوت، وكما أنه يزل بعضُ العقلاء فيركب ما لا يُظن بمثله لعقله، كذلك يزلُ ويغلطُ بعضُ الحمقى فيأتي بما لا يُحسب أن مثله يَهْتَدِي إليه، فليس العقلُ بحاظِرٍ على صاحبه أن يندَرَّ منه ما يكون من الحيوان، وأصنافُ الحيوان من الناسٍ وغير الناس تتقاسمُ هذه الأخلاقَ بضروب المزاج المختلفة في الأزمان المتباعدة، والأماكن المتنازحة، تقاسماً محفوظاً بالنسب بالطبيعة المستولية، وإن كان ذلك التقاسمُ مجهولاً النسب للغموض الذي يَغْلِبُ عليه، وإذا عُرف هذا الشرح وما أشبهه ممّا يزيده وضوحاً، زال التعجّب الناشئ من جهل العلة وحفاء الأمر.

قال: ومن العَجَب أنا إذا قلنا: أروغ من ثعلب، وأجبنُ من صَفْرَد، وأحقَّدُ من فيل، أن هذا الرُّوْغ وهذا الجَبْن وهذا الحِقْدُ في هذه الأصناف ليست لتكون عدَّة لها مع نوع الإنسان، ولكن لتعاطى أيضاً بينها، وتستعملها عند الحاجة إليها؛ وكما يشبهه إنسانٌ لأنّه لصٌّ بالفأرة، أو بالفيل لأنّه حَقُود، أو بالجَمَل لأنّه صَوُول، كذلك يُشَبِّهه كلُّ ضَرْبٍ من الحيوان في فعله وخُلُقِه وما يَظْهَر من سِنِجِه بأنه إنسان.

ويقال للبليد من الناس: كأنه جِمار؛ ويقال للذكي من الخيل: كأنه إنسان؛ ولولا هذا التمازُج في الأصل والجوهر، والسُنخِ والعُنْصُرِ، ما كان هذا التشابه في الفرع الظاهر، والعادة الجارية بالخبر والنظر.

- فقال: هذا كلامٌ لا مزيدَ عليه -.

وقالت العلماء: إن هذا الاعتبار واصلٌ في الحقيقة إلى جنس التّبات، فإن النخلَ والموزَ لا يَنْبُتان إلا في البُلدان الدافئة والأرض اللينة الثرية، والجوزُ والفُسْتُقُ وأمثالهما لا يَنْبُتان إلا في البلدان الباردة والأرض الجبليّة. والدُّلَبُ وأمُّ غَيْلَانَ في الصَّحارى والفقار؛ والقَصَبُ والصَّفْصَفُ على شُطوط الأنهار.

قالوا: وهكذا أيضاً وصف الجواهر المَعْدنيّة، كالذهب، فإنه لا يكون إلا في الأرض الرَّمليّة والجبالِ والأحجار الرُّخوة. والفضّة والنحاس والحديد لا تكون إلا في الأرض النديّة والتراب اللين والرطوبات الدهنية، والأملاح لا تَنعقد إلا في الأراضي

والبَقَاعِ السَّيْحَةِ، والجص والاسفيداج لا يكونان إلا في الأرض الرملية المختلطة ترابها بالحصى، والزاج لا يكون إلا في التراب العفص؛ وقد أحصى بعض من عني بهذا الشأن هذه الأنواع المعدنية فوجدَها سبعمائة نوع.

وقالوا: من الجواهر المعدنية ما هو صلب لا يذوب إلا بالنار الشديدة، ولا يكسر إلا بالفأس كالياقوت والعقيق، ومنها ثرابي رخو لا يذوب ولكن ينفر، كالملح والزاج، والطلق؛ ومنها مائي رطب ينفر من النار كالزئبق، ومنها هوائي دهنّي تأكله النار، كالكبريت والزرنينج؛ ومنها نباتي كالمرجان، ومنها حيواني كالدرّ، ومنها طلّ مُنَعَد، كالعنبر والبادزهر، وذلك أنّ العنبر إنّما هو طلّ يقع على سطح ماء البحر، ثم ينعد في مواضع مخصوصة في زمان مقدّر؛ وكذلك البادزهر، فإنّه طلّ يقع على بعض الأحجار، ثم يرشح في حلالها، ويغيب فيها، وينعد في بقاع مخصوصة، في زمان معلوم، وكالترنجبين الذي هو طلّ يقع على ضرب من الشوك؛ وكذلك اللك فإنه يقع على نبات مخصوص ينعد عليه؛ وكذلك الدرّ فإنه طلّ يرسخ في أصداف نوع من الحيوان البحري، ثم يغلط ويجمد وينعد فيه، وكذلك الموميا، وهي طلّ يرسخ في صخور هناك ويصير ماء ثم ينز من مسام ضيقة ويجمد وينعد.

والطلّ هو رطوبة هوائية تجمد من برد الليل، وتقع على النبات والشجر والحجر والصخر؛ وعلى هذا القياس جميع الجواهر المعدنية، فإن مادتها إنما هي رطوبات مائية، وأنداء وبخارات تنعد بطول الوقوع ومر الزمان.

وقالت الحكماء الأولون: هاهنا طبيعة تألف طبيعة أخرى، وطبيعة تلزق بطبيعة أخرى، وطبيعة تأنس بطبيعة، وطبيعة تتشبه بطبيعة، وطبيعة تفهر طبيعة، وطبيعة تخبث مع طبيعة، وطبيعة تطيب مع طبيعة، وطبيعة تُفسد طبيعة، وطبيعة تُحمر طبيعة، وطبيعة تُبيض طبيعة، وطبيعة تُهرب من طبيعة، وطبيعة تُبغض طبيعة، وطبيعة تُمازج طبيعة.

فأما الطبيعة التي تألف طبيعة فمثل الماس فإنه إذا قرب من الذهب لرق به وأمسكه، ويقال: لا يوجد الماس إلا في معدن الذهب في بلد من ناحية المشرق.

ومثل طبيعة المغناطيس في الحديد، فإن هذين الحجرين يابسان صلبان، وبين طبيعتهما ألفة، فإذا قرب الحديد من هذا الحجر حتى يشم رائحته ذهب إليه والتصق به وجذب الحديد إلى نفسه وأمسكه كما يفعل العاشق بالمعشوق. وكذلك يفعل الحجر الجاذب للحرّ والحجر الجاذب للشعر، والجاذب للثمن؛ وعلى هذا المثال ما من حجر من أحجار المعدن إلا وبين طبيعته وبين طبيعة شيء آخر إلف واشتياق، عرف ذلك أو لم يعرف؛ ومثل هذا ما يكون بين الدواء والعضو العليل، وذلك أنّ من خاصة كل عضو عليل اشتياقه إلى طبيعة الدواء التي هي ضد طبيعة العلة التي به، فإذا

حَصَلَ الدَوَاءُ بِالْقُرْبِ مِنَ الْعُضْوِ الْعَلِيلِ وَأَحْسَّ بِهِ جَذْبُهُ الْقُوَّةَ الْجَادِبَةَ إِلَى ذَلِكَ الْعَضْوِ
وَأَمْسَكَتِ الْمَمْسِكَةُ وَاسْتَعَانَتْ بِالْقُوَّةِ الْمَدْبُورَةِ لِطَبِيعَةِ الدَوَاءِ عَلَى دَفْعِ الطَّبِيعَةِ الْمُؤَلَّفَةِ
لِلْعِلَّةِ وَقَوِيَتْ عَلَيْهَا وَدَفَعَتْهَا عَنِ الْعَضْوِ الْعَلِيلِ ، كَمَا يَسْتَعِينُ وَيُدْفَعُ الْمُحَارِبُ
وَالْمَخَاصِمُ بِقُوَّةٍ مِنْ يُعِينُهُ عَلَى خَصْمِهِ وَعَدُوَّهُ وَيُدْفَعُهُ عَنْ نَفْسِهِ ؛ وَأَمَّا الطَّبِيعَةُ الَّتِي تَقْهَرُ
طَبِيعَةً أُخْرَى فَمِثْلُ طَبِيعَةِ السُّنْبَادِجِ الَّذِي يَأْكُلُ الْأَحْجَارَ عِنْدَ الْحَكِّ أَكْلًا وَيُلِينُهَا وَيَجْعَلُهَا
مَلْسَاءً . وَمِثْلُ طَبِيعَةِ الْأَسْرُبِ الْوَسْخِ فِي الْمَاسِ الْقَاهِرِ لِسَائِرِ الْأَحْجَارِ الصُّلْبَةِ ، وَذَلِكَ
أَنَّ الْمَاسَ لَا يَقْهَرُهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَحْجَارِ ، وَهُوَ قَاهِرٌ لَهَا كُلِّهَا ، وَلَوْ تَرَكَ عَلَى السُّنْدَانِ
وَطُرِقَ بِالْمِطْرَقَةِ لَدَخَلَ فِي أَحَدِهِمَا وَلَمْ يَنْكَسِرْ ، وَإِنْ جَعَلَ بَيْنَ صَفِيحَتَيْنِ مِنْ أَسْرُبٍ
وَضُمَّتَا عَلَيْهِ تَقَفَّتْ ؛ وَمِثْلُ طَبِيعَةِ الزَّبَقِ الطَّيَارِ الرَّطْبِ الْقَلِيلِ الصَّبْرِ عَلَى حَرَارَةِ النَّارِ ،
إِذَا طَلَى بِهِ الْأَحْجَارَ الْمَعْدِنِيَّةَ الصُّلْبَةَ مِثْلُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالتَّحَاسِ وَالْحَدِيدِ أَوْهَنَهَا
وَأَرْخَاها حَتَّى يُمْكِنَ أَنْ تُكْسَرَ بِأَهْوَنِ سَعْيٍ ، وَتَقْتَتَّ قِطْعًا .

ومِثْلُ الْكِبْرِيَّتِ الْمُتَيْنِ الرَّائِحَةِ الْمَسْوُودِ لِلأَحْجَارِ النَّيِّرَةِ الْبَرَّاقَةِ ، الْمَذْهَبِ لِأَوَانِهَا
وَأَصْبَاغِهَا ، يُمْكِنُ النَّارُ مِنْهَا حَتَّى تَحْتَرِقَ فِي أَسْرَعِ مَدَّةٍ . وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْكِبْرِيَّتَ رُطوبَةٌ
دُهْنِيَّةٌ لَزِجَةٌ جَامِدَةٌ ، فَإِذَا أَصَابَتْهُ حَرَارَةُ النَّارِ ذَابَ وَالتَزَقَ بِأَجْسَادِ الْأَحْجَارِ وَمَازَجَهَا ، فَإِذَا
تَمَكَّنَتِ النَّارُ مِنْهَا احْتَرَقَ وَأَحْرَقَ مَعَهُ تِلْكَ الْأَجْسَادَ يَاقوتًا كَانَتْ أَوْ دَهَبًا أَوْ غَيْرَهُمَا .

وَأَمَّا الطَّبِيعَةُ الَّتِي تَرُسُبُ فِي طَبِيعَةِ أُخْرَى وَتُنِيرُهَا ، فَمِثْلُ التُّوشَادِرِ الَّذِي يَغْوِصُ
فِي قَعْرِ الْأَشْيَاءِ وَيَغْسِلُهَا مِنَ الْوَسْخِ .

وَأَمَّا الطَّبِيعَةُ الَّتِي تُعِينُ طَبِيعَةً أُخْرَى فَمِثْلُ الْبُورَقِ الَّذِي يُعِينُ النَّارَ عَلَى سَبْكِ هَذِهِ
الأَحْجَارِ الْمَعْدِنِيَّةِ الذَّائِبَةِ ، وَمِثْلُ الزَّاجَاتِ وَالشُّبُوبِ الَّتِي تَجْلُوهَا وَتُنِيرُهَا وَتَضْبَعُهَا ،
وَمِثْلُ الْمَغْنِيسِيَا وَالْقَلْبِيِّ الْمُعِينَيْنِ عَلَى سَبْكِ الرَّمْلِ وَتَضْفِيفَتِهِ حَتَّى يَكُونَ مِنْهُ زُجَاجٌ ؛
وَعَلَى هَذَا الْمِثَالِ جَمِيعُ الْأَحْجَارِ الْمَعْدِنِيَّةِ .

النَّارُ هِيَ الْحَاكِمَةُ بَيْنَ الْجَوَاهِرِ الْمَعْدِنِيَّةِ بِالْحَقِّ .

ويقال: من أَدْمَنَ الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ فِي أَوَانِي التَّحَاسِ أَفْسَدَتْ مَزَاجَهُ ، وَعَرَضَ لَهُ
أَمْرَاضٌ صَغْبَةٌ ، وَإِنْ أَذْنِيَتْ أَوَانِي التَّحَاسِ مِنَ السَّمَكِ شَمِمَتْ لَهَا رَائِحَةٌ كَرِيهَةٌ وَإِنْ
كَبَّتْ آتِيَةُ التَّحَاسِ عَلَى سَمَكٍ مَشْوِيٍّ أَوْ مَطْبُوخٍ بِحَرَارَتِهِ حَدَثَ مِنْهُ سُمٌّ قَاتِلٌ .

القَلْعَى قَرِيبٌ مِنَ الْفِضَّةِ فِي لَوْنِهِ ، وَلَكِنْ يَخَالَفُهَا فِي ثَلَاثِ صِفَاتٍ : الرَّائِحَةِ
وَالرَّخَاوَةِ وَالصَّرِيرِ ، وَهَذِهِ الْآفَاتُ دَخَلَتْ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَعْدِنِهِ كَمَا تَدْخُلُ الْآفَاتُ عَلَى
الْمَقْلُوجِ وَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ؛ فَرَخَاوَتُهُ لِكثْرَةِ زَبَقِهِ ، وَصَرِيرُهُ لِعِلْظِ كَبْرِيَّتِهِ .

ويقال: إِنَّ لَوْنَ الْيَاقُوتِ الْأَصْفَرِ وَالذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِ ، وَلَوْنَ الزَّعْفَرَانِ وَمَا شَاكَلَهَا
مِنَ الْأَلْوَانِ الْمُشْرِقَةِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى نُورِ الشَّمْسِ وَبَرِيقِ شُعَاعِهَا ، وَكَذَلِكَ بِيَاضُ الْفِضَّةِ

والمِلْح والبَلُور والقُطْن وما شاكله من ألوان التّبات منسوبة إلى نُور القمرِ وبريقِ شُعاعِهِ؛ وعلى هذا المِثال سائرُ الألوان .

وقال أصحاب النجوم: السواد لزُحل، والحُمْرة للمريخ، والخُضرة للمُشتري، والزُّزقة للزُهرة، والصُّفرة للشمس، والبياضُ للقمر، والتَّلُونُ لِعُطارد.

ويقال: إن العِلَّة الفاعلة للجواهر المَعْدِنِيَّة هي الطَّبِيعَة، والعِلَّة الطَّبِيعِيَّة الزُّبُجُ والكِبْرِيَّة؛ والعِلَّة الصُّورِيَّة دَوْرانُ الأفلاك وحركات الكواكب حَوْلَ الأركان الأربعة الَّتِي هي: النَّار والهواء والماء والأرض؛ والعِلَّة التَّمَامِيَّة المنافع الَّتِي ينالها الإنسان والحيوان .

ويقال: إن الجواهر المَعْدِنِيَّة ثلاثة أنواع: منها ما يكون في التُّراب والطِّين والأرض السَّبِيخَة، ويتمُّ نُضجُه في السَّنَة وأقلُّ كالكِبَارِيَّة والأملاح والشُّبُوب والزَّاجات وما شابهها؛ ومنها ما يكون في قَعْرِ البِحارِ وقرارِ المِياه، ولا يتمُّ نُضجُه إلا في السَّنَة أو أكثر كالذَّرِّ والمَرْجان، فإنَّ أحدهما نباتٌ وهو المرجان، والآخر حيوان، وهو الذَّرِّ.

ومنها ما يكون في وسط الحَجَرِ وكُهوفِ الجِبالِ وخَلَلِ الرِّمالِ فلا يتمُّ نُضجُه إلا في السَّنِين، كالذهب والفضة والتحاس والحديد والرصاص وما شاكلها؛ ومنها ما لا يتمُّ نُضجُه إلا في عَشْرَاتِ السَّنِين، كالياقوت والزُّبْرُجَدِ والعقيق وما شاكلها .

وقال بعضُ من حضر المجلسَ - وهو الرَّجُلُ القَدْمُ الثَّقِيلُ -: إنَّ الزَّارِعَ لا يَزْرَعُ طالِباً للعُشْبِ، بل قَصْدُه للحَبِّ، ولا بدُّ للعُشْبِ من أن يَنْبُتَ إنَّ أَحَبَّ أو كَرِهَ، فلمَ ذلك؟ فقيل له: قد يَصْحَبُ المَقْصُودُ ما ليس بمَقْصُودٍ، من حيث لا يَتِمُّ المَقْصُودُ إلا بما ليس بمَقْصُودٍ، والعُشْبُ هو فَضَلاتِ الحَبِّ، وبه صفاءُ الحَبِّ وتَمَامُه، ولولا القوَّة الَّتِي تصفِي الحَبَّ وتُصَوِّرُه بصورته الخاصَّة به، وتَنفِي كَدْرَه وتُحْصِلُ صَفوَه لكان العُشْبُ في بَدَنِ الحَبِّ، وحينئذٍ لا يكونُ الحَبُّ المُنتَفِعَ به المَخْصُوصُ بِاسْمِهِ المَعْرُوفُ بِعَيْنِهِ، بل يكونُ شيءَ آخَرَ؛ فلمَّا تَمَيَّزَتْ تلك الشُّواثِبُ الَّتِي كانت ملايِسَةً له من أجزاء الأرض والماء وآثارِ الهواءِ والنَّارِ، خَلَصَ مُنتَفِعاً به، مقصوداً بِعَيْنِهِ، فوجِبَ بهذا الاعتبارُ أن يكونَ الحَبُّ بالذَّاتِ، والعُشْبُ بالِعَرَضِ .

فقال - أدام اللهُ دَوْلَتَه -: هل تَعْرِفُ العَرَبُ الفَرَقَ بين الرُّوحِ والنَّفْسِ في كلامها؟ وهل في لَفْظِها مِن نَظْمِها ونَثْرِها ما يدلُّ على ما بينهما، أو هما كشيءٍ واحدٍ لِحَقِّه اسمان؟

فكان الجواب: إنَّ الاستعمالَ يَخْلُطُ هذا بهذا وهذه بهذا في مواضع كثيرة، وإذا جاء الاعتبارُ أَفْرَدَ أحدهما من الآخر بالحدِّ والرسم؛ وعلى هذا اتَّفَقَ رأيُ الحُكَماءِ، لأنَّهم حَكَمُوا بأنَّ الرُّوحَ جِسْمٌ لطيفٌ مُنَبَّثٌ في الجسدِ على خاصِّ ماهيته فيه فأما

النفس الناطقة فإنها جوهرٌ إلهيٌّ، وليست في الجسد على خاصٍّ ماهيته ولكنها مديرةٌ للجسد؛ ولم يكن الإنسان إنساناً بالروح، بل النفس، ولو كان إنساناً بالروح لم يكن بينه وبين الجمار فرق، بأن كان له روحٌ ولكن لا نفس له. فأما النفسان الأخريان اللتان هما الشهوية والغضبية فإنهما أشدَّ اتصالاً بالروح منهما بالنفس، وإن كانت النفس الناطقة تدبرهما وتمدّهما وتأمّرهما وتنهاهما؛ فهذا أيضاً يوضح الفرق بين الروح والنفس، فليس كلُّ ذي روح ذا نفس، ولكن كلُّ ذي نفس ذو روح؛ وقد وجدنا في كلام العرب مع هذا الفرق بينهما، فإن النابغة قد قال للثعمان بن المُنذر:

وَأَسْكَنْتَ نَفْسِي بَعْدَ مَا طَارَ رُوحُهَا وَأَلْبَسْتَنِي نُعْمَى وَلَسْتُ بِشَاهِدِ

وقال أبو الأسود:

لَعَمْرُكَ مَا حَشَاكَ اللَّهُ رُوحاً بِهِ جَشَعُ وَلَا نَفْساً شَرِيرَةً

قال: هذا من الفوائد التي كنتُ أحنُّ إليها، وأستبعدُ الظفرَ بها، وما أنفع المطارحة والمفاتحة وبث الشك واستماحة النفس، فإن التغافل عما تمسُّ إليه الحاجة سوء اختيار، بل سوء توفيق.

وما أحسن ما قال بعض الجلة: تَوَانَيْتُ فِي أَوَانِ التَّعَلُّمِ عَنِ الْمَسْأَلَةِ عَنْ أَشْيَاءَ كَانَتْ الْحَاجَةُ تَحْفِزُ إِلَيْهَا وَالْكَسَلُ يَصُدُّ عَنْهَا، فلما كبرتُ أنفتُ من ذكرها وعرضها على مَنْ عِلْمُهَا عنده، فبقيت الجهالة في نفسي، وركدت الوحشة بين قلبي وفكري.

ثم جرى في حديث النفس ذكرُ بعض العلماء فإنه قال: إِنْ نَفْسُكَ هِيَ إِحْدَى الْأَنْفُسِ الْجُزْئِيَّةِ مِنَ النَّفْسِ الْكَلِّيَّةِ، لا هي بعينها، ولا منفصلة عنها، كما أن جسدك جزءٌ من جسد العالم لا هو كله ولا منفصل عنه؛ وقد مرَّ من أمر النفس ما فيه إيضاح تامٌ واستبصارٌ واسع، وإن كان الكلام في نعت النفس لا آخر له، ولا وقوف عنه.

ولو قال قائل: إِنْ جَسَدُكَ هُوَ كُلُّ الْعَالَمِ لَمْ يَكُنْ مُبْطِلاً، لأنَّه شبيه به، ومسلولٌ منه، وبحق الشبه يحكيه، وبحق الانسلاال يستمد منه؛ وكذلك النفس الجزئية هي النفس الكلية، لأنها أيضاً مشاكهة لها، وموجودة بها، فبحق الشبه أيضاً تخكي حالها، وبحق الوجود تبقى بقاءها، فليس بين الجسد إذا أُضيف إلى العالم، والنفس إذا قيست بالأخرى فرق، إلا أن الجسد معجونٌ من الطينة، والنفس مديرةٌ بالقوة الإلهية؛ ولهذا احتيج إلى الإحساس والمواد، وإلى الاقتباس والالتماس حتى تكون مدة الحياة الجسدية بالغة إلى آخرها من ناحية الجسد، ويكون مبدأ الحياة النفسية مؤصلاً بالأبد بعد الأبد.

فقال - أدام الله سعادته -: لو كان ما يمر من هذه الفوائد العرر والمرامي اللطاف مرسوماً بسوادٍ على بياض، ومقيّداً بلفظٍ وعبرة، لكان له ريعٌ وإتاء، وزيادةٌ ونماء.

فكان الجواب؛ إِنَّ هَذَا غَيْرُ مُتَعَذِّرٍ وَلَا صَغْبٍ إِنْ نَفَسَ اللَّهُ فِي الْبَقَاءِ، وَصَرَفَ هَذِهِ الْهَمُومَ الَّتِي تَقْسُمُ الْفِكْرَ بِالْعَوَارِضِ الَّتِي لَا تُحْتَسَبُ، وَالْأَسْبَابِ الَّتِي لَا تُعْرَفُ؛ فَأَمَّا وَالْأَشْغَالُ عَلَى تَكَافُفِهَا، وَالزَّمَانُ عَلَى تَلَوْنِهِ فَكَيْفَ يُمَكِّنُ ذَلِكَ؛ وَالْعَجَبُ أَنَّهُ يَجْرِي حَرْفٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الشَّرِيفَةِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الضَّيْقَةِ.

ولقد قال أبو سليمان أمس: كيف نشاط الوزير - أدام الله سعادته - في شأنه، وكيف كان تقبله لرسالتي إليه، وتلطفي له، وخدمتي لدولته؟

فقلت: ما ثمَّ شيءٌ يحتاج إلى الزيادة من فهم ودراية، وبيان واستبانة، وهشاشة ورفق، وإطلاع وتأن؛ ولكن الوقت مستوعب بالتدبير والنظر، وكف العدو بالمداورة مرة، وبالإحسان مرة. فقال: الله يُبْقِيهِ، وَيُرِينَا مَا نُحِبُّهُ فِيهِ.

وقال أيضاً أبو سليمان: كيف لا يكون ما تَقَلَّدَهُ ثَقِيلاً، وما تَصَدَّى لَهُ عَظِيماً، وما يَبَاشِرُهُ بِلِسَانِهِ وَقَلَمِهِ صَغْباً، وَالْأَوْلِيَاءُ أَعْدَاءُ، وَالْأَعْدَاءُ جُهَالُ، وَالْحَضُّ عَلَيْهِ مِنْ وَرَائِهِ شَدِيدٌ، وَنَصِيحُهُ غَاشٍ، وَثِقَتُهُ مُرِيبٌ، وَالشُّغْبُ مُتَّصِلٌ، وَطَلَبُ الْمَالِ لَا آخِرَ لَهُ، وَالْمُضْطَنَعُ مُسْتَزِيدٌ، وَالْمَحْرُومُ سَاخِطٌ، وَالْمَالُ مَمْرُوقٌ، وَالتَّجْدِيفُ مِنَ الطَّالِبِ وَاقِعٌ، وَالتَّحَكُّمُ بِالْإِذْلَالِ دَائِمٌ، وَالاسْتِقَالَةُ مِنَ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ زَائِدَةٌ، وَالْكَلَامُ لَيْسَ يَنْفَعُ، وَالتَّدْبِيرُ لَيْسَ يَفْتَعُ؛ وَالْوَعظُ هَيَاءٌ مَنثورٌ، وَالأَصْلُ مَقْطُوعٌ مَبْتُورٌ، وَالسِّرُّ مَكشُوفٌ، وَالعِلَانِيَةُ فَاضِحَةٌ؛ وَقَدْ رَكِبَ كُلُّ هَوَاهُ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِكْرٌ فِي عُقْبَاهُ؛ وَاحْتَلَطَ الْمُبْرَمُ بِالسَّحِيلِ، وَضَاقَ عَلَى السَّالِكِ كُلِّ سَبِيلٍ؛ وَمَنَابِعُ الْفَسَادِ وَمَنَابِتُ التَّخْلِيطِ كُلُّهَا مِنْ الْحَاشِيَةِ الَّتِي لَا تَعْرِفُ نِظَامَ الدَّوْلَةِ وَلَا اسْتِقَامَةَ الْمَمْلَكَةِ؟ وَإِنَّمَا سُؤْلُهَا تَعْجِيلُ حَظٍّ وَإِنْ كَانَ نَزْراً، وَاسْتِلَابُ دِزْهِمٍ وَإِنْ كَانَ زَيْفاً، وَلَعْمَرِي لَيْسَ يَكُونُ الْكَدْرُ إِلَّا بَعْدَ الصَّفْوِ، كَمَا لَا يَكُونُ الصَّفْوُ إِلَّا بَعْدَ الْكَدْرِ، هَكَذَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالنُّورُ وَالظُّلَامُ، هَذَا يَخْلُفُ هَذَا، وَهَذَا يَتَلَوُّ هَذَا.

قال: أَعْنِي بِهَذَا أَنَّهُ لَمَّا فُقِدَ الْمَلِكُ السَّعِيدُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِالْأَمْسِ حَدَثَ هَذَا كُلُّهُ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ زَمَّ وَحَطَّمَهُ، وَجَبَرَ وَحَطَّمَهُ، وَأَسَا وَجَرَحَهُ، وَمَنَعَ وَمَنَحَ؛ وَأَوْرَدَ وَأَصْدَرَ، وَأَظْهَرَ وَسَتَرَ، وَسَهَلَ وَوَعَّرَ، وَوَعَدَ وَتَوَعَّدَ، وَأَنَحَسَ وَأَسْعَدَ، وَوَهَبَ زَمَانَهُ وَحَيَاتِهِ لِهَذَا، لِأَنَّهُ جَعَلَ لِدَنْتِهِ فِيهِ، وَغَايَتَهُ إِلَيْهِ، وَاشْتَهَى أَنْ يَطِيرَ صَيْتُهُ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ فَيَسْمَعَ مَلُوكُهَا بِفِطْنَتِهِ وَحَزْمِهِ، وَتَصْمِيمِهِ وَعَزْمِهِ، وَجِدَّهُ وَتَشْمِيرَهُ، وَرِضَاهُ فِي مَوْضِعِ الرِّضَا، وَسُخْطِهِ فِي وَقْتِ السُّخْطِ، وَرَفْعِهِ لِمَنْ يَرْفَعُهُ بِالْحَقِّ، وَوَضْعِهِ لِمَنْ يَضَعُهُ بِالْوَاجِبِ؛ يُجْرِي الْأُمُورَ بِسُنَنِ الدِّينِ مَا اسْتَجَابَتْ، فَإِنْ عَصَتْ أَخَذَ بِأَحْكَامِ السِّيَاسَةِ الَّتِي هِيَ الدُّنْيَا، وَلَمَّا كَانَتِ الْأُمُورَ مُتَلَبِّسَةً بِالدِّينِ وَالدُّنْيَا لَمْ يَجُزْ لِلْعَاقِلِ الْحَصِيفِ، وَالْمُدَبِّرِ اللَّطِيفِ أَنْ يُعْمَلَ التَّدْبِيرَ فِيهَا مِنْ نَاحِيَةِ الدِّينِ فَحَسَبَ، وَلَا مِنْ نَاحِيَةِ الدُّنْيَا فَقَطْ، لِأَنَّ دَائِرَةَ الدِّينِ إِلَهِيَّةٌ، وَدَائِرَةُ الدُّنْيَا حِسِّيَّةٌ، وَفِي الْإِحْسَانِ أَحْقَادٌ لَا

بدّ من إطفاء نائرتها، وصنائع لا بدّ من تربيتها، وموضوعات لا بدّ من إشالتها ومرفوعات لا بدّ من إزالتها؛ وتدبيرات لا بدّ من إخفائها، وأحوال لا بدّ من إبدائها، ومقامات لا بدّ من الصّبر على عوارض ما فيها، وأمور هي مسطورة في كتب السياسات للحكماء لا بدّ من عرفانها والعمل بها والمصير إليها، والزيادة عليها؛ فليس الخبر كالعيان، ولا الشاهد كالغائب، ولا المظنون كالمستيقن.

ثم قال: - أعني أبا سليمان - وهذا كله منوط بالتوفيق والتأييد اللذين إذا نزلا من السماء واتصلا بمفرق السائس تضامنت أحواله على الصّلاح، وانتشرت على النّجاح؛ وكفّي كثيراً من همومه؛ ثم دعا للوزير بالبقاء المديد، والعيش الرّغيد والجّد السّعيد؛ وأمن الحاضرون على ذلك، وكانوا جمّاً غفيراً، لا فائدة في ذكر أسمائهم والإشارة إلى أعيانهم؛ وكلّهم لما سمعوا هذا الكلام الشريف عجبوا منه، وعودوه وسألوه أن ينظّم لهم رسالة في السياسة؛ فقال: قد رسمت شيئاً منذ زمان، وقد شاع وفسا، وكتب وحمل في جملة الهدية إلى قابوس بجزجان، فهذا - أيها الشيخ - نمط أبي سليمان وأنت عنه مشغول، قد رصيت بترك النّظر في أمره، وبذلّ الجاه له فيما عاد بشأنه، والله ما هذا لسوء عهدك فيه، ولا لحيلولة نيتك عنه؛ ولكن لقلّة حظّه منه وإنحاء الزّمان على كلّ من يجري مجراه، مع عوز مثله في عصره؛ وكيف تتهم بسوء اعتقاد وقلّة حفاظ، وتوان عن رعاية عهد، وقيام بحق، وأنت من فزقك إلى قدمك فضل وخير وجود ومجد وإحسان وكرم ومعونة ورفد وإنعام وتفقد وتعهد وبذلّ وعزف؛ ولو كان امرؤ من الذهب المصفي لكنّته ولو كان أحد من الرّوح الصّرف لكنّته؛ ولو كان أحد من الضّيّاء المحيط لكنّته؛ فسبحان من خلّقك صرّفاً بلا مزاج، وصرّفاً بلا كدر، وواحداً بلا ثان، لقد فخر بك الشّرق على الغرب، وسلّم لك بلا خصومة ولا شغب، فأدام الله لك ما آتاك وأفاض عليك من لُدنه ما يُنور مسعاك؛ وبلغك السعادة العظمى في عقبك، كما بلغك السعادة الصّغرى في دُنياك.

أعرض أيها الشيخ هذا الحديث على ما ترى، والكلام ذو جيشان، والصّدور ذو عليان، والقلم ذو نفيان ومتدفّقه لا يستطاع رده؛ ومُنْبَعِثُهُ لا يُقَدَّر على تسهيله، وخطبه غريب، وشأنه عجيب؛ وإنما يعرف دقّه وجلّه من يدوق حلوّه ومرّه، ومع هذا كله، فإني أذكرك أمري لتلحظه بعين الرّعاية، وأعرض عليك حديثي لتلحظه في صحيفه العناية؛ فلقد أمسيت بين صديق يشقّ عليّ حزنه لي، وبين عدوّ تسوءني شماتته بي؛ وقد صحّ عندي أن إقبالك عليّ يسر، كما أن إعراضك عني عُسر، وأرجع إلى تمام هذين الجزأين وإنه أخرى.

وأما حديث الزّهاد وأصحاب التّسك، فإنه كان تقدّم بإفراد جزء فيه، وقد أثبتّه في هذا الموضع، ولم أحبّ أن أعزله عن جملته، فإن فيه تنبيهاً حسناً، وإرشاداً

مقبولاً، وكما قَصَدْنَا بالهزل الذي أفرَدْنَا فيه جُزءاً جِماماً للنفس قَصَدْنَا بهذا الجزء الذي عَطَفْنَا عليه إصلاحاً للنفس وتهدياً للخلق، واقْتِدَاءً بمن سَبَقَ إلى الخير واتباعاً لمن قَصَدَ النُّصْحَ؛ وَشَرَفَ الإنسان موقوفٌ على أن يكون فاتِحاً لِبَابِ من أبواب الخير على نَفْسِهِ وعلى غيره، فإن لم يكن ذلك فلا أَقْلَ من أن يكون مقتفياً لأثر من كان فاتِحاً قبله؛ ومن تَقَاعَسَ عن هذين الأمرين فهو الخاسر الذي جَهَلَ قيمةَ نَفْسِهِ، وَضَلَّ عن غاية حَيَاتِهِ، وَحُرِمَ التوفيقَ في إصابَةِ رُشْدِهِ؛ وَاللَّهُ المُسْتَعَانُ.

قال ابن مسعود: لو عَرَفَتِ البهائم ما عَرَفْتُمْ ما أَكَلْتُمْ سَمِيناً.

وقال أبو هريرة: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ قَلْباً قَارِئاً، وَرِزْقاً دَارِئاً، وَعَمَلًا سَارِئاً.

وقال بعضُ السَّلَفِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ قَلْباً شَاكِراً، وَلِسَاناً ذَاكِراً، وَبَدَناً صَابِراً.

وقال صالح بن مسمار: لا أَذْرِي أُنِعْمْتُهُ عَلَيَّ فِيما بَسَطَ لِي أَفْضَلَ، أم نِعْمْتُهُ فِيما زَوَى عَنِّي، لِأَنَّهُ فِيما بَسَطَ لِي أَخِيَانِي، وَفِيما زَوَى عَنِّي حَمَانِي، نَظَرَ لِي بما يَزِيدُ على نَظَرِي لِنَفْسِي، وَأَتَانِي مِنْ عِنْدِهِ أَكْثَرَ ممَّا عِنْدِي.

وقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ - لموسى - عليه السلام: حَبِّبْنِي إلى عِبَادِي. قال: وكيف أَحْبَبِكَ؟ قال: ذَكَرْتَهُمُ آتِي وَنِعْمَاتِي.

وقال شَدَادُ بْنُ حَكِيمٍ لِبَعْضِ الواعِظِينَ: أَيُّ شَيْءٍ تَقُولُ إِذَا جَلَسْتَ على المِنْبَرِ؟ قال: أَذْكَرُهُمُ آلاءَ اللَّهِ لِيَشْكُرُوا، وَأَذْكَرُهُمُ جَفَاءَهُمْ لِيَتُوبُوا، وَأُخْبِرُهُمُ عن إبليسِ وَأَعوانِهِ حَتَّى يَحْذَرُوا.

وقال بعضُ الصَّالِحِينَ: مَثَلُ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا كخَابِيَةٍ فِيها سُمٌّ وَعَلَى رَأْسِها عَسَلٌ، فَمَنْ رَغَبَ فِي العَسَلِ سَقِيَ مِنَ السُّمِّ، وَمَثَلُ شِدَّةِ الدُّنْيَا كمثل خَابِيَةٍ مملوءةٍ مِنَ العَسَلِ وَعَلَى رَأْسِها قَطْرَاتٌ مِنَ السُّمِّ، فَمَنْ صَبَرَ على أَكْلِها بَلَغَ إلى العَسَلِ.

جاء رجلٌ إلى حاتمِ الزَّاهِدِ بنِ مِمْيَمَةَ، فقال: يا هَذَا أَبْطَأْتُ عَنِّي وَجِئْتُ بِثَلَاثِ جَنائِياتٍ؛ بَعَّضْتُ إِلَيَّ الحَبِيبَ، وَشَعَلْتُ قَلْبِي الفارِغَ، وَأَعْلَقْتُ نَفْسَكَ التَّهْمَةَ، وَأَنْتَ آمِنٌ.

وَكان خالِدُ بْنُ صَفْوَانَ يَقُولُ: قَبُولُ قَوْلِ النَّمامِ شَرٌّ مِنَ النَّمِيمَةِ، لِأَنَّ النَّمِيمَةَ دَلالةٌ، وَالقبُولُ إِجازةٌ، وَليسَ مِنْ دَلٍّ على شَيْءٍ كَمَنْ قَبِلَ وَأَجازَ.

وقال ابن السماك الواعظ: يُدْرِكُ النَّمامُ بِنَمِيمَتِهِ ما لا يُدْرِكُ السَّاجِرُ بِسِخْرِهِ.

وقال معمر: ما نَزَلَتْ بَعْدَ نازِلَةٍ فَكان مَفْرَعُهُ إلى اللَّهِ إِلا فَرَجَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال عمر: ما أَسْأَلَ اللَّهُ الرِّزْقَ وَقد فَرَعَّ مِنْهُ، وَلَكِنْ أَسْأَلُهُ أَنْ يُبارِكَ لِي فِيهِ.

وقال مالك بن دينار: الجُلوسُ مع الكَلْبِ خَيْرٌ مِنَ الجُلوسِ مع رَفِيقٍ سَواءٍ.

وقال أبو هريرة: تَهَادَوْا عِبَادَ اللَّهِ يَتَجَدَّدُ فِي قُلُوبِكُمُ الوُدُّ، وَتَذْهَبُ السَّخِيمَةُ.

وقال حاتم: صَاحِبُ الضُّعْفِ غَيْرُ ذِي دِينٍ، والغائبُ^(١) غَيْرُ ذِي عِبَادَةٍ. وَالتَّمَامُ غَيْرُ صَدُوقٍ، والحاسدُ غَيْرُ مَنْصُورٍ.

وقال بعض السُّلَفِ: مَنْ اسْتَقْصَى عِيوبَ النَّاسِ بَقِيَ بِلَا أَصْدِقَاءٍ.
وقال محمدُ بْنُ وَاسِعٍ: يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْمَرْأَةِ كَمَا يَكُونُ أَهْلُ الْمَجْنُونِ مَعَ الْمَجْنُونِ، يَحْتَمِلُونَ مِنْهُ كُلَّ أَدَى وَمَكْرُوهٍ.

قيل لمالك بن دينار: لو تزوجت؛ قال: لو استطعت لطلقت نفسي.
قال شقيق: اشتريت بطيخة لأُمِّي، فلما ذاقتها سَخِطْتُ. فقلت: يا أُمِّي، على من تُرَدِّينَ القِضَاءَ وَمَنْ تَلُومِينَ، أَحَارِثُهَا أَمْ مُشْتَرِيهَا أَمْ خَالِقُهَا؟ فَأَمَّا حَارِثُهَا وَمُشْتَرِيهَا فَمَا لَهَا دَنْبٌ، فَلَا أَرَاكَ تَلُومِينَ إِلَّا خَالِقُهَا.

ويقال: إِنَّ عَبْدًا حَبَشِيًّا نَاوَلَهُ مَوْلَاهُ شَيْئًا يَأْكُلُهُ، وَقَالَ: أَعْطِنِي قِطْعَةً مِنْهُ فَأَعْطَاهُ، فَلَمَّا أَكَلَهُ وَجَدَهُ مَرًّا، فَقَالَ: يَا غَلَامَ، كَيْفَ أَكَلْتَ هَذَا مَعَ شِدَّةِ مَرَارَتِهِ. قَالَ: يَا مَوْلَايَ، قَدْ أَكَلْتُ مِنْ يَدِكَ حُلُومًا كَثِيرًا، وَلَمْ أَحِبَّ أَنْ أُرِيكَ مِنْ نَفْسِي كِرَاهَةً لِمَرَارَتِهِ.

وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى عَزِيرٍ: إِذَا نَزَلْتَ بِكَ بَلِيَّةٌ لَا تَشْكُنِي إِلَى خَلْقِي كَمَا لَمْ أَشْكُكَ إِلَى مَلَائِكَتِي عِنْدَ صُعودِ مَسَاوِئِكَ إِلَيَّ، وَإِذَا أَذْنَبْتَ ذَنْبًا فَلَا تَنْظُرْ إِلَى صِغَرِهِ، وَلَكِنْ انظُرْ مِنْ أَهْدِيَّتِهِ إِلَيْهِ.

وقال لقمان: إِنَّ الذَّهَبَ يُجْرَبُ بِالنَّارِ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجْرَبُ بِالْبَلَاءِ.

وقال بعض السُّلَفِ: عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥]. وَقَالَ: ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. وَقَالَ: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤].

وقال الأوزاعي: الْمُؤْمِنُ يَقِلُّ الْكَلَامَ وَيُكْثِرُ الْعَمَلَ. وَالْمُنَافِقُ يُكْثِرُ الْكَلَامَ وَيَقِلُّ الْعَمَلَ.

وقال فضيل بن عياض: الْخَوْفُ مَا دَامَ الرَّجُلُ صَاحِحًا أَفْضَلَ، فَإِذَا نَزَلَتْ الْمَوْتُ فَالرَّجَاءُ أَفْضَلُ.

وقال النبي - ﷺ -: إِيَّاكُمْ وَالْخِيَانَةَ، فَإِنَّهَا بَثَّتِ الْبِطَانَةَ^(٢)، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

(١) من يفتاب الناس.

(٢) في سنن النسائي في الاستعاذة من الجوع. عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول:

اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بثس الضجيع وأعوذ بك من الخيانة، فإنها بثت البطانة.

«من رَدَّ عن عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ لَفَحَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وَرُوِيَ: مَنْ وَقِيَ شَرَّ لِقَائِهِ وَقَبِيهِ وَذَبَذِبَهُ^(٢) فَقَدْ وَقِيَ شِرَّةَ الشَّبَابِ.

وقيل لابن المبارك: إنك لتَحْفَظَ نَفْسَكَ مِنَ الْغِيْبَةِ. قال: لو كنت مُغْتَاباً أَحْداً لَأَعْتَبْتُ وَالِدِي، لَأَنْهُمَا أَحَقُّ بِحَسَنَاتِي.

وقال بعضُ الصَّالِحِينَ: لو أَنَّ رَجُلًا تَعَشَّى بِالْأَوَانِ الطَّعَامِ وَقَدْ أَصَابَ مِنَ النِّسَاءِ فِي اللَّيْلِ، وَرَجُلًا آخَرَ رَأَى رُؤْيَا عَلَى مِثَالِ مَا أَصَابَ الْأَوَّلُ فِي الْيَقَظَةِ، فَإِذَا مَضَى صَارَ الْحَالِمُ وَالْآخِرُ سِوَاءً.

وقال شقيق: مَنْ أَبْصَرَ ثَوَابَ الشُّدَّةِ لَمْ يَتَمَنَّ الْخُرُوجَ مِنْهَا.

وقال شقيق لأصحابه: أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ، أَنْ يَكُونَ لَكُمْ شَيْءٌ عَلَى الْمَلِيءِ، أَوْ يَكُونَ شَيْءٌ لِلْمَلِيءِ عَلَيْكُمْ؟ فَقَالُوا: بَلْ نُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَنَا عَلَى الْمَلِيءِ. فقال: إِذَا كُنْتُمْ فِي الشُّدَّةِ يَكُونَ لَكُمْ عَلَى اللَّهِ؛ وَإِذَا كُنْتُمْ فِي النُّعْمَةِ يَكُونَ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ.

وقال بعضُ السَّلَفِ: شَتَانَ مَا بَيْنَ عَمَلَيْنِ: عَمَلٍ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ وَتَبْقَى تَبِعَتُهُ، وَعَمَلٍ تَذْهَبُ مَوْوَتَّتُهُ وَيَبْقَى دُخْرُهُ.

وقال الرِّقَاشِي فِي مَوَاعِظِهِ: خَذُوا الذَّهَبَ مِنَ الْحَجَرِ، وَاللُّؤْلُؤَ مِنَ الْمَزْبِلَةِ.

وقال يحيى بنُ معاذ: الْعِلْمُ قَبْلَ الْعَمَلِ، وَالْعَقْلُ قَائِدُ الْخَيْرِ، وَالْهَوَى مَرْكَبُ الْمَعَاصِي، وَالْمَالُ دَاءُ الْمُتَكَبِّرِ.

= قوله: «فإنه بس الضجيع» ضجيعك بفتح فكسر من ينام في فراشك، أي بس صاحب الجوع الذي يمنعك من وظائف العبادات ويشوش الدماغ ويثير الأفكار الفاسدة والخيالات الباطلة، والبضانة بكسر باء موحدة وهي ضدة الظهارة وأصلها في الثوب فاتسع فيما يستبطن من أمره وللإمام أبي داود في: ٣٦٧ - / ٣٢٢ باب في الاستعاذة. حديث رقم: ١٥٤٧ - عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنه بس البطانة».

وللإمام ابن ماجه في: (٥٣) باب التعوذ من الجوع. حديث رقم: ٣٣٥٤ - عن أبي هريرة؛ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم! إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بس الضجيع. وأعوذ بك من الخيانة، فإنها بسست البطانة».

في الزوائد: في إسناده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

(١) سنن الترمذي، ٢٠ - باب: ما جاء في الذب عن المسلم. حديث رقم: ١٩٩٦ - عن أم الدرداء عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة».

(٢) اللقلق: اللسان، والقبقب: البطن. والذئب: العورة.

وقال: من تعلّم علّم أبي حنيفة فقد تعرّض للسلطان، ومن تعلّم النحو والعربية دله بين الصّبيان، ومن علّم علّم الزهاد بلغ إلى العرش.

وقال بعض الصّالحين: إنّ العلماء يسقون الناس، فبعضهم من العُذران والحياض، وبعضهم من العيون والقلوب، وبعضهم من البحار الواسعة.

وقال حاتم: لا تنظر إلى من قال، ولكن انظر إلى ما قال.

وقال مالك بن دينار: إني لا أفدّر أن أعمل بجميع ما أقول.

وقال وهيب بن الورد: مثل عالم السوء كمثّل الحجر يقع في الساقية فلا هو يشرب الماء، ولا يخلّي عن الماء فيذهب إلى الشجرة.

وقال النبي ﷺ: لأنّا من غير الدجال أخوف عليكم. قيل: ومن هو؟ قال: الأئمة المضلون.

وقال الثوري: نعوذ بالله من فتنة العالم الفاجر، وفتنة القائد الجاهل.

وقال النبي ﷺ: «سيكون في أمّتي علماء فساق، وقراء جهال».

وقال الثوري: العلم طيب الدين، والمال داؤه، فإذا رأيت الطبيب يجرّ الداء إلى نفسه فكيف يعالج غيره.

وقال عيسى بن مريم: ما ينفع الأعمى ضوء الشمس وهو لا يبصرها.

وقال النبي ﷺ: «أشدّ الناس حسرة يوم القيامة عالم علم الناس ونجوا به، وارثهن هو بسوء عمله».

وقال أحمد بن حزم: إن منازل الدنيا لا تقطع بالكلام، فكيف يقطع طريق الآخرة بالكلام.

وقال أبو مسلم الخولاني: العلماء ثلاثة: رجل عاش بعلمه وعاش به الناس، ورجل عاش بعلمه ولم يعيش به الناس، ورجل عاش بعلمه الناس وهلك هو.

وشاور رجل محمد بن أسلم فقال: إني أريد أن أزوج بنتي، فبمن أزوج؟ قال: لا تزوجها عالماً مفتوناً، ولا كاسباً كاذباً، ولا عابداً شاكاً.

قيل: نصّح إبليس فقال: إياك والكبر، فإني تكبرت فلعنت، وإياك والحِرص فإن أباك حرص على أكل الشجرة فأخرج من الجنة؛ وإياك والحسد فإن أحد بني آدم قتل أخاه بالحسد.

ومرّ حاتم بقوم يكتبون العلم فنظر إليهم وقال: إن لم يكن معكم ثلاثة أشياء لن تفلحوا. قالوا: وما هي؟ قال: همّ أمس، واغتمام اليوم، وخوف الغد.

وقال ابن عمر: كان في بني إسرائيل ثلاثة خرجوا في وجهه، فأخذهم المطر

فدخلوا كهفاً، فوقع حجرٌ عظيم على باب الكهف، وبقوا في الظلمة وقالوا: لا ينجينا إلا ما عملناه في الرخاء. فقال أحدهم: إني كنتُ راعياً فأرختُ وحَلَبْتُ، وكان لي أبوان وأولاد وامرأةٌ فسقيتُ أولاً الوالدين ثم الأولاد، فجنثُ يوماً فوجدتُ أبويّ قد ناما فلم أوقظهما لحزمتيهما ولم أسقِ الأولادَ وبقيتُ قائماً إلى الصبح؛ فإن كنت يا ربّ قَبِلْتَ هذا منّي فاجعل لنا فرجاً. فتحركَ الحَجَرُ ودخل عليهم الضوء.

وقال الثاني: إني كنتُ صاحبَ ضياع، فجاءني رجل بعد ما مَتَعَ النهار، وكان لي أجراءٌ يَحْصِدون الزرع، فاستأجرته، فلما تمَّ عملهم أعطيتهم أجورهم، فلما بلغتُ إلى ذلك الرجل أعطيتُه وافيأً كما أعطيتُ غيره، فغضبوا وقالوا: تعطيه مثل ما أعطيتنا. فأخذتُ تلك الأجرة واشتريتُ بها عَجُولاً ونَمَى حتى كَثُرَ البَقَرُ؛ فجاء صاحب الأجر يَطْلُبُ فقلتُ: هذه البَقَرُ كُلُّها لك، فسَلَّمْتُها إليه، فإن كنت يا ربّ قَبِلْتَ منّي هذا الوفاء ففرِّجْ عنا. فتحركَ الحَجَرُ ودَخَلَ منه ضَوْءٌ كثير.

وقال الثالث: كانت لي بنتٌ عمٌّ فراودتُها، فأبَتْ، حتى أعطيتها مائة دينارٍ فلما أردتُ ما أردتُ اضطربتُ وارتعدتُ. فقلتُ لها: ما لك؟ فقالت: إني أخافُ الله. فتركْتُها ورجعتُ عنها، إلهي فإن كنت قَبِلْتَ ذلك منّي ففرِّجْ عنا. فتحركَ الحَجَرُ وسَقَطَ عن باب الكهف وخرجوا منه يَمْشُونَ.

وقال حاتم: لو أدخلت السوقَ شِياءَ كثيرةً لما اشتري أحدُ المَهْزُولِ، بل يَقْصِدُ السَّمِينِ اللَّذْبِجِ.

وقال يحيى بن معاذ: في القلب عيونٌ يهيجُ منها الخَيْرُ والشَّرُّ.

وقال بعض الصالحين في دعائه: اللهم إنَّ أَّحَدَنَا لا يشاءُ حتى تشاء، فاجعل مشيئتك لي أن تشاء ما يُقَرِّبُنِي إليك؛ اللهم إنك قَدَّرْتَ حَرَكَاتِ العبد، فلا يتحرك شيءٌ إلا بإذنك، فاجعل حَرَكَاتي في هَواك.

وقال قاسمُ بنُ محمَّد: لأنَّ يَعِيشَ الرَّجُلُ جاهلاً خيراً له من أن يقول ما لا يعلم.

وقال الشعبي: لم يكن مجلسٌ أحبَّ إليَّ من هذا المجلس، ولأنَّ أْبَعَدَ اليَوْمِ عن بساطه أحبُّ إليَّ من أن أُحْبَسَ فيه.

وقال حاتم: إذا رأيت من أخيك عيباً فإن كتمته عليه فقد خُنته، وإن قُلْتَه لغيره فقد اغتبتَه، وإن واجهته به فقد أَوْحَشْتَه؛ قيل له: كيف أصنع؟ قال: تَكْنِي عنه، وتُعَرِّضُ به، وتجعلُه في جملة الحديث.

وقال: إذا رأيت من أخيك زَلَّةً فاطلب لها سبعين وجهاً من العِلَلِ، فإن لم تجد فلمْ نَفْسَكَ.

وقال إبراهيم بن جُنَيْد: اتَّخَذَ مِرَاتَيْنِ، وانظر في إحداهما عيبَ نَفْسِكَ، وفي الأخرى محاسنَ الناسِ .

وقال يحيى بنُ معاذ: الدنيا دارُ خراب، وأخرُبُ منها قلبُ من يَغْمُرُها، والآخرة دارُ عُمران، وأَعْمُرُ منها قلبُ من يَغْمُرُها .

وقال ابن السماك: الدنيا كالعُرُوسِ المَجْلُوتَةِ تشوَّقَتْ لِحُطَابِهَا وَفَتَنَتْ بِغُرُورِهَا، فالعيون إليها ناظرة، والقلوبُ عليها واليهة؛ والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها قاتلة .

وقال بعض العارفين: الدنيا أربعة أشياء: الفَرَحُ والرَّاحَةُ والحلاوةُ واللذَّةُ؛ فالفَرَحُ بالقلبِ والرَّاحَةُ بالبدنِ، واللذَّةُ بالخلقِ، والحلاوةُ بالعين .

وقال يحيى بن معاذ: الدنيا خَمْرُ الشيطان، فمن سَكِرَ منها لم يُفِقْ إلا في مَسْكَنِ النَّادِمِينَ .

وقال بعض السلف: الزهد خَلْعُ الراحة، وبذلُ الجهد، وقطعُ الأمل .

وقال الأنطاكي أحمد بن عاصم: الزُّهُدُ هو الثُّقَّةُ بالله، والتبرُّؤُ من الخَلْقِ، والإخلاصُ في العمل، واحتمالُ الدُّلِّ .

وقال داود - عليه السلام - في دعائه: يا رازقِ النَّعَابِ في عُشِّهِ .

وقال بعضُ السَّلَفِ: لو كنتَ على ذَنبِ الرِّيحِ لم تَغَيَّرْ من رِزْقِكَ .

وقال آخر: الإنسان بين رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ، إلا أنه مخدوعٌ بِأَمَلِهِ .

وقال عيسى بن مريم عليه السلام: خَلَقَكَ رَبُّكَ في أربعِ مراتب، فكنتَ آمناً ساكناً في ثلاث، وقلقتَ في الرابعة، أولاهَا في بطنِ أُمِّكَ في ظُلُمَاتِ ثلاث، والثانية حينَ أَخْرَجَكَ مِنْهُ وَأَخْرَجَ لَكَ لَبناً من بين فَرْثِ وَدَمٍ . والثالثة إذا فُطِمْتَ أَطْعَمَكَ المَرِيَّ الشَّهِيَّ، حتى إذا اشتدت عِظَامُكَ وبلغتَ تَمَامَكَ صِرْتَ خائناً وأخذتَ في السَّرِقَةِ والحيلة .

وقال أَس: رأيتُ طائراً أَكَمَّةً فَتَحَ فَاهُ فجاءت جرادة فدخلت فَمَهُ .

وقال عيسى - عليه السلام -: يا ابن آدم اَعْتَبِرْ رِزْقَكَ بِطَيْرِ السَّمَاءِ، لا يزرَعُن ولا يَحْصُدُن وإِلَهُ السَّمَاءِ يَزْرُقُهُنَّ . فَإِنْ قَلتَ: لها أَجْنَحَةٌ فاعْتَبِرْ بِخُمْرِ الوَحْشِ وَبِقِرِ الوَحْشِ ما أَسْمَتَها وما أَبَسَمَها وَأَبَدَنَها!

وقال ابن السَّمَاك: لو قال العبد: يا رَبِّ لا تَزْرُقْني، لقال الله: بل أرزُقكَ على

رَغْمِ أَنْفِكَ، ليس لك خالقٌ غيري، ولا رازقٌ سِواي، إن لم أرزُقكَ فمن يَزْرُقُكَ؟

وقيل لراهب: من أين تأكل؟ فقال: إن خالقَ الرَّحَى يأتي بالطَّحِينَ .

وقال حاتم: الحمارُ يَعْرِفُ طَرِيقَ الْمَعْلَفِ، وَالْمَنَافِقُ لَا يَعْرِفُ طَرِيقَ السَّمَاءِ.
وقال إبراهيمُ بنُ أدهم: سَأَلْتُ رَاهِباً مِنْ أَيْنَ تَأْكُلُ؟ قَالَ: لَيْسَ هَذَا الْعِلْمُ
عِنْدِي، وَلَكِنْ سَلْ رَبِّي مِنْ أَيْنَ يُطْعِمُنِي.

وقال حاتم: مَثَلُ الْمُتَوَكَّلِ مَثَلُ رَجُلٍ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى جَبَلٍ.
وقال بعضُ الأبرار: حَسْبُكَ مِنَ التَّوَكُّلِ أَلَّا تَطْلُبَ لِنَفْسِكَ نَاصِراً غَيْرَهُ، وَلَا
لِرِزْقِكَ خَازِناً غَيْرَهُ، وَلَا لِعَمَلِكَ شَاهِداً غَيْرَهُ.

وقال عبدُ الحميد بنُ عبد العزيز: كَانَ لِأَبِي صَدِيقٍ وَرَاقٌ، فَقَالَ لَهُ أَبِي يَوْمَ:
كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ قَالَ: بِخَيْرٍ مَا دَامَتْ يَدَيَّ مَعِي، فَأَصْبَحَ الْوَرَّاقُ وَقَدْ شَلَّتْ يَدُهُ.
قال أبو العالِيَةِ: لَا تَتَّكِلْ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ فَيَكِلَكَ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَلَا تَعْمَلْ لِغَيْرِ اللَّهِ
فَيَجْعَلَ ثَوَابَ عَمَلِكَ عَلَيْهِ.

وقال رجلٌ لأبي ذرٍّ: أَنْتَ أَبُو ذَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: لَوْلَا أَنَّكَ رَجُلٌ سَوْءٍ مَا
أُخْرِجْتَ مِنَ الْمَدِينَةِ. فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: بَيْنَ يَدَيَّ عَقَبَةٌ كَوْوَدٌ إِنْ نَجَوْتُ مِنْهَا لَا يَضُرُّنِي مَا
قُلْتَ، وَإِنْ أَفَعُ فِيهَا فَأَنَا سَرٌّ مِمَّا تَقُولُ.

وقيل لفضيل: إِنْ فَلَانًا يَقَعُ فِيكَ. فَقَالَ: لِأَعْيَظَنَّ مَنْ أَمَرَهُ بِذَلِكَ؛ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ.
وقال رجلٌ لأبي هريرة: أَنْتَ أَبُو هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: سَارِقُ الدَّرِيرَةِ^(١)؟ قَالَ:
اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ كَاذِبًا فَاغْفِرْ لَهُ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَاغْفِرْ لِي، هَكَذَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وقال رجلٌ لابنِ مُكَدَّمٍ: يَا كَافِرُ. قَالَ: وَجَبَ عَلَيَّ الشُّكْرُ، حَيْثُ لَمْ يَجْرِ ذَلِكَ
عَلَى لِسَانِي، وَلَمْ تَجِبْ عَلَيَّ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ فِيهِ، وَقَدْ طَوَيْتُ قَلْبِي عَلَى جُمْلَةِ أَشْيَاءٍ.
قال: وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: إِنْ قُلْتَ أَلْفَ مَرَّةٍ لَا أُجِيبُكَ مَرَّةً، وَلَا أَحْقِدُ عَلَيْكَ، وَلَا أَشْكُوكَ
إِلَى أَحَدٍ، وَإِنْ نَجَوْتُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ شَفَعْتُ لَكَ. فتاب الرجل.

كان للحسن جَارٌ نَصْرَانِيٌّ، وَكَانَ لَهُ كَنِيفٌ عَلَى السُّطْحِ، وَقَدْ نَقَبَ ذَلِكَ فِي بَيْتِهِ،
وَكَانَ يَتَحَلَّبُ مِنْهُ الْبَوْلُ فِي بَيْتِ الْحَسَنِ، وَكَانَ الْحَسَنُ أَمَرَ بِإِنَاءِ فَوْضِعٍ تَحْتَهُ، فَكَانَ
يُخْرِجُ مَا يَجْتَمِعُ مِنْهُ لَيْلاً، وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ عَشْرُونَ سَنَةً، فَمَرَضَ الْحَسَنُ ذَاتَ يَوْمٍ
فَعَادَهُ النَّصْرَانِيُّ، فَرَأَى ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ: مُذْ كَمْ تَحْمِلُونَ مِنِّي هَذَا الْأَذَى؟
فَقَالَ: مِنْذُ عَشْرِينَ سَنَةً. فَقَطَعَ النَّصْرَانِيُّ زُنَّارَهُ وَأَسْلَمَ.

وجاءت جاريةٌ لمنصور بنِ مِهْرَانَ بِمَرَقَةٍ فَهَرِاقَتْهَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِحَرِّهَا
نَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: يَا مُعَلِّمَ الْخَيْرِ اذْكُرْ قَوْلَ اللَّهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَتْ:
﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] قَالَ: كَظَمْتُ. قَالَتْ: وَادْكُرْ ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ

النَّاسِ ﴿ [آل عمران: ١٣٤] قال: قد عَفَوْتُ. قالت: واذكُرْ ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿ [آل عمران: ١٣٤]. قال: اذْهَبِي فَأَنْتِ حُرَّةٌ.

قال الحسن: ما جَزَعَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَزَعَةٍ مُصِيبَةٍ رَدَّهَا صَاحِبُهَا بِصَبْرٍ، وَجَزَعَةٌ غَضِبَ رَدَّهَا صَاحِبُهَا بِحِلْمٍ.

وكان محمدُ بنُ المنكدرِ إذا غَضِبَ على غلامِهِ يقول: ما أَشْبَهَكَ بِسَيِّدِكَ؟

وقال أبو ذَرٍّ: كيف يكون حليماً من يَغْضِبُ على جِمارِهِ وَسَخِلِهِ وَهَرِهِ.

ومات ابنُ للرشيذِ فَجَزَعُ جَزَعًا شَدِيدًا، فَوَعَّظَهُ العُلَمَاءُ فلم يَتَعَطَّ؛ فَدَخَلَ مَخْنَثٌ

وقال: أتأذُنُ لي في الكلام؟ قال: تكلِّم. فكشَفَ عن رأسِهِ وقام بين يديه، وقال: يا

أميرَ المؤمنين، أنا رجل، وقد تَشَبَّهْتُ بالنساءِ كما تَرَى، فأَيُّ شيءٍ كُنْتَ تَصْنَعُ لو كان

ابنُك في الأحياءِ وكان على صُورَتِي، فَاتَّعَطَّ بِهِ وَأَخْرَجَ النَّوَّاحَاتِ مِنَ الدَّارِ.

قال وَهْبٌ: مَكْتُوبٌ فِي الكُتُبِ القَدِيمَةِ: إن كُنْتُمْ تَريدُونَ رَحْمَتِي فَارْحَمُوا عِبَادِي.

وقال جعفر بن محمد - عليهما السلام -: حُسْنُ الجِوارِ عِمارةُ الدِّيارِ وَمَثْرأَةُ المَالِ.

ولما قرأ هذا الجُزءَ - حَرَسَهُ اللهُ - ارتاح وقال: أين نحن من هذه الطَّرِيقَةِ، إلى

اللهِ المُسْتَكِّي .

الليلة الخامسة والعشرون

وقال - أدامَ اللهُ دَوْلَتَه - ليلةً: أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ كَلَاماً فِي مَرَاتِبِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ، وَإِلَى أَيِّ حَدِّ يَنْتَهِيَانِ، وَعَلَى أَيِّ شَكْلِ يَتَّفِقَانِ، وَأَيُّهُمَا أَجْمَعُ لِلْفَائِدَةِ، وَأَزْجَعُ بِالْعَائِدَةِ، وَأَدْخُلُ فِي الصَّنَاعَةِ، وَأَوْلَى بِالْبَرَاعَةِ؟؟

فكان الجواب: إِنَّ الكَلَامَ عَلَى الكَلَامِ صَغْبٌ. قال: وَلِمَ؟ قلتُ: لِأَنَّ الكَلَامَ عَلَى الأُمُورِ المَعْتَمَدِ فِيهَا عَلَى صُورِ الأُمُورِ وَشَكُولِهَا الَّتِي تَنْقَسِمُ بَيْنَ المَعْقُولِ وَبَيْنَ مَا يَكُونُ بِالحِسِّ مُمَكِّنًا، وَقَضَاءِ هَذَا مَتَّسِعًا، وَالمَجَالِ فِيهِ مُخْتَلَفًا. فَأَمَّا الكَلَامُ عَلَى الكَلَامِ فَإِنَّهُ يَدُورُ عَلَى نَفْسِهِ، وَيَلْتَمِسُ بَعْضُهُ بَعْضَهُ؛ وَلِهَذَا شَقَّ النَّحْوُ وَمَا أَشْبَهَ النَّحْوَ مِنَ المَنْطِقِ، وَكَذَلِكَ النَّثْرُ وَالشُّعْرُ وَعَلَى ذَلِكَ.

وقد قال الناس في هذين الفئتين ضرباً من القول لم ينعِدوا فيها من الوصفِ الحَسَنِ، وَالمَحْكِ، وَالمُتَنَافَسِ المَحْمُودِ، وَالمُتَنَافَسِ المَقْبُولِ، إِلَّا مَا خَالَطَهُ مِنَ التَّعَصُّبِ وَالمَحْكِ، لِأَنَّ صَاحِبَ هَذَيْنِ الخُلُقَيْنِ لَا يَخْلُو مِنْ بَعْضِ المُكَابَرَةِ وَالمُغَالَطَةِ وَيَقْدِرُ ذَلِكَ يَصِيرُ لَهُ مَدْخَلٌ فِيهَا يُرَادُ تَحْقِيقُهُ مِنْ بَيَانِ الحِجَّةِ أَوْ قُصُورِهَا عَمَّا يُرَامُ مِنَ البُلُوغِ بِهَا، وَهَذِهِ آفَةٌ مَعْتَرِضَةٌ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَلَا مَطْمَعٌ فِي زَوَالِهَا، لِأَنَّهَا نَاشِئَةٌ مِنَ الطَّبَائِعِ المِخْتَلِفَةِ، وَالعَادَاتِ السَّيِّئَةِ، لَكِنِّي مَعَ هَذِهِ الشُّوْكَةِ الحَادَّةِ، وَالحُطَّةِ الكَادَةِ؛ أَقُولُ مَا وَعَيْتُهُ عَنْ أَرْبَابِ هَذَا الشَّانِ، وَالمُتَمَتِّعِينَ لِهَذَا الفَنِّ، وَإِنْ عَنَّ شَيْءٌ يَكُونُ شَكْلًا لِذَلِكَ وَصَلَّتْهُ بِهِ تَكْمِيلًا لِلشَّرْحِ، وَاسْتِيعَابًا لِلبَابِ، وَصَمْدًا^(١) لِلغَايَةِ، وَأَخَذًا بِالجِيَاظَةِ، وَإِنْ كَانَ المُنْتَهَى مِنْهُ غَيْرَ مَطْمُوعٍ فِيهِ، وَلَا مَوْضُوعٍ إِلَيْهِ؛ وَاللَّهُ المَعِينُ.

قال شيخنا أبو سليمان: الكَلَامُ يَنْبَغُ فِي أَوَّلِ مَبَادِئِهِ إِمَّا مِنْ عَفْوِ البَدِيهَةِ، وَإِمَّا مِنْ كَدِّ الرُّوِيَّةِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَرْكَبًا مِنْهُمَا، وَفِيهِ فُؤَاهُمَا بِالأَكْثَرِ وَالأَقْلَ؛ فَضِيلَةُ عَفْوِ البَدِيهَةِ أَنَّهُ يَكُونُ أَضْفَى، وَفَضِيلَةُ كَدِّ الرُّوِيَّةِ أَنَّهُ يَكُونُ أَشْفَى، وَفَضِيلَةُ المَرْكَبِ مِنْهُمَا أَنَّهُ يَكُونُ أَوْفَى؛ وَعَيْبُ عَفْوِ البَدِيهَةِ أَنْ تَكُونَ صُورَةُ العَقْلِ فِيهِ أَقْلٌ؛ وَعَيْبُ كَدِّ الرُّوِيَّةِ أَنْ تَكُونَ صُورَةُ الحِسِّ فِيهِ أَقْلٌ، وَعَيْبُ المَرْكَبِ مِنْهُمَا بِقَدْرِ قِسْطِهِ مِنْهُمَا: الأَغْلَبُ، وَالأَضْعَفُ؛ عَلَى أَنَّهُ إِنْ خَلَصَ هَذَا المَرْكَبُ مِنْ شَوَائِبِ التَّكْلِيفِ، وَشَوَائِبِ التَّعَسُّفِ،

(١) أي قصداً إليها.

كان بليغاً مقبولاً رائعاً خلواً، تَحْتَضِنُه الصُّدُورُ، وَتَحْتَلِسُه الآذَانُ، وَتَنْتَهِبُه المَجَالِسُ، وَتَتَنَاقَسُ فِيه المُنَافِسُ بَعْدَ المُنَافِسِ، وَالتَّفَاضُلُ الوَاقِعُ بَيْنَ البُلْغَاءِ فِي النُّظْمِ وَالتَّنْزْرِ، إِنَّمَا هُوَ فِي هَذَا المَرْكَبِ الَّذِي يُسَمَّى تَأْلِيْفًا وَرِضْفًا؛ وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ صُورَةُ العَقْلِ فِي البَيْدِيَّةِ أَوْضَحَ، وَأَنْ تَكُونَ صُورَةُ الحَسَنِ فِي الرِّوِيَّةِ الوَاحِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ غَرَائِبِ آثَارِ النَّفْسِ وَنَوَادِرِ أفعالِ الطَّبِيعَةِ، وَالمَدَارُ عَلَى العَمُودِ الَّذِي سَلَفَ نَعْتُهُ، وَرَسَا أَصْلُهُ.

وَسَمِعْتُ أَبَا عَائِدِ الكَرْخِيَّ صَالِحَ بَنِ عَلِيٍّ يَقُولُ: النَّزْرُ أَصْلُ الكَلَامِ، وَالتَّنْظُمُ فَرْعُهُ؛ وَالأَصْلُ أَشْرَفُ مِنَ الفَرْعِ، وَالفَرْعُ أَنْقَضُ مِنَ الأَصْلِ؛ لَكِنْ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا زَائِنَاتٌ وَشَائِنَاتٌ، فَأَمَّا زَائِنَاتُ النَّزْرِ فَهِيَ ظَاهِرَةٌ، لِأَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِمْ يَقْصِدُونَ النَّزْرَ، وَإِنَّمَا يَتَعَرَّضُونَ لِلتَّنْظِمِ فِي الثَّانِي بَدَاعِيَّةٍ عَارِضَةٍ، وَسَبَبٍ بَاعِثٍ، وَأَمْرٍ مَعِينٍ.

قَالَ: وَمِنْ شَرْفِهِ أَيْضًا أَنَّ الكِتَابَ القَدِيمَةَ وَالحَدِيثَةَ النَازِلَةَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الأَلْسِنَةِ الرُّسُلِ بِالتَّأْيِيدِ الإِلَهِيِّ مَعَ اخْتِلَافِ اللُّغَاتِ كُلِّهَا مَنْشُورَةٌ مَبْسُوطَةٌ، مُتَبَايِنَةٌ الأَوْزَانِ، مُتَبَاعِدَةٌ الأَبْنِيَّةِ، مُخْتَلَفَةٌ التَّصَارِيفِ، لَا تَتَنَقَّادُ لِلوِزْنِ، وَلَا تَدْخُلُ فِي الأَعْرَاضِ؛ هَذَا أَمْرٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَابَلَهُ مَا يَدْحَضُهُ، أَوْ يُعْتَرَضُ عَلَيْهِ بِمَا يُخْرِضُهُ^(١).

قَالَ: وَمِنْ شَرْفِهِ أَيْضًا أَنَّ الوَاحِدَةَ فِيهِ أَظْهَرَ، وَأَثَرَهَا فِيهِ أَشْهَرَ، وَالتَّكْلُفُ مِنْهُ أَبْعَدُ، وَهُوَ إِلَى الصَّفَاءِ أَقْرَبُ، وَلَا تَوْجِدُ الوَاحِدَةَ غَالِبَةً عَلَى شَيْءٍ إِلَّا كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى حُسْنِ ذَلِكَ الشَّيْءِ وَبَقَائِهِ، وَبِهَائِهِ وَتَقَائِهِ.

قَالَ: وَمِنْ فَضِيلَةِ النَّزْرِ أَيْضًا كَمَا أَنَّهُ إِلَهِيٌّ بِالوَاحِدَةِ، كَذَلِكَ هُوَ طَبِيعِيٌّ بِالبَدْءِ، وَالبَدْءُ فِي الطَّبِيعِيَّاتِ وَاحِدَةٌ، كَمَا أَنَّ الوَاحِدَةَ فِي الإِلَهِيَّاتِ بَدْءٌ، وَهَذَا كَلَامٌ خَطِيرٌ.

قَالَ: أَلَا تَرَى أَنَّ الإِنْسَانَ لَا يَنْطِقُ فِي أَوَّلِ حَالِهِ مِنْ لَدُنْ طُفُولِيَّتِهِ إِلَى زَمَانِ مَدِيدِ إِلا بِالْمَنْشُورِ المْتَبَدِّدِ، وَالمَيَسُورِ المْتَرَدِّدِ؛ وَلَا يُلْهَمُ إِلا ذَاكَ، وَلَا يُنَاغَى إِلا بِذَاكَ؛ وَليْسَ كَذَلِكَ المَنْظُومِ، لِأَنَّهُ صِنَاعِيٌّ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ دَاخِلٌ فِي حِصَارِ العَرُوضِ وَأَسْرِ الوِزْنِ وَقَيْدِ التَّأْلِيفِ، مَعَ تَوْقِي الكَسْرِ، وَاحْتِمَالِ أَصْنَافِ الرُّحَافِ، لِأَنَّهُ لَمَّا هَبَطَتْ دَرَجَتُهُ عَنِ تِلْكَ الرُّبُوعَةِ العَالِيَةِ، دَخَلَتْهُ الآفَةُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ.

قَالَ: فَإِنْ قِيلَ: إِنْ التَّنْظِمُ قَدْ سَبَقَ العَرُوضَ بِالدُّوقِ، وَالدُّوقُ طَبِيعِيٌّ؛ قِيلَ فِي الجَوَابِ: الدُّوقُ وَإِنْ كَانَ طَبَاعِيًّا فَإِنَّهُ مَخْدُومُ الفِكْرِ، وَالفِكْرُ مِفْتَاحُ الصَّنَائِعِ البَشَرِيَّةِ، كَمَا أَنَّ الإِلْهَامَ مُسْتَخْدِمُ للفِكْرِ، وَالإِلْهَامُ مِفْتَاحُ الأُمُورِ الإِلَهِيَّةِ.

قَالَ: وَمِنْ شَرْفِ النَّزْرِ أَيْضًا أَنَّهُ مُبْرَأٌ مِنَ التَّكْلُفِ، مُنْزَعٌ عَنِ الصَّرُورَةِ، غَنِيٌّ عَنِ الاعْتِدَارِ وَالاِفْتِقَارِ، وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، وَالحَذْفِ وَالتَّكْرِيرِ، وَمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا مِمَّا

(١) أَي يَفْسُدُهُ.

هو مدوّن في كُتب القوافي والعروض لأربابها الذين استنّفدوا غايتهم فيها.

وقال عيسى الوزير: النَّثْر من قِبَل العَقْلِ، والنَّظْم من قِبَل الحِسِّ، ولِدُخُول النَّظْم في طَيِّ الحِسِّ دَخَلَتْ إليه الآفة، وغَلِبَتْ عليه الصُّرُورَة، واحتيج إلى الإغضاء عما لا يجوزُ مثله في الأصل الذي هو الشر.

وقال ابن طرارة - وكان من فصحاء أهل العصر بالعراق -: النَّثْرُ كالحِرَّة، والنَّظْمُ كالأمة، والأمة قد تكون أحسنَ وجهاً، وأدمتَ شمائلَ، وأخلى حرَكات؛ إلا أنها لا تُوصَفُ بكرَمِ جَوهَرِ الحِرَّة ولا بِشَرَفِ عِرْقِهَا وَعِنْتِ نَفْسِهَا وَفَضْلِ حَيَاتِهَا.

وقال: ولشَرَفِ النَّثْرِ قال الله تعالى في التنزيل ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُنْزِلُوا مَثُورًا ﴾ [الإنسان: ١٩] ولم يَقُلْ: لَوْلَا مَنْظُومًا؛ ونجومُ السماء منتثرة وإن كان انتشارها على نظام، إلا أن نظامها في حدِّ العقل، وانتثارها في حدِّ الحِسِّ، «لأنَّ الحكمة إذا غُطِيَتْ نَفْسُهَا كانت الغلبة للصورة القائمة بالقُدرة».

وقال أحمد بن محمد كاتب رُكن الدولة: الكلام المنثورُ أشبه بالوشى، والمنظومُ أشبه بالمنير المخطط، والوشى يزوق ما لا يزوق غيره.

ويقال: كُتِّبَ في نِثارِ فلان، ولا يقال: كُتِّبَ في نظامِ فلان.

وقال ابن هندو الكاتب: إذا نُظِرَ في النظم والنثر على استيعابِ أحوالِهما وشرائطِهما، والأطلاع على هَوادِيهما وتَواليهما كان أن المنظوم فيه نثرٌ من وجه، والمنثور فيه نظمٌ من وجه، ولولا أنهما يَسْتَهْمَانِ هَذَا النِّعْتِ لَمَا ائْتَلَفَا وَلَا ائْتَلَفَا.

وقال ابن كعب الأنصاري: من شَرَفِ النَّثْرِ أن النبي ﷺ لم يَنْطِقْ إلا به أمرًا وناهياً، ومستخيراً ومخبراً، وهادياً وواعظاً، وغاضباً وراضياً، وما سلبَ النَّظْمُ إلا لهبوطه عن دَرَجَةِ النَّثْرِ، ولا نُزَّهَ عنه إلا لما فيه من النقص، ولو تساوى لنتق بهما، ولما اختلفا خُصَّ بأشرفهما الذي هو أجولُ في جميع المواضع، وأجلبُ لكل ما يُطلبُ من المناف.

فهذا قليل من كثير مما يكون تبصرةً لياغي هذا الشأن، ولَمَنْ يَتَوَخَّى حديثه عند كلِّ إنسان.

وأما ما يُفَضَّلُ به النَّظْمُ على النَّثْرِ فأشياء سمعناها من هؤلاء العلماء الذين كانت سماءَ عِلْمِهِمْ دُرُوراً، وبحرُ أدبِهِمْ مُتَلَاطِماً، وروضُ فضلِهِمْ مُزْدَهَرًا، وشمسُ حِكْمَتِهِمْ طالعة، ونازُ بلاغَتِهِمْ مُشْتَعِلَة، وأنا آتي على ما يحضرنني من ذلك، منسوباً إليهم، ومَحْسُوباً لهم، ليكون حَقُّهم به مَقْضِيًّا، وذكرهم على مرِّ الزَّمانِ طَرِيًّا.

قال السلامي: من فضائل النَّظْمِ أن صارَ لنا صناعةً برأسِها، وتكَلَّمَ الناسُ في قوافيها، وتوسَّعوا في تصاريِفِها وأعارِيضِها، وتصرفوا في بحورها، واطلعوا على

عجائب ما استُخزِنَ فيها من آثار الطَّبِيعَةِ الشَّرِيفَةِ، وشواهِدِ القُدْرَةِ الصَّادِقَةِ؛ وما هكذا النَّثْرُ، فَإِنَّهُ قَصَّرَ عن هذه الذُّرْوَةِ الشَّامِخَةِ، والقَلَّةِ العَالِيَةِ؛ فصار بذلك بِذِلَّةٍ لِكَافَّةِ النَّاظِقِينَ من الخَاصَّةِ والعَامَّةِ والنِّسَاءِ والصُّبْيَانِ.

وقال أيضاً: من فضائل النَّظْمِ أَنَّهُ لا يُعْنَى ولا يُحْدَى إلا بِجَيِّدِهِ ولا يُوَهَّلُ لِلخِنِ الطَّنْطَنَةِ، ولا يُحَلَّى بالإيقاع الصحيح غيرُهُ، لأنَّ الطَّنْطَنَاتِ والنَّقْرَاتِ، والحركات والسكنات لا تتناسب إلا بعد اشتمال الوَزنِ والنَّظْمِ عليها، ولو كان فُعِلَ هذا بالنثر كان مَنقوصاً، كما لو لم يُفَعَلْ هذا بالنَّظْمِ لكان محسوساً؛ والغناء معروفُ الشَّرَفِ، عجيبُ الأثرِ، عزيزُ القَدْرِ، ظاهرُ النفعِ في معايشة الروح، ومُنَاغاةِ العَقْلِ، وتنبيهِ النَّفْسِ، واجتلابِ الطَّرَبِ وتفريجِ الكُرْبِ؛ وإثارةِ الهِزَّةِ، وإعادةِ العِزَّةِ، وإذكارِ العهدِ، وإظهارِ النَّجْدَةِ، واكتسابِ السَّلْوَةِ؛ وما لا يُحصَى عَدَدُهُ.

ويقال: ما أحسنَ هذه الرسالة لو كان فيها بيتٌ من الشعر، ولا يقال: ما أحسنَ هذا الشعر لو كان فيه شيءٌ من النَّثْرِ، لأنَّ صورةَ المَنظومِ مَحفوظةٌ، وصورةَ المَثورِ ضائعةٌ. وقال ابنُ نُبَاتَةَ: مِن فَضْلِ النَّظْمِ أَنَّ الشُّواهدَ لا توجد إلا فيه، والحُجَجَ لا تُؤخَذُ إلا منه، أعني أن العلماءَ والحُكَمَاءَ والفُقَهَاءَ والنحويِّينَ واللُّغويِّينَ يقولون: «قال الشاعر»؛ و«هذا كثيرٌ في الشعر»، و«الشعر قد أتى به»، فعلى هذا الشاعرُ هو صاحبُ الحِجَّةِ، والشعر هو الحِجَّةُ.

وقال الخالِعُ: للشُّعراءِ حَلْبَةٌ، وليس للبلغاءِ حَلْبَةٌ، وإذا تَبَعَّتْ جوائزُ الشُّعراءِ التي وَصَلَتْ إليهم من الخُلَفاءِ وولَاةِ العُهُودِ والأُمراءِ والوَلَاةِ في مقاماتهم المؤرَّخةً، ومَجالسِهِم الفاخرةً، وأنديتِهِم المشهورةً، وجَدَّتْها خارِجَةً عن الحَضْر، بعيدةً من الإحصاءِ؛ وإذا تَبَعَّتْ هذه الحالَ لأصحابِ النَّثْرِ لم تجد شيئاً من ذلك؛ والناس يقولون: ما أكملَ هذا البليغُ لو قرَضَ الشعرُ! ولا يقولون: ما أشعرَ هذا الشاعرُ لو قَدَّرَ على النَّثْرِ! وهذا لغنى الناظِمِ عن النَّاثِرِ، وقَرَّرَ النَّاثِرُ إلى الناظِمِ؛ وقد قَدَّمَ النَّاسُ أبا عليِّ البصيرِ على أبي العِيناءِ، لأنَّ أبا عليٍّ جَمَعَ بين الفُضيلتينِ، وضَرَبَ بالسَّيفينِ في الحومتينِ، وفازَ بالقدِّحينِ المُعلَّينِ في المكانينِ.

وقال لنا الأنصاريُّ: سمعتُ ابنَ ثوابَةَ الكاتبِ يقول: لو تصفَّحنا ما صارَ إلى أصحابِ النَّثْرِ من كِتَابِ البلاغةِ، والخُطباءِ الذين ذُبُوا عن الدَّوْلَةِ، وتكلَّموا في صنوفِ أحوالِها وفنونِ ما جرى الليلُ والنهارُ به؛ ممَّا فُتِقَ به الرِّثقُ، ورُتِقَ به الفُتقُ، وأُصلِحَ به الفاسدُ، ولُمَّ به الشَّعْثُ، وقُرِّبَ به البعيدُ، وبُعِدَ به القريبُ، وحُقِّقَ به الحقُّ، وأبْطِلَ به الباطلُ، لكان يوفِّي على كلِّ ما صار إلى جميعِ من قال الشعرَ ولاكُ القصيدِ، ولهجَ بالقرِيضِ، واستمَّاحَ بالمَرَحْمَةِ؛ ووقفَ موقِفَ المَظْلومِ، وانصَرَفَ انصرافَ المَحْرُومِ؛

وأين مَنْ يَفْتَخِرَ بالقَرِيضِ، ويُدِلُّ بالنُّظْمِ، ويُبَاهِي بالبَدِيهَةِ، من وزير الخليفة، ومن صاحب السِّرِّ، وممن ليس بين لسانه ولسان صاحبه واسطة، ولا بين أذنه وأذنه حجاب؟! ومتى كانت الحاجةُ إلى الشعراء كالحاجة إلى الوزراء؟! ومتى قامَ وزير لشاعر للخدمة أو للتكرمة؟! ومتى قعد شاعرٌ لوزير على رجاءٍ وتأميل؟! بل لا ترى شاعراً إلا قائماً بين يدي خليفة أو ووزير أو أميرٍ باسط اليد، ممدود الكفِّ، يستعطف طالباً، ويسترحم سائلاً؛ هذا مع الذلَّة والهوان، والخوف من الخبيبة والجرمان، وخطر الردِّ عليه في لفظٍ يُمَرُّ، وإعرابٍ يجري، واستعارةٍ تعرض، وكنايةٍ تعترض، ثم يكون مقلِّياً مشيناً بما يظنُّ به من الهجاء الذي ربما دلَّاه في حوامة الموت، وقد برأ اللُّهُ تعالى بإحسانه القديم ومنه الجسيم صاحب البلاغة من هذا كله، وكفاه مؤونة الغدير به، والضرر فيه.

قال: وكان ابنُ ثوبانٍ إذا جال في هذه الأكناف لا يلحقُ شأوه، ولا يُشقُّ عُبارُه، ولا يُطمع في جوابه.

قال: وله مُناظراتٌ واسعةٌ في هذا الباب مع جماعةٍ من أهل زمانه ناقضوه وعارضوه، وكاشفوه وواجهوه؛ فثبت لهم، وانتصف منهم، وأزبى عليهم، ولم يُفْلِحْ عن مسالطتهم ومُبالطتهم إلى أن نكصوا على أعقابهم، وزاجعوا ما هو أولى بهم.

قال أبو سليمان: المعاني المعقولة بسيطةٌ في بُحبوحة النفس، لا يحومُ عليها شيءٌ قبلَ الفكر، فإذا لقيها الفكر بالذهن الوثيق والفهم الدقيق ألقى ذلك إلى العبارة، والعبارة حينئذٍ تتركب بين وزنٍ هو النُّظْم للشعر، وبين وزنٍ هو سِياقة الحديث؛ وكلُّ هذا راجعٌ إلى نسبةٍ صحيحة أو فاسدة، وصورةٍ حسنة أو قبيحة، وتأليفٍ مقبولٍ أو ممجوج، وذوقٍ حلوٍ أو مرٍّ وطريقٍ سهلٍ أو وعِرٍّ، واقتضابٍ مُفضَّلٍ أو مردود، واحتجاجٍ قاطعٍ أو مقطوع، وبُزهانٍ مُسْفِرٍ أو مُظلم، ومتناولٍ بعيدٍ أو قريب، ومسموعٍ مألوفٍ أو غريب.

قال: فإذا كان الأمرُ في هذه الحال على ما وصَفنا فللنثر فضيلته التي لا تُنكر، وللنُّظْم شرفه الذي لا يُجحد ولا يُستمر، لأنَّ مناقبَ النثر في مُقابلة مناقبِ النُّظْم، ومثالبُ النُّظْم في مُقابلة مثالبِ النثر؛ والذي لا بدَّ منه فيهما السَّلامةُ والدقَّة، وتجنبُ العويص، وما يحتاج إلى التأويل والتخليص.

وقد قال بعض العرب: خيرُ الكلام ما لم يُخنَج معه إلى كلام.

ووقفَ أعرابيٌّ على مجلسِ الأَخْفَشِ فسَمِعَ كلامَ أهله في النَّحو وما يَدْخُلُ معه، فحازَ وعجب، وأطرقَ ووسَّوس، فقال له الأَخْفَشُ: ما تسمع يا أبا العرب؟ قال: أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا.

وقال أعرابيٌّ آخر:

ما زال أخذهم في النحو يُعْجِمُنِي حتّى سمعتُ كلام الزّنج والرّوم
وقال أبو سليمان: نحو العَرَبِ فِطْرَةٌ، ونحونا فِطْنَةٌ؛ فلو كان إلى الكمال سبيلٌ
لكانت فِطْرَتُهُمْ لنا مع فِطْنَتِنَا، أو كانت فِطْسُنَا لهم مع فِطْرَتِهِمْ.
وقال: لَمَّا تَمَيَّزَتِ الأَشْيَاءُ فِي الأَصُولِ، تَلَاقَتْ بِبَعْضِ التَّشَابِهِ فِي الفُرُوعِ، وَلَمَّا
تَبَايَنَتِ الأَشْيَاءُ بِالأَطْبَائِعِ، تَأَلَّفَتِ بِالمُشَاكَلَةِ فِي الصَّنَائِعِ، فَصَارَتْ مِنْ حَيْثُ افْتَرَقَتْ
مُجْتَمِعَةً، وَمِنْ حَيْثُ اجْتَمَعَتْ مَفْتَرِقَةً، لِتَكُونَ قُدْرَةُ اللّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - آتِيَةً عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ، وَحِكْمَتُهُ مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمَشِيئَتُهُ نَافِذَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ.
وقد أشدَّ بعضُ الأعراب ما يفتضي هذا المكانُ رَسْمَهُ فِيهِ، لِأَنَّهُ موافق لما نحن
فيه فِي ذِكْرِهِ وَوصفه.

قال:

ماذا لَقِيتُ مِنَ المُستَعْرَبِينَ وَمِنْ
إِنْ قَلْتُ قَافِيَةً فِيهِ يَكُونُ لَهَا
قَالُوا لِحَنَّتْ وَهَذَا الحَرْفُ مُنْخَفِضٌ
وحرّشوا بين عبد الله واجتهدوا
إني نَشَأْتُ بِأَرْضٍ لَا تُشَبُّ بِهَا
وَلَا يَطَا القِرْدُ وَالخِنْزِيرُ سَاحَتَهَا
مَا كُلُّ قَوْلِي مَعْرُوفٌ لَكُمْ فَخَذُوا
كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ قَدِ احْتَالُوا لِمَنْطِقِهِمْ
وَبَيْنَ قَوْمٍ رَأَوْا شَيْئاً مُعَايَنَةً
فهذا هذا.

وقال أبو سليمان: البلاغة ضروب: فمنها بلاغة الشعر ومنها بلاغة الخطابة ومنها بلاغة
النثر، ومنها بلاغة المثل، ومنها بلاغة العقل، ومنها بلاغة البديهة، ومنها بلاغة التأويل.
قال: فأما بلاغة الشعر فأن يكون نحوهُ مقبولاً، والمعنى من كل ناحية مكشوفاً،
واللفظ من الغريب بريئاً، والكناية لطيفة، والتصريح احتجاجاً، والمؤاخاة موجودة،
والمواءمة ظاهرة.

وأما بلاغة الخطابة فأن يكون اللفظ قريباً، والإشارة فيها غالبية، والسجع عليها
مستولياً، والوهم في أضعافها سابقاً، وتكون فقرها قصاراً، ويكون ركابها شوارِدَ إبل.

(١) الهيق: ذكر النعام، والسيدان: الذئاب.

وأما بلاغة النثر فإن يكون اللفظ متناوِلاً، والمعنى مشهوراً، والتهذيب مستعملاً، والتأليف سهلاً، والمُرَادُ سليماً، والرَوْنَقُ عالياً، والحواشي رقيقة، والصفائح مصقولة، والأمثلة خفيفة المآخذ، والهوادي متصلة، والأعجاز مُفَصَّلَةٌ.

وأما بلاغة المثل فإن يكون اللفظ مقتضياً، والحذف محتملاً، والصورة محفوظة، والمزمى لطيفاً، والتلويح كافياً، والإشارة مُغْنِيَةٌ، والعبارة سائرة.

وأما بلاغة العقل فإن يكون نصيب المفهوم من الكلام أسبق إلى النفس من مسموعه إلى الأذن، وتكون الفائدة من طريق المعنى أبلغ من تزصيع اللفظ، وتقفية الحروف، وتكون البساطة فيه أغلب من التركيب، ويكون المقصود ملحوظاً في عرض السنن، والمزمى يُتَلَقَّى بالوهم لحسن الترتيب.

وأما بلاغة البديهة فإن يكون انجياش اللفظ للفظ في وزن انجياش المعنى للمعنى، وهناك يقع التعجب للسامع، لأنه يهجم بفهمه على ما لا يُظَنُّ أنه يظفر به كمن يعثر بمأموه، على غفلة من تأمليه، والبديهة قدرة روحانية، في جيلة بشرية، كما أن الروية صورة بشرية، في جيلة روحانية.

وأما بلاغة التأويل فهي التي تُخَوِّج لغموضها إلى التدبر والتصفح، وهذان يفيدان من المسموع وجوهاً مختلفة كثيرة نافعة، وبهذه البلاغة يُتَسَعُّ في أسرار معاني الدين والدنيا، وهي التي تأولها العلماء بالاستنباط من كلام الله عز وجل وكلام رسوله - ﷺ - في الحرام والحلال، والحظر والإباحة، والأمر والنهي، وغير ذلك مما يكثر؛ وبها تفاضلوا، وعليها تجادلوا، وفيها تنافسوا، ومنها استملوا، وبها اشتغلوا؛ ولقد فقدت هذه البلاغة لفقد الروح كله، وبطل الاستنباط أوله وآخره، وجولان النفس واعتصار الفكر إنما يكونان بهذا النمط في أعماق هذا الفن؛ وها هنا تنثال الفوائد وتكثر العجائب، وتتلاقح الخواطر، وتتلاحق الهمم، ومن أجلها يُستعان بقوى البلاغات المتقدمة بالصفات الممثلة، حتى تكون معينة ورافدة في إثارة المعنى المدفون، وإنارة المراد المخزون.

وأمثلة هذه الأبواب موجودة في الكتب، ولولا ذلك لرسمت في هذا المكان لكل فن مثلاً وشكلت شكلاً، ولو فعلت ذلك لكنت مُكرِّراً لما قد سبق إليه، ومتكلفاً ما قد لقن من قبل. على أن الزهد في هذا الشأن قد وضع عننا وعن غيرنا مؤونة الخوض فيه، والتعني به، والتوفر عليه، وتقديمه على ما هو أهم منه، أعني طلب القوت الذي ليس إليه سبيل إلا بيع الدين، وإخلاق المروءة، وإراقة ماء الوجه، وكذب البدن، وتجرع الأسى، ومقاساة الحرفة، ومض الجِرْمان، والصبر على ألوان وألوان؛ والله المستعان.

وقد كان هذا الباب يُتنافس فيه أَوَّانَ كان للخِلافةِ بِهَجَّةٍ، وللنِّبَاةِ عنها بهاء، وللديانة مُعْتَقِدٍ وللمُرُوَّةِ عاشق، وللخير مُنْتَهَز، وللصِّدْقِ مُؤَثِّر، وللأدب شُرَاة، وللبيان سُوق، وللصَّوَابِ طالب، وفي العلم راغب؛ فأما اليوم واليدُ عنه مقبوضة، والذِّئِلُ دُونَهُ مشمَّر، والمُتَحَلِّي بِجمالِهِ مَطْرُود، والمُبَاهِي بِشرفِهِ مُبْعَد، فما يُصْنَعُ بِهِ، وللهُ أمرٌ هو بالَعُه .

وقال ابنُ ذأب: قال لي ابن موسى: اجتمعنا عند عبد الملك بن مَرْوَانَ فقال: أيُّ الآدابِ أَغْلَبُ على الناس؟ فقلنا فأكثرنا في كل نوع؛ فقال عبد الملك: ما الناس إلى شيءٍ أَحْوَجُ منهم إلى إقامةِ ألسنتهم التي بها يتعاورون القول، ويتعاطون البيان، ويتهادون الحُكْمَ، ويستخرجون عوامضَ العِلْمِ من مخابثها؛ ويجمعون ما تفرَّق منها؛ إن الكلامَ فارِقٌ للحكم بين الخُصُوم، وضيءٌ يَجْلُو ظِلْمَ الأغاليط، وحاجةُ الناسِ إليه كحاجتِهِمْ إلى موادِّ الأغذية .

وقد قال زهير:

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادهُ فلم يَبْقَ إلا صورةُ اللحمِ والدمِ
فقلنا: لم يَقُلْهُ زُهَيْر، إنما قاله زيادُ الأعجم؛ فقال: لا، قاله من هو أعظمُ تجربةً وأنطقُ لساناً منه .

وقال أبو العِيْناء: سمعتُ العَبَّاسَ بن الحَسَنِ العَلَوِيِّ يصفُ كلامَ رَجُلٍ فقال: كلامُهُ سَمَحٌ سهلٌ، كأنَّ بينه وبين القُلُوبِ نَسَبٌ، وبينه وبين الحياةِ سببٌ؛ كأنما هو تُخْفَةٌ قادم، ودواءٌ مريض، وواسطةٌ قِلادة .

ورأيتُ أبا إسحاقَ الصابِي وهو يَعْجَبُ من فَضْلِ قرأه من كتاب وَرَدَ عليه، وهو: أشعرُ قلبك يا سَ مُجاوِز السَّبيل، مقصُرٌ عن الشُّوط .

وقال ابنُ ذَكْوَانَ: سمعتُ إبراهيمَ بن العَبَّاسِ الصُّولِيَّ يقول: ما سمعتُ كلامَ مُخَدَّثاً أَجْزَلَ في رِقَّة، ولا أَضْعَبَ في سُهولة، ولا أبلَعُ في إيجاز، من قَوْلِ العَبَّاسِ بنِ الأَخْتَفِ:

تَعَالِي نُجَدُّدُ دَارِسِ العَهْدِ بَيْنَنَا كِلَانَا على طُولِ الجَفَاءِ مَلُومُ
أَناسِيَّةٌ ما كان بَيْنِي وَبَيْنَهَا وقاطعةٌ حَبْلُ الصَّفَاءِ ظَلُومُ

وفي الجملة، أحسنُ الكلامِ ما رَقَّ لَفْظُهُ، ولَطَفَ معناه، وتلألأَ رَوْنَقُهُ، وقامت صورته بين نظم كأنه نثر، ونثر كأنه نظم، يُطْمِعُ مشهوذه بالسَّمْعِ، وَيَمْتَنِعُ مقصوده على الطَّبْعِ؛ حتَّى إذا رامَهُ مُرْبِعٌ حَلَّقَ، وإذا حَلَّقَ أَسَفَّ، أعني يَبْعُدُ على المُحاوِلِ بَعْنَفٍ، وَيَقْرُبُ من المُتناوِلِ بلُطْفٍ .

وما رأيتُ أحداً تَنَاهَى في وَضْفِ النثرِ بِجميع ما فيه وعليه غيرُ قُدامةِ بنِ جَعْفَرِ

في المنزلة الثالثة من كتابه؛ قال لنا علي بن عيسى الوزير: عرض علي قدامه كتابه سنة عشرين وثلاثمائة؛ واختبرته فوجدته قد بالغ وأحسن، وتفرّد في وصف فنون البلاغة في المنزلة الثالثة بما لم يشركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى، ممّا يدل على المختار المُجْتَبَى والمَعِيْب المَجْتَنَّب. ولقد شاكَه فيه الخليل بن أحمد في وضع العروض؛ ولكني وجدته هجين اللفظ، رَكِيكَ البلاغة في وصف البلاغة، حتّى كأن ما يصفه ليس ما يعرفه، وكأنّ ما يدلّ به غير ما يدلّ عليه. والعرب تقول: فلان يدلّ ولا يدلّ، حكاه ابن الأعرابي، وهذا لا يكون إلا من غزارة العلم، وحسن التصوّر، وتوارد المعنى، ونقْد الطبع، وتصرف القريحة. قال: ولولا أنّ الأمر على ما ذكرت لكان ذلك الطريق الذي سلّكه، والفن الذي ملكه، والكنز الذي هجم عليه، والنمط الذي ظفّر به؛ قد برز في أحسن معرض، وتخلّى بالطف كلام، وماس في أطول ذيل، وسفر عن أحسن وجه، وطلّع من أقرب نفق، وحلّق في أبعد أفق.

وابن المِراغي يقول كثيراً - وهو شيخ من جلة العلماء، وله سهم واف في زمرة البلغاء -: ما أحسن معونة الكلمات القصار، المُشمّلة على الحكم الكبار، لمن كانت بلاغته في صناعته بالقلم واللسان، فإنها توافيه عند الحاجة، وتستضجب أخواتها على سهولة؛ وهكذا مصاريع أبيات الشعر؛ فإنها تختلط بالثر متقطعة وموزونة، ومنثيرة ومنصودة.

قال لي ابن عبيد الكاتب: بلغني هذا الوصف عن هذا الشيخ؛ فبلوته بالتتبّع فوجدته على ما قال؛ وما أشبه ما ذكره إلا بالصرّة^(١) المُعدّة عند الإنسان، لما يحتاج إليه في الوقت المهمّ والأمر المُلمّ؛ فهذا هذا.

فقال - أدام الله دولته، وكبت أعداءه -: قدّم هذا الباب فقد أتى على ما لم أظن أنه يؤتى عليه ويُهتدى إليه - إذا شئت؛ وانصرفت.

الليلة السادسة والعشرون

ثم قال: وما أمثلة الكلمات القصار التي أومأ إليها ذلك الشيخ؟

فكان من الجواب: إن هذا الباب واسع، نحو قول القائل: ما خاب من استخار، ولا نديم من استشار. كلُّ عزيزٍ دَخَلَ تحتَ القُدرة فهو ذليلٌ. غَنِمَ من أدبته الحكمة، وأحكمته التجربة. التضامن رائدُ التباين. المرءُ ما عاش في تجريب.

الدهرُ يومٌ ويومٌ والعيشُ عَذْلٌ ولومٌ

وأكثرُ أسبابِ النَّجاحِ مع اليأسِ

من لم يُقدِّمه حَزْمٌ أخَرَه عَجْزٌ. كم مستدرجٌ بالإحسانِ إليه، ومُعْتَرٌّ باليسرِ عليه. الحربُ مَتَلَفَةٌ العبادِ مُذْهَبَةٌ للطَّرافِ والتُّلادِ.

ليس المُقْبِلُ عن الزَّمانِ براضي

من ضاقَ صَدْرُهُ اتَّسَعَ لسانُهُ.

وحَسْبُكَ داءٌ أن تَصِحَّ وتسلما

العيالُ سُوسُ المالِ. ظمأٌ قامحٌ خَيْرٌ من ربي فاضح. احذروا نَفَادَ النِّعمِ، فما كلُّ

شارِدٍ مردود. خيرُ الأمورِ أوساطها. يَكْفِيكَ من شرِّ سماعه. الكريمُ لا يَلِينُ على قَسْرٍ، ولا يُقْتَسِرُ على يُسرٍ. ما أذْرَكَ التَّمَامُ ثاراً، ولا مَحَا عاراً.

ومن يَبْكُ حولاً كاملاً فقد اعتَدَرَ

إن المطامعَ فَقرَ والغنى اليأسَ

والأمرُ تَخَقُّرُهُ وقد يَنُمِي

رُبُّ كَبِيرٍ هاجِهٍ صَغِيرُ

ذَهَبِ القَضَاءِ بحيلةِ الأقوامِ

وقد يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الحَلِيمُ

وإذا مَضَى شيءٌ كأنَّ لم يُفْعَلْ

من عُرِفَ بالحكمةِ لاحظته العيونُ بالهيبةِ. البِطْنَةُ تُذْهِبُ الفِطْنَةَ، إنَّ المَقْدَرَةَ

تُذْهِبُ الحَفِيظَةَ . من ثَقَلَ على صديقه خَفَّ على عدوه . زيادةُ لسان على عَقْلِ خُدعة ، وزيادة عقل على منطِق هُجْنة .

وحاجة من عاش لا تَنقُضي

من أطاع هواه ، أعطى عدوه مُناه .

عند الشدائد تَذْهَبُ الأحقادُ

إِخْذَرُ صَرَعاتِ البَغْيِ وفَلَتَاتِ المُزاحِ .

ومن يَسألُ الصُّغْلوكَ أينَ مَذَاهِبُهُ

« المرءُ يَعجزُ لا المَحالة »

ذَلَّ الطالبُ بِقَدْرِ حاجتِهِ ، إذا اذْهَمَ الجوابُ خَفِيَ الصَّوابُ . الكَرِيمُ للكَرِيمِ مُجَلٌّ . موتٌ في قوَّةٍ وَعِزٌّ خَيْرٌ من حَيَاةٍ في ذُلٍّ وَعَجْزٌ . عَدَلُ السُّلطانِ خَيْرٌ من خِصْبِ الزمانِ . من تَوَقَّى سَلِمَ ، ومن تَهَوَّرَ نَدِمَ ، من أَسْرَعَ إلى الناسِ بما يكرهون ، قالوا فيه ما لا يَعْلَمون . الضُّرُّ خَيْرٌ من الفاقةِ ، عَيٌّ صامتٌ خَيْرٌ من عَيٍّ ناطقٍ . رَبُّما سَوَدَّ المَالُ غيرَ السَّيِّدِ ، وقوَى غيرَ الأيِّدِ . وهل يَدْفَعُ رَبِّبَ المَنِيَّةِ الحِجْلُ .

الموت حَثْمٌ في رِقابِ العبادِ

كفى بالإقرار بالذُّنْبِ عُذْرًا ، وبرجاءِ العَفْوِ شافِعًا . قليلٌ يُوعَى ، خَيْرٌ من كثيرٍ يُنسى ، ليس على طولِ الخِدمِ نَدَمٌ ، ومن وراءِ المرءِ ما لم يَعْلَمْ . مروءتانِ ظاهرتانِ : الرأسةُ والفصاحةُ . من أطالَ الأملَ أساءَ العملَ . لا تكلَّفُ ما كُفِيت ، ولا تُضَيِّعْ ما وُليت . احتمِلْ من أدلَّ عليك ، واقبلْ ممَّنِ اغْتَدَرَ إليك .

إنَّ الشَّجاعةَ مَفْرُوقٌ بها العَطْبُ

إنَّ الكِرَامَ على ما نَابَهُمْ صُبْرُ

لو سَكَتَ من لا يَعْلَمُ سَقَطَ الاختلافُ . لا عُذْرٌ في عُذْرٍ . ليس من العدلِ سُرْعَةُ العَدْلِ . أقبِحُ عملِ المقتدِرِينَ الانتقامُ . شرُّ من الموتِ ، ما يُتمنَّى له الموتُ . من جاعَ جَشِعَ . المَكيدةُ في الحربِ أبلغُ من التَّجْدَةِ . لكَ مِن دُنْيَاكَ ، ما أَصْلَحَ مَثواكَ . من أحبَّ أن يطاعَ ، لا يسألُ ما لا يُسْتَطاعُ ، إذا غلبتَكَ نَفْسُكَ بما تظنُّ ، فأغلبِها بما تستيقنُ . الرَّدُّ الجميلُ أحسنُ من المَطْلِ الطويلِ . القبرُ خَيْرٌ من الفَقْرِ . شَفِيعُ المُذنبِ إقراره ، وتوبته اغْتِذارُهُ . ضُحْبَةُ الأَشْرارِ ، تورثُ سوءَ الظَّنِّ بالأخيارِ ، لا كثيرَ مع تَبذِيرِ ، ولا قليلَ مع تقديرِ . من صانَ لسانَهُ نجا من الشرِّ كُلِّهِ .

ولربما نفع الفَتَى كَذِبُهُ

فَمَنْ يُغْدِي إذا ظَلَمَ الأميرُ

إِذَا فَزَعَ الْفِؤَادُ فَلَا رُقَادُ
 مَا الْعِلْمُ إِلَّا مَا وَعَاهِ الصَّدْرُ
 إِنَّ الْكَرِيمَ عَلَى الْإِخْوَانِ ذُو الْمَالِ
 إِنَّ الْفِرَارَ لَا يَزِيدُ فِي الْأَجْلِ
 إِنَّ الشَّفِيقَ بِسَوْءِ ظَنِّ مُوَلَّعٍ

لا تَبُلْ على أكمة، ولا تُفش سِرَّكَ إلى أمة. إذا أقبلت الدنيا على المرء أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبتة محاسن نفسه. في التجارب علم مستأنف. قد خاطر من استغنى برأيه. عليك لأخيك مثل الذي عليه لك. الحق ظل ظليل. المودة قرابة مستفاد. مُغْدِمٌ وَصُولٌ خَيْرٌ مِنْ مُكْثِرٍ جَافٍ. مِنَ الْفِرَاقِ تَكُونُ الصَّبْوَةُ. مَنْ نَالَ اسْتِطَالَ. فِي تَقَلُّبِ الْأَحْوَالِ عِلْمٌ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ. الشُّكْرُ عِصْمَةٌ مِنَ التَّقْمَةِ. اللَّبُّ مِضْبَاحُ الْعِلْمِ. مَنْ رَكِبَ الْعَجَلَةَ، لَمْ يَأْمَنِ الْكِبْوَةَ. إِزَالَةُ الرَّوَاسِي، أَيْسَرُ مِنْ تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ. قَارِبَ النَّاسِ فِي عَقُولِهِمْ تَسْلَمُ مِنْ غَوَائِلِهِمْ، وَتَرْتَعُ فِي حَدَائِقِهِمْ. عَائِشُ أَخَاكَ بِالْحُسْنَى. الْحَسَدُ أَهْلَكَ الْجَسَدَ. خَذْ عَلَى خِلَاتِكَ مِيثَاقَ الصَّبْرِ. خَيْرٌ مَا رُمْتَ مَا يُنَالُ.

كُلُّ امْرَأٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِي

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلزل
 غم الفقير لا يكشفه إلا الموت. خفة الظهر أحد اليسارين. أصول الأسقام من فضول الطعام. طلاق الدنيا مهر الجنة. من عز النفس إثارة القناعة، التواضع بالغني أجمل، والكبر بالفقير أسج. من استعان بغير الله لم يزل مخذولاً. من لم يقبل من الدهر ما آتاه طال عتبه على الدهر. عُجِبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَادِ عَقْلِهِ. الْعَجْزُ وَالتَّوَانِي يُنْتِجَانِ الْفَاقَةَ. إِنْ صَبَرْتَ صَبِرَ الْأَحْرَارُ، وَإِلَّا سَلُوتُ سُلُو الْأَعْمَارِ. الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ يَنْمُو. مَعَاشِرَةُ الْإِخْوَانِ تَجْلُو الْبَصَرَ، وَتَطْرُدُ الْفِكْرَ. لَا تُوحِشُكَ الْعُرْبَةُ مَا أُنِسْتَ بِالْكَفَايَةِ، فَإِنَّ الْفَقْرَ أَوْحَشُ مِنَ الْعُرْبَةِ. الْغِنَى أُنْسٌ فِي غَيْرِ الْوَطَنِ. الْغِنَى فِي الْعُرْبَةِ مَوْصُولٌ، وَالْفَقِيرُ فِي الْأَهْلِ مَضْرُومٌ. أَوْحِشُ قَرِينِكَ إِذَا كَانَ فِي إِحَاشِهِ أُنْسُكَ. إِذَا أَيْسَرْتَ فَكُلَّ أَهْلِ أَهْلِكَ، وَإِنْ أَعَسَرْتَ فَأَنْتَ غَرِيبٌ فِي قَوْمِكَ. مِنْ أَخْلَاقِ الصَّبِيَّانِ، إَلْفُ الْأَوْطَانِ، وَالْحَنِينُ إِلَى الْإِخْوَانِ. مَنْ لَمْ يَأْنَفْ، لَمْ يَشْرَفْ، خَيْرُ الْمَوَدَّةِ مَا لَمْ تَكُنْ حِدَارَ عَادِيَةٍ، وَلَا رَجَاءَ فَائِدَةٍ. مَنْ حَمَلَ الْأُمُورَ عَلَى الْقَضَاءِ اسْتَرَاحَ فِي الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ حَتَّى يَنْتَهِيَا. لَوْ اسْتَحْسَنَ النَّاسُ مَا أَمَرَ بِهِ الْعَقْلُ اسْتَقْبَحُوا مَا نَهَى عَنْهُ الْعَقْلُ. أَقْدَرَ النَّاسِ عَلَى الْجَوَابِ مَنْ لَا يَغْضِبُ. الْكَلَامُ فِي وَقْتِ السَّكُوتِ عِيٌّ، وَالسَّكُوتُ فِي وَقْتِ الْكَلَامِ حَرَسٌ. الْهَمُّ يَهْدِمُ الْبَدْنَ، وَيَنْعُصُ الْعَيْشَ، وَيَقْرُبُ الْأَجَلَ. الْمَوْتُ رَقِيبٌ غَيْرُ غَافِلٍ. الْمَرْءُ نَهَبُ الْحَوَادِثِ. إِذَا تَمَّ الْعَقْلُ نَقَصَ الْكَلَامُ. هَبْ مَا

أنكزت لما عرفت، واغفر ما أغضبك لما أفضاك. اليأس إحدى الراحةين. المظل أحد العذابين. الكظم مر، ولا يتجرعه إلا حر. الرأي لا يصلح إلا بالشركة، والملك لا يصلح إلا بالتفرد. من كبر عنصره، حسن محضره.

ولرب مطمعة تعود رياحا
والحمد لا يشتري إلا بأثمان
ولكن نكء القرح بالقرح أوجع

من أزهق بقول، حقيق أن يثمر بفعل. السلام أرخى للبال، وأبقى لنفوس الرجال. حسبك من عقلك ما أوضح عينك من رشدك. التسوية بطاعة الله اغترار، وحياة المرء كالشيء المعار. من بدل بعض عنايته لك، فاجعل جميع شكرك له.

وللحر من مال الكريم نصيب

اليوم فعل، وغدا ثواب.

الخير مختار شهى المطلب والشر محذور كرية مجتنب

رب سكوت من كلام أبلغ ورب قول من عمود أدمع

من سلم الناس على لسانه أصبح منصوراً على سلطانه

من القليل يجمع الكثير رب صغير قذره كبير

من باع ما يفنى بما يبقى غنم وأثر الدنيا على الأخرى ندم

قد يحرم الراجي ويعطى القانط ويبعد الأذى ويذنى الشاحط

من لم ينل البر في حياته لم تنك عيناك على وفاته

المال ما تفتق لا ما تجمعه والزرع ما تحصد لا ما تزرعه

يارب هزل كان منه الجد ورب مزح كان منه الجفد

البحر مستغن عن الفرات

فقال - أدام الله أيامه -: هذا فن مؤف على الغاية.

الليلة السابعة والعشرون

وقال - أدام اللّه أيامه - في ليلة أخرى: كنت أحب أن أسمع كلاماً في كُنهه الاتِّفاق وحقيقته، فإنّه مما يحارُّ العَقْل فيه، ويَزِلُّ حَزْمُ الحازِمِ معه، وأحبُّ أيضاً أن أسمع حديثاً غريباً فيه؛ فكان الجواب: إن الرواية في هذا الباب أكثرُ وأفسى من الاطلاع على سرِّه، والظفر بمكنونه؛ فقال: هات ما يتعلّق بالرواية.

قلت: حكى لنا أبو سليمان في هذه الأيام أن تُيودُسِيوس مَلِك يونان كتبَ إلى إبيقس الشاعر أن يزوده بما عنده من كتب فلسفيّة؛ فجمع ماله في عَيْبَةٍ صَخْمَةٍ، وارتحل قاصداً نحوّه، فلقى في تلك البادية قوماً من قطاع الطريق، فطعموا في ماله وهموا بقتله، فناشدهم اللّه ألا يقتلوه وأن يأخذوا ماله ويخلّوه، فأبوا، فتحيّر ونظر يميناً وشمالاً يلتمس مُعيناً وناصراً فلم يجد، فرَفَع رأسه إلى السماء، ومدَّ طرفه في الهواء، فرأى كَرَائِيّ تطير في الجوّ مُحَلَّقَةً، فصاح: أيُّها الكراكيُّ الطائرة، قد أعجزني المعينُ والناصر، فكوني الطالبةَ بدمي، والآخذةَ بثأري. فضحك اللُّصوص، وقال بعضهم لبعض: هذا أنقص الناس عقلاً، ومن لا عقل له لا جناح في قتله؛ ثم قتلوه وأخذوا ماله واقْتَسَموه وعادوا إلى أماكنهم؛ فلما اتّصل الحديدُ بأهل مدينته حزنوا وأعظموا ذلك، وتبعوا أثر قاتله واجتهدوا فلم يُغنوا شيئاً ولم يقفوا على شيء؛ وحضر اليونانيون وأهل مدينته إلى هيكلمهم لقراءة التسابيح والمُذَاكِرَة بالحكمة والعِظَة، وحضر الناس من كلِّ قُطْرٍ وأوب، وجاء القَتلة واختلطوا بالجمع، وجلسوا عند بعض أساطين الهيكل، فهم على ذلك إذ مرّت بهم كَرَائِيّ تتناغى وتصيح، فرفع اللُّصوصُ أعينهم ووجوههم إلى الهواء ينظرون ما فيه فإذا كَرَائِيّ تصيح وتطير، وتسدّ الجوّ؛ فتضاحكوا، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء طالبو دَمَ إبيقس الجاهل - على طريق الاستهزاء - فسمع كلامهم بعض من كان قريباً منهم فأخبر السلطان فأخذهم وشدّد عليهم، وطالبهم فأقروا بقتله، فقتلهم؛ فكانت الكَرَائِيّ المطالبةَ بدمه، لو كانوا يعقلون أن الطالِبَ لهم بالمرصاد.

وقال لنا أبو سليمان: إن إبيقس وإن كان خاطبَ الكَرَائِيّ فإنه أشارَ به إلى ربِّ الكَرَائِيّ وخالقها، ولم يُطلِّ اللّه دمه ولا سدَّ عنه بابَ إجابته؛ فسبحانه كيف يهتئ الأسباب، ويفتح الأبواب، ويرفَعُ الحجابَ بعد الحجاب.

فقال: هذا عَجَبٌ .

قلتُ: قال لنا أبو سليمان: كلَّ ما جُهِلَ سببُه من ناحية الحسِّ بالعادة، ومن ناحية الطبيعة بالإمكان، ومن ناحية النفس بالتهيئة، ومن ناحية العقل بالتَّجْوِيز، ومن ناحية الإله بالتَّوْفِيق فهو مَعْجُوبٌ منه، معجوزٌ عنه، مسلَّمٌ لمن له القُدرة المُحيطة، والمشية النافذة، والحكمة البالغة، والإحسانُ السابق .

ولقد حكى أبو الحسن الفَرَضِيُّ في أمر الاتفاق شيئاً ظريفاً عن بعض إخوانه قال: خرجنا إلى بعض المُنْتَزَهِات ومعنا جَرَّ نَصِيدُ به السُّمَانِي، وكنا جماعة، فقال حَدَّثَ كان معنا - وكان أصغَرُنا سِتْناً -: أنتم تصيدون بَجْرٍ^(١)، وأنا أصيدُ بيدي؛ يقول ذلك على جِهَةِ المَرْح؛ فرمى بعد قليل فأتفق له أن أثارَ سُمَانِي، فأسرِعَ إليه ونحن لا نَعْلَمُ أَنَّهُ أَحَدٌ شَيْئاً، فقلنا له على طريق العَبَث: احذِر الخنزير - من غير أن نكون رأينا خنزيراً - فالتفت فزعاً وفَرَّ مُوَلِّياً، فأتفق له أن رأى خنزيراً منه غير بعيد، فأقبل إلينا مُسرِعاً هارباً من الخنزير والسُّمَانِي بيده وقد صاده .

وكنت في البادية في صَفَر سنة أربع وخمسين منصرفاً من الحج ومعني جماعة من الصُوفية، فلجِحْنَا جُهْدٌ من عَوَزِ القُوتِ وتَعَدَّر ما يُمَسِّكُ الرُوحَ في حديث طويل - إلا أَنَا وَصَلْنَا مِنْ رُبالَةٍ^(٢) - بالحيلة اللطيفة مئناً، والصُّنْعُ الجميل من الله تعالى - إلى شيء من الدقيق؛ فانتعشت أنفُسنا به، وغَنِمنا، ورأينا نفحةً من نَفحاتِ الله تعالى الكريم؛ فجعلناه زادنا، وسِرنا، فلما بلغنا المنزل قعدنا لثمارس ذلك الدقيق، ولقَطْنَا البَعَرَ ودُفاقِ الحَطَبِ، فلما أَجْمَعْنَا على العَجْنِ والمَلِكِ^(٣) لم نجد الحُرَاقَ - وكان عندنا أَنَّهُ معنا، وأتينا قد استظهرناه - فدخلتْنا حَيْرَةٌ شديدة، وركبنا عَمَّ غالب، وسَفَفْنَا من ذلك الدقيق شيئاً، فما ساغ ولا قَبِلْتَهُ الطبيعة، وبِتْنَا لَيْلَتنا طاوِين ساهرين، قد علانا الكَمَدَ، وملَكْنَا الوُجُومَ والأسَفَ؛ فقال بعضنا: هذا لَمَّا وَجَدْنَا الدقيق؟! وأصَبَحْنَا ورُكْبنا قد استرختْ، وعيوننا غارت، وأحدنا لا يحدث صاحبه غمًا وكَرْباً. وعُدنا إلى ما كنا فيه قبلُ بزيادة حَسرةٍ من النَّظَرِ إلى الدقيق؛ وقال صاحبُ لنا: نرْمي بجراب الدقيق حتَّى نَلْقِي حِمْلَهُ وثِقْلَهُ في طولِ هذا الطريق؛ فقلنا: ليس هذا بصواب، وما يضرنا أن يكون معنا، فلعلنا أن نَرَى رَكْباً أو نَلْقَى حَطَباً. وكانت البادية خاليةً في ذلك الوقت، لرُغْبِ لِحِقِ قوماً من بني كِلاب من جهة أعدائهم، فلم يكن يجتازُ بها في ذلك الوقت غريب. وبقينا كذلك إلى اليوم الثالث، ونحن نُلَاحِظُ ونُجاهدُ في المَشْيِ؛

(١) العجر: الحبل .

(٢) اسم بلد بين الكوفة والمكة .

(٣) أي إنعام العجن .

فلَمَّا كَانَ الْعَصْرُ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ كُنْتُ أُسِيرُ أَمَامَ الْقَوْمِ أَجْرَتَهُمْ وَأَسْأَلُهُمْ، وَكُنْتُ كَالْحَاطِبِ لَهُمْ: «إِذَا عَثَرْنَا بِحُرَاقٍ وَظَفَرْنَا بِفَتِيلَةٍ»؛ فَوَجَدُوا خِرْقَةً مَلْفُوفَةً فِيهَا حُرَاقٌ، فَهَلَلُوا وَكَبَّرُوا، وَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ؛ فَقُلْتُ كَالْمَتَعَجِّبِ: مَا الْخَبِيرُ؟ قَالُوا: الْبِشْرَى؛ قُلْتُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالُوا: هَذِهِ خِرْقَةٌ مِثْلُكَ حُرَاقًا، فَلَا تَسَلْ عَمَّا دَهَانَا مِنَ الْفَرْحِ وَالِاسْتِبْشَارِ؛ وَثَابَ إِلَيْنَا مِنَ السُّرُورِ وَالِارْتِيَاحِ، وَزَالَ عَنَّا مِنَ الْإِنْخِذَالِ وَالِانْكَسَارِ، وَقَعَدْنَا فِي مَكَانِنَا ذَلِكَ، وَلَقَطْنَا الْبَعْرَ، وَأَثَرْنَا الْوَقُودَ، وَأَجَّجْنَا نَارًا عَظِيمَةً، وَمَلَكْنَا الدَّقِيقَ كُلَّهُ مَلَكَةً وَاحِدَةً وَكَانَ أَرْبَعِينَ رِطْلًا، وَكَانَ ذَلِكَ بِلَاغِنَا إِلَى الْقَادِسِيَّةِ؛ فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنْهَا تَلَقَانَا بَشْرٌ مِنْ أَهْلِهَا، وَقَالُوا لَنَا: كَيْفَ سَلِمْتُمْ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ مَعَ الْعُزُوبِ وَالْخُوفِ؟ فَقُلْنَا: لُطْفُ اللَّهِ يُقَرِّبُ كُلَّ بَعِيدٍ، وَيَسَهِّلُ كُلَّ شَدِيدٍ، وَيَضَعُ لِلضَّعِيفِ حَتَّى يَتَعَجَّبَ الْقَوِيُّ.

وليس أحدٌ من خلق الله يجحد هذا القول، ويُنكر هذا الفضل، ويرجع إلى دين وثيقٍ أو واهٍ ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وحدثني أبو الحسن عليُّ بنُ هارونَ الرُّنْجَانِيُّ القَاضِي صَاحِبُ المَذهَبِ قال: اصطحب رَجُلَانِ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ مَسَافِرِينَ: مَجُوسِيٌّ مِنْ أَهْلِ الرِّيِّ، وَالْآخِرُ يَهُودِيٌّ مِنْ أَرْضِ جَيِّ^(١)؛ وَكَانَ المَجُوسِيُّ رَاكِبًا بَغْلَةً لَهُ عَلَيْهَا سُفْرَةٌ مِنَ الزَّادِ وَالنَّفَقَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهُوَ يَسِيرُ مَرْفَهًا وَادِعًا، وَاليهوديُّ يمشي بلا زادٍ ولا نفقة؛ فبينما هما يتحدathan إذ قال المَجُوسِيُّ لليهوديِّ: مَا مَذهِبُكَ وَعَقِيدَتُكَ يَا فُلَانُ؟ قَالَ اليهوديُّ: أَعْتَقِدُ أَنَّ فِي هَذِهِ السَّمَاءِ إِلَهًا هُوَ إِلَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنَا أَعْبُدُهُ وَأَقْدِسُهُ وَأَضْرَعُ إِلَيْهِ، وَأَطْلُبُ فَضْلَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الرِّزْقِ الوَاسِعِ وَالعَمْرِ الطَّوِيلِ، مَعَ صِحَّةِ البَدَنِ، وَالسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ، وَالتَّضَرَّةِ عَلَى عَدُوِّي، وَأَسْأَلُهُ الخَيْرَ لِنَفْسِي وَلِمَنْ يُوَافِقُنِي فِي دِينِي وَمَذهَبِي، فَلَا أَعْبَأُ بِمَنْ يُخَالِفُنِي، بَلْ أَعْتَقِدُ أَنَّ مَنْ يُخَالِفُنِي دَمَهُ لِي يَجِلُّ، وَحَرَامٌ عَلَيَّ نُضْرَتُهُ وَنَصِيحَتُهُ وَالرَّحْمَةُ بِهِ. ثُمَّ قَالَ لِلْمَجُوسِيِّ: قَدْ أَخْبَرْتُكَ بِمَذهَبِي وَعَقِيدَتِي وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ ضَمِيرِي، فَخَبِّرْنِي أَنْتَ أَيْضًا عَنْ شَأْنِكَ وَعَقِيدَتِكَ وَمَا تَدِينُ بِهِ رِيكَ؟ فَقَالَ المَجُوسِيُّ: أَمَّا عَقِيدَتِي وَرَأْيِي فَهُوَ أَنِّي أُرِيدُ الخَيْرَ لِنَفْسِي وَأَبْنَاءِ جِنْسِي، وَلَا أُرِيدُ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ سُوءًا، وَلَا أَتَمْنَى لَهُ ضَرًّا، لَا لِمُوَافِقِي، وَلَا لِمُخَالِفِي. فَقَالَ اليهوديُّ: وَإِنْ ظَلَمْتَ وَتَعَدَّى عَلَيْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ فِي هَذِهِ السَّمَاءِ إِلَهًا خَيْرًا عَالِمًا حَكِيمًا لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ شَيْءٍ، وَهُوَ يَجْزِي المُخْسِنِينَ بِإِحْسَانِهِ، وَالمَسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ. فَقَالَ اليهوديُّ: يَا فُلَانُ، لَسْتُ أَرَاكَ تَنْصُرُ مَذهَبَكَ وَتُحَقِّقُ رَأْيَكَ. قَالَ المَجُوسِيُّ: كَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ: لِأَنِّي مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِكَ، وَبِشْرٌ مِثْلُكَ، وَتَرَانِي أَمْشِي جَائِعًا نَصَبًا مَجْهُودًا، وَأَنْتَ رَاكِبٌ وَادِعٌ مَرْفَهٌ شَبْعَانُ. فَقَالَ: صَدَقْتَ، وَمَاذَا تَبْغِي؟ قَالَ: أَطْعِمْنِي مِنْ زَادِكَ، وَاحْمِلْنِي سَاعَةً، فَقَدْ كَلَلْتُ وَضَعُفْتُ. قَالَ: نَعَمْ وَكَرَامَةً. فَتَزَلْ

(١) مدينة بناحية أصبهان.

وَمَدَّ مِنْ سَفَرْتِهِ وَأَطْعَمَهُ وَأَشْبَعَهُ، ثُمَّ أَرْكَبَهُ، وَمَشَى سَاعَةً يَحْدُثُهُ؛ فَلَمَّا مَلَكَ الْيَهُودِيَّ الْبَغْلَةَ وَعَلِمَ أَنَّ الْمَجُوسِيَّ قَدْ أَصَابَ، حَرَّكَ الْبَغْلَةَ وَسَبَقَهُ، وَجَعَلَ الْمَجُوسِيَّ يَمْشِي وَلَا يَلْحَقُهُ، فَنَادَاهُ: يَا فُلَانُ، قِفْ لِي وَانزِلْ، فَقَدْ انْحَسَرْتُ وَانْبَهَزْتُ. فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَلَمْ أُخْبِرْكَ عَنْ مَذْهَبِي وَخَبَّرْتَنِي عَنْ مَذْهَبِكَ، وَنَصَرْتَهُ وَحَقَّقْتَهُ؟ فَأَنَا أُرِيدُ أَيْضاً أَنْ أَحَقِّقَ مَذْهَبِي وَأَنْصُرَ رَأْيِي وَاعْتِقَادِي. وَجَعَلَ يَحْرُكُ الْبَغْلَةَ، وَالْمَجُوسِيَّ يَقْفُوهُ عَلَى ظَلْعٍ وَيُنَادِي: قِفْ يَا هَذَا وَاحْمَلْنِي، وَلَا تَتْرُكْنِي فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فَيَأْكُلْنِي السَّبُعُ وَأَمُوتَ ضَيَاعاً، وَارْحَمْنِي كَمَا رَحِمْتُكَ. وَالْيَهُودِيُّ لَا يُلَوِّي عَلَى نِدَائِهِ وَاسْتِغَاثَتِهِ، حَتَّى غَابَ عَنْ بَصَرِهِ؛ فَلَمَّا يَبْسُ الْمَجُوسِيُّ مِنْهُ وَأَشْفَى عَلَى الْهَلَكَةِ، ذَكَرَ اعْتِقَادَهُ وَمَا وَصَفَ بِهِ رَبَّهُ، فَرَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: إِلَهِي قَدْ عَلِمْتَ أَنِّي اعْتَقَدْتُ مَذْهَباً وَنَصَرْتُهُ، وَوَضَفْتُكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ، وَقَدْ سَمِعْتَ وَعَلِمْتَ، فَحَقَّقْ عِنْدَ هَذَا الْبَاغِي عَلَيَّ مَا مَجَّدْتُكَ بِهِ، لِيَعْلَمَ حَقِيقَةَ مَا قُلْتُ. فَمَا مَشَى الْمَجُوسِيُّ إِلَّا قَلِيلاً حَتَّى رَأَى الْيَهُودِيَّ وَقَدْ رَمَتْ بِهِ الْبَغْلَةَ، وَانْدَقَّتْ عُقْبَهُ، وَهِيَ وَاقِفَةٌ نَاحِيَةً مِنْهُ تَتَنَظَّرُ صَاحِبَهَا؛ فَلَمَّا أَذْرَكَ الْمَجُوسِيُّ بَغْلَتَهُ رَكَبَهَا وَمَضَى لِسَبِيلِهِ، وَتَرَكَ الْيَهُودِيَّ مُعَالِجاً لِكَرْبِ الْمَوْتِ؛ فَنَادَاهُ الْيَهُودِيُّ: يَا فُلَانُ، ارْحَمْنِي وَاحْمَلْنِي وَلَا تَتْرُكْنِي فِي هَذِهِ الْبَرِيَّةِ أَهْلِكَ جُوعاً وَعَطْشاً، وَانصُرْ مَذْهَبَكَ، وَحَقِّقْ اعْتِقَادَكَ. قَالَ الْمَجُوسِيُّ: قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تَفْهَمْ مَا قُلْتُ لَكَ وَلَمْ تَعْقِلْ مَا وَصَفْتُ. فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لِأَنِّي وَصَفْتُ لَكَ مَذْهَبِي فِي قَوْلِي، حَتَّى حَقَّقْتَهُ بِفِعْلِي، وَذَلِكَ أَنِّي قُلْتُ: إِنْ فِي هَذِهِ السَّمَاءِ إِلَهًا خَبيراً عَادِلاً لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَهُوَ وَلِيُّ جِزَاءِ الْمُحْسِنِ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ. قَالَ الْيَهُودِيُّ: قَدْ فَهَمْتُ مَا قُلْتُ، وَعَلِمْتُ مَا وَصَفْتُ. قَالَ الْمَجُوسِيُّ: فَمَا الَّذِي مَنَعَكَ مِنْ أَنْ تَتَّعِظَ بِمَا سَمِعْتَ؟ قَالَ الْيَهُودِيُّ: اعْتِقَادُ نَشَأْتِ عَلَيْهِ، وَمَذْهَبُ تَرْبِيَّتِهِ بِهِ، وَصَارَ مَأْلُوفاً مُعْتَاداً كَالْجِبِلَّةِ بِطُولِ الدَّأْبِ فِيهِ، وَاسْتِعْمَالِ أَبِيئِهِ، اقْتِدَاءً بِالْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ وَالْمُعَلِّمِينَ مِنْ أَهْلِ دِينِي وَمِنْ أَهْلِ مَذْهَبِي، وَقَدْ صَارَ ذَلِكَ كَالْأَسِّ الثَّابِتِ، وَالْأَصْلِ النَّابِتِ؛ وَيَضْعُبُ مَا هَذَا وَصَفُهُ أَنْ يُتْرَكَ وَيُرْفَضُ وَيُزَالُ. فَرَجَمَهُ الْمَجُوسِيُّ، وَحَمَلَهُ مَعَهُ حَتَّى وَافَى الْمَدِينَةَ، وَسَلَّمَهُ إِلَى أَوْلِيَائِهِ مُحَطَّماً مُوجِعاً، وَحَدَّثَ النَّاسَ بِحَدِيثِهِ وَقِصَّتِهِ، فَكَانُوا يَتَعَجَّبُونَ مِنْ شَأْنِهِمَا زَمَاناً طَوِيلًا.

وقال بعض الناس للمجوسي بعد: كيف رحمته بعد خيانتها لك، وبعد إحسانك إليه؟ قال المجوسي: اعتذر بحاله التي نشأ فيها، وذأب عمره في اعتقادها، وسعى لها واعتادها؛ وعلمت أن هذا شديد الزوال عنه، وصدفته ورحمته، وهذا مني شكر على صنع الله بي حين دعوته عندما دهاني منه، وبالرحمة الأولى أعانني ربي، وبالرحمة الثانية شكرته على ما صنع بي.

هذا كله سردناه لسبب الأمر الذي يبدو من غير جنان، والعارض الذي يبرز من غير توهم.

وأبو سليمان يقول: الأمور مَقْسُومَةٌ على الحدود الطبيعية والقوى النفسية والبسائط العقلية والغرائب الإلهية، فبالواجب، ما كان هاهنا مألوفاً له نسبة إلى الطبيعة، ونادراً له نسبة إلى النفس، وبديعاً له نسبة إلى العقل، وغريباً له نسبة إلى الإله، والفئات في الأحوال من هذا القبيل، أعني ما يتخلل هذه المراتب.

فقال له البخاري: أيقال لما يصدُر عن الإله فلتة؟

قال: بحسب مَصِيرِهِ إلينا، ووصوله إلى عالمنا، لا بحسب صُدُورِهِ عن الباري، فليس هناك هذا ولا ما يُشبهه، لأن هذه السمات لِحَقَّتِ المرَكِّبات، من الأوائل المُزْدَوِجات، والثواني المَكْرَّرَات، والثالثات المُحَقَّقَات، والزوابع المَتَمَّمَات، والخوامس المَدْبِرَات، والسادس المَضَاعَفَات، والسوابع الظَّاهِرَات، والثامن المعقَّبات، والتواسع العاليات، والعواشر الكاملات؛ وما بَعْدَ العواشر داخل في المَكْرَّرَات.

قال له البخاري مستزيداً: أكان التوفيق من الاتفاق؟

فقال: هما يتوحدان من وجه، ويفترقان من وجه؛ فَوَجُهُ تَوَحُّدُهُمَا أَنَّ الاتِّفَاقَ وليدُ التوفيق، والتوفيق غايةُ الاتِّفَاقِ؛ وَوَجُهُ افتراقهما أَنَّ الاتِّفَاقَ يَبْرُزُ إلى الحس، وأصحابه يَشْتَرِكُونَ في التعجُّب منه، والاسْتِطْرَافِ له؛ والتوفيق يُسْتَرُّ عن الحس؛ ولهذا لا تُسَلِّكُ مَسَالِكَهُ. وأما الوفاق والموافقة والتوفيق والاتِّفَاقُ فمتلاسة المعاني؛ ولَمَّا لم يَكُنْ بين المعنى والمعنى مسافةً محصَّلةً حُسِبَ هذا في حَيْزِ هذا، وَعُدَّ هذا في جُمْلَةِ هذا.

وقال - أَبَقَاهُ اللَّهُ وَأَدَامَ أَيَّامَهُ -: ما اليَمْنُ والبركة؟ والقَالُ والطَّيْرَةُ وأَضْدَاؤُهَا؟

فكان الجواب: إِنَّ اليَمْنَ عِبَارَةٌ عن شيء يَبْشُرُ به وَيُبْتَغَى وَيُرَادُ؛ ويقال: فلانٌ مَيْمُونٌ النَّاصِيَةِ، وميسور النَّاصِيَةِ؛ أي هو سببُ ظاهِرٍ في نيلِ مأمولٍ وإدراكِ محبوبٍ؛ واشتقاقه في اليَمِينِ، وهو القوَّة؛ ولذلك يقال لليسار: شِمَالٌ، لأنها أضعفُ منها، وتسمَّى أيضاً: الشُّؤْمَى. ويقال: يَمَنُ فلانٌ عليهم، وشؤمٌ، وهو ميمونٌ ومشثومٌ؛ جُعِلَ الفِعْلُ على طريقِ ما لم يُسَمَّ فاعِلُهُ، لأنه شيءٌ موصولٌ به من غير إرادته واختياره. وإنما نزعوا إلى قولهم: فلانٌ مشثومٌ ليكون الفعل واقعاً به - أعني المَكْرُوهَ - وإلا فهو شائمٌ في الأصل. ويقال: شَأْمٌ فلانٌ قومَه، وكذلك يَمَنُهُمْ؛ وكأَنَّهما قُوَّتَانِ عُلُويَّتَانِ تَصْحَبَانِ مِزَاجِينَ مُخْتَلِفِينَ، وإذا اعتيَّدَ منهما هذان العَرَضَانِ اللذان يَصُدْرَانِ عن هاتين القوتين العُلويَّتين، قيل: فلانٌ كذا، وفلانٌ كذا.

وأما البركة فهي التَّمَاءُ والزِّيَادَةُ والرَّيْعُ، من حيث لا يوجد بالحس ظاهراً مكشوفاً يُشارُ إليه، فإذا عُهِدَ من الشيء هذا المعنى خافياً عن الحس قيل: هذه بركة، واشتقاقها من البروك، وهو اللزوم والسعة؛ ومن ذلك: البركة. والبركة

يوصف بها كل شيء، وليس لضدّها اسمٌ مشهور، لذلك يقال: قليلُ البركة .
وأما الفألُ ففسرَ بأنه جريانُ الذكرِ الجميلِ على اللسانِ مغزولاً عن القصد، إمّا
من القائل، وإمّا من السامع . وقد سمعَ النبيُّ - ﷺ - لما نزلَ المدينةُ على أبي أيوب
الأنصاريِّ - أبا أيوبَ يقولُ لغلامٍ له: يا سالمُ يا غانم . فقال لأبي بكر: «سَلِمَتْ لَنَا
الدَّارُ فِي غُثْمٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» . وهذا مشهورٌ بين النَّاسِ .

وضدُّه الطَّيْرَةُ والإشعار . ويُرْوَى أَنَّهُ نَهَى عَنِ الطَّيْرَةِ، وكان يُحِبُّ الْفَأْلَ ﷺ،
وليس لهما عِلْلٌ راتبة، ولا أسبابٌ مُوجِبَةٌ، ولا أوائلٌ معروفة؛ ولهذا كرهَ الإفراطَ في
التطيرِ والتعويلِ على الفألِ، لأنهما أمرانِ يَصْحَاحانِ وَيَبْطُلانِ، والأقلُّ منهما لا يميّزُ من
الأكثر؛ وللمزاجِ من الإنسانِ فيهما أثرٌ غالب، والعادةُ أيضاً تُعِين، والولوعُ يزيد،
والتحفُّظُ مما هذا شأنُه شديد، ولقد غلبَ هذا حتى قيل: فلانٌ مدورٌ الكعب، وفلانٌ
مشثوم؛ وحتى تعدَّى هذا إلى الدَّابةِ والدارِ والعَبْدِ؛ وكلُّ هذا ظهرَ في هذه الدارِ حتى
لا يكونَ للعَبْدِ طُمَأْنِينَةٌ إِلَّا بِاللَّهِ، ولا سُكُونٌ إِلَّا مَعَ اللَّهِ، ولا مَطْلُوبٌ إِلَّا مِنَ اللَّهِ؛
ولهذا - عزٌّ وجلٌّ - يُطْلَعُ الخوفُ من ثنيةِ الأَمْنِ، ويسوقُ الأَمْنُ من ناحيةِ الخوفِ،
ويبعثُ النَّصْرَ وقد وَقَعَ اليأسُ، ويأتي بالفَرَجِ وقد اشتدَّ البأسُ . وأفعالُ اللَّهِ تعالى خَفِيَّةٌ
المطالعِ، جَلِيَّةٌ المواقعِ، مطويةٌ المنافعِ؛ لأنها تَسْرِي بينَ العَيْبِ الإلهيِّ، والعِيانِ
الإنسيِّ، وكلُّ ذلكَ ليَصِحَّ التوكُّلُ عليه، والتسليمُ له، واللياذُ به، ويعرِّجَ على كَنَفِ
مُلْكِهِ، وَيَتَّبِعُوا مَعَانُ حُلْدِهِ، وَيُنَالَ ما عنده بطاعته وعبادته .

فقال الوزير - كَبَتَ اللَّهُ أَعْدَاءَهُ، وَبَلَغَهُ مُنَاهُ - : هذا كلامٌ ليس عليه كلام، أرى
النُّعَاسَ يَخْطُبُ إِلَى عَيْنِي حَاجَتَهُ، وَإِذَا شِئْتَ فَاجْمَعْ لِي فَقَرَأْ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ الَّذِي مَرَّ
مِنْ حَدِيثِ الطَّيْرَةِ وَالْفَأْلِ وَالِاتِّفَاقِ .

الليلة الثامنة والعشرون

وَعُدْتُ لَيْلَةً أُخْرَى وَقَرَأْتُ عَلَيْهِ أَشْيَاءَ مِنْ هَذَا الْفَرْنَ .
 مِنْهَا: عَقَّدَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لِسَعِيدِ بْنِ عَمْرِو الْجُرَشِيِّ أَيَّامَ الثُّرُكِ، فَقَالَ
 سَعِيدٌ: يَا فَتْحُ، يَا نَضْرُ، خُذَا اللَّوَاءَ . فَقَامَ هِشَامٌ: أَعْمَدًا قَلَّتَ هَذَا؟ قَالَ: لَا، وَلَكْتَهُمَا
 غُلَامَايَ دَعَوْتُهُمَا . قَالَ هِشَامٌ: هُوَ الْفَتْحُ وَالنَّضْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَكَانَ ذَلِكَ كَذَاكَ .
 وَكَانَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَغْرِضُ، فَمَرَّ بِهِ حَيَّةٌ بِنُ نَكَازٍ، فَقَالَ:
 لَا حَاجَةَ لَنَا فِي هَذَا، هَذَا حَيَّةٌ وَأَبُوهُ يَنْكُرُ .
 وَرَمَى رَجُلٌ الْجِمَارَ، فَأَصَابَ صَلْعَةَ عَمْرٍ بِحِصَاةٍ فَسَجَّهَ . فَقَالَ رَجُلٌ: أَشْعِرْتَ يَا
 أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَقُومُ عَمْرٌ هَذَا الْمَقَامَ أَبَدًا . فَكَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ .
 وَخَرَجَ رَجُلٌ يَنْظُرُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - فَلَقِيَ رَجُلًا، فَقَالَ لَهُ:
 مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: عِقَالٌ . قَالَ: ابْنُ مَنْ؟ قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ . قَالَ: مِنْ بَنِي مَنْ؟ قَالَ: مِنْ
 بَنِي عَقِيلٍ . قَالَ عَقْلَتَهُ عَقَلْتُكَ اللَّهُ .

هَذَا الْجُزْءُ أَيُّهَا الشَّيْخُ - أَبَقَاكَ اللَّهُ مَا تَمَنَّيْتُ الْبَقَاءَ - هُوَ الْجُزْءُ الثَّانِي، وَالثَّلَاثُ
 يَتْلُوهُ، وَالظَّنُّ الْجَمِيلُ بَكَ، يَعِدُّنَا بِالْحُسْنَى مِنْكَ، وَقَدْ عَلِمْتَ الْغَرَضَ فِي جَمْعِ هَذَا
 كَلِّهِ وَالتَّعَبُ فِيهِ، وَأَرْجُو أَلَّا يَخِيبَ الْأَمَلَ، وَلَا يَبُورَ الْعَمَلَ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَا يَخْلُو
 مِنْ بَعْضِ الْخَلَلِ وَالزَّلَلِ . فَإِذَا أَخَذْتَ بِحُكْمِ الْفَضْلِ الَّذِي هُوَ عَادَتُكَ وَدَيْدَنُكَ مَعَ
 الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَالْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، فَازْ قِذْحِي، وَصَدِّقْ نَوْتِي، وَصَحِّحْ زَجْرِي وَقَالِي .
 حَرَسَ اللَّهُ نَفْسَكَ، وَصَانَ نَعْمَتَكَ، وَكَبَّتْ كُلُّ عَدُوِّكَ .

كِتَابُ
الْمُتَنَاعِ وَالْمَوَازِينِ

تَأليف
أبي حَيَّانَ التَّوْحِيدِي

وَهُوَ مَجْمُوعُ مَسَامِرَاتٍ وَفُنُونٍ شَتَّى
حَاضِرٍ بِهَا الْوَزِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْعَارِضُ فِي عِدَّةٍ لِيَالِ

اعْتَنَى بِهِ وَرَاجَعَهُ
هَيْثَمُ خَلِيفَةُ الطَّعِيمِي

الجزء الثالث

المكتبة العصرية
بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الشيخ وصل الله قولك بالصواب، وفعلك بالتوفيق، وجعل أحوالك كلها منظومةً بالصلاح، راجعةً إلى حميد العاقبة، متألفةً بشوارد السُرور، ووقرةً حظك من المدح والثناء، فإتھما ألد من الشَّهْدِ والسَّلْوَى، ومد في عُمرِكَ لكسب الخير، واستدامة النعمة بالشُّكر؛ وجعل تلذذك باصطناع المعروف، وعرفك عواقب الإحسان إلى المُستَحِقِّ وغير المستحق، حتى تكلف بيت الجميل، وتُشغف بتشر الأيادي، وحتى تجد طعم الثناء، وتطرب عليه طرب النشوان على بديع الغناء. لا طرب البرداني على غناء علوة جارية ابن علويه في درب السلق إذا رفعت عقيرتها فغنت بأبيات السروي:

بالبورد في وجنتيك من لطمك خلاك لا تستفيق من سكر مُعقرب الصُدغ قد ثملت فما تجر فضل الإزار مُنخرق الت أظل من حيرة ومن دهش بالله يا أقحوان مضحك	ومن سقاك المُدام لم ظلمك؟ توسع شتماً وجفوة خدامك يمتع من لثم عاشيقك فمك؟ غلين قد لوت الشرى قدامك أقول لما رأيت مبتسمك على قضيب العقيق من نظمك؟
---	---

ولا طرب ابن فهم الصوفي على غناء «نهاية» جارية ابن المغنى إذا اندفعت بشدوها:

أستودع الله في بغداد لي قمرأ ودغته وبودي لو يودعني	بالكزخ من فللك الأزار مطلعه صفو الحياة وأنني لا أودعه
---	--

فإنه إذا سمع هذا منها ضرب بنفسه الأرض، وتمرغ في التراب وهاج وأزبد، وتعقر شعره؛ وهات من رجالك من يضبطه ويمسكه، ومن يجسر على الدنو منه، فإنه يعض بنابه، ويخمش بظفره، ويركل برجله ويخرق المرقعة قطعة قطعة، ويلطم وجهه ألف لطفة في ساعة، ويخرج في العباءة كأنه عبد الرزاق المجنون صاحب الكيل في جيرانك بباب الطاق.

ولا طرب ابن غيلان البزاز على ترجمات «بلور» جارية ابن اليزيدي المؤلف

بين الأكباد المحرقة، والمُحْسِنِ إلى القلوب المتصدّعة والعيون الباكية إذا عَنَّت .
 أعطِ الشَّبابَ نَصِيبَهُ ما دُمْتَ تُغَدِّرُ بالشَّبابِ
 وانعم بأيام الصُّبَى واخْلَعْ عِذارَكَ في التَّصَابِي
 فإنه إذا سمع هذا منها انقلبت حَمالِقِ عَيْنِيهِ، وَسَقَطَ مَعْشِيًا عليه، وهاتِ الكافور
 وماء الورد، وَمَنْ يقرأ في أذُنِهِ آيَةَ الكُزْسِيِّ والمعوذتين، وَيُزْقَى بِهَيَا شَرَاهِيا^(١).

ولا طربَ أبي الوزير الصوفي القاطن في دار القُطان عند جامع المدينة على
 «قَلَمِ القُضِيَّةِ» إذا تَنَاوَأَتْ في استهلالها، وتضاجرت على ضُجْرَتِها، وتذكرت شجوها
 الذي قد أضناها وأنضاهَا، وسلبها منها وأنساها إياها. ثم اندفعت وعَنَّتْ بصوتها
 المعروف بها.

أقولُ لها والصبحُ قد لاح نوره كما لاح ضَوْءُ البارقِ المتألّقِ
 شَبِيهُكَ قد وَاقَى وحان افتراقنا فهل لك في صَوْتِ وِرْطَلِ مُرَوِّقِ
 فقالت حياتي في الذي قد ذكرته وإن كنت قد نَعَّضْتَهُ بالتفرُّقِ
 ولا طرب الجراحي أبي الحسن مع قضائه في الكرخ وِرْدَائِهِ المُحَسِّي، وكَمِيهِ
 المُفَدِّرِينَ ووجنتيه المتخلّجَتَيْنِ، وكلامه الفُخْمِ، وإطراقه الدائم؛ فَإِنَّهُ يَغْمِزُ بالحاجب
 إذا رأى مِرْطَأًا، وأمل أن يُقْبَلَ خَدًا وقرطاً؛ على غناء شُعْلَةَ:

لا بدّ للمشتاقِ مِنْ ذِكْرِ الوَطَنِ واليأسِ والسَّلْوَةِ مِنْ بَعْدِ الحَزَنِ
 وقيامته تقوم إذا سَمِعَهَا ترَجُّع في لحنها.

لو أنّ ما تبتليني الحادثُ به يُلَقَى على الماء لم يُشْرَبِ مِنَ الكَدْرِ
 فهناك ترى شَيْبَةً قد ابتلت بالدموع، وفُوَادًا قد نَزَا إلى اللّهُة، مع أَسْفِ قد ثَقَبَ
 القلب، وأوهن الرُّوح، وجاب^(٢) الصَّخْرَ، وأذاب الحديد، وهناك ترى واللّه أحداقَ
 الحاضرين باهتة، ودموعهم متحدّرة، وشهيقهم قد علا رَحْمَةً له، ورقّة عليه،
 ومساعدةً لحاله، وهذه صورةٌ إذا استولت على أهلِ مجلسٍ وَجَدَتْ لها عَدَوِي لا
 تُمَلِّكُ، وغايةً لا تُذْرِكُ، لأنّه قَلَمًا يخلو إنسانٌ من صبوة أو صباية، أو حسرة على
 فائت، أو فِكْرٍ في مُتَمَنّى، أو خوفٍ من قُطِيعَة، أو رَجاءٍ لِمَتَمَنِّظَر، أو حُزْنٍ على حالٍ،
 وهذه أحوالٌ مَعْرُوفَة، والناسُ منها على جَدِيلَةٍ^(٣) معهودَة.

(١) كلمة عبرانية معناها يا حي يا قيوم.

(٢) قطعة.

(٣) طريقة.

ولا طرب ابن غسان البصري المتطبب إذا سمع ابن الرِّفاء يُعْني :

وحياة مَنْ أهوى فإنني لم أكنُ أبداً لأخلفَ كاذباً بحياته
لأخالفنَّ عواذلي في لذتي ولأشعِدنَّ أخي على لذاته

وابنُ غسان هذا مليحُ الأدب، وهو الذي يقول في ابن نصرِ العاملِ - وقد عالجه من علة فلم يتفقده ولم يقض حقه - :

هَبِ الشُّعراءُ تُعْطِيهم رِقاعاً مُزَوِّرةً كلاماً عن كلام
فَلِمَ صلة الطَّبِيبِ تكونُ زوراً وقد أهدى الشفاء من السَّقام
عجبتُ لمن نمته أرضُ لُؤم وبُخْلِ لِمَ يُعدُّ من الكِرام
نُسِبتَ إلى السِّماجةِ لا لشيءٍ سيوى نُقصانِ لُؤمِكَ في اللئام

عنى بها أنه من أضحهان^(١)، وكان آخر حديث ابن غسان ما عرفته، فإنه عرَّق نفسه في كِرداب^(٢) كلوآذي، وذلك لأسباب تجمعت عليه من صَفَرِ اليد، وسوء الحال، وجَرَبِ أكل بدنه، وعِشْقِ أَحْرَقَ كَبده على غلام (الأمديّ الحلاوي) بباب الطاق، وحيرة عَزَبَ معها عقله، وحَذَله رأيه، ومَلَكه حينه، ونَسَأَلُ الله حَسَنَ العُقْبى بدزكِ المُنَى، وليس للإنسان من أمره شيء، وما هو آئِضٌ^(٣) إليه فهو مملوكٌ عليه، يُصَرِّفه فيما يُصَرِّفُ فيظنُّ أنه أتى من قِبَله، ولعمري من غُلَطَ غَلِط، ومن غُولِطَ غَالِط، والكلام في هذا غاشٌّ والإغراق فيه مُوسوس، والإعراض عنه أَجْلَبُ للأنس، وما أحسن ما قال القائل :

إذا استَغَفَيْتُ مِنْ أَسْرِ اللَّيالي تُصَرِّفني فَأُسْرِني في خِلاصِي

ولولا طَيْشُ القَلَمِ وتَشَعُّبُ الخاطر، وشُرُودُ الرأْي، ما عَثَرْتُ بهذا الموضع ولا عَلِقتُ بهذا الحبل، نعم .

ولا طَرَبَ ابنُ نُباتةِ الشاعِرِ على صَوْتِ الخاطِيفِ إذا عَنَّت .

تَلْتَهَبُ الكَفُّ مِنْ تَلْهَيْها وتَحْسُرُ العَيْنُ إِنْ تَقْصَاها
كأنَّ ناراً بها محرَّثةً تهابُها مَرَّةً وتَغْشاها
نأخذها تارةً وتأخذنا فننخنُ فزسائنها وصزعها

(١) إشارة إلى شهرتهم بالبخل .

(٢) كلمة فارسية تعني دوامة الماء .

(٣) راجع .

ولا طَرَبَ ابن العَوْدِيّ إذا سمع غناء تَرَف الصابئة في صوتها، عند نشاطها
ومَرَجَها، وهواها حاضر، وطَرَفها إليه ناظر:

لَبَّ الهوى كَلِّمًا دَعَاكَ ولاح في الحبِّ من لَحَاكَ
مَنْ لَامَ في الحُبِّ أو نَهَاكَ فزَدَه في غَيِّكَ انهماكَ
إن لم تكن في الهوى كذاكَ نال لذَاتِه سِوَاكَ

ولا طَرَبَ المعلِّمُ غلام الحُضْرِيّ شيخ الصُوفية إذا سمع ابن بَهلولٍ يغني في
رحبة المسجد بعد الجمعة وقد خَفَّ الزحام:

وقال لي العَدُولُ تَسَلَّ عنها فقلتُ له: أتدري ما تَقول؟
هي النفسُ التي لا بُدَّ منها فكيف أزل عنها أو أُحول؟

ولا طرب ابن الغازي على جارية العَمِّيِّ في مجلسها الغاصِّ بنبلاء الناس بين
السُّورَيْنِ^(١):

يَلْحَى، ولو أَرَقَهُ مِيعَادُ أو رَاعَه الإغراضُ والإبْعَادُ
أو هَرَّه الأعداءُ والحُسَادُ أو سَلَقَتْه الألسُنُ الجِدَادُ

ما لَامَ مَنْ لَيْسَ له فُؤَادُ

ولا طَرَبَ ابن صُبْر القاضي قبلَ القضاء على غناء درة جارية أبي بكر الجِرَاحِيّ
في دَرَبِ الزعفرانيّ التي لا تَقْعُدُ في السَّنَةِ إلا في رَجَبٍ، إذا غَنَّت:

لستُ أنسى تلكَ الزِّيَارَةَ لَمَّا طرَقْنَا وأقبلتُ تتثنى
طرقتُ ظبيةَ الرُّصافة ليلًا فهي أحلى من جَسِّ عوداً وغنّى
كم ليالٍ بِثنا نلَدُّ ونلُهو ونُسَقِّي شرايِنَا ونُغنِّي
هجرثنا فما إليها سَبِيلُ غيرَ أَنَا نقولُ: كانت وكُنَّا

وإذا بلغت «كانت وكنا» رأيتَ الجيبَ مشقوقاً، والذَّيْلَ مَخْرُوقاً، والدَّمَعَ
منهملاً، والبالَ مُنْخَذِلاً، ومكتومَ السَّرِّ في الهوى بادياً، ودليلَ العِشْقِ على
صاحبه مُنادياً.

ولا طرب ابن حَجَّاج الشاعر على غناء قِنْوَةَ البَصْرِيَّةِ، وهي جارِته وعَشيقَتُهُ، وله
معها أحاديث، ومع زوجها أعاجيب؛ وهناك مكائِدات، ورَمِيّ ومُعَايرَات، وإفشاء
نكات؛ إذا أُنْشِدَتْ:

يا لَيْتَنِي أحيَا بِقُرْبِهِمُو فإذا فقدتُهُم انقضَى عُمُرِي

(١) محلة كانت بكرخ بغداد، وعمى: نسبة إلى العم، بطن من تميم.

ثم ثنت بصوتها الآخر:

هَبِينِي امراً إمّا بريئاً ظلّمته
فكنتُ كذي داءٍ تبعّى لدائه
وإمّا مُسيئاً تابَ بَعْدُ فأغْتَبَا
طبيباً فلما لم يجدهُ تَطَبَّبَا

ولا طرب ابن معروف قاضي القضاة على غناء عُلَيَّةَ إِذَا رَجَعْتَ لِحَنِّهَا فِي حَلَقِهَا
الحلو الشَّجِي بِشعر ابن أبي ربيعة:

أُنِيرِي مَكَانَ البَدْرِ إِنْ أَقْلَ البَدْرُ
ففيك من الشَّمْسِ المُنيرة نُورُهَا
وَقُومِي مَقَامَ الشَّمْسِ ما اسْتَأخَرَ الفَجْرُ
وليس لها مِنْكَ المَحاجِرُ والشَّعْرُ
ولا طَرَبَ ابن إسحاق الطبريُّ على صَوْتِ دُرَّةَ البَصْرِيَّةِ إِذَا غَنَّتْ:

يا ذا اللذي زار وما زارا
قام بباب الدارِ مِنْ زَهْوِهِ
كَأَنَّهُ مُقْتَبِسٌ نازا
ما ضَرَّه لو دَخَلَ الدارا
لو دَخَلَ الدارَ فَكَلَّمْتُهُ
بحاجتي ما دَخَلَ النَّارا
ما حَلَّ حتى قيلَ قد سارا

ولا طَرَبَ ابن الأرزق الجرجرائي على غناء سُندسَ جارية ابن يوسف صاحب
ديوان السَّوادِ إِذا تَشاجَتْ وتَدَلَّلَتْ، وتَفَتَّلَتْ وتَقَتَّلَتْ^(١)، وتَكَسَّرَتْ وتَيَسَّرَتْ، وقالت:
أنا والله كَسَلانَةٌ مشغولة القلب بين أحلام أراها زديئةً، وبُخْتِ إِذا اسْتوى التوى، وأملٍ
إِذا ظَهَرَ عَثْرٌ؛ ثم اندفعت وغنَّت:

مجلسُ صَبَّينَ عَمِيدَيْنِ
قد صَيَّرا رُوحَيْهِما واحداً
ليسا مِنَ الحُبِّ بِخَلْوَيْنِ
قد مَزَجَها بين دَمَعَيْنِ
واقتَسَمَها بين جِسْمَيْنِ
أدزَّتْها بَيْنَ مُحَبِّينِ
تَنازَعَا كَأَسَأَ على لَذَّةِ
الكأَسِ لا تَحْسُنُ إِلا إِذا

ولا طرب ابن سَمعون الصُّوفيُّ على ابن بُهلُولِ إِذا أَخَذَ القُضيبَ وأوَقَعَ ببنانه
الرَّخْصَ، ثم زَلْزَلَ الدنيا بصوته الناعم، وغنَّتِ الرَّخِيمَةَ، وإشارته الخالبة، وحركته
المدغدة، وظرفه البارِع، ودماثته الحُلوة، وغنَّت:

ولو طابَ لي عَرَسٌ لطابتْ ثمارُهُ
تَزَهَّدْتُ في الدنيا وإنِّي لراغِبٌ
ولو صحَّ لي عَيْبِي لَصَحَّتْ شهادتي
أرى رَغْبَتِي ممزوجةً بزهادتي
دَعِيها لأقوامٍ عليها تَعادِ
أيا نَفْسٍ ما الدنيا بأهلٍ لِحُبِّها

(١) تفتلت: تلوت، وتقتلت: تثنت في مشيتها.

ولا طرب ابن حيَّويه على غلام الأمراء إذا غنَّى :

قد أشهد الشاربَ المعدَّلَ لا معروفُهُ مُنْكَرٌ ولا حَصْرُ
في فُثْيَةٍ لِيُنِي المَأَزِرِ لا يَنْسُونَ أخلاقَهُمْ إذا سَكروا
وغلامُ الأمراء هو الذي يقول فيه القائل :

أبو العباس قد حَجَّ وقد عاد وقد غَنَّى
وقد علَّقَ عُنَّا زاً فهذا هم كما كتبا

وأصحابنا يَسْتَمْلِحُونَ قولَه (هَمْ) هاهنا، وَيَرَوْنَهُ من العبيِّ الفصيح .

ولا طَرَبَ أَبِي سُلَيْمَانَ المنطقيَّ إذا سمع غناء هذا الصَّبِيِّ الموصليِّ النابغ الذي قد فتن الناس وملا الدنيا عِيارةً وخسارةً، وافتضح به أصحابُ التُّسك والوقار، وأصنافُ الناس من الصُّغار والكبار، بوجهه الحسن، وثرغره المُبْتَسِم، وحديثه الساحر، وطَرْفه الفاتر، وقَدَه المَدِيد، ولَفْظَه الحُلُو، ودَلَه الخُلُوب، وتمثُّعُه المُطْمِع، وإطماعه المُمْنَع وتشكيكه في الوصل والهجر، وخَلَطَه الإباء بالإجابة، ووقوفه بين لا ونعم . إن صرَّخت له كُنِّي، وإن كَتَيْتَ له صرَّح؛ يَسْرِقُكَ مِنْكَ، وَيَرُدُّكَ عَلَيْكَ، يَغْرِفُكَ مُنْكَرًا لَكَ، وَيُنْكَرُكَ عَارِفًا بِكَ؛ فحالُه حالات، وهِدَايَتُهُ ضلالات، وهو فتنة الحاضرِ والبادي، ومُنيَّةُ السائق والهادي؛ في صوته الذي هو من قلائده :

عرفتَ الذي بي فلا تَلْحَنِي فليس أخو الجهل كالعالم
وكنتَ أخوُفُه بالدُّعَا وأخشى عليه من المائِم
فلو كنتَ أبصرتُ مثلاً له إذا لمتُ نَفْسِي مَعَ اللائِم
فلما أقام على ظُلمه تركتُ الدُّعَاءَ على الظالمِ

ولا طَرَبَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ البَصْرِيَّ على إيقاع ابن العَصْبِيِّ إذا أَوْقَعَ بقضيبه
وغنَّى بصوته :

أَنَسِيَتِ الوَضْلَ إذِ بِثَ ناعلى مَزَقَدِ وَزِدِ
واغتننقنا كوشاح وانظمننا نظمَ عِقْدِ
وتعطفنا كغضنني ن فقداًنا كققد

وبسبب هذا ونظائره عابه الواسطيُّ، وقدَحَ في دينه، وألصق به الرِّبِيَّة، واستحلَّ في عِرْضِهِ الغَيْبِيَّة، ولقبه بالمنفَر عن المذهب، وقاطع الطَّرِيق على المُسْتَرْتِد.

ولا طَرَبَ ابنُ الوِزَاقِ على رَوْعَةٍ جاريةِ ابن الرِّضِيِّ في الرِّصافَةِ إذا غَنَّت :

وحقُّ مَحَلِّ ذِكْرِكَ مِنْ لِسَانِي وَقَلْبِي جِئِن أَخْلُو بِالْأَمَانِي
لقد أضبختُ أغبِطُ كلَّ عَيْنِ تعايئها فَتَسْعَدُ بِالْعِيَانِ

ولا طَرَبَ السُّنْدَوَانِي عَلَى ابْنِ الْكَرْخِيِّ إِذَا غَنَى :

هَجَرْتَنِي ثُمَّ لَا كَلَّمْتَنِي أَبَدًا
فَلَا انْتَجَيْتُ نَجِيًّا فِي خِيَانَتِكُمْ
فَسَوْغِينِي الْمُنَى كَيْمَا أَعِيشَ بِهَا
أَوْ اِبْعَثْنِي تَلْفَاءً إِنْ كُنْتَ قَاتِلْتَنِي
وَلَا طَرَبَ الْحَرِيرِيُّ الشَّاهِدَ عَلَى جَلِيَّةَ جَارِيَةِ أَبِي عَائِذِ الْكَرْخِيِّ « إِذَا أَخَذْتَ فِي
هَزَارِهَا » ، وَاشْتَعَلْتُ بِنَارِهَا وَغَنَّتْ :

قَالَتْ بُئَيْيَنَةٌ لَمَّا جِئْتُ زَائِرَهَا
وَعَدْتَنَا مَوْعِدًا تَأْتِي لَنَا عَجَلًا
إِنْ كُنْتَ ذَا عَرَضٍ أَوْ كُنْتَ ذَا مَرَضٍ
وَلَا طَرَبَ أَبِي سَعِيدِ الصَّائِغِ عَلَى
وَاسْتَنْزَلْتَهُ مِنَ الرَّأْسِ ، ثُمَّ أَوْقَعَتْ فَعَنَّتْ :

فِي أَلِكِ نَظْرَةٌ أَوْدَتْ بِعَقْلِي
فَلَيْتَ مَلِيكَتِي جَادَتْ بِأُخْرَى
فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ بِهَا شِفَائِي
وَلَا طَرَبَ الزُّهْرِيُّ عَلَى خَلُوبِ جَارِيَةِ أَبِي أَيُّوبِ الْقَطَّانِ إِذَا أَهَلَّتْ وَاسْتَهَلَّتْ ، ثُمَّ
انْدَفَعَتْ وَغَنَّتْ :

إِذَا أَرَدْتُ سُلوًا كَانَ نَاصِرَكُمْ
فَأَكْثِرُوا أَوْ أَقِلُّوا مِنْ إِسَاءَتِكُمْ
وَضَعْتُ خَدِي لِأَدْنَى مَنْ يُطِيفُ بِكُمْ
حَتَّى احْتَقَرْتُ وَمَا مِثْلِي بِمَحْتَقَرٍ

وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَرْزُبَانِيُّ شَيْخُنَا إِذَا سَمِعَ هَذَا جُنَّ وَاسْتَغَاثَ ، وَشَقَّ الْجَنِبَ
وَحَوْلَقَ وَقَالَ : يَا قَوْمُ أَمَا تَرَوْنَ إِلَى الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ ، مَا يَكْفِيهِ أَنْ يَفْجُرَ حَتَّى
يَكْفُرَ؟ مَتَى كَانَتِ الْقَبَائِحُ وَالْفَضَائِحُ وَالْعِيُوبُ وَالذُّنُوبُ مَحْمُولَةً عَلَى الْقَدَرِ؟ وَمَتَى قَدَّرَ
اللَّهُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَقَد نَهَى عَنْهَا ، وَلَوْ قَدَّرَهَا كَانَ قَدْ رَضِيَ بِهَا ، وَلَوْ رَضِيَ بِهَا لَمَا
عَاقَبَ عَلَيْهَا ، لَعَنَ اللَّهُ الْعَزَلَ إِذَا شِيبَ بِمَجَانَةٍ ، وَالْمَجَانَةَ إِذَا قُرِنَتْ بِمَا يَقْدَحُ فِي
الِدْيَانَةِ . وَرَأَيْتُ أَبَا صَالِحِ الْهَاشِمِيِّ يَقُولُ لَهُ : هَوْنٌ عَلَيْكَ يَا شَيْخَ ، فَلَيْسَ هَذَا كُلُّهُ عَلَى
مَا تَظُنُّ ، الْقَدَرُ يَأْتِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَيَتَعَلَّقُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَيَجْرِي بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ سَرَّ
اللَّهُ الْمَكْتُومَ ، كَالْعِلْمِ الَّذِي يَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ ؛ وَكُلُّ مَا جَازَ أَنْ يَحِيطَ بِهِ عِلْمٌ جَازَ أَنْ
يَجْرِيَ بِهِ قَدَرٌ ، وَإِذَا جَازَ هَذَا جَازَ أَنْ يَنْشُرَهُ خَبَرٌ ، وَمَا هَذَا التَّضَائِقُ وَالتَّحَارُجُ فِي هَذَا

المكان، والشاعرُ يَهْزُلُ وَيَجِدُّ، وَيَقْرُبُ وَيَبْعُدُ، وَيُصِيبُ وَيُخْطِئُ، ولا يواخِذُ بما يواخِذُ به الرَّجُلُ الديان، والعالمُ ذو البيان.

ولا طَرَبَ ابن المَهْدِيِّ على جاريةِ بنتِ خاقانِ المشهورةِ بعلوةِ إذا غنَّت:

أُرْوَعُ حينَ يَأْتِينِي الرسولُ وأُكْمَدُ حينَ لا يَأْتِي الرَّسُولُ
أُؤْمَلُكُمْ وقد أَيَقُنْتُ أَنِّي إلى تَكْذِيبِ آمالي أُؤُولُ

ولا طَرَبَ أبي طاهر بن المقتعيِّ المعدَّل على علوانِ غلامِ ابنِ عُرْس فإنه إذا حَضَرَ وألْقَى إزاره، وحلَّ أزراره، وقال لأهل المجلس: اقْتَرِحُوا واسْتَفْتِحُوا فَإِنِّي وَلَدُكُمْ بل عَبْدُكُمْ لأخدمكم بغنائِي، وأتَقَرَّبُ إليكم بولائي، وأساعِدُكم على رُخْصي وغلائي؛ مَنْ أَرَادَنِي مَرَّةً أَرَدْتُهُ مَرَّاتٍ، ومن أَحَبَّنِي رِياءَ أَحَبَّتُهُ إخلاصاً، وَمَنْ بَلَغَ بي بَلْغَتْ به؛ لم أَنخُلْ عليكم بحُسْنِي وظرفي، ولم أَنفَسْ بهما عليكم، وإنما خَلَقْتُ لكم، ولم أَغاضِبْكم وأنا أَمْلُكُمْ غداً إذا بَقَلَ وَجْهِي، وتَدَلَّى سِبالي، وولَّى جَمالي، وتَكَسَّرَ خَدْيِي، وتَعَوَّجَ قَدْيِي، ما أصنع؟ حاجتي واللَّهِ إليكم غداً أَشدُّ من حاجتِكُم إليَّ اليوم، لَعَنَّ اللّهُ سُوءَ الخَلْقِ، وعُسْرَ الطَّباعِ، وقلةَ الرعايةِ، واستحسانَ العُدْرِ. فيمُرُّ في هذا وما أشبَهه كلامٌ كثير، فلا يَبْقَى مِنَ الجماعةِ أَحَدٌ إلا وَيَنْبِضُ عِرْفُهُ، وَيَهْشُ فُوادُهُ، وَيَذْكَرُ طَمَعُهُ وَيَقْكُهُ قَلْبُهُ، ويتحرك ساكنه، وَيَتَدَعَّدُ رُوحَهُ، ويومئُ إليه بِقُبْلَتِهِ، وَيَغْمِزُهُ بِطَرْفِهِ، ويخصُّه بِتَحِيَّةٍ، وَيَعْدُهُ بِعَطِيَّةٍ، وَيُقَابِلُهُ بِمُدْحَةٍ، وَيَضْمَنُ له مَنَحَةً، وَيَعُوذُهُ بِلسانِهِ، ويفضُّه على أَقرانه، وَيِراهَ واحدَ أَهلِ زمانِهِ؛ فيرى ابنَ المُقْتَعِيِّ وقد طارَ في الجوّ، وَحَلَّقَ في السُّكاكِ، ولَقَطَ بأناملِهِ النُّجومَ؛ وأقْبَلَ على الجماعةِ بِفَرَحِ الهَشاشَةِ، ومَرَحِ البَشاشَةِ، فيقول: كيف ترون اختياري وأينَ فِرَاسَتِي من فِرَاسَةِ غيْرِي، أبا اللّهِ لي إلا ما يزيْنِي، ولا يَشِينِي، ويزيدُ في جَمالي، ولا يَنْقُصُ مِن حالي؛ وَيَقْرَأُ عَيْنِي ولُبِّي، وَيَقْصِمُ ظَهْرَ عَدُوِّي؛ هاتِ يا غلامُ ذلك الثوبَ الدِّيَقِيَّ وذلك البُرْدَ الشَطِوِيَّ، وذلك الفُرُوجَ الرُّومِيَّ، وتلك السُّكَّةَ المَطْيِيَّةَ، والبَحُورَ المَدْحَرِيَّ في الحَقَّةِ، وهاتِ الدِّينارَ الذي فيه مائةٌ مِثقالِ أَهداه لنا أمس أبو العلاء الصَّيْرَفِيُّ فَإِنَّهُ يَكْفِيهِ لِنَفَقَةِ أُسْبُوعٍ؛ ما أَحْسَنَ سِكتَهُ، وأخلى نَقْشَهُ! ما رأيتُ في حُسْنِ اسْتِدَارَتِهِ شَبْهاً، وَعَجَّلَ لنا يا غلامُ ما أَدْرَكَ عِنْدَ الطَّبّاحِ، من الدِّجاجِ والفِراخِ؛ والبوارِدِ والجوزِيَّاتِ وتزايين المائدةِ؛ وصِلَ ذلك بشراءِ أَقراطِ وَجْبِنِ وَرَيتونِ من عند كبل البَقالِ في الكَرخِ، وقطائفِ حَبَشِ، وفالودَجِ عُمَرِ، وفُقاعِ زُرَيْقِ، ومُخَلِّطِ حُرَاسانِ من عِنْدِ أبي زُبُورِ، ولو كُنَّا نَشْرِبُ لَقُلْنَا: وشرابِ صَرِيفِينِ مِن عند ابنِ سُورِينِ، ولكن إن أَحَبَّبْتُم أَن أَحْضِرَ بِسَبِّبِكُمْ ومن أَجْلِكم فليس في الفُتُوَّةِ أَن أُمَّتْكم من أَرَبِكُمْ بسببِ ثِقَلِ رُوحِي وقِلَّةِ مُساعدَتِي، لعن اللّهُ الشَّهادَةَ، فقد حَجَبْتَنِي عن كلِّ شَهْرَةٍ وإرادةٍ؛ وما أَعْرِفُ في العَدالةِ، إلا فُوتَ الطَّلِبَةَ والعِلالَةَ.

وما أَحْسَنَ ما قالَ مَنْ قالَ :

ما العَيْشُ إلا في جُنُونِ الصُّبَى فإن تولى فُجِنُونِ المُدامِ
هذا كُلُّهُ يَمُرُّ وما هو أشجى منه وأرقُّ، وأعجبُ وأظرفُ، ثم يندفعُ علوانِ
ويغني في أبياتِ بشارِ :

ألا يا قَوْمُ خَلُونِي وشانِي فلستُ بتاركِ حُبِّ الغواني
نَهونِي يا عُبَيْدَةَ عَنْ هَوَاكِمِ فلم أَقبلُ مقالةً من نَهاني
فإن لم تُسَعِفني فَعِدِي ومَنِّي خِداعاً لا أُموتُ على بِيانِ
ولا طَرَبِ أَبِي سَعِيدِ الرَّقِيِّ على غناءِ مذكُورةٍ إذا اندفعتُ وغثتُ :

سررتُ بهجرَكَ لما عَلِمْتُ بأنَّ لِقَلْبِكَ فيه سُروراً
ولولا سُرورُكَ ما سَرَنِي ولا كانَ قلبي عليه صُبوراً
ولكن أرى كلَّ ما ساءَني إذا كان يُرضيك سَهلاً يسيراً
ولا طربِ ابنِ مَيَّاسِ على غناءِ حَبَّابةٍ جاريةٍ أبي تمامٍ إذا غثتُ :

صَدَدْنَا كَأَنَّنا لا مودةَ بَيْنَنا على أَنَّ طَرْفَ العَيْنِ لا بُدَّ فاضِحُ
ومَدَّ إلينا الكاشِحونَ عِيونَهُم فلم يَبْدُ مِنَّا ما حَوَّثَهُ الجَوانِحُ
وصافحتُ من لا قِيْتُ في البيتِ غيرَها وكلُّ الهَوَى مِثِّي لَمَن لا أَصافِحُ

وحَبَّابةُ هُذه كانت تُنوحُ أيضاً، وكانت في النَّوحِ واحدةً لا أختَ لها، والناسُ
بالعراقِ تَهالَكوا على نُوحِها، ولولا أَني أَكرَهُ ذِكرَهُ لَرَفَعْتُ الحديثَ بِهِ . وقَدِمَ مِن شاشِ
خُراسانَ أبو مُسَلِّمٍ - وكان في مرتبةِ الأُمراءِ - فاشتراها بثلاثين ألفَ دِرهمٍ معزِيَّةً،
وخرجَ بها إلى المَشْرِقِ، فقيلَ : إنَّها لم تَعشْ بِهِ إلا دُونَ سَنَةٍ لَكَمَدَ لِحِقَها، وهَوَى لها
ببَغدادِ ماتت مِنْهُ .

ورأيتُ لها أُختاً يُقالُ لها صَبَّابةٌ، وكانت في الحُسنِ والجمالِ فَوَقَّها، وفي
الصَّنعةِ والحِذْقِ دونَها، ورَزَلتُ هُذه ببغدادِ في وَقَّتِها، ولم يَكُنْ للنَّاسِ غيرُ حديثِها،
لنوادِرِها، وحاضِرِ جوابِها، وجِدَّةِ مزاجِها، وسُرعةِ حركتِها، بغيرِ طَيْشٍ ولا إفراطِ،
وهذه سَمائِلُ إذا اتَّفقتْ في الجَوارِي الصانعاتِ المُحسِناتِ خَلَبْنَ العُقُولَ، وخالَسْنَ
القلوبَ، وسَعَرْنَ الصُّدورَ، وَعَجَلْنَ بعُشاقِهِنَّ إلى القُبورِ .

ولا طَرَبِ الكِنانِيِّ المُقَرِّئِ الشَّيخِ الصالحِ على غناءِ هُذه في صَوَّتِها
المعروفِ بها :

عهودُ الصُّبَى هاجتُ لِي اليَوْمَ لَوعةً وذكرُ سُلَيْمٍ حينَ لا يَنفَعُ الذُّكرُ
بأرضِ بها كان الهَوَى غيرَ عازِبِ لَدِينا وَعَضُّ العَيْشِ مُهْتَصِرٌ نَضِرُ

كَأَنَّ لَمْ نَعِشْ يَوْمًا بِأَجْرَاعِ بَيْشَةٍ بِأَرْضِ بِهَا أَنْشَأَ شَيْبَتَنَا الدَّهْرُ
 بَلَى إِنَّ هَذَا الدَّهْرَ فَرَّقَ بَيْنَنَا وَأَيُّ جَمِيعٍ لَا يَفْرُقُهُ الدَّهْرُ
 وَلَا طَرَبَ غَلَامِ بَابَا عَلَى جَارِيَةِ أَبِي طَلْحَةَ الشَّاهِدِ فِي سُوقِ الْعَطَشِ إِذَا غَنَّتْ :
 لَيْتَ شِعْرِي بِكَ هَلْ تَعُدُّ لَمُّ أُنِّي لَكَ عَانِي
 فَلَقَدْ أَسْرَزْتَهُ مِنْهُ كُ وَأَطْلَعْتُ الْأَمَانِي
 وَتَوَهَّمْتُكَ فِي نَفْسِي سِي فَنَاجَاكَ لِسَانِي
 فَاجْتَمَعْنَا وَافْتَرَقْنَا بِالْأَمَانِي فِي مَكَانِ

ولو ذَكَرْتُ هَذِهِ الْأَطْرَابَ مِنَ الْمُسْتَمْعِينَ، وَالْأَغَانِيَّ مِنَ الرُّجَالِ وَالصُّبْيَانِ
 وَالْجَوَارِي وَالْحَرَائِرِ - لَطَالَ وَأَمَلَّ، وَزَاخَمْتُ كُلَّ مَنْ صَنَّفَ كِتَابًا فِي الْأَغَانِي
 وَالْأَلْحَانِ، وَعَهْدِي بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَةً سِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةَ.

وقد أَحْصَيْنَا - وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ فِي الْكَرْخِ - أَرْبَعِمِائَةَ وَسِتِّينَ جَارِيَةً فِي الْجَانِبَيْنِ،
 وَمِائَةَ وَعِشْرِينَ حُرَّةً، وَخَمْسَةَ وَتِسْعِينَ مِنَ الصُّبْيَانِ الْبُدُورِ، يَجْمَعُونَ بَيْنَ الْحِدْقِ
 وَالْحُسْنِ وَالظَّرْفِ وَالْعِشْرَةِ، هَذَا سِوَى مَنْ كُنَّا لَا نَنْظُرُ بِهِ وَلَا نَصِلُ إِلَيْهِ لِعِزَّتِهِ وَحَرَسِهِ
 وَرُقْبَائِهِ، وَسِوَى مَا كُنَّا نَسْمَعُهُ مِمَّنْ لَا يَتَظَاهَرُ بِالْغِنَاءِ وَالضَّرْبِ إِلَّا إِذَا نَشِطَ فِي وَقْتِ،
 أَوْ ثَمَلٌ فِي حَالِ، وَخَلَعَ الْعِدَارَ فِي هَوَى قَدْ حَالَفَهُ وَأَضْنَاهُ، وَتَرْتَمَ وَأَوْقَعَ، وَهَزَّ رَأْسَهُ،
 وَصَعَّدَ أَنْفَاسَهُ، وَأَطْرَبَ جُلَاسَهُ، وَاسْتَكْتَمَهُمْ حَالَهُ، وَكَشَفَ عَنْهُمْ حِجَابَهُ، وَادَّعَى
 الثَّقَةَ بِهِمْ، وَالِاسْتِنَامَةَ إِلَى حِفَاظِهِمْ.

ثم إِنِّي أَرْجِعُ إِلَى مُنْقَطَعِ الْكَلَامِ فِي الصَّفْحَةِ الْأُولَى مِنْ هَذَا الْجِزَاءِ الثَّلَاثِ وَأَصِلُهُ
 بِالْذُّعَاءِ الَّذِي أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَقْبَلَهُ فِيكَ، وَيَحَقِّقَهُ لَكَ وَبِكَ، وَأَقُولُ: وَأَبْقَاكَ لِي خَاصَّةً،
 فَقَدْ تَعَصَّبْتَ لِي غَائِبًا وَشَاهِدًا، وَتَعَمَّمْتَ بِسَبَبِي سِرًّا وَجَهْرًا، وَبَدَأْتَ بِالْتَفْضُلِ، وَغَدَتَ
 بِالْإِفْضَالِ، وَتَظَاهَرْتَ بِالْفَضْلِ؛ فَإِنْ اسْتَزِدْتُكَ فَلِلَّيْهِمُ الَّذِي قَلَّمَا يَخْلُو مِنْهُ بَشَرًا، وَإِنْ
 تَظَلَّمْتُ فَلِلدَّالَةِ الَّتِي تَغْلَطُ بِهَا الْحَدَمُ، وَإِنْ خَاشَتُ فَلِلثَّقَةِ بِحُسْنِ الْإِجَابِ، وَإِنْ
 غَالِظْتُ فَلِإِعْلَمِي بِغَالِبِ الْجِلْمِ وَقَرُظِ الْإِحْتِمَالِ، وَمَا افْتَرَقَ الْكِرْمُ وَالتَّغَاوُلُ قَطًّا، وَمَا
 افْتَرَقَ الْمَجْدُ وَالْكَيْسُ قَطًّا، وَلَيْسَ إِلَّا أَنْ يَظْلَمَ السَّيِّدُ نَفْسَهُ لِعَبْدِهِ فِي الْحَقُوقِ اللَّازِمَةِ
 وَغَيْرِ اللَّازِمَةِ، وَيُعْرِضُ عَنِ الْحِجَّةِ وَإِنْ كَانَتْ لَهُ؛ وَالنَّاسُ يَقُولُونَ: الْحَقُّ مَرٌّ، وَأَنَا
 أَقُولُ: السُّودُّ مَرٌّ، وَالرَّئِيسَةُ ثَقِيلَةٌ، وَالتُّزُولُ تَحْتَ الْعَيْنِ شَدِيدٌ؛ لَكِنْ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْهُ
 الْعِزُّ، وَدَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ الْأَصْلِ، وَبَابٌ إِلَى اِكْتِسَابِ الْحَمْدِ، وَإِشَادَةِ الذِّكْرِ، وَإِبْعَادِ
 الصُّبَيْتِ؛ وَمُكْرِمُ النَّفْسِ بِإِهَانَةِ الْمَالِ وَبِذَلِّ الْجَاهِ وَإِثَارِ التَّوَاضُعِ أَرْبِحُ تِجَارَةً، وَأَخْمِي
 حَرِيمًا، وَأَعِزُّ نَاصِرًا مِنْ مُهِينِ النَّفْسِ بِصِيَانَةِ الْمَالِ وَحُبْسِ الْجَاهِ وَاسْتِعْمَالِ التَّكْبَرِ؛ هَذَا

ما لا يَشْكُ فيه أحد وإن أباه طباغُه، ولم يُساعدُه اختيارُه، وكان في طِينِه يُبْس، وفي مَنبِتِه شَوْك، وفي عِرْقِه خَوْر، وفي خُلْقِه تيه .

وقد رأيتُ ناساً من عَظَماءِ أَهْلِ الفَضْلِ والمُرُوَّةِ عابوا مذهبَ الرَّجُلِ الذي ماكَسَ في شيءٍ تافِهٍ يسيرِ اشتراه، قيل له: أنت تَهَبُ أضعافَ هذا، فما هذا المِكاَسُ؟! فقال: هذا عَقْلِي أَبخَلَ به، وتلك مُرُوَّتِي أجود بها .

وأكثرُ الناسِ الذين لم يَغُوروا في التجاربِ، ولا أنجَدُوا في الحقائقِ، يَرَوْنَ هذا حكمةً تامَّةً، وفضيلةً شريفةً .

فأمَّا الذين ذكرتُهم في أوَّلِ الحديثِ فإنهم قالوا: لا تتمُّ المُرُوَّةُ وصاحبُها ينظُرُ في الدَّقِيقِ الحَقِيرِ، ويُعيدُ القَوْلَ ويُبَدِّئُه في الشيءِ النَّزْرِ الذي لا مردَّ له ظاهر، ولا جَدْوَى حاضرة .

وذكروا أيضاً أنَّ العَقْلَ أشرفُ من أن يُذالَ في مِثْلِ هذه الحالِ، ويُسْتخدَمُ على هذا الوجهِ، قالوا: هذا وما هو في بابِه بالكَيْسِ أشبه، والكَيْسُ يُحمَدُ في الصُّبْيَانِ، وهو من مبادئِ اللُّؤْمِ، وفوائِحِ صِدائِ الخُلُقِ، وقد قال الأوَّلُ:

وقد يَتَغابى المَرءُ عن عَظَمِ مالِه ومن تَحَتِ بُزْدِيهِ المُغِيرَةُ أو عَمُرُو
ولذلك يقال للحيوان الذي لا يَنْطِقُ: هو كَيْسُ .

هذا والله الصُّدُق، فإني سمعتُ بمكةَ أعرابياً يقول: ما أكَيْسَ هَذَا القِطُّ؟!

قالوا: ولذلك لا يقال للشيخِ المَجْرَبِ والحكيمِ البليغِ والأصيلِ في الشَّرَفِ والمشهورِ بالزَّماتِ والسَّكينةِ: كَيْسُ . والكَيْسُ هو حِدَّةُ الحِجْسِ في طَلَبِ المَثالَةِ ودَفْعِ الكَرِيهَةِ وبلوغِ الشُّهُوةِ . والحِجْسُ بعيدٌ من العَقْلِ، والعالي في الحِجْسِ كأنه يزتقي في وادي الحيوان الذي لا تُطَقُّ له، والعالي في العَقْلِ كأنه مطمئنٌ في وادي المَلِكِ الذي لا حِجْسَ له، والمَلِكُ لم يَغْدَمِ الحِجْسَ لِنَقِصِهِ، ولكن لِكَمالِهِ، لأنَّه غَنِيٌّ عنه، كما أنَّ الحمارَ لم يَغْدَمِ العَقْلَ لِكَمالِهِ، ولكن لِنَقِصِهِ ولما لم يَرُدَّ من الحمار أن يكون إنساناً جَبِلَ على ما هو له وبه كاملٌ في نَقِصِهِ، أي هو كاملٌ بما هو به حمار وناقصٌ بما ليس هو به إنساناً؛ ولما لم يَرُدَّ من الإنسان أن يكون حماراً حُفِظَ عليه ما هو به إنسان، ودُرِّجَ إلى كمالِ المَلِكِ الذي هو به شبيه؛ وهذا التدرِجُ طريقُه على الاختيارِ الجيِّدِ والتوفيقِ السابقِ .

وبَعُدْتُ - جعلني اللهُ فداك - عن مَنهَجِ القَوْلِ وَسَنَنِ الحديثِ، وأَطَعْتُ داعيةَ الوَسْواسِ، وذَهَبْتُ مع سائِحِ الوَهْمِ؛ وقد قيل: «الحديثُ ذُو شُجون» .

وقد قال الأوَّلُ:

ولمَّا قَضَيْنَا من مَنى كُلِّ حاجَةٍ ومَسَّحَ بالأركانِ مَنْ هُوَ ماسِحُ
أخذنا بأطرافِ الأحاديثِ بَيْنَنَا وسالَّتْ بأعناقِ المَطِيِّ الأباطِحُ

فَأَرْجِعُ وَأَقُولُ:

قد أَوْصَلْتُ إِلَيْكَ الْجَزَائِنِ الْأَوَّلَ والثَّانِيَّ عَلَى يدِ غلامِكَ فَاتَّقِ؛ وَهَذَا الْجِزَاءُ - وهو الثالث - قد وَاللَّهِ نَفَقْتُ فِيهِ كُلَّ مَا كَانَ فِي نَفْسِي مِنْ جِدِّ وَهَزَلٍ، وَغَثِّ وَسَمِينٍ، وَشَاحِبٍ وَنَضِيرٍ، وَفُكَاهَةٍ وَطَيْبٍ، وَأَدَبٍ وَاحْتِجَاجٍ، وَاعْتِذَارٍ وَاعْتِلَالٍ وَاسْتِدْلَالٍ، وَأَشْيَاءَ مِنْ طَرِيفِ الْمُمَالِحَةِ عَلَى مَا رُسِمَ لِي، وَطَلِبَ مِنِّي؛ وَاللَّهِ آخِرُ الْكِتَابِ خَتَمَتُهُ بِرِسَالَةٍ وَصَلَتْهَا بِكَلَامٍ فِي خَاصِّ أَمْرِي سَتَقِفُ عَلَيْهِ، وَتَسْتَأْنِفُ نَظْرًا فِي حَالِي، يَكُونُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - كَطَّنِي بِكَ، وَرَجَائِي فِيكَ؛ وَفِيهِ بَعْضُ الْعَرَبِدَةِ لَمْ أَخْرُجْ مِنْهُ إِلَى كُفْرَانٍ لِنِعْمَةٍ، وَلَا جَحْدٍ لِإِحْسَانٍ، وَلَا سِتْرٍ لِيَدٍ، وَلَا إِنْكَارٍ لِمَعْرُوفٍ، وَلَا شَكٍّ فِي عِنَايَةٍ؛ وَإِنَّمَا تَكَلَّمْتُ عَلَى مَذْهَبِ الْمُدِلِّ الْمُقْبِلِ الَّذِي يَبْعَثُهُ إِقْلَالُهُ عَلَى تَجَاوُزِ قَدْرِهِ بِالذَّالَةِ، وَيَرِيغُ بِهِ إِذْلَالَهُ عَنْ حُسْنِ أَدَبِهِ بِفَرْطِ الثَّقَةِ؛ وَرُبُّ وَائِقٍ حَجَلٍ؛ وَبِاللَّهِ الْمَعَادُ مِنْ ذَلِكَ، وَفِي الْحَالِيْنَ صَاحِبُ هَذَا الْمَذْهَبِ لَا يَخْلُو مِنْ وِلَاءٍ صَاحِحِ الْمُعْتَقَبِ، وَعَقِيدَةِ كَسِيكَةِ الذَّهَبِ؛ وَأَنْتَ بِكَرَمِ طِبَاعِكَ، وَسَعَةِ بَاعِكَ، تَجْبُرُ نَقْصِي، وَتَأْسُو مَا غَثَّ مِنْ جِرَاحِي، وَأَمَاتَ اهْتِمَامِي؛ وَمَنْ كَانَ إِحْسَانُكَ إِلَيْهِ مَشْكُورًا، وَتَعْذِيرُكَ عِنْدَهُ مَسْتُورًا، لَخَلِيقٌ أَنْ يَكُونَ عَلَى بَالِكَ خَاطِرًا، وَيَلْسَانُكَ مَذْكُورًا، وَالسَّلَامُ.

وها أنا أَخَذُ فِي نَشْرِ مَا جَرَى عَلَى وَجْهِهِ إِلَّا مَا اقْتَضَى مِنَ الزِّيَادَةِ فِي الْإِبَانَةِ وَالتَّقْرِيبِ، وَالشَّرْحِ وَالتَّكْشِيفِ.

وقد جَمَعْتُ لَكَ جَمِيعَ مَا شَاهَدْتُهُ فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ الطَّوِيلَةِ، لِيَكُونَ حَظُّكَ مِنَ الْكَرَمِ وَالْمَجْدِ مَوْفُورًا، وَنَصِيبِي مِنْ اهْتِمَامِكَ بِأَمْرِي وَجَذْبِكَ بِيَاعِي وَإِنْقَاذِكَ إِيَّايَ مِنْ أَسْرِي تَامًا، فَظَّنِّي وَاعِدًا بِأَنَّكَ تَبْلُغُ بِي مَا أَمَلُهُ فِيكَ وَتَتَجَاوَزُهُ وَتَتَطَاوَلُ إِلَى مَا فَوْقَهُ، لِأَزْدَادٍ عَجَبًا مِمَّا خَصَّكَ اللَّهُ بِهِ، وَأَقْرَدَكَ فِيهِ؛ وَأَتَحَدَّثُ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ بِغَرِيبِهِ، وَأَحُثُّ كُلَّ مَنْ أَرَاهُ بَعْدَكَ عَلَى سُلُوكِ طَرِيقِكَ فِي الْخَيْرِ، وَلُزُومِ مِنْهَا جِكِّ فِي الْجَمِيلِ، وَالدُّبُونَةِ بِمَذْهَبِكَ الْمُسْتَقِيمِ، وَأَكَايِدِ أَصْحَابِنَا بِبَغْدَادٍ؛ وَأَقُولُ لَهُمْ: هَلْ كَانَ فِي حُسْبَانِكُمْ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمَشْرِقِ مَنْ يَزِيدُ ظَرْفَهُ عَلَى ظَرْفِكُمْ، «وَيَبْعُدُ بَعْلَمَهُ عَلَى عِلْمِكُمْ»، وَيُبَرِّزُ هَذَا التَّبَرُّيزَ فِي كُلِّ شَيْءٍ تَفَخَّرُونَ بِهِ عَلَى غَيْرِكُمْ، فَأَنَاظِرُهُمْ فِيكَ وَبِسَبِّكَ، لَا مُنَاطَرَةَ الْعَنْبَلِيِّينَ مَعَ الطَّبْرِيِّينَ؛ وَأَتَعْصَبُ لَكَ، لَا تَعْصَبَ الْمُفْضَلِيِّينَ وَالْبُرْغُوثِيِّينَ؛ وَأُجَادِلُ مِنْ أَجْلِكَ، لَا جَدَلَ الزَّيْدِيِّينَ مَعَ الْإِمَامِيِّينَ؛ وَأَدْعِي فِي فِضَائِلِكَ الظَّاهِرَةَ وَالبَاطِنَةَ دَعْوَى أَقْوَى مِنْ دَعْوَى الشَّيْعِيِّينَ، وَأَضْرِبُ فِي ذَلِكَ كُلِّ مَثَلٍ، وَأَسْتَعِينُ بِكُلِّ سَجْعٍ، وَأَزْوِي كُلَّ حَبْرٍ، وَأَنْشِدُ كُلَّ بَيْتٍ، وَأُعَبِّرُ كُلَّ رُؤْيَا، وَأَقِيمُ كُلَّ بُرْهَانٍ، وَأَسْتَشْهَدُ كُلَّ حَاضِرٍ وَغَائِبٍ، وَأَتَأَوَّلُ كُلَّ مُشْكِلٍ وَغَامِضٍ، وَأَضِيفُ إِلَيْكَ الْآيَةَ بَعْدَ الْآيَةِ، وَالمُعْجِزَةَ بَعْدَ المُعْجِزَةِ، وَأَنْصَلِتُ لِكُلِّ ضَرِيئَةٍ، وَأَدْعِي كُلَّ غَرِيبَةٍ؛ هَذَا وَلَا أَخْلَطُ كَلَامِي بِالْهَزَلِ، وَلَا أَشِينُ دَعْوَايَ بِالمُحَالِ، وَلَا أَبْعُدُ الشَّاهِدَ، وَلَا أَتَعَلَّقُ

بالمُسْتَعْجِمِ، وَلَا أُجْنَحُ إِلَى التَّلْفِيْقِ وَالتَّلْزِيْقِ؛ وَكَيْفَ لَا أَفْعَلُ هَذَا وَلِي فِي قَوْلِ الْحَقِّ فِيكَ مَنْدُوحَةٌ، وَفِي تَقْدِيمِ الصُّدْقِ عَلَى غَيْرِهِ كَفَايَةٌ، وَفِي تَشْرِيطِ الْمَطْوِيِّ مِنْ فَضْلِكَ بَلَاغٌ؟ وَإِنَّمَا يَمِيلُ إِلَى الْكُذْبِ مَنْ قَعَدَ بِهِ الصُّدْقُ، وَيَتَيَمَّمُ بِالصَّعِيدِ مَنْ فَاتَهُ الْمَاءُ، وَيَحْلُمُ بِالْمَنَى مَنْ عَدِمَ الْمُتَمَنَّى فِي الْيَقِظَةِ؛ فَأَمَّا أَنْتَ وَقَدْ أَلْبَسَكَ اللَّهُ رِدَاءَ الْفَضْلِ، وَأَطْلَعَكَ مِنْ مَنَبَتِ كَرِيمٍ، وَدَرَجَكَ مِنْ بَيْتِ ضَخْمٍ، وَأَتَاكَ الْحِكْمَةَ، وَفَتَقَ لِسَانَكَ بِالْبَيَانِ، وَأَتْرَعَ صَدْرَكَ بِالْعِلْمِ، وَخَلَطَ أَخْلَاقَكَ بِالْإِدْمَانَةِ، وَشَهَرَكَ بِالْكَرَمِ، وَخَفَّفَ عَلَيْكَ التُّهُوْضَ بِكُلِّ مَا يُكْسِبُكَ الشُّكْرَ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَبِكُلِّ مَا يَدَّخِرُ لَكَ الْأَجْرَ عِنْدَ الصَّادِرِ وَالْوَارِدِ، حَتَّى صِرْتَ كَهَفًا لِأَبْنَاءِ الرَّجَاءِ، وَمَفْرَعًا لِكَ لِبَنِي الْأَمَالِ؛ فَبَابُكَ مَغْشِيٌّ مَزُورٌ، وَفِنَاؤُكَ مُنْتَابٌ وَخَوَانُكَ مَخْضُورٌ، وَعِلْمُكَ مُقْتَبَسٌ، وَجَاهُكَ مَبْدُولٌ، وَضَيْفُكَ مُحَدَّثٌ، وَكُتُبُكَ مُسْتَعَارَةٌ، وَغَدَاؤُكَ حَاضِرٌ، وَعَشَاؤُكَ مُعَجَّلٌ، وَوَجْهُكَ مَبْسُوطٌ، وَعَفْوُكَ مَحْمُودٌ، وَجِدُّكَ مَشْكُورٌ، وَكُلُّ أَمْرِكَ قَائِمٌ عَلَى التَّهْيِائَةِ، وَبَالِغُ الْغَايَةِ، وَاللَّهُ يَزِيدُكَ وَيَزِيدُنَا بِكَ، وَلَا يَبْتَلِينَا بِفَقْدِ مَا أَلْفَنَاهُ مِنْكَ، بِمَنِّهِ وَجُودِهِ.

الليلة التاسعة والعشرون

قال الوزير - أعز الله نصره، وأطاب ذكره، وأطار صيته - ليلة: أحب أن أسمع كلاماً في قول الله عز وجل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، فإن هذا الإيجاز لم يُعهد في كلام البشر.

فكان من الجواب: إن الإشارة في «الأول» إلى ما بدأ الله به من الإبداع والتصوير، والإبراز والتكوين؛ والإشارة في «الآخر» إلى المصير إليه في العاقبة على ما يجب في الحكمة من الإنشاء والتصريف، والإنعام والتعريف، والهداية والتوقيف. وقد بان بالاعتبار الصحيح أنه عز وجل لما كان مُحجَّباً عن الأبصار، ظَهَرَت آثاره في صفحات العالم وأجزائه، وحواشيه وأثنائه، حتى يكون لسان الآثار داعياً إلى معرفته، ومَعْرِفَتُهُ طَرِيقاً إلى قَصْدِهِ، وقَصْدُهُ سَبِلاً لِلْمَكَانَةِ عِنْدَهُ وَالْحُظُوةَ لَدَيْهِ. على أنه في احتجابه بارز، كما أنه في بُرُوزِهِ مُحْتَجِبٌ؛ وبيان هذا أَنَّ الْحِجَابَ مِنْ نَاحِيَةِ الْحَسِّ وَالْبُرُوزَ مِنْ نَاحِيَةِ الْعَقْلِ، فإذا طَلِبَ مِنْ جِهَةِ الْحَسِّ وَجِدَ مَحْجُوباً، وإذا لُحِظَ مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ وَجِدَ بَارِزاً، وهَاتَانِ الْجِهَتَانِ لَيْسَتَا لَهُ تَعَالَى، ولكنها للإنسان الذي له الحس والعقل، فصارَ بهما كالناظرِ مِنْ مَكَانَيْنِ؛ وَمَنْ نَظَرَ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ مِنْ مَكَانَيْنِ كَانَتْ نِسْبَتُهُ إِلَى الْمَنْظُورِ إِلَيْهِ مَفْتَرِقةً. وإنما شَقَّ هذا الأمرُ على أكثر الناس واختلَفوا فيه، لأنهم راموا تحقيقَ ما لا يُحَسُّ بِالْحَسِّ، ولو راموا ذلك بالعقل المَحْضِ بغيرِ شُوبٍ مِنَ الْحَسِّ، لكان المَرُومُ يَسْبِقُ الرَّائِمَ، والمَطْلُوبُ يَلُوحُ قُبَالَةَ الطَّالِبِ مِنْ غيرِ شَكٍّ لَإِسِّ، ولا ريبَ مُوحِشٍ، لأنه ليس في العقل والمعقول شكٌّ، وإنما الرِّيبُ والشُّكُّ وَالظَّنُّ وَالتَّوَهُمُ كُلُّهَا مِنْ عِلَاقِ الْحَسِّ وَتَوَابِعِ الخَلْقَةِ، ولولا هذه العوارضُ لَمَا اغْبَرَّ وَجْهُ الْعَقْلِ، ولا عَلَاةٌ شُحُوبٍ، ولَبَقِيَ عَلَى نَصْرَتِهِ وَجَمَالِهِ وَحُسْنِهِ وَبَهْجَتِهِ. ولَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ مَفِيضَ هَذِهِ الْأَعْرَاضِ فِي الْأَوَّلِ، صارَ مَفِيضَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فِي الثَّانِي، فاستعارَ مِنَ الْعَقْلِ نُورَهُ فِي وَصْفِ الْأَشْيَاءِ الْجَسْمِيَّةِ جَهْلًا مِنْهُ وَخَطَأً، واستعارَ مِنَ ظِلَامِ الْحَسِّ فِي وَصْفِ الْأَشْيَاءِ الرُّوحَانِيَّةِ عَجْزًا مِنْهُ وَنَقْصًا، ولو وُفِّقَ لَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ وَنَسَبَهُ إِلَى شَكْلِهِ، ولم يَزَعْ الْوَضِيعَ إِلَى مَحَلِّ الرَّفِيعِ، ولم يَضَعْ الرَّفِيعَ فِي مَوْضِعِ الْوَضِيعِ.

فلَمَّا بَلَغَ الْحَدِيثَ هَذَا الْحَدَّ، عَجِبَ الْوَزِيرُ وَقَالَ: مَا أَعْدَبَ هَذَا الْمَوْرِدُ! وما

أَعْجَبَ هَذَا الْمَشْهَدُ! وَمَا أَبْعَدَ هَذَا الْمُقْصِدُ! وَمَا أَرَى لِمَصْنُفٍ مِنَ الْمَوْحِدِينَ مُتَّصِرًا فِي هَذَا التَّنُوعِ إِلَّا لِهَذِهِ الْعِصَابَةِ الْكَرِيمَةِ الْمَخْصُوصَةِ بِالْيَقِظَةِ.

وسأل عن جُشَمَ في اسم الرَّجُلِ ما مَعْنَاهُ؟

فكان من الجواب: إِنَّ أبا سعيد السَّيرافيَّ الإمامَ ذَكَرَ عن ابن الأعرابيِّ أَنَّهُ يَقَالُ: «رَجُلٌ عَظِيمُ الْجُشَمِ»، يَعْنِي وَسَطَهُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ جُشَمًا.

وقال: ما الجَمِخِمُ؟ وما الخَمِخِمُ؟

فقيل: أَمَّا الخَمِخِمُ فَبَقْلٌ يَهِيحُ فِي أَوَّلِ الصَّيْفِ وَيَنْبُتُ فَيُؤْكَلُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؛ وَأَمَّا الجَمِخِمُ فَبَقْلٌ آخَرُ خَبِيثٌ مُنْتِنٌ الرِّيحِ.

وقال: فَأَرَاةُ الْمِسْكِ، أَتَقُولُهَا بِالْهَمْزِ؟

فكان من الجواب: حَكَاهُ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ بِالْهَمْزِ.

قال: عَارِضًا الرَّجُلُ مَا يُعْنَى بِهِمَا؟

قيل: قَالَ أَبُو سَعِيدِ السَّيرافيِّ: هُمَا شَعْرُ خَدَيْهِ، وَلَوْ قُلْتَ لِأَمْرَدٍ: امسَحْ عَارِضِيكَ كَانَ خَطَأً.

وقال: سَمِعْتُ الْيَوْمَ فِي كَلَامِ ابْنِ عُبَيْدٍ: لَايْتَهُ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُ أَرَادَ: لَاوْتَهُ مِنْ اللَّوْثِ لَوْتُ الْعِمَامَةِ.

فقيل: بَلْ يَقَالُ: لَايْتَهُ إِذَا تَشَبَّهَ بِاللَّيْثِ.

وقال: ما الشَاكِدُ؟

فقيل: الْمُعْطِي مِنْ غَيْرِ مَكَافَأَةٍ.

قال: أَوْ تَهْمِزُ الْكَلِمَةِ؟

فقيل: إِنِّي لَوْ لَمْ أَهْمِزْ لَكَانَ مُفَاعَلَةٌ مِنْ كَفَيْتُ.

قال: وَالثَّانِيَةُ؟ تَكُونُ مِنْ كَفَأْتُ الْإِنَاءِ. فَمَا مَعْنَاهُ؟

قيل: قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: كَأَنَّهُ قَلَبَ الْحَالَ إِلَيْهِ بِالْمِثْلِ.

قال: الذُّوْدُ، مَا قَدَّرَ عَدَدَهُ مِنَ الْإِبِلِ؟

فكان من الجواب: أَنَّ ابْنَ الْأَعْرَابِيِّ قَالَ: الذُّوْدُ مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ. وَإِذَا بَلَغَتْ الْعَشْرِينَ أَوْ قَارَبَتْ فِيهَا قِطْعَةً وَضَبَّةً وَفِرْقَةً وَصِرْمَةً حَتَّى تَبْلُغَ الثَّلَاثِينَ وَالْأَرْبَعِينَ.

ثُمَّ هِيَ حُدْرَةٌ وَعَكْرَةٌ وَعَجْرَمَةٌ حَتَّى تَبْلُغَ مِائَةً. ثُمَّ هُنَيْدَةٌ. فَإِذَا بَلَغَتْ مِائَتَيْنِ فِيهَا خِطْرٌ. وَكَذَلِكَ الثَّلَاثِمِائَةُ. فَإِذَا بَلَغَتْ أَرْبَعِمِائَةً فِيهَا عَرْجٌ إِلَى الْأَلْفِ، وَالْجَمَاعَةُ عُرُوجٌ. فَإِذَا كَثُرَتْ عَنِ الْأَرْبَعِينَ وَالْخَمْسِينَ فَبَلَغَتْ مِائَةً وَزَادَتْ فِيهَا جُرْجُورٌ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ جُرْجُورًا لِجَرَّاجِرِهَا وَأَصْوَاتِهَا.

وَقَدْ تَسْتَعِيرُ الْعَرَبُ بَعْضَ هَذَا فَتَجْعَلُهُ فِي بَعْضٍ.

وقال: ما الْفَرَقُ بَيْنَ الْقَبْضِ وَالْقَبْضِ؟

فقيل: القَبْضُ لَعَدَدٍ مَا كَانَ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا؛ قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: وَأَنْشَدَنِي الْعَامِرِيُّ لابن مَيَّادَةَ:

عَطَاؤُكُمْ قَبْضٌ وَيَخْفِينُ غَيْرُكُمْ وَللْحَفْنِ أُغْنَى لِلْفَقِيرِ مِنَ الْقَبْضِ
وقال: القَبْضُ بِأَطْرَافِ الْأَصَابِعِ، وَالْقَبْضُ بِالْكَفِّ، وَالْحَفْنُ بِالْكَفِّ وَالرَّاحَةُ إِلَى فَوْقِ مَفْتُوحَةٍ قَلِيلًا. هَذَا لَفْظُهُ.

وقال: الإلُّ الَّذِي هُوَ الْعَهْدُ هَلْ يُجْمَعُ؟

فقيل: حَكَى ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ فِي جَمْعِهِ، فَقَالَ: إِلَالٌ وَأُلُولٌ.

وقال: أَمَ الرَّجُلِ مَاذَا؟

فقيل: هَذَا عَلَى وَجْهِهِ؛ يُقَالُ: أَمَ الرَّجُلُ يَوْمَ أَوْأَمًا مِنَ الْعَطَشِ؛ وَيُقَالُ أَمَ الرَّجُلِ يَوْمَ إِيَامًا، وَهُوَ الدُّخَانُ. وَأَمَ الرَّجُلُ يَتِيمٌ إِذَا بَقِيَ بِغَيْرِ حَلِيلَةٍ، وَالْأَيْمُ مُسْتَعْمَلٌ فِي الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ.

قال: هَذَا نَمَطٌ مُفِيدٌ، وَيَجِبُ أَنْ يُجْمَعَ مِنْهُ جُزْءٌ أَوْ جُزْآنِ لَيْسَهُلَ عَلَى الطَّرْفِ الْمَجَالُ فِيهِ، فَإِنَّ الْكُتْبَ الطُّوَالَ مُسْتِمَّةً، وَإِذَا تَدَاخَلَ اللَّطِيفُ بِالْكَثِيفِ وَمَا رَقَّ بِمَا غَلِظَ نَبَتِ النَّفْسُ، وَدَبَّ الْمَلَلُ وَالْإِنْسَانُ كَسَلَهُ مِنْ طِينِهِ، وَنَشَاطُهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَالطِّينُ أَغْلَبَ مِنَ النَّفْسِ.

فكان الجواب: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِلْأَمْرِ الْمُشْرِفِ.

قال: هَاتِ حَدِيثًا يَكُونُ مَقْطُوعًا لِلْوَدَاعِ، فَإِنَّ اللَّيْلَ قَدْ عَبَسَ وَجْهَهُ، وَجَنَحَ كَاهِلُهُ، وَأَهْدَى إِلَى الْعَيْنِ سِنَةَ تَسْرِقِ الدَّهْنِ وَتَسْبِي الرِّأْيِ.

فكان من الجواب أنه مَرَّ بِي الْيَوْمَ حَدِيثٌ يُضَارِعُ مَا جَرَى مُنْذُ لِيَالٍ فِي فِسَادِ النَّاسِ وَحُؤُولِ الزَّمَانِ، وَمَا ذَهَمَ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ فِي حَدِيثِ الدِّينِ الَّذِي هُوَ الْعَمُودُ وَالِدُّعَامَةُ فِي عِمَارَةِ الدَّارَيْنِ، وَقَدْ طَالَ تَعْجُبِي مِنْهُ، وَصَحَّ عِنْدِي أَنَّ الدَّاءَ فِي هَذَا قَدِيمٌ، وَالْوَجَعُ فِيهِ أَلِيمٌ.

قال: فَهَاتِ فَتَشْيِيكَ قَدْ رَغَبَ شَدِيدًا، وَغَرَامَكَ قَدْ بَعَثَ جَدِيدًا.

فكان من ذلك الحديث أن محمد بن سلام قال فيما حَدَّثَنَا بِهِ أَبُو السَّائِبِ الْقَاضِي عُتْبَةُ بْنُ عُيَيْدٍ اللَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا السَّكْرِيُّ أَبُو سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ: سَمِعْتُ يُونُسَ يَقُولُ: فَكَّرْتُ فِي أَمْرٍ فَاسْمَعُوهُ. قُلْنَا: هَاتِهِ. قَالَ: كُلُّ مَنْ أَصْبَحَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ إِلَّا أُمَّتَنَا^(١) هَذِهِ؛ وَالسُّلْطَانُ وَمَنْ يُطِيفُ بِهِ هَلْكَى إِلَّا قَلِيلًا،

(١) يريد بهم أهل طبقة، كما يدل على ذلك سياق القصة.

فإذا قَطَعَتْ هذه الطَّبَقَةَ حتى تبلغ الشَّامَ فأكلهُ رِباً وباغِيَةً وشَرِبَهُ خَمْرٍ وباعتُها إِلَّا قليلاً، فإذا خَلَّفَتْ هذا الرَّمْلَ حتى تأتي رَمْلَ يَبْرِينَ وأعلام الرُّومِ فلا غَسَلَ من جَنَابَةِ، ولا إَسْبَاغَ وُضوءٍ، ولا إِتِمَامَ صَلَاةٍ، ولا عِلْمَ بِحُدُودِ ما أنزَلَ اللهُ على رَسولِهِ ﷺ إِلَّا قليلاً؛ فإذا صِرْتَ إلى الأَمْصارِ فأصحابُ هذه الكراسِيِ ليس منهم إِلَّا ذَنْبٌ مُسْتَعْرَظٌ بِذَنْبِهِ، يَخْتَلِكُ عن دِينَارِكَ وِدْرَهَمِكَ، يَكْذِبُ، وَيَبْخَسُ في المِيزانِ، وَيَطْفِفُ في المِكيالِ، إِلَّا قليلاً؛ فإذا صِرْتَ إلى أصحابِ العَلَاتِ الَّذِينَ كُفُوا المؤُونَةَ وَأُنْعِمَ عَلَيْهِمْ وَجَدْتَهُمْ يُمْسِي أَحدهم سكرانٌ وَيُضِيحُ مخموراً، إِلَّا قليلاً، ومعِي وَاللهُ منهم قَطِيعٌ في الدارِ، فإذا صِرْتَ إلى قومٍ لم يُنْعَمَ عَلَيْهِمَ بما أُنْعِمَ على هؤلاءِ، وهم يشتهون ما يَشْتَهِي هؤلاءِ، فواحدٌ لَصٌّ، وآخرُ طَرَّارٌ^(١)، وآخرُ مُسْتَقْفٍ^(٢) إِلَّا قليلاً، فإذا صِرْتَ إلى أصحابِ هذه السَّواريِ^(٣)، فهذا يَشْهَدُ على هذا بالكُفْرِ. وهذا يَبْرَأُ من هذا، وَاللهُ لئن لَمْ يَعْمُنَا اللهُ بِرَحْمَتِهِ إِنها للفضيحةُ .

فقال الوزير: لقد شَرَّدْتَ النومَ عن عَيْنِي، ومَلَأْتَ قلبي عَجَباً، فإنَّ الأمرَ لكَمًا قال، فإذا كان هذا قوله في عَصْرِهِ، وشجرةُ الدين على نَضَارَةِ أغصانها وخُضْرَةِ أوراقها، وَيَنعُ ثِمَارِها، فما قوله - تَرَى - فينا لو لَحِقْنَا، وأدْرَكَ زَمَانَنَا، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعون .

(١) الطرار هو الذي يشق كملك ويستل ما فيه .

(٢) يقال استفقاه إذا جاء من خلفه وحزبه بالعصا على قفاه .

(٣) سواري المسجد وعمده ويريد بأصحابه العلماء

الليلة الثلاثون

وقال الوزير - أدام الله أيامه - : سراويل يُذَكَّرُ أم يُؤنَّث، ويُصْرَفُ أم لا؟
فكان الجواب : أن علي بن عيسى حدَّثنا عن شيخه ابن السراج قال : سألت المبرِّد
فقلت : إذا كان الواحدُ في صيغة الجَمْع ما يُصنَع به في الصَّرْفِ في مثل شَغْرُهُ هَرَامِيل
وهذه سراويل وما أشبهه، فقال : ألحِقْهُ بالجَمْع فامتنع الصَّرْفُ، لأنَّه مثله وشيِّهه .
قال : وسألتُ أحمدَ بن يحيى عن ذلك، فقال : أَخْبَرنا سَلَمَةُ عن الفَرَّاءِ قال :
ألحِقْهُ بأحمد فامتنع الصَّرْفُ في المَعْرِفَةِ، واصرِفْهُ في التَّكْرَةِ حتَّى يكون بين الواحدِ
والجَمْعِ فَرْقٌ .

وسأل فقال : ما واحد المناخِبِ والمناجِبِ وما حُكْمُهُما؟
فكان من الجواب : واحد المناخِبِ مِنخَابٌ، يُمدح به ويُذَمُّ، فإذا كان مَدْحاً
فهو مأخوذ من التَّخْبِ، وهو الاختيار، وإذا كان دَمًّا فهو مأخوذ من التَّخْبَةِ، وهي
الاست . قال : وهكذا المِنْجَابُ يكون مَدْحاً ودَمًّا، فإذا كان مَدْحاً فهو مأخوذ من
الانتجاب، وهو الاختيار، وإذا كان دَمًّا فهو مأخوذ من النَّجَبِ، وهو قِشْرُ الشَّجَرِ .

قال : ما معنى قولهم : امرأةٌ عَرُوبٌ؟
فكان من الجواب أن محمد بن يزيد قال - على ما حدَّثنا به أبو سعيد وابن
السراج عنه - إنه من الأضداد، وهي المتحِبَّة إلى زوجها؛ وهي الفاسدة، مأخوذ من
قولهم : عَرِبَتْ مَعَدَّتُهُ إذا فَسَدَتْ .

وقال : الضَّهْيَاءُ يُمَدُّ وَيُقَصَّرُ؟
فكان من الجواب أن ابن الأعرابي قال : الَّذِي حَصَلَتْهُ عن الأعراب أن الضَّهْيَاءُ
المَمْدُودَةُ هي التي لا تَحْيِضُ، وأن المقصورة هي الياسمين، وجمْعُ الأوَّلِ ضَهْيِي
وجمْعُ المَقْصُورِ ضَهَايَا .

قال : ما معْنَى المَنْدَلِيِّ المَطِيرِ؟
فكان من الجواب : أن ابن الأعرابي قال : هو مقلوب المَطَرِي .

وقال : أَنشِدْنِي عَزْلاً . فَأَنشَدْتُهُ ما حَضَرَ في الوَقْتِ لأعرابي :
أَمْرٌ مَجْنُباً عن بَيْتِ سَلَمَى ولم أَلِمِ به وبه الغَلِيلِ
أَمْرٌ مُجْتَبِأً وهَوَايَ فِيهِ وطَرْفِي عنه مُنْكَسِرٌ كَلِيلِ

وَقَلْبِي فِيهِ مُقْتَتَلٌ فَهَلْ لِي
 وَقَالَ: أَتَحْفَظُ الْآيَاتِ الَّتِي فِيهَا:
 تَكْفِيهِ فَلِذَلِكَ كَبِدٌ إِنْ أَلَمَّ بِهَا
 فَأَنْشَدَهُ ابْنُ بُنَاتَةَ، وَذَلِكَ لِأَنِّي قُلْتُ: مَا أَحْفَظُ إِلَّا هَذَا الْبَيْتَ شَاهِدًا، وَهُوَ لِأَعْشَى
 بِأَهْلَةٍ يَزِيحُ الْمُتَشِيرُ:

إِنِّي أَتَشْنِي لِسَانَ لَا أَسْرُبُ بِهَا
 فَبِتُّ مَرْتَفِعًا لِلنَّجْمِ أَزْقُبُهُ
 وَجَاشَتْ النَّفْسُ لَمَّا جَاءَ جَمْعُهُمْ
 يَأْتِي عَلَى النَّاسِ لَا يُلَوِي عَلَى أَحَدٍ
 نَعَيْتَ مَنْ لَا تُغِبُّ الْحَيَّ جَفْنَتُهُ
 مَنْ لَيْسَ فِي حَايِرِهِ شَرٌّ يَكْدُرُهُ
 طَاوِي الْمَصِيرِ عَلَى الْعَزَاءِ مُنْصَلِتٍ
 لَا تُنَكِرُ الْبَازِلُ الْكُومَاءِ ضَرْبَتَهُ
 وَتَفْرَعُ الشُّوْلُ مِنْهُ حِينَ تُبْصِرُهُ
 لَا يَضْعُبُ الْأَمْرُ إِلَّا رَيْتَ يَزْكُبُهُ
 يَكْفِيهِ حُرَّةٌ فَلِذَلِكَ أَلَمَّ بِهَا
 لَا يَتَأَرَى لِمَا فِي الْقِدْرِ يَرْقُبُهُ
 لَا يَغْمِزُ السَّاقَ مِنْ أَيْنَ وَمِنْ وَصَبٍ
 مَهْفَهْفٌ أَهْضَمُ الْكَشْحَيْنِ مُنْخَرِقٌ
 عِشْنَا بِذَلِكَ دَهْرًا ثُمَّ فَارَقْنَا
 لَا تَأْمَنُ النَّاسُ مُنْسَاهُ وَمُضْبِحَهُ
 إِمَّا يُصِيبُكَ عَدُوٌّ فِي مُنَاوَاةٍ
 لَوْ لَمْ تَخُنْهُ نُفَيْلٌ وَهِيَ خَائِنَةٌ
 وَرَادَ حَرْبٍ شِهَابٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ
 إِمَّا سَلَكَتْ سَبِيلًا كُنْتَ سَالِكَهَا
 مَنْ لَيْسَ فِيهِ إِذَا قَاوَلْتَهُ رَهَقٌ

مِنْ عَلَوٍ عَجَبٌ مِنْهَا وَلَا سُخْرُ
 حَيْرَانَ ذَا حَذْرٍ لَوْ يَنْفَعُ الْحَذْرُ
 وَرَاكِبٌ جَاءَ مِنْ (تَثْلِيثٍ) مُغْتَمِرُ
 حَتَّى التَّقِينَا وَكَانَتْ دُونَنَا (مُضْرُ)
 إِذَا الْكَوَاكِبُ أَخْطَا نَوَاطِئَ الْمَطَرِ
 عَلَى الصَّدِيقِ وَلَا فِي صَفْوِهِ كَدْرُ
 بِالْقَوْمِ لَيْلَةٌ لَا مَاءٌ وَلَا شَجْرُ
 بِالْمَشْرِفِيِّ إِذَا مَا اجْلَوْدَ السَّفَرِ
 حَتَّى تُقَطِّعَ فِي أَغْنَاقِهَا الْجِرْرُ
 وَكُلُّ أَمْرٍ سَوَى الْفَخْشَاءِ يَأْتِمُرُ
 مِنَ الشُّوَاءِ وَيَكْفِي شُرْبَهُ الْغُمْرُ
 وَلَا يَعْضُ عَلَى شُرْسُوفِهِ الصَّفْرُ
 وَلَا يَزَالُ أَمَامَ الْقَوْمِ يَنْتَفِرُ
 عَنْهُ الْقَمِيصُ بِسِيرِ اللَّيْلِ مُحْتَقِرُ
 كَذَلِكَ الرُّمْحُ ذُو النَّضْلَيْنِ يَنْكَسِرُ
 مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَإِنْ لَمْ يَأْتِ يُنْتَظَرُ
 يَوْمًا فَقَدْ كُنْتَ تَسْتَعْلِي وَتَنْتَصِرُ
 أَلَمَّ بِالْقَوْمِ وَرَدَّ مِنْهُ أَوْ صَدْرُ
 كَمَا يُضْيِئُ سَوَادَ الطُّخْيَةِ الْقَمَرُ
 فَاذْهَبْ فَلَا يُبْعِدُنكَ اللَّهُ مُنْتَشِرُ
 وَلَيْسَ فِيهِ إِذَا يَاسَرْتَهُ عُسْرُ

الليلة الواحدة والثلاثون

وَجَرَى لَيْلَةً حَدِيثُ الرَّأْيِ فِي الْحَزْبِ وَالْحَزْمِ وَالتَّيَقُّظِ وَقِلَّةِ الاسْتِهَانَةِ بِالْحَضْمِ .

فقال ابن عبيد الكاتب: أنا أستحسنُ كلاماً جَرَى أَيَّامَ الأَمِينِ والمَأْمُونِ، وذلك أن عليَّ بن عيسى بنَ ماهانَ لَمَّا تَوَجَّهَ إلى حَرْبِ طاهر بن الحسين من بغداد، سأل قوماً وَرَدُّوا من الرَّيِّ عن طاهر، فقالوا: إنه مُجَدُّ. فقال: وما طاهر؟ إنما هو شَوْكَةٌ من أغصاني، وشرارةٌ مِن ناري؛ ثم قال لأصحابه: واللَّه ما بَيْنَكُمْ وبين أن ينقْصِفَ انقْصافَ الشَّجَرِ مِنَ الرِّيحِ العاصِفةِ إِلَّا أن يَبْلُغَهُ عُبُورُنَا عَقْبَةَ هَمْدَانَ، لأنَّ السَّخَالَ لا تَقْوَى على النَّطَاحِ، والشَّعَالِبُ لا صَبْرَ لَهَا على لِقَاءِ الأَسُودِ، فإن يَقُمَ طاهرٌ بِمَوْضِعِهِ يَكُنْ أوَّلَ مَعْرَضٍ لظُبَاتِ السُّيُوفِ وأَسِنَّةِ الرُّمَاحِ. فقال يحيى بنُ عليٍّ لعلِّي بن عيسى: أيُّها الأمير، إنَّ العساكرَ لا تُسَاسُ بالتَّوانِي، والخُروبُ لا تُدَبَّرُ بالاغْتِرَارِ، وإنَّ الشُّرارةَ الخَفِيَّةَ رُبَّمَا صَارَتْ ضِرَّاماً، والنُّهْلَةَ مِنَ السَّيْلِ رُبَّمَا صَارَتْ بَحْراً عَظِيماً.

فقال: إنَّما حَجَبَ عليَّ بنَ عيسى عن وَثِيقِ الرَّأْيِ هذا الاستحقاقُ بالكلام، والاقْتِدَارُ على اللَّفْظِ، ومن صَدَقَ فِكْرُهُ في طَلَبِ الرَّأْيِ النَافِعِ، قَلَّ كِلامُهُ بالهَذَرِ الضَّائِعِ .

وقال في هذه الليلة: ما رأيتُ من يَفِي بِإِخْصَاءِ وَجْهِهِ فَعِيلٌ وَمَوَاقِعِهَا .

فكان من الجواب: أن الأَخْفَشَ قد ذَكَرَ عَشْرَةَ أَوْجِهٍ، وهي أَكْثَرُ ما قَدَّرَ عَلَيْهِ، والتَّصْفُحُ قد دَلَّ على أَرْبَعِينَ وَجْهاً وَزِيادَةَ .

قال: فما أَعْرَبُ ما مَرَّ بِكَ مِنْهَا؟

فقيل: فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَعَلَ . فقال: هذا واللَّه غريبٌ، فَهَاتِ لَه شَاهِداً . فقيل: يقال مَكَانٌ دَمِيئٌ وَدَمَتْ، وَيَقِينٌ وَيَقَنْ، وَرَضِيفٌ وَرَضَفٌ؛ وَلِلْفَرَسِ العَيْتِدُ لِلْعَدُوِّ: العَتْدُ؛ وَالنَّقِيلُ مِنَ العَدُوِّ: نَقْلٌ؛ وَالخَيْبِطُ مِنَ الوَرَقِ: خَبِطٌ؛ وَلِلْعَدِيمِ: عَدَمٌ؛ وَالبِثْرُ التَّزْرِيحُ: نَزْحٌ، وَلِلْجِسْمِ العَمِيمِ: عَمَمٌ .

وقال ابنُ الأَعْرَابِيِّ: القَفِيلُ الشَّوْكَ اليَاسِ، وَالْجَمْعُ قَفَلٌ . وقال أحمد بنُ يحيى: هو مَنِي بَعْدَ أَيِّ بَعِيدٍ، وَالبَعْدُ يَكُونُ لِلْجَمْعِ وَالبَعْدُ وَالبَعْدُ .

فَعَجِبَ وَقَالَ: يَنْبَغِي أَنْ يُعْنَى بِهَذِهِ الوُجُوهِ كُلِّهَا . فَإِنَّ الزِّيادَةَ على مِثْلِ الأَخْفَشِ

ظَفَرَ حَسَنَ، وامتيازٌ في العَزَاةِ جميل، وما تَفَاضَلَتْ دَرَجَاتُ الْعُلَمَاءِ إِلَّا بِتَصَفُّحِ الْأَخِيرِ قَوْلَ الْأَوَّلِ واستيلائه على ما فاته .

وسأل - أبادَ اللهُ عِداه، وَحَقَّقْ مَنَاه - وقال: هل يَسَلِّمُ على أهلِ الذِّمَّةِ؟ وهل يُبَدِّأُون؟

فكان أبو البُخْتَرِيُّ الداودِيُّ حاضراً - فَحَكَى أَنَّ عُمَرَ بن عبد العزيز سُئِلَ عن هذا بَعَيْنِهِ، فقال: يُرَدُّ عليهم السلام، ولا بأسَ بأن يُبَدِّءُوا، لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمٌ﴾ [الزخرف: ٨٩].

وَحَكَى فِي مَعْرِضِ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: كَتَبَ مَجْنُونٌ إِلَى مَجْنُونٍ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، حَفِظَكَ اللَّهُ، وَأَبْقَاكَ اللَّهُ، كَتَبْتُ إِلَيْكَ وَدَجَلْتُ تَطْعَى، وَسُقُنُ الْمَوْصِلِ هَا هِيَ، وَمَا يَزْدَادُ الصُّبْيَانَ، إِلَّا شَرًّا، وَلَا الْحِجَارَةَ إِلَّا كَثْرَةً، فَيَاكَ وَالْمَرْقُ فَإِنَّهُ شَرُّ طَعَامٍ فِي الدُّنْيَا، وَلَا تَبْتَ إِلَّا وَعِنْدَ رَأْسِكَ حَجْرٌ أَوْ حَجْرَانِ، فَإِنَّ الْأَخْبَرَ يَقُولُ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وَكَتَبْتُ إِلَيْكَ لثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً خَلْتُ مِنْ عَاشُورَاءَ سَنَةَ الْكَمَاءِ».

قال: وَكَتَبَ مَجْنُونٌ آخَرَ: «أَبْقَاكَ اللَّهُ مِنَ النَّارِ وَسُوءِ الْحِسَابِ، وَتَفْدِيكَ نَفْسِي مُوَفَّقًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

قال: وَكَتَبَ مَجْنُونٌ آخَرَ إِلَى مَجْنُونٍ مِثْلِهِ: وَهَبَ اللَّهُ لِي جَمِيعَ الْمَكَارِهِ فِيكَ، كِتَابِي إِلَيْكَ مِنَ الْكُوفَةِ حَقًّا حَقًّا حَقًّا، أَفْلَامِي تَحْطُ، وَالْمَوْتُ عِنْدَنَا كَثِيرٌ، إِلَّا أَنَّهُ سَلِيمٌ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، أَحْبَبْتُ لِيَعْرِفَهُ إِعْلَامُكُمْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

فضحك - أَضْحَكَ اللَّهُ سِنَّهُ - حَتَّى اسْتَلْقَى، وَقَالَ: مَا الَّذِي يَبْلُغُ بِنَا هَذَا الْاسْتِطْرَافَ إِذَا سَمِعْنَا بِحَدِيثِ الْمَجَانِينِ؟

فَقَالَ ابْنُ زُرْعَةَ: لِأَنَّ الْمَجْنُونَ مُشَارِكٌ لِلْعَاقِلِ فِي الْجِنْسِ، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْعَاقِلِ مَا يُحَسَّبُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَجْنُونِ كَرِهَ ذَلِكَ لَهُ، وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمَجْنُونِ مَا يُعْهَدُ مِنَ الْعَاقِلِ تُعْجِبُ مِنْهُ، وَالْعَقْلُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ ذُو عَرَضٍ وَاسِعٍ، وَبِقَدْرِ ذَلِكَ يَتَفَاضَلُونَ التَّفَاضُلَ الَّذِي لَا سَبِيلَ إِلَى حَضْرِهِ، وَكَذَلِكَ الْجِنُونَ بَيْنَ أَهْلِهِ ذُو عَرَضٍ وَاسِعٍ، وَيَحْسَبُ ذَلِكَ يَتَفَاوَتُونَ التَّفَاوُتَ الَّذِي لَا مَطْمَعَ فِي تَحْصِيلِهِ، وَكَمَا أَنَّهُ يَبْدُرُ مِنَ الْعَاقِلِ بَعْضُ مَا لَا يُتَوَقَّعُ إِلَّا مِنَ الْمَجْنُونِ كَذَلِكَ يَبْدُرُ مِنَ الْمَجْنُونِ بَعْضُ مَا لَا يُتَوَقَّعُ إِلَّا مِنَ الْعَاقِلِ، وَلَا يُعْتَدُّ بِذَلِكَ وَلَا بِهَذَا، أَعْنِي أَنَّ الْعَاقِلَ بِذَلِكَ الْمَقْدَارِ لَا يُرَى مَجْنُونًا، وَالْمَجْنُونَ بِذَلِكَ الْمَقْدَارِ لَا يَسْمَى عَاقِلًا، وَإِنَّمَا اجْتَمَعَا فِي النَّادِرِ الْقَلِيلِ، لِاجْتِمَاعِهِمَا فِي الْجِنْسِ الَّذِي يَعْمُهُمَا، وَالنَّوْعِ الَّذِي يَفْضَلُهُمَا، وَفِي الْجَمَلَةِ الْإِنْسَانَ بِمَا هُوَ بِهِ حَيَوَانٌ سَبْعٌ وَحَمَارٌ، وَبِمَا هُوَ بِهِ نَفْسِيٌّ إِنْسَانٌ، وَبِمَا هُوَ بِهِ عَاقِلٌ نَبِيٌّ وَمَلَكٌ؛ وَهَذِهِ الْأَعْرَاضُ - وَإِنْ تَدَاخَلَتْ

لانتظامها في طينة واحدة - فإنها تتميز بقوة العقل في الصورة المخلوطة إما مفارقة، وإما مواصلة. ومرّ له في هذا الموضوع كلامٌ بليغٌ تامٌّ مكشوف^(١).

ثمّ تراعى الحديث إلى أمر المُطعمين والطاعمين، والذين يهشون عند المائدة، والذين يعبسون ويجمون ويظرقون، والذين يصخبون ويلغظون، ويضجرون ويغتاطون.

فقال: أحبُّ أن أسمع في هذا أكثر ما فيه، ويمرّ بي أعجبه، فإن في معرفة هذا الباب تهذيباً وإيقاظاً كثيراً.

فكان من الجواب: إنّ الناس قديماً وحديثاً قد خاضوا في هذا الفن خوضاً بعيداً، وما وقفوا منه عند حدّ، لأن الحديث عن الأخلاق المختلفة بالأمزجة المتباينة، والطبائع المتباينة لا يكاد ينتهي إلى غاية يكون فيها شفاء للمستمع المُستفيد ولا للرواية المُفيد.

قال: قبل كل شيء أعلمونا يا أصحابنا: الحثُّ على الأكل أحسن، أم الإمساك حتى يكون من الأكل ما يكون؟

فكان من الجواب: أن هذه المسألة بعينها جرت بالأمس بالرّي عند ابن عبّاد فتئوهب الكلام فيها، وأفضى إلى الأولى الحثُّ والتأنيس والبسط والطلاقة ولين اللفظ وقلة التحديق وإنسجاء الطّرف مع اللّطف والدّمائة، من غير دلالة على تكلف في ذلك فاضح ولا إمساكٍ عنه قادح.

وحكى ابن عبّاد في هذا الموضوع أن بعض السلف قال: الطعام أهونٌ من أن يُحَثَّ على تناوله.

وقال الحسن بن علي: الطعام أجلٌ من أن لا يُحَثَّ على تناوله. ومذهبُ الحسن أحسن.

قال: ولقد حضرتُ موائد ناس لا أظنُّ بهم البخل فلم يحثوني ولم ينسطوني فقَبَضَنِي ذلك، وكأَنَّ انقباضي كان بمَعُونَتِهِمْ، وإن لم يكن بإرادتهم.

قال الوزير: هذه فائدة من هذا الرجل الذي يُتهدى قوله، وتتراوى أخباره.

ثم حكيتُ له أن أسماء بنَ حارِجة قال: ما صنعتُ طعاماً قطّ فدَعَوْتُ عليه نَفراً إلا كانوا آمنٌ عليّ مِنِّي عليهم. فقال: زدنا من هذا الضرب ما كان، قلت: لو أذن لي في جَمْعِهِ كان أولى؟ قال: لك ذلك فما يَضُرُّنا أن تُطْرِبَ آذاننا بما تَهْوَى نَفوسنا.

فكان من الجواب أن الجاحظ قد أتى على جمهرة هذا الباب إلا ما شدَّ عنه ممّا لم يَقَعْ إليه، فإن العالم - وإن كان بارعاً - ليس يجوز أن يُظنَّ به أنه قد أحاط بكلّ

(١) إلى هنا ينتهي الجزء الثاني حسب تقسيم طبعة أحمد أمين وأحمد الزين.

باب، أو بالباب الواحد إلى آخره؛ على أنه حَدَّثَ من عهد الجاحظ إلى وقتنا هذا أمورَ وأمور، وهناتٌ وهناتٌ، وعَرَائِبُ وَعَجَائِبُ، لأنَّ الناسَ يَكْتَسِبُونَ على رأسِ كُلِّ مائةِ سنةٍ عادةً جديدةً، وخليقةً غيرَ مَعهودَةٍ، ويذُءُ هذه المئتين هو الوقت الذي فيه تَنعقدُ شريعة، وتظهر نبوة، وتَفْشُو أحكام، وتَسْتَقِرُّ سُنَن، وتُؤَلَّفُ أحوالٌ بعد فطامٍ شديد، وتلكؤُ واقع؛ ثم على استئنان ذلك يكون ما يكون.

وقال ميمون بن مهران: مَنْ ضافَ البخيلَ صامتَ دابته، واستغنى عن الكئيف، وأمينَ التخممة.

وقال حامد اللقاف المتزهّد: المرائي إذا ضاف إنساناً حدّته بسخاوة إبراهيم، وإذا ضافه إنساناً حدّته بزهد عيسى بن مريم.

وقال مالك بن دينار: دَخَلْنَا على ابن سيرين فقال: ما أذري ما أطمعكم؟ ثم قدّم إلينا شهدة.

وقال الأعمش: كانَ خَيْثَمَةُ يَصْنَعُ الخَيْصَصَ ثم يقول: كُلُوا فوالله ما صنِعَ إلّا من أجلكم.

وقال بكر بن عبد الله المزني: أَحَقُّ الناسِ بِلَطْمَةٍ من إذا دُعِيَ إلى طعامٍ ذهبَ بآخرِ معه، وأحقُّهم بِلَطْمَتَيْنِ مَنْ إذا قيلَ له: اجلسِ هاهنا، قال: بل هاهنا؛ وأحقُّ الناسِ بثلاثِ لَطَمَاتٍ مَنْ إذا قيلَ له: كُلْ، قال: ما بالُ صاحبِ البيتِ لا يأكلُ مَعَنَا.

وقال إبراهيم بن الجنيد: كانَ يقال: أربَعٌ لا يَنْبَغِي لِشريفٍ أنْ يَأْنِفَ مِنْهُنَّ وإن كانَ أميراً: قيامُهُ من مجلسه لأبيه، وخدمَتُهُ للعالمِ يَتَعَلَّمُ منه، والسؤالُ عَمَّا لا يَعْلَمُ ممن هو أَعْلَمُ منه، وخدمَةُ الضيفِ بنفسِه إكراماً له.

وقال حاتم الأصم: كانَ يقال العَجَلَةُ من الشيطانِ إلا في خمس، فإنها من سُنَّةِ رَسولِ اللهِ ﷺ: إطعامِ الضيفِ إذا حَلَّ، وتجهيزِ الميِّتِ إذا مات، وتزويجِ البكرِ إذا أذركت، وقضاءِ الدينِ إذا حَلَّ وَوَجِبَ، والتوبةُ من الذَّنْبِ إذا وَقَعَ.

وقال النبي ﷺ: «ليلةُ الضيفِ حقٌّ واجبٌ على كلِّ مُسلمٍ، فمن أضحجَ بِفنائِه فهو أَحَقُّ به إن شاء أَحَدٌ، وإن شاء تَرَكَ.»

وجاءت امرأة إلى الليث بن سعد وفي يدها قَدَح، فسألت عسلاً وقالت: رُؤْجِي مريض؛ فأمر لها براوية عَسَل؛ فقالوا: يا أبا الحرث: إنما تسأل قَدَحاً. قال: سألت على قَدْرِها ونُعْطِيها على قَدْرِنا.

خَرَجَ ابنُ المُبارَكِ يوماً إلى أصحابه، فقال لهم: نَزَلَ بنا ضيفُ اليومِ فقال: اتخذوا لي فالودجاً، فسَرنا ذلك منه.

وقال الحسنُ في الرَّجُلِ يَدْخُلُ بَيْتَ أَخِيهِ فَيَرَى السَّلَّةَ فِيهَا الْفَاكِهَةَ: لَا بَأْسَ أَنْ يَأْكَلَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَأْذِنَهُ.

وقال ابنُ عمر: أَهْدَيْتَ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ - شَاةً فَقَالَ: أَخِي فَلَانَ أَخْوَجُ إِلَيْهَا، وَبَعَثَ بِهَا إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَبْعَثُ بِهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى تَدَاوِلَهَا تِسْعَةَ أَبْيَاتٍ، وَرَجَعَتْ إِلَى الْأَوَّلِ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ: ﴿وَيُؤَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

قال أبو سعيد الخُدْرِيّ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ ظَهْرٌ فَلْيَعُدْ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ؛ وَمَنْ كَانَ لَهُ زَادٌ فَلْيَعُدْ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ، حَتَّى رَأَيْتَنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي الْفَضْلِ».

وَسُئِلَ ابْنُ عُمَرَ: مَا حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ؟ قَالَ: أَلَّا يَشْبَعَ وَيَجُوعَ، وَأَلَّا يَلْبَسَ وَيَعْرَى، وَأَنْ يُوَاسِيَهُ بِبَيْضَائِهِ وَصَفْرَائِهِ.

وَكَانَ ابْنُ أَبِي بَكْرَةَ يُنْفِقُ عَلَى جِيرَانِهِ أَرْبَعِينَ دَارًا سِوَى سَائِرِ نَفَقَاتِهِ، وَكَانَ يَبْعَثُ إِلَيْهِمُ بِالْأَضْحَاكِ وَالْكَسْوَةِ فِي الْأَعْيَادِ، وَكَانَ يَغْتَقُ فِي كُلِّ يَوْمٍ عِيدٍ مِائَةَ مَمْلُوكٍ.

وَكَانَ حَمَّادُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ يُفْطِرُ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ خَمْسِينَ إِنْسَانًا، وَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْفِطْرِ كَسَاهُمْ ثَوْبًا ثَوْبًا وَأَعْطَاهُمْ مِائَةَ مِائَةَ.

وقال الشاعر:

أَرَاكَ تَوْمُلَ حُسْنِ الثَّنَاءِ وَلَمْ يَزُرُقِ اللَّهَ ذَاكَ الْبَخِيلَا
وَكَيْفَ يَسُودُ أَخُو بَطْنَةٍ يَمُنُّ كَثِيرًا وَيُعْطِي قَلِيلَا

وقال النبي ﷺ: «تَجَافَوْا عَنِ ذَنْبِ السَّخِيِّ، فَإِنَّ اللَّهَ يَأْخُذُ بِيَدِهِ كُلَّمَا عَثَرَ».

وقال عليه السلام: «مَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ، وَقَرَى الضَّيْفَ، وَأَوَى فِي النَّائِبَةِ، فَقَدْ وَقِيَ شُحَّ نَفْسِهِ».

وقالت أُمُّ الْبَنِينِ أُخْتُ عَمْرِ بْنِ عَبِيدِ الْعَزِيزِ: أَفُّ لِلْبُخْلِ، لَوْ كَانَ طَرِيقًا مَا سَلَكَتُهُ، وَلَوْ كَانَ ثَوْبًا مَا لَبِسْتُهُ، وَلَوْ كَانَ سِرَاجًا مَا اسْتَضَأْتُ بِهِ.

وقال الأصمعيّ: قَالَ بَعْضُ الْعَرَبِ: لَيْسَتْ الْفُتُوَّةُ الْفِسْقَ وَلَا الْفُجُورَ، وَلَا شُرْبَ الْخُمُورِ، وَإِنَّمَا الْفُتُوَّةُ طَعَامٌ مَوْضُوعٌ، وَصَنِيعٌ مَوْضُوعٌ؛ وَمَكَانٌ مَرْفُوعٌ، وَلِسَانٌ مَعْسُولٌ، وَنَائِلٌ مَبْذُولٌ، وَعَقَافٌ مَعْرُوفٌ، وَأَذَى مَكْفُوفٌ.

وقال أبو حازم المدنيّ: أَسْعَدُ النَّاسِ بِالْخُلُقِ الْحَسَنِ صَاحِبُهُ، نَفْسُهُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ، ثُمَّ زَوْجَتُهُ، ثُمَّ وَلَدُهُ، حَتَّى إِنْ فَرَسَهُ لِيَصْهَلَ إِذَا سَمِعَ صَوْتَهُ، وَكَلْبُهُ يُشْرِشِيرُ بِذَنْبِهِ إِذَا رَأَاهُ، وَقَطُّهُ يَدْخُلُ تَحْتَ مَائِدَتِهِ، وَإِنَّ السَّيِّئَ الْخُلُقِ لِأَشْقَى

الناس، نَفْسُهُ مِنْهُ فِي بَلَاءٍ، ثُمَّ زَوْجَتُهُ، ثُمَّ وَلَدُهُ، ثُمَّ خَدَمُهُ، وَإِنَّهُ لَيَدْخُلُ وَهْمٌ فِي سُرُورِ فَيَتَفَرَّقُونَ فَرَقًا مِنْهُ، وَإِنَّ دَابَّتَهُ لِتَحِيدَ عَنْهُ إِذَا رَأَتْهُ، مِمَّا تَرَى مِنْهُ، وَكَلْبُهُ يَنْزُو عَلَى الْجِدَارِ، وَقِطْعُهُ يَفْرُ مِنْهُ.

وكان على باب ابن كيسان مكتوب: اذْخُلْ وَكُلْ.

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول في بكائها على النبي ﷺ: أَبِي مَنْ لَمْ يَنْمِ عَلَى الْوَثِيرِ، وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ.

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ وَعَاءً مَلَأَ شِرًّا مِنْ بَطْنٍ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاجْعَلُوا ثُلثًا لِلطَّعَامِ، وَثُلثًا لِلشَّرَابِ، وَثُلثًا لِلرَّيْحِ».

قال الشاعر:

لِيسُوا يُبَالُونَ إِذَا أَضْبَحُوا شَبَعَى بِطَانًا حَقٌّ مَنْ صَيَّعُوا
وَلَا يُبَالُونَ بِمَوْلَاهُمْ وَالْكَلْبُ فِي أَمْوَالِهِمْ يَزْتَعِ
وحكى لنا أبو بكر أحمد بن إبراهيم بجزجان - إمام الدنيا - قال: رأيت أبا خليفة المفضل بن الحباب، وقد دُعي إلى وليمة فرأى الصُحُفَ تُوَضَعُ وَتُرْفَعُ، فَقَالَ: أَلَلْحُسْنِ وَالْمَنْظَرِ دُعِينَا، أَمْ لِلأَكْلِ وَالْمَخْبَرِ؟ فَقِيلَ: بَلِ لِلأَكْلِ وَالْمَخْبَرِ، قَالَ: فَاتْرَكُوا الصَّخْفَةَ يَبْلُغُ قَعْرَهَا.

وكان سليمان بن ثوبان ضخم الخوان، كثير الطعام، وافر الرغيف، وكان مُحجَّبًا بإجادة الألوان، واتخاذ البدائع والطرائف والغرائب على مائتته؛ وكانت له ضروب من الحلوى لا تُعرف إلا به، وكان حُبزه الذي يُوضع على المائدة الرغيف من مكوك دقيق، ولذلك قال أبو فرعون العدوي:

مَا النَّاسُ إِلَّا نَبِطٌ وَخُورَانٌ كَكَهْمَسٍ أَوْ عَمَرَ بْنِ عِمْرَانَ
ضَاقَ جِرَابِي عَنْ رَغِيفِ سَلْمَانَ أَيُّ حِمَارٍ فِي حِرَامٍ فَحَطَّانُ
وَأَيْرُ بَغْلٍ فِي اسْتِ أُمَّ عَدْنَانَ

وعشق رجلُ جارية رومية كانت لقوم ذوي يسار، فكتب إليها يوماً: جُعِلْتُ فِدَاكَ، عِنْدِي الْيَوْمَ أَصْحَابِي، وَقَدْ اشْتَهَيْتُ سَكْبَاجَةَ بَقْرِيَّةً فَأَحِبُّ أَنْ تُوَجِّهِي إِلَيْنَا بِمَا يَعْطَنَا وَيَكْفِينَا مِنْهَا، وَدَسْتَجَةَ مِنْ نَبِيذٍ لِتَتَغَدَّى وَنَشْرَبَ عَلَى ذِكْرِكَ، فَلَمَّا وَصَلَتِ الرُّقْعَةُ وَجَّهَتْ إِلَيْهِ بِمَا طَلَبَ؛ ثُمَّ كَتَبَ إِلَيْهَا يَوْمًا آخَرَ: فَدَتُّكَ نَفْسِي، إِخْوَانِي مَجْتَمِعُونَ عِنْدِي، وَقَدْ اشْتَهَيْتُ قَلِيَّةً جَزُورِيَّةً فُوَجِّهِي بِهَا إِلَيَّ وَمَا يَكْفِينَا مِنَ النَّبِيذِ وَالنُّقْلِ، لِيَعْرِفُوا مَنْزَلَتِي عِنْدَكَ، فُوَجَّهَتْ إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا سَأَلَ؛ ثُمَّ كَتَبَ إِلَيْهَا يَوْمًا آخَرَ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، قَدْ اشْتَهَيْتُ أَنَا وَأَصْحَابِي رُؤُوسًا سَمَانًا، فَأَحِبُّ أَنْ تُوَجِّهِي إِلَيْنَا بِمَا يَكْفِينَا، وَمِنَ النَّبِيذِ بِمَا

يُزَوِينَا؛ فَكَتَبَتِ الْجَارِيَةَ عِنْدَ ذَلِكَ: إِنِّي رَأَيْتُ الْحُبَّ يَكُونُ فِي الْقَلْبِ، وَحُبِّكَ هَذَا مَا تَجَاوَزَ الْمَعْدَةَ. وَكَتَبَتْ أَسْفَلَ الرَّقْعَةِ:

عَزِيزِي مِنْ حَبِيبِ جَا عِنَا فِي زَمَنِ الشُّدَّةِ
وَكَانَ الْحُبُّ فِي الْقَلْبِ فَصَارَ الْحُبُّ فِي الْمِعْدَةِ

وقال جرير:

وَلَا يَذْبَحُونَ الشَّاةَ إِلَّا بِمَيْسِرٍ كَثِيرٌ تَنَاجِيهَا لِئَامٌ قُدُورُهَا

وقالت عادية بنت فرعة الزبيرية في ابنها دؤس:

تَشْبُهُ دَوْسٌ نَفْرًا كَرَامَا
كَانُوا الذُّرَى وَالْأَنْفَ وَالسَّنَامَا
كَانُوا مَنْ خَالَطَهُمْ إِذَا مَا
كَالسَّمْنِ لَمَّا سَغَبَلَ الطَّعَامَا

يقال سَغَبَلَ رَأْسَهُ بِالذُّهْنِ وَسَغَسَغَهُ وَرَوَاهُ وَأَمْرَعَهُ.

قال الواقدي: قيل لأم أيوب: أي الطعام كان أحب إلى رسول الله ﷺ فقد عرفت ذلك بمقامه عندكم؟ فقالت: ما رأيته أمر بطعام يصنع له بعينه، ولا رأيته أتى بطعام فعابه قط. وقد أخبرني أبو أيوب أنه تعشى عنده ليلة من قضاة أرسل بها سعد بن عبادة فيها طفئيشل فرأيته ينهك تلك القضاة ما لم ينهك غيرها، فرجع إلي فأخبرني، فكنا نعملها له. وكنا نعمل له الهريسة، وكانت تُعجبه، وكان يحضر عشاءه من خمسة إلى ستة إلى عشرة كما يكون الطعام في القلة والكثرة.

وكان أسعد بن زرارة يعمل له هريسة ليلة وليلة لا، فكان رسول الله ﷺ يسأل عنها: أ جاءت قضاة أسعد أم لا؟ فيقال: نعم، فيقول: هلموها؛ فنعرف بذلك أنها تُعجبه.

قَدِمَ صُهَيْبٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَبَاءٍ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، بَيْنَ أَيْدِيهِمْ رُطْبٌ قَدْ جَاءَهُمْ بِهِ كُلثوم بن الهذم أمهات جراذين^(١) وَصُهَيْبٌ قَدْ رَمَدَ فِي الطَّرِيقِ، وَأَصَابَتْهُ مَجَاعَةٌ شَدِيدَةٌ، فَوَقَعَ فِي الرُّطْبِ؛ قَالَ صُهَيْبٌ: فَجَعَلْتُ أَكُلُّ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَرَى إِلَى صُهَيْبٍ يَأْكُلُ الرُّطْبَ وَهُوَ رَمَدٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَأْكُلُ الرُّطْبَ وَأَنْتَ رَمَدٌ؟» فَقَالَ صُهَيْبٌ: أَنَا أَكُلُ بِشَقِّ عَيْنِي الصَّحِيحَةَ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٢).

(١) نوع من الرطب، سمي بذلك لأن نخله يجتمع تحته الجرزان وأم جرزان آخر نخلة بالحجاز إدراكاً.

(٢) في مسند ابن ماجه. ٣ - باب الحمية. حديث رقم: ٣٤٤٣ - عن صهيب؛ قال: قدمت على النبي ﷺ، وبين يديه خبز وتمر. فقال النبي ﷺ: «ادن فكل» فأخذت أكل من التمر. فقال =

وقال الأعشى :

لو أَطْعِمُوا المَنَّ والسَّلْوَى مَكَانَهُمْ ما أَبْصَرَ الناسُ طَعْماً فيهِمْ نَجَعاً
وقال الكُمَيْت :

وما اسْتَنْزَلْتِ في غيرِنا قَدْرُ جارِنا ولا تُفَيْتِ إلّا بنا جِينَ تُنْصَبُ

يقول إذا جاورنا جاراً لم نكلفه أن يطبخ من عنده، ويكون ما يطبخه من عندنا بما نعطيه من اللحم لينصب قدره. ويقال للحيس سويطة. وقال: الرغيفة لبن يطبخ. وقال: هي العصيدة، ثم الحريرة ثم النجيرة، ثم الحسوة. واللوفة: الرطب بالسمن، والسليقة: الدرة تدق وتصلح باللبن، والرصيعة: البر يدق بالفهر ويبل ويطبخ بشيء من السمن، والوجيئة: التمر يوجأ ثم يؤكل باللبن.

وقال أعرابي: ليس من الألبان أخلى من لبن الخلفة. والنخيسة والقطيبة يخلط لبن إبل بلبن غنم.

وقال أعرابي: الحمد لله الذي أغنانا باللبن عما سواه. ويقال أكل خبزاً قفاراً وقفاراً وغبيراً: لا شيء معه وعليه القفار والدمار وسوء الدار؛ وأكل خبزاً جببياً أي فطيراً يابساً. وجاء بتمر فض وفضاً وقد وحث: لا يلزق بفضه بعض.

قال أبو الحسن الطوسي: أخبرني هشام قال: دخل علي فرج الرخجي وقد تعدت واتكأت، فقال: يا أبا عبد الله: إنما تحسن الأكل والاتكاء. قال: فترك الأكل عنده أياماً، وبلغه ذلك، فبعث إلي: إن كنت لا تأكل طعامنا فليس لنا فيك حاجة. قال: «فأكلت شيئاً ثم أتيت» فلم يعتذر مما كان.

قال أبو الحسن: أخبرني الفراء قال: العرب تسمي السكباجة الصعفصة. وأنشد:

أبو مالكٍ يَعتادُنا في الظهائرِ يَجُوءُ فيلْقِي رَحْلَهُ عِنْدَ عامِرٍ^(١)

أبو مالك: الجوع، هكذا تقول العرب ويجيء ويجوء لغتان. وقال الآخر:

رَأَيْتُ الغواني إِذْ نَزَلَتْ جَفُونِي أبا مالِكٍ إِنِّي أَظُنُّكَ دائِبا

أبو مالك هاهنا الشئب.

قال أبو الحسن: أخبرني الثوري عن أبي عبيدة في الحديث الذي يزوي عن عمر بن الخطاب أنه رأى في روث فرسه حبة شعير، فقال: لأجعلن لك في غرز^(٢)

= النبي ﷺ: «تأكل تمرأ وبك رمد؟» قال، فقلت: إنني أمضغ من ناحية أخرى. فتبسم رسول الله ﷺ. في الزوائد: إسناده صحيح، رجاله ثقات.

(١) من أسماء الخبز.

(٢) نوع من النبات.

النَّقِيعَ مَا يَشْغَلُكَ عَنْ شَعِيرِ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ: وَالنَّقِيعُ: مَوْضِعٌ بِالْمَدِينَةِ أَحْمَاهُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ لَخَيْلِ الْمُسْلِمِينَ، خِلَافَ الْبَقِيعِ بِالْبَاءِ.

قَالَ الطَّوْسِيُّ: الْعَرَبُ تَقُولُ: «أَيْدِي الرِّجَالِ أَعْنَاقُهَا» أَي مَن كَانَ أَطْوَلَ عَلَى الْمَائِدَةِ تَنَاوَلَ فَأَكَلَ، الْهَاءُ تَرْجِعُ عَلَى الْإِبِلِ، أَي أَيْدِي الرِّجَالِ أَعْنَاقُ الْإِبِلِ، أَي مَن طَالَ نَالَ.

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: سَأَلْتُ بَعْضَ الْأَكَلَةِ فِيمَن كَانَ يُقَدِّمُ عَلَى مُيسَّرِي: النَّاسُ كَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا جَهَدْتَنِي الْكِظَّةَ - وَالْعَرَبُ تَقُولُ: «إِذَا كُنْتَ بَطْنًا فَعُدَّكَ زَمِينًا؟» قَالَ: أَخَذْتُ زَوْثًا حَارًّا وَأَغْصِرُهُ وَأَشْرَبُ مَاءَهُ، فَأُخْتَلِفُ عَنْهُ مِرَارًا، فَلَا أَلْبَثُ أَنْ يَلْحَقَ بَطْنِي بِظَهْرِي فَأَشْتَهِي الطَّعَامَ.

قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: قَالَ الْكِلَابِيُّ: هُوَ يَنْدِفُ الطَّعَامَ إِذَا أَكَلَهُ بِيَدِهِ، وَيَلْقَمُ الْحَسُوَّ، وَاللَّقْمُ بِالشُّفَّةِ، وَالتَّدْفُ: الْأَكْلُ بِالْيَدِ. وَقَالَ الزَّبِيرِيُّ: يَنْدِفُ.

وَأَنشَدَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ:

وَيَظَلُّ ضَيْفُ بَنِي عُبَادَةَ فِيهِمْ مُتَضَمَّرًا وَيُطَوُّنُهُمْ كُنُومًا

أَي مُمْتَلِئَةً. وَالتَّضَمُّرُ: الْهُزَالُ وَالتَّحَافَةُ، كَالنَّخْلِ الْمُضَمَّرِ، أَي الَّذِي قَدْ ذَوَتْ جُدُوعُهُ. قَالَ الشَّنْبُوذِي فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيدهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. قَالَ: الَّذِينَ يَشْرُدُونَ وَيَأْكُلُ غَيْرُهُمْ. قَالَ أَبُو الْحَسَنِ: كَانَتْ لِي ابْنَةٌ تَجْلِسُ مَعِيَ عَلَى الْمَائِدَةِ فَتَبْرُزُ كَفًّا كَأَنَّهَا طَلَعَتْ، فِي ذِرَاعِ كَأَنَّهَا جُمَارَةٌ، فَلَا تَقَعُ عَيْنُهَا عَلَى أَكَلَةِ نَفْسِي إِلَّا خَصَّنِي بِهَا، فَزَوَّجْتُهَا، وَصَارَ يَجْلِسُ مَعِيَ عَلَى الْمَائِدَةِ ابْنٌ لِي، فَيُبْرُزُ لِي كَفًّا كَأَنَّهَا كِرْنَافَةٌ، فِي ذِرَاعِ كَأَنَّهَا كَرَبَةٌ^(١)، فَوَاللَّهِ إِنْ تَسَبَّقَتْ عَيْنِي إِلَى لُقْمَةٍ طَيِّبَةٍ إِلَّا سَبَقَتْ يَدُهُ إِلَيْهَا.

وَقَالَ أَعْرَابِيُّ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي نَذَرْتُ إِذَا بَلَغْتَنِي نَاقَتِي أَنْ أَنْحَرَهَا وَأَكَلَ مِنْ كَبِدِهَا. قَالَ: «بِسْمَا جَارَتِهَا»^(٢).

(١) الكرنافة: أصول الكرب التي تبقى في جذع النخلة بعد قطع السعف. والكربة: أصول السعف الغلاظ العراض.

(٢) في مسند الإمام أحمد. مسند عمران بن حصين رضي الله تعالى عنهما. عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: كانت امرأة أسرها العدو وكانوا يريحون إبلهم عشاء فأتت الإبل تريد منها بغيراً تركبه فكلما دنت من بعير رغا فتركته حتى أتت ناقة منها فلم ترغ فركبت عليها ثم نجت فقدمت المدينة فلما رآها الناس قالوا ناقة رسول الله ﷺ العضاء قالت إني نذرت أن أنحرها إن الله عز وجل أنجاني عليها قال بسما جزيتها لا نذر لابن آدم فيما لا يملك ولا نذر في معصية الله عز وجل.

أضلَّ أعرابيٌّ بغيراً له، فطلبه، فرأى على باب الأمير بُخْتِيًّا، فأخذه وقال: هذا بعيري، فقال: إنك أضللت بعيراً وهذا بُخْتِي. فقال: لَمَا أَكَلَّ عِلْفَ الأميرِ تَبَخَّتْ. فضحك منه وتركه يعيدُ قوله ويُعْجِبُه.

الكِدْنَةُ: غِلْظُ اللَّحْمِ وَتَرَائِكُهُ، ومنه قول هشام لسالم - وقد رآه فأعجبه جسمه -: ما رأيتُ ذا كِدْنَةٍ أَحْسَنَ مِنْكَ، فما طعامك؟ قال: الْخُبْزُ وَالزَّيْتُ. قال: أَمَا تَأْجِمُه (١)؟ قال: إذا أَجْمْتُهُ تركته حتى أشتهيه، ثم خرج وقد أصاب في جسمه بَرَصاً. فقال: لَقَيْنِي (٢) الْأَحْوَلُ بعينه، فما خَرَجَ هِشَامُ من المدينة حتى صَلَّى عليه.

وقال عبد الأعلى القاص: الفقير مَرَقْتُهُ سِلْقَةٌ، وَغِذَاؤُهُ عُلْقَةٌ، وَخُبْزَتُهُ فِلْقَةٌ، وَسَمَكَتُهُ شِلْقَةٌ، أي كثيرة الشوك.

قال رجاء بن سلمة: الأكلُ في السوقِ حَمَاقَةٌ.

قيل لذؤيب بن عمرو: إنك مُفْلِسٌ لا تَقْدِرُ على قُرْصٍ ولا جُمْعٍ ولا حُفَالَةٍ، وَيَيْتَنكُ عامرٌ بالفأر.

قال علي بن عيسى: الطلاق الثلاث البتة إن كان يمتنعهم من التحول عنه إلا أنهم يسرقون أطعمة الناس يأكلونها في بيته لأمنهم فيه، لأنه لا هراً هناك ولا أحد يأخذ شيئاً ولا يؤذون، وإن لهم لمسقة مملوءة ماء كلما جفت سكب لهم فيها ماء.

جَعَلَ الْخَبَرَ عن الفأر على التلمح، كالخبز عن قوم عُقْلَاء.

وقال النبي ﷺ: «أَكْرِمُوا الْخُبْزَ فَإِنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ وَسَخَّرَ لَهُ بَرَكَاتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» (٣).

وقال آخر:

كَأَنَّ صَوْتَ سَخْبِهَا الْمُنتَاحِ سَعَالُ شَيْخٍ مِنْ بَنِي الْجُلَاحِ
يَقُولُ مِنْ بَعْدِ السُّعَالِ أَح

قال الأصمعي: الرَّجِيعُ: الشَّوَاءُ يُسَخَّنُ ثَانِيَةً. وَالنَّقِيعَةُ مَا يُخْرِزُهُ رَئِيسُ الْقَوْمِ مَنْ الْغَنِيْمَةِ قَبْلَ أَنْ تُقَسَمَ وَالْجَمْعُ نَقَائِعُ. وقال: أنشدني عيسى بن عمر لمعاوية بن صعصعة:

مِثْلُ الذَّرَى لِحَبَّتِ عَرَائِكُهَا لَخَبِ الشُّفَارِ نَقَائِعِ النَّهْبِ

(١) أجم الطعام: مله.

(٢) أي أصابه

(٣) روى السيوطي في الجامع الصغير. باب حرف الألف حديث رقم: ١٤٢٥ - أكرموا الخبز؛ فإن الله أنزله من بركات السماء وأخرجه من بركات الأرض. تصحيح السيوطي: ضعيف.

وقال مُهْلَهْل:

إِنَّا لَنَضْرِبُ بِالسِّيَوفِ رُؤُسَهُمْ ضَرَبَ الْقُدَّارِ نَقِيعَةَ الْقُدَّامِ
الْقُدَّارُ: الْجَزَارُ. وَالْقُدَّارُ: الْمَلِكُ أَيْضاً. وَالْقُدَّامُ: رُؤَسَاءُ الْجِيُوشِ، وَالْوَاحِدُ قَادِمٌ.
وقال مَعْنُ بْنُ أَوْسٍ يَصِفُ هَدِيرَ قَدِيرٍ:

إِذَا التَّطَمَّتْ أَمْوَاجُهَا فَكَأَنَّهَا عَوَائِدُ دُهْمٍ فِي الْمَحَلَّةِ قُيْلُ
إِذَا مَا انْتَحَاهَا الْمُزْمِلُونَ رَأَيْتَهَا لِيُوشِكُ قِرَاهَا وَهِيَ بِالْجَزْلِ تُشْعَلُ
سَمِعَتْ لَهَا لَعَطاً إِذَا مَا تَعَطَمَطَتْ كَهَذِرِ الْجِمَالِ رُزْماً حِينَ تَجْفَلُ
وقال آخَرُ:

إِذَا كَانَ فَضْدُ الْعِرْقِ وَالْعِرْقُ نَاضِبٌ وَكَشَطُ سَنَامِ الْحَيِّ عَيْشاً وَمَعْنِماً
وَكَانَ عَتِيقُ الْقِدِّ خَيْرَ شَوَائِهِمْ وَصَارَ عَبُوقُ الْخُودِ مَاءً مُحَمَّماً
عَقَرْتُ لَهُمْ دُهْمًا مَقَاحِيْدَ جِلَّةً وَعَادَتْ بَقَايَا الْبَزِكِ نُهْباً مُقَسِّمًا

قال: وَإِذَا كَانَ الْفَحْطُ فَصَدُوا الْإِبِلَ وَعَالَجُوا ذَلِكَ الدَّمَّ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِلَاجِ لَهَا كَمَا يَصْنَعُ التُّرْكُ، فَإِنَّهَا تَجْعَلُهُ فِي الْمَضْرَانِ، ثُمَّ تَشْوِيهِ أَوْ تَطْبِخُهُ، فَيُؤْكَلُ كَمَا تُؤْكَلُ التَّقَانِيقُ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وأما قوله: «والعِرْقُ نَاضِبٌ» فَإِنَّمَا يَعْنِي قَلَّةَ الدَّمِّ لِهَزَالِ الْبَعِيرِ، وَكَذَلِكَ جَمِيعَ الْحَيَوَانَ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ دَمًا إِذَا كَانَ بَيْنَ الْمَهْزُولِ وَالسَّمِينِ.
وقالت أُمُّ هِشَامِ السَّلُولِيَّةُ: مَا ذَكَرَ النَّاسُ مَذْكُورًا خَيْرًا مِنَ الْإِبِلِ وَأَجْدَى عَلَى أَحَدٍ بِخَيْرٍ؛ هَكَذَا رُوي.

وقال الأندلسي: إِنْ حَمَلْتُ أَنْقَلْتُ، وَإِنْ مَشْتُ أَبْعَدْتُ، وَإِنْ حَلَبْتُ أَرْوَتُ، وَإِنْ نُجِرْتُ أَشْبَعْتُ.

قال أبو الحسن الهيثم، عن عبد العزيز بن يسار قال: قدمت يا جُمَيْرِي بِخَمْسِ سَفَائِفَ دَقِيقٍ، وَذَلِكَ فِي زَمَنِ مَصْعَبٍ وَهُوَ مُعَسِّكِرٌ بِهَا فَلَقِيَنِي عِكْرِمَةُ بِنْتُ رَبِيعِ الشَّيْبَانِي فَقَالَتْ: بِكُمْ أَخَذْتَهَا؟ قُلْتُ: بِتَسْعِينَ أَلْفًا. قَالَ: فَإِنِّي أُعْطِيكَ مِائَةَ وَخَمْسِينَ أَلْفًا عَلَى أَنْ تُؤَخِّرَنِي. فَدَفَعْتُهُنَّ إِلَيْهِ، وَمَا فِي الْمُعَسِّكِرِ يَوْمئِذٍ دَقِيقٌ. قَالَ: فَجَاءَ بَنُو تَيْمِ اللَّهِ فَأَخَذُوا ذَلِكَ الدَّقِيقَ، فَجَعَلَ كُلُّ قَوْمٍ يَعْجِنُونَ عَلَى حِيَالِهِمْ، ثُمَّ جَاءُوا إِلَى رَهْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَحَفَرُوهَا، ثُمَّ جَعَلُوا فِيهَا الْحَشِيشَ، ثُمَّ طَرَحُوا ذَلِكَ الْعَجِينَ فِيهَا، ثُمَّ أَقْبَلُوا فَأَخَذُوا فَرَسًا وَدَيْقًا^(١). . . . فَخَلَوْا عَنْهُ، ثُمَّ أَقْبَلُوا وَهُوَ يَتَّبَعُهُمْ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْحَفِيرَةِ، فَدَفَعُوا

(١) مِنَ الْوِدَاقِ وَهُوَ شَهْوَةٌ الْفَحْلِ، وَمَوْضِعُ النِّقَاطِ كَلَامٍ سَاقَطٍ مِنَ الْأَصْلِ.

الفرس الوديق فيها، وتبعها الفرس، وتنادى الفريقان: إن فرس حوشب وقع في حفيرة عكرمة فما أخرجوه إلا بالعمد. قال: فغلبه عكرمة.

قال الشاعر:

لا أشتم الضيف إلا أن أقول له: أباتك الله في أبيات عمار
أباتك الله في أبيات معتنيز عن المكارم لا عف ولا قاري
جلد الندى زاهد في كل مكرمة كأنما ضيفه في ملة النار

وقال آخر:

وهو إذا قيل له: ونها كل فإنه مواشك مستعجل
وهو إذا قيل له: ونها فل فإنه أخرج به أن ينكل

قيل لصوفي: ما حد الشبع؟ قال: لا حد له، ولو أراد الله أن يؤكل بحد لبين كما بين جميع الحدود. وكيف يكون للأكل حد، والأكله مختلفوا الطباع والمزاج والعارض والعادة، وحكمة الله ظاهرة في إخفاء حد الشبع حتى يأكل من شاء على ما شاء كما شاء.

وقيل لصوفي: ما حد الشبع؟ فقال: ما نشط على أداء الفرائض، وثبط عن إقامة التوافل.

وقيل لمتكلم: ما حد الشبع؟ فقال: حده أن يجلب النوم، ويضجر القوم، ويبعث على اللوم.

وقيل لطفيلي: ما حد الشبع؟ قال: أن يؤكل على أنه آخر الزاد، ويؤتى على الجل والدق.

وقيل لأعرابي: ما حد الشبع؟ قال: أما عندكم يا حاضرة فلا أذري، وأما عندنا في البادية فما وجدت العين، وامتدت إليه اليد، ودار عليه الضرس وأساعه الحلق، وانتفخ به البطن، واستدارت عليه الحوايا، واستغاثت منه المعدة، وتقوست منه الأضلاع، والتوت عليه المصارين، وخيف منه الموت.

وقيل لطبيب: ما حد الشبع؟ قال: ما عدل الطبيعة، وحفظ المزاج وأبقى شهوة لما بعد.

وقيل لقصار: ما حد الشبع؟ قال: أن تثب إلى الجفنة كأنك سرحان وتأكل وأنت غضبان، وتمضغ كأنك شيطان، وتبلع كأنك هيمنان، وتدع وأنت سكران، وتستلقي كأنك أوان.

وقيل لحمال: ما حد الشبع؟ قال: أن تأكل ما رأيت بعشر يديك غير عائف ولا متقزز، ولا كاره ولا متعزز.

وقيل لمَلّاح: ما حدُّ الشَّبَعِ؟ قال: حدُّ السُّكَّرِ. قيل: فما حدُّ السُّكَّرِ؟ قال: أَلَا تَعْرِفُ السَّمَاءَ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَا الطُّوْلَ مِنَ الْعَرْضِ، وَلَا النّافِلَةَ مِنَ الْقَرْضِ، مِنْ شِدَّةِ التُّهْسِ وَالْكَسْرِ وَالْقَطْعِ وَالْقَرْضِ. قيل له: فَإِنَّ السُّكَّرَ مُحَرَّمٌ، فَلِمَ جَعَلْتَ الشَّبَعِ مِثْلَهُ؟ قال: صَدَقْتُمْ، هُمَا سُكَّرَانِ: أَحَدُ السُّكَّرَيْنِ مَوْصُوفٌ بِالْعَيْبِ وَالْخَسَارِ، وَالْآخَرُ مَعْرُوفٌ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ. قيل له: أَمَا تَخَافُ الْهَيْضَةَ؟ قال: إِنَّمَا تُصِيبُ الْهَيْضَةُ مَنْ لَا يَسْمِي اللَّهَ عِنْدَ أَكْلِهِ، وَلَا يَشْكُرُهُ عَلَى النِّعْمَةِ فِيهِ. فَأَمَّا مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ وَشَكَرَهُ فَإِنَّهُ يَهْضِمُ وَيَسْتَمِرُّ وَيَقْرُمُ إِلَى الزِّيَادَةِ.

وقيل لبخيل: ما حدُّ الشَّبَعِ؟ قال: الشَّبَعُ حَرَامٌ كُلُّهُ، وَإِنَّمَا أَحَلَّ اللَّهُ مِنَ الْأَكْلِ مَا نَفَى الْخَوْىَ، وَسَكَّنَ الصُّدَاعَ، وَأَمْسَكَ الرَّمَقَ، وَحَالَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ الْمَرْحِ، وَهَلَّكَ النَّاسَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا إِلَّا بِالشَّبَعِ وَالتَّضَلُّعِ وَالبِطْنَةِ وَالاِحْتِشَاءِ، وَاللَّهُ لَوْ كَانَ لِلنَّاسِ إِمَامٌ لَوَكَّلَ بِكُلِّ عَشْرَةٍ مِنْهُمْ مَنْ يَحْفَظُ عَلَيْهِمْ عَادَةَ الصِّحَّةِ، وَحَالَةَ الْعَدَالَةِ، حَتَّى يَزُولَ التَّعَدِّيُّ، وَيَفْشُو الْخَيْرُ.

وقيل لجُنْدِيٍّ: ما حدُّ الشَّبَعِ؟ قال: ما شَدَّ الْعَضُدَ، وَأَخَمَى الظَّهْرَ، وَأَدْرَأَ الْوَرِيدَ، وَزَادَ فِي الشَّجَاعَةِ.

وقيل لزاهد: ما حدُّ الشَّبَعِ؟ قال: ما لَمْ يَحُلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ صَوْمِ النَّهَارِ وَقِيَامِ اللَّيْلِ. وَإِذَا شَكَا إِلَيْكَ جَائِعٌ عَرَفْتَ صِدْقَهُ لِإِحْسَاسِكَ بِهِ.

وقيل لمَدَنِيٍّ: ما حدُّ الشَّبَعِ؟ فقال: لا عَهْدَ لِي بِهِ، فَكَيْفَ أَصِفُ مَا لَا أَعْرِفُ؟
وقيل لِمَنِيٍّ: ما حدُّ الشَّبَعِ؟ قال: أَنْ يُخْشَى حَتَّى يُخْشَى.
وقيل لثُرَكِيٍّ: ما حدُّ الشَّبَعِ؟ قال: أَنْ تَأْكَلَ حَتَّى تَدُنُوَ مِنَ الْمَوْتِ.
وقيل لِسِمَوِيهِ الْقَاصِّ: مَنْ أَفْضَلُ الشَّهَدَاءِ؟ قال: مَنْ مَاتَ بِالتَّخَمَةِ، وَدُفِنَ عَلَى الْهَيْضَةِ.

قيل لسَمَرْقَنْدِيٍّ: ما حدُّ الشَّبَعِ؟ قال: إِذَا جَحَظْتَ عَيْنَكَ، وَبِكَمَ لِسَانَكَ، وَثَقَلَتْ حَرَكَتُكَ، وَازْجَحَنَ بَدَنُكَ، وَزَالَ عَقْلُكَ، فَأَنْتَ فِي أَوَائِلِ الشَّبَعِ. قيل له: إِذَا كَانَ هَذَا أَوَّلَهُ، فَمَا آخِرُهُ؟ قال: أَنْ تَنْشَقَّ نِصْفَيْنِ.

قيل لهنديٍّ: ما حدُّ الشَّبَعِ؟ قال: الْمَسْأَلَةُ عَنْ هَذَا كَالْمُحَالِ، لِأَنَّ الشَّبَعِ مِنَ الْأَرُزِّ النَّقِيِّ الْأَبْيَضِ، الْكَبَارِ الْحَبِّ، الْمَطْبُوحِ بِاللَّبَنِ الْحَلِيبِ، الْمَعْرُوفِ عَلَى الْجَامِ الْبِلُّورِ، الْمَدُوفِ^(١) بِالسُّكَّرِ الْفَاتِقِ، مُخَالَفٌ لِلشَّبَعِ مِنَ السَّمَكِ الْمَمْلُوحِ وَخُبْزِ الدَّرَّةِ، وَعَلَى هَذَا يَخْتَلِفُ الْأَمْرُ فِي الشَّبَعِ. فَقِيلَ لَهُ: فَدَعْ هَذَا، إِلَى مَتَى يَنْبَغِي أَنْ يَأْكَلَ الْإِنْسَانُ؟ قال: إِلَى أَنْ يَقَعَ لَهُ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ لُقْمَةً زَهَقَتْ نَفْسُهُ إِلَى النَّارِ.

قيل لمُكَّارٍ: ما حَدَّ الشَّبَعِ؟ قال: واللَّهِ ما أَذْرِي، ولكنَّ أُحِبُّ أَنْ أَكَلَ ما مَسَى
جِمَارِي مِنَ المَنْزِلِ إِلَى المَنْزِلِ.

قيل لجمَّالٍ: ما حَدَّ الشَّبَعِ؟ قال: أنا أُوَاصِلُ الأَكَلَ فما أَعْرَفُ الحَدَّ، ولو كُنْتُ
أَنْتَهي لَوَصَفْتُ الحَالِ فِيهِ، أَعْنِي أَنِي سَاعَةٌ أَلْتُ الدَّقِيقَ، وسَاعَةٌ أَمَلَّ المَلَّةَ، وسَاعَةٌ
أَثْرُدُ، وسَاعَةٌ أَكَلُ وسَاعَةٌ أَشْرَبُ لَبَنَ اللُّقَاحِ؛ فليس لي فَرَاغٌ فَأَدْرِي أَنِي بَلَغْتُ مِنَ
الشَّبَعِ، إِلَّا أَنِّي أَعْلَمُ فِي الجُمْلَةِ أَنَّ الجُوعَ عَذَابٌ وَأَنَّ الأَكَلَ رَحْمَةٌ، وَأَنَّ الرَّحْمَةَ كُلَّمَا
كَانَتْ أَكْثَرَ، كَانَ العَبْدُ إِلَى اللَّهِ أَقْرَبَ، وَاللَّهُ عَنْهُ أَرْضَى.

قال الوزير لَمَّا بَلَغْتُ هَذَا المَوْضِعَ مِنَ الجُزْءِ - وَكُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ -: ما أَحْسَنَ ما
اجْتَمَعَ مِنْ هَذِهِ الأَحَادِيثِ! هل بَقِيَ مِنْها شَيْءٌ؟ قلت: بَقِيَ مِنْها جِزْءٌ آخِرٌ.

قال: دَعُهُ لَلَّيْلَةِ أُخْرَى وَهَاتِ مُلْحَةَ الوُدَاعِ.

قلت: قيل لَصُوفِيٍّ فِي جَامِعِ المَدِينَةِ: ما تَشْتَهِي؟ قال: مائِدَةٌ رَوْحَاءٌ عَلَيْها جَفْنَةٌ
رَحَاءٌ، فِيها ثَرِيدَةٌ صَفْرَاءٌ، وَقِدْرٌ حَمْرَاءٌ بِيضَاءٌ.

قال: أُبَيِّنُ الآنَ أَلَا تَوَدُّعٍ إِلَّا بِمِثْلِ ما تَقَدَّمَ؟ وانصرفتُ.

الليلة الثانية والثلاثون

ثم حضرتُ فقُرأتُ ما بقيَ من هذا الفنّ .
قال رجلٌ من فزارة :

تَنْبَحُ أحياناً وأحياناً تَهْرُ وتَمَطِّي ساعةً وتَفْدَجِرُ
تَعْدُو على الضَّيفِ بعودٍ مُنكسرٍ يَسْقُطُ عنها ثوبُها وتَأْتِرُ
لو نُجِرَتْ في بيتِها عَشْرُ جُرُزٍ لأضَبَحَتْ مِن لَحْمِهِنَّ تَغْتَذِرُ
بَحَلِيفِ سَحٍّ ودَمَعِ مُنْهَمِرٍ يَفِرُّ مَنْ قَاتَلَهَا وَلَا تَفِرُ
المُفْدَجِرُ: المتهيجُ للسَّبَابِ .

وقال أبو ذُلامة الأَسَدِيّ .

قد يُشْبِعُ الضَّيفَ الَّذِي لَا يَشْبَعُ مِنِ الهَيْبِ والْجِرَادِ تَسَعُ
ثم يقول أَرْضُوا بهذا أو دَعُوا

وقال آخر :

حتى إذا أَضْحَى تَدْرَى واكْتَحَلَ لْجَارَتَيْهِ ثم وَلَّى فَتَنَثَلَ
ذَرَقَ الأَثْوَقِينَ القَرْنَبِيّ والجَعَلَ

وقال آخر :

إذا أَتَوْهُ بِطَعَامٍ وَأَكَلَ باتِ يُعْشِي وَحَدَهُ أَلْفِي جُعَلَ
وقال أبو النجم :

تُدْنِي مِنَ الجَدُولِ مِثْلَ الجَدُولِ أَجُوفَ فِي عُلْصَمَةٍ كالمِرْجَلِ
تَسْمَعُ لِلْمَاءِ كصَوْتِ المِسْحَلِ بَيْنَ وَرِيدَيْهَا وَبَيْنَ الجَحْفَلِ
يُلْقِيهِ مِنْ طُرُقِ أَتْشَا مِنْ عَلٍ قَذْفُ لَهَا جَوْفٍ وَشِدْقٍ أَهْدَلِ
كَأَنَّ صَوْتَ جَرْعِهَا المُسْتَعْجَلِ جَنْدَلَةٌ دَهْدَهَتْهَا فِي جَنْدَلِ

وقال آخر :

يقول للطاهي المُطْرَبِيّ فِي العَمَلِ ضَهَبَ لَنَا إِنَّ الشُّوَاءَ لَا يُمَلُ
بالشَّخْمِ إمَّا قد أَجْمَنَاهُ بِحَلِ عَجَّلَ لَنَا مِنْ ذَا وَأَلْحِقْ بِالْبَدَلِ

وأنشد ابن الأعرابي:

وَالجَارِ وَالصَّاحِبِ وَالصَّدِيقِ أَعَدَدْتُ لِلضَّيْفِ وَلِلرَّفِيقِ
حَمْرَاءَ مِنْ مَعْرِ أَبِي مَرْزُوقِ وَلِلْعِيَالِ الدَّرْدَقِ اللَّصُوقِ
بَلَيْنِ الْمَسِّ قَلِيلِ الرِّيقِ تَلَحَّسُ خَدَّ الحَالِبِ الرَّفِيقِ
فَحَيْحُ ضَبُّ حَرْبِ حَنِيقِ كَأَنَّ صَوْتَ شُخْبِهَا الفَتِيقِ
فِي جُحْرِ ضَاقٍ أَشَدَّ الضُّيقِ

وأنشد أيضاً:

وَشَكْوَةٌ بَارِدَةٌ التَّسْيِي هَلْ لَكَ فِي مِقْرَاةٍ قَنِيلِ نِي
حَتَّى تَرَاهُ نَاهِدَ التُّدْيِي تُخْرِجُ لَحْمَ الرَّجُلِ الضُّوْيِي
وَأَنشَدَ ابْنُ حَبِيبٍ:
نِعْمَ لَقُوحُ الصُّبْنِيَةِ الْأَصَاغِرِ وَشَرُوبُهُمْ مِنْ حَلَبِ وَحَازِرِ
حَتَّى يَرُوحُوا سَقَطَ المَآزِرِ وَضَعِ الفِقَاحِ نُشْزِ الحَوَاصِرِ
وَأَنشَدَ الأَمْدِيُّ:

كَأَنَّ فِي فِيهِ حِرَاباً شُرْعَا زُرْقَا تَفُضُّ البَدَنَ المُدْرَعَا
لَوْ عَضَّ رُكْنَا وَصَفَا تَصَدَّعَا

وقال محمد بن بشير:

لَقَلَّ عَاراً إِذَا ضَيَّفَ تَضَيَّفَنِي مَا كَانَ عِنْدِي إِذَا أُعْطِيتُ مَجْهُودِي
فَضْلُ المُقِلِّ إِذَا أُعْطَاهُ مُضْطَبِّراً وَمُكْثِرِ فِي الغِنَى سَيَّانِ فِي الجُودِ
لَا يَعْدَمُ السَّائِلُونَ الخَيْرَ أَفْعَلَهُ إِمَا نَوَالِي وَإِمَا حُسْنَ مَرْزُودِي
قال الأعرابي: نِعْمَ العَدَاءُ السُّوَيْقِ، إِنْ أَكَلْتَهُ عَلَى الجُوعِ عَصَمَ، وَإِنْ أَكَلْتَهُ عَلَى الشَّبَعِ هَضَمَ.

وقال العوامي - وكان زوّاراً لإخوانه في منازلهم -: العُبُوسُ بُوسٌ، والبِشْرُ بُشْرَى، والحَاجَةُ تَفْتَقُ الحِجْلَةَ، والحِجْلَةُ تَشْحَدُ الطَّبِيعَةَ.

ورأيت الحنبليوني يُنشد ابن آدم - وكان مُوسِراً بخيلاً -:

وَمَا لِمَرِيٍّ طُولُ الخُلُودِ وَإِنَّمَا يُخَلِّدُهُ حُسْنُ التَّنَاءِ فَيَخَلِّدُ
فَلَا تَدَخِرُ زَاداً فَتُضْبِحُ مُلْجَأً إِلَيْهِ وَكُلُّهُ اليَوْمِ يُخَلِّفُهُ العَدُّ

وحكى لنا ابن أسادة قال: كان عندنا - يعني بأصفهان - رَجُلٌ أَعْمَى يَطُوفُ وَيَسْأَلُ، فَأَعْطَاهُ مَرَّةً إِنْسَانٌ رَغِيفاً، فَدَعَا لَهُ وَقَالَ: أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَبَارَكَ عَلَيْكَ،

وجزاك خيراً، وردَّ غُزْبَتِكَ. فقال له الرَّجُلُ: ولمَ ذَكَرْتَ الغُزْبَةَ في دُعائك، وما عَلِمْتُكَ بالغُزْبَةِ؟ فقال: الآن لي هاهنا عشرون سَنَةً ما ناولتني أحدٌ رَغيفاً صحيحاً.

وقال آخر:

يُرَى جَارُهُمْ فِيهِمْ نَحِيفاً وَضَيْفُهُمْ يَجُوعُ وَقَدْ بَاتُوا مِلاءَ الْمَدَاخِرِ
وقال الكَرَوَسيُّ:

وَلَا يَسْتَوِي الْأَثْنَانِ لِلضَّيْفِ: آئِسٌ كَرِيمٌ، وَزَاوٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ قَاطِبٌ
وَأُنشِدُ:

طَعَامُهُمْ فَوْضَى فَوْضَى فِي رِحَالِهِمْ وَلَا يُخْسِنُونَ السُّرَّ إِلَّا تَنَادِيَا
وَأُنشِدُ آخَرَ:

يُمانٌ وَلَا يَمُونُ وَكانَ شَيْخاً شَدِيدَ اللَّقْمِ هَلْقَماً بَطِيناً
العرب تقول: إذا شَبِعَتِ الدَّقِيقَةُ لَحَسَتِ الحَلِيلَةَ.

قال ابنُ سَلامٍ: كان يُخَبِزُ في مَطْبَخِ سُلَيْمانَ - عليه السلام - في كلِّ يومٍ سِتْمائةَ كُرٍّ حِنْطَةً، وَيُدْبَحُ له في كلِّ عَدَاةٍ سِتَّةُ آلافِ ثُورٍ وعشرون شاةً، وكان يُطْعَمُ النَّاسَ وَيُجْلِسُ عَلَيَّ ما نَدَتَهُ بجانِبِهِ اليَتامى والمساكينَ وأبناءَ السَّبيلِ، ويقولُ لِنَفْسِهِ: مَسْكِينُ بَيْنَ مَساكينَ.

ولما وَرَدَ تِهامةَ وافي الحَرَمَ وَذَبَحَ لِلبَيْتِ طَوَلَ مُقامِهِ بِمَكَّةَ كُلَّ يَوْمٍ خَمسةَ آلافِ نَاقَةَ وخمسةَ آلافِ ثُورٍ وعشرين ألفَ شاةٍ. وقال لمن حَضَرَ: إِنَّ هَذا المَكانَ سَيَخْرُجُ مِنْهُ نَبِيٌّ صِفَتُهُ كذا وكذا.

وقال أعرابي:

وَإِذا حَشِيتَ مِنَ الفِؤادِ لَجَاجَةً فَاضْرِبْ عَلَيهِ بِجُرْزَعَةٍ مِنْ رَائِبِ
وروى هشيمُ أَنَّ النَبِيَّ - ﷺ - قال: مِنْ كَرَمِ المَرءِ أَنْ يَطِيبَ زادَهُ في السَّفَرِ.
وقال ابنُ الأعرابي: يقال: جاءَ فلانٌ ولقد لَعَطَ رِباطَهُ مِنَ الجِوعِ والعَطَشِ.
وَأُنشِدُ:

رَبِّا الجِوعُ في أَوْتِنِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ جَنِيبٌ بِهِ إِنَّ الجَنِيبَ جَنِيبُ
أي جاع حتى كأنه يمشي في جانبٍ متعقفاً^(١).

وقال أيضاً: إِنَّ مِنْ شُومِ الضَّيْفِ أَنْ يَغِيبَ عَنِ عِشاءِ الحَيِّ، أي لا يُذَرِكُهُ، فَيُرِيدُ إِذا جاءَهُمْ أَنْ يَتَكَلَّفُوا لَهُ عِشاءً عَلَيَّ حِدَةً.

(١) متعقفاً أي معرجاً.

وأنشد:

حَيَّاكَ رَبُّكَ واضطَبَّخْتَ ثَرِيدَةً وَإِدَامُهَا رَزُّ وَأَنْسَتْ تُدَبِّلُ
وَاللَّقْمَةَ وَاللَّقْمَةَ إِذَا جُمِعَتَا مِنَ الثَّرِيدِ وَالْعَصَائِدِ يُقَالُ لِهَٰمَا ذُبْلَةٌ، وَمِنْهُ سَمِيَتْ
الدُّبَيْلَةُ، وَهِيَ الْوَرَمُ الَّذِي يَخْرُجُ بِالنَّاسِ. وَأَنْشَدَ:
أَقُولُ لِمَا ابْتَرَكُوا جُنُوحًا بِقَضَعَةٍ قَدْ طُفِّحَتْ تَطْفِيحًا
دَبَّلُ أَبَا الْجَوَزَاءِ أَوْ تَطْيِحًا

وقال الفرزدق:

فَدَبَّلْتُ أَمْثَالَ الْأَثَافِيِّ كَأَنَّهَا رُؤُوسُ أَعَادٍ قُطِعَتْ يَوْمَ مَجْمَعِ
وقال سعيد بن المسيب: قال رسول الله ﷺ: «أطيبوا الطعام فإنه أنقى
للشُحط، وأجلبُ للشُكر، وأزضى للصاحب».

قال بشار:

يَعْصُ إِذَا نَالَ الطَّعَامَ بِذِكْرِكُمْ وَيَشْرَقُ مِنْ وَجْدِ بَكْمٍ حِينَ يَشْرَبُ
المسعود: الجائع. قال هميان بن قحافة:
لَأَقِي صِحَافًا بَطْنًا مَسْعُورًا

وقال شاعر:

يَمَشِي مِنَ الْبِطْنَةِ مَشْيَ الْأَبْرُخِ
البرخ: دخول البطن وخروج الثنية أسفل السرة.
وقال آخر:

أَعْرُ كَمَصْبَاحِ الدُّجْنَةِ يَتَّقِي شَدَى الزَّادِ حَتَّى تُسْتَفَادَ أَطْيِبُهُ
شدهاء: طيبه.

وقال أعرابي: بنو فلان لا يبرزون ولا يقدرُونَ^(١).

وقال الثوري: بطنوا غداءكم بشربة.

وقال الشاعر:

لَا يَسْتَوِي الصَّوْتَانِ حِينَ تَجَاوَبَا صَوْتُ الْكَرِيبِ وَصَوْتُ ذَنْبِ مُقْفِرِ
الكريب: الشوبق وهو المخور والمستطح.
وقال الشاعر:

إِذَا جَاءَ بَاغِي الْخَيْرِ قُلْنَا بِشَاشَةً لَهُ بَوِجُوهُ كَالدَّنَانِيرِ: مَرْحَبًا

(١) لا يبرزون: من بزر القدر إذا رميت فيها البزر، ولا يقدرُونَ من القدر وهو الطبخ في القدر.

وأهلاً فلا ممنوعَ خير تريده ولا أنت تَحْشَى عندنا أن نُؤوِّبَا
قال الشعبي: استَسْقَيْتِ عَلَى خِوَانِ قُتَيْبَةَ، فقال: ما أَسْقِيكَ؟ فقلت: الهَيْنُ
الوُجْد، العَزِيزُ الْفَقْد، فقال: يا غلام، اسْقِهِ الماء.

مَرَّ مِسْكِينٌ بِأَبِي الْأَسْوَدِ لَيْلًا وَهُوَ يَنَادِي: أَنَا جَائِعٌ! فَادْخَلْهُ وَأَطْعِمْهُ حَتَّى شَبِعَ،
ثم قال له: انْصَرِفْ إِلَى أَهْلِكَ، وَأَتْبَعَهُ غُلَامًا وَقَالَ لَهُ: إِنْ سَمَعْتَهُ يَسْأَلُ فَارْزُدْهُ إِلَيَّ.
فلما جَاوَزَهُ الْمَسْكِينُ سَأَلَ كِعَادَتَهُ، فَتَشَبَّثَ بِهِ الْغُلَامُ وَرَدَّهُ إِلَى أَبِي الْأَسْوَدِ. فقال: أَلَمْ
تَشْبِعْ؟ فقال: بلى. قال: فما سُؤَالُكَ؟ ثم أَمَرَ بِهِ فَحَبَسَ فِي بَيْتٍ وَأَغْلَقَ عَلَيْهِ الْبَابَ،
وقال: لَا تُرَوِّعْ مُسْلِمًا سَائِرَ اللَّيْلَةِ وَلَا تَكْذِيبَ. فلَمَّا أَصْبَحَ حَلَّى سَبِيلَهُ، وقال: لَوْ
أَطَعْنَا السُّؤَالَ صِرْنَا مِثْلَهُمْ.

وَسَمِعَ دَابَّةً لَهُ تَغْتَلِفُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فقال: إِنِّي لِأَرَاكَ تَسْهَرِينَ فِي مَالِي
وَالنَّاسُ نِيَامٌ، وَاللَّهُ لَا تُضْبِحِينَ عِنْدِي. وباعها.

وأبو الأسود يُعَدُّ فِي الشُّعْرَاءِ وَالتَّابِعِينَ وَالمُحَدِّثِينَ وَالبُخَلَاءِ وَالمَقَالِيجِ وَالنَّحْوِيِّينَ
وَالْقَضَاةِ وَالعُرْجِ وَالمُعَلِّمِينَ.

وقال الشاعر:

أَنْفِقْ أَبَا عَمْرٍو وَلَا تَعَدَّرَا وَكُلْ مِنَ الْمَالِ وَأَطْعِمْ مَنْ عَرَا
لَا يَنْفَعُ الدُّزْهَمُ إِلَّا مُذْبِرًا

كان مُسْلِمٌ بِنِ قُتَيْبَةَ لَا يَجْلِسُ لِحَوَائِجِ النَّاسِ حَتَّى يَشْبِعَ مِنَ الطَّعَامِ الطَّيِّبِ،
وَيَرُوزِي مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ، وَيَقُولُ: إِنْ الْجَائِعُ ضَيَّقَ الصَّدْرَ، فَقَيِّرُ النَّفْسَ، وَالشَّبْعَانَ
وَأَسْعُ الصَّدْرَ، غَنِّي النَّفْسَ.

وقال أعرابي:

هَلَكْتُ هَرِيئَةً^(١) وَهَلَكْتُ جُوعًا وَخَرَّقَ مِغْدَتِي شَوْكُ الْقَتَادِ
وَحَبَّةُ حَنْظَلٍ وَلِبَابُ قَطْنِ

وقال الفرزدق:

وَإِنْ أَبَا الْكِزْشَاءِ لَيْسَ بِسَارِقٍ وَلَكِنَّهُ مَا يَسْرِقُ الْقَوْمُ يَأْكُلُ
وَلَدِيكَ الْجِنِّ:

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْبَيْتِ مِلْحٌ مُطَيَّبٌ وَخَلُّ وَزَيْتٌ حَوْلَ حُبِّ دَقِيقِ
فِرَاسُ ابْنِ أُمِّي فِي جِرَامِ ابْنِ خَالْتِي

وقال آخر:

وما جيرة إلا كليب بن وائل ليالي تحمي عزة منبت البقل
وقال مسعر بن مقدم لرقبة بن مضقلة: أراك طفيلياً. قال: يا أبا محمد، كل
من ترى طفيلي إلا أنهم يتكاثمون.

وقال شاعر:

قوم إذا آتسوا ضيفاً فلم يجدوا إلا دم الرأس صبوه على الباب
قال المفجع: الرأس الرئيس.

اشتد بأبي فرعون الشابي الحال فكتب إلى بعض القضاة بالبصرة:

يا قاضي البصرة ذا الوجه الأعز إليك أشكو ما مضى وما عجز
عفا زماناً وشتاء قد حضر إن أبا عمرة^(١) في بيتي انحجز
يضرب بالدف وإن شاء رمز فاطرده عني بدقيق ينتظر
فأجابه إلى ما سأل.

ويقال: وقف أعرابي على حلقة الحسن البصري رحمه الله عليه فقال: رحم
الله من أعطى من سعة، وواسى من كفاف، وآثر من قلة. فقال الحسن: ما أبقى
أحداً إلا سأله.

وقال ابن حبيب: يقال أحمق من الصبغ، وذلك أنها وجدت تودية في غدير،
فجعلت تشرب الماء وتقول: «يا حبذا طعم اللبن» حتى انشق بطنها فماتت.
والتودية: العود يشد على رأس الخلف^(٢) لئلا يرضع الفصيل أمه.

دعا رجل آخر فقال له: هذه تكسب الزيارة وإن لم تسعد، ولعل تقصيراً أنفع
فيما أجب بلوغه من برك. فقال صاحبه: حرصك على كرامتي يكفيك مؤونة
التكلف لي.

قيل لأعرابي: لو كنت خليفة كيف كنت تصنع؟ قال: كنت أستكفي شريف كل
قوم ناحيته، ثم أخلو بالمطبخ فأمر الطهارة فيغظمون التريدة ويكثرون العراق^(٣)، فأبداً
فأكل لقمأ، ثم أذن للناس، فأبي ضياع يكون بعد هذا؟!!

وقال أعرابي لابن عم له: والله ما جفانكم بعظام، ولا أجسامكم بوسام، ولا
بذت لكم نار، ولا طولبتم بثار.

(١) كناية عن الجوع.

(٢) الخلف: الضرع.

(٣) جمع عرق وهو العظم الذي أكثر ما عليه من اللحم وبقي عليه شيء يسير.

وقيل لأعرابي: لِمَ قالت الحاضرة للعبد: باعَكَ اللَّهُ في الأعراب؟ قال: لأنَّا نُعْرِي جِلْدَه، ونُطِيلُ كَدَه، ونُجِيعُ كَيْدَه.

وقال طفيلي: إذا حُدُنْتُ على المائدة فلا تزد في الجواب على نعم، فإنَّك تكون بها مؤانساً لصاحبك، ومُسيغاً لِلْقَمَتِك، ومُقبِلاً على شأنك.

وقيل لأعرابي: أيُّ شيءٍ أَحَد؟ قال: كَيْدٌ جائعة، تُلقِي إلى أَمْعاءِ ضالِعة^(١).

وقيل لآخر: أيُّ شيءٍ أَحَد؟ قال ضِرْسُ جائع، يُلقِي إلى مِعَى ضالِع وقال آخر:

أَحِبُّ أَنْ أَضْطَادَ ضَبًّا سَخْبَلًا وَوَزَلًا يَزْتَادُ رَمَلًا أَرْمَلًا

قالت سُلَيْمَى لا أَحِبُّ الْجَوْزَلَا ولا أَحِبُّ السَّمَكاتِ مَأْكَلَا

الْجَوْزَلُ: فَرْخُ الْحَمَامِ. وَالْوَزَلُ: دابة. أَرْمَلُ: صِفَةُ لِلْوَزَلِ. وإذا كان كذلك كان أَسْمَنَ له، وهو يَسْفِدُ فَيَهْزُلُ.

ويقال: أَقْبَحُ هَزِيلَيْنِ: المرأةُ وَالْفَرَسُ، وَأَطْيَبُ غَثِّ أَكْلِ غَثِّ الإِبِلِ، وَأَطْيَبُ

الإِبِلِ لِحْمًا ما أَكَلَ السَّعْدان^(٢)، وَأَطْيَبُ الْغَنَمِ لَبَنًا ما أَكَلَ الْحُرْثُ.

ويقال: أَهْوَنُ مَظْلُومٍ سِقَاءُ مُرَوِّبٍ، وهو الذي يُسْقَى منه قبل أن يُمَخَّضَ

وَتُخْرِجَ رُبْدَتُهُ.

ويقال: سَقانا ظليمةً وَطِبِه، وقد ظَلِمْتُ أَوْطُبُ الْقَوْمِ.

وقال الشاعر:

وصاحبِ صِدْقٍ لم تَنلنِي شِكاثَه ظَلِمْتُ وفي ظَلَمِي له عامِداً أَجْرُ

يعني وَطَبَ لَبِنِ.

وكان الحسنُ البَصْرِيُّ إذا طَبَخَ اللحمَ قال: هَلُمُّوا إلى طعامِ الأحرارِ.

قال سفيانُ الثَّورِيُّ: إنِّي لأَلْقَى الرَّجُلَ فيقول لي مرحباً فيلِينُ له قلبي، فكيف

بمن أَطأ بِسَاطِه، وأَكَلَ ثَريدَه، وأَزْدَرِدُ عَصيدَه؟

حكى أبو زيد: قد هَجَأَ عَزْثِي^(٣): إذا ذَهَبَ، وقد أَهَجَأَ طَعامُكم عَزْثِي: إذا

قَطَعَه. قال الشاعر:

فَأَخْزاهُم رِبي ودَلَّ عليهمُ وَأَطَعَمَهُم مِن مَطْعَمِ غيرِ مُهْجِي

قال: ويقال: بَأَزْتُ بُؤْرَةَ فانا أَبأَرُها، إذا حَفَرْتَ حَفِيرَةَ يُطَبَخُ فيها وهي الإِرَة.

ويقال: أُرْتُ إِرَةً فانا أُرُها وَأَرَأا.

(١) أي قوية.

(٢) نوع من أنواع النبات، وهو من أفضل مراعي الإبل.

(٣) الغرث: الجوع.

وقال حسان:

تَخَالَ قُدُورَ الصَّادِ حَوْلَ بَيْوتِنَا قَنَابِلٌ^(١) دُهِمًا فِي المَبَاءِ ضِيْمًا
قال أبو عبيدة: كان الأصمعي بخيلاً، وكان يجمع أحاديث البخلاء ويوصي بها
ولده ويتحدث بها.

وكان أبو عبيدة إذا ذكر الأصمعي أنشد:

عَظَمَ الطَّعَامَ بَعَيْنِهِ فَكَأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ لِلأَكْلِينَ طَعَام
ويقال: أسأزت، إذا أبقيت من الطعام والشراب أو غيرهما، والاسم
السُّورُ وجماعته الأسار. ويقال: فأذت الخبزة في الملة^(٢) أفأذها إذا خبزتها
فيها. والمفاد: الحديدية التي يُخبزُ بها ويُشوى. ويقال: تملأت من الأكل
والشراب تملؤاً، إذا شبعت منهما وامتلأت. ويقال: لفأت اللحم عن العظم لفأً
إذا جلفت اللحم عن العظم. واللَّفِيئَةُ هي البضعة التي لا عظم فيها نحو
النخضة والهبرة والوذرة.

وأنشد يعقوب:

سَقَى اللُّهُ العَضَا وَخُبُوتِ قَوْمٍ مَتَى كَانَتْ تَكُونُ لَهُم دِيَارَا
أُنَاسٌ لَا يُنَادِي الضَّيْفُ فِيهِمْ وَلَا يَفْرُونَ أَنِيَّةً صِغَارَا
قال الأصمعي: قال ابن هبيرة: تعجيل الغداء يزيد في المروءة، ويطيب النكحة،
ويعين على قضاء الحاجة.

قال بعض العرب: أطيب مضغة أكلها الناس صيحانية^(٣) مُصَلِّبَةٌ.

ويقال: آكل الدواب، بزذونة رغووث وهي التي يرضعها ولدها.

قال أبو الحارث حميد: ما رأيت شيئاً أشبه بالقمرة ليلة البدر من قدر سقيت
اللبن كثيرة السكر.

وقال الشاعر:

وَإِنِّي لِأَسْتَحِي رَفِيقِي أَنْ يَرَى مَكَانَ يَدِي مِنْ جَانِبِ الزَّادِ أَقْرَعَا
صَمَّ عَثْمَانَ بْنَ رَوَاحِ السَّفَرِ وَرَفِيقاً لَهُ، فقال له الرفيق: امض إلى السوق فاشتر
لنا لحماً. قال: والله ما أفدر. قال: فمضى الرفيق واشترى اللحم ثم قال لعثمان: قم
الآن فاطبخ القدر. قال: والله ما أفدر. فطبخها الرفيق. ثم قال: قم الآن فائرذ.

(١) القنابل: طوائف الجوع.

(٢) موضع النار.

(٣) الصيحاني: نوع من أنواع تمر المدينة.

قال: واللّه إني لأعجزُ عن ذلك. ففردَ الرّقيق. ثمّ قال: قم الآن فكلّ. فقال: واللّه لقد استخيتُ من كثرةِ خِلافي عليك، ولولا ذلك ما فعلت.

قال يونس: أتيتُ ابن سيرينَ فدَعَوْتُ الجاريةَ، فسمِعته يقول: فُولي إنّه نائم. فقلت: مَعِي خَبِيص. فقال: مكانك حتى أخرج إليك.

قال أردشير: اخذروا صولةَ الكريم إذا جاع، واللثيم إذا شبع.
قال النبي ﷺ فيما رواه جابرُ بن عبد الله: هلاكُ الرّجل أن يحترقَ ما في بيته أن يقدمه إلى ضيفه، وهلاكُ الضيف أن يحترقَ ما قدّم إليه.

وقال الشاعر:

يا ذاهباً في داره جائياً بغير معنئ وبإلا فائده
قد جنّ أضيافك من جوعهم فاقرأ عليهم سورة المائدة

وقال ابن بذر:

ونحن نبذل عند القحط ما أكلوا من السديف إذا لم يؤنس القرع
وننحر الكوم عبطاً في أرومتنا للنازلين إذا ما استنزلوا شبعوا

وقال آخر:

أطعمني بيضة وناولني من بغد ما دقت ففده قدحا
وقال أيّ الأصوات تسئلني؟ يزيد، إنني أراك مقترحا
فقلت صوت المقلّي وجرذقة إن خاب ذا الاقتراح أو صلحا
فقطب الوجه وانثنى غضباً وكان سكران طافحاً فصحا
فقلت: إنني مزحت، قال: كذا رأيت حراً بمثل ذا مزحا؟

قال ابن حبيب: كان الرّجل إذا اشتدّ عليه الشتاء تنحى ونزل وحده لثلا ينزل به ضيف فيكون صُفعا مُستحباً.

وهذا ضد قول زهير:

بسّط البيوت لكي تكون مطيئة من حيث توضع جفنة استرفيد
فإذا كان الشتاء انحاز الناس من الجذب والجهد، وإذا أخصبوا أغاروا للثأر لا للسؤال.

وقال الشاعر في عبيد الله بن عباس:

ففي السنة الجذباء أطعمت حامضاً وحلوا وشحماً تامكاً وسناماً
وقال مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿وَأَعْتَدتْ لِمَنْ مَنَّكَ﴾ [يوسف: ٣١]، أي طعاماً، يقال: اتكأنا عند فلان، أي طعمنا.

ذكر الأصمعي أن أعرابياً خَرَجَ في سَفَرٍ ومعه جماعة، فأزْمَلَ^(١) بعضهم من الزاد، وَحَضَرَ وقتَ العَدَاءِ وجعل بعضهم ينتظر بَعْضاً بالغداء، فلَمَّا أَبْطَأَ ذلك عليهم عَمَدَ بَعْضُهُم إلى زادِهِ فَالْقَاهُ بين يَدَيِ القَوْمِ، فأقْبَلُوا يأكلون، وجلس صاحبُ الزادِ بعيداً لِلتَّوْفِيرِ عليهم، فصاح به أعرابي: يا سُوْدَدَاهُ! وهل شَرَفٌ أَفْضَلُ من إطعام الطعام والإيثار به في وَقتِ الحَاجَةِ إليه؟ لقد آثَرَتْ في مَخْمَصَةٍ ويوم مَسْعَبَةٍ، وتَفَرَّدَتْ بمكرمةٍ قَعَدَ عنها مَنْ أَرَى من نُظْرَائِكَ، فلا زالت نَعْمُ اللّهِ عليك غَادِيَةً ورائحة.

وفي مثله يقول حاتم الطائي:

أَكْفُ يَدِي من أن تَنَالَ أَكْفَهُمْ إذا ما مَدَدَتْهَا وحاجائنا مَعَا
وإني لَأَسْتَحْيِي رَفِيقِي أن يَرَى مكانَ يَدِي من جانبِ الزَّادِ أَقْرَعَا
قال: المَخْمَصَةُ: المَجَاعَةُ. وَالْحَمْصُ: الجُوع.

قال شاعرٌ يَدُّمُ رجلاً:

يَرَى الحَمْصَ تَعْدِيأً وإن يَلِقَ شَبْعَةً يَبِثُّ قَلْبُهُ مِن قِلَّةِ الهَمِّ مُبْهَمًا
وقال المرقش الأكبر:

إن يُخْصِبُوا يَغْنَوُوا بخضبهم أو يُجْدِبُوا فِجْدوبهم أَلْمُ

وكتَبَ بعضهم إلى أخ له: إن رأيتَ أن تُزويَ ظَمَأَ أخيكَ بِقُرْبِكَ، وتُبَرِّدَ غَلِيلَهُ بطَلْعَتِكَ، وتوَنِّسَ وَخَشَتَهُ بِأَنَسِكَ، وتَجْلُوَ غِشَاءَ ناظِرِهِ بِوَجْهِكَ، وتُزَيِّنَ مَجْلِسَهُ بِجَمَالِ حُضُورِكَ، وتَجْعَلَ عَدَاءَكَ عِنْدَهُ في منزلِكَ الذي هو فيه ساكن، وتَمْتَمَ له السرورَ بِك باقِي يَوْمِكَ، مؤثراً له على شغلك، فَعَلْتَ - إن شاء اللّهُ - .

وقال الشاعر:

وكانَ هَذَرَ دِمَائِهِم في دُورِهِم لَعَطُ القَيْبِلِ على خِوانِ زيادِ

قال بعض الخُطباء: العَجَبُ من ذي جِدَّةٍ مُنَعَمَ عليه يطوي جاره جوعاً وقراً، وأفْرُخُهُ شُعْتُ جُرْدٍ من الرِّيشِ، وهو مِبْطَانٌ محتشٍ من حُلُوهِ وحامِضِهِ، مُكْتَنٌ في كِنِّهِ ودِفْئِهِ، مزيّنٌ له شهوةٌ عن أداءِ الذي عليه لجاره وقريبه وذي حُلَّةٍ بِطِرِ رَفِيهِ، كيف يَأْمَنُ سَلْباً مفاجئاً؟ أما لو وَجَّهَ بعضَ فَضْلِهِ إلى ذي حاجةٍ إليه كان مستديماً لِمَا أولي، مستزيداً ممَّا أوتي.

قال الشاعر^(٢):

وإذا تَأَمَّلَ شَخْصَ ضَيْفِ مَقْبِلِ متَسَرِّبِ سِرْبِالِ مَخْلِ أَغْبِرِ
أومأ إلى الكَوْماءِ هذا طارقٌ نَحَرْتَنِي الأعداءِ إن لم تُنْحَرِي

(٢) العلوي صاحب الزنج.

(١) فرغ ما عنده.

وفي هذه الأبيات ما يُستحسن :

كَمْ قَدْ وَلَدْتُمْ مِنْ كَرِيمٍ مَاجِدٍ
سَدِكْتُمْ أَنَامِلُهُ بِقَائِمٍ مَرَهْفٍ
يَلْقَى السِّيفَ بِوَجْهِهِ وَيَنْخِرُهُ
ويقول للطرف :

اصطبر لشبّا القنا
وقال آخر :

وقال وَقَدَّمْ كَشَكِيَّة
تُطْفِي المُرَارَ وَتَنْفِي الخُمَارَ
ولا تَتَوَقَّعْ أخيراً بِجِيكِ
وقال آخر :

كَأْتَمَا فُؤُهُ إِذَا تَمَدَّدَا
كَأَنَّهُ مُخْتَرِصٌ قَدْ جَوَّدَا
وصاحبٍ صَاحِبَتْ غَيْرَ أَبْعَدَا
الْحُرْبَةَ: الغرارة.

وقال جابرُ بنُ قَبِيصة: ما رَأَيْتُ أَحْلَمَ جَلِيْساً، ولا أَفْضَلَ رَفِيْقاً، ولا أَشْبَهَ سَرِيْرَةً

بِعَلَانِيَةٍ، مِنْ زِيَاد.

وقال جابر أيضاً: شَهِدْتُ قَوْمًا ورَأَيْتَهُمْ بَعَيْنِي، فما رَأَيْتُ أَقْرَأَ لِكِتَابِ اللّهِ، ولا أَفْقَهَ مِنْ دِينِ اللّهِ، مِنْ عُمَرَ بْنِ الخِطَابِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ. وما رَأَيْتُ رَجُلًا أُعْطِيَ مِنْ صُلْبِ مالِهِ فِي غيرِ وَلائِهِ، مِنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللّهِ. وما رَأَيْتُ رَجُلًا أَسْوَدَ مِنْ معاوية. وما رَأَيْتُ رَجُلًا أَنْصَحَ ظَرْفًا، ولا أَخْضَرَ جِوابًا، ولا أَكْثَرَ صِوابًا، مِنْ عَمْرِو بْنِ العاصِ. وما رَأَيْتُ رَجُلًا المَعْرِفَةَ عِنْدَهُ أَنْفَعَ مِنْها عِنْدَ غيرِهِ، مِنْ المُعْبِرَةِ بْنِ شُعْبَةَ.

ويقال: ما كان الطعام مَرِيئًا ولقد مَرَأً، وما كان الرَّجُلُ مَرِيئًا وقد مَرَأَ.

وقال لنا القَطَّانُ أَبُو مَنْصُورِ رَئِيسِ أَهْلِ قُزُؤِينَ: الرَّجُلُ مِنْ أَرْضِ أَرْدَبِيلِ إِذا دَخَلَ بِلدًا يَسْأَلُ فيقول: كِيفَ الخُبْزِ والمُبْرَزُ، ولا يَسْأَلُ عَنْ غيرِهما. فقيل له: لِمَ ذلك؟ فقال: ياخذ الخبز والمُبْرَزُ، يأكلُ وَيَسْلُحُ إِلى الصِّباحِ.

قال الشاعر:

وما تُنْسِنَا الأَيامُ لا تُنْسِ جُوعَنا
ظَلَّلنا كَأَنا بَينَهُم أَهْلُ ما تَمَّ
بِدارِ بَنِي بَدْرٍ وطُولِ التَّلَدُ
عَلَى مِيتِ مُسْتَوْدِعِ بَطْنِ مَلْحَدِ

يُحَدِّثُ بَعْضُ بَعْضُنَا عَنْ مُصَابِهِ وَيَأْمُرُ بَعْضُ بَعْضُنَا بِالتَّجَلُّدِ
وقال آخر:

دَعُونِي فَإِنِّي قَدْ تَعَدَّيْتُ أَنْفَا فَإِنْ مَسَّ كَفِّي حُبْزَكُم فاقطعوا يدي
وقال آخر يصفُ دارَ قَوْمٍ:

الجوعُ دَاخِلُهَا وَاللُّوْحُ^(١) خَارِجُهَا وَلَيْسَ يَقْرُبُهَا حُبْزٌ وَلَا مَاءٌ

قال الهلالي: أتى رجلٌ أبا هريرة فقال: إني كنتُ صائماً فدخلتُ بيتَ أبي فوجدتُ طعاماً، فنسيتُ فأكلتُ. قال: الله أطعمك. قال: ثم دخلتُ بيتاً آخر فوجدتُ أهله قد حلَّبوا لفتحهم فسقوني، فنسيتُ فشربتُ. فقال: يا بُنَيَّ هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنَّكَ قَلَمًا اعْتَدْتَ الصِّيَامَ.

وقال الشاعر:

وَجَدْتُ وَعَدَكَ زُورًا فِي مُزَوَّرَةٍ ذَكَرْتَ مَبْتَدِئًا إِحْكَامَ طَاهِيهَا
فَلَا سَفَى اللَّهُ مَنْ يَزْجُو الشَّفَاءَ بِهَا وَلَا عَلَتْ كَفُّ مُلْقٍ كَفَّهُ فِيهَا
فَاخْبِسْ رَسُولَكَ عَنِّي أَنْ يَجِيءَ بِهَا فَقَدْ حَبَسْتُ رَسُولِي عَنْ تَقَاضِيهَا

قال مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه: قدمنَا على رسولِ الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، أنت سيدنا، وأنت أطولنا علينا طولاً، وأنت الجفنة الغراء. فقال النبي ﷺ: «قولوا بقولكم ولا يستفزكم الشيطان وإنما أنا عبدُ الله ورسوله».

وقال آخر:

وَأَحْمَرُ مُبَيِّضُ الرُّجَاجِ كَأَنَّهُ رِداءُ عَرُوسٍ مُشْرَبٍ بِخَلْقِ
لَهُ فِي الْحَشَا بَرْدُ الْوِصَالِ وَطَعْمُهُ وَإِنْ كَانَ يَلْقَاهُ بِلَوْنِ حَرِيقِ
كَأَنَّ بِيَاضَ اللَّوْزِ فِي جَنَابَتِهِ كَوَاكِبُ دُرٍّ فِي سَمَاءِ عَقِيْقِ

قال يونس: أشدُّ طعامٍ ضُراً ما كان مِنْ عامٍ إِلَى عامٍ، وَهُوَ اللَّبُّ الَّذِي لَا يُوْجَدُ إِلَّا فِي الْوِلَادَةِ كُلِّ عامٍ وَإِنْ كَانَ مُزِيداً.

حكى يونس: التَّنَافِيطُ، أَنْ يُنْزَعَ شَعْرُ الْجِلْدِ، ثُمَّ يُلْقَى فِي النَّارِ ثُمَّ يُؤْكَلُ، وَذَلِكَ فِي الْجَذْبِ.

وقال الشاعر:

جَاوَزْتُ سَنِيْبَانَ فَاخْلَوْلَى جِوَارُهُمْ إِنَّ الْكِرَامَ خِيَارُ النَّاسِ لِلْجَارِ

وكتبَ ابنُ دينارٍ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ: وَكَتَبْتَ تَفْضُلاً مِنْكَ تَعْتَذِرُ مِنْ تَأْخِرِكَ عَنْ قِضَاءِ

حقَّ زيارتي بقصورِ يدِكَ عن برِّ يُشبهُني ويُشبهُكَ؛ فأما ما يُشبهُني في هذا الوقت
فرَغيفٌ وسكَّرَجَةٌ كامخٌ حَرِيفٌ يَنْقُبُ اللِّسَانَ بحرافتهِ .
وكان ابنُ أبي البُغُلِ إذا أنشد:

أرُونِي مَنْ يَقُومُ لَكُمْ مَقَامِي

يقول: لو شَهِدْتُ قائِلَهُ لقلت: كَلْبُ الحارسِ يَقومُ مَقامِكَ . هذه قِصَّةٌ في
حضور ما يشبهني، فأما ما يشبهك فمتعذِّر كما قيل:

وَمَطْلَبُ مِثْلِي إِنْ أَرَدْتَ عَسِير

وقال رجل لعُبَيْدِ اللَّهِ بن زياد بن ظَبْيَانَ: ما أَعَدَدْتُ في كِنانتي سَهْمًا غَيْرَكَ .
فقال: لا تُعِدَّنِي في كِنانَتِكَ فواللَّهِ لو قمتُ فيها لَطَلْتُها، ولو جَلَسْتُ فيها لخرقتُها .
ولئن انتظرتُ بي ما يشبهك طال الانتظار، والعامَّةُ تتمثل - على خِساسَةِ لَفْظِها -: « إذا
أَرَدْتَ أَلَّا تُزَوِّجَ ابنتَكَ فَعالٍ بِمَهْرِها ». وأملِي فيكَ على الأحوالِ بعيد، ووطنِي فيكَ
جميل، ولستُ أخشى فيما لي عندك القَوْتَ فأعجِله .

وهل يُنَلِّقُ الكَلْبُ إِلَّا الحَجَرَ

العَرَبُ تقول: لثيمٌ جَبانٌ .

وقال أعرابيٌّ: لا يَكُنْ بَطْنُ أَحَدِكُمْ عليه مَغْرَمًا، لِيَكْسِرَهُ بالثَمِيرَةِ والكُسَيْرَةِ
والبُقَيْلَةِ والعُلَيْكَةِ .

قال ابنُ الأعرابي: الفَرَزْدَقُ، الرَغيفُ الواسعُ .

قيلَ لابنِ القَرِيْبَةِ: تكلَّم . فقال: « لا أُحِبُّ الخُبْزَ إِلَّا يابِسًا ». أرادَ لا أُحِبُّ أن
أتكلَّمُ إِلَّا بعدَ الارتِثاءِ .

وروى أبو عُبَيْدَةَ في تفسِيرِ بَيْتِ الأَعشى في ديوانه:

إذا ما هُم جَلَسوا بِالعَشِيِّ فَأحلامُ عادٍ وأيدي هُضْمِ

قال: شَبَّهَهُم بِأنسالِ عادٍ، وهُم ثمانية ذُورٍ أحلامُ وسُودَدُ: مالك - وهو سيِّدُ
الثمانية - وعمَّارٌ وطَفِيلٌ، وشَمِرٌ، وقرزعةٌ، وحَمَمَةٌ، ونُضْضٌ، ودُفَيْفٌ؛ وهُم الذين
بَعَثَ لِقمانُ بَنُ عادٍ جاريةً بَعُسُ من لَبَنٍ، فقال لها: ايتي الحَيِّ فادفعيه إلى سيِّدِهِم لا
تَسْأَلِي عنه . فأَتَتِ الجاريةُ الحَيِّ، فرَأَتْهُم مَخْتَلِفِينَ بينِ عامِلٍ ولاعبٍ، وثمانيةً على
رؤوسِهِم الطَّيْرَ وقارًا؛ ورَأَتْ جاريةً من الحَيِّ، فأخبرَتْها بما قال لِقمانُ؛ قالت: هؤلاء
سادةُ الحَيِّ، وسأصِفُ لك كلَّ واحدٍ مِنْهُم، فادفعي العُسَّ إلى مَنْ شئتِ أمَّا هذا
فعمَّارٌ، أخاذاً ودَّارٌ، لا تَحْمُدُ له نارٌ، للمُعشِباتِ عَقَّارٌ (المُعشِبةُ: التي تَسْمَنُ على
شَحْمٍ قديمٍ)، وأمَّا هذا فحَمَمَةٌ، عَدَاؤُهُ كلَّ يومٍ ناقةٌ سَئِمةٌ، وبَقَرَةٌ شَحِمةٌ، وشاةٌ

كِدْمَةَ . وَأَمَّا هَذَا فَفَرَزَعَةَ ، إِذَا لَقِيَ جَائِعاً أَشْبَعَهُ ، وَإِذَا لَقِيَ قِرْنًا جَعَجَعَهُ ، وَقَدْ خَابَ جَيْشٌ لَا يَغْزُو مَعَهُ . وَأَمَّا هَذَا فَطُقَيْلٌ ، غَضِبَهُ حِينَ يَغْضَبُ وَيَلٌ ، وَرِضَاهُ حِينَ يَرْضَى سَيْلٌ ، وَلَمْ تَحْمِلْ مِثْلَهُ عَلَى ظَهْرِهَا إِبِلٌ وَلَا خَيْلٌ ، وَأَمَّا هَذَا فَسَمِيرٌ ، لَيْسَ فِي أَهْلِهِ بِالسَّحِيحِ الْقَتِيرِ ، وَلَا الْمُسْرِفِ الْبَطْرِ ، وَلَا يَخْدَعُ الْحَيَّ إِذَا أُوْتِمِرَ ^(١) . وَأَمَّا هَذَا فَدُقَيْفٌ ، قَارِي الضَّيْفِ ، وَمُغْمِدُ السِّنْفِ ، وَمُعِيلُ الشَّتَاءِ وَالضَّيْفِ ، وَأَمَّا هَذَا فَتَيْضٌ ، أَسْنَتُ الْحَيِّ فَمِرْضٌ ، فَعَدَلُ مَرَضُهُ عِنْدَهُمْ إِسْنَاتُهُمْ (أَي فَنَحَطُهُمْ) ، فَقَامُوا عَلَيْهِ ^(٢) فَأَوْسَعَهُمْ دَقِيقًا وَلِحْمًا غَرِيضًا ، وَمِسْكَأَ رَمِيضًا ، وَكَسَاهُمْ ثِيَابًا بِيضًا ؛ وَأَمَّا هَذَا فَمَالِكٌ ، حَامِيَتِنَا إِذَا غَرَوْنَا ، وَمُطْعِمٌ وَلِدَانِنَا إِذَا سَتَوْنَا ، وَدَافِعٌ كُلَّ كَرِيهَةٍ إِذَا عَدَّتْ عَلَيْنَا . فَدَفَعَتِ الْعُسَّ إِلَى مَالِكٍ ، فَكَانَ سَيِّدَهُمْ .

بَشَّرَتْ امْرَأَةٌ زَوْجَهَا بِأَنَّ ابْنَهَا مِنْهُ قَدْ اتَّعَرَ ^(٣) ، فَقَالَ : أَتُبَشِّرِبْنِي بَعْدُ الْخُبْزِ ؛

أَذْهَبِي إِلَى أَهْلِكَ .

قال الشاعر :

مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي أَبَا زَيْنٍ بَكَرَ بْنَ نَطَاحٍ بِفَلْسَيْنِ
كَأَتَمَّا الْأَكْلَ مِنْ خُبْزِهِ يَفْلَعُ مِنْهُ شَحْمَةَ الْعَيْنِ
وَأَنْشَدَ عَلِيٌّ مِنْ بَنِي دُبَيْرٍ :

يَابْنَ الْكِرَامِ حَسَبًا وَنَائِلًا حَقًّا أَقُولُ لَا أَقُولُ بِاطِلًا
إِلَيْكَ أَشْكُو الدَّهْرَ وَالزَّلَازِلَا وَكُلَّ عَامٍ نَقَّحَ الْحَمَائِلَا
التَّقْيِيحُ : الْقَشْرُ ، أَي قَشَرُوا حَمَائِلَ سِيُوفِهِمْ فَبَاغَوْهَا لَشَدَّةِ زَمَانِهِمْ . وَأَنْشَدَ :

سَلَا أُمَّ عَبَّادِ الرَّيْحِ أَغْصَفَتْ وَجَلَّلَ أَطْرَافَ الرُّعَانِ قَتَامُهَا
وَجَفَّتْ بَقَايَا الطَّرِيقِ إِلَّا نُضِيَّةً يَصُدُّ الْأَشَافِي وَالْمَوَاسِي سَنَامُهَا
وَضَمَّ إِلَيَّ اللَّيْلُ مَنْزِلَ رُفْقَةٍ تَرَامَتْ بِهِمْ طُخْيَاءُ دَاجِ ظَلَامُهَا
تَكَادُ الصَّبَا تَهْتَزُّهُمْ مِنْ ثِيَابِهِمْ شَدِيدًا بِأَزْيَاطِ الرُّجَالِ اعْتِصَامُهَا
لَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي مُفِيدٌ وَمُتْلِفٌ وَمُطْعِمٌ أَيَّامٍ يُحِبُّ طَعَامُهَا
وقال آخر :

إِنَّ بَنِي غَاضِرَةَ الْكِرَامَا إِنَّ يُقِيمُ الضَّيْفَ بِهِمْ أَعْوَامَا
يَكُنْ قِرَاهُ اللَّحْمَ وَالسَّنَامَا أَوْ يُضْبِحُ الدَّهْرُ لَهُمْ غَلَامَا
يَكُنْ ظَرِيفًا وَجْهَهُ كُرَامَا

(١) استشير .

(٢) قاموا بخدمته .

(٣) نبت ثغره .

وقال سَمَاعَةُ بْنُ أَشْوَلٍ:

رَأَتْ إِيْلًا لِابْنِي عُبَيْدٍ تَمَنَّعَتْ
فَقَالَتْ أَلَا تَعْدُو لِقَاحِكَ هُكَذَا
فَمَا حَلَبْتَ إِلَّا الثَّلَاثَةَ وَالثَّنَى
وَأَنْشَدَ أَبُو الْجَرَّاحِ:

أَرَى الْخُلَانَ قَدْ صَرَمُوا وَصَالِي
وَمَا أَذْنَبْتُ مِنْ ذَنْبٍ إِلَيْهِمْ
وقال آخر:

خِرْقٌ إِذَا وَقَعَ الْمَطِيُّ مِنَ الْوَجَا
حَتَّى تَوُوبَ بِهِ قَلِيلًا
وقال آخر:

تَزَوَّدْتُ إِذْ أَقْبَلْتُ نَحْوَكَ غَادِيًا
أَرَانِي إِذَا مَا جِئْتُ أَطْلُبُ نَائِلًا
إِلَيْكَ وَنَحْوَ النَّاسِ لَا أَتَزَوَّدُ
نَظَرْتُ إِلَى وَجْهِكَ كَأَنَّكَ أَزْمَدُ

ويقال: أزواد الركب من قرئش أبو أمية بن المغيرة، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية عم عقبة، كانوا إذا سافروا خرج معهم الناس فلم يتخذوا زاداً، ولم يوقدوا ناراً كانوا يكفونهم.

وقال الشاعر:

وَبِالْبَدْوِ جُودٌ لَا يَزَالُ كَأَنَّهُ
وقال آخر:

وَالنَّاسُ إِنْ شَبِعَتْ بُطُونُهُمْ
وقال آخر:

دُورٌ تُحَاكِي الْجِنَانَ حُسْنًا
مَتَى أَرَى الْجُنْدَ سَاكِنِيهَا
وقال آخر:

لَوْلَا مَخَافَةُ ضَعْفِي عَنْ ذَوِي رَجْمِي
وَحَاجَةُ الْأَخِ تَبْدُو لِي فَأَنْجِحْهَا
وقال آخر:

وَأَوْثَرُ ضَيْفِي حِينَ لَا يُوجَدُ الْقِرَى
بِقُوتِي أَحْبُوه وَأَرْقُدُ طَاوِيَا

مِنَ الْحَقِّ لَمْ تُورِكَ بِحَقِّ إِيْلِهَا
فَقُلْتُ أَبَتْ ضَيْفَانِهَا وَعِيَالِهَا
وَلَا قِيلَتْ إِلَّا قَرِيبًا مَقَالِهَا

وَأَضْحَكُوا لَا سَلَامَ وَلَا كَلَامَ
سِوَى خَفِّ الْمَنَائِحِ وَالسَّوَامِ

لَمْ يَطْوِ دُونَ دَقِيقِهِ ذُو الْمِزْوِدِ
حَمِدَ الرَّفِيقُ نَدَاكَ أَوْ لَمْ يَحْمِدِ

إِلَيْكَ وَنَحْوَ النَّاسِ لَا أَتَزَوَّدُ
نَظَرْتُ إِلَى وَجْهِكَ كَأَنَّكَ أَزْمَدُ

ويقال: أزواد الركب من قرئش أبو أمية بن المغيرة، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية عم عقبة، كانوا إذا سافروا خرج معهم الناس فلم يتخذوا زاداً، ولم يوقدوا ناراً كانوا يكفونهم.

وقال الشاعر:

وَبِالْبَدْوِ جُودٌ لَا يَزَالُ كَأَنَّهُ
وقال آخر:

وَالنَّاسُ إِنْ شَبِعَتْ بُطُونُهُمْ
وقال آخر:

دُورٌ تُحَاكِي الْجِنَانَ حُسْنًا
مَتَى أَرَى الْجُنْدَ سَاكِنِيهَا
وقال آخر:

لَوْلَا مَخَافَةُ ضَعْفِي عَنْ ذَوِي رَجْمِي
وَحَاجَةُ الْأَخِ تَبْدُو لِي فَأَنْجِحْهَا
وقال آخر:

وَأَوْثَرُ ضَيْفِي حِينَ لَا يُوجَدُ الْقِرَى
بِقُوتِي أَحْبُوه وَأَرْقُدُ طَاوِيَا

وما استكثرت نفسي لباذل وجهه نوالاً وإن كان النوال حياتياً
وقال المبرد: البطن: الذي لا يهتمه إلا بطنه. والرغيب: الشديد الأكل.
والمنهوم: الذي تمتلئ بطنه ولا تنتهي نفسه.

وأشدد ابن الأعرابي:

وإن قرى أهل النجاج أرايب
إذا صدّ مشغور وأعرض مغرض
وإن جاء بعد الرئث فهو قليل
فيوم على أهل النجاج طويل

وقال آخر:

يمينك فيها الخضب والناس جوع
وقد شملتهم حرجف ودبور
وقال آخر:

ألقّت قوائمها خساً وترئمت
طرباً كما يترئم السكران
يعني قدراً. وقوائمها، يعني الأثافي. وخساً: فزد.
وأشدد:

بئس غذاء العزب المزموع
الرمام: داء. وحوابة: دلو كبيرة. والحوب والحوب: الإثم. والحية: الحال.
والحوباء: النفس.

العرب تقول: ماء لا تبين معه ولا غيره. خبز قفار: لا أدم معه. وسويق جاف
هو الذي لم يلت بسمن ولا زيت. وحنظل مبسل، وهو أن يؤكل وحده.
قال الراجز:

بئس الطعام الحنظل المبسل
يأجع منه كيدي وأكسل
وينجع أيضاً.

وقال أبو الجراح: المبسل يخرق الكبد. والمبكل: أن يؤكل بتمر أو غيره، يقال
بكلوه لنا، أي اخلطوه. قال: وعندنا طعام يقال له: الخولع وهو أن يؤخذ الحنظل
فينقع مرّات حتى تخرج مرارته، ثم يخلط معه تمر ودقيق فيكون طعاماً طيباً.

وقال: الخليطة والنخيسة والقطيبة: أن يخلب لبن الضأن على لبن المغزى،
والمغزى على لبن الضأن، أو حلب الثوق على لبن الغنم.
قال:

اسقني وابد غليلي

مليء الرجل: سمن بعد هزال.

قيل لطفيل العرائس: كم اثنين في اثنين؟ قال: أربعة أزغفة.

وقيل له: حُكِيَ أَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ نَحْنُ الْعَرَبُ أَقْوَى النَّاسِ لِلضَّيْفِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا النَّضْبَ عَلَى الْمَذْحِ.

وقال العُمَانِيُّ:

من كلِّ جِلْفٍ لم يكن مُصَرِّمًا جَعِدِ يُرعى منه التَّصْنُوعُ رَيْثَمَا
لم يَتَجَشَّأْ من طَعَامِ بَشْمَا
ولم يَبِثْ من فَتْرَةِ مُوَضِّمًا يَغْمِزُ ضُدْعَيْهِ وَيَشْكُو الْأَعْظَمَا
إذا أَجَاعَ بَطْنَهُ تَحْرُمَا لم يَشْرَبِ الْمَاءَ ولم يَخْشَ الظَّمَا
يَكْفِيهِ مِنْ قَارِصَةٍ مَا يَمَّمَا

وَحَلَّةٍ مِنْهُ إِذَا مَا أَعْيَمَا أَصَابَ مِنْهُ مَشْرِبًا وَمَطْعَمَا
لا يَغْقِرُ الشَّارِفَ إِلَّا مُخْرِمَا ولا يِعَافُ بَصَلًا وَسَلْجَمَا
يَوْمًا ولم يَفْعَرْ لِبَطْيِيخِ فَمَا فهو صَحِيحٌ لا يَخَافُ سَقَمَا
أَسْوَدَ كَالْمَحْرَاثِ يُدْعَى شَجْعَمَا صَمَحْمَحٌ مِنْ طُولِ مَا تَأْتَمَا
لم يَنْبُلْ يَوْمًا سَوْرَةَ مِنَ الْعَمَى ولم يَحْجِ الْمَسْجِدَ الْمُكْرَمَا
ولم يَنْزُرْ حَاطِيمَهُ وَزَمْرَمَا ولا تَرَاهُ يُطْلُبُ التَّفْهَمَا
لو لم يُرَبِّ مُسْلِمًا مَا أَسْلَمَا ما عَبَدَ اثْنَانِ جَمِيعًا صَنَمَا
عَاتٍ يَرَى ضَرْبَ الرُّجَالِ مَغْنَمَا إِذَا رَأَى مُصَدِّقًا تَجَهَّمَا
وَهَزَّ فِي الْكَفِّ وَأَبْدَى الْمِعْصَمَا هِرَاوَتَيْنِ نَبْعَةً وَسَلَمَا
يَثْرُكُ مَا رَامَ رُفَاتًا رِمَمَا وإن رَأَى إِمْرَةً تَزْعَمَمَا
لم يُغْطِهِ شَيْئًا وَإِنْ تَرَعَّمَا وإن قَرَأَ عَهْدًا لَهُ مُتَمَنَّمَا
هَانَ عَلَيْهِ شَقٌّ مَا قَدَرَ قَمَمَا وَأَنْ يَدُقَ طِينَهُ الْمُخْتَمَمَا
صَمْصَامُهُ مَاضٍ إِذَا مَا صَمَّمَا إِذَا اعْتَرَّتْهُ عِزَّةٌ ثُمَّ انْتَمَى
فِي ثُرْوَةِ الْحَيِّ إِذَا مَا يَمَّمَمَا ظَلَّ يَرَى حُكْمًا عَلَيْهِ مُبْرَمَمَا

أَنْ يَظْلِمَ النَّاسَ وَالْأَيُّ يُظْلَمَا

وقال آخر:

ما كان يُنْكَرُ فِي نَدِيٍّ مُجَاشِعِ أَكُلُ الْحَزِيرِ وَلَا ارْتِضَاعُ الْفَيْشَلِ

وقال آخر:

بِلَادَ كَأَنَّ الْجُوعَ يُطْلَبُ أَهْلَهَا بَدْخُلِ إِذَا مَا الضَّيْفُ صَرَّتْ جَنَادِبُهُ

وقال آخر:

كَرِيْهِه لَا يُطْعِمُ الْكَرِيْئَا بِاللَّيْلِ إِلَّا جِرْجَرًا مَقْلِيًّا
مُخْتَرَقًا نِصْفًا وَنِصْفًا نِيًّا

وقال الأصمعي: قال الهيثم بن جراد - وذم قوماً -: واللّه ما أنتم آل فلاة فتغصمكم، ولا أنتم آل ريف فتأكلون. فقيل: لو زدت؟ فقال: ما بعد هذا شيء.

قال: وما أشبه هذا الجواب بقول عقيل بن علفة حين قيل له: لم لا تطيل الهجاء؟ قال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

وقيل لابن عمر: لو دعوت الله بدعوات؟ فقال: اللهم عافنا وارحمنا وارزقنا. فقيل له: لو زدتنا؟ فقال: نعوذ بالله من الإسهاب.

قال شاعر:

إِذَا أَغْلَقَ الْبَابَ الْكَرِيمُ مِنَ الْقَرَى فليس على باب الفرزدق حاجب
فتى يشتري حُسنَ الشئاءِ بماله إذا غبرَّ من بردِ الشتاء الكواكب

قال: وكل لحم وخبز أنضح دفيناً فهو مليل، وما كان في ثور فهو شواء؛ وما كان في قدر فهو حميل.

قال الأحنف لعمر بن الخطاب: إن إخواننا من أهل الكوفة والشام نزلوا في مقلّة الجمل وحوّلاء الناقة^(١) من أنهار متفجرة، وثمار متدلّية، ونزلنا بسبخة نشاشة^(٢) يأتينا ماؤنا في مثل حلقوم التعمامة أو مرئ الحمل^(٣)، فإما أن تشق لنا نهرأ، وإما أن ترفعنا إليك.

قال جابر: كان النبي ﷺ يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم، والفقراء باتخاذ الدجاج^(٤).

(١) جملة يتمثل بهما في الخصب والنعمة.

(٢) أي نزار الماء لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها.

(٣) مثل في قلة ما يأتيهم من الماء وضيق مسايله إليهم.

(٤) في سنن ابن ماجه . ٦٩ - باب اتخاذ الماشية . حديث رقم : ٢٣٧ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أمر رسول الله ﷺ الأغنياء باتخاذ الغنم . وأمر الفقراء باتخاذ الدجاج . وقال : « عند اتخاذ الأغنياء الدجاج ، يأذن الله بهلاك القرى » .

في الزوائد: في إسناده علي بن عروة، تركوه. وقال ابن حبان: يضع الحديث. وعثمان بن عبد الرحمن، مجهول والمتن ذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

وفي كشف الخفاء، للإمام العجلوني: حرف الجيم. حديث رقم: ١٠٧٦ - الجمعة حج =

والعربُ تقول: أَكْرَمُوا الإِبِلَ إِلاَّ فِي بَيْتِ يُبْنَى، أو دَمٍ يُفْدَى، أو عَزَبٍ يَتَزَوَّجُ، أو حَمَلٍ حَمَالَةً.

وقال مُعَاوِيَةُ لِأَعْرَابِيٍّ: ما تَجَارَتُكَ؟ قال: أبيع الإبل، قال: أما علمت أن أفواها حَرَبٌ، وجلودها جَرَبٌ، وبعرها حَطَبٌ، وتأكل الذهب.

وقال خالدُ بنُ صَفْوَانَ: الإبلُ للْبُعْدِ، والبغالُ للثقلِ، والبراذينُ للجمالِ والدَّعةِ، والحميرُ للحوائجِ، والخيلُ للكرِّ والقرِّ.

وقال آخر:

يَقْذِفْنَ فِي الأَعْنَاقِ وَالْعَلَاصِمِ قَذْفَ الجَلَامِيدِ بِكَفِّ الرَّاجِمِ
يُرِيدُ بِالْأَعْنَاقِ بِالْحُلُوقِ.

وقال آخر:

نَعَارَ إِذَا ما الرُّوْعُ أَبْدَى عَنِ البُرَى وَنَقَرِي عَبِيْطَ اللَّحْمِ وَالْماءِ جَامِسُ
وقال آخر:

تِلْكَ المَكَارِمُ لا ناقُ مُصْرَمَةٌ ترعى الفلاةَ ولا قَعْبٌ مِنَ اللَّبَنِ
وقال أبو الصَّلْتِ:

تِلْكَ المَكَارِمُ لا قَعْبَانِ مِنَ لَبَنِ شَيْبًا بِماءٍ فَعادًا بَعْدُ أَبوالا

وَوَصَفَ بَعْضُ البُلْغَاءِ التَّجَارِ فَقَالَ: لا يَوجَدُ الأَدَبُ إِلاَّ عِنْدَ الخَاصَّةِ والسُّلْطَانِ ومُدَبِّرِيهِ، وأما أَصْحابُ الأَسواقِ فَإِنَّا لا نَعَدَمُ مِنْ أَحَدِهِمْ خُلُقًا دَقِيقًا ودينًا رَقِيقًا، وحِرْصًا مُسْرَفًا، وأدبًا مُخْتَلِفًا، ودِئَاءَ مَعْلُومَةٍ، ومُرُوءَةٍ مَعْدُومَةٍ وإِلْغَاءَ اللَّفِيفِ^(١)، ومُجَادِبَةَ عَلى الطَّفِيفِ، يَبْلُغُ أَحَدُهُمْ غَايَةَ المَدْحِ والذَّمِّ فِي عِلْقِي^(٢) واحد في يوم واحد مع رجل واحد، إذا اشتراه منه أو باعه إياه، إن بايعك مُرابحةً وخَبَرَ بالأثْمَانِ، قَوَى الأَيْمَانَ عَلى البُهْتانِ، وإن قَلَّدْتَهُ الوِزْنَ أَعْنَتَ لِسَانَ المِيزانِ، لِياخُذَ بَرُجْجانِ أو يُعْطِي بِنُقْصانٍ؛ وإن كان لك قِبله حَقٌّ لَوَاهُ مُحْتَجًّا فِي ذلك بِسَنَّتِهِ السُّوفِيَّينِ، يَرْضَى لَكَ ما لا يَرْضَى لِنَفْسِهِ، وياخُذُ مِنْكَ بِتَقْدِيرِ وَيُعْطِيكَ بِغَيْرِهِ، ولا يَرى أَنَّ عَلَيْهِ مِنَ الحَقِّ فِي المِبايَعَةِ مِثْلَ ما لَهُ؛ إن اسْتَنْصَحْتَهُ عَشْكَ، وإن سَأَلْتَهُ

= المساكين: وروى الدليمي عن ابن عمر رفعه: الدجاج غنم فقراء أمتي، والجمعة حج فقرائها، ولابن ماجه بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أمر رسول الله ﷺ الأغنياء باتخاذ الغنم، وأمر الفقراء باتخاذ الدجاج، وقال عند اتخاذ الأغنياء الدجاج يأذن الله بهلاك القرى.

(١) الصديق.

(٢) النفيس من المتاع.

كَذَبِكَ، وَإِنْ صَدَقْتَهُ حَرَبَكَ مُتَمَرِّدُهُمْ صَاعِقَةً عَلَى الْمُعَامِلِينَ، وَصَاحِبُ سَمْتِهِمْ نِقْمَةٌ عَلَى الْمُسْتَرْسِلِينَ؛ قَدْ تَعَاطَوْا الْمُنْكَرَ حَتَّى عُرِفَ، وَتَنَاقَرُوا الْمَعْرُوفَ حَتَّى نُسِي، يَتَمَسَّكُونَ مِنَ الْمِلَّةِ بِمَا أَضْلَحَ الْبِضَائِعَ^(١)، وَيَنْهَوْنَ عَنْهَا كُلَّمَا عَادَتْ بِالْوَضَائِعِ؛ يُسِّرُ أَحَدُهُمْ بِحِيلَةٍ يُزْرِقُهَا لِسِلْعَةٍ يَنْفُقُهَا، وَغِيْلَةَ لِمُسْلِمٍ يَحْمِيهِ الْإِسْلَامَ، فَإِذَا أَحْكَمَ حِيلَتَهُ وَغِيْلَتَهُ غَدَا قَادِرًا عَلَى حَزْدِهِ، فَغَرَّ وَضَرَّ، وَأَبَّ إِلَى مَنْزِلِهِ بِحِطَامٍ قَدْ جَمَعَهُ مَغْبِطًا بِمَا أَبَاحَ مِنْ دِينِهِ وَانْتَهَكَ مِنْ حُرْمَةِ أَخِيهِ، يَعُدُّ الَّذِي كَانَ مِنْهُ جِدْقًا بِالتَّكْسَبِ، وَرِفْقًا بِالْمَطْلَبِ، وَعِلْمًا بِالتَّجَارَةِ، وَتَقَدُّمًا فِي الصَّنَاعَةِ.

فَلَمَّا بَلَغْتُ قِرَاءَتِي هَذَا الْمَوْضِعَ قَالَ الْوَزِيرُ: إِنْ كَانَ هَذَا الْوَصْفُ عَنِّي الْعَامَّةَ بِهَذَا الْقَوْلِ دَخَلَ فِي وَصْفِهِ الْخَاصَّةَ أَيْضًا، فَوَاللَّهِ مَا أَسْمَعُ وَلَا أَرَى هَذِهِ الْأَخْلَاقَ إِلَّا شَائِعَةً فِي أَصْنَافِ النَّاسِ مِنَ الْجُنْدِ وَالْكِتَابِ وَالتُّنَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَأَهْلَ الْعِلْمِ؛ لَقَدْ حَالَ الزَّمَانُ إِلَى أَمْرٍ لَا يَأْتِي عَلَيْهِ التُّغْتُ، وَلَا تَسْتَوْعِبُهُ الْأَخْبَارُ، وَمَا عَجِبِي إِلَّا مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى مَرِّ السَّاعَاتِ، وَلَوْ وَقَفَ لَعَلَّهُ كَانَ يُرْجَى بَعْضُ مَا قَدْ وَقَعَ الْيَأْسُ مِنْهُ؛ وَاعْتَرَضَ الْقُنُوطُ دُونَهُ.

فَقَالَ ابْنُ زُرْعَةَ وَكَانَ حَاضِرًا: هَذَا لِأَنَّ الزَّمَانَ مِنْ قَبْلِ كَانَ ذَا لَبُوسٍ مِنَ الدِّينِ رَائِعٍ، وَذَا يَدٍ مِنَ السِّيَاسَةِ بَسِيطَةٍ، فَأَخْلَقَ اللَّبُوسُ وَبَلَى، بَلْ تَمَزَّقَ وَفَنِي، وَضَعْفَتِ الْيَدُ بَلْ شَلَّتْ وَقُطِعَتْ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى سِيَاسَةِ دِينِيَّةٍ لِأَسْبَابٍ لَا تَتَّفِقُ إِلَّا بِعِلَلٍ فَلِكِيَّةٍ، وَأُمُورٍ سَمَاوِيَّةٍ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ انْقِيَادُ الْأُمُورِ الْجَانِحَةِ لَهَا، فِي مُقَابَلَةِ جِرَانِ الْأُمُورِ الْجَامِحَةِ عَنْهَا، وَذَلِكَ مُنْتَظَرٌ فِي وَقْتِهِ، وَتَمَنِّي ذَلِكَ قَبْلَ إِيَابَتِهِ وَسَوَاسِ النَّفْسِ، وَخَوَرُ الطَّبَاعِ، وَالنَّاسِ أَهْدَافَ لِأَغْرَاضِ الزَّمَانِ وَمُقَلَّبُونَ بِحَوَادِثِ الدَّهْوَرِ، وَلَا فَكَاكَ لَهُمْ مِنَ الْمَكَارِهِ، وَلَا اعْتِلَاقَ لَهُمْ بِالْمَحَابِّ إِلَّا بِالِدَوَاعِي وَالصَّوَارِفِ الَّتِي لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى تَحْوِيلِ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ، وَلَا إِلَى تَبْدِيلِ هَذِهِ بِهَذِهِ، وَاخْتِيَارُهُمْ لِلتَّوَجُّهِ إِلَى مَحْبُوبِهِمْ أَوْ لِإِغْرَاضٍ عَنْ مَكْرُوهِهِمْ ضَعِيفٌ طَفِيفٌ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَتِ الْحَسَرَاتُ تَزُولُ فِي وَقْتِ مَا يُرَادُ، وَالغَبْطَةُ تُمَلِّكُ بِإِدْرَاكِ مَا يُتَمَنَّى، وَهَذَا شَأْوٌ مَحْكُومٌ بِهِ بِقُوَّةِ النَّفْسِ، غَيْرُ مُسْتَيْقِظٍ إِلَيْهِ بِقُوَّةِ الْحِسِّ.

فَقَالَ الْوَزِيرُ: أَحْسَنْتَ يَا أَبَا عَلِيٍّ فِي هَذَا الْوَصْفِ، «وَإِنَّ نَفْثَكَ لَيَدُلُّ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ»، وَلَوْ كَانَ الْبَالُ ظَافِرًا بِنِعْمَةٍ، وَالصَّدْرُ فَارِغًا مِنْ كُرْبَةٍ، لَكُنَّا نَبْلُغُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ مَبْلَغًا نَشْفِي بِهِ غَلِيلَنَا قَائِلِينَ وَنُشْفَى بِهِ مُسْتَمِعِينَ، وَلَكِنِّي قَاعِدٌ مَعَكُمْ وَكَأَنِّي غَائِبٌ، بَلْ أَنَا غَائِبٌ مِنْ غَيْرِ كَافِ التَّشْبِيهِ، وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ تَصَرُّفِي وَلَا فِكْرِي فِي أَمْرِي، أَرَى وَحْدًا

في قَتْلِ حَبْلِ، وَأَخَرَ فِي حَفْرِ بَثْرٍ، وَأَخَرَ فِي نَضْبِ فَخٍّ، وَأَخَرَ فِي دَسِّ حِيلَةٍ، وَأَخَرَ فِي تَقْبِيحِ حَسَنِ، وَأَخَرَ فِي شَحْدِ حَدِيدٍ، وَأَخَرَ فِي تَمْزِيْقِ عِرْضٍ، وَأَخَرَ فِي اخْتِلاقِ كَذِبٍ، وَأَخَرَ فِي صَدْعِ مُلْتَثِمٍ، وَأَخَرَ فِي حَلِّ عَقْدٍ، وَأَخَرَ فِي نَفْثِ سِحْرِ، وَنَارِي مَعَ صَاحِبِي رَمَادٍ، وَرِيحُهُ عَلَيَّ عَاصِفَةٌ، وَنَسِيْمِي بَيْنِي وَبَيْنَهُ سَمُومٌ، وَنَصِيْبِي مِنْهُ هُمُومٌ وَعُمُومٌ، وَإِنِّي أَحَدْتُكُمْ بِشَيْءٍ تَعْلَمُونَ بِهِ صِدْقِي فِي شُكْوَايَ، وَتَقِفُونَ مِنْهُ عَلَى تَفْسُخِي تَحْتَ بَلُوَايَ، وَلَوْلَا أَنِّي أَطْفِئُ بِالْحَدِيثِ لَهَبًا قَدْ تَضَرَّمَ صَدْرِي بِهِ نَارًا، وَاحْتَشَى فُوَادِي مِنْهُ أَوَارًا؛ لَمَا تَحَدَّثْتُ بِهِ، وَلَوْ اسْتَطَعْتُ طَيْهَهُ لَمَا نَبَسْتُ بِحَرْفٍ مِنْهُ، وَلَكِنْ كَيْتَمَانِي لِلْحَدِيثِ أَنْقَبُ لِحِجَابِ الْقَلْبِ مِنَ الْعَتَلَةِ لِسُورِ الْقَصْرِ.

دَخَلْتُ مِنْذُ أَيَّامٍ فَوَصَلْتُ إِلَى الْمَجْلِسِ، فَقَالَ لِي: قَدْ أَعَدْتُ الْخِلْعَةَ فَالْبَسْهَا عَلَى الطَّائِرِ الْأَسْعَدِ، فَقُلْتُ: أَفْعَلُ، وَفِي تَذَكْرَتِي أَشْيَاءٌ لَا بَدَّ مِنْ ذِكْرِهَا وَعَرَضُهَا.

فَقَالَ: هَاتِي، فَقُلْتُ: يُتَقَدَّمُ^(١) بِكَذَا وَكَذَا، وَيُفْعَلُ كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ: عِنْدِي جَمِيعُ ذَلِكَ، أَمْضِ هَذَا كُلَّهُ، وَاصْنَعْ فِيهِ مَا تَرَى، وَمَا فَوْقَ يَدِكَ يَدٌ، وَلَا عَلَيْكَ لِأَحَدٍ اعْتِرَاضٌ؛ فَانْقَلِبْتُ عَنِ الْمَجْلِسِ إِلَى زَاوِيَةِ فِي الْحُجْرَةِ، وَفِيهَا تَحَدَّرَتْ دُمُوعِي، وَعَلَا شَهِيْقِي، وَتَوَالَى نَشِيْجِي، حَتَّى كَذَبْتُ أَفْتَضِيْحَ فِدْنًا مِنْ بَعْضِ حَدَمِي مِنْ ثِقَاتِي، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ النَّاسُ وَقُوفٌ يَنْتَظِرُونَ بُرُوزَكَ بِالْخِلْعَةِ الْمُبَارَكَةِ وَالشَّرِيفِ الْمَيْمُونِ، وَأَنْتَ فِي نُوْحٍ وَنَدَمٍ؟ فَقُلْتُ: تَنَحَّ عَنِّي سَاعَةً حَتَّى أَطْفِئُ نَارَ صَدْرِي، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْعَارِضُ لِأَنِّي كُنْتُ عَرَضْتُ عَلَى صَاحِبِي تَذَكْرَةَ مُشْتَمَلَةً عَلَى أَشْيَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَأَمْضَاهَا كُلَّهَا، وَلَمْ يُنَاطِرْنِي فِي شَيْءٍ مِنْهَا، وَلَا زَادَنِي شَيْئًا فِيهَا، وَلَا نَاطَرَنِي عَلَيْهَا، وَلَعَلِّي قَدْ بَلَوْتُهُ بِهَا، وَأَخْفَيْتُ مَعْرَازِي فِي ضِمْنِهَا، فَخِيلَ إِلَيَّ بِهَذِهِ الْحَالِ أَنْ غَيْرِي يَقِفُ مَوْقِفِي، فَيَقُولُ فِي قَوْلٍ مُزْخَرَفًا، وَيَنْسَبُ إِلَيَّ أَمْرًا مُؤَلَّفًا، فَيَمْضِي ذَلِكَ أَيْضًا لَهُ كَمَا أَمْضَاهُ لِي، فَوَجَدْتَنِي بِهَذَا الْفِكْرِ الَّذِي قَدْ فَتَّقَ لِي هَذَا النُّوعَ مِنَ الْأَمْرِ كِرَاقِمَ عَلَى صَفْحَةِ مَاءٍ، أَوْ كَقَابِضٍ فِي جَوْ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ هَوَاءٍ؛ أَوْ كَمَنْ يَنْفُخُ فِي غَيْرِ فَحْمٍ، أَوْ يَلْعَبُ فِي قَيْدٍ، وَلَقَدْ صَدَقَ الْأَوَّلُ حَيْثُ قَالَ:

وَإِنْ أَمْرًا دُنْيَاهُ أَكْبَرُ هَمِّهِ لَمَسْتَمْسِكْ مِنْهَا بِحَبْلِ غُرُورِ

غَيْرَ أَنِّي أَذْكَرُ لَكُمْ مَا عَنَّ لِي مِنْ هَذَا الْأَمْرِ:

اعْلَمُوا أَنِّي ظَنَنْتُ أَنَّ مَا نَظَّمَهُ الْمَاضِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَأَصْلَحَهُ، وَبَنَاهُ وَقَوْمَهُ، وَنَسَجَهُ وَنَوَّقَهُ لَا يَسْتَجِيلُ فِي ثَلَاثِينَ سَنَةً وَلَا خَمْسِينَ سَنَةً؛ وَأَنَّ الْحَالَ تَدُومُ عَلَى ذَلِكَ الْمُنْهَاجِ، وَتَسْتَمِرُّ عَلَى ذَلِكَ السِّيَاحِ، وَنَكُونُ قَدْ أَخَذْنَا بِطَرِيقِ مِنَ السَّعَادَةِ، وَبَلَّغْنَا

(١) أَي يُؤْمَرُ بِهِ .

لأَنفُسِنَا بَعْضَ مَا كُنَّا نَسَلِّطُ عَلَيْهِ التَّمَنِّيَّ مِنَ الْإِرَادَةِ فَنَجْمَعُ بَيْنَ عُلُوِّ الْمَرْتَبَةِ، وَشَرْفِ الرِّيَاسَةِ، وَنَيْلِ اللَّذَّةِ، وَإِدْرَاكِ السَّرُورِ، وَاصْطِنَاعِ الْعُرْفِ، وَكَسْبِ الثَّنَاءِ، وَنَشْرِ الذِّكْرِ، وَبُعْدِ الصَّيْتِ، فَعَادَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِالضَّدِّ، وَحَالَ إِلَى الْخِلَافِ وَوَقَفَ عَلَى الْفِكْرِ الْمُضْنِيِّ، وَالْحَوْفِ الْمُفْلِقِ، وَالْيَأْسِ الْحَيِّ، وَالرَّجَاءِ الْمَيِّتِ؛ وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ الْقَائِلُ:

أَظْمَشْنِي الدُّنْيَا فَلَمَّا جِئْتُهَا مُسْتَسْقِيًا مَطَرَتْ عَلَيَّ مَصَائِبًا

فَقَالَ لَهُ ابْنُ زُرْعَةَ: إِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِيَدِ اللَّهِ، وَلَا يُسْتَنْجَزُ الْخَيْرُ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا يُسْتَدْفَعُ الشَّرُّ إِلَّا بِهِ، فَسَلِّهِ جَمِيلِ الصَّنْعِ وَحُسْنِ النِّيَّةِ وَأَنِوِ الْخَيْرِ، وَبُتِّ الْإِحْسَانِ، وَكُلِّ أَعْدَاءِكَ إِلَى رَبِّكَ الَّذِي إِذَا عَرَفَ صِدْقَكَ وَتَوَكَّلَكَ عَلَيْهِ فَلَلَّ حَدَّهْمَ، وَعَفَرَ حَدَّهْمَ، وَسَيَّحَ الْفُرَاتَ إِلَى جَمْرَتِهِمْ حَتَّى يُطْفِئَهَا، وَسَلَّطَ الْأَرْضَةَ عَلَى أُبْدَانِهِمْ حَتَّى تَقْرِضَهَا، وَشَعَلَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَخَالَفَ بَيْنَ كَلِمَتِهِمْ، وَصَدَّعَ شَمْلَ جَمِيعِهِمْ، وَرَدَّهْمَ إِلَيْكَ صَاغِرِينَ ضَارِعِينَ، وَعَرَضَهُمْ عَلَيْكَ خَاضِعِينَ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ، وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُحْسِنِينَ عَلَى الْمُسِيئِينَ.

قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُ رَوْحًا كَثِيرًا بِمَا قُلْتُ لَكُمْ وَمَا سَمِعْتُ مِنْكُمْ، وَأَرْجُو أَنَّ اللَّهَ يُعِينُ الْمَظْلُومَ، وَيُهِينُ الظَّالِمَ. قَدْ تَمَطَّى اللَّيْلُ، وَتَعَوَّرَتِ النُّجُومُ، وَحَنَّ الْبَدَنُ إِلَى التَّرَفِّهِ، فَإِذَا سُبْتُمْ. فَانصَرَفْنَا مُتَعَجِّبِينَ.

الليلة الثالثة والثلاثون

عُدْنَا إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنْ حَدِيثِ الْمُمَالِحَةِ - وَكَانَ قَدْ اسْتَزَادَنِي - فَكَتَبْتُ لَهُ هَذِهِ الْوَرَقَاتِ وَقَرَأْتُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ كَلَامًا كَثِيرًا عِنْدَ كُلِّ مَا مَرَّ مِمَّا يَكُونُ صِلَةً لِذَلِكَ الْحَدِيثِ، حَزَلْتُهُ طَلَبًا لِلتَّخْفِيفِ.

قال حماد الراوية: عن قتادة قال زياد لغيلان بن خرشة: أحب أن تحذني عن العرب وجهدها وضئك عيشها لئلا يحمد الله على النعمة التي أصبحنا بها. فقال غيلان: حدثني عمي قال: توالى على العرب سنون سبع في الجاهلية حصت كل شيء، فخرجت على بكر لي في العرب، فمكثت سبعا لا أدوق فيهن شيئا إلا ما يتال بغيري من حشرات الأرض حتى دنوت إلى جواء عظيم، فإذا ببني جحش^(١) عن الحي، فملت إليه، فخرجت إلي امرأة طوالة حسانة، فقالت: من؟ قلت: طارق ليل يلتمس القرى. فقالت: لو كان عندنا شيء أنزناك به، والدال على الخير كفاعله، جس هذه البيوت فانظر إلى أعظمها، فإن يك في شيء منها خير فيه. ففعلت حتى دنوت إليه، فرحب بي صاحبه وقال: من؟ قلت: طارق ليل يلتمس القرى. فقال: يا فلان، فأجابه، فقال: هل عندك (من) طعام؟ قال: لا، قال: فوالله ما وقرفني أدني شيء كان أشد علي منه. فقال: هل عندك من شراب؟ قال: لا، ثم تأوه وقال: قد أبقينا في ضرع فلانة شيئا لطارق إن طرق، قال: فأت به، فأتى العطن فابتعتها، فحدثني عمي أنه شهد فتح أصفهان وتستر ومهرجان فذف وكور الأهواز وفارس، وجاهد عند السلطان وكثر ماله وولده، قال: فما سمعت شيئا قط كان ألد إلي من شخب تلك الناقة في تلك العلبة، حتى إذا ملأها ففاضت من جوانبها وارتفعت عليها رغو كجممة الشيخ أقبل بها نحوي فغتر بعود أو حجر، فسقطت العلبة من يده، فحدثني أنه أصيب بأبيه وأمه وولده وأهل بيته، فما أصيب بمصيبة أعظم عليه من ذهاب العلبة؛ فلما رأني كذلك رب البيت خرج شاهرا سيفه، فبعث الإبل ثم نظر إلى أعظم سناما، على ظهرها مثل رأس الرجل الصعل^(٢)، فكشف عن فوهته ثم أوقد نارا، واجتب سنامها، ودفع إلي مذبة وقال: يا عبد الله، اضطل واجتمل فجعلت أهوي بالبضعة إلى النار، فإذا بلغت إناها أكلتها، ثم

(١) أي بعيد عن منازل ذلك الحي.

(٢) الدقيق الرأس.

مَسَحْتُ ما في يَدَي من إهالَتها على جِلْدِي، وكان قَدْ فَجَلَ على عَظْمِي حتَّى كأنه سَنٌّ، ثم شربتُ ماءً وَخَرَزْتُ مَعْشِيًا عليّ، فما أَفَقْتُ إلى السَّحَرِ .

فَقَطَعَ زيادُ الحديثَ وقال: لا عليكَ أَنْ تُخْبِرنا بأكثرَ مِنْ هذا، فَمَنِ المَنْزُولُ به . قلتُ: عامرُ بنُ الطُّفَيْلِ . قال: أبو عليّ؟ قلتُ: أبو عليّ .

واستعادني الوزير أدام الله علوه هذا الحديثَ مرّتين وأكثرَ التعجُّب، وقال: صدَقَ القائلُ في العَرَب: مُنِعُوا الطَّعامَ وأَعْطُوا الكلامَ .

تَعَدَّى أبو العِيْناء عند ابن مكرّم، فقدمَ إليه عُرَاقًا^(١)، فلما جَسَّهُ قال: قِدرُكُمْ هذه طَبِخَتْ بِشَطْرِنِج^(٢)؟

وقدمَ إليه يوماً قِدرًا فوجدَها كثيرةَ العِظام، فقال: هذه قِدرٌ أم قَبْرٌ؟

وأكلَ عنده أبو العِيْناء يوماً، فسُقِيَ ثلاثَ شَرَبات باردة، ثم طَلَبَ الرابعة فسُقِيَ شَرِبَةً حارَّةً، فقال: لعلّ مزملتكم تعتربها حمى الرِّبعِ .

قال سَلَمَة؛ بَقِيَ أبو القَمُقام بَعْدادَ وَكنا نأتيه وَنَسْمَعُ منه، فجاأنا بِجَفْنَةٍ فيها جُودابَ فجعلَ أصحابنا يأكلون، ثم أتاهمُ بِسُقُودٍ فيه يرابِيعُ فسَلَتها في الجَفْنَةِ، فعَلِمَ القومُ أَنهم قد دُهِوا، فجَعَلوا يَسْتَقِيثون ما أكلوا .

وقالت عائشة: رضي الله عنها: يا رسول الله، لي جارتان بأيتهما أبدأ؟ قال: «بأذناهما باباً منك» .

وقال حَكِيم: يَنْبَغِي أَلّا يُعْطَى البَخِيلُ أَكْثَرَ مِنْ قُوْتِهِ، لِيُحْكَمَ عليه بمثل ما حَكَمَ به على نفسه .

وقال الشاعر:

أَفْلَحَ مَنْ كَانَتْ لَهُ قَوْصَرَةٌ	يَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ يَوْمٍ مَرَّةً
أَفْلَحَ مَنْ كَانَتْ لَهُ مِرْخَةٌ	يَزُحُّهَا ثُمَّ يَنَامُ الفَخَّةَ
أَفْلَحَ مَنْ كَانَتْ لَهُ دَوْخَلَةٌ	يَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ يَوْمٍ مَلَّةً
أَفْلَحَ مَنْ كَانَتْ لَهُ هِرْشَقَةٌ	وَنَشْفَةٌ يَمَلَأُ مِنْهَا كَفَّهُ
أَفْلَحَ مَنْ كَانَتْ لَهُ كِرْدِيدَةٌ	يَأْكُلُ مِنْهَا وَهُوَ ثَانٍ جِيدَهُ

وقال أبو فرعون الشاشي يخاطب الحُجَّاج:

يا خَيْرَ رَكِبٍ سَلَكَوا طَرِيقًا	وَيَمَّمُوا مَكَّةَ وَالعَقِيقًا
وَأَطَعُوا ذَا الكَعْكَ والسُّويْقا	والخُشْكَنانَ اليابِسَ الرَّقِيقًا

(١) العظم الذي أخذ ما عليه من اللحم .

(٢) يصف ما في القدر كبيادق الشطرنج من ييوسها .

وقال آخر:

رَأَيْتُ الْجُوعَ يَطْرُدُهُ رَغِيفٌ وِملءُ الكِفِّ من مَاءِ الْفُرَاتِ

وقال النبي ﷺ: «الطاعمُ الشاكرُ بمنزلةِ الصائمِ الصَّابِرِ»^(١).

قَبْلَ مُزْبَدٍ جَارِيَةٍ بَخْرَاءَ، فَقَالَ لَهَا: أَطْنُكَ تَعَشَّيْتِ بَكْرِشَ، أَوْ احْتَشَّيْتِ صَحْنَا؛
فَقَالَتْ: مَا أَكَلْتُ إِلَّا خَزْدَلًا. قَالَ: قَدْ ذَهَبَ النُّصْفُ الثَّانِي وَبَقِيَ مَا قَبْلَهُ.

قال الشاعر:

وَبَاتُوا يُعْشَوْنَ الْقَطِينَعَاءَ ضَيْفَهُمْ وَعِنْدَهُمُ الْبَزْنِيُّ فِي جُلَلِ دُسْمِ

وقال آخر:

وَمَا أَطْعَمُونَا الْأَوْتَكَى مِنْ سَمَاحَةٍ وَلَا مَنَعُوا الْبَزْنِيَّ إِلَّا مِنَ الْبُخْلِ

سَمِعْتُ الْحَجَّاجِيَّ يَقُولُ: كُلِّ الْخُبْزِ أَوْ السَّمَكِ، فَإِنْ أَكَلَ أَحَدُهُمَا كَانَ مُطِيعًا؛
فَإِذَا نَفَيْتَ فَقَلْتَ: لَا تَأْكُلِ الْخُبْزَ وَالسَّمَكِ؛ فَإِنْ أَكَلَ أَحَدُهُمَا لَمْ يَعْصِكَ؛ وَإِذَا قَلْتَ:
لَا تَأْكُلِ الْخُبْزَ أَوْ السَّمَكِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ أَحَدَهُمَا لِأَنَّ التَّقْدِيرَ فِي النَّفْيِ لَا تَأْكُلُ
أَحَدَهُمَا، وَالتَّقْدِيرَ فِي الْإِيجَابِ اتَّيَّهَمَا شَتَّتَ؛ فَهَذِهِ خَاصِيَّةٌ أَوْ السَّوِيْقُ:
الْجَشِيشِ، لِأَنَّهُ رُضٌ وَكُسِرَ. الْمِجْشَّةُ: رَحَى صَغِيرَةٌ يُجَشُّ بِهَا. رُويَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
ﷺ رَأَى الشُّبْرَمَ عِنْدَ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ فَقَالَ: «حَارٌّ حَارٌّ»، وَأَمَرَ بِالسَّنَا.

ويقال: أَكَلَ الْبَطِيخَ مَجْفَرَةً، أَي يَفْطَعُ مَاءَ النِّكَاحِ.

ويقال: فَلَانَ عَظِيمَ الْمُجْرَأَشِّ أَي الْوَسَطِ، فَرَسٌ مُجْرَأَشٌّ الْجَنْبَيْنِ وَاجْرَأَشَتْ
الْإِبِلُ، إِذَا بَطَنْتْ، وَإِبِلٌ مُجْرَأَشَةٌ أَي بَطَانٌ؛ وَيُقَالُ: كَثَاةٌ قَدْرِكُمْ، وَهِيَ مَا ارْتَفَعَ مِنْهَا
عِنْدَ الْعَلِيِّ.

وقال النبي ﷺ فيما رواه ابن عباس قال: سمعته يقول: «ليس بمؤمنٍ من باتَ
شُبْعَانَ رِيَّانَ وَجَارَهُ جَائِعَ طَاوٍ»^(٢).

(١) سنن الترمذي، ١٥ - باب. حديث رقم: ٢٦٠٥ - عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الطاعمُ الشاكرُ بمنزلةِ الصائمِ الصَّابِرِ». هذا حديث حسن غريب.

صحيح البخاري، ٥٤ - باب: الطاعمُ الشاكرُ مثل الصائمِ الصَّابِرِ. [قوله: «الطعامُ..» ثواب من يأكل ويشكر الله تعالى على فضله مثل ثواب من يصوم ويصبر على الجوع، ابتغاء وجه الله تعالى].

(٢) في الجامع الصغير. لجلال الدين السيوطي باب: حرف الميم. حديث رقم: ٧٧٧١ - ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه، وهو يعلم به. تصحيح السيوطي: حسن.

وفي الفيض القدير، شرح الجامع الصغير، للإمام المناوي حرف الميم. حديث رقم: ٧٧٧١ - «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به» المراد نفي الإيمان الكامل وذلك لأنه يدل على قسوة قلبه وكثرة شحه وسقوط مروءته وعظيم لؤمه وخبث طويته.

قال عُمَرُ: مُدْمِنُ اللَّحْمِ كَمُدْمِنِ الْخَمْرِ.

وقال لَقِيْطُ بْنُ زُرَّارَةَ يَذُمُّ أَصْحَابَهُ يَوْمَ جَبَلَةَ:

إِنَّ الشُّوَاءَ وَالنَّشِيْلَ وَالرُّغْفَ وَالْقَيْنَةَ الْحَسَنَاءَ وَالكَأْسَ الْأَنْفَ

لِلضَّارِبِيْنَ الْهَامَ وَالْحَيْلُ قُطْفُ

قِيلَ لِدُبِّ: لِمَ تُفْقِرُ رَجُلًا فِي لَيْلَةٍ مِنْ كَثْرَةِ مَا تَأْكُلُ مِنْ عَيْتِهِ؟ فَقَالَ: لَا تَلْمُنِي،

فَإِنَّ بَيْنَ يَدَيَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ أَنْجَحِرُ فِيهَا فَلَا أَتَلَمَّظُ إِلَّا بِالْهَوَاءِ.

قال ابن الأعرابي: إِذَا أَفْدَحَ (١) الرَّجُلُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ فَأَطْعَمَ لِحْمَهُ الْمَسَاكِينَ سُمِّيَ

مَتَمِّمًا، وَبِهِ سُمِّيَ ابْنُ نُؤَيْرَةَ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ النَّابِغَةِ:

إِنِّي أَتَمَّمُ أَيْسَارِي وَأَمْنَحُهُمْ مَشْنَى الْأَيْدِي وَأَكْسُو الْجَفْنََةَ الْأَدْمَا

التُّرْتُمُ مِنْ فُتَاتِ الطَّعَامِ وَيُقَالُ التُّرْتُمُ أَيْضًا مَا فَضَلَ مِنَ الطَّعَامِ فِي الْإِنَاءِ،

ويقال: طَعَامٌ ذُو نُزُلٍ. وَالْمَلِيحُ وَالْمَلْحُ: السَّمْنُ، يُقَالُ: تَمَلَّحْتَ الْجَارِيَةَ وَتَحَلَّمْتَ

إِذَا سَمِنْتَ.

وقال أبو الطمحان القيني:

وَإِنِّي لِأَرْجُو مِلْحَهَا فِي بَطُونِكُمْ وَمَا كَشَطْتَ مِنْ جِلْدٍ أَشَعَتْ أَغْبَرَا

هكذا سمعتُ. ويقال: سَمِنَ حَتَّى كَانَتْ خَرَسٌ، وَالخَرَسُ: الدَّنُّ بَعَيْنُهُ. وَفِي

المثل: «إِنَّ آخِرَ الْخَرَسِ لِدُرْدِي» أَي آخِرُ الدَّنِّ دُرْدِي.

وَأُنشِدُ:

وَرَمَانٍ يَفْسُوقُ كُلَّ رَمَانٍ

بِنِ وَوَزْدِ الْخِلَافِ وَالرَّيْحَانِ

بِلُحُومِ الْجِدَاءِ وَالْحُمْلَانِ

رَبِّي وَنَثْرِ السَّدَابِ وَالْأَنْجُدَانِ

بِعَصِيرِ الْأَعْنَابِ وَالرُّمَانِ

رِصَ بَيْنَ الْحَلِيبِ وَالْأَلْبَانِ

خَوْلٍ فِي الثَّلَجِ فِي الرَّجَاجِ الْيَمَانِي

مُرُويَاتٍ غَلَائِلَ الْعَطَشَانِ

حَبَّبًا الصَّيْفُ حَبَّبًا مِنْ أَوَانِ

رَمَنُ الْخَمْرِ وَالْمَسَاوِرِ وَالْجَشْ

رَمَنٌ كَانَتْ الْمَضَائِرُ فِيهِ

وَصُدُورُ الدَّجَاجِ بِالْخَلِّ وَالْمُ

وِسْمَانِ مِنَ الْفَرَارِيحِ تُغْلَى

وَشِوَا الْوِزَّةِ اللَّسْذِيذَةِ وَالْقَا

وَنَقِي السَّوِيْقِ بِالسَّكَّرِ الْمَثْ

وَقِلَالٌ تُحَطُّ مِنْ بَكَرَاتِ

وَاعْتَرَضَ حَدِيثُ الْعِلْمِ، فَأَنْشَدَ ابْنُ عُيَيْدٍ الْكَاتِبُ لِسَابِقِ الزُّبَيْرِيِّ قَوْلَهُ:

كَمَا يُجَلِّي سَوَادَ الظُّلْمَةِ الْقَمَرُ

الْعِلْمُ يَجْلُو الْعَمَى عَنْ قَلْبِ صَاحِبِهِ

وقال أيضاً:

إِذَا مَا لَمْ يَكُنْ لَكَ حُسْنُ فَهْمٍ أَسَأَتْ إِجَابَةً وَأَسَأَتْ فَهْمًا

آخِرُ:

الْعِلْمُ يُنْعِشُ أَقْوَاماً فَيَنْقَعُهُمْ كَالْعَيْثِ يُدْرِكُ عِيدَانَا فَيُخَيِّبُهَا

فقال الوزير: عندي في صحيفة حفظ الصبا: العلم سراجٌ يُجَلِّي الظلمة، وضيءٌ يَكْشِفُ العمى.

التذللُ مكروهٌ إلا في استفادته، والجِرْصُ مذمومٌ إلا في طلبه، والحسدُ منهيٌّ عنه إلا عليه.

ثم عاد الحديث إلى الممّالحة:

حدثني مُطَهَّرُ بْنُ أَحْمَدَ الْكَاتِبُ عَنْ ابْنِ قَرَارَةَ الْعَطَّارِ قَالَ: اجتمع ذات يوم عندي على المائدة أبو علي بن مقلّة وأبو عبد الله اليزيدي، وكان ابن مقلّة يُفَضِّلُ الهريسة، وكان اليزيدي يُفَضِّلُ الجوزابة، وكان كل واحد منهما يصف النوع الذي يقول به ويؤثره، فقال اليزيدي: الهريسة طعام السوقيين والسفلة، وليست الجوزابة بهذه الصفة؛ فقال لي ابن مقلّة: ما اسم الجوزابة بالفارسية؟ فقلتُ جوزاب، فقال: ضَمَّ الكاف^(١). وفهمتُ ما أراد، فقلتُ: نسأل الله العافية، والله لقد عافتها نفسي، وسكت اليزيدي.

قال يزيد بن ربيع: الكبابُ طعام الصعاليك، والماء والملح طعام الأعراب، والهرايس والرؤوس طعام السلاطين، والشواء طعام الدُّعَارِ، والخَلُّ والزيت طعام أمثالنا. وحدثني ابنُ ضَبْعُونَ الصوفيُّ قال: قال لي أبو عمر الشاري صاحب الخليفة: انهض بنا حتى نتغدى، فإن عندي مصوصاً وهلاماً وبقية مطجّنة، وشيئاً من الباذنجان البوراني البائت المخرّ. قلتُ: هذه كلها تزيينُ المائدة، فأين الأدم؟

كان عبدُ اللهِ بنُ علي بن عبدِ اللهِ بن العباس يُكثرُ أكلَ الجوزاب ولا يُؤثرُ عليه شيئاً، وكان يقول: يَشُدُّ العُضْدَيْنِ، ويقوّي الساعدين، ويجلّو الناظرين، ويزيد في سَمْعِ الأذنين، ويَحْمُرُ الوجنتين، ويزيد في المني، وهو طعام شهّي، فأى شيء بقي؟ وبلّغ المنصورَ وصفه هذا، فقال: بحق ما وصفه، ولا تقبل أكله.

وقال وَكَيْعُ بْنُ الْجِرَّاحِ: التَّمْتِينُ على المائدة خيرٌ من زيادة لَوْنين، وكمالُ المائدة كثرةُ الخبز، والسَّمِيدُ الأبيضُ أخلَى من الأصفر.

(١) الجوزاب: كلمة فارسية بمعنى الطعام الذي يتخذ من اللحم والأرز والسكر والبنديق، وقوله: ضَمَّ الكاف: الكاف الفارسية المكتوبة هنا حرف جيم (جوزاب) ويشير إلى لفظ (جوز) بالفارسية وهو الفساء.

وكان يحيى بن أكنم يحب الجوذاب، فبلغه أن رجلاً ممن يحضر عنده يعيب الجوذاب، فقال يحيى: إن ثبت عندي هذا توقفت عن شهادته، وحكمت عليه بضعة الحس وقلة التمييز، فبلغ الرجل ذلك، فاحترس، فقال له يحيى يوماً: ما قولك في الجوذاب؟ فقال: أشرف مأكّل وأطيبه، سهل المدخل، لذيذ المطعم، جيد الغذاء، قليل الأذى. قال: أصبت، هكذا أريدك.

أبو صالح عن ابن عباس قال: ما من داخلٍ إلا وله خيرة، فابذوه بالسلام، وما من مدعوٍ إلا وله حشمة، فابذوه باليمين.

قال حمدان: قلت لجارية أردت شراءها - وكانت ناعمة البدن رطبة شطبة غضة بضة -: ما كان غذاؤك عند مولائك؟ قالت: المبطن. قلت: وما المبطن؟ قالت: الأرز الريان من اللبن، بالفالودج الريان من العسل، والخبيصة الريانة من الدهن والسكر والزعفران. قلت: حق لك.

وقال ابن الجصاص الصوفي: دخلت على أحمد بن روح الأهوازي فقال: ما تقول في صفحة أرز مطبوخ، فيها نهر من سمن، على حافاتها كئبان من السكر المنحول، فدمعت عيني. فقال: مالك؟ قلت: أبكي شوقاً إليه، جعلنا الله وإياك من الواردين عليه بالعواصة والردادتين. فقال لي: ما الغواصة والردادتان؟ قلت: العواصة الإبهام، والردادتان: السبابة والوسطى. فقال: أحسنت، بارك الله عليك.

شكا رجل إلى عمر الجوع فقال: أكذك وأنت تئنك الحويت؟ أي ترشح كما يرشح الزق.

وقال ابن سكرة:

أطمعني في خروفكم خرفي	فجئت مستعجلاً ولم أقف
وجئت أرجو أطرافه فغدت	في طرف والسماك في طرف
وحذروني من ذكر رزته	يا حراً صدري لها ويا لهفي
عائنته والذي يفضله	والقلب مني على شفا جرف
ما حل بي منك عند منصرفي	ما كنت إلا فريسة التلّف

ويقال: القانع غني وإن جاع وعري، والحريص فقير وإن ملك الدنيا.

قيل لإبراهيم الخليل - عليه السلام -: بأي شيء اتخذك الله خليلاً؟ قال: بأني ما خيرت بين أمرين إلا اخترت الذي لله، وما اهتممت لما تكفل لي به، وما تعدت وما تعشيت إلا مع صيف.

واغترضَ حديثٌ فقال: أنشدني بَيْتِي ابنُ غَسَّانِ البَصْرِيُّ فِي حَدِيثِ بَخْتِيَارٍ،
يَعْنِي عِزَّ الدَّوْلَةِ، فَأَنْشَدْتُهُ:

أَقَامَ عَلَى الْأَهْوَاذِ سِتِّينَ لَيْلَةً يَدْبُرُ أَمْرَ الْمَلِكِ حَتَّى تَدْمَرَ
يَدْبُرُ أَمْرًا كَانَ أَوْلُهُ عَمِي وَأَوْسَطُهُ تُكْلًا وَأَخْرَهُ خَرًا

فقال: ما أعجبَ الأمورَ التي تأتي بها الدهور! عُدْ إلى قِرَاءَتِكَ، فَعُدْتُ وَقَرَأْتُ.

رُوي في الحديث: لا تَأْكُلُوا ذِرْوَةَ الثَّرِيدِ، فَإِنَّ الْبَرَكَهَ فِيهَا.

وقال أعرابي: اللَّبَنُ أَحَدُ اللَّحْمَيْنِ، وَمَلِكُ الْعَجِينِ أَحَدُ الرَّيْعَيْنِ؛ وَالْمَرْقَةُ أَحَدُ
اللَّحْمَيْنِ، وَالبَلَاغَةُ أَحَدُ السَّيْفَيْنِ وَالتَّمْيِي أَحَدُ السُّكَّرَيْنِ.

أراد مُزَبَّدٌ أَضْحِيَّةً فَلَمْ يَجِدْهَا، فَأَخَذَ دِيكًا لِيُضْحِيَ بِهِ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِ جِيرَانُهُ شَاءَ شَاءَ
حَتَّى اجْتَمَعَ عِنْدَهُ سَبْعُ شِيَاهٍ، فَقَالَ: دِيكِي أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ إِسْحَاقَ لِأَنَّهُ فُدى
بِكَبْشٍ، وَدِيكِي بِسَبْعَةٍ.

الْكُتْلُ: اللَّحْمُ، وَالْعَيْمَةُ: شَهْوَةُ اللَّبَنِ، وَالقَرَمُ: شَهْوَةُ اللَّحْمِ.

وقال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يِرُقَ قَلْبُهُ فَلْيَكْثِرْ مِنْ أَكْلِ الْبَلَسِ»^(١). قيل: هو التين.

وقال أعرابي:

يَمُنُّ عَلَيَّ بِالتَّزْوِيجِ شَيْخِي وَفِي التَّزْوِيجِ لِي هَمٌّ وَشُغْلُ
وَكَنْتُ مِنَ الْهُمُومِ رَخِيَّ بِالِ فَحَلَّ مِنَ الْهُمُومِ عَلَيَّ ثِقْلُ
فَقُلْتُ لَهُ: مَنَنْتَ بَعِيرٍ مَنْ وَمَالِكَ بِالذِّي أُسْدَيْتَ فَضْلُ
أَعْرَابِ الْعَشِيرَةِ لَوْ عَلِمْتُمْ بِحَالِي حِينَ لِي بَيْتٌ وَأَهْلُ
عَلِمْتُمْ أَنْكُمْ فِي حَالِ عَيْشٍ رَخِيَّ مَالَهُ يَأْقُومُ عَدْلُ

قال إسحاق الموصلي: أَمَلَى بَعْضُ الْفُقَهَاءِ بِالْكُوفَةِ أَنَّ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ كَرِهَ السَّمَرَ إِلَّا فِي الْفِقْهِ، يَرِيدُ كَثْرَةَ السَّمْرِ إِلَّا فِي الْفِقْهِ.

قيل لميسرة الرأس: ما أكثرُ ما أكلت؟ قال: مائةٌ رَغِيْفٍ بِكَيْلَجَةٍ مِلْحٍ؛
فَقِيلَ: هَذَا أَكَلْتُكَ فِي بَيْتِكَ؟ قال: أَكَلْتُ فِي بَيْتِي رَغِيْفَيْنِ، وَأَحْتَشِي إِلَى اللَّيْلِ
فِي شَلِّ الْخَيْلِ.

تَنَاولَ الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ تَفَاحَةً فَأَكَلَهَا، فَقِيلَ: وَنَحَكَ، تَأْكُلُ التَّحِيَّاتِ؟ فَقَالَ:
وَالصَّلَوَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ.

(١) في كشف الخفا: رقم ٥٥٤٤: فيه متروك ومنكر الحديث وكذاب. والبلس: العدس. وقال
النوي: حديث أكل البطيخ والباقلاء والعدس والأرز ليس فيها شيء صحيح.

يقال: الطَّعْمَةُ: الكَسْبُ. ويقال: جئْتُ بالطَّعْمَةِ. والطَّعْمُ: الطَّعَامُ: والطَّعْمُ: الذُّوقُ. وهذه الأَرْضُ طُعْمَةٌ لَكَ وطَّعْمَةٌ.

قال إسحاق: كنت يوماً عند أحمد بن يوسف الكاتب، فدخل أحمد بن أبي خالد الكاتب ونحن في الغناء، فقال: والله ما أجد شيئاً مما أنتم فيه. قال إسحاق: فهان عليّ وخفّ في عيني، فقلت له كالمستهزئ به: جُعِلْتُ فِدَاكَ، قَصَدْتَ إلى أرقّ شيء خَلَقَهُ اللهُ وألَيَّه على الأذنين والقَلْبِ، وأظْهَرِه للسرور والفرح، وأنفاه للهَمَّ والحزن، وما ليس للجوارح منه مؤونة غليظة، وإنما يفرغ السَّمْعُ وهو منه على مسافة، فتطرب له النفس، فذمّمته؟! ولكنه كان يقال: لا يجتمع في رجل شهوة كل لذة، وبعد، فإن شهوة كل رجل على قدر تركيبه ومزاجه. قال: أجل، أما أنا فالطعام الرقيق أعجب إليّ من الغناء. فقلت: إي والله ولحم البقر والجواميس والطيوس الجبليّة بالبانجان الميزر أيضاً تقدّمه؟ فقال: الغناء مُخْتَلَفٌ فيه، وقد كرهه قوم. قلتُ: فالمُخْتَلَفُ فيه أطلقه لنا حتى تُجمِعُوا على تحريمه، أعلمت - جُعِلْتُ فِدَاكَ - أن الأوائل كانت تقول: مَنْ سَمِعَ الغِنَاءَ على حقيقته مات. فقال: اللهم لا تُسمِغنا على الحقيقة إذا فتموت. فاستظرفته في هذه اللفظة، وقدموا إليه الطعام فشغل عن ذم الغناء.

قال سعيد بن أبي عروّة: نزل الحجاج في طريق مكة، فقال لحاجبه: انظر أعريباً يتعدى معي، وأسأله عن بعض الأمر، فنظر الحاجب إلى أعرابي بين شملين، فقال: أجب الأمير، فاتاه، فقال له الحجاج: إذن فتعدّ معي. فقال: إنه دعاني من هو أولى منك فأجبتّه. قال: ومن هو؟ قال: الله عز وجل دعاني إلى الصوم فصُمت، قال: أفي هذا اليوم الحار؟ قال: نعم، صُمتُه ليوم هو أشدّ منه حرّاً. قال: فأفطر وصُمتُ غداً. قال: إن صُمتت لي البقاء إلى غد. قال: ليس ذلك إليّ. قال: فكيف تسألني عاجلاً بأجل لا تقدّر عليه؟ قال: إنه طعام طيب. قال: إنك لم تطيبه ولا الحَبَّاز؛ ولكن العافية طيبته، ولم يُفطر، وخرج من عنده.

قال أعرابي: هذا الطَّعَامُ مَطِيْبَةٌ لِلنَّفْسِ، مَحْسَنَةٌ لِلْجِسْمِ.

قال أبو حاتم: حدّثنا الأصمعيّ قال: قال أبو طفيلة الجرمازيّ: قال أعرابيّ: ضيفت رجلاً فأتانا بخبزٍ من بُرٍّ كأنه مناقير الثُّغْران^(١)، وأتانا بتمرٍ كأغناقِ الوزلان^(٢)، يوحل فيه الضرس.

وقال آخر: ونظر إلى رجلٍ يأكل بالعين والشم واليد والرأس والرجل: لو سألتَه عن اسمه لما ذكره، ولو طلع ولده الغائب عليه ما عرفه:

يَلْعَبُ بِالْخُمْسَةِ فِي قَضَعَةٍ لِيَغِبَ أَخِي الشُّطْرُنْجُ بِالشَّاهِ

(٢) دابة شبيهة بالضب.

(١) فرخ العصفور.

قال ابن الأعرابي: كان المُحَسِّن الضبي شَرَّها على الطعام، وكان دميماً، فقال له زياد ذات يوم: كم عيالُك؟ قال: تسعُ بنات... قال: فأين هُنَّ منك. فقال: أنا أَحْسَنُ مِنْهُنَّ وهنَّ أَكَلُ مِنِّي؛ فَضَحِكَ. وقال: جازَ ما سألتَ لهنَّ. وأمرَ له بأربعةِ آلافِ دِرْهَمٍ، فقال:

إذا كنتَ مُرْتَادَ الرِّجَالِ لِنَفْعِهِمْ فنَادِ زِيَاداً أَوْ أَخَا لَزِيَادِ
يُجِيبُكَ أَمْرُؤُ يُعْطِي عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ إِذَا ضَنَّ بِالْمَعْرُوفِ كُلِّ جَوَادِ
وقال سِنَانُ بْنُ أَبِي حَارِثَةَ:

ثُمَّ أَطْعِمُ زَادِي غَيْرَ مُدْخِرٍ أَهْلَ الْمَحَلَّةِ مِنْ جَارٍ وَمِنْ جَادِي
قَدْ يَعْلَمُ الْقَوْمُ إِذْ طَالَ اغْتِرَابُهُمْ وَأَزْمَلُوا الزَّادَ أَنِّي مُنْفِدُ زَادِي
وقال السَّفَاحُ بْنُ بَكْرٍ:

وَالْمَالِيُّ الشُّبَيْزِيُّ لِأَضْيَافِهِ كَأَنَّهَا أَغْضَادُ حَوْضِ بَقَاعِ
لَا يَخْرُجُ الْأَضْيَافُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا وَهُمْ مِنْهُ رِوَاءُ شِبَاعِ
أوردَ أعرابيُّ إبْلَهُ، فأبى أهلُ الماءِ أن يَجِيزُوهُ، وقالوا: إبْلُكَ كَثِيرَةٌ، فَإِنْ أوردتَ فَشَرِطْ
أَنْ تَقِفَ بَعِيداً عَنِ الْمَاءِ وَتَسْقِي مَا جَاءَكَ مِنْهَا، وَلَا تُحَاجِزْ بِهَا؛ قَالَ: أَفْعَلُ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

رُبَّ طَبِيخٍ مِرْجَلٍ مِلْهُوَجٍ يَسْأَلُهُ الْقَوْمُ وَلَمَّا يَنْضَجِ
حُشٌّ بِشَيْءٍ مِنْ ضِرَامِ الْعَرْفَجِ

فَانْقَضَتْ الْإِبِلُ كُلُّهَا عَلَى الْمَاءِ فَشَرِبَتْ.
قال الشاعر:

شُرِبَ النَّبِيذُ عَلَى الطَّعَامِ قَلِيلُهُ فِيهِ الشُّفَاءُ وَصِحَّةُ الْأَبْدَانِ
وَإِذَا شَرِبْتَهُ كَثِيرَهُ فَكَثِيرُهُ مُزْجٌ عَلَيْكَ رِكَائِبُ الشَّيْطَانِ
فَتَكُونُ بَيْنَ الضَّاحِكِينَ كَبُومَةٍ عَمِيَاءَ بَيْنَ جَمَاعَةِ الْغُرْبَانِ
فَاخْذِرْ بِجُهْدِكَ أَنْ تُرَى كَجَنِيْبَةٍ بَعْدَ الْعِشَاءِ تُقَادُ بِالْأُزْسَانِ

قال حَمَزَةُ الْمُصَنِّفِ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ: أَنْ اتَّخِذْ لَنَا
سُوراً، أَيْ طَعَامَ كَطَعَامِ الْوَالِيمَةِ، وَهِيَ فَارِسِيَّةٌ.

قال شيخنا أبو سعيد السِّيرَافِيِّ: أَخْطَأَ هَذَا الْمَتَأَوَّلُ، وَإِنَّمَا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ: أَنْ سَلْمَانَ
اتَّخِذْ لَنَا حَنْدَقاً يَوْمَ الْأَحْزَابِ، لِأَنَّهُ حَضَّ عَلَى ذَلِكَ، وَلَيْسَ ذَا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْفِظِ.

وقال جَعْفِرُ بْنُ الْمُؤَسَّسِ فِي وَصْفِ عَصِيدَةٍ:

وَمَاءٌ عَصِيدَةٍ حَمْرَاءُ تَخْكِي إِذَا أَبْصَرْتَهَا مَاءَ الْخَلُوقِ
تَنْزِلُ عَنِ اللَّهَاءِ تَمَرٌ سَهْلًا وَتَجْرِي فِي الْعِظَامِ وَفِي الْعُرُوقِ

قال الحسن بن سهل: أشياء تذهب هباء: دين بلا عقل، ومال بلا بذل وعشق بلا وصل. فقال حميد: بقي عليه مائدة بلا نقل، ولحسة بلا فضل.

قيل لصوفي: ما حدّ الشَّبَع؟ قال: الموت.

وقيل لآخر: ما حدّ الشَّبَع؟ قال: أكل حتى يقع عليّ السُّبَات فأنام على وجهي وتتجافى أطرافي عن الأرض.

وقيل لآخر: ما حدّ الشَّبَع؟ قال: أن أدخل إصبعي في حلقي فيصِلَ إلى الطعام.

قال يعقوب: أصبحت خالفاً: لا أشتهي الطعام. وخُلوْف البَطْنِ تَغْيِرُهُ.

ويقال: مَعْسِنِي بَطْنِي، وهو المَعْس، ورجل مَمْعُوس.

ويقال: عَمَزَنِي بَطْنِي وَمَلَكَنِي.

والعامّة تقول: كل ما في القَدْرِ تُخْرِجُهُ المِغْرَفَةُ، ورجل مُقْرَضِبٌ وقُرَاضِبٌ

وقِرْضَابٌ إذا كان أكولاً، وكذلك السَّيْفُ واللُّصُّ، قال الشاعر:

وليس يَرُدُّ النَّفْسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا من القَوْمِ إِلَّا كُلُّ ماضِي العَزَائِمِ

ومرّ ابن عامر بن عبد القيس وهو يأكلُ بَقْلاً بِمَلْحٍ، فقال: لقد رضيت باليسير.

فقال: أَرْضَى مِنِّي باليسير مَنْ رَضِيَ بالدُّنْيَا عَوْضاً عن الآخِرَةِ.

قال عبد الملك بن مروان: لا تَسْتَاكِنَنَّ إِلَّا عَرَضاً، ولا تَأْكُلَنَّ إِلَّا عَضاً ولا

تَشْرَبَنَّ إِلَّا مَصّاً، ولا تَرْكَبَنَّ إِلَّا نَصّاً^(١)، ولا تَعْقِدَنَّ إِلَّا وَصّاً.

ويقال: ماء قَرَّاح؛ وَخُبْزٌ قَفَّار؛ لا أدم معه، وسويقٌ جافٌّ، ولبنٌ صَرِيحٌ: لَمْ

يُخَالِطُهُ شَيْءٌ.

وقال سعيد بن سلمة: شيطان لا تَشْبَعُ مِنْهُمَا بِيَعْدَادٍ: السَّمْكُ والرُّطْبُ.

قال أعرابي: أكلتُ «فِرْسِيكَةً» وعلى خَوْخَةَ، فجاء غلام حَزَوْرٌ فَنَظَرَ حُرَّتِي.

الفِرْسِيكَةُ: الخَوْخَةُ المَقْدَدَةُ. والخَوْخَةُ: القَمِيصُ الأَخْضَرُ بَطْنٌ بَفَرُو.

والحُرَّةُ: الأذُن.

قيل لحاتم الأصمِّ: بِمِ رُزِقْتَ الحِكْمَةَ؟ قال: بِخَلَاوَةِ البَطْنِ، وَسَخَاوَةِ النَّفْسِ،

ومكابدة الليل.

وقال شقيق البلخي: العِبَادَةُ حِرْفَةٌ، وحاوئُهَا الخَلْوَةُ، وآلتُهَا الجوع.

قال لقمان: إذا امْتَلَأَتِ المَعِدَةُ نَامَتِ الفِكرَةُ، وَخَرِسَتِ الحِكْمَةُ، وَقَعَدَتِ

الأعضاء عن العبادة.

وقال عمر: لولا القيامة لشاركناكم في لين عيشكم.

وقال بعض العرب: أقلل طعامك تحمد منامك.

قال يحيى بن معاذ: الشبع يكتى بالكفر.

وقال غيره: الجوع يكتى بالرحمة.

وقال أعرابي:

تَحَيَّرْتُ مَنِّي خِيْفَةً أَنْ أَضِيْفَهَا كَمَا انْحَازَتْ الْأَفْعَى مَخَافَةَ ضَارِبِ

وَذَكَرَ الْمَهْلَبُ اللَّحْمَ فَقَالَ: إِذَا التَّقَى الْوَارِدُ وَالْغَابِرُ فَتَوَقَّعِ الْفُسَادَ.

الليلة الرابعة والثلاثون

وقال الوزيرُ في بعض الليالي: قد والله ضاق صدري بالغيظ لما يبلغني عن العامة من خوضها في حديثنا، وذكرها أمورنا، وتتبعها لأسرارنا، وتنقيرها عن مكثون أحوالنا، ومكتوم شأننا، وما أدري ما أضنع بها، وإنِّي لأهمُّ في الوقت بعد الوقت بقطع السنة وأيدٍ وأزجلٍ وتثكيلٍ شديدٍ، لعلَّ ذلك يطرخ الهيبة ويخسِم المادة، ويقطع هذه العادة، لحاهمُ الله، ما لهم لا يُقبلون على شؤونهم المهمة، ومعاشهم النافعة، وفرائضهم الواجبة؟ ولمَّ يتقبُّون عمَّا ليس لهم، ويُرْجفون بما لا يُجدي عليهم، ولو حَقَّقوا ما يَقُولون ما كان لهم فيه عائدةٌ ولا فائدة؛ وإنِّي لأعجب من لهجهم وشغفهم بهذا الخلق حتى كأنه من الفرائض المحتومة، والوظائف الملزومة؛ وقد تكرَّر منا الزجر، وشاع الوعيد، وفشا الإنكارُ بين الصغار والكبار، ولقد تعايى عليَّ هذا الأمرُ وأغلق دُوني بابه، وتكاثف عليَّ حجابُه، والله المستعان.

فقلت: أيُّها الوزير، عندي في هذا جوابان: أحدهما ما سمعتُ من شيخنا أبي سليمان، وهو من تفوق في الفضل والحكمة والتجربة ومحبة هذه الدولة والشفقة عليها من كل هبة ودبة؛ والآخرُ مما سمعته من شيخ صوفي، وفي الجوابين فائدتان عظيمتان، ولكن الجملة خشناء، وفيها بعض الغلظة، والحق مرٌّ، ومن توخى الحقَّ احتمل مرارته.

قال: فأذكر الجوابين وإن كانا غليظين، فليس يَنْتَفِعَ بالدواءِ إلا بالصبرِ على بشاعته، وصدود الطبع عن كراهته.

قلت: أما أبو سليمان، فإنه قال في هذه الأيام: ليس ينبغي لمن كان الله عز وجل جعله سائس الناس: عامتهم وخاصتهم وعالمهم وجاهلهم، وضعيفهم وقويهم، وراجحهم وشائليهم، أن يَضَجَرَ مما يبلغه عنهم أو عن واحد منهم لأسباب كثيرة، منها: أن عقله فوق عقولهم، وحلمه أفضل من حلوهم، وصبره أتم من صبرهم؛ ومنها: أنهم إنما جعلوا تحت قدرته، ونيطوا بتدبيره، واخترُّوا بتصرفهم على أمره ونهيه، ليقوم بحق الله تعالى فيهم، ويصبر على جهل جاهلهم، ويكون عماد حاله معهم الرُّفْق بهم، والقيام بمصالحهم، ومنها: أن العلاقة التي بين السلطان وبين الرعية قوية، لآنها إلهية، وهي أوشج من الرجم التي تكون بين الوالد والولد، والمليك والد كبير، كما أن الولد ملك صغير، وما يجب على الوالد في سياسة ولده من الرُّفْق به، والحنو عليه، والرقة له، واجتلاب المنفعة إليه، أكثر ممَّا يجب على الولد في طاعة والده، وذلك أن الولد

غُرٌّ، وقريبُ العَهْدِ بالكَوْنِ، وجاهلٌ بالحال، وعارٍ من التَّجربةِ، كذلك الرَّعِيَّةُ الشبيهة بالوَلَدِ، وكذلك المَلِكُ الشبيهُ بالوالد؛ ومما يزيد هذا المَعْنَى كَشْفًا، ويُكْسِبُهُ لُطْفًا، أَنَّ المَلِكَ لا يكون مَلِكًا إلا بالرَّعِيَّةِ، كما أَنَّ الرَّعِيَّةَ لا تكون رَعِيَّةً إلا بالمَلِكِ، وهذا من الأحوالِ المتضايِفةِ، والأسماءِ المُتَنَاصِفةِ؛ وبسبب هذه العَلاقة المُحَكِّمَةِ والوَصْلَةِ الوَشِيحَةِ، ما لهجَتِ العامَّةُ بتعرِّفِ حالِ سائسِها، والناظرِ في أمرِها، والمالِكِ لزمَامِها، حتى تكون على بيانٍ من رَقَاةِ عيشِها، وطيبِ حَيَاتِها، ودُرُورِ مَوَارِدِها، بالأَمْنِ الفاشي بَيْنِها، والعدلِ الفاضلِ عليها، والخيرِ المجلوبِ إليها، وهذا أمرٌ جارٍ على نظامِ الطَّبِيعَةِ، ومندوبٌ إليه أيضاً في أحكامِ الشريعةِ.

قال: ولو قالت الرَّعِيَّةُ لسلطانِها: لم لا نخوضُ في حَدِيثِكَ، ولا نَبْحُ عن غَيْبِ أَمْرِكَ، ولم لا نَسْأَلُ عن دِينِكَ وَنَحْلَتِكَ وَعَادَتِكَ وَسِيرَتِكَ؟ ولم لا نَقِفُ على حَقِيقَةِ حَالِكَ في لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَمَصَالِحِنَا متعلِّقَةٌ بك، وخَيْرَاتُنَا متوقِّعةٌ من جِهَتِكَ، وَمَسْرَتُنَا مَلْحُوظَةٌ بتدبيرِكَ، ومساءتُنَا مَضْرُوفَةٌ باهتمامِكَ، وتَظَلُّمُنَا مَرْفُوعٌ بِعِزِّكَ، ورفاهيتُنَا حاصِلَةٌ بحسُنِ نَظَرِكَ وجميلِ اعتقادِكَ، وشائعِ رَحْمَتِكَ وبليغِ اجْتِهَادِكَ، ما كان جوابُ سلطانِها وسائسِها؟ أما كان عليه أن يَعْلَمَ أَنَّ الرَّعِيَّةَ مُصِيبَةٌ في دَعْوَاهَا الَّتِي بها استطلَّتْ، بلَى واللَّهِ، الحَقُّ مُعْتَرَفٌ به وإن شَعَبَ الشاغِبِ، وأَعْنَتِ المُعْنِتِ.

قال: ولو قالت الرَّعِيَّةُ أيضاً: وَلِمَ لا تَبْحَثُ عَن أَمْرِكَ؟ وَلِمَ لا تَسْمَعُ كُلَّ عَثُ وَسَمِينٍ مِنَّا! وقد مَلَكْتَ نواصِيئَنَا، وَسَكَنْتَ دِيَارَنَا، وَصَادَرْتَنَا على أموالِنا، وحُلْتَ بَيْنَنَا وبين ضِياعِنَا، وقاسَمْتَنَا مَوَارِئَنَا، وَأَنْسَيْتَنَا رَفَاعَةَ^(١) العيشِ، وطيبِ الحَيَاةِ، وطَمَأْنِينَةَ القلبِ، فطَرَقْنَا مَخُوفَةً، وَمَسَاكِينًا مَنزُولَةً، وَضِياعِنَا مُقَطَّعَةً، وَنَعْمُنَا مَسْلُوبَةً، وَحَرِيمُنَا مُسْتَبَاحًا، وَنَقْدُنَا زائِفًا، وَخَرِاجُنَا مُضَاعَفًا، وَمُعَامَلَتُنَا سِيئَةً، وَجُنْدِيئَنَا مُتَغَطَّرِسًا، وَشُرَطِيئَنَا مُنْحَرِفًا، وَمَسَاجِدُنَا خَرِبَةً، وَوُقُوفُنَا مُنْتَهَبَةً، وَمَارِسَاتُنَا خَاوِيَةً، وَأَعْدَاؤُنَا مُسْتَكْبِلِيَةً، وَعِيُونُنَا سَخِيئَةً، وَصُدُورُنَا مَغِيظَةً، وَبَلِيئَتُنَا مُتَّصِلَةً، وَفَرَحُنَا مَعْدُومًا. ما كان الجوابُ أيضاً عما قالت وعمّا لم تَقُلْ، هَيِّئْ لكَ، وَخَوْفًا على أَنْفُسِها من سَطَوْتِكَ وَصَوْلَتِكَ؟

وحكى لنا في عَرَضِ هذا الكلامِ أَنَّهُ رُفِعَ إلى الخليفةِ المُعْتَضِدِ أَنَّ طائِفَةً من الناسِ يَجْتَمِعُونَ ببابِ الطاقِ ويجلسون في دُكَّانِ شيخِ تَبَّانٍ، وَيُخَوِّضُونَ في الفُضُولِ والأَرْجِيفِ وفنونٍ من الأحاديثِ، وفيهم قَوْمٌ سَراةٌ وتُتَاء^(٢) وَأَهْلُ بِيُوتَاتِ سِوَى من يَسْتَرِقُ السَّمْعَ مِنْهُم من خاصَّةِ الناسِ، وقد تَفَاقَمَ فَسادُهُم وإفْسَادُهُم، فلَمَّا عَرَفَ الخليفةُ ذَلِكَ ضاقَ ذرعاً، وَحَرَجَ صَدْرًا، وامتلأ غَيْظًا، ودَعَا بِعُبَيْدِ اللَّهِ بنِ سُلَيْمَانَ، وَرَمَى بِالرَّفِيعَةِ^(٣) إِلَيْهِ، وقال: انظُرْ فِيها وَتَفَهَّمْها. ففعل، وشاهدَ مِنْ تَرَبُّدِ وَجْهِ المُعْتَضِدِ ما أَرَعَجَ ساكنَ صَدْرِهِ، وَشَرَّدَ

(١) خفضه ولينه.

(٢) الرؤساء.

(٣) الرقعة المرفوعة.

أَلِفَ صَبْرِهِ، وَقَالَ: قَدْ فَهَمْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: فَمَا الدَّوَاءُ؟ قَالَ: تَتَقَدَّمُ بِأَخْذِهِمْ وَصَلْبِ بَعْضِهِمْ وَإِخْرَاقِ بَعْضِهِمْ وَتَغْرِيقِ بَعْضِهِمْ، فَإِنَّ الْعُقُوبَةَ إِذَا اخْتَلَفَتْ، كَانَ الْهَوَلُ أَشَدَّ، وَالْهَيْبَةُ أَفْشَا، وَالزُّجْرُ أَنْجَعُ، وَالْعَامَّةُ أَخَوْفَ.

فَقَالَ الْمُعْتَصِدُ - وَكَانَ أَعْقَلَ مِنَ الْوَزِيرِ -: وَاللَّهِ لَقَدْ بَرَّدَتْ لَهَيْبَ عَضْبِي بِفُورَتِكَ هَذِهِ، وَنَقَلْتَنِي إِلَى اللَّيْنِ بَعْدَ الْغَلْظَةِ، وَحَطَطْتَ عَلَيَّ الرَّفْقَ، مِنْ حَيْثُ أَشْرْتَ بِالْحُرْقِ، وَمَا عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْتَجِيرُ هَذَا فِي دِينِكَ وَهَدْيِكَ وَمُرُوءَتِكَ، وَلَوْ أَمَرْتُكَ بِبَعْضِ مَا رَأَيْتَ بِعَقْلِكَ وَحَزْمِكَ لَكَانَ مِنْ حُسْنِ الْمُؤَاوَزَةِ وَمِنْدُولِ النَّصِيحَةِ وَالنَّظَرِ لِلرَّعِيَّةِ الضَّعِيفَةِ الْجَاهِلَةِ أَنْ تَسْأَلَنِي الْكَفَّ عَنِ الْجَهْلِ، وَتَبْعَنِي عَلَى الْحَلْمِ، وَتُحَبِّبَ إِلَيَّ الصَّفْحَ وَتُرَغِّبَنِي فِي فَضْلِ الْإِغْضَاءِ عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ. وَقَدْ سَاءَنِي جَهْلُكَ بِحُدُودِ الْعِقَابِ وَمَا تُقَابِلُ بِهِ هَذِهِ الْجَرَائِرَ، وَمَا يَكُونُ كُفْأً لِلذُّنُوبِ، وَلَقَدْ عَصَيْتَ اللَّهَ بِهَذَا الرَّأْيِ وَدَلَلْتَ عَلَى قَسْوَةِ الْقَلْبِ وَقِلَّةِ الرَّحْمَةِ وَيُسِّسِ الطَّيْنَةَ وَرِقَّةَ الدِّيَانَةِ، أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الرَّعِيَّةَ وَدِيْعَةَ اللَّهِ عِنْدَ سُلْطَانِهَا؟ وَأَنَّ اللَّهَ يَسْأَلُهَا عَنْهَا كَيْفَ سُنْتَهَا؟ وَلَعَلَّهُ لَا يَسْأَلُهَا، وَإِنْ سَأَلَهَا فَلْيُؤَكِّدِ الْحُجَّةَ عَلَيْهِ مِنْهَا؛ أَلَا تَدْرِي أَنَّ أَحَدًا مِنَ الرَّعِيَّةِ لَا يَقُولُ مَا يَقُولُ إِلَّا لِظُلْمِ لِحِقِّهِ أَوْ لِحِقِّ جَارِهِ، وَدَاهِيَةِ نَالْتَهُ أَوْ نَالَتْ صَاحِبًا لَهُ؟ وَكَيْفَ نَقُولُ لَهُمْ: كُونُوا صَالِحِينَ أَنْفِيَاءَ مُقْبِلِينَ عَلَى مَعَايِشِكُمْ، غَيْرِ خَائِضِينَ فِي حَدِيثِنَا، وَلَا سَائِلِينَ عَن أَمْرِنَا، وَالْعَرَبُ تَقُولُ فِي كَلَامِهَا: غَلَبْنَا السُّلْطَانَ فَلَيْسَ فَرُوتْنَا، وَأَكَلْ خُضْرَتَنَا. وَحَقَّقَ الْمَمْلُوكُ عَلَى الْمَالِكِ مَعْرُوفَ، وَإِنَّمَا يُخْتَمَلُ السَّيِّدُ عَلَى ضُرُوفِ تَكَالِيفِهِ، وَمَكَارِهِ تَصَارِيفِهِ، إِذَا كَانَ الْعَيْشُ فِي كَنْفِهِ رَافِعًا، وَالْأَمَلُ فِيهِ قَوِيًّا، وَالصَّدْرُ عَلَيْهِ بَارِدًا، وَالْقَلْبُ مَعَهُ سَاكِنًا، أَنْظُرْ أَنْ الْعَمَلَ بِالْجَهْلِ يَنْفَعُ، وَالْعُدْرَ بِهِ يَسَعُ، لَا وَاللَّهِ مَا الرَّأْيُ مَا رَأَيْتَ، وَلَا الصَّوَابُ مَا ذَكَرْتَ، وَجَهَّ صَاحِبِكَ وَلِيَكُنْ ذَا خَبْرَةٍ وَرِفْقٍ، وَمَعْرُوفًا بِخَيْرٍ وَصِدْقٍ، حَتَّى يَعْرِفَ حَالَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، وَيَقِفَ عَلَى شَأْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي مَعَاشِهِ، وَقَدِّرْ مَا هُوَ مُتَقَلِّبٌ فِيهِ وَمُنْقَلِبٌ إِلَيْهِ، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ يَصْلُحُ لِلْعَمَلِ فَعَلَّقْهُ بِهِ، وَمَنْ كَانَ سَيِّئَ الْحَالِ فَصَلِّهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ بِمَا يُعِيدُ نَضْرَةَ حَالِهِ، وَيُفِيدُهُ طَمَأْنِينَةً بِالْه؛ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَذَا الرَّهْطِ، وَهُوَ غَنِيٌّ مَكْفِيٌّ، وَإِنَّمَا يُخْرِجُهُ إِلَى دَكَانِ هَذَا التَّبَانِ الْبَطْرُ وَالزَّهْوُ، فَادْعُ بِهِ، وَانصَحْهُ، وَلَا طُفْهِ، وَقُلْ لَهُ: إِنَّ لَفْظَكَ مَسْمُوعٌ، وَكَلَامُكَ مَرْفُوعٌ؛ وَمَتَى وَقَفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى كُنْهِ ذَلِكَ مِنْكَ لَمْ تَجِدْكَ إِلَّا فِي عَرِصَةِ الْمَقَابِرِ، فَاسْتَأْنِفْ لِنَفْسِكَ سِيرَةً تَسْلَمُ بِهَا مِنْ سُلْطَانِكَ، وَتُحَمَّدَ عَلَيْهَا عِنْدَ إِخْوَانِكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْعَلَ نَفْسَكَ عِظَةً لِعَيْرِكَ بَعْدَمَا كَانَ عَيْرُكَ عِظَةً لَكَ؛ وَلَوْلَا أَنَّ الْأَخْذَ بِالْجَرِيرَةِ الْأُولَى مَخَالِفٌ لِلْسِيرَةِ الْمَثَلَى، لَكَانَ هَذَا الَّذِي تَسْمَعُهُ مَا تَرَاهُ، وَمَا تَرَاهُ تَوَدُّ أَنَّكَ لَوْ سَمِعْتَهُ قَبْلَ أَنْ تَرَاهُ. فَإِنَّكَ يَا عَبِيدَ اللَّهِ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ بِالْعَتِّ فِي الْعُقُوبَةِ، وَمَلَكَتْ طَرْفِي الْمَصْلُحَةَ، وَقُمْتَ عَلَى سَوَاءِ السِّيَاسَةِ، وَنَجَوْتَ مِنَ الْحَوْبِ وَالْمَأْثَمِ فِي الْعَاقِبَةِ.

قال: وفارق الوزير حَضْرَةَ الخليفة، وعملَ بما أَمَرَ به على الوَجْهِ اللطيف، فعادت الحال تَرَفَّ بالسَّلامَةِ العامَّة، والعافية التامة؛ فتقدَّم إلى الشَّيخ التَّبَّانُ برَفَعِ حال من يَقَعُدُ عنده حتى يواسَى إن كان مُحتاجاً، ويصْرَفُ إن كان متعطلاً، ويُنصَحُ إن كان متعقلاً.

فقال الوزير: ما سَمِعْتُ مثْلَ هذا قط، وما ظنَّنتُ أن الخَطْبَ في مثلِ هذا يَبْلُغُ هذا القَدْر؛ فهاتِ الجوابَ الآخرَ الذي حَفِظْتَهُ عن الصُّوفيِّ.

فقلتُ: إن كان هذا كافياً فإنَّ ذلكَ فَضَّلَ.

فقال: هكذا هو، وإنَّ فيما مرَّ لكِفاية، وما يَزِيدُ على الكفاية، ولكنَّ الزيادة من العِلْمِ داعيةٌ إلى الزيادة من العَمَلِ، والزيادة من العَمَلِ جالبةُ الانتفاع بالعلم، والانتفاع بالعلم دَلِيلٌ على سَعَادَةِ الإنسان، وسعادة الإنسان مَفْسُومَةٌ على اقتباس العلم والتماس العمل، حتى يكون بأحدهما زارعاً، وبالأخر حاصداً، وبأحدهما تاجراً، وبالأخر رابحاً.

فَوصلتُ الحديثَ وَقلتُ: حَدَّثني شيخ من الصُّوفية في هذه الأيام قال: كنتُ بَنِيْسَابُورَ سنة سبعين وثلاثمائة، وقد اشتغلتُ خُرَاسَانَ بالفِتْنَةِ، وتَبَلَّلتُ دَوْلَةَ آلِ سامانَ بالجور وطول المُدَّة، فلجأ محمدُ بنُ إبراهيمَ صاحبَ الجيشِ إلى قايين، وهي حِصْنُهُ وَمَعْقِلُهُ، ووردَ أبو العباس صاحبُ جيشِ آلِ سامانَ نَيْسَابُورَ بعدةً عَظِيمَةً، وعدةً عَمِيمَةً، وزينةً فاخرةً، وهيئةً باهرةً، وَعَلا السُّعْرُ وأخيفتِ السُّبُلَ، وكَثُرَ الإزجافُ، وساءتِ الظنونُ، وضجَّتِ العامَّةُ، والتَّسَّسَ الرأيُ، وانقطعَ الأملُ، وَبَحَّ كَلْبُ كَلْبٍ من كلِّ زاوية، ورأى كلُّ أسدٍ من كلِّ أجمَةٍ، وضبحَ كلُّ ثعلبٍ من كلِّ تَلْعَةٍ.

قال: وكُنَّا جماعةً غُرباءَ نأوي إلى دُوَيْرَةِ الصُّوفية لا نَبْرَحُها، فتارةً نَقْرَأُ، وتارةً نُصَلِّي، وتارةً نَنَامُ، وتارةً نَهْذِي، والجُوعُ يَعمَلُ عَمَلَهُ، ونَحْوُضُ في حديثِ آلِ سامانَ، والواردِ مِنْ جِهَتِهِمْ إلى هذا المَكانِ، ولا قُدْرَةَ لَنَا على السَّيَاحَةِ لانسدادِ الطَّرِيقِ، وتَخَطَفِ الناسِ للناسِ، وشُمُولِ الخُوفِ، وَعَلَبَةِ الرُّعبِ، وكان البلدُ يَتَّقِدُ ناراً بالسُّؤالِ والتَّعَرُّفِ والإزجافِ بالصُّدُقِ والكذبِ، وما يُقالُ بالهوى والعصبيَّة؛ فضاقتِ صُدُورُنَا، وخبثتِ سرائِرُنَا واستولى عَلَيْنَا الوسواسُ، وقلنا ليلةً: ما تَرَوْنَ يا صحابنا ما دُفِعنا إليه من هذه الأحوالِ الكريهة، كأننا واللَّهِ أصحابُ نَعَمٍ وأزبابُ ضياعٍ نخافُ عليها الغارةَ والنَّهْبَ، وما عَلَيْنَا من ولايةٍ زَيْدٍ، وعزَلِ عمرو، وهلاكِ بَكْرِ، ونجاةِ بَشَرٍ، نحنُ قومٌ قد رَضِينَا في هذه الدنيا العسيرة، ولهذه الحياة القصيرة، بِكِسْرَةِ يابسة، وخِرْقَةٍ بالية، وزاويةٍ مِنَ المَسْجِدِ مع العافية من بلايا طُلابِ الدُّنيا. فما هذا الذي يَعتَرِينَا من هذه الأحاديثِ التي ليس لنا فيها ناقةٌ ولا جَمَلٌ، ولا حَظٌّ ولا أَمَلٌ، فُومُوا بنا غَداً حتى نزور أبا زكريا الزاهد، ونظَّلَ نهارنا عنده لاهينَ عَمَّا نحنُ فيه، ساكنينَ معه، مُقتَدينَ به.

فَاتَّقَ رَأْيُنَا عَلَى ذَلِكَ، فَعَدُّونَا وَصِرْنَا إِلَى أَبِي زَكَرِيَاءَ الزَّاهِدِ، فَلَمَّا دَخَلْنَا رَحَبَ بِنَا، وَفَرِحَ بَزِيَارَتِنَا، وَقَالَ: مَا أَشَوْقَنِي إِلَيْكُمْ، وَمَا أَلْهَفَنِي عَلَيْكُمْ! الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَمَعَنِي وَإِيَّاكُمْ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ، حَدَّثُونِي مَا الَّذِي سَمِعْتُمْ، وَمَاذَا بَلَغَكُمْ مِنْ حَدِيثِ النَّاسِ، وَأَمْرَ هَؤُلَاءِ السُّلَاطِينِ؟ فَرُجُوا عَنِّي؛ وَقُولُوا لِي مَا عِنْدَكُمْ، فَلَا تَكْتُمُونِي شَيْئاً فَمَالِي وَاللَّهِ مَزْعَمِي فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ إِلَّا مَا اتَّصَلَ بِحَدِيثِهِمْ، وَاقْتَرَنَ بِخَبْرِهِمْ! فَلَمَّا وَرَدَ عَلَيْنَا مِنْ هَذَا الزَّاهِدِ الْعَابِدِ مَا وَرَدَ، دُهِشْنَا وَاسْتَوْحَشْنَا، وَقَلْنَا فِي أَنْفُسِنَا: انظُرُوا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ هَرَبْنَا، وَبِأَيِّ شَيْءٍ عَلِقْنَا، وَبِأَيِّ دَاهِيَةٍ دُهِينَا.

قال: فَخَفَّفْنَا الْحَدِيثَ وَانْسَلَلْنَا، فَلَمَّا خَرَجْنَا قَلْنَا: أَرَأَيْتُمْ مَا بُلِينَا بِهِ، وَمَا وَقَعْنَا عَلَيْهِ، ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْأَبَتُوا الْعَمِينَ﴾ [الصفات: ١٠٦]. مِيلُوا بِنَا إِلَى أَبِي عَمْرٍو الزَّاهِدِ فَلَهُ فَضْلٌ وَعِبَادَةٌ وَعِلْمٌ وَتَفَرُّدٌ فِي صَوْمَعَتِهِ حَتَّى تُقِيمَ عِنْدَهُ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ، فَقَدِ نَبَا بِنَا الْمَكَانَ الْأَوَّلَ، وَبَطَلَ قَصْدُنَا فِيمَا عَزَمْنَا عَلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ. فَمَشِينَا إِلَى أَبِي عَمْرٍو الزَّاهِدِ وَاسْتَأْذَنَّا، فَأَذِنَ لَنَا، وَوَصَلْنَا إِلَيْهِ فَسَرَّ بِحُضُورِنَا، وَهَشَّ لِرُؤْيَيْنَا، وَابْتَهَجَ بِقَصْدِنَا، وَأَعْظَمَ زِيَارَتِنَا، ثُمَّ قَالَ: يَا أَصْحَابِنَا مَا عِنْدَكُمْ مِنْ حَدِيثِ النَّاسِ؟ فَقَدِ وَاللَّهِ طَالَ عَطَشِي إِلَى شَيْءٍ أَسْمَعُهُ، وَلَمْ يَدْخُلْ عَلَيَّ الْيَوْمَ أَحَدٌ فَاسْتَحْبِرَهُ، وَإِنَّ أُذُنِي لَدَى الْبَابِ لَا تَسْمَعُ قَرْعَةً أَوْ أَعْرَفَ حَدِيثَةً، فَهَاتُوا مَا مَعَكُمْ وَمَا عِنْدَكُمْ، وَقُصُّوا عَلَيَّ الْقِصَّةَ بِقَصِّهَا وَنَصُّهَا، وَدَعُوا التَّوْرِيَةَ وَالْكِتَابِيَةَ، وَادْكُرُوا الْعَثَّ وَالشِّمِينَ، فَإِنَّ الْحَدِيثَ هَكَذَا يَطِيبُ، وَلَوْلَا الْعَظْمُ مَا طَابَ اللَّحْمُ، وَلَوْلَا التَّوَى مَا حَلَا التَّمْرُ، وَلَوْلَا الْقِشْرُ لَمْ يَوْجِدِ اللَّبَّ.

فَعَجِبْنَا مِنْ هَذَا الزَّاهِدِ الثَّانِي أَكْثَرَ مِنْ عَجَبِنَا مِنَ الزَّاهِدِ الْأَوَّلِ، وَخَاطَفْنَاهُ الْحَدِيثَ، وَوَدَّعْنَاهُ، وَخَرَجْنَا، وَأَقْبَلَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ يَقُولُ: أَرَأَيْتُمْ أَظْرَفَ مِنْ أَمْرِنَا وَأَغْرَبَ مِنْ شَأِنِنَا؟ انظُرُوا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ تَعْرِيجُنَا ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ حَبَابٌ﴾ [ص: ٥] وَتَلَدُّنَا وَتَبَلَّدُنَا وَقَلْنَا: يَا أَصْحَابِنَا: انْطَلِقُوا إِلَى أَبِي الْحَسَنِ الضَّرِيرِ، وَإِنْ كَانَ مَضْرِبُهُ بَعِيداً فَإِنَّا لَا نَجِدُ سَكُونَنَا إِلَّا مَعَهُ، وَلَا نَنْظُرُ بَضَائِلَتَنَا إِلَّا عِنْدَهُ، لِرُؤْيِهِ وَعِبَادَتِهِ وَتَوْحُّدِهِ وَشُغْلِهِ بِنَفْسِهِ مَعَ زَمَانَتِهِ فِي بَصَرِهِ، وَوَرَعِهِ، وَقَلَّةِ فِكْرِهِ فِي الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا. وَطَوِينَا الْأَرْضَ إِلَيْهِ، وَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، وَجَلَسْنَا حَوَالِيَهُ فِي مَسْجِدِهِ، وَلَمَّا سَمِعَ بِنَا أَقْبَلَ عَلَيَّ كُلَّ وَاحِدٍ مَتَا يَلْمَسُهُ بِيَدِهِ وَيُرْحَبُ بِهِ، وَيَدْعُو لَهُ وَيَقْرُبُ، فَلَمَّا انْتَهَى أَقْبَلَ عَلَيْنَا وَقَالَ: أَمِنْ السَّمَاءِ نَزَلْتُمْ عَلَيَّ؟ وَاللَّهِ لَكَأَنِّي قَدْ وَجَدْتُ بِكُمْ مَأْمُولِي، وَأَخْرَزْتُ غَايَةَ سُؤْلِي، قُولُوا لِي غَيْرَ مُخْتَشِمِينَ: مَا عِنْدَكُمْ مِنْ أَحَادِيثِ النَّاسِ؟ وَمَا عَزَمَ عَلَيْهِ هَذَا الْوَارِدُ؟ وَمَا يَقَالُ فِي أَمْرِ ذَلِكَ الْهَارِبِ إِلَى قَائِمِينَ، وَمَا الشَّائِعُ مِنَ الْأَخْبَارِ؟ وَمَا الَّذِي يَتَهَامَسُ بِهِ نَاسٌ دُونَ نَاسٍ؟ وَمَا يَقَعُ فِي هَوَاجِسِكُمْ وَيَسْتَبِقُ إِلَى نَفُوسِكُمْ؟ فَإِنَّكُمْ بُرْدُ الْأَفَاقِ، وَجَوَالَةُ الْأَرْضِ، وَلَقَاطَةُ الْكَلَامِ، وَيَتَسَاقَطُ إِلَيْكُمْ مِنَ الْأَقْطَارِ مَا يَتَعَدَّرُ عَلَى عِظَمَاءِ الْمَمْلُوكِ وَكُبَرَاءِ النَّاسِ.

فَوَرَدَ عَلَيْنَا مِنْ هَذَا الْإِنْسَانِ مَا أَنْسَى الْأَوَّلَ وَالثَّانِي، وَمِمَّا زَادَ فِي عَجَبِنَا أَنَا كُنَّا نَعُدُّهُ فِي طَبَقَةِ فَوْقَ طَبَقَاتِ جَمِيعِ النَّاسِ فَحَقَّقْنَا الْحَدِيثَ مَعَهُ، وَوَدَّعْنَاهُ، وَحَسَسْنَا مِنْ عِنْدِهِ، وَطَفِقْنَا نَتَلَاوُمُ عَلَيَّ زِيَارَتِنَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمِ لَمَّا رَأَيْنَا مِنْهُمْ، وَظَهَرَ لَنَا مِنْ حَالِهِمْ، وَازْدَرَيْنَاهُمْ.

وَانْقَلَبْنَا مَتَوَجِّهِينَ إِلَى دُوَيْرَتِنَا الَّتِي عَدَوْنَا مِنْهَا مُسْتَطَرِّقِينَ كَالْبَيْنِ، فَلَقِينَا فِي الطَّرِيقِ شَيْخًا مِنَ الْحُكَمَاءِ يُقَالُ لَهُ أَبُو الْحَسَنِ الْعَامِرِيُّ، وَهُوَ كِتَابٌ فِي التَّصَوُّفِ قَدْ شَحَنَهُ بَعْلَمِنَا وَإِشَارَتِنَا، وَكَانَ مِنَ الْجَوَالِينِ الَّذِينَ نَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ وَاطَّلَعُوا عَلَى أَسْرَارِ اللَّهِ فِي الْعِبَادَةِ؛ فَقَالَ لَنَا: مِنْ أَيْنَ دَرَجْتُمْ؟ وَمَنْ قَصَدْتُمْ. فَأَجْلَسْتَاهُ فِي مَسْجِدٍ، وَعَصَبْنَا حَوْلَهُ، وَقَصَصْنَا عَلَيْهِ قِصَّتِنَا مِنْ أَوْلِيهَا إِلَى آخِرِهَا، وَلَمْ نَخْذِفْ مِنْهَا حَرْفًا. فَقَالَ لَنَا: فِي طَيِّ هَذِهِ الْحَالِ الطَّارِئَةِ غَيْبٌ لَا تَقْفُونَ عَلَيْهِ، وَسِرٌّ لَا تَهْتَدُونَ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا غَرَّكُمْ ظَنُّكُمْ بِالزُّهَادِ، وَقَلْتُمْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْخَبِيرُ عَنْهُمْ كَالْخَبِيرِ عَنِ الْعَامَّةِ، لِأَنَّهِمُ الْخَاصَّةُ، وَمِنَ الْخَاصَّةِ خَاصَّةُ الْخَاصَّةِ، لِأَنَّهُمْ بِاللَّهِ يَلُودُونَ، وَإِيَّاهُ يَعْبُدُونَ، وَعَلَيْهِ يَتَوَكَّلُونَ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ، وَمَنْ أَجَلُهُ يَتَهَالِكُونَ، وَبِهِ يَتِمَّ الْكُونَ.

قُلْنَا لَهُ: فَإِنْ رَأَيْتَ يَا مُعَلِّمَ الْخَيْرِ أَنْ تَكْشِفَ عَنَّا هَذَا الْغِطَاءَ، وَتَرْفَعَ هَذَا السُّتْرَ، وَتَعْرِفْنَا مِنْهُ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَكَ مِنْ هَذَا الْغَيْبِ، لَنَكُونَ شَاكِرِينَ، وَتَكُونَ مِنَ الْمَشْكُورِينَ.

فَقَالَ: نَعَمْ، أُمَّا الْعَامَّةُ فَإِنَّهَا تَلْهَجُ بِحَدِيثِ كُبْرَائِهَا وَسَاسَتِهَا لَمَّا تَرْجُو مِنْ رِخَاءِ الْعَيْشِ وَطَيْبِ الْحَيَاةِ وَسَعَةِ الْمَالِ وَدُورِ الْمَنَافِعِ وَاتِّصَالِ الْجَلْبِ وَنَفَاقِ السُّوقِ وَتَضَاعُفِ الرُّبْحِ؛ فَأَمَّا هَذِهِ الطَّائِفَةُ الْعَارِفَةُ بِاللَّهِ، الْعَامِلَةُ لِلَّهِ، فَإِنَّهَا مُؤَلَّعَةٌ أَيْضًا بِحَدِيثِ الْأُمَرَاءِ، وَالْجَبَابِرَةِ الْعِظْمَاءِ، لِيَتَّقِيَ عَلَى تَصَارِيْفِ قُدْرَةِ اللَّهِ فِيهِمْ، وَجِرْيَانِ أَحْكَامِهِ عَلَيْهِمْ، وَنُفُوذِ مَشِيئَتِهِ فِي مَحَابَّتِهِمْ وَمَكَارِهِمْ فِي حَالِ النُّعْمَةِ عَلَيْهِمْ، وَالِانْتِقَامِ مِنْهُمْ، أَلَا تَرَوْنَهُ قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا فُوحًا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَعْتَهُ فَاذَاهُمْ مُبْسُوتُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وَبِهَذَا الْاِعْتِبَارِ يَسْتَنْبِطُونَ خَوَافِي حِكْمَتِهِ، وَيَطْلَعُونَ عَلَى تَتَابُعِ نِعْمَتِهِ وَغَرَائِبِ نِقْمَتِهِ، وَهَاهُنَا يَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ مُلْكٍ سِوَى مُلْكِ اللَّهِ زَائِلٌ، وَكُلُّ نَعِيمٍ غَيْرِ نَعِيمِ الْجَنَّةِ حَائِلٌ، وَيَصِيرُ هَذَا كُلُّهُ سَبَبًا قَوِيًّا لَهُمْ فِي الضَّرْعِ إِلَى اللَّهِ، وَاللِّيَازِ بِاللَّهِ، وَالْخُشُوعِ لِلَّهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَيَتَّبِعُونَ بِهِ مِنْ حِرَانِ الْإِبَاءِ، إِلَى انْقِيَادِ الْإِجَابَةِ، وَيَتَّبِعُونَ مِنْ رَقْدَةِ الْعَفْلَةِ، وَيَكْتَحِلُونَ بِالْيَقِظَةِ مِنْ سِنَّةِ السَّهْوِ وَالْبَطَالَةِ، وَيَجِدُّونَ فِي أَخْذِ الْعِتَادِ، وَاكْتِسَابِ الزَّادِ إِلَى الْمَعَادِ، وَيَعْمَلُونَ فِي الْخِلَاصِ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ الْحَرَجِ بِالْمَكَارِهِ، الْمَحْفُوفِ بِالرِّزَايَا، الَّذِي لَمْ يُفْلِحْ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ هَدَمَهُ وَثَلَمَهُ، وَهَرَبَ مِنْهُ، وَرَحَلَ عَنْهُ إِلَى مَحَلٍّ لَا دَاءَ فِيهِ وَلَا غَائِلَةٌ؛ سَاكِنُهُ خَالِدٌ، وَمَقِيمُهُ مُثْمَنٌ، وَالْفَائِزُ بِهِ مَنْعَمٌ، وَالْوَاصِلُ إِلَيْهِ مَكْرَمٌ، وَبَيْنَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ فِي هَذِهِ الْحَالِ وَفِي غَيْرِهَا فَرْقٌ يَضِيحٌ لِمَنْ رَفَعَ اللَّهُ طَرْفَهُ إِلَيْهِ، وَفَتَحَ بَابَ السَّرِّ فِيهِ عَلَيْهِ، قَدْ يَتَشَابَهَ الرَّجُلَانِ فِي فِعْلٍ،

وأحدهما مذموم، والآخر محمود، وقد رأينا مُصَلِّياً إلى القِبْلَةِ وقلْبُهُ مُعَلَّقٌ بإخلاص العِبَادَةِ، وَآخَرَ إلى جانبِهِ أيضاً يَصَلِّي إلى القِبْلَةِ وقلْبُهُ في طَرَفٍ ما في كُفِّ الآخَرِ، فلا تُنْظَرُوا من كُلِّ شيءٍ إلى ظاهِرِهِ إلا بعدَ أَنْ تَصِلُوا بِنَظَرِكُمْ إلى باطنِهِ، فإنَّ الباطنَ إذا واطأ الظاهر كان توحّداً، وإذا خالفَهُ إلى الحقِّ كانَ وَحْدَةً، وإذا خالفَهُ إلى الباطلِ كان ضلالةً، وهذه المقامات مُرتَبَةٌ لأصحابِها، وموقوفةٌ على أربابِها؛ ليس لغيرِ أهلِها فيها نَفْسٌ، ولا لغيرِ مُستَحِقِّها منها قَبَسٌ.

قال الشيخ الصوفي: فوالله ما زال ذلك الحكيم يخشو آذاننا بهذه وما أشبهها، ويملاً صدورنا بما عنده حتى سررنا وانصرفنا إلى متعشانا وقد استفدنا على يأس منّا فائدة عظيمة لو تمنيناها بالغرم الثقيل والسعي الطويل لكان الرُبْحُ معنا، والزيادة في أيدينا.

فلما سمع الوزيرُ هذا عَجِبَ وقال: لا أدري: أكلامُ أبي سليمان في ذلك الاحتجاج أبلغ، أم الحكاية عن المُعتَضِدِ أَشْفَى، أم رواية الشيخ الصوفي أطرف، وما عَلِمْتُ أَنْ في البَحْثِ عن سِرِّ الإزجاف هذه اللطيفة الخفية، وهذه الحجة الجليلة، وكُنْتُ أرى أَنَّ الصُوفِيَّةَ لا يَزْجَعُونَ إلى رُكْنٍ مِنَ العِلْمِ، وَنَصِيبٍ مِنَ الحِكْمَةِ، وَأَنَّهُمْ إِنما يَهْدُونَ بما لا يَعْلَمُونَ، وَأَنْ بِناءِ أمرِهِم على اللَّعِبِ واللَّهْوِ والمجون.

فقلت: لو جُمِعَ كلامُ أئمتهم وأعلامهم لزاد على عشرة آلاف وَرَقَةٍ عَمَّنْ نَقَفَ عليه في هذه البِقاعِ المتقاربة، سِوَى ما عند قومِ آخِرِينَ لا نَسْمَعُ بهم، ولا يَبْلُغُنَا خَبْرُهُمْ.

قال: فاذا ذكر لي جماعة منهم.

قلت: الجُنَيْدُ بن محمد الصوفي البغدادي العالم، والحاترُ بن أسد المُحاسِبِي، وَرُوَيْمِ، وَأبو سَعِيدِ الخَرَّازِ، وعمرو بن عثمان المكي، وأبو يزيد البسطامي، والفتح الموصلي، وهو الذي سَمِعَ وهو يقول: إلى متى تُرَدُّدُنِي في سِجِّكَ الموصِلِ، أما أَنْ لِلحَبِيبِ أَنْ يَلْقَى حَبِيبَهُ؟ فمات بعد جُمُعَةٍ.

فقال: هذا عَجِبٌ. ولقد مرَّ في هذا الفَنِّ ما كان فوق حُسبانِي وأكثرُ ممَّا كان في ظنِّي، وكم مِنْ شيءٍ حَقِيرٍ يُطْلَعُ منه على أمرٍ كبيرٍ.

وقال: أنشدني شيئاً؛ فأنشدته قول الشاعر:

وكان تحلّمي عنه لجماماً	رَجَعْتُ على السَّفِيهِ بِفَضْلِ جِلْمِي
أسافُهُ وقلت له: سلاماً	وَظَنَّ بِي السَّفاهَةَ فَلَمْ يَجِدْنِي
وقد كَسَبَ المَذَلَّةَ والمَلاماً	فَقامَ يَجُرُّ رِجْلَيْهِ ذَلِيلًا
وأخرى أَنْ يَنالَ بِهِ انتقاماً	وَفَضَلَ الجِلْمَ أَبْلَغُ في سَفِيهِ

فقال: ما أعجب أمرَ العَرَبِ، تأمرُ بالجلْمِ مرّةً، والصَّبْرِ والكُظْمِ مرّةً، وتُحُثُّ

بعد ذلك على الانتصاف وأخذ الثأر، وتذمُّ السَّفَهَ وقَمَعَ العَدُوَّ! وهكذا شأنها في جميع الأخلاق؛ أعني أنها رُبَّمَا حَضَّتْ عَلَى القَنَاعَةِ والصَّبْرِ والرِّضَا بالمَيْسُور، ورُبَّمَا خَالَفَتْ هَذَا، فَأَخَذَتْ تَذَكُّرُ أَنَّ ذَلِكَ فَسَالَةٌ وَنُقْصَانُ هِمَّةٍ وَلِينُ عَرِيكَةٍ وَمَهَانَةٌ نَفْسٍ؛ وكذلك أيضاً تَحَثُّ عَلَى البَسَالَةِ والإقْدَامِ والانتصارِ والحِمِيَّةِ والجَسَارَةِ؛ ورُبَّمَا عَدَلَتْ إِلَى أضدادِ هذه الأخلاقِ والسَّجَايَا والضَّرَائِبِ والأحوالِ؛ فِي أَوْقَاتٍ يَحْسُنُ فِيهَا بَعْضُهَا، وَيَقْبُحُ بَعْضُهَا، وَيُعَدِّرُ صَاحِبُهَا فِي بَعْضِهَا، وَيَلَامُ فِي بَعْضِهَا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الطَّبَائِعَ مُخْتَلِفَةٌ، وَالغَرَائِزَ متعادية، فَهَذَا يَمْدَحُ البُخْلَ فِي عُرْضِ الحَزْمِ، وَهَذَا يَحْمَدُ الاقْتِصَادَ فِي جُمْلَةِ الاحْتِيَاظِ، وَهَذَا يَذُمُّ الشَّجَاعَةَ فِي عُرْضِ طَلَبِ السَّلَامَةِ؛ وَلَيْسَ فِي جَمِيعِ الأخلاقِ شَيْءٌ يَحْسُنُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ، بَلْ لِكُلِّ ذَلِكَ وَقْتُ وَجَيْنٌ وَأَوَانٌ.

قال: وَلَعَمْرِي إِنَّ القِيَامَ بِحَقَائِقِ هَذِهِ الأَشْيَاءِ وَحُدُودِهَا صَعْبٌ، لِأَنَّهَا لَا تَوْجِدُ إِلَّا مُتَلَابِسَةً وَمُتَدَاخِلَةً، وَتَخْلِيصُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِحَدِّهِ وَحَقِيقَتِهِ وَوَزْنِهِ مِمَّا يَقُوتُ دَرْعُ الإِنْسَانِ الضَّعِيفِ المُتَمِّ، المُنْتَثِرِ الطَّيْنَةَ.

قال: وَمِنْهُ أَنَّ الحَكِيمَ قَالَ لِإِسْكَندَرَ: «أَيُّهَا المَلِكُ أَرِذْ حَيَاتِكَ لِرِجَالِكَ، وَلَا تُرِذْ رِجَالَكَ لِحَيَاتِكَ»؛ وَلَوْ قَلَبَ عَلَيْهِ قَالِبٌ فَقَالَ: لَا: «وَلَكِنْ أَرِذْ رِجَالَكَ لِحَيَاتِكَ، وَلَا تُرِذْ حَيَاتِكَ لِرِجَالِكَ»، لَكَانَ الفَضْلُ وإِقْعَاءُ، وَالدَّعْوَى قَائِمَةً.

وَكَانَ يُحْكِي عَنِ أَعْرَابِيِّ حَدِيثٍ مُضْحِكٍ: قِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَتَرِيدُ أَنْ تُصَلِّبَ فِي مَضْلَحَةِ الأُمَّةِ؟ فَقَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أَحِبُّ أَنْ تُصَلِّبَ الأُمَّةُ فِي مَضْلَحَتِي.

قال: وَلَيْسَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ مُخْتَلِفِينَ فِي ظَاهِرِهِمْ بِالصُّورِ وَالحُلَى حَتَّى يُعْرِفَ بِهَا زَيْدٌ مِنْ عَمْرٍو، وَيَكْرَهُ مِنْ خَالِدٍ، وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِي بَاطِنِهِمْ حَتَّى يَكُونَ هَذَا مَطْبُوعاً عَلَى الشَّحِّ وَإِنْ مَدَحَ الجُودِ، وَهَذَا مَجْبُولاً عَلَى الجُبْنِ، وَإِنْ تَشَبَّحَ لِلشَّجَاعَةِ؛ وَلَيْسَ يَجُوزُ فِي الحِكْمَةِ أَنْ يَكْتُرُوا وَلَا يَخْتَلِفُوا، وَلَيْسَ يَجُوزُ أَيْضاً أَنْ يُضَمَّ الجِنْسُ وَالتَّنَوُّعُ وَلَا يَأْتَلِفُوا؛ وَكُلُّ مَا أَسَاعَتْهُ الحِكْمَةُ أَبْرَزَتْهُ القُدْرَةُ، وَكُلُّ مَا جَادَتْ بِهِ القُدْرَةُ شَهَدَتْ لَهُ الحِكْمَةَ؛ فَسَبْحَانَ مَنْ لَهُ هَذَا التَّدْبِيرُ اللُّطِيفُ، وَهَذَا العِزُّ الغَالِبُ، وَهَذَا السَّرُّ الخَافِي، وَهَذِهِ العِلَالِيَّةُ البَادِيَّةُ، وَهَذَا الفِعْلُ المُحْكَمُ، وَهَذَا النَّعْتُ المُسْتَعْظَمُ.

وَحَكِيثٌ أَيْضاً فِي شَيْءٍ جَرَى، قَالَ حَكَمَاءُ فَارَسٍ: قَدْ جَرَّبْنَا المُلُوكَ، فَإِذَا مَلَكْنَا السَّمْحَ الجَوَادُ جَادَتْ عَلَيْنَا السَّمَاءُ وَالأَرْضُ، وَإِذَا مَلَكْنَا البَخِيلَ بَخِلَتْ عَلَيْنَا السَّمَاءُ وَالأَرْضُ.

قال أبو سليمان: هَذَا إِذَا صَحَّ فَهُوَ شَاهِدُ القَيْضِ الإِلَهِيِّ المُتَّصِلِ بِالمَلِكِ السَّمْحِ، وَنُضُوبِهِ عَنِ المَلِكِ البَخِيلِ لِأَنَّ المَلِكَ إِلَهَ بَشَرِي.

وقال مرة: مَا التَّمَنِّي؟ - وَقَدْ كَانَ جَرَى مَا افْتَضَى السُّؤَالَ عَنْهُ - .

فقلت: أحمق ناصاً لبغض الحكماء: إن التمني فضل حركة النفس. فقال: جواب رشيق وإن كان فقيراً إلى البسط. فقال: هات من حديث يونان شيئاً آخر.

فقلت: قال أرسطوطاليس: لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته كنا قد بدأنا العلم بنقيضه، ولكننا نطلبه لننقص كل يوم من الجهل، ونزداد كل يوم من العلم. قال: حدثني بشيء فيه جواب حاضر، وللبيده في توقد ظاهر.

فحدثت أن رجلاً أتى الزهري فسأله أن يحدثه ويروي له؛ فأبى عليه، فقال له الرجل: إن الله لم يأخذ الميثاق على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ الميثاق على العلماء أن يعلموا؛ فقال: صدقت، وحدثه.

وحدثنا القاضي أبو حامد المزورودي؛ قال: وقف سائل من هؤلاء الأتكاذ عينا في جامع البصرة وفي المجلس ابن عبد المنصور، وابن معروف، وأبو تمام الزبيني، فسأل وألح؛ فقلت له من بين الجماعة - وقد سجدت من إلحاحه وصفاقه وجهه - يا هذا: نزلت بواد غير ذي رزق. قال: صدقت، ولكن يجبي إليه ثمرات كل شيء. فضحكت الجماعة، وهبنا له دراهم.

ومن الجواب الحاضر المسكت الذي حز الكبد ونقب الفؤاد ما جرى لأبي الحسين البتي مع الشريف محمد بن عمر، فإن ابن عمر قال للبتي: أنت والله شامة ولكنها مسمومة. فقال البتي على النفس: لكنك أيها الشريف شامة مسمومة، عطرت الأرض بها، وسارت البرد بذكرها.

وقال نصر بن سيار بخراسان لأعرابي: هل أتخمت قط. قال: أما من طعامك وطعام أهلك فلا. فيقال: إن نصراً حم من هذا الجواب أياماً؛ وقال: ليتني خرست ولم أفة بسؤال هذا الشيطان.

وجرى حديث الذكور والإناث، فقال الوزير: قد شرف الله الإناث بتقديم ذكرهن في قوله عز وجل: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] فقلت: في هذا نظر؛ فقال: ما هو؟

قلت: قدّم الإناث - كما قلت - ولكن نكر، وأخر الذكور ولكن عرف، والتعريف بالتأخير أشرف من النكرة بالتقديم. ثم قال: هذا حسن. قلت: ولم يترك هذا أيضاً حتى قال: ﴿أَوْ يُزَوِّجَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَإِنَّا لَنَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥٠] فجمع الجنس بالتكبير مع تقديم الذكور، فقال: هذا مستوفى.

وقال: ما معنى كأس أنف؟

فكان من الجواب أن يعقوب قال: يقال كأس أنف، أي لم يشرب منها قبل ذلك؛ وكذلك يقال: روضة أنف، إذا لم يكن رعاها أحد.

وقال لقيط :

إِنَّ الشُّوَاءَ وَالنَّشِيلَ وَالرُّغْفَ وَالْقَيْنَةَ الْحَسَنَاءَ وَالكَأْسَ الْأَثْفَ
لِلطَّاعِنِينَ الْحَيْلَ وَالْحَيْلُ قُطْفَ

قال : ما النَّشِيلُ؟ فَإِنَّ الشُّوَاءَ وَالرُّغْفَ مَعْرُوفَانِ .

قلت : ما ضَمَّتَهُ الْقِدْرُ مِنَ اللَّحْمِ وَغَيْرِهِ ، لِأَنَّهُ يُنْشَلُ وَيَعْرَفُ ؛ فَقَالَ : هَذَا بَابٌ إِنَّ
الْحَحْنَ عَلَيْهِ جَوْع .

قال : ما تَحْفَظُ فِي حَدِيثِ الْأَكْلِ؟ قُلْتُ : الْأَكْلَ وَالذَّمَّ . وَمِنْ مَلِيحِهِ مَا
حَضَرَنِي : قِيلَ لَجَمِيْزٍ : مَا تَشْتَهِي؟ قال : بَسِيْسٌ مَقْلِيٌّ بَيْنَ عَلْيَانِ قُدُورٍ ، عَلَى رَائِحَةِ
شِوَاءٍ ، بِجَنْبِ حَبِيص .

فضحك - أَضْحَكَ اللَّهُ سِنَّهُ بِالْفَرْحِ وَالسُّرُورِ ، وَانْتِظَامِ الْأَحْوَالِ وَاتِّسَاقِ الْأُمُورِ - .

وقال : هَاتِ حَدِيثًا تَخْرُجُ بِهِ مِمَّا كُنَّا فِيهِ .

فقلتُ : كَتَبَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ إِلَى رُسْتَمِ صَاحِبِ الْأَعَاجِمِ : إِسْلَامَكُمْ أَحَبُّ إِلَيْنَا
مِنْ غَنَائِكُمْ ؛ وَقِتَالُكُمْ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ صُلْحِكُمْ . فَبَعَثَ إِلَيْهِ رُسْتَمُ : أَنْتُمْ كَالدُّبَابِ إِذْ نَظَرَ إِلَى
العَسَلِ فَقَالَ : مَنْ يُوَصِّلُنِي إِلَيْهِ بِدَرْهَمَيْنِ ، فَإِذَا نَشِبَ فِيهِ قَالَ : مَنْ يُخْرِجُنِي مِنْهُ بِأَرْبَعَةٍ ،
وَأَنْتَ طَامِعٌ ، وَالطَّمَعُ سَيْرٌ دِيكٌ . فَأَجَابَهُ سَعْدُ : أَنْتُمْ قَوْمٌ تُحَادِثُونَ اللَّهَ وَتُعَانِدُونَ أَنْفُسَكُمْ ،
لَأَنْتُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يَحُولَ الْمُلْكُ عَنْكُمْ إِلَى غَيْرِكُمْ ، وَقَدْ أَخْبَرَكُمْ بِذَلِكَ
حُكَمَاؤُكُمْ وَعُلَمَاؤُكُمْ ، وَتَقَرَّرَ ذَلِكَ عِنْدَكُمْ ، وَأَنْتُمْ دَائِمًا تَدْفَعُونَ الْقَضَاءَ بِنُحُورِكُمْ ، وَتَتَلَقَّوْنَ
عِقَابَهُ بِصُدُورِكُمْ ، هَذِهِ جُرْأَةٌ مِنْكُمْ وَجَهْلٌ فِيكُمْ ، وَلَوْ نَظَرْتُمْ لِأَبْصَرْتُمْ ، وَلَوْ أَبْصَرْتُمْ
لَسَلِمْتُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ، وَلَمَّا كَانَ اللَّهُ مَعَكُمْ كَانَتْ عَلَيْنَا رِيحِكُمْ ، وَالْآنَ لَمَّا
صَارَ اللَّهُ مَعَنَا صَارَتْ رِيحُنَا عَلَيْكُمْ ، فَانْجُوا بِأَنْفُسِكُمْ ، وَاعْتَنِمُوا أَرْوَاحَكُمْ ، وَإِلَّا فَاصْبِرُوا
لِحَرِّ السَّلَاحِ وَالْمِ الْجِرَاحِ ، وَخِزْيِ الْاِفْتِضَاحِ ، وَالسَّلَامِ .

كَتَبَ حُدَيْفَةُ إِلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : إِنَّ الْعَرَبَ قَدْ تَغَيَّرَتْ
أَلْوَانُهَا وَلِحُومُهَا . فَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى سَعْدِ : أَرْتَدُّ لِلْعَرَبِ مَثْرَلًا مَرَّاحًا . فَارْتَادَ لَهُمُ الْكُوفَةُ ،
وَهِيَ بُقْعَةٌ حَضْبَاءُ ، وَرَمْلَةٌ حُمْرَاءُ ، فَقَالَ سَعْدُ : اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاءِ وَمَا أَطْلُتْ ، وَالْأَرْضِ
وَمَا أَقْلُتْ ، وَالرِّيْحِ وَمَا دَرَّتْ ، بَارِكْ لَنَا فِي هَذِهِ الْكُوفَةِ .

وَسَمِعَ عُمَرُ مُنْشِدًا يُنْشِدُ :

مَا سَأَسْنَا مِثْلَكَ يَا بْنَ الْخَطَّابِ أَبْرَ بِالْأَقْصَى وَبِالْأَصْحَابِ

بَعْدَ النَّبِيِّ صَاحِبِ الْكِتَابِ

فَتَحَسَّهُ عُمَرُ وَقَالَ : أَيُّنَ أَبُو بَكْرٍ وَبَيْتِكَ .

قال عُمَرُ وَهُوَ بِمَكَّةَ : لَقَدْ كُنْتُ أُرْعَى إِبِلَ الْخَطَّابِ بِهَذَا الْوَادِي فِي مُدْرَعَةٍ

صُوف، وكانَ فظاً يُتَعَبُّنِي إِذَا عَمِلْتُ، وَيَضْرِبُنِي إِذَا قَصَّرْتُ، وَقَدْ أَمْسَيْتُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ أَحَدٌ، ثُمَّ تَمَثَّلَ:

لَا شَيْءَ إِيمًا تَرَى تَبْقَى بِشَاشْتُهُ يَبْقَى إِلَهُهُ وَيُودِي الْمَالَ وَالْوَلَدُ
لَمْ تُغْنِ عَن هُزْمِزِ يَوْمًا حَزَائِنُهُ وَالخُلْدَ قَدْ حَاوَلْتَ عَادَ فَمَا خَلَدُوا
وَلَا سَلِيمَانَ إِذْ تَسْرِي الرِّيَّاحُ بِهِ وَالإِنْسُ وَالجِنُّ فِيمَا كَلَّفُوا عُبْدُ
أَيْنَ الْمُلُوكِ الَّتِي كَانَتْ نَوَافِلُهَا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ إِلَيْهَا رَاكِبٌ يَفِدُ
حَوْضِ هُنَالِكَ مَوْرُودٌ بِلَا كَذِبٍ لَا بَدَّ مِنْ وَرْدِنَا يَوْمًا كَمَا وَرَدُوا

وقال عمر: خَيْرُ الدَّوَابِّ الْحَدِيدُ الْفَوَادِ، الصَّحِيحُ الْأَوْتَادِ.

وقال عمر: كَانَتِ الْعَرَبُ أَسَدًا فِي جَزِيرَتِهَا يَأْكُلُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَلَمَّا جَمَعَهُمُ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ لَمْ يَقُمْ لَهُمْ شَيْءٌ.

رَأَى رُسْتَمَ فِي النَّوْمِ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - أَحَدَ سِلَاحِ فَارِسَ وَخَتَمَ عَلَيْهِ وَدَفَعَهُ إِلَى عُمَرَ، فَارْتَاعَ رُسْتَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَيَّقَنَ أَنَّهُ هَالِكٌ.

وقال: أَنَشِدْنِي شَيْئًا، فَأَنشَدْتُهُ لِبَعْضِ آلِ أَبِي طَالِبٍ:

وَلَسْتُ بِمُذْعِنٍ يَوْمًا مُطِيعًا إِلَى مَنْ لَسْتُ أَمِنُ أَنْ يَجُورَا
وَلَكِنِّي مَتَى مَا أَحْشَى مِنْهُ أَحَالِفُ صَارِمًا عَضْبًا تُورَا
وَأَنْزِلُ كُلَّ رَابِيَةٍ بَرَاحٍ أَكُونُ عَلَى الْأَمِيرِ بِهَا أَمِيرَا
وَأَنشَدَنِي لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ، وَلَقَدْ تَمَثَّلَ بِهِ:

إِنِّي لِمَنْ نَبَعَةٍ صُمِّمَ مَكَاسِرُهَا إِذَا تَقَادَحَتِ الْقَضَبَاءُ وَالْعُشْرُ
وَلَا أَلَيْنَ لَغَيْرِ الْحَقِّ أَتْبَعُهُ حَتَّى يَلِينَنَّ لِضِرْسِ الْمَاضِغِ الْحَجْرُ

وَحَدَّثْتُهُ أَنَّ الْمَأْمُونَ قَالَ: قَلِيلَ السَّفَهَةِ يَمْحُو كَثِيرَ الْحِلْمِ، وَأَذْنِي الْإِنْتِصَارِ يُخْرِجُ مِنْ فَضْلِ الْإِغْتِفَارِ، وَعَلَى طَالِبِ الْمَعْرُوفِ الْمَعْدِرَةَ عِنْدَ الْإِمْتِنَاعِ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ الْإِصْطِنَاعِ، وَعَلَى الْمَطْلُوبِ إِلَيْهِ تَعْجِيلُ الْمَوْعُودِ، وَالْإِسْعَافُ بِالْمَوْجُودِ.

فَقَالَ: مَنْ أَفْضَلُ هَؤُلَاءِ؟ يَغْنِي بَنِي الْعَبَّاسِ.

فَكَانَ الْجَوَابُ أَنَّ الْمَنْصُورَ أَنْقَدَهُمْ، وَالْمَأْمُونَ أَمَجَدُهُمْ، وَالْمَعْتَصِمَ أَنْجَدَهُمْ، وَالْمَعْتَصِدَ أَفْضَلَهُمْ. فَقَالَ: كَذَلِكَ هُوَ. وَقَالَ: فَالْبَاقُونَ؟ قُلْتُ لَيْسَ فِيهِمْ بَعْدَ هَؤُلَاءِ مَنْ يُوحَدُ بِالذِّكْرِ، لِأَنَّهُ فِي نَقْصِهِ وَزِيَادَتِهِ مُشَاكِلٌ لِغَيْرِهِ. فَقَالَ: لِلَّهِ دَرْكٌ.

الليلة الخامسة والثلاثون

وقال ليلةً: ما الفرق بين الإرادة والاختيار؟

فكان من الجواب أن كلَّ مُرادٍ مُختارٍ، وليس كلُّ مختارٍ مُراداً، لأنَّ الإنسانَ يَخْتَارُ شُرْبَ الدواءِ الكَرِيهِ وَضَرْبَ الْوَلَدِ التَّجِيبِ وهو لا يريد، وَيَخْتَارُ طَرْحَ مَتَاعِهِ فِي الْبَحْرِ إِذَا أُلْجِئَ وهو لا يريد، وهما وإن كانا انفعالين فأحدهما - وهو الاختيار - لا يَخْدُثُ إِلَّا عَن جَوْلَانٍ وَتَنْقِيرٍ وَتَمْيِيزٍ، وَالْآخَرُ - وهو الإرادة - يَفْجَأُ وَيَبْغَتُ وَرَبَّمَا حَمَلَ عَلَى طَلَبِ الْمَرَادِ بِالكَزْهِ الشَّدِيدِ؛ وَفِي غُرُضِ الْاِخْتِيَارِ سَعَةٌ لِلتَّمَكُّنِ، وَفِي ذَلِكَ فِي غُرُضِ الْاِرَادَةِ. وَالْعَرَبُ تَسْتَعْمَلُ الْاِرَاغَةَ فِي مَوْضِعِ الْاِرَادَةِ، وَالْأَوَّلُ مِنْ رَاغٍ يَرُوعُ، وَالثَّانِي مِنْ رَادَ يَرُودُ، وَالْهَمْزَةُ مُجْتَلِبَةٌ لِلتَّعْدِي.

قال: فما الفرق بين المحبة والشهوة؟

فكان الجواب أن الشهوة أَلْصَقُ بِالطَّبِيعَةِ، وَالمَحَبَّةُ أَضَدُّ عَنِ النَفْسِ الْفَاضِلَةِ، وَهُمَا انْفِعَالَانِ، إِلَّا أَنَّ أَحَدَ الْاِنْفِعَالَيْنِ أَشَدُّ تَأَثُّراً، وَهُوَ انْفِعَالُ الشَّهْوَةِ، وَأَنَّهُ يُقَالُ: شَهِيَ وَأَشْهَى، وَيُقَالُ فِي الْآخِرِ: حَبَّ وَأَحَبَّ، وَيَتَدَاخَلَانِ كَثِيراً بِالِاسْتِعْمَالِ، لِأَنَّ اللَّغَةَ جَارِيَةً عَلَى التَّوَسُّعِ، كَمَا هِيَ جَارِيَةٌ عَلَى التَّضْيِيقِ، وَمِنْ نَاحِيَةِ التَّضْيِيقِ فُزِعَ إِلَى التَّحْدِيدِ وَالتَّشْدِيدِ، وَمِنْ نَاحِيَةِ التَّوَسُّعِ جُرِيَ عَلَى الْاِقْتِدَارِ وَالاِخْتِيَارِ، وَفِي غُرُضِ هَذَيْنِ بِلَاءٌ آخَرٌ، لِأَنَّهُ بَيْنَ الْاِيجَازِ وَالاِطْنَابِ، وَبَيْنَ الْكِنَايَةِ، وَالتَّصْرِيحِ، وَبَيْنَ الْاِنْجَازِ وَالاِبْطَاءِ. فَقَالَ: هَذَا بَابٌ.

ثم ناولني رقعةً بخطه فيها مطالبُ نفيسة تأتي على عِلْمٍ عَظِيمٍ، وَقَالَ: بَاحِثْ عَنْهَا أَبَا سَلِيمَانَ وَأَبَا الْخَيْرِ وَمَنْ تَعَلَّمَ أَنْ فِي مُجَازَاتِهِ فَائِدَةٌ مِّنْ عَالِمٍ كَبِيرٍ، وَمُتَعَلِّمٌ صَغِيرٌ، فَقَدْ يُوْجَدُ عِنْدَ الْفَقِيرِ بَعْضُ مَا لَا يُوْجَدُ عِنْدَ الْغَنِيِّ، وَلَا تَحْقِرْ أَحَدًا فَاهَ بِكَلِمَةٍ مِّنَ الْعِلْمِ، أَوْ أَطَافَ بِجَانِبٍ مِّنَ الْحِكْمَةِ، أَوْ حَكَمَ بِحَالٍ مِّنَ الْفَضْلِ؛ فَالْتَّفُوسُ مَعَادِنٌ، وَحَصَلُ ذَلِكَ كُلُّهُ وَحَرَزَهُ فِي شَيْءٍ وَجِئْتِي بِهِ، وَكَانَ فِي الرُّقْعَةِ:

مَا النَّفْسُ؟ وَمَا كَمَا لَهَا؟ وَمَا الَّذِي اسْتَفَادَتْ فِي هَذَا الْمَكَانِ؟ وَبِأَيِّ شَيْءٍ بَايَنْتَ الرُّوحَ؟ وَمَا الرُّوحُ؟ وَمَا صِفَتُهُ؟ وَمَا مَنَفَعَتُهُ؟ وَمَا الْمَانِعُ مِنْ أَنْ تَكُونَ النَفْسُ جِسْمًا أَوْ عَرَضًا أَوْ هُمَا؟ وَهَلْ تَبْقَى؟ وَإِنْ كَانَتْ تَبْقَى فَهَلْ تَعْلَمُ مَا كَانَ الْإِنْسَانُ فِيهِ هَاهُنَا؟ وَمَا الْإِنْسَانُ؟ وَمَا حَدُّهُ؟ وَهَلِ الْحَدُّ هُوَ الْحَقِيقَةُ، أَمْ بَيْنَهُمَا بَوْنٌ؟ وَمَا الطَّبِيعَةُ؟ وَهَلَا أَعْنَى

الرُّوحُ عن النَّفْسِ، أو هَلَا أَعْتَتِ النَّفْسُ عن الرُّوحِ؟ وهَلَا كَفَّتِ الطَّبِيعَةُ؟ وما العَقْلُ؟ وما أَنحَاؤُهُ؟ وما صَنِيْعُهُ؟ وهل يُعَقِّلُ العَقْلُ؟ وهل تَتَنَفَّسُ النَّفْسُ! وما مَرْتَبَتُهُ (اعْنِي العَقْلَ) عند الإلهِ؟ وهل يَفْعَلُ؟ وهل يَفْعَلُ؟ وإن كان يَفْعَلُ وَيَفْعَلُ فَمِسْطُ الفِعْلِ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ قِسْطِ الانْفِعَالِ؟ وما المَعَادُ المِشَارُ إِلَيْهِ؟ أهو لِلإنْسَانِ؟ أم لِنَفْسِهِ؟ أم لهُمَا؟ وما الفَرْقُ بَيْنَ الأنْفُسِ، أعْنِي نَفْسَ عَمْرُو وَزَيْدٍ وَبَكْرٍ وَخَالِدٍ؟ ثم ما الفَرْقُ بَيْنَ أنْفُسِ أصْنَافِ الحَيَوَانِ؟ وهل المَلَكُ حَيَوَانٌ؟ فقد عَلِمْتَ أَنَّهُ يُقَالُ لَهُ: حَيٌّ، وهل فِيهِ حَيَاةٌ؟ وَعَلَى أَيِّ وَجْهِ يُقَالُ: إِنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَيٌّ وَالْمَلَكُ حَيٌّ وَالإنْسَانُ حَيٌّ وَالْفَرَسُ حَيٌّ؟ وهل يُقَالُ: الطَّبِيعَةُ حَيَّةٌ، وَالنَّفْسُ حَيَّةٌ، وَالعَقْلُ حَيٌّ؟ فَإِنَّ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ شَاغِلٌ لِقَلْبِي، وَجَائِثٌ فِي صَدْرِي، وَمُعْتَرِضٌ بَيْنَ نَفْسِي وَفِكْرِي؛ وَمَا أَحْبَبْتُ أَنْ تَعْرِضَهَا عَلَيَّ أَبِي سُلَيْمَانَ فَافْعَلْ، وَأَحَدٌ، وَقَدْ بَيَّنَّتُهُ فِي هَذِهِ الرُّقْعَةِ، فَإِنَّ أَحْبَبْتَ أَنْ تَعْرِضَهَا عَلَيَّ أَبِي سُلَيْمَانَ فَافْعَلْ، وَلَكِنْ لَا تَدْعُ حَظِّي عِنْدَهُ، بَلْ انْسَخْهُ لَهُ، وَحَصِّلْ مَا يُحْيِيكَ بِهِ، وَيَصْدَعُ لَكَ بِحَقِيقَتِهِ، وَلَخُصَّهُ، وَزِنَهُ بِلَفْظِكَ السَّهْلِ، وَإِفْصَاحِكَ البَيِّنِ، وَإِنَّ وَجِبَ أَنْ تَبَاحِثَ غَيْرَهُ فَافْعَلْ؛ فَهَذَا هَذَا؛ وَإِنْ كَانَ الرَّجُوعُ فِيهِ إِلَى الكُتُبِ المَوْضُوعَةِ مِنْ أَجْلِهِ كَافِيَاً، فَلَيْسَ ذَلِكَ مِثْلَ البَحْثِ عَنهُ بِالسَّانِ، وَأَخِذْ الجَوَابَ عَنهُ بِالبَيَانِ، وَالكِتَابَ مَوَاتٍ، وَنَصِيبَ النَّاطِرِ فِيهِ مَنزُورٌ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ المَذَاكِرَةُ وَالمُنَاطِرَةُ وَالمَوَاتَاةُ، فَإِنَّ مَا يُنَالُ مِنْ هَذِهِ أَعْضَى وَأَطْرَأً، وَأَهْنَأُ وَأَمْرَأً، وَاجْعَلْ هَذِهِ الخِدْمَةَ مُقَدِّمَةً عَلَى كُلِّ مُهْمٍ لَكَ، فَإِنِّي نَاطِرُكَ، طَامِعاً فِي الجَوَابِ المُقْنَعِ الشَّافِي.

فَعَرَضْتُهَا كَمَا رَسَمَ عَلَيَّ أَبِي سُلَيْمَانَ وَقَرَأْتُهَا عَلَيْهِ، وَتَمَهَّلْتُ فِي إِيرَادِهَا بِحَضْرَتِهِ، فَلَمَّا فَهَمَهَا وَوَقَفَ عَلَيْهَا عَجِبَ وَقَالَ: هَذِهِ مَسَائِلُ المَتَحَكِّمِينَ، وَطَلَبَاتُ المُدْلِينَ، وَاقْتِرَاحَاتُ المُقْتَدِرِينَ، وَمُنِيَّةُ الأَوَّلِينَ وَالأَخِيرِينَ.

قُلْتُ: هُوَ كَمَا قُلْتُ أَيُّهَا الشَّيْخُ، وَلَا بَدَّ مِنْ جَوَابٍ يُعْرَضُ عَلَيْهِ يَأْتِي عَلَى بَعْضِ مَآرِبِ النَّفْسِ، وَإِنْ لَمْ يَأْتِ عَلَى قَاصِيَةِ فِي المَطْلُوبِ. فَقَالَ كَلَاماً كَثِيراً وَاسِعاً أَنَا أَحْكِيهِ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ طَرِيقِ المَعْنَى، وَإِنْ انْحَرَفْتُ عَنْ أَعْيَانِ لَفْظِهِ، وَأَسْبَابِ نَظْمِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِمْلَاءً وَلَا نَسْخاً، وَاجْتَهَدْتُ أَنْ أَلْزِمَ مَتْنَ المُرَادِ، وَسَمَّيْتُ المَقْصُودَ - إِنْ شَاءَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ -.

قَالَ: أَمَا قَوْلُهُ: مَا النَّفْسُ؟ فَإِنَّ التَّحْدِيدَ يُعْزِزُ، وَالرَّسْمَ لَا يَشْفِي، وَالمَوْصُفَ مَقْصُوراً عَنِ الغَايَةِ، لِأَنَّهَا لَيْسَ لَهَا جِنْسٌ وَلَا فَضْلٌ فَيَنْشَأُ الحَدُّ بِهِمَا وَمِنْهُمَا؛ وَالمَاسْمُ الشَّائِعُ - أعْنِي النَّفْسَ - أَخْلَصُ إِلَى المَطْلُوبِ، وَأَخْضَرُ لِمَقْصُودِ التَّحْدِيدِ، وَلِهَذَا مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ قَدِيمَاً وَحَدِيثَاً فِي حُدُودِهَا؛ فَقَالَ قَائِلٌ: النَّفْسُ مِزَاجُ الأَرْكَانِ. وَقَالَ قَائِلٌ: النَّفْسُ تَأْتِي الأُسْطَقْسَاتِ؛ وَقَالَ قَائِلٌ: النَّفْسُ عَرَضٌ مُحَرِّكٌ بِذَاتِهِ. وَقَالَ قَائِلٌ: النَّفْسُ هَوَائِيَّةٌ. وَقَالَ قَائِلٌ: النَّفْسُ رُوحٌ حَارَّةٌ. وَقَالَ قَائِلٌ: النَّفْسُ طَبِيعَةٌ دَائِمَةٌ

الْحَرَكَةُ. وقال قائل: النفسُ تَمَامٌ لجسْمٍ طبيعيٍّ ذي حياة. وقال قائل: النفسُ جَوْهَرٌ ليس بجسْمٍ محرِّكٍ للبدن. وعلى هذا؛ ولعلَّ آخَرِينَ يقولون في تَحْدِيدِهَا وَنَعْتِهَا أَقْوَالاً أُخْرَى، لأنَّ الْمَلْحُوظَ بسيطاً، والمَدْرُوكَ بعيداً، والناظرين كثيرين، والباحثين مختلفين، والكثرة فاتحة الاختلاف، والاختلاف جالبٌ للَحَيْرَةِ، والَحَيْرَةُ خَانِقَةٌ للإنسان، والإنسانُ ضَعِيفُ الأَسْرِ، محدودُ الجُمْلَةِ، مَحْصُورُ التَفْصِيلِ، مقصورُ السَّغْيِ، مَمْلُوكُ الأَوَّلِ والآخِرِ، غَشَاؤُهُ كثيفٌ، وباعُهُ قَصِيرٌ، وفائتُهُ أَكْثَرُ من مُدْرِكِهِ، ودَعْوَاهُ أَحْضَرُ من بُرْهَانِهِ، وَخَطْوُهُ أَكْثَرُ من صَوَائِهِ، وَسُؤَالُهُ أَظْهَرُ من جَوَابِهِ، فعلى هذا كلُّ الاعتراف بها - أعني بالنفس وبوجودها - أسهلُّ من الفحصِ عن كُنْهَها وبُرْهَانِها.

قال: وإنما صَعِبَ هذا لأنَّ الإنسانَ يُرِيدُ أن يَعْرِفَ النَّفْسَ وهو لا يَعْرِفُ النَّفْسَ إلا بالنَّفْسِ، وهو محجوبٌ عن نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ؛ وإذا كان الأمر على هذا فالأمرُ أنْ كُلُّ من كانت نَفْسُهُ أَضْفَى، ونورُهُ أَشْعَ، ونظَرُهُ أَعْلَى، وفِكرُهُ أَثَقَبَ، ولَحْظُهُ أَبْعَدَ، كان من الشكِّ أَتَجَى، وعن الشُّبْهَةِ أَتَأَى، وإلى اليقينِ أَقْرَبَ؛ والإنسانُ ذو أشياء كثيرة، مِنْ جُمْلَتِهَا نَفْسُهُ، فلكثرة ما هُوَ به كثيرٌ يَعْجَزُ عن إدراك ما هُوَ به واحدٌ، أي إنسان، وكيف لا يكون هذا التَّعْتُّ حَقًّا، وهذا المَقُولُ صِدْقًا، وهو مُرَكَّبٌ في مركَّب، والنَّفْسُ مَبْسُوطَةٌ، وإنما فيه جُزْءٌ يسيرٌ وَنَصِيبٌ قليلٌ من ذلك البسيط، فكيف يُدْرِكُ بجزءٍ منها كُلَّها وبقليلٍ منها جَمِيعُها؛ هذا متَعَدِّدٌ إن لم يكن مُحالًا، وبعيدٌ إن لم يكن معدومًا؛ ويكفي أن تعلم أن النفس قوةٌ إلهيةٌ واسطةٌ بين الطبيعة المُصْرَفَةِ للأَسْطَقْسَاتِ والعناصرِ المُتَهَيَّئَةِ، وبين العقلِ المنيرِ لها، الطالعِ عليها، الشائعِ فيها، المحيطِ بها؛ وكما أن الإنسانَ ذو طبيعةٍ لآثارها الظاهرة في بدنه كذلك هو ذو نفسٍ، لآثارها الظاهرة في آرائه وأبحاثه، ومطالبه ومآربه؛ وكذلك هو ذو عقلٍ لتمييزه وتصفحه، واختبارِهِ وفحصِهِ واستنباطِهِ، وِيقِينِهِ وَسُكِّهِ، وَعِلْمِهِ وَظَنِّهِ، وفَهْمِهِ وَرَوِيَّتِهِ وَبَدِيهَتِهِ وَذِكْرِهِ، وَذَهْنِهِ وَحِفْظِهِ وَفِكرِهِ، وَحِكْمَتِهِ وَثِقَتِهِ وَطَمَأْنِينَتِهِ؛ وكذلك هو ذو اعترافٍ بالأحد الذي لا سبيلَ إلى جَحْدِهِ، والبراءِ مِنْ هُوِيَّتِهِ، وكيفَ يَجِدُ أثرَ الجَحْدِ، أو يُحْسِنُ بِلَمْسَةِ من الشكِّ؟ وَسُنْخُهُ يَنْبُو عن ذلك، وفِطْرَتُهُ تَأْبَاهُ، ولهذا الثبوتِ والإبائِ يَفْرَعُ إليه، وَيَتَوَكَّلُ عليه، وَيَطْلُبُ الفَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ، وَيَلْتَمِسُ الحَيْرَ مِنْ لَدُنْهِ، فانظر إلى هذه السُّلْسِلَةَ الوثيقة التي لا يَفْصِمُها شيءٌ لا في زَمَانٍ ولا في مَكَانٍ، ولا في يَقْظَةٍ وَلَا في مَنَامٍ؛ فهذا هذا؟ وفيه مَقْنَعٌ.

وَأَمَّا فِعْلُ النَّفْسِ، فقد وَضَحَ أَنَّهُ إِثَارَةُ العِلْمِ من مَظَانِّهِ؛ واستخلاصُهُ من العقلِ بشهادَتِهِ، مع إفاضاتٍ لها أُخْرَى، وإِنالاتٍ منها جليلةٌ عند الإنسان، بها يَنَالُ ما يَكْمُلُ به، وبكَمَالِهِ يَجِدُ السَّعَادَةَ، وبسَعَادَتِهِ يَنْجُو مِنْ شِقْوَتِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ما الَّذِي استفادت في هذا المكان؟ فَإِنَّهَا أَفَادَتِ وما استفادت، إلا أن

تُجْعَلَ إفادتها للقبائل منها استفادة لها؛ وفي هذا تجوُّز ظاهر، ولا يقال للشمس إذا طلعت على بساط الأرض والعالم: ما الذي استفادت. ولكن يقال: ما الذي أفادت: فيعلم حينئذ بالعيان أنها أفادت أشياء كثيرة، صوراً مختلفة، ومنافع جمّة بالقصد الأول؛ وأمّا القصد الثاني فأضداد هذه، وهذا القصد مفروض باللفظ ليكون معيناً على تبليغ الحكمة إلى أهلها.

وأما قوله: بأي شيء باينت النفس الروح؟ فهو ظاهر، وذلك أن الروح جسم يَضَعُ وَيَقْوَى، وَيَضْلُحُ وَيَفْسُدُ، وهو واسطة بين البدن والنفس، وبه تفيض النفس قواها على البدن، وقد يحس ويتحرك، ويلد ويتألم؛ والنفس شيء بسيط على الرتبة، بعيد عن الفساد، منزّه عن الاستحالة.

وأما المانع أن تكون النفس جسماً فللبساطة التي وجدت للنفس ولم توجد للجسم، وبيان هذا أن كل نعت أطلق على الجسم نُزِهَتْ عنه النفس، وكل نعت أطلق على النفس نبا عنه الجسم؛ فذاك كان المانع من ذلك، وقد أتت مذاكرة في النفس منذ ليالٍ بشرح مُعْزِن، وبيان تام، إلا أن هذا المكان أحوج إلى الإلمام، ولم يأت على ما في النفس. وإذا بطل أن تكون النفس جسماً فهي بالأل تكون عرضاً أقمن وأخلق، لأنه لا قوام للعرض بنفسه.

وأما قوله: وهل تبقى؟ فكيف لا تبقى وهي مبسوطة لا يدخل عليها ضد، ولا يدب إليها فساد، ولا يصل إلى شيء منها بلى، والإنسان إنما يبلى ويفسد ويخلق ويبطل ويموت ويفقد، لأنه يفارق النفس، والنفس تفارق ماذا حتى تكون في حكم الإنسان بشكليه؟ ولو كانت كذلك كانت لعمري تموت وتبلى، فأما والإنسان بها كان حياً وجب ألا يكون حكمها حكم الإنسان.

وأما قوله: أو هما؟ فقد بان أن النفس متى لم تكن جسماً، ولا عرضاً على حدة أنها لا تكون أيضاً بهما نفساً، لأن البيئونة التي منعت في الأول هي التي تمنع في الثاني، وليست النفس والعرض كالخل والشكر حتى إذا جمع بينهما كان منهما شيء آخر، لأن الجسم والجسم إذا اختلطا كان منهما شيء ما، له قوام، وإن ذلك القوام مُسْتَلٌّ منهما، وليس كذلك البسيط وغير البسيط، فهذا هذا.

وأما قوله: وهل تبقى؟ فقد بان أنها تبقى ولا تبقى، وليس يطرأ عليها ما يقينها، لبساطتها وبعدها من التركيب العجيب المعرض للتحلل.

وأما قوله: وهل تعلم ما كان فيه الإنسان هاهنا؟ فإن هذا بعيد من الحق لأنها قد وصلت إلى معدين الكرامة وحنة الخلد، فلا حاجة بها إلى علم العالم السفلي الذي لا ثبات له ولا صورة، لعلبة الخيلولة عليه، وتذكر الخيلولة خيلولة،

وذلك دليلُ النقص، واعتراضُ الألم، ولو أن إنساناً نُقِلَ من كَرْبِ حَبْسٍ ضَيِّقٍ إلى رَوْضِ بُسْتَانٍ ناضرٍ بهيجٍ مُونِقٍ، ثم تذكَّرَ ما كان فيه في حال ما هُوَ عليه لكان ذلك مُؤذِياً لِنَفْسِهِ، وكارِياً لِقَلْبِهِ، وقادِحاً في رَوْحِهِ، وأخذاً من حُبُورِهِ وَغِبْطَتِهِ، ومُدْخِلاً للتَنَغِيصِ عَلَيْهِ في نَشْوَتِهِ .

وأما قوله: وما الإنسان؟ فالإنسانُ هو الشيءُ المَنْظُومُ بِتَدْبِيرِ الطَّبِيعَةِ للمادَّةِ المخصوصة بالصُّورِ البَشَرِيَّةِ، المؤيَّدُ بِنُورِ العَقْلِ من قِبَلِ الإله؛ وهذا وصفٌ يأتي على القَوْلِ الشائعِ عن الأولين إنَّهُ حَيٌّ ناطِقٌ مائتٌ أي حَيٌّ من قِبَلِ الحِسِّ والحركة، ناطِقٌ من قِبَلِ الفِكرِ والتمييز، مائتٌ من قِبَلِ السَّيْلانِ والاستحالة، فمن حيثُ هو حَيٌّ شريكُ الحيوانِ الَّذِي هو جنسُهُ، ومن حيثُ هو مائتٌ هو شريكُ ما يَتَبَدَّلُ ويتحلَّلُ، ومن حيثُ هو ناطِقٌ هو إنسانٌ عاقلٌ حَصيفٌ، ومن حيثُ يَبْلُغُ إلى مُشاكهةِ المَلِكِ بقوَّةِ الاختيارِ البَشَرِيِّ، والنورِ الإلهي - أعني يُنَعَتُ في حياته هذه التي وَهَبَتْ له بَدْءاً، بصحةِ العقيدةِ وصلاحِ العملِ وصدقِ القولِ - هو مَلَكٌ، فإن لم يكن مَلَكاً فهو جامعٌ لصفاتِهِ، ومالكٌ لِحيَلَتِهِ، ولَمَّا كان جنسُهُ مشتَمِلاً على التفاوتِ الطويلِ العريضِ، كان نوعُهُ مشتَمِلاً على التفاوتِ الطويلِ العريضِ؛ ومن كان نوعُهُ كذلك كانت آحادُهُ كذلك، وكما أنَ الجِنْسَ يَرْتَقِي إلى نوعٍ كاملٍ، كذلك النوعُ يَرْتَقِي إلى شَخْصٍ كاملٍ .

وأما قوله: هل الحدُّ هو الحقيقة، أو بينهما بَوْنٌ؟ فإنَّ الحدَّ راجعٌ إلى واضِعِهِ ومُتَقَصِّصِهِ بدلالةِ أَنَّهُ يَضَعُهُ وَيُفَضِّلُهُ، وَيُخَلِّصُهُ وَيُسَوِّيه وَيُضِلِّحُهُ . فأما الحقيقةُ فهي الشيءُ وبها هُوَ ما هُوَ، حَدَّهُ صاجِبُهُ أم لَمْ يَحُدَّهُ، رَسَمَهُ قاصِدُهُ أم لَمْ يَرَسُمَهُ، فملحوظُ الحقيقةِ عَيْنُ الشيءِ وموضوعُ الحدِّ ليس هو عينُ الشيءِ .

وأما قوله: وما الطبيعة؟ فهي أيضاً قوَّةٌ نفسِيَّةٌ، فإنَّ قَلتْ عَقْلِيَّةٌ لَمْ تُبْعِدْ، وإنَّ قَلتْ إلهيةٌ لَمْ تُبْعِدْ، وهي التي تسري في أثناءِ هذا العالمِ مُحَرِّكَةً ومُسَكِّنَةً، ومُجَدِّدَةً ومُبَلِّغَةً، ومُنشِئَةً ومُبيِّدةً، ومُحْيِيَّةً ومُمَيِّتَةً، وتصاريفها ظاهِرةٌ للحسائسِ، وهي آخِرُ الخُلفاءِ في هذا العالمِ، وهي بالموادِّ أَعْلَى، والموادُّ لها أَعَشَقُ؛ وليس لها تَرْقى التَّنَسُّمِ في الثاني إلى عالمِ الرُّوحِ، لأنَّهُ لا كَوْنٌ هُنَاكَ ولا فَسادٌ، فلو رَقِيَتْ إلى هُنَاكَ لَبَقِيَتْ عاطِلةً، وليس كذلك النفسُ، فإنَّ لها في عالمها البَهْجَةِ والغِبْطَةِ، والحُبُورِ والسُرُورِ، وهذا هُنَاكَ في مُقابِلةِ ما كان لها هاهُنَا من الفضائلِ التي لا يأتي عليها إحصاءٌ، ولا يحصِّلُها استقصاءٌ .

وأما قوله: وهَلَّا أَعْنَى الرُّوحِ عن التَّنَسُّمِ؟ فهو يُغْنِي عنها، ولكن في جِنْسِ الحَيَوانِ الَّذِي لَمْ يَكْمُلْ فيكونَ إنساناً. فأما في الإنسانِ فلا، لأنَّ الإنسانَ بالتَّنَسُّمِ هو إنسانٌ لا بالرُّوحِ، وإنما هو بالرُّوحِ حَيٌّ فحسبُ .

وأما قوله: وهَلَّا أَعْنَتِ النَّفْسُ عَنِ الرُّوحِ؟ فَإِنَّ الرُّوحَ كَالآلَةِ لِلنَّفْسِ حَتَّى يَنْفُذَ تَدْبِيرُهَا بَوَسَاطَتِهِ فِي صَاحِبِ الرُّوحِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِعَجْزِ النَّفْسِ، وَلَكِنْ لِعَجْزِ مَا يَنْفُذُ فِيهِ التَّدْبِيرَ، وَإِذَا حَقَّقَ هَذَا الرَّمُزُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ عَجْزٌ لِأَنَّهُ نِظَامٌ مَوْجُودٌ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ، وَصُورَةٌ قَائِمَةٌ عَلَى هَذَا النِّظَامِ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُعَلِّلَ ذَلِكَ بِلِمٍّ وَلَا بِكَيْفٍ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْإِقْتِنَاعِ.

وأما قوله: هَلَّا كَفَّتِ الطَّبِيعَةُ؟ فَقَدْ كَفَّتْ فِي مَوَاضِعِهَا الَّتِي لَهَا الْوِلَايَةُ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلِ النَّفْسِ، كَمَا كَفَّتِ النَّفْسُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَهَا عَلَيْهَا الْوِلَايَةُ مِنْ قَبْلِ الْعَقْلِ، كَمَا كَفَّى الْعَقْلُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي لَهَا الْوِلَايَةُ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلِ الْإِلَهِ؛ وَإِنْ كَانَ مَجْمُوعٌ هَذَا رَاجِعاً إِلَى الْإِلَهِ، فَإِنَّهُ فِي التَّفْصِيلِ مَحْفُوظُ الْحُدُودِ عَلَى أَرْبَابِهَا؛ وَهَذَا كَالْمَلِكِ الَّذِي لَهُ فِي بِلَادِهِ جَمَاعَةٌ فَيَصُدُّونَ عَنْ رَأْيِهِ، وَيَنْتَهُونَ إِلَى أَمْرِهِ، وَيَتَوَخَّوْنَ فِي كُلِّ مَا يَعْقُدُونَهُ وَيَحْلُوتُهُ، وَيَتَّقِضُونَهُ وَيُبْرِمُونَ؛ مَا يَرْجِعُ إِلَى وِفَاقِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْهُ وَلَهُ وَبِأَمْرِهِ، وَقَدْ كَفَاهُ أَوْلَئِكَ الْقَوْمُ ذَلِكَ كُلَّهُ.

فإن قال قائل: فكيف مثلت سياسة إلهية بسياسة بشرية، وأين هذه من تلك؟

فالجواب: أن البشر المسكين لم يجد هذه السياسة من تلقاء نفسه، ولا بما هو به مهين ضعيف عاجز مسكين؛ بل بما فاض عليه من تلك القوى وتلك الصور، فهو إذا أبرز شيئاً أبرز على مثال تلك، لأنه قد أعطي القالب، فقد سهل عليه أن يفرغ فيه، ووهب له الطابع، فهو يختم به؛ وهبى على ذلك فهو يجري عليه، وهذا سوق إلهي وإن كان الانسياق بشرياً، وتظم زبوي وإن كان الانتظام إنسياً؛ وفي الجملة؛ إحدى السياستين، أعني البشري هي ظل للأخرى، أعني الإلهية، والسفليات منقادة منقاعة للعلويات، والعلويات مستويات على السفليات، بحق العدل وما هو مقتضاها، ولأن هذه فواعل، أعني العلويات، وتلك قوابل، أعني المنقاعات، ووجب ذلك لأن الصورة في الفاعل أغلب، والهيولى في القابل أغلب، والعالمان متواصلان، والسياستان متماثلتان، والسيرتان متعادلتان، والتدبيران متقابلان، ولكن التدبير إذا نفذ في السفلي يسمى بشرياً، وإذا نفذ في العلوي يسمى إلهياً، وأن كانا في التحقيق إلهيين، وإنما اختلفا بحسب الصدور والورود، والفصول والوصول، والشخص، والبلوغ؛ والعادة جارية بأن يشبه الإنسان شيئاً من الأشياء بالشمس والقمر، ولا يشبه الشمس والقمر بشيء آخر، لأن للأعلى الثغ الأوّل، وللأسفل الثغ الأزدل؛ فهذا كما ترى.

وأما قوله: وما العقل، وما أنحاؤه، وما صنيعه؟ فإن الجواب عن هذا لو وقع في خلد كثير، لكان محمولاً على التقصير، وكذلك فيما تقدم؛ ولكن هذا مكان قد اقترح فيه الإيجاز والتقريب، وهذان لا يكونان إلا يحذف الزوائد المفيدة، وإلا بتقريب العلائق الموضحة. وبعد، فالعقل أيضاً قوة إلهية أبسط من الطبيعة، كما أن الطبيعة

قُوَّةِ إِلَهِيَّةٍ أَبْسَطَ مِنَ الْأَسْطُفْسَاتِ، وكما أن الْأَسْطُفْسَاتِ أَبْسَطُ مِنَ الْمُرْكَبَاتِ؛ وعلى هذا حتى تنتهي المركبات إلى مُرْكَبٍ في الغاية، كما بلغت المبسوطات إلى مَبْسُوطٍ في النهاية؛ فالتقى الطَّرْفَانِ على ما يقال له: كُلٌّ، فلم يكن بعد ذلك مَطْلَبٌ لا في هذا الطَّرَفِ ولا في هذا الطَّرَفِ؛ والعقل هو خليفة الله، وهو القابل للفيض الخالص الذي لا شوب فيه ولا قذئ؛ وإن قيل: هو نُورٌ في الغاية، لم يكن ببَعِيدٍ، وإن قيل بأنَّ اسمه مُعْنٍ عن نَعْتِهِ، لم يكن بِمُنْكَرٍ؛ وإنما عَجَزْنَا عن تَحْدِيدِ هَذِهِ الْبَسَائِطِ لَأَنَا حَاوِلُنَا عِنْدَ عِلْمِهَا أَنْ تَكُونَ فِي صُورَةِ الْمُرْكَبَاتِ أَوْ قَرِيبَةً مِنْهَا، وَأَنْ تَصِيرَ لَنَا أَصْنَامًا نَتَمَثَّلُهَا وَنُوكِّلُ بِهَا؛ وَهَذَا مِنَّا تَعَجُّرٌ مَرْدُودٌ عَلَيْنَا، وَخَطَأٌ يَلْزُمُنَا الْاِعْتِدَارُ مِنْهُ إِلَى كُلِّ مَنْ أَحْسَسَ بِهِ مِنَّا؛ وَيَنْبَغِي أَنْ نَتُوبَ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ وَضْفِهِ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَمِنْ طَرَحِ الْوَهْمِ عَلَى شَيْءٍ قَدْ حَجَبَهُ عَن مَعَارِفِنَا، وَرَفَعَهُ عَن عُقُولِنَا، وَقَصَرْنَا عَلَى حُدُودِهَا الْاَلْاَزِمَةِ لَنَا، وَأَشْكَالِنَا الْمَشْتَمَلَةِ عَلَيْنَا.

هذا حديثُ الْعَقْلِ إِذَا لَحِظَ فِي ذُرْوَتِهِ.

فأما إذا فُحِصَ عَن آثَارِهِ فِي حَضِيضِهِ فَإِنَّهُ تَمَيِّزٌ وَتَحْصِيلٌ وَتَصَفُّحٌ وَحُكْمٌ وَتَصْوِيبٌ وَتَخْطِئَةٌ، وَإِجَارَةٌ وَإِجَابٌ وَإِبَاحَةٌ؛ وَإِيَّاكَ أَيُّهَا السَّامِعُ أَنْ يَكُونَ مَفْهُومُكَ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ وَالْحُرُوفِ أَشْيَاءَ مُتَمَازِيَةً فَتَجْعَلَ شَيْئًا وَاحِدًا أَشْيَاءَ، وَمَنْ كَثُرَ الْوَاحِدُ فَهُوَ أَشَدُّ خَطَأً مِمَّنْ وَحَدَّ الْكَثِيرِ، لِأَنَّ تَكْثِيرَ الْوَاحِدِ انْحِطَاطٌ إِلَى الْمَرْكَزِ؛ وَتَوْحِيدَ الْكَثِيرِ اسْتِغْلَاءٌ إِلَى الْمُحِيطِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَحْضُولُكَ مِنْهَا شَيْئًا وَاحِدًا لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ إِلَّا بِتَرَادُفٍ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَتَصَاحِبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ.

وأما أُنْحَاؤُهُ، فعلى قَدْرٍ مَا يُقَالُ: فَلَانٌ عَاقِلٌ وَفَلَانٌ أَعْقَلُ مِنْ فَلَانٍ، وَفَلَانٌ فِي عَقْلِهِ لُوثَةٌ، وَفَلَانٌ لَيْسَ بِعَاقِلٍ؛ وَأَصْحَابُ الْعَقْلِ أَنْصِبَاؤُهُمْ مِنْهُ مُخْتَلِفَةٌ بِالْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ، وَالصِّفَاءِ وَالْكَدْرِ، وَالْإِنَارَةَ وَالظُّلْمَةَ، وَاللِّطَافَةَ وَالْكَثَافَةَ، وَالخِفَةَ وَالْحَصَافَةَ، كَمَا تَجِدُهُمْ مُخْتَلِفِينَ فِي الصُّورِ وَالْأَلْوَانِ وَالخَلْقِ بِالطُّولِ وَالْقِصْرِ، وَالْحُسْنِ وَالقُبْحِ، وَالْاِعْتِدَالِ وَالْاِنْحِرَافِ، وَالرِّدَّةِ وَالْقُبُولِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الْقَبِيلَ يُدْرِكُ بِالْحَسَنِ، وَيُشْهَدُ بِالْعِيَانِ، وَيُعَايِنُ بِالْحُضُورِ، وَذَلِكَ الْقَبِيلَ مَخْجُوبٌ عَن هَذَا كَلُّهُ، فَلَمْ يَجْزِ أَنْ تَكُونَ الْإِحَاطَةُ بِتَفَاوُتِ مَا غَابَ عَنَّا فِي وَزْنِ الْإِحَاطَةِ بِتَفَاوُتِ مَا حَضَرَ، فَإِنَّهُمَا مَا تَبَايَنَا لِيَأْتِلِفَا، بَلْ لِيَخْتَلِفَا، وَهَذَا التَّفَاوُتُ مُعْتَرَفٌ بِهِ إِذَا اعْتَبِرَ مِنْ خَارِجٍ، وَذَلِكَ أَنَّكَ تَجِدُ أَصْحَابَ الْمَالِ أَيْضًا يَتَبَايَنُونَ فِي مَقَادِيرِ مَا يَمْلِكُونَ مِنَ الْمَالِ، وَلَا يَتَفَقَّهُونَ عَلَى مِقْدَارِ وَاحِدٍ مِنْهُ عِنْدَ جَمَاعَتِهِمْ، وَلَا يَتَفَقَّهُونَ عَلَى نَوْعٍ وَاحِدٍ أَيْضًا مِنْ أَعْيَانِ الْمَالِ، لِأَنَّ هَذَا يَمْلِكُ الصَّامِتَ، وَذَلِكَ يَمْلِكُ النَّاطِقَ، وَهَذَا يُمَارِسُ الْقَرْءَ، وَهَذَا يُمَارِسُ الصُّوفَ، وَهَذَا يَنْظُرُ فِي الصَّرْفِ، وَهَذَا يَبِيعُ الْحَيَوَانَ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ صَاحِبُ مَالٍ وَمُبَاشِرٌ لَهُ؛ وَعَلَى هَذَا الْمَثَالِ اِخْتَدَى أَهْلُ الْعَقْلِ فِي مَطَالِبِهِمْ، فَصَارَ هَذَا يَمْلِكُ بِعَقْلِهِ غَيْرَ مَا يَمْلِكُ الْآخَرُ،

أَعْنِي أَنْ هَذَا يُنْظَرُ فِي الْهَنْدَسَةِ، وَهَذَا فِي الطَّبِّ، وَهَذَا فِي التَّحْوِ، وَهَذَا فِي الْفِقْهِ؛ وَالْعِبَارَةُ تَمْنَعُ مِنْ إِشْبَاعِ هَذَا الْمَعْنَى، وَحَضَرَ هَذَا الْفَنَ، فَعَلَى هَذَا أَنْحَاؤُهُ، وَإِنِهَا لَكَثِيرَةٌ إِنْ لَمْ تَكُنْ بِلَا نِهَايَةٍ.

وَأَمَّا صَنِيعُهُ، فَهُوَ الْحُكْمُ بِقَبُولِ الشَّيْءِ وَرَدَّهُ، وَتَحْسِينِهِ وَتَقْبِيحِهِ، إِذَا كَانَ الْمَعْرُوضُ عَلَيْهِ عَلَى جِهَتِهِ غَيْرَ مَمُوءٍ وَلَا مَغْشُوشٍ، وَلَا مُشْتَبِهٍ فِيهِ وَلَا مَلْبُوسٍ، فَإِنْ كَانَ مَمُوءًا اخْتَلَفَ حُكْمُهُ، لِأَنَّ الْعَقْلَ يَرَى الْبَاطِلَ حَقًّا فِي وَقْتٍ، وَيَرَى الْحَقَّ بَاطِلًا فِي وَقْتٍ، مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ هَذَا، ذَلِكَ لِلْحِسِّ الْمَثْبُوعِ، وَالذَّهْنِ الْمَلْبُوسِ، لِأَنَّ الْعَارِضَ مَمُوءَ مَعْرُوضِهِ عَلَى الْعَقْلِ، فَحَكَّمَ لَهُ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْعَارِضُ لَمْ يَشْعُرْ بِذَلِكَ التَّمْوِيهِ، وَلَمْ يَفْطَنْ لِذَلِكَ الْغِشِّ، فَحَيْثُ يَهْدِيهِ الْعَقْلُ وَيُرْشِدُهُ، وَيَفْتَحُ عَلَيْهِ، وَيَنْصَحُ لَهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَهَلْ يُعْقَلُ الْعَقْلُ؟ فَإِنَّ الْأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ: الْعَاقِلُ يَعْقِلُ بِالْعَقْلِ مَعْقُولَهُ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ يُقَالَ: السَّرَاجُ أَضَاءَ الْبَيْتَ، وَيَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ: أَضَاءَ نَفْسَهُ، لِأَنَّهُ مُضِيءٌ بِنَفْسِهِ، فَلَيْسَ بِهِ فَقْرٌ إِلَى أَنْ يُضِيءَ نَفْسَهُ، وَإِنَّمَا أَضَاءَ غَيْرِهِ... وَلَوْ عَقَلَ الْعَقْلُ لِعَقَلَ بِالْعَقْلِ، وَهَذَا إِذَا اسْتَمَرَّ كَانَ مَرْدُودًا، وَنَحْنُ إِذَا قَلْنَا: عَقَلَ الْعَاقِلُ مَعْقُولَهُ، فَإِنَّمَا نَصِفُهُ بِأَنَّهُ أَنْفَعَلْ أَنْفِعَالَ كِمَالٍ، وَالْعَقْلُ يَرَى مِنْ هَذَا الْأَنْفِعَالَ أَلَّا يَتَوَخَّى أَنَّهُ يَعْقِلُ الْإِلَهَ الَّذِي هُوَ بِهِ مَا هُوَ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَضُرَّ بِهِ أَنْفِعَالَ لَائِقٌ بِهِ يَكُونُ عِبَارَةً عَنْ شَوْقِهِ إِلَيْهِ، وَكِمَالِهِ بِهِ، وَاقْتِسَابِهِ مِنْهُ، وَهَذَا صِرَاطٌ حَدِيدٌ، وَالْوِطَاطُ عَلَيْهِ عَلَى خَطَرٍ شَدِيدٍ، وَالْوُقُوفُ دُونَهُ أَضْدَعُ بِالْحُجَّةِ، وَأَوْضَحُ لِلْعُدْرِ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ حَوَازًا بِالطَّبْعِ، وَإِنْ كَانَ جَسُورًا بِالنَّفْسِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَهَلْ تَتَنَفَّسُ النَّفْسُ؟ فَإِنْ أُرِيدَ بِذَلِكَ النَّفْسُ النَّامِيَّةُ وَالْحَيَوَانِيَّةُ فَهُوَ قَرِيبٌ، وَأَمَّا النَّاطِقَةُ فَإِنَّ ذَلِكَ يَبْعُدُ مِنْهَا لِأَنَّ ذَلِكَ التَّنَفُّسَ اسْتِمْدَادُ شَيْءٍ بِهِ يَكُونُ الشَّيْءُ حَيًّا أَوْ كَالْحَيِّ؛ وَالنَّاطِقَةُ غَيْرُهَا عَنِ ذَلِكَ.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ تَقْتَسِسُ مِنَ الْعَقْلِ وَتَسْتَمِدُّ؟ قِيلَ: هَذَا لَا يُسَمَّى تَنَفُّسًا، وَلَيْسَ اللَّفْظُ يُبْعِدُهُ عَنِ الْحَقِيقَةِ تَأْوِيلٌ فِي الْوَضْعِ؛ وَلَا وَجْهٌ فِي الْإِعْتِمَالِ وَإِدْخَالِ الْعَوِيصِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى رَفْعِ اللَّبْسِ وَزَوَالِ الْإِشْكَالِ، مُدَاجَاةً فِي الْعِلْمِ وَخِيَانَةً لِلْحِكْمَةِ وَجِنَايَةً عَلَى الْمُسْتَنْصِحِ.

وَأَمَّا مَرْتَبَتُهُ عِنْدَ الْإِلَهِ فَقَدْ وَضِحَ بِأَنَّهُ كَالشَّمْسِ تَطْلُعُ فَتُخْبِي، وَتَضِيءُ فَتَنْفَعُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَالْعَقْلُ أَيْضًا هَكَذَا، قِيلَ: الْعَقْلُ أَيْضًا شَمْسٌ أُخْرَى، وَلَكِنِهَا تَطْلُعُ عَلَى النَّفْسِ الَّتِي لَيْسَتْ حَاوِيَةً لِجِدَارِ وَسَطْحِ، وَبَرٌّ وَبِحْرٍ، وَجَبَلٌ وَسَهْلٌ، لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْعَقْلُ أُشْرِقَ مِنَ النَّفْسِ - لِأَنَّهُ مُسْتَخْلِفٌ لِلنَّفْسِ، وَالنَّفْسُ خَلِيفَتُهُ - كَانَ إِشْرَاقُهُ أَلْطَفَ، وَمَنَافِعُهُ فِي إِشْرَاقِهِ أَشْرَفَ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الشَّمْسَ تَجِدُّهَا بِالْحِسِّ لَهَا غُرُوبٌ وَطُلُوعٌ، وَتَجَلُّ وَكُسُوفٌ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْعَقْلُ، لِأَنَّ إِشْرَاقَهُ دَائِمٌ، وَنُورُهُ مُنْتَشِرٌ، وَطُلُوعُهُ سَرْمَدٌ، وَكُسُوفُهُ مَعْدُومٌ، وَتَجَلُّهُ غَيْرٌ مَتَوَقَّفٌ.

فإن قيل: نرى العقل يعزب عن الإنسان في وقتٍ ويثوب إليه في وقتٍ. فالجواب أن الوصف الذي كنا ننتع به ونصدع ببيانه لم يكن لعقل زيد وعمرو، وبكرٍ وخالد، لأن ذلك يُنتع بالطلوع والغروب، وبالحضور والغيوب، لأنه هاهنا مضافٌ ومُنحازٌ، أو كالمُنحاز، وليس كذلك هو، فإنه هناك على بهجته التامة، وسلطانه القاهر، وملكوته الأفصح، وبسيطه الفائق، وفضائه العريض.

وأما قوله: وهل يتفعل؟ فقد مرَّ الكلامُ عليه في طيِّ ما مرَّ، وليس للتكرار وجه، ولا في التطويل عُذر.

وأما قوله: فقسطُ الفعل أكثر، أم قسطُ الانفعال؟ فإن هذا يلحظ من وجهين، إذا لحظ قَبُولَهُ من فيض الإله فقسطُ الانفعال أظهر، وإذا لحظَ فيضهُ على النفس فقسطُ الفعل فيه أكثر، لأنه بجوده على غيره يُشاركه من جادٍ عليه بجوده، وهذا لطيفٌ جداً.

وأما قوله: وما المعاد؟ فما أسهلُّ مُطالَبَةُ السائل بهذا الأمرِ الصَّعبِ الهائلِ الذي كلُّ أمرٍ متعلِّقٌ به، وكلُّ رجاءٍ حائمٌ حوله، وكلُّ طمعٍ متوجِّهٍ إليه، وكلُّ شيءٍ مقصودٌ عليه، وكلُّ إنسانٍ به يهيم، وكلُّ مُصرِّحٍ عنه يُصرِّح، وكلُّ كانٍ عنه يَكْنِي، وكلُّ مترنمٍ به يحدو، وكلُّ لحنٍ إليه يُشير، وكلُّ سامعٍ إليه يظرب، وترجع فنقول - على العيِّ والبيان، وعلى الزحفِ والعدوان: - إن عودَ النفسِ إنما هو تخليتها للبدن إذا حانَ وقتُ التخليّة، إما لأن البدنَ غيرَ مُحتَمِلٍ لمادّة الحياة، وإما لأن النفسَ قد أزمعتُ أمراً آخرًا، ولا يتمُّ لها ذلك إلا بتخليّة هذا؛ وإما لهُما.

فإن قال قائل: فما نصيبُ الإنسان من عودِ النفسِ الذي هو تخليتها للبدنِ وخروجها عنه، وتركُ استعمالها له؟ فالجوابُ من طريقي التمثيل، والرّضا بالرأي الأضوب، والحكم الأجلّي أن يقال: لو قيل لرجلٍ من عرّضِ النَّاسِ وافرٍ أو ناقصٍ: إنك إذا فارقتَ هذا العالمَ بقيتَ عينك الباصرة، وأذُنك السامعة، هل ترى ذلك نعمةً عليك، وإحساناً إليك، فإنَّ عينك إذا بقيتَ أبصرتَ العالمَ بعدك كما كنتَ تُبصره وهي معك، بل تُبصرُ أحسنَ من ذلك الإبصارِ، لأنها كانت معك ترمدُ بسببك، وتعشى من أجلك، وربما عرّضَ لها سوءٌ بسوءِ تدبيرك، أو باتفاقِ رديءٍ عليك، من عشى أو عمى وحَفَشَ وعمَشَ وعورٍ وأفاتٍ كثيرة، وهي أمانةٌ بعدك من هذه الأغراضِ المكروهة، والأحوالِ الداهية، فإننا نعلمُ حقًا وعيانًا أنه يقول: قد رَضِيتُ بل أتممتي هذا، ومن لي به، أي إن أعطيتُ هذا فَمَن مَنِّي أسمعُ وأبصرُ، وإذا كنتَ أكره الدنيا في حياتي إذا فقدتُها فكيف لا أحبُّ الدنيا إذا وجدتها، فإن كان هذا التمثيلُ واقعاً، وهذا التقريبُ نافعاً، والحقُّ في تضاعيفه واضحاً، فليكن ذلك مُطَرِّداً في بقاءِ نفسِ الإنسانِ التي بها كان إنساناً، وبها كان يتعمُّ في هذا العالمِ، وبها كان يعلمُ ويعرفُ ويحكمُ ويصيبُ، ويجدُ لذةَ اللذيذة من ناحيةِ العقلِ والجِسِّ، وبها كان يتمتى البقاء

والدَّوَامَ والخُلُودَ، وإِنَّمَا استحَالَ ذلك التَّمَيُّ من أَجْلِ كَوْنِهِ وَقَسَادِهِ اللَّذَيْنِ لم يَكُنْ بُدٌّ مِنْ انْتِهَائِهِمَا إِلَى الفَنَاءِ الَّذِي هُوَ مُفَارَقَةُ النَّفْسِ الجَسَدِ وَتَخْلِيَتُهَا لِلبَدَنِ، وَنِسْبَةُ نَفْسِ الْإِنْسَانِ إِلَى الْإِنْسَانِ أَوْكَدَ وَأَلْصَقُ مِنْ نِسْبَةِ الْعَيْنِ إِلَيْهِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ بِالنَّفْسِ إِنْسَانٌ، وَبِالْبَدَنِ حَافِظٌ لَشَكْلِ الْإِنْسَانِ؛ فَإِذَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ فِي هَذَا التَّمَثِيلِ فَائِدَةٌ مَتَمَّنَاةٌ، وَحَالَةٌ مَحْبُوبَةٌ هَنِئِيَّةٌ، أَعْنِي فِي بَقَاءِ الْعَيْنِ وَالْأُذُنِ حَتَّى يُبْصِرَ بِإِحْدَاهُمَا هَذَا الْعَالَمَ المَحْشُوءَ بِالْآفَاتِ، وَيَسْمَعَ بِالْأُخْرَى مَا يَجْرِي فِيهِ مِنْ ضُرُوبِ الاستِحَالَاتِ، فَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَكُونَ رِضَاهُ بِبَقَاءِ النَّفْسِ فِي مَحَلِّ الرُّوحِ وَالْأَمْنِ، وَمَقَامِ الكَرَامَةِ وَالسُّكِينَةِ عَلَى حَالِ الخُلُودِ وَالتَّمَانِينَةِ، إِنَّ هَذَا لَعَجِيبٌ؛ وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا الْعَجِيبِ عَقْلٌ لَا يَغْلُقُ بِهِ، وَرُوحٌ لَا يَهْشُ لِسَمَاعِهِ، وَنَفْسٌ لَا تَجِدُ حَلَاوَتَهُ، وَصَدْرٌ لَا يَتَصَدَّعُ طَرِباً عَلَيْهِ، وَالتِّيَاحَا إِلَى، فَإِنَّ مَنْ لم يَشْعُرْ بِهَذِهِ الفَائِدَةِ، وَلَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ عَلَى هَذِهِ النُّعْمَةِ، لِعَازِبِ الرَّأْيِ، ضَعِيفِ الْعَقْلِ، خَفِيفِ المِثْقَالِ، رَدِيءِ الاختِيَارِ، قَلِيلِ الحِصَافَةِ، سَيِّئِ النَّظَرِ، حَيَوَانٌ حَسِيسٌ، فِي مَسْكِ إِنْسَانٍ رَئِيسٍ؛ فَقَدْ بَانَ - عَلَى مَذْهَبِ التَّقْرِيبِ - مَا المَعَادُ المَشَارُ إِلَيْهِ، وَمَا الْإِنْسَانُ مِنْهُ، وَمَا لِنَفْسِهِ بِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَمَا الفَرْقُ بَيْنَ الأنْفُسِ، أَي نَفْسِ زَيْدٍ وَعَمْرُو وَبِكْرٍ وَخَالِدٍ، وَمَا الفَرْقُ أَيْضاً بَيْنَ أَنْفُسِ أَصْنَافِ الحَيَوَانِ. فَإِنَّمَا الفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ الأنْفُسِ بِقَدْرِ قَسَطِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْهَا، وَهَذِهِ الأَقْسَاطُ إِذَا اجْتَمَعَتْ تَفَاوَتْ، وَإِذَا تَفَاوَتْ كَانَتْ مِنْهَا نَفْسٌ بَاقِيَةٌ حَيَّةً، وَنَفْسٌ فَانِيَةٌ مَيِّتَةً، أَلَا تَرَى الشَّمْسَ كَيْفَ تَطْلُعُ عَلَى هَذِهِ المَوَاضِعِ المَخْتَلِفَةِ بِالْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ، وَبِالتَّعْرِيجِ وَالاستِقَامَةِ، وَالأَشْكَالِ الكَثِيرَةِ، فيقولُ كُلُّ إِنْسَانٍ: مَشْرِقَتِي أَطْيَبُ مِنْ مَشْرِقَةِ فُلَانٍ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا الكَلَامِ، وَطُلُوعِ الشَّمْسِ عَلَى جَمِيعِهَا طُلُوعٌ وَاحِدٌ، وَلَكِنْ حُظُوظُ البِقَاعِ مِنْهَا مُخْتَلِفَةٌ؛ فَلَيْسَ بِمُنْكَرٍ أَنْ تَكُونَ نَفْسُ زَيْدٍ أَنْجَى مِنْ الكَدْرِ، وَأَخْلَصَ مِنَ الآفَةِ، وَأَوْصَلَ إِلَى السَّعَادَةِ؛ وَنَفْسُ بَكْرٍ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، وَمَرَاتِبُ هَذِهِ الأنْفُسِ مَوْقُوفَةٌ عَلَى الإِضَافَاتِ الحَاصِلَةِ لَهَا بِأَصْحَابِهَا، وَالأَنْصِبَاءِ المَذْخُورَةِ لَهَا بِاكتِسَابِهَا.

فَأَمَّا أَنْفُسُ أَصْنَافِ الحَيَوَانِ كَالْفَرَسِ وَالجِمَارِ فَإِنَّهَا أَنْفُسٌ نَاقِصَةٌ غَيْرُ كَامِلَةٍ، وَهِيَ ضَعِيفَةٌ، لِأَنَّهَا لم تَجِدْ إِلَّا الإِخْسَاسَ وَالحَرَكَاتِ، لم يَشِعَّ فِيهَا نُورُ النَّفْسِ الشَّرِيفَةِ، وَلَمْ يَنْبُتْ فِيهَا شُعَاعُ الْعَقْلِ الكَرِيمِ؛ فَوَجَبَ مِنْ هَذَا الوَجْهِ أَنْ تَكُونَ تَابِعَةً لِأَبْدَانِهَا، جَارِيَةٌ عَلَى فَسَادِهَا وَبُطْلَانِهَا، لِأَنَّ الحِكْمَةَ انْتَهَتْ إِلَى ذَلِكَ الحَدِّ فِي كَوْنِهَا حَشُوءاً لِهَذَا الْعَالَمِ وَزِينَةً وَمَنَافِعَ وَمَبَالِغَ إِلَى غَايَاتٍ وَأَعْرَاضٍ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَهَلِ المَلِكُ حَيَوَانٌ؟ فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ يَقَالُ لَهُ حَيٌّ، وَهَذَا وَقَفَّ عَلَى الأَسْمَاءِ الجَارِيَةِ، وَالعَادَاتِ القَائِمَةِ، وَكَأَنَّ الحَيَوَانَ إِنَّمَا شَاعَ فِي غَيْرِ المَلِكِ لِمَا فِيهِ مِنَ الحَسِّ وَالحَرَكََةِ وَالاِهْتِدَاءِ وَالتَّصَرُّفِ عَلَى مَا لَاقَ بِجِنْسِهِ وَنَوْعِهِ وَشَخْصِهِ؛ فَأَمَّا مَا يَغْلُو

وَيُنزَّهُ عَنِ الصِّفَاتِ فَلَمْ يُطَلَقْ عَلَيْهِ حَيَوَانٌ، وَلَكِنْ يُقَالُ: حَيٌّ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ الْأَسْمَاءِ إِلَى الْمَعْنَى الْمَشَارِ إِلَى، وَبِهَذَا التَّقْرِيْبِ قِيلَ أَيْضاً لِلَّهِ: إِنَّهُ حَيٌّ، وَأَنْتَ إِذَا حَدَّدْتَ الْحَيَّ أَوْ الْحَيَاةَ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى أَنْ تَصِفَ اللَّهَ جَلًّا وَعِلًّا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ. . . وَفِي الْجُمْلَةِ كُلُّ مَا كَانَ أَدْخَلَ فِي الْبَسَاطَةِ كَانَ أَخْرَجَ مِنَ التَّرْكِيبِ، وَكُلُّ مَا كَانَ أَخْرَجَ مِنَ الْبَسَاطَةِ كَانَ أَدْخَلَ فِي التَّرْكِيبِ.

فَأَمَّا الْمُرَكَّبُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنَ الْبَسِيطِ إِلَّا النَّصِيبُ النَّزْرُ، وَإِلَّا طَيْفُ الْخَيَالِ، فَاسْمُهُ وَاضِحٌ وَالْإِشَارَةُ إِلَيْهِ سَهْلَةٌ، وَالْعِيَانُ لَهُ مُدْرِكٌ، لِأَنَّهُ مُحَاطٌ بِحُدُودِهِ فِي طَوْلِهِ وَعَرْضِهِ وَعُمُقِهِ.

وَأَمَّا الْمُرَكَّبُ الْبَسِيطُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنَ التَّرْكِيبِ إِلَّا النَّصِيبُ الْيَسِيرُ، فَاسْمُهُ غَامِضٌ، وَالْإِشَارَةُ إِلَيْهِ عَسِيرَةٌ، وَالْعِيَانُ عَنْهُ مَكْفُوفٌ؛ وَهَذَا بَابٌ إِذَا حُفِظَ فَهَمَّ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ مِمَّا يَقَعُ فِيهِ الْغَلَطُ مِنَ الْإِنْسَانِ بِفِكْرِهِ الرَّدِيِّ؛ وَيَنْفَعُ أَيْضاً نَفْعاً بَيِّنًا فِي التَّغَالُطِ الْعَارِضِ بَيْنَ الْمُتَنَاطِرِينَ عَلَى جِهَةِ التَّنَافُسِ وَالتَّنَاصُفِ.

قَالَ أَبُو سَلِيمَانَ: مَنْ حَرَسَ هَذَا الثُّغْرَ آمِنًا مِنْ جَمِيعِ الْأَعْدَاءِ، وَمَنْ أَهْمَلَهُ كَانَتْ جِنَايَتُهُ عَلَى نَفْسِهِ بِيَدِهِ أَعْظَمَ مِنْ جِنَايَةِ عَدُوِّهِ الثَّائِرِ مِنْ ثُغْرِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: عَلَى أَيِّ وَجْهِ يُقَالُ لِلَّهِ حَيٌّ وَالْمَلِكِ حَيٌّ وَالْفَرَسِ حَيٌّ؟ فَقَدْ دَخَلَ الْجَوَابُ عَنْهُ فِي ضِمْنِ مَا تَسَقَّقَ الْقَوْلُ بِهِ، وَتَحَقَّقَ الْمَعْنَى عَلَيْهِ فِي حَدِيثِ الْمُرَكَّبِ وَالْبَسِيطِ؛ وَتَزِيدُ هَاهُنَا حَرْفًا يَكُونُ رَدِيفًا لِمَا تَقَدَّمَ، فَنَقُولُ: أَمَّا الْإِنْسَانُ فَإِنَّهُ يُقَالُ لَهُ: حَيٌّ، بِسَبَبِ الْجِسِّ وَالْحَرَكَةِ وَمَا يَتَّبَعُهُمَا مَا هُوَ كِمَالِ الْحَيِّ، وَكَذَلِكَ الْفَرَسُ وَمَا أَشْبَهَهُ. وَأَمَّا الْمَلِكُ فَلَمَّا كَانَ مَا يَسْتَحِقُّهُ بَسَاطَتُهُ مَعْدُومًا عِنْدَنَا، لَمْ تَقْدِرْ عَلَى شَيْءٍ نَصِفُهُ بِهِ إِلَّا مَا نَصِفُ بِهِ أَنْفُسَنَا بَيْنَنَا، وَلَوْ كُنَّا فِي عَالَمِ الْمَلِكِ لَعَلْنَا كُنَّا نَذَرِي بِأَيِّ شَيْءٍ يَنْبَغِي أَنْ يُنْعَتَ وَيُسَمَّى وَيُذَكَّرَ وَيُحْكَى، فَإِنْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فِي بِلَادِ الصِّينِ فَإِنَّهُ يُسَمَّى الْإِنْسَانَ وَالْفَرَسَ وَالْحِمَارَ وَالْبَقَرَ بِهَا بِتَعَالُمِ أَهْلِهَا بَيْنَهُمْ، وَإِذَا كَانَ هَذَا مُعْزُورًا عَلَى مَا تَرَى فِي الْمَلِكِ، أَعْنِي تَسْمِيَتِهِ الْحَيِّ، وَنَعْتَهُ بِالْحَيَاةِ، فَاللَّهُ الَّذِي لَا سَبِيلَ لِلْعَقْلِ أَنْ يُذْرِكُهُ أَوْ يُحِيطَ بِهِ أَوْ يَجِدَهُ وَجَدَانًا أَوْلَى وَأُخْرَى أَنْ يُمَسِّكَ عَنْهُ عَجْزًا وَاسْتِخْدَاءً، وَتَضَاؤُلًا وَاسْتِعْفَاءً، إِلَّا بِمَا وَقَعَ الْإِذْنُ بِهِ مِنْ جِهَةِ صَاحِبِ الدِّينِ الَّذِي هُوَ مَالِكُ أَرْمَةِ الْعُقُولِ وَمُرْشِدُهَا إِلَى السَّعَادَاتِ، وَوَاقِفُهَا عِنْدَ الْحُدُودِ، وَزَاجِرُهَا عَنِ التَّخْطِئِ إِلَى مَا لَا يَجُوزُ. فَعَلَى هَذَا قَدْ وَضَحَ أَنَّ الصَّمْتَ فِي هَذَا الْمَكَانِ أَعْوَدُ عَلَى صَاحِبِهِ مِنَ النُّطْقِ، لِأَنَّ الصَّمْتَ عَنِ الْمَجْهُولِ أَنْفَعُ مِنَ الْجَهْلِ بِالْمَعْلُومِ، وَالتَّظَاهَرُ بِالْعَجْزِ فِي مَوْضِعِهِ كَالِاسْتِطَالَةِ بِالْقُدْرَةِ فِي مَوْضِعِهَا، وَلَيْسَ لِلْخَلْقِ مِنْ هَذَا الْوَاحِدِ الْأَحَدِ إِلَّا الْإِنِّيَّةُ وَالهُويَّةُ، فَأَمَّا كَيْفَ وَلِمَ هُوَ فَإِنَّهَا طَائِرٌ فِي الرِّيَاحِ كَمَا تَسْمَعُ وَتَرَى.

ولما حَرَزْتُ هذه الجُمْلَةَ وَحَمَلْتُهَا إِلَى الوَازِرِ وَقَرَأْتُهَا عَلَيْهِ قَالَ لِي : هَذَا وَاللَّهِ جُهْدُ الْمُقِلِّ ، وَفِي غَلِيلِي بَقِيَّةٌ مِنَ اللَّهَبِ .

قُلْتُ : أَيُّهَا الوَازِرِ ، قَالَ أَبُو سَلِيمَانَ : سَنَقُولُ لَكَ كَلَامًا لَا يَكُونُ فِيهِ كُلُّ الرِّضَا ، فَقُلْتُ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ : إِنَّكَ سَأَلْتَنِي عَنِ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ ، فَلَا طَاقَةَ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْرِضَ عَلَيْكَ الْعَالَمَ بِأَسْرِهِ ، وَلَوْلَا عَجَلَةُ رَسُولِكَ فِي الْمَطَالِبَةِ ، وَإِذْلَالُهُ بِالْإِلْحَاحِ ، وَقَوْلُهُ : الْمُرَادُ التَّقْرِيبُ وَالْإِيجَازُ ، لَا التَّطْوِيلُ وَالْإِسْهَابُ ، لَكَانَ النَّسْجُ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْمِنْوَالِ ، وَالْعَمَلُ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَشْيِ .

قَالَ : وَمِنَ الْمَعَالِمِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا نَازِرٌ ، وَلَا بِهَا خَابِرٌ ، أَنَّ السَّائِلَ يَحْضُرُ عَلَى التَّلْخِيسِ الْمَفْهُومِ ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَزِيدُ الشَّيْءَ إِغْلَاقًا ، فَإِذَا امْتَثِلَ مَا يَرْسُمُ قَالَ : مَا شَفَانِي الْقَوْلُ ؛ وَإِنْ زِيدَ عَلَى ذَلِكَ قَالَ : غَرِقَ الْمُرَادُ فِي حَوَاشِي التَّكْثِيرِ ؛ فَلَيْسَ لِلْعَالِمِ تَخَلُّصٌ مِنْ اسْتِزَادَةِ الْمُتَعَلِّمِ ، وَلَا عِنْدَ الْمُتَعَلِّمِ شُكْرٌ عَلَى مَبْدُولِ جُهْدِ الْعَالِمِ ، وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ تَقَدَّمَتِ الْاسْتِغَاثَةُ مِنْهُ عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ ، وَالْأَوْلَى فِيمَا لَا حِيلَةَ فِيهِ الرِّضَا بِالْمَيْسُورِ مِنْهُ .

ثُمَّ قَالَ : وَإِنْ أَطَالَ اللَّهُ أَيَّامَ هَذِهِ الدَّوْلَةِ ، وَحَرَسَ عَلَى هَذِهِ الْجَمَاعَةِ الْقَلِيلَةَ النُّعْمَةَ ، اسْتَأْنَفْنَا نَظْرًا أَبْلَغَ مِنْ هَذَا النَّظَرِ ، بَيَّانٍ أَشْفَى مِنْ هَذَا الْبَيَّانِ ، وَطَرِيقٍ أَوْضَحَ مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

قَالَ الوَازِرِ : وَاللَّهِ مَا قَلْتُ قَوْلِي ذَاكَ ، لِأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ سَهْلٌ ، وَهَذَا الْمُتَنَاوَلُ قَرِيبٌ ، وَهَذَا الْمَرْمَى كَثْبٌ ، كَلًّا ، وَإِنِّي لِأَظُنُّ بَلَّ أَحَقُّ أَنَّهُ لَيْسَ فِي بَضَائِعِ أَصْحَابِنَا الَّذِينَ حَوْلِي مَنْ يُدْرِكُ هَذِهِ الْمَعَانِي عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ إِذَا قُرِئَتْ عَلَيْهِ ، فَكَيْفَ مَنْ يُفْرَعُ فِي شَرْحِهَا وَتَهْدِيئِهَا إِلَيْهِ .

ثُمَّ تَمَطَّى وَقَالَ : وَأَنْعَاسَاهُ ، وَأَضْعَفَ مُنْتَاهَاهُ ؛ ثُمَّ فَارَقْتُ الْمَجْلِسَ .

الليلة السادسة والثلاثون

وقال - دامت أيامه - : كيف تقول عند مهل الشهر شيئاً آخر من لفظه؟
فكان من الجواب: حكى العالم: عند هلول الشهر ومُسْتَهْلَهُ وهِلُّهُ وإِهْلَالِهِ
واِسْتِهْلَالِهِ.

قال: ورأيت الحاتمي يقول: عشرُ كلماتٍ جاءت وَعَيْنُهَا عَيْنٌ وَلَامُهَا وَاوٌ، ولم
أُوْثِرَ شَرْحَهُ لَهَا لِثِقَلِ رُوحِهِ، وَمُغَالَاةِ بِنَفْسِهِ، وكأَنَّهُ لَا عِلْمَ إِلَّا عِنْدَهُ، وَلَا فَائِدَةَ إِلَّا هِيَ
مَعَهُ، فَهَلْ فِي حِفْظِكَ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ؟

قلت: لا إله إلا الله، اليومَ ذَكَرَ الأندلسيُّ هذه الكلماتِ وَعَدَّهَا، وَقَدْ حَفِظْتُهَا،
فقال: هَاتِ يَا مُبَارَكُ؛ فكان الجواب: منها البَعُو، وهو الجِنَايَةُ، والجَعُو، وهو
الطَّيْنُ، والدَّعُو، مَضْدَرٌ دَعَا دَعَوًا، والسَّعُو: السَّمْعُ، والشَّعُو: هو انتفاسُ الشَّعْرِ،
والصَّعُو: الرَّجُلُ الضَّعِيفُ، وهو أيضاً طَائِرٌ أَصْغَرُ مِنَ العُصْفُورِ، والقَعُو: مِنَ البَكْرَةِ،
واللَّعُو: الحَرِيصُ. والدُّثْبُ فِي بَعْضِ اللُّغَاتِ، والمَعُو: الجَبِيُّ مِنَ الرُّطْبِ، والتَّعُو:
الشَّقُّ فِي مِشْقَرِ البَعِيرِ.

قال: هذا حَسَنٌ، لو أتى به الحاتميُّ لملوي شِدْقَهُ، وقال: تَنَحَّ فَقَدْ جَاءَ الأَسَدُ
وَعَلَبَ الطُّوفَانَ وَخَرَجَ الدَّجَالَ وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنَ المَغْرِبِ، ما بَالُ أَصْحَابِنَا تَعْتَرِيهِمْ
هَذِهِ الخِيَلَاءُ، وَيَغْلِبُ عَلَيْهِمُ التَّقْصُ، وَيَسْتَمَكِرُنَّ مِنْهُمُ الشَّيْطَانُ.

قلت: قال أبو سليمان: كلٌّ مَنْ عَلَبَ عَلَيْهِ حِفْظُ اللَّفْظِ وَتَضْرِيْفُهُ وَأُمِثْلَتُهُ وَأَشْكَالُهُ
بَعْدَ مَنْ مَعَانِي اللَّفْظِ؛ والمعاني صَوْنُ العَقْلِ، واللَّفْظُ صَوْنُ اللِّسَانِ، وَمَنْ بَعْدَ مَنْ
المَعَانِي قَلَّ نَصِيبُهُ مِنَ العَقْلِ، وَمَنْ قَلَّ نَصِيبُهُ مِنَ العَقْلِ كَثُرَ نَصِيبُهُ مِنَ الحُمُقِ، وَمَنْ
كَثُرَ نَصِيبُهُ مِنَ الحُمُقِ حَفِيَ عَلَيْهِ فُبْحُ الدُّكْرِ.

الليلة السابعة والثلاثون

وقال الوزير ليلة: ما أحوَجَ الجَبَانَ إلى أن يَسْمَعَ أحاديثَ الشُّجْعَانِ! وما أَشدَّ انتفاعَ الضَّيِّقِ النَّفْسِ باستماعِ أخبارِ الكِرَامِ، لأنَّ الأخلاقَ في الخَلْقِ أَعْرَاضٌ، والأَعْرَاضُ منها لَازِمٌ ومنها لَاصِقٌ.

قال: وكان عيسى بن زُرْعَةَ سرَدَ عليَّ سَنَةَ سَبْعِينَ، لياليَ كَانَتْ الأشغالَ خفيفةً، والسِّيَاسَةَ بالماضي - نَوَّرَ اللَّهُ قَبْرَهُ وَضَرِيحَهُ - عامَّةً، والنَّظْرُ بالحُسْنَى، شامِلًا - أَشْيَاءَ فِي الخَلْقِ أَتَى بِهَا عَلَى عَمُودٍ مَا كَانَ فِي نَفْسِي، وَذَلِكَ أَنَّهُ ذَكَرَ العَقْلَ والحُمُقَ، والعِلْمَ والجَهْلَ، والجِلْمَ والسُّخْفَ، والقَنَاعَةَ والشَّرَهَ، والحَيَاءَ والقِيحَةَ، والرَّحْمَةَ والقَسْوَةَ، والأمانَةَ والخِيَانَةَ، والتِّيَقُظَ والعَفْلَةَ، والتَّقَى والفُجُورَ، والجُرْأَةَ والجُبْنَ، والتواضُعَ والكِبْرَ، والوفاءَ والعَدْرَ، والنصيحةَ والغَيْثَ، والصُّدُقَ والكَذِبَ، والسَّخَاءَ والبُخْلَ، والأناةَ والبَطْشَ، والعَدْلَ والجُورَ، والنَّشَاطَ والكَسْلَ، والثُّسْكَ والفَتْكَ، والجِغْدَ والصَّفْحَ، وَيَنْبَغِي أن تَزُورَ عيسى وتَذَكَّرَ له هذه الجُمْلَةَ، وتَبَعَثَهُ على إِعادَةِ حُدُودِهَا، وإشباعِ القَوْلِ فيها، مع إيجازٍ لا يكون به مَدْخَلٌ لِلخَلَلِ، ولا تَقْصِيرٌ عن إِيصالِ الآخِرِ بالأوَّلِ.

فلقيتُ عيسى وعرفته الحديثَ، وأملَى ما رَسَمْتُهُ في هذا الجُزءِ، وعرضتُهُ على أبي سُلَيْمَانَ، فَرَضِيهِ بَعْضَ الرِّضَا، ولم يَسْخَطْ كُلَّ السُّخْطِ، وقال: تحديداً الأخلاقَ لا يَصِحُّ إِلَّا بَضْرِبٍ مِنَ التَّجَوُّزِ والتَّسْمُحِ، وَذَلِكَ أَنَّهُا مُتَلَابِسَةٌ تَلَابُسًا، ومُتَدَاخِلَةٌ تَدَاخُلًا، والشَّيْءُ لا يَتَمَيَّزُ عن غَيْرِهِ إِلَّا بِبَيِّنَوْنَةٍ واقِعَةٍ تَظْهَرُ لِلحِسِّ اللُّطِيفِ، أو تَتَضَيَّحُ لِلعَقْلِ الشَّرِيفِ.

ثم قال: ألا ترى أَنَّ الفِكْرَ مَشُوبٌ بالرَّوِيَّةِ، وَالظَّنَّ مَخْلُوطٌ بالوَهْمِ، وَالدُّكْرَ مَعْنِيَّ بالتَّخِيلِ، وَالبديهةَ جانحةً إلى الحِسِّ، وَالاِسْتِنْبَاطَ مَوْصُوفٌ بِالعَوْصِ، وما هذا المعنى الذي مَيَّزَ التَّوَاضُعَ من شُوبِ الضَّعَةِ، أو خَلَصَ عُلُوَّ الهِمَّةِ من شُوبِ الكِبْرِ، أو فَرَزَ عِزَّةَ النَّفْسِ من نَقْصِ العُجْبِ، أو أَبَانَ الجِلْمَ عن بَغْضِ الضَّعْفِ؟! هذا بالقَوْلِ رُبَّمَا سَهْلٌ وانقَادٌ، وَلَكِنْ بالعَقْلِ رُبَّمَا عَزٌّ واعتاصِرٌ، والأخلاقَ والخِلْقَ مُخْتَلِطَةٌ، فَمِنْهَا ما اختلاطُهُ قَوِيٌّ شديدٌ، وَمِنْهَا ما اختلاطُهُ ضَعِيفٌ سَهْلٌ، وَمِنْهَا ما اختلاطُهُ نَصْفٌ بين اللِّينِ والشَّدَّةِ، وَهذه يَنْفَعُ العِلاجُ فِي بَعْضِهَا، وَيَنْبُو العِلاجُ عن بَعْضِهَا؛ وَالحِزْمُ يَقْضِي بَآلَا يَتَهَاوَنَ بما يَقْبَلُ العِلاجُ لِأَجْلِ ما لا يَقْبَلُ العِلاجَ.

قال: وهذا أيضاً يَخْتَلِفُ بِحَسَبِ الْمِرْزَاجِ وَالْمِرْزَاجِ، وَالإِنْسَانِ وَالإِنْسَانِ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ رُمْتَ تَحْوِيلَ الْبَخِيلِ مِنَ الْعَرَبِ إِلَى الْجُودِ كَانَ أَسْهَلَ عَلَيْكَ مِنْ تَحْوِيلِ الْبَخِيلِ مِنَ الرُّومِ إِلَى الْجُودِ، وَالطَّمَعِ فِي جَبَانَ التُّرْكِ أَنْ يَتَحَوَّلَ شُجَاعاً أَقْوَى مِنَ الطَّمَعِ فِي جَبَانَ الْكُرْدِ أَنْ يَصِيرَ بَطْلاً.

قال: ومع هذا فَوَضَّفُ الْأَخْلَاقَ بِالْحُدُودِ - وَإِنْ كَانَ عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ - نَافِعٌ جِداً، وَإِضْمَارُهَا فِي النَّفْسِ مُثَمِّرٌ أَبَداً، فَهَذَا هَذَا.

وَأَمَّا مَا قَالَ أَبُو عَلِيٍّ فَإِنَّهُ هَذَا.

قيل: ما الحلم؟ قال: ضَبْطُ الْفِكْرِ بِكَفِّ الْعَضْبِ.

وقال شيخنا أبو سَعِيدِ السَّيرَافِيِّ: اعتباره من ناحية الاسم تَغْطِيلٌ لَطْبَعِيهِ وَذَلِكَ أَنَّ الْجِلْمَ شَرِيكَ التَّحَلُّمِ، «فَكَانَ الْحَلِيمُ الَّذِي يُعَدُّ فِيْمَنْ يَحْلُمُ» فِي عَرْضِ الْحَلِيمِ الَّذِي لَا يُعَاجُ عَلَيْهِ وَلَا يُكْتَرْتُ لَهُ. قال: وَالتَّحَلُّمُ نَافِعٌ أَيْضاً، وَهُوَ أَحْمَدُ مِنَ التَّحَالْمِ، لِأَنَّ الثَّانِيَّ أَقْرَبُ إِلَى الثَّانِي، كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ أَقْرَبُ إِلَى الْحَقِيقَةِ.

وقيل لعيسى: ما العَدْلُ؟ فقال: الْقِسْطُ الْقَائِمُ عَلَى التَّسَاوِي.

وَحَكَى جَالِينُوسُ قَالَ: إِنْ النَّاسَ لِشِدَّةِ حُبِّهِمْ لَأَنْفُسِهِمْ يَظُنُّونَ أَنَّ لَهُمْ مَا يُحِبُّونَ، فَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ وَقَعُوا فِي الْعُجْبِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مَحَبَّتُكَ لِنَفْسِكَ حَقِيقَةً، وَيَتِمُّ ذَلِكَ لَكَ إِذَا أَنْتَ صَبَرْتَ نَفْسَكَ عَلَى الْحَالِ الَّتِي يَرَى مِنْ يَرَى أَنَّكَ عَلَيْهَا.

وقال: الْمُعْجَبُ يُحِبُّ نَفْسَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَحِقُّ لَهَا؛ وَمَا أَحْسَنَ بِالإِنْسَانِ أَنْ يُحِبَّ نَفْسَهُ، وَلَكِنْ بِالْعَدْلِ، فَإِنْ أَرَادَ أَنْ يُحِبَّهَا جِداً فَيَحِبُّ أَنْ يَجْعَلَهَا مِنْ أَهْلِ الْمَحَبَّةِ، ثُمَّ يُحِبُّهَا مِنْ بَعْدِ.

قيل: فَمَا الْحَسَدُ؟ قال: شِدَّةُ الْأَسَى عَلَى شَيْءٍ يَكُونُ لغيرِهِ.

قيل: فَمَا الْكَاِبَةُ؟ قال: إِفْرَاطُ الْحُزْنِ.

قال أبو سليمان: الْحُزْنُ وَالْعَمُّ وَالْهَمُّ وَالْأَسَى وَالْجَزَعُ وَالْخَوَرُ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَمَنْ تَعَاطَى وَصَفَ أَغْصَانَ شَجَرَةٍ طَالَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَخْطُ بِطَائِلٍ، وَيَكْفِي أَنْ نَعْرِفَ شَجَرَةَ التُّفَّاحِ مِنْ شَجَرَةِ الْمُشْمُسِ، وَشَجَرَةَ الْكُمَّثَرِيِّ مِنْ شَجَرَةِ السَّفْرَجَلِ؛ فَإِنْ عَوَاقِبَ الْمَعَارِفِ نَكَرَاتٍ، كَمَا أَنَّ فَوَاتِحَ الْمَعَارِفِ جِهَالَاتٍ.

قيل: فَمَا الشُّجَاعَةُ؟ قال: الإِقْدَامُ فِي مَوْضِعِ الْفُرْصَةِ مِنْ جَمِيعِ الْأُمُورِ.

قال أبو سليمان: الشُّجَاعَةُ إِذَا كَانَتْ نُطْقِيَّةً كَانَتْ فُرْصَتُهَا تَعَاطِي الْحِكْمَةِ وَالدَّوُوبَ فِي بُلُوغِ الْغَايَةِ، وَبِذَلِكَ الْقُوَّةُ فِي تَيْلِ الْبِغْيَةِ؛ وَإِذَا كَانَتْ عَضْبِيَّةً كَانَتْ فُرْصَتُهَا شِفَاءَ الْعَيْظِ إِذَا مِنْ مُسْتَحَقٍّ، وَإِذَا مِنْ غَيْرِ مُسْتَحَقٍّ، وَإِذَا كَانَتْ شَهْوِيَّةً كَانَتْ فُرْصَتُهَا التَّحَلِّيَ بِالْعَقَّةِ النَّاتِمَةِ، أَعْنِي فِي الْحَلْوَةِ وَالْحَفْلِ.

قال لنا أبو الحسن عليُّ بنُ عيسى الرُّمَّانِيُّ الشَّيْخُ الصَّالِحُ: الْعَقَّةُ وَسِطَةُ بَيْنِ الْمُقَارَفَةِ وَالْعِصْمَةِ، وَالْعِصْمَةُ وَسِطَةُ بَيْنِ الْبَسْرِيَّةِ وَالْمَلِكِيَّةِ.

وحكى عيسى بن زُرعة في هذا الموضوع - عند تدافع الحديث - أن أمورس قال: إني لأعجب من ناس يقولون: كان ينبغي أن يكون الناس على رأي واحد، ومنهاج واحد، وهذا ما لا يستقيم ولا يقع به نظام.

قال: وهب أن يكون الناس وكل واحد منهم ملكاً يأمر وينهى ويستمتع له ويطاع، فمن كان المأمور المؤتمر، والمنهي المنتهي؛ والعامل الحصيف يعلم أنه لا بد من التفاوت الذي به يكون التصالح، كالعالم والمتعلم، والأمير والمأمور والصانع والمصنوع له.

ثم قال عيسى: من تواجب الأخلاق المذمومة الغضب والكذب والجهل والجور والدناءة.

قال أبو سليمان: أما الغضب فلا يكون مذموماً إلا إذا أُعْمِل في غير أوانه، وعلى غير ما يأذن الناموس الحق به؛ وأما الكذب ففيه أيضاً مصالح، كما أن الصدق ربما أفضى إلى كثير من المفاسد - وإن كان الصدق قد فاز بالوصف الأحسن، والكذب قد وُصف بالنعت الأفتح - فكم كذب نجى من شر، وكَم صدق أوقع في هوة، وبقي الآن أن نعرف الصدق مع أوانه ومكانه، فيؤتى به أو يُنهى عنه، وكذلك الكذب على حدوه ومثاله.

قال: وأما الجهل والجور والدناءة فإنها أثنائي الرذائل، فينبغي أن يُنتفى منها جملةً وتفصيلاً، ولا يسلك أحد إلى شيء منها سبيلاً، فإنها أعدام؛ - هكذا قال -؛ والعدم كربه ومهزوب منه، والوجود على أنقص الثعوت أتم وأشرف من العدم على أزيد الصفات، وإن كان لا زيادة في العدم إلا من طريق الوهم العارض ما يصح وما لا يصح.

قيل: فما العجب؟ قال: وزن النفس بأكثر من مثقالها.

وقال أيضاً: العجب هو النظر في النفس بعين ترى القبيح جميلاً.

ويقال: المعجب يدعي أن ما يُعجب منه قد حصل له من غير أن يكون كذلك؛ فأما إذا كان ذلك حاصلًا فالعجب ليس بعجب إلا من طريق الاسم، وإلا فهو في الحقيقة إخساس بالفضل المغشوق، وشعور بالكمال الموموق، واستدعاء للزيادة مما صار به هكذا، واستعداد لقبول الفيض من معدنه بالاختيار الثاني والاعتقاد الأول.

قيل: فما الوفاء؟ قال: قضاء حق واجب، وإيجاب حق غير واجب، مع رقة أنسية، وحفيظة مرعية.

قيل: فما الرغبة؟ قال: حركة تكون من شهوة يُرجى بها منفعة.

قال أبو سليمان: الرغبة إذا كانت نُظْفِيَّة كانت مَبْعَثَةً على التحلي بالفضائل، وإذا كانت سَبْعِيَّة أو بَهِيمِيَّة كانت مُلْهَجَةً بمواقعة أضدادها من الرذائل.

وقيل: ما المهنة؟ فقال: حركة يتعاطاها الإنسان بلا حَفْز ولا استِكْرَاه. قال علي بن عيسى: المهنة صناعة، ولكنها إلى الذل أقرب، وفي الضعة أدخل، والصناعة مهنة، ولكنها ترتفع عن تَوابع المهنة، وفي الصناعات ما يتصل به الذل أيضاً، ولكن ذل ليس من جهة حقيقة الصناعة؛ ولكن من جهة العَرَض الذي بين الصناعة والصناعة، والمرتبة والمرتبة.

قيل: فما العادة؟ قال: حال يأخذ بها المرء نفسه من غير أن تكون مسنونة يجري عليها مجرى ما هو مألوف طبيعي.

قال أبو سليمان: كأن هذا الاسم ليس يخلص إلا لمن أتى شيئاً مراراً، فأما في أول ذلك فليس له هذا النعت، وإنما يصير مألوفاً بالتكرار، ولهذا ما صيغت الكلمة من عاد يعود واعتاد يعتاد.

وأما قوله: طبيعي، فعلى وجه التشبيه، لأن الطبيعي أشد رُسوخاً وأثبت عِزقاً، وأبعد من الانقراض؛ فأما العادة فكل ذلك جائز عليها، وغير مأمون من الوقوع فيه.

قيل: كم الحركات؟ قال: ستة أصناف، أولها حركة الانتقال، وهي ضربان: إما حركة الجسم بأكمله من مكان إلى مكان، وإما حركته بأجزائه كالفلك والرحى، والثاني حركة الكون، والثالث حركة الفساد، والرابع حركة الرُبُوب، والخامس حركة النقص والبلى، والسادس حركة الاستحالة، وهي ضربان: أما في الجسم فمثل اللون، وأما في النفس فمثل الغضب والرضا، والعلم والجهل.

والثقله مكانية، والكون والفساد جوهريان، والاستحالة هيئية، والنمو والاضمحلال مكانيان.

قال الكندي: وهانها حركة أخرى، وهي حركة الإبداع، إلا أن بينها وبين حركة الكون فرقا، لأن هذه لا من موضوع، وحركة الكون من فساد جوهري قبله بحدوثه، ولذلك قيل: إن الكون خروج من حال خبيسة إلى حال نيفة.

قال أبو سليمان: حركة الإبداع عبارة بسيطة لا يجب أن يفهم منها معنى مركب. قال: وإنما قلت هذا لأن اللفظ نظير اللفظ في أغلب الأمر وليس المعنى نظير المعنى في أغلب الأمر، واللفظ كله من واحد واحد في التركيب بلغة كل أمة، والمعاني تختلف في البساطة على قدر العقل والعقل، والعقل والعقل، وإنما حركة الإبداع مشار بها إلى مقوم الأشياء بلا كلفة فاعل، ولا معاناة صانع، وإنما بدت بالمبدع من المبدع للمبدع لا على أن الباء ألصقت به شيئاً، ولا على أن من فصلت منه شيئاً، ولا على أن اللام أضافت إليه شيئاً، فإن هذه العلامات والأمارات كلها موجودة في الأشياء التي تعلقت بالإبداع، فلم يجز أن يُنعت بها المبدع، ولو جاز هذا لكان

داخلاً فيها، وموجوداً بها، وهذا بعيدٌ جداً. فلما جَلَّ عن هذه الصِّفات بالتحقيق في الاختيار وُصِفَ بها بالاستِعارة على الاضطرار، لأنه لا بد لنا من أن نذكره ونصِّفه ونُدعوه ونعْبُدَه ونُقصدَه ونزجُوَه ونخافُه ونعْرِفه وننحوُه ونطلب ما عنده وتواجهه ونكافِحه؛ وهذه نعمةٌ منه عَلَيْنَا، ولطفٌ منه بنا، وحكمةٌ بينه وبيننا وإلا كانت العِضْمَةُ تَنْبَتِر، والطمعُ يَنْقَطِع، والأملُ يَضْعَف، والرَّجاءُ يَخِيب، والأركانُ تَتَخَلَّل، والدَّرَائِعُ ترتفع، والوسائلُ تَمْتَنِع، والقواعدُ تَسِيح، والرَّغَبَاتُ تَسْقُط، والجودُ والكرمُ والحِكْمَةُ والقُدْرَةُ والجَبْرُوتُ والمَلَكُوتُ تأبى ذلك؛ فصارت هذه الأسماءُ والصِّفاتُ سَلالِمَ لنا إليه، لا حقائقَ يجوزُ أن يُظنَّ به شيءٌ منها، على سبيل السِّياجِ المَمْدُودِ والمِنهَاجِ المَحْدُودِ.

سُفِّتْ كَلَامَ عِيسَى فِي تَصْنِيفِ الحَرَكَاتِ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الفِقرَةِ الَّتِي كَانَتْ مَحْفُوظَةً فِي حَرَكَةِ الإِبْدَاعِ، فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ لِلْقَوْمِ فِي هَذَا البَابِ حَيْرَةً عَارِضَةً أَوْ رَاكِدَةً، لَا يَسْتَطِيعُونَ التَّفْصِيْلَ عِنهَا، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى البَرَاءَةِ مِنْهَا، لِلضَّلَالِ الَّذِي قَدْ لَزِمَهُمْ، وَالْأَصْنَامِ الَّتِي قَدْ تَرَبَّعَتْ فِي نُفُوسِهِمْ، وَالْأَمْثِلَةِ الَّتِي قَدْ خَالَطَتْ عُقُولَهُمْ، وَالْأَفْيَاءِ الَّتِي اسْتَضْحَبَهَا مِنْ إِحْسَاسِهِمْ؛ وَالْقَائِلِ هَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَرَّى وَيَتَلَبَّثَ حَتَّى يَغْرَى مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَيَتَرَبَّثَ؛ فَحِينَئِذٍ أَضْمَنُ لَهُ أَنْ يَصِحَّ تَوْحِيدُهُ، وَيَتِمَّ تَجْرِيدُهُ، وَإِلَى التَّوْحِيدِ تَنْتَهِي الفَلَسَفَةُ بِأَجْزَائِهَا الكَثِيرَةِ، وَأَبْوَابِهَا المَخْتَلِفَةِ، وَطُرُقِهَا المَتَشَعِّبَةِ.

وَأَنَا أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ صِنَاعَةِ لَا تُحَقِّقُ التَّوْحِيدَ وَلَا تَدَلُّ عَلَى الوَاحِدِ وَلَا تَدْعُو إِلَى عِبَادَتِهِ، وَالاعْتِرَافِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ، وَالقِيَامِ بِحُقُوقِهِ، وَالْمَصِيرِ إِلَى كَنَفِهِ، وَالصَّبْرِ عَلَى قَضَائِهِ، وَالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِهِ؛ وَوَجَدْتُ أَرْبَابَ هَذِهِ الصَّنَاعَاتِ، أَعْيُنِي الهَنْدَسَةَ وَالطَّبَّ وَالْحِسَابَ وَالمُوسِيقَى وَالْمَنْطِقَ وَالتَّنْجِيمَ مُعْرِضِينَ عَنِ تَجَسُّمِ هَذِهِ الغَايَاتِ، بَلْ وَجَدْتُهُمْ تَارِكِينَ الإِلْمَامَ بِهَذِهِ الحَالَاتِ، وَهَذِهِ آفَةٌ نَسَأَلُ اللّهُ السَّلَامَةَ مِنْهَا، وَالْعَاقِبَةَ مِنْ عَوَاقِبِهَا؛ وَالسَّلَامَ.

قيل: ما التَّمَام؟ قال: بلوغُ الشَّيْءِ الحَدَّ الَّذِي مَا فَوْقَهُ إِفْرَاطٌ، وَمَا دُونَهُ تَقْصِيرٌ.

قال أبو سليمان: التَّمَامُ أَلِيْقُ بِالمَخْسُوسَاتِ، وَالْكَامُلُ أَلِيْقُ بِالأَشْيَاءِ المَعْقُولَةِ.

قال: وليست هذه الفُتْيَا مَبْنِي جازمة، ولا عن العَرَبِ العَارِبَةِ مَرْوِيَّة، وَلَكِنْ إِذَا لَحَظْنَا المَعَانِي مُخْتَلِفَةً، طَلَبْنَا لَهَا أَسْمَاءَ مُخْتَلِفَةً، لِيَكُونَ ذَلِكَ مَعُونَةً لَنَا فِي تَحْدِيدِ الأَشْيَاءِ أَوْ فِي وَصْفِ الأَشْيَاءِ مِنْ طَرِيقِ الإِقْنَاعِ الكَافِّ لِلجَدَلِ وَالتَّهْمَةِ، أَوْ مِنْ طَرِيقِ البُرْهَانِ القَاطِعِ بِالحِجَّةِ، الرَّافِعِ لِلشُّبْهَةِ، أَوْ مِنْ طَرِيقِ التَّقْلِيدِ الجَارِي عَلَى السَّنَنِ وَالعَادَةِ.

قال: ولهذا إِذَا قِيلَ: مَا أَتَمَّ قَامَتَهُ! كَانَ أَحْسَنَ، وَإِذَا قِيلَ: مَا أَكْمَلَ نَفْسَهُ!

كَانَ أَجْمَلَ.

قيل له: هل يتساور الكون والفساد فيبقى الشيء على ما هو به؟ فقال: أما على الحقيقة فلا؛ ولكن على السعة، لأن الكون متصل بالفساد، إلا أنهما يخفيان في مبادئهما حتى إذا امتد الأنان فصارت أنا واحداً فحينئذ بان الكون من الفساد، وبان الفساد من الكون، وهذا بالاعتبار الحسي؛ فأما العقل فيرتفع عن هذا، لأنه يعلم حقيقة الشيء على ما هو عليه، ولا يقبل من الحس حكماً، ولا يختكم إليه أبداً.

وإنما الحس عامِلٌ من عمالِ العقل. والعامِلُ يَجُورُ مرّةً وَيَعْدِلُ مرّةً، فأما الذي هذا هو عامِلُهُ فهو الذي يتعقّبُهُ، فإنَّ وَجَدَهُ جائراً أبطلَ قضاءه، وإنَّ وَجَدَهُ عادِلاً أمضى حُكْمَهُ، ومتى استشير الحس في قضايا العقل فقد وُضِعَ الشيء في غير موضعه، ومتى استشير العقل في أحكام الحس فقد وُضِعَ الشيء في موضعه.

قيل: فما الصورة؟ قال: التي بها يخرج الجوهر إلى الظهور عند اعتقاب الصور إياه. قال أبو سليمان: هذه الفئتيان جزائفة الصور أصناف: إلهية وعقلية، وفلكية وطبيعية، وأسطقسية وصناعية، ونفسية ولفظية، وبسيطة ومركبة، وممزوجة وصافية، ويقظية ونومية وغائبية وشاهدية.

ثم اندفع فقال: أما الصورة الإلهية - وهي أعلاها في الرتبة والحقيقة. وهي أبعد ما في التخصيل إلا بمعونة الله تعالى - فلا طريق إلى وصفها وتحديدتها إلا على التقريب، وذلك أن البساطة تغلب عليها، إلا أنها مع ذلك تُرسم بأن يقال: هي التي تجلّت بالوحدانية، وثبتت بالدوام، ودامت بالوجود.

وأما الصورة العقلية فهي شقيقة تلك، إلا أنها دونها بالانحطاط الحسي، ولكن بالمرتبة اللفظية، وليس بين الصورتين فضل إلا من ناحية الثبوت، وإلا فالوحدانية شائعة وغالبة وشاملة، لكن الصورة الإلهية تلحظ لحظاً، ولا يلفظ بوصفها لفظاً، لمشاكبتها الصورة النفسية، فإذا كان كذلك أمكن أن تُرسم فيقال: هي التي تُهدي إلى العاقل تلجأ في الحكم، وثقة بالقضاء، وطمأنينة للعاقبة، وجزماً بالأمر، ودخوضاً للباطل، وبهجة للحق ونوراً للصدق.

والفرق بين الصورة الإلهية والصورة العقلية أن الصورة ترد عليك وتأخذ منك، والصورة العقلية تصل إليك فتعطيك، فالأولى بقهر وقُدرة، والثانية برفق ولطافة؛ وتلك تحجبك عن لِم وكَيْف، وهذه تفتح عليك لِم وكَيْف، وتلك لا تُنحى ولا تُطلب، وهذه يُسعى إليها، ويُسأل عنها وتوجد، وأنوار الصورة العقلية الإلهية بروق تمر، وأنوار الصورة شמוש تستشير؛ وتلك إذا حصلت لك بالخصوصية لا نصيب لأحد منها، وهذه إذا حصلت لك فأنت وغيرك شرع فيها؛ وتلك للصور والحفظ، وهذه للبذل والإفاضة.

وأما الصورة الفلكية فداخله تحت الرسم بالعرض، وللوهم فيها أثر كثير،

ولأنها مأخوذة من الجسم الأعظم صارت مشاكهتها مفسومة بين البسيط الذي لا تركيب فيه البتة، وبين المركب الذي لا يخلو من التركيب البتة؛ ولهذا صار تأثير الفلك في المتحركات عنه أشد من تأثر الفلك عن المحرك له، وكأنه أول محرك متحرك؛ وليس هكذا ما علا عنه.

والفلك بما هو جسم متفوض الصورة، وبما هو دائم الحركة شريف الجوهر.

وأما الصورة الطبيعية فتعلقها بالمادة القابلة لآثارها بحسب استعدادها لها، فلذلك ما هي مزرحة عن الدرجة العليا، وعشقها للقابل منها أشد من عشقها للمفوض عليها، ولهذا أيضاً كانت منافعها ممزوجة، ومضارها بختة، وهي تجمع بين الحكمة والبله، وبين الجيد والرديء، ولو سألتها لِمَ أنتِ ضارّة نافعة؟ لقلت: بعدت، فلما بعدت صوبت وصعدت.

وسمعت أبا التيس يقول في وصف الطبيعة كلاماً له روتق في النفس وأنا أصل هذه الجملة به.

قال: أيتها الطبيعة، ما الذي أقول لك، وبأي شيء أواخذك، وكيف أوجه العتب عليك؟! فإنك قد جمعت أموراً منكرة، وأحوالاً عسرة، لا يفي نظامك فيها بانتثارك عليها، ولك بوادر ضارة، وغوائل خفية تبدو منك، وتغور فيك، وتزجع إليك، حتى إذا قلنا في بعضها: إنك حكيمة، قلنا في بعضها: إنك سفيهة، فالبله منك مخلوط باليقظة، والاستقامة فيك عائدة بالاعوجاج، وفيك فطاع ونزاع، وقوارع وبدائع، لأن حركاتك تستر مرة استناناً تُعشقين عليه، وتُحيين من أجله، وتزيغ أخرى زيقاً تُمقتين عليه، وتُبغضين بسببه، وربما كانت حركتك نقضاً للبناء المحكم والصورة الرائعة، والنظام البهي، وربما كانت بناء للمنتقض، وتجديداً للبالى وإصلاحاً للفساد، حتى كأنك عابثة بلا قصد، عاثثة على عمد، وعلى جميع صفاتك من الواصفين لك لِمَ يعلم من ظن، ولا رأى من تحيل، ولا بعد لفظ من تأويل، ولا حال معنى عن توهم، ولا أسفر حق عن باطل، ولا تميز بيان عن تمويه، ولا وضح نضح من غش، ولا سلم ظاهر من تناقض، ولا حلت دعوى من معارض، فلهذا وأشباهه واجهتك بخطابي، وعرضت عليك ما في نفسي، فبالذي أنت به قائمة، وبالذي أنت به موجودة، وبالذي أنت له منقلبة، وإليه منساق، إلا حبرتي عنك، وشفتي غليلي منك، ونعت لي غيب شأنك، وجعلت الخبر عنك كعيانك، وإنما صرعت إليك هذا الضرع، وعرضت عليك هذا الوجع، لأنك جازتي وصاحبتي، وليس بيني وبينك حجاب إلا ما هو عدو منك أو مني، أعني بما هو منك لطف سخرك، وخفاء سرك، وأعني بما هو مني ما أعجز عن استيانتيه واستيضاحه إلا بقوة الإله الذي هو سبب لحركتك في أفانين تصرفك، وأعاجيب عدلك وتحريك.

وكان إذا بَلَغَ هذا الحَدَّ وما شاكَلَه أَخَذَ في كلام كالجوابِ على طريق التأنيس والتسليية والاستراحة، وهذا بالواجب، لأن الإنسان بسبب أغراضه المجهولة، وعوارضه الفاجئة الباغية من الغيب والشهادة يفتقر افتقاراً شديداً إلى هذه الثغوت التي تقدم ذكرها؛ وهذا كالداء والدواء! وليس لأحد أن يتهكم فيقول: هلا ارتفع الداء أضلاً فيستغنى عن الدواء جملة، وهلا وقع الدواء أبداً على الداء ونفاه وصرفه. فإن هذا كلام مدخول، من عقل كليل، ولعمري إن من جهل القسمة الإلهية في الأزل بحسب شهادة العقل لعَبَّ به الوسواس في هذه المواضع، وظن أن الأمر لو كان بخلاف ما هو عليه كان أولى وأتم وأوثق وأحكم، يا ونحه! من أين يوجب هذا الحكم؟ وبأي شيء يثبت هذا القضاء؟ وكيف يثق بهذا الوهم؟

وكان يقول أيضاً: إن الطبيعة تقول: أنا قوة من قوى الباري، موكلة بهذه الأجسام المسخرة حتى أنصرف فيها بغاية ما عندي من النفس والتصوير والإصلاح والإفساد اللذين لولاهما لم يكن لي أثر في شيء، ولا لشيء أثر مني، وكان وجودي وعدمي سواء، وحضوري وغيابي واحداً، ولو بطلت بطل بطلاني ما أنا به؛ وهذا زائف من القول، وخطل من الرأي، وتحكم من الظان.

ولو اختلف إيراد كل ما كان يتنفس به هذا الشيخ في حال نشاطه وانقباضه، لكان ذلك مراداً فسيحاً، ومشرعاً واسعاً، ولكن ذلك متعذر لعجزه عن الوفاء به، ولأن هذه الرسالة تتقاصص عنه، وإنما أجول في هذه الأكناف ليكلمني بالحكمة كيف دارت العبارة بها، وأمكنت الإشارة إليها، لا على التقصي لها وبلوغ الغاية منها، ومن يقدر على ذلك؟ ومن يحدث نفسه بذلك؟ العالم أبعده غوراً وأعلى قلة وأثقل وزناً وأحد غزياً وألطف أغراضاً وأكشفت أجراماً وأعجب تركيباً وأغرب بساطة؛ من أن يأتي عليه إنسان واحد، وكل من كان في مسكبه، وإن بلغ الغاية في دقة الذهن وحسن البيان وبلاغة اللفظ، واستنباط العامض في حاضره وغائبه؛ هذا ما لا يتوهمه العقل.

وأنا أعوذ بالله من هذه الدعوى، وأسأله أن يلهمني الشكر على ما فتح وشرح، وهدي إليه وفتح، وأطلع عليه وندح، فإن الشكر فرغ لباب المزيد، والمزيد باعث على الشكر الجديد، والشكر - وإن خلص بالعرفان، وجرى بضروب البيان على اللسان - فإنه يقصر عن تواتر النعمة بعد النعمة، وتظاهر الفائدة بعد الفائدة.

وأما الصورة الأسطقسية، فهي لائحة لكل ذي جس بالتناظم الموجود فيها، والتباين الآخذ بتصبيه منها، ولها انقسام إلى آحادها، أعني أن صورة الماء مباينة لصورة الهواء، وكذلك صورة الأرض مخالفة لصورة النار، فتحديدها بما يقررها مع عوصها في كل أسطقس شديد، واللفظ لا يصفو، والمراد لا يتماز.

وأما الصُّورَةُ الصَّنَاعِيَّةُ فَهِيَ أَبَيَّنُّ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّهَا مَعَ غَوْصِهَا فِي مَادَّتِهَا بَارِزَةٌ لِلْبَصَرِ وَالسَّمْعِ وَلِجَمِيعِ الْأَحْسَاسِ، كَصُورَةِ السَّرِيرِ وَالكَرْسِيِّ وَالْبَابِ وَالخَاتَمِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَأَمَّا الصُّورَةُ النَّفْسِيَّةُ فَهِيَ رَاجِعَةٌ إِلَى الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَتَوَابِعِهِمَا فِيمَا يُحَقِّقُهُمَا أَوْ يَخْدُمُهُمَا وَهِيَ شَقِيقَةٌ لِلصُّورَةِ الْعَقْلِيَّةِ بِالْحَقِّ.

وَأَمَّا الصُّورَةُ البَّسِيطَةُ فَالْاِخْتِلَافُ مَرَاتِبِ البَّسِيطِ مَا يَعْزُرُ رَسْمَهَا إِلَّا بِالْإِيْمَاءِ إِلَيْهَا، فَإِنْ لَحِقَ هَذَا الْإِيْمَاءُ سَامِعُهُ فَذَلِكَ، وَإِلَّا فَلَا طَمَعُ فِي عِبَارَةٍ شَافِيَةٍ عَنْهَا.

وَأَمَّا الصُّورَةُ المَرْكَبَةُ فَهِيَ بَادِيَةٌ لِلْحِسِّ بِأَثَارِ الطَّبِيعَةِ فِي مَادَّتِهَا، وَبَادِيَةٌ أَيْضاً لِلنَّفْسِ بِأَثَارِ الْعَقْلِ فِي سَيِّحِهِ عَلَيْهَا، وَكَمَا أَنَّ بَيْنَ البَّسِيطِ وَالبَّسِيطِ فَرْقاً يَكَادُ البَّسِيطُ يَكُونُ بِهِ مُرَكَّباً، كَذَلِكَ بَيْنَ المَرْكَبِ وَالمَرْكَبِ فَرْقٌ يَكَادُ المَرْكَبُ يَكُونُ بِهِ بَسِيطاً؛ وَهَذِهِ جُمْلَةٌ تَفْسِيرُهَا مُعَوِزٌ.

وَأَمَّا الصُّورَةُ المَمزُوجَةُ فَهِيَ أُخْتُ الصُّورَةِ المَرْكَبَةِ، وَكَذَلِكَ الصُّورَةُ الصَّافِيَّةُ أُخْتُ الصُّورَةِ البَّسِيطَةِ، وَليسَ هَذَا تَمَازِيراً فِي اللَّفْظِ وَاللَّفْظِ، إِذْ كَانَتَا مُتَصَاحِبَتَيْنِ وَلَمْ تَكُونَا مُتَعَانِدَتَيْنِ.

وَأَمَّا الصُّورَةُ اليَقْظِيَّةُ فَهِيَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَحْسَاسِ، لِجَرِيَانِهَا عَلَى وَجْدَانِ المَشَاعِرِ كُلِّهَا، وَمَا لَهَا وَبِهَا.

وَأَمَّا الصُّورَةُ النَّوْمِيَّةُ فَهِيَ أَيْضاً مُمَيِّزَةٌ عَنْ أُخْتِهَا، أَعْنِي اليَقْظِيَّةَ، لِأَنَّهَا إِغْضَاءٌ عَيْنٍ وَفَتْحٌ عَيْنٍ، أَعْنِي أَنَّ النَّائِمَ قَدْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مِثَالَاتِ الإِحْسَاسِ وَعَوَارِضِ الكَوْنِ وَالفَسَادِ، وَفُتِحَ عَلَيْهِ بَابٌ إِلَى وَجْدَانِ شَيْءٍ آخَرَ يَجْرِي كَظِلِّ الشَّخْصِ مِنَ الشَّخْصِ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنَ وَادِي الطَّبِيعَةِ أَوْ مِمَّا إِلَى آثَارِ الْأَخْلَاطِ، وَإِنْ كَانَ مِنَ وَادِي النَّفْسِ أَوْ مِمَّا إِلَى نَضْبِ التَّمَاثِيلِ، وَإِنْ كَانَ مِنَ وَادِي الْعَقْلِ صَرَّحَ بِحَقَائِقِ الغَيْبِ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ إِمَّا بِالتَّقْرِيبِ وَإِمَّا بِالتَّهْدِيبِ أَعْنِي إِمَّا بِوُقُوعِهِ عَقِيبَ ذَلِكَ، وَإِمَّا بَعْدَ مُهْلَةٍ.

وَأَمَّا الصُّورَةُ الغَائِبِيَّةُ وَالشَّاهِدِيَّةُ فَقَدْ اتَّصَلَ الكَلَامُ فِي شَرْحِهَا بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ الصُّورَةِ اليَقْظِيَّةِ وَالنَّوْمِيَّةِ، وَالعِبَارَةُ عَنِ الشَّاهِدِ مَقْصُورَةٌ عَلَى وَجْدَانِ المَشَاعِرِ، وَالعِبَارَةُ عَنِ الغَائِبِ مَقْصُورَةٌ عَلَى مَا تَعَلَّقَ عَلَى المَشَاعِرِ، وَفِي الغَائِبِ شَاهِدٌ هُوَ المَلْحُوظُ مِنَ الغَائِبِ، وَفِي الشَّاهِدِ غَائِبٌ هُوَ المَبْحُوثُ عَنْهُ فِي الشَّاهِدِ، فَالشَّاهِدُ غَائِبٌ بِوَجْهِهِ، وَالعَائِبُ شَاهِدٌ بِوَجْهِهِ، حَتَّى إِذَا اسْتَجْمَعَا لَكَ كُنْتَ بَهُمَا فِي شِعَارِهِمَا. وَالْإِلَهِيَّونَ مِنَ الفلاسفةِ هُمَ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ هَذَيْنِ النَّعْتَيْنِ وَعَلَوْا هَاتَيْنِ الذَّرْوَتَيْنِ، فَتَوَحَّدَا عِنْدَ ذَلِكَ بِخَصَائِصِهِمْ، وَانْسَلَخُوا عَنِ نَقَائِصِهِمْ، فَلَوْ قُلْتُ: مَا هُوَ لِأَنَّ بَشَرٌ كُنْتُ صَادِقاً.

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الَّذِي قَالَ فِي وَصْفِ العِصَابَةِ حَيْثُ وَصَفَ فَقَالَ:

فِينَا وَفِيكَ طَبِيعَةٌ أَرْضِيَّةٌ تَهْوِي بِنَا أَبْدأً لِشَرِّ قَرَارِ

لَكِنَّهَا مَفْسُورَةٌ مَأْسُورَةٌ
فَجَسُومُهُمْ مِنْ أَجْلِهَا تَهْوِي بِهِمْ
لَوْلَا مُنَازَعَةُ الْجُسُومِ نُفُوسُهُمْ
عَرَفُوا لِرُوحِ اللَّهِ فِيهِ فَضْلٌ مَا
فَتَنَزَّهُوا وَتَكْرَمُوا وَتَعْظُمُوا
نَزَعُوا إِلَى الْبَحْرِ الَّذِي مِنْهُ أَتَتْ
وَهَذَا وَضَفٌّ بَلِيغٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْقَوْمِ .

فَأَمَّا مَا وَرَاءَ هَذَا فَهَذَا خَبْرٌ ثَقِيٌّ بِمَا قَرَّرَ وَقَالَ :

وَأَمَّا الصُّورَةُ اللَّفْظِيَّةُ فَهِيَ مَسْمُوعَةٌ بِالآلَةِ الَّتِي هِيَ الْأُذُنُ ، فَإِنْ كَانَتْ عَجْمَاءَ فَلَهَا حُكْمٌ ، وَإِنْ كَانَتْ نَاطِقَةً فَلَهَا حُكْمٌ ، وَعَلَى الْحَالَتَيْنِ فَهِيَ بَيْنَ مَرَاتِبِ ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا تَحْسِينَ الْإِفْهَامِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا تَحْقِيقَ الْإِفْهَامِ ، وَعَلَى الْجَمِيعِ فَهِيَ مَوْقُوفَةٌ عَلَى خَاصٍّ مَالِهَا فِي بُرُوزِهَا مِنْ نَفْسِ الْقَائِلِ ، وَوُصُولِهَا إِلَى نَفْسِ السَّامِعِ ؛ وَلِهَذِهِ الصُّورَةُ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ مَرْتَبَةٌ أُخْرَى إِذَا مَارَجَبَهَا اللَّحْنُ وَالْإِيْقَاعُ بِصِنَاعَةِ الْمُوسِيقَارِ ، فَإِنَّهَا حِينئِذٍ تُعْطِي أُمُوراً ظَرِيفَةً ، أَعْنِي أَنَّهَا تَلْدُ الْأَحْسَاسَ ، وَتُلْهَبُ الْأَنْفَاسَ ، وَتَسْتَدْعِي الْكَاسَ وَالطَّاسَ ، وَتَرْوِّحُ الطَّبْعَ ، وَتُنْعِمُ الْبَالُ ، وَتَذَكِّرُ بِالْعَالَمِ الْمَشُوقِ إِلَيْهِ ، الْمُتَلَهِّفِ عَلَيْهِ .

هَذَا مِنْتَهَى كَلَامِهِ عَلَى مَا عَلَقَهُ الْحِفْظُ ، وَلَقَبَنَّهُ الذَّهْنَ ؛ وَلَوْ كَانَ مَأْخُوداً عَنْهُ بِالْإِمْلَاءِ لَكَانَ أَقْوَمَ وَأَحْكَمَ ، وَلَكِنَّ السَّرْدَ بِاللِّسَانِ ، لَا يَأْتِي عَلَى جَمِيعِ الْإِمْكَانِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، فَهَذَا هَذَا .

قَالَ الْوَزِيرُ : هَذَا بَابٌ فِي غَايَةِ الْإِيْفَاءِ وَالِاسْتِيْفَاءِ ، وَمَنْ يَتَحَكَّمُ بِالِاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ فَقَدْ صَغَى ، وَأَبْدَى صَفْحَتَهُ بِالْبُهْتِ ، وَدَلَّ مِنْ عَقْلِهِ عَلَى الدَّخْلِ ، وَمَنْ أَخْلَقَهُ عَلَى الْخَلَلِ ؛ لَقَدْ وَهَبَ اللَّهُ لِهَذَا الرَّجُلِ مَقَاماً عَالِياً ، وَلَا عَجَبُ فَإِنَّهُ مُعَوِّضٌ بِهَذَا عَمَّا فَاتَهُ .

وَقَالَ : أَنَشِدُنِي فِي الْخَمْرِ شَيْئاً غَرِيباً ، فَأَنْشُدْتُهُ :

وَمُورِدِ الْوَجَنَاتِ يَخُ
يَسْقِيكَ مِنْ جَفْنِ اللَّجِينِ
حَتَّى تَظَنَّ الشَّمْسَ تَنُ
فَإِذَا سَقَاكَ بَعَيْنِهِ
حَيَّاكَ بِالْيَاقُوتِ تَحُ
طِرُ حِينَ يَخْطِرُ فِي مُورِدِ
إِذَا سَقَاكَ دُمُوعَ عَسَجِدِ
زِلٌ أَوْ تَطُنُّ الْأَرْضَ تَضَعِدِ
وَبِفِيهِ ثَمَّ سَقَاكَ بِالْيَدِ
سَتِ الدَّرُّ مِنْ فَوْقِ الزَّبْزَجِدِ

قَالَ : أَحْسَنْتَ وَاللَّهِ ؛ هَاتِي زِيَادَةً . فَقُلْتُ :

وَعَذْرَاءُ تَزْعُو حِينَ يَضْرِبُهَا الْفَحْلُ
كَذَا الْبِكْرُ تَنْزُو حِينَ يَفْتَضُّهَا الْبَعْلُ

تُدِيرُ عَيُوناً فِي جُفُونٍ كَأَنَّمَا
كَأَنَّ حَبَابَ الْمَاءِ حَوْلَ إِنَائِهَا
تَوَهَّمْتُهَا فِي كَأْسِهَا فَكَأَنَّمَا
إِذَا اشْتَبَكَتَ رِجْلَايَ مِنْ سَوْرَةِ الْكَرَى
وَأَنْشَدْتُ لِآخِرِ:

وَكَمْ عَائِبٍ لِلخَمْرِ لَوْ أَنَّ أُمَّه
وَلِآخِرِ:

خَلِيلِي لُومَانِي عَلَى الخَمْرِ أَوْ دَعَا
وَشَبَّأَ سَنَانِ لِعَلِّ نَدِيمَنَا
فَمَا رَاعِنَا إِذْ أُوقِدَتْ فَوْقَ رَبْوَةٍ
فَهَشَّأَ إِلَيْنَا ثَمَّ قَالَا: أَلَا انْعِمَا
وَأَنْشَدْتُ لِآخِرِ:

سَقَوْنِي وَقَالُوا لَا تُغْنُ لَوْ سَقَوْنَا
وَأَنْشَدْتُ أَيْضاً:

الكَأْسُ لَا تَدْرِي وَلَا الخَمْرُ
أَسْكَرَنِي مِنْ قَبْلِ شُرْبِي لَهَا
قُلْتُ لَهُ وَالخَمْرُ فِي كَأْسِهِ
أَنْتَ لِعَمْرِي الخَمْرُ يَا سَيِّدِي
آخِرِ:

تَرَكْتَ النَّبِيذَ لِأَهْلِ النَّبِيذِ
وَقَدْ كُنْتَ قِدْماً بِهِ مُعْجَباً

فقال: قد جرى هذا أيضاً على التمام. اختتم مجلسنا بدعاء الصوفية.

فقلت: سمعت ابن سَمْعُونَ يَدْعُو فِي الجَامِعِ فِي آخِرِ مَجْلِسِهِ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ
اجْعَلْ قَوْلَنَا مَوْضُوعاً بِالْعَمَلِ، وَعَمَلَنَا مُحَقَّقاً لِلْأَمَلِ، وَلَا تُضَايِقْنَا فِيمَا نَتَحَوَّلُ بِهِ،
وَنَتَقَلَّبُ لَكَ فِيهِ، وَكُنْفَ عَلَيْنَا بِسِتْرِكَ، وَسَوْغَنَا بِرِّكَ، وَالْهَمَّتَا شُكْرَكَ، وَخَفَّفْ عَلَيَّ
أَفْوَاحِنَا ذِكْرَكَ، وَاحْضُنْنَا بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا هُوَ أَلْيَقُ بِذَلِكَ؛ اللَّهُمَّ اسْمَعْ وَاسْتَجِبْ
وَقَرِّبْ. وَانصرفت.

الليلة الثامنة والثلاثون

وجرى ليلة بحضرة الوزير - أعلى الله كلمته، وأدام غبطته، ووالى نعمته - أحق من دعي له، وأشرف من بوهي به، وأكمل من شوهد في عصره - حديث ابن يوسف وما هو عليه من عثائه ورثائه، وعيافته وحساسته .

فقلت له: عندي حديث، ولا شك أن الوزير مطلق عليه، عارف به. قال: ما ذاك؟ قلت: حدثني أبو علي الحسن بن علي القاضي التُّوخي قال: كنت في الصُحبة إلى همدان سنة تسع وستين، وكنا جماعةً وفينا ابن حرنبار أبو محمد، وكان في جنبه ابن يوسف، فاتفق أن عضد الدولة - برّد الله مضجعه - قال لابن شاهويه: سر إلى ابن حرنبار وقل له: ينبغي أن تسير إلى البصرة وإنا نجعل لك فيها معونة، فقد طال مقامك عندنا، وتوالى تبرُّمنا بك، وتبرُّمك بنا، وليس لك بحضرتنا ما تحبه وتقرُّحه، والسلامة لك في بُعدك عنا قبل أن يفضي ذلك إلى تغييرنا. وكلاماً في هذا النوع .

قال: ونفذ أبو بكر ومعه آخر من المجلس يشهد التبليغ والأداء، ويسمع الجواب والابتداء - على رسم كان مغموداً في مثل هذا الباب - فلقبي ابن حرنبار وشافهه بالرّسالة على التّمام؛ فقال أبو محمد لما سمع: الأمر للملك، ولا خلاف عليه؛ ولعمري إن الناس بجُدودهم ينالون حُطوطهم، ويحطوهم يستديمون جُدودهم؛ ولو وُفقت ما كان عجباً، فقد نال من هو أنقص مني، وبلغ المنى من أنا أشرف منه، ولكن المقادير غالبه، وليس للإنسان عنها مُرتحل؛ وقد قيل: من ساور الدهر غلب، ولكن أيها الشيخ لي حاجة: أحب أن تبلغ الملك كلمة عني. قال: هاتها؛ قال: تقول له: أنا صائرٌ إلى ما رسمت، ومتمثلٌ ما أمرت، بعد أن تقضي لي وطراً في نفسي، قد تقطع عليه نفسي، وذاك أن تتقدم فيقام عبد العزيز بن يوسف بين اثنين فيصفعاياه مائتين، ويقولان له: إذا لم تبدل جاهك لمتلف، ولا عندك فرج لمكروب، ولا برّ لضعيف، ولا عطاء لسائل، ولا جائزة لشاعر، ولا مزعى لمتنجع، ولا مأوى لضيف، فلم تخاطب بسيدنا، وتقبل لك اليد، ويقام لك إذا طلعت؟؟

قال ابن شاهويه: فقبل أن لقيت الملك أفصح له الذي كان معي مُشرفاً علي . فلما دخلت الدار عرفت، فقال: علي به، فحضرتُه وابن يوسف قاعدٌ بين يديه على رسمه. فقال لي: هات الجواب عما نُفدت فيه؛ فقلت: الجواب عندك، فقال: ما

أَعَجِبَ هذا! أَنْتَ حُمَلَتِ الرِّسَالَةَ وَأَطَالِبُ غَيْرَكَ بِالْجَوَابِ؟ قَالَ: فَتَلَوْنِي حَيَاءً مِنْ ابْنِ يَوْسُفَ، فَقَالَ: هَاتِ يَا هَذَا الْحَدِيثَ بِفِصِّهِ، فَوَاللَّهِ لَا أَقْنَعُ إِلَّا بِهِ، مَا هَذَا التَّوَانِي وَالتَّكَاثُلُ، فَكَرِهْتُ اللَّجَاجَ، فَسَرَدْتُهُ عَلَى وَجْهِهِ، وَلَمْ أَغَادِرْ مِنْهُ حَرْفًا، وَابْنُ يَوْسُفَ يَتَقَدَّدُ فِي إِهَابِهِ، وَيَتَغَيَّرُ وَجْهُهُ عِنْدَ كُلِّ لَفْظَةٍ تَمُرُّ بِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الْمَلِكُ وَقَالَ: كَيْفَ تَرَى يَا أَبَا الْقَاسِمِ الْكَيْسَ؟ فَقَالَ: يَا مَوْلَانَا، إِنَّمَا أَنَا أَقْضِي الْحَاجَةَ بِكَ، فَإِذَا لَمْ تَقْضِهَا كَيْفَ أَكُونُ؟ فَإِنَّ الْحَوَائِجَ كُلَّهَا إِلَيْكَ.

قَالَ: صَدَقْتَ، أَنَا لَا أَقْضِي حَاجَةَ لَكَ، لِأَنَّكَ لَا تَقْضِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، وَلَا تَبْغِي بِهَا مَكْرَمَةً، وَلَا تَحْفَظُ بِهَا مُرُوءَةً، وَإِنَّمَا تَرْتَشِي عَلَيْهَا، وَتُصَانِعُ بِهَا، وَتَجْعَلُنِي بَابًا مِنْ أَبْوَابِ تِجَارَتِكَ وَأَرْبَابِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَقْضِي حَاجَةَ اللَّهِ أَوْ لِمَكْرَمَةٍ أَوْ لِرَحْمَةٍ وَرِقَّةٍ لَكَانَ ذَلِكَ سَهْلًا عَلَيَّ، وَخَفِيفًا عِنْدِي، لَكُنْتُكَ مَعْرُوفُ الْمَذْهَبِ فِي الطَّمَعِ وَالْحَيْلَةِ، وَجَزَّ النَّارِ إِلَى قُرْصِكَ، وَشَرِهَكَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكَ؛ وَلَيْسَ الذَّنْبُ لَكَ، وَلَكِنْ لِمَنْ رَأَى إِنْسَانًا وَأَنْتَ كَلْبٌ.

وَصَدَقَ - صَدَقَ اللَّهُ قَوْلَهُ - فَإِنَّهُ كَانَ أَحْسَنَ خَلْقِ اللَّهِ، وَأَتَمَّنَ النَّاسَ، وَأَقْدَرَ النَّاسَ، لَا مَنظَرَ وَلَا مَخْبِرَ.

وَكَانَتْ أُمُّهُ مُعْنِيَّةً مِنْ أَهْلِ الْبَيْضَاءِ، وَأَبُوهُ مِنْ أَسْقَاطِ النَّاسِ، وَنَشَأَ مَعَ أَشْكَالِهِ، وَكَانَ فِي مَكْتَبِ الرَّبِضِيِّ عَلَى أَحْوَالِ فَاحِشَةٍ، وَوَرَقَ زَمَانًا، ثُمَّ إِنَّ الزَّمَانَ نَوَّهَ بِهِ، وَنَبَّهَ عَلَيْهِ، وَمِثْلُ هَذَا يَكُونُ، وَالْأَيَّامُ ظُهُورٌ وَبُطُونٌ؛ وَكَمَا يَنْسَقُطُ الْفَاضِلُ إِذَا عَانَدَهُ الْجَدُّ، كَذَلِكَ يَرْتَفِعُ السَّاقِطُ إِذَا سَاعَدَهُ الْجَدُّ فَهَذَا هَذَا.

فَقَالَ: مَا كَانَ هَذَا الْحَدِيثَ عِنْدِي، وَإِنَّهُ لَمِنْ الْغَرِيبِ.

ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ خَبَرُكَ فِي الْفِتْنَةِ الَّتِي عَرَضَتْ وَانْتَشَرَتْ، وَتَفَاقَمَتْ وَتَعَاظَمَتْ؟

فَكَانَ مِنَ الْجَوَابِ: خَبَرٌ مِنْ شَهْدِ أَوْلِيهَا، وَغَرَقٌ فِي وَسْطِهَا، وَنَجَا فِي آخِرِهَا.

قَالَ: حَدَّثَنِي فَإِنَّ فِي رِوَايَتِهِ وَسَمَاعِهِ تَبْصِرَةً وَتَعْجُباتَ، وَزِيَادَةَ فِي التَّجْرِبَةِ. وَقَدْ

قِيلَ: تِجَارِبُ الْمُتَقَدِّمِينَ، مَرَايَا الْمُتَأَخِّرِينَ، كَمَا يُبْصَرُ فِيهَا مَا كَانَ، يُتَبَصَّرُ بِهَا فِيمَا سَيَكُونُ، وَالشَّاعِرُ قَدْ قَالَ:

وَالدَّهْرُ آخِرُهُ شِبْهُهُ بِأَوْلِيهِ نَاسٌ كَنَاسٍ وَأَيَّامٌ كَأَيَّامِ

وَلَيْسَ مِنْ حَادِثَةٍ مَاضِيَةٍ إِلَّا وَهِيَ تُعْرَفُكَ الْخَطَأَ وَالصَّوَابَ مِنْهَا لِتَكُونَ عَلَى أَهْبَةِ فِي أَخْذِكَ وَتَرْكِكَ، وَإِقْدَامِكَ وَنُكُولِكَ، وَقَبْضِكَ وَبَسْطِكَ، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ لَا يَقِي كُلَّ الْوَقَايَةِ، فَإِنَّهُ لَا يُلْقِي فِي التَّهْلُكَةِ كُلَّ الْإِلْفَاءِ.

كَانَ أَوَّلَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ الْفِظِيْعَةُ الْبَشِيعَةُ الَّتِي حَيَّرَتِ الْعُقُولَ وَوَلَّهَتْ الْأَلْبَابَ،

وَسَافَرَ عَنْهَا التَّوْفِيقَ، وَاسْتَوَلَى عَلَيْهَا الْخِذْلَانُ، وَغَدِمَتْ فِيهِ الْبَصَائِرَ، شَيْءٌ كَلَا شَيْءٍ،

وإذا أراد الله [تعالى ذكره] أن يُعْظِمَ صَغِيرًا فَعَلَّ، وإذا شاء أن يُصَغِّرَ عَظِيمًا قَدَرَ، لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ، ولا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، ولا رَادًّا لِقَضَائِهِ، ولا صَارِفًا لِقَدْرِهِ؛ وَقُدْرَةُ الإنسان محدودة، واستطاعته مُنْهَيْة، واختياره قَصِير، وطاقته مَعْرُوفَةٌ؛ وكلُّ ما جاوز هذا الحَدَّ وهذا التَّنَاهِي فهو الذي يَجْرِي على الإنسان شاء أو أبى، كَرِهَ أو رَضِيَ، وهاهنا يُفْرَعُ إلى اللَّهِ مِن نازِلِ المَكْرُوه، وحادثِ المَحْذُور.

وذاك أن الرُّومَ تهايَجَّتْ على المُسْلِمِينَ، فسارَتْ إلى نَصِيبِينَ بِجَمْعِ عَظِيمٍ زائدٍ على ما عُهِدَ على مَرِّ السُّنِينَ، وكانَ هذا في آخِرِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ، فخافَ الناسُ بالمُوصِلِ وما حَوْلَها، وأخذوا في الانحدارِ على رُغْبِ قُذْفٍ في قُلُوبِهِم، ليكونَ سبباً لما صارَ إليه الأمرُ؛ وماجَ الناسُ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ واضطربوا، وتَقَسَّمَ هذا المَوْجُ والاضطرابُ بين الخاصَّةِ والعامَّةِ؛ وصارتِ العامَّةُ طائفتَيْنِ، طائفةٌ تَرَقُّ لِلدِّينِ ولما دَهَمَ المُسْلِمِينَ، وتَسْتَغْظِمُ ذلكَ فَرَقاً مما يَنْتَهَ إليه، بعد ما يُوتَى عليه؛ وطائفةٌ وَجَدَتْ فُرْصَتَها في العَيْثِ والفسادِ، والنَّهْبِ والغارةِ بوساطةِ التَّعَصُّبِ لِلْمَذْهَبِ.

وافترقتِ الخاصَّةُ أيضاً فَرَقَتَيْنِ: فرقةٌ أَحَبَّتْ أن تَكُونَ لِلنَّاسِ حَمِيَّةً للإسلامِ، ونُهوَضُ إلى العَزْوِ، وانبعاثُ في نُضْرَةِ المُسْلِمِينَ، إذ قد أَضْرَبَ السُّلْطَانُ عن هذا الحديثِ، لانهماكِهِ في القُضْفِ والعَزْفِ، وإغراضِهِ عن المصالحِ الدِّينِيَّةِ، والخيراتِ السِّيَاسِيَّةِ؛ وطائفةٌ اختارتِ السُّكُونَ والإقبالَ على ما هُوَ أَحْسَمُ لِمادَّةِ الوُثُوبِ والهَنْجِ، وأقْطَعَ لَشَعْبِ الشاغِبِ، وأقَمَعَ لَخِلافِ المِثْمَمِ، فإنَّ الاختلافَ إذا عَرَضَ خَفِيَ مَوْضِعُ الاتِّفاقِ، والتَّبَسُّ الأَمْرُ على الصُّغارِ والكِبارِ؛ وبِمِثْلِ هذا فُتِحَتْ البلادُ، ومُليكَتِ الحُصُونُ، وأزِيلَتِ النُّعْمُ، وأرِيقتِ الدِّماءُ، وهتِكَّتِ المحارِمُ، وأبيدَتِ الأُممُ؛ ونَعُوذُ بِاللَّهِ من غَضَبِ اللَّهِ ومِمَّا قَرَّبَ من سُخْطِ اللَّهِ؛ وإذا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا كَثُرَ بَواغِثُهُ، وفَرَّقَ نَوابِئَهُ^(١).

ولما اشْتَغَلَتِ النَّائِرَةُ، واشتَغَلَتِ الثَّائِرَةُ، صاحَ الناسُ: التَّنْفِيرَ التَّنْفِيرَ، وإسْلامَها، وأمْحَمَّداها، واصْصومَها، واصْصَلَّاتِها، واحْجَّأها، واغْزَواها، وأَسْراها، في أيدي الرُّومِ والطُّغاةِ. وكانَ عِزُّ الدَّوْلَةِ قد حَرَجَ في ذلكَ الأوانِ إلى الكُوفَةِ لِلصَّيْدِ، ولأغراضِ غيرِ ذلكَ؛ فاجتمعَ الناسُ عندَ الشيوخِ والأماثلِ والوُجُوهِ والأشْرافِ والعُلَماءِ، وكانتِ النَّيَّةُ بَعْدَ حَسَنَةٍ، وللناسِ في ظِلِّ السُّلْطَانِ مَبِيَّتٌ ومَقِيلٌ، يَسْتَعْذِبُونَ وِزْدَهُ، وَيَسْتَسْهِلُونَ صَدْرَهُ، وَعَجُّوا وَضَجُّوا، وقالوا: اللَّهُ اللَّهُ، انظروا في أمرِ الضُّعْفاءِ وأحوالِ الفقراءِ؛ واغْضَبُوا لِلَّهِ ولِدِينِهِ؛ فإنَّ هذا الأمرُ إذا تفاقَمَ تَعَدَّى ضَعْفاءَنا إلى أَقْويائِنا، وبِطَلَّ رَأْيُ كِبَرائِنا في تَدْبِيرِ صُغرائِنا؛ والتَّدَاوَكُ واجبٌ، وهو الإسلامُ، إن لم نَدُبْ عنه غَلَبَ الكُفْرِ، وهُوَ الأَمْنُ والسُّكُونُ إن لم يُحْفَظْ، فهو الخوفُ والبلاءُ وذهابُ الحِزْبِ

(١) نوابث الأمر: مثيرات دنيئة ومظهرات خفيفة.

والتسل، وفضيحة الولد والأهل. فسكن المشايخ منهم، وطيبوا أنفسهم، وقووا مئتهم ووعدوهم أن يرتثوا فيه متفقين، ويجمعوا عليه مجتهدين، ويستخيروا الله ضارعين؛ وانصرف الناس عنهم.

واجتمع القوم: أبو تمام الزينبي، ومحمد بن صالح بن شيبان، وابن معروف القاضي، وابن غسان القاضي، وابن مكرم - وكان من كبار الشهود في سوق يحيى - وابن أيوب القطان العدل وأبو بكر الرازي الفقيه، وعلي بن عيسى والعمامي صاحب الزبير، وابن رباط شيخ الكرخ، ونائب الشيعة ولسان الجماعة، وابن آدم التاجر، والشالوسي أبو محمد، وغيرهم ممن يطول ذكرهم؛ وتشاوروا وتفاوضوا، وقلبوا الأمر، وشعبوا القول؛ وصوبوا وصعدوا، وقربوا وبعثوا والتأم لهم من ذلك أن تخرج طائفة وراء الأمير بختيار إلى الكوفة وتلقاه وتعرفه ما قد شمل مدينة السلام من الاهتمام؛ وأن الخوف قد غلبهم، وأن الذعر قد ملكهم؛ وأنهم يقولون: لو كان لنا خليفة أو أمير أو ناظر سائس لم يفض الأمر إلى هذه الشناعة؛ وأن أمير المؤمنين المطيع لله إنما ولاه ما وراءه ليقظ في ليله، متفكراً في مصالح الرعايا، ويتقد في نهاره أمراً وناهماً ما يعود بمراشد الدين، ومنافع الدائنين والقاصين وإلا فلا طاعة؛ وكلاماً على هذا الطابع، وفي هذا التسنج؛ فاتفق جماعة على صريمة الرأي في الحركة إلى الكوفة، منهم أبو كعب الأنصاري، وأبو الحسن مذرّه القوم، وعلي بن عيسى، والعمامي، وابن حسان القاضي صاحب الوقوف، وأبو أحمد الجرجاني القاضي البليغ، وابن سيار القاضي أبو بكر، وأبو بكر الرازي.

وأما جعل، فإنه ذكر ما به من وجع الثورس، واستغفى.

وأما أبو سعيد السيرافي، فإنه ذكر ضعفاً وِسْناً، وقال: أنا عِينُ في هذه النائبة بإقامة رجل جلد مزاح العلة بالفرس والسلاح، وقعد الجم الغفير، وسارت الجماعة إلى الكوفة، ولحقت عز الدولة في التصيد، وانتظرتة؛ فلما عاد قامت في وجهه واستأذنت في الوصول إليه على خلوة وسكون بال وقلّة شغل؛ فلم يلتفت إليهم، ولا عاج عليهم - وكان وافر الحظ من سوء الأدب، قليل التحاشي من أهل الفضل والحكمة - ثم قيل له: إن القوم وردوا في مهم لا يجوز التغافل عنه، والإمساك دونه، فأذن لهم بين المغرب والعتمة، فجلسوا بحضرتة كما اتفق من غير ترتيب، فقال: تكلموا.

فقال أبو الوفاء المهندس لأبي بكر الرازي: تكلم أيها الشيخ، فإنك رضا الجماعة، ومقتنع العصابة.

فقال أبو بكر: الحمد لله الذي لا موهبة إلا منه، ولا بلوى إلا بقضائه، ولا مفزع إلا إليه، ولا يسر إلا فيما يسره، ولا مصلحة إلا فيما قدره؛ له الحكم وإليه

المصير، وصلى الله على سيدنا محمد رسوله المبعوث، إلى الوارث والموروث؛ أما بعد، فإن الله تعالى قد حصص على الجهاد، وأمر بإعزاز الدين، والذب عن الحرم والإسلام والمسلمين في الدهر الصالح، والزمان المطمئن؛ فكيف إذا اضطرب الحبل وانتكثت مريزته، وأبرر مصوله، وغرّي حريمه بالاستباحة؛ ونيل جانبه بالضم، وضغيع مناره بالرغم، وقصد ركنه بالهدم، وأنت أيها المولى من وراء سدة أمير المؤمنين المطيع لله، والحامل لأعباء مهماته، والناهض بأثقال نوابه وأحداثه؛ والمفرغ إليك، والمعوّل عليك فإن كان منك جدّ وتسمير فما أقرب الفرج مما قد أظلل وأزعج، وإن كان منك توان وتقصير فما أضعبه من خطب؟ وما أبعدته من شعب!! وقد جئناك نحقّق عندك ما بلغك من توسط هذه الطاغية أطراف الموصيل وما والاها، وأن الناس قد جلّوا عن أوطانهم، وفئتوا في أديانهم وضغفوا عن حقيقة إيمانهم؛ للرعب الذي أذهلهم، والخوف الذي وهلهم؛ وإنما هم بين أطفال صغار، ونساء ضِعاف، وشيوخ قد أخذ الزمان منهم، فهم أرض لكل واطى، ونهب لكل يد؛ وشباب لا يقفون لعدوهم لقلّة سلاحهم، وسوء تأتهم في القراع والدفاع؛ ونحن نسألك أن تتوخّى في أمة محمد ﷺ ما يزلّك عنده، ويكون لك في ذلك ذخّر من شفاعته. وبخيار مطرق.

ثم اندفع علي بن عيسى فقال: أيها الأمير، إن الصغير يتدارك قبل أن يكبر، فكيف يجوز ألا يستقبل بالجد والاجتهاد وهو قد عسا وكبر. والله إن بنا إلا أن يظن أهل الجبل وأذربيجان وخراسان أنه ليس لنا ذاب عن حريمنا، ولا ناصر لديننا، ولا حافظ لبيصتنا، ولا مفرج لكربتنا، ولا من يهّمه شيء من أمورنا، فالله الله، لا تجرّن علينا سماتتهم بنا، وحذ بأيدينا بقوتك، وحسن نيتك، وحميد طويتك، وعزك وسلطانك، وأولياك وأغوانك، واكتب قبل هذا إلى عدة الدولة بما ينبعثه على حفظ أطرافه، وجراسة أكنافه، مع استطلاع الرأي من جهتك، ومطالعة أمير المؤمنين برأيك ومشورتك.

ثم رفع الأنصاري رأسه وقال: ليس في تكرير الكلام - أطل الله بقاء الأمير - فائدة كبيرة، ولئن كان الإيجاز في هذا الباب لا يكفي، فالإطناب فيه أيضاً لا يغني، والله لو نهضت بنا ونحن أحرار كما ترى لا نقلب مخصرة بكف، ولا نزمي دخروجة بيد، ولا نعرف سلاحاً إلا بالاسم، لنهضنا وسرنا تحت رايتك، وتصرفنا بين أمرك ونهيك، وقديناك بأزواجنا صنّاً بك، وبعثنا على مثل ذلك أحداثنا وأولادنا الذين ربيناهم بينعمتك، وخرجنهم في أيامك، وادخرناهم للتوازل إذا قامت، والحوادث إذا ترامت، فإن كان في المال قلة فخذ من موبسنا وممن له فضل في حاله، فإنه يفرج عنه طاعة لك، وطمعاً فيما عند الله من الثواب.

وقال العوامي: واللّه ما سُميت للدّولة عِزًّا، إلا لأنّ اللّه - تعالى - قد ذَخَرَكَ للمُسلمين كَنزراً، وجعل لهم على يَدَيْكَ وبتدبيرك راحةً وفَوْزاً، ولم يُعَرِّضْكَ لهذِهِ الفَادِحَةِ إلا لِيُخَصِّكَ بانْفِرَاجِهَا عَلَيَّ يَدِكَ وَيُثَبِّتَ لَكَ بِهَا ذِكْرًا يَطْبُقُ الأَرْضَ وَيَبْلُغُ أُمْرَاءَ خُرَاسَانَ وَمِصَرَ وَالْحِجَازِ وَالْيَمَنِ فَيُصِيبُهُمُ الحَسَدُ على ما هَيَأَ اللّهُ لَكَ مِنْهَا.

وَنظَرَ بِخِيَارٍ إلى ابنِ حَسَّانِ القَاضِي - وكان مُنْبَسِطاً مَعَهُ لِقَدِيمِ خِدمَتِهِ - فقال: أَيُّهَا القَاضِي، أنتَ لا تقول شيئاً؟ قال: أَيُّهَا الأمير، وما القَوْلُ وَعِنْدَكَ هؤلاءُ العلماءُ، والمَصَافِحُ الأليِّاءُ؛ وإن سِرَاجِي لا يَزْدَهَرُ في شَمْسِهِمْ، وإن سَحَابَتِي لا تَبَلُّ على بُلَاليهِمْ، وقد قالوا فَانْعَمُوا، وَجَرَوْا فَانْعَمُوا، وليس قُدَّامَهُمْ إمام، ولا وِراءَهُمْ أَمام؛ لَكِنِّي أقول: ما جَسَمْنَا إِلَيْكَ هذِهِ الكُلْفَ إلا لِتَنْظُرَ على ضَعْفِ أَرْكَانِنَا، وَعُلُوِّ أَسنانِنَا وَقَلَّةِ أَعوانِنَا، لَأَنَّا رَأَيْنَاكَ أَهلاً لِلنَّظَرِ في أَمْرِنَا، والاهتمامِ بِحالِنَا، وبما يَعُودُ نَفْعُهُ على صَغيرِنَا وَكَبيرِنَا.

فقال عِزُّ الدَولة: ما زُويَ عَنِّي ما طَرَقَ هذِهِ البلادَ، ولقد أَشْرَفْتُ عليه، وَفَكَّرْتُ فيه، وما أَحْبَبْتُ تَجَسُّمَ هذِهِ الطائِفَةِ عَلَيَّ الوَجْهَ. وما أَعْجَبَنِي هذِهِ التَقرِيعُ مِنَ الصَّغِيرِ وَالكَبيرِ، وما كانَ يَجُوزُ لي أنْ أَنْعَسَ على هذِهِ الكارِثَةِ، وَأَنْعَمَ بِالعَيشِ مَعها، وَلَعَمْرِي إنَّ العَفْلَةَ عَلينا أَغْلَبَ، والسَّهَوُ فِينا أَغْمَلَ، ولكن فيما رَكِبْتُمُوهُ مِنِّي تَهْجِينُ شَديدَ، وَتَوْبِيخُ فَاحِشٍ، وإن هذِهِ المَجلسَ لِمِمَّا يُتَهَادَى حَدِيثُهُ بِالزَّائِدِ وَالناوِصِ، وَالْحَسَنِ وَالقَبِيحِ، وَإِنَّكُمْ لَتَظُنُّونَ أَنَّكُمْ مَظْلُومُونَ بِسُلْطانِي عَلَیکُمْ، وَوَلَّيْتِي لِأُمُورِكُمْ؛ كَلًّا، وَلَكن كما تَكونونَ يُوَلِّی عَلَیکُمْ؛ هَكَذا قَوْلُ صاحِبِ الشَّرِيعَةِ فِينا وَفِیکُمْ؛ وَاللّهُ لو لم تَكونوا أَشْباهِي لَمَّا وَلَّيْتُكُمْ، وَلَوْلا أَنِّي كَوَاحِدٍ مِنْكُمْ، لَمَّا جُعِلْتُ قِیماً عَلَیکُمْ؛ ولو خَلَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بَعِيبَ نَفْسِهِ لَعَلِمَ أَنَّهُ لا يَسْعَهُ وَعَظَ غَيرِهِ، وَتَهْجِينُ سُلْطانِهِ؛ أَيَظُنُّ هذِهِ الشَّيْخُ أَبُو بَكرِ الرَّاظِي أَنَّنِي غَيرُ عَالِمٍ بِنِفاقِهِ، وَلا عارِفٍ بِما يَشتمَلُ عليه مِنَ خَيرِهِ وَشَرِّهِ؛ يَلْقانِي بِوَجْهِ صُلْبٍ، وَلِسانِ هَدَّارٍ يُرِي مِنَ نَفْسِهِ أَنَّهُ الحَسَنُ البَصْرِيُّ يَعْظُ الحَجَّاجَ بنَ يَوسُفَ، أو وَاصِلُ بنَ عَطاءِ يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ، أو ابنِ السَّماکِ يُرْهَبُ الفُجَّارَ؛ هذِهِ قَبِيحٌ، ولو سَكَتُ عَن هذِهِ لكانَ عِياً وَعَجْزاً؛ جَزَى اللّهُ أبا عَبْدِ اللّهِ شَیْخَنَا خَيراً حَينَ جَلَسَ، وَكَذلِكَ أَحَسَنَ اللّهُ عَنّا مَکافأةً أباي سَعِيدِ السَّيرافِيِّ، فَإِنَّهُ لو عَلِمَ أَن في مُساعَدَتِكُمْ رُشداً لَمَّا تَوَقَّفَ؛ وَأما أنتَ يا أبا الحَسَنِ - يُريدُ عَلِيَّ بنَ عِيسَى - فَوَاحِقُ أباي إِنِّي لأُحِبُّ لِقاءَكَ، وَأوْثِرُ قُرْبَكَ، وَلَوْلا ما يَبْلُغُنِي مِنَ مُلازِمَتِكَ لِمَجالِسِكَ، وَتَذَرِيسِكَ لِمُخْتَلِفَتِكَ، وَإِكْبابِكَ عَلَيَّ كِتابِكَ في القُرْآنِ، لَعَلَّبتُكَ على زَمانِكَ، وَلا اسْتَكْثَرْتُ مِمَّا قَلَّ حَظِّي مِنْهُ في هذِهِ الحَوالِ التي أنا مَدْفُوعٌ إِلَیْها، فَإِنَّها وَازِعَةٌ على هَوَى النَّفْسِ، وَطاعةِ الشَّيْطانِ، وَمُنازَعَةٌ الأَكْفاءِ، وَجَمْعُ المَمالِ، وَأخْذُهُ مِنْ حَينُ يَجِبُ أو لا يَجِبُ، وَتَفَرُّقَتُهُ فِیمنَ يَسْتَحِقُّ وَمَنْ لا يَسْتَحِقُّ، وَإِلَى اللّهِ أَفْزَعُ في قَليلِ أَمْرِي وَكَثيرِهِ، إِذا سِتَّم.

قال لي أبو الوفاء - وهو الذي شَرَحَ لي المجلسَ من أوله إلى آخره -: لقد شاهدتُ من عِزِّ الدولة في ذلك المجلس؛ المنصور^(١) في جدّه وشهامته، وثبات قلبه وقوّة لسانه، مع بَحْجٍ لذيذٍ ولثغّةٍ حلوة.

قال: لوقد قُلْتُ له بعد ذلك: أيُّها الأمير، ما ظننتُ أنك إذا خَلَعْتَ رِداءَكَ ونَزَعْتَ جِذاءَكَ تَقُولُ ذلك المقال، وتَجُولُ ذلك المجال، وتَنالُ ذلك المنال، لقد انصَرَفَ ذلك الرُّهْطُ عَلَى هَيْبَةٍ لَكَ شَدِيدَةٍ، وتعظيمِ بالغٍ، ولقد تَدَاوَلُوا لَفْظَكَ، وتَتَبَعُوا مَعَانِيكَ، وتَسَاحَوْا على نَظْمِكَ، وقالوا: ما يَتَّبِعِي لأَحَدٍ أن يُسِيءَ ظَنَّهُ بأَحَدٍ إلا بعد الخِبرَةِ والعِيانِ، وإلا بَعْدَ الشَّهَادَةِ والبَيانِ؛ أهذا يقال له مُتَخَلِّفٌ أو ناقِصٌ؟ لِلَّهِ ذَرَّةٌ من شَخْصٍ! ولِلَّهِ أبوه مِنْ فِتْيِ مِذْرَه!

ولما بَلَغَ هذا المجلسُ الَّذِي قَعَدُوا عن المَسِيرِ إليه - أَعْنِي عِزَّ الدولة - حَمِدُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَعَلِمُوا أَنَّ الخَيْرَةَ كانت قَرِينَةً اخْتِيَارَهُمْ.

قال الوزير: قرأتُ ما دوَّنه الصَّابِي أبو إسحاق في (التَّاجِي) فما وَجَدْتُ هذا الحديثَ فيه.

قُلْتُ: لعلَّه لم يَقَعْ إليه، أو لعلَّه لم يَرِ التَّطْوِيلَ به، أو لعلَّه لم يَسْتَخِفَّ ذِكْرَ عِزِّ الدَّوْلَةِ على هذا الوجه.

قال: هذا مُمَكِّنٌ؛ فهل سَمِعْتَ في أيامِ الفِتْنَةِ بَغْرِيَّةً؟

قُلْتُ: كلُّ ما كُتِبَ فيه كان غريباً بديعاً، عَجِيباً شنيعاً، حَصَلَ لَنَا مِنَ العِيَارِينِ قُوَادٍ، وأشهرُهُم، ابن كَبْرِيَّه، وأبو الدُّودِ، وأبو الذُّبابِ، وأَسْوَدُ الرُّبْدِ، وأبو الأَرْضَةِ، وأبو التَّوَابِحِ، وشُنَّتُ الغارَةُ، وأتَّصَلَ النَّهْبُ، وتَوَالَى الحَرِيقُ حتى لم يَصِلْ إلَيْنَا المَاءُ من دِجْلَةَ، أَعْنِي الكَرْخَ.

فَمِنْ غَرِيبٍ ما جَرَى أَنَّ أَسْوَدَ الرُّبْدِ كان عَبْداً يَأْوِي إلى فَنَطْرَةِ الرُّبْدِ وَيَلْتَقِطُ النَّوَى وَيَسْتَطْعِمُ مَنْ حَضَرَ ذلكَ المَكَانَ بِلَهُوٍ وَلَعِبٍ، وهو عُزْبَانٌ لا يَتَوَارَى إلا بِخَرْقَةٍ، ولا يُؤْبَهُ له، ولا يَبَالِي به، وَمَضَى على هذا دَهْرٌ، فلما حَلَّتِ النَّفْرةُ أَعْنِي لَمَّا وَقَعَتِ الفِتْنَةُ، وَفَسَا الهَرْجُ والمَرْجُ، ورَأَى هذا الأَسْوَدُ من هو أضعَفُ منه قد أخذَ السِّيفَ وأغْمَلَه، طَلَبَ سَيْفًا وشَحَذَه، ونَهَبَ وأغارَ وسَلَبَ، وظَهَرَ منه شيطانٌ في مَسْكِ إنسانٍ، وَصَبَحَ وَجْهَهُ، وَعَذَّبَ لَفْظَهُ، وَحَسَنَ جِسْمَهُ، وَعُشِقَ وَعُشِقَ، والأَيَّامُ تأتي بالغرائبِ والعجائبِ، وكان الحسنُ البَصْرِيُّ يقول في مَواعِظِهِ: المعتبرُ كثيرٌ، والمعتبر

(١) الخليفة العباسي.

قليل . فلما دُعِيَ قائداً وأطاعه رجالٌ وأعطاهم وفرَّقَ فيهم، وطلبَ الرَّأْسَةَ عليهم، صارَ جانبُه لا يُرام، وحمَاه لا يُضَام .

فيمَّا ظَهَرَ من حُسْنِ خُلُقِهِ - مع شَرِّهِ وَلَعْنَتِهِ، وَسَفْكِهِ لِلدَّمِ، وَهَتْكِهِ لِلْحُرْمَةِ، وَرُكُوبِهِ لِلْفَاحِشَةِ، وَتَمَرُّدِهِ عَلَى رَبِّهِ الْقَائِدِ، وَمَالِكِهِ الْقَاهِرِ - أَنَّهُ اشْتَرَى جَارِيَةً كَانَتْ فِي النَّخَّاسِينَ عِنْدَ الْمَوْصِلِيِّ بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَكَانَتْ حَسَنَاءَ جَمِيلَةٍ، فَلَمَّا حَصَلَتْ عِنْدَهُ حَاوَلَ مِنْهَا حَاجَتَهُ، فَامْتَنَعَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهَا: مَا تَكْرَهِينَ مِنِّي؟ قَالَتْ: أَكْرَهُكَ كَمَا أَنْتَ . فَقَالَ لَهَا: فَمَا تُحِبِّينَ؟ قَالَتْ: أَنْ تَبْعَنِي، قَالَ لَهَا: أَوْ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ أَعْطَيْكَ وَأَهَبْتُ لَكَ أَلْفَ دِينَارٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَأَعْطَقَهَا وَأَعْطَاهَا أَلْفَ دِينَارٍ بِحَضْرَةِ الْقَاضِي ابْنِ الدَّقَاقِ عِنْدَ مَسْجِدِ ابْنِ رَعْبَانَ، فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ نَفْسِهِ وَهِمَّتِهِ وَسَمَاحَتِهِ، وَمَنْ صَبِرَهُ عَلَى كَلَامِهَا، وَتَرَكَ مُكَافَأَتَهَا عَلَى كَرَاهَتِهَا، فَلَوْ قَتَلَهَا مَا كَانَ أَتَى مَا لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِ فِي مِثْلِهَا .

قال الوزير: هذا والله طريف، فما كان آخِرُ أمره؟ قلتُ: صارَ في جانب أبي أحمدَ المَوْسَوِيِّ وَحَمَاه، ثُمَّ سَيَّرَهُ إِلَى الشَّامِ فَهَلَّكَ بِهَا .

قال: وكيف سَلِمْتَ في هذه الحالات؟

قلتُ: ومتى سَلِمْتُ؟ جَاءَتِ النَّهَابَةُ إِلَى بَيْنَ السُّورَيْنِ وَشَتُوا الْغَارَةَ وَاکْتَسَحُوا مَا وَجَدُوا فِي مَنْزِلِي مِنْ ذَهَبٍ وَثِيَابٍ وَأَثَاثٍ، وَمَا كُنْتُ ذَخَرْتُهُ مِنْ تَرَاثِ الْعُمَرِ؛ وَجَرَدُوا السُّكَاكِينَ عَلَى الْجَارِيَةِ فِي الدَّارِ يَطَالِبُونَهَا بِالْمَالِ، فَانْشَقَّتْ مَرَارَتُهَا، وَدُفِنَتْ فِي يَوْمِهَا، وَأَمْسَيْتُ وَمَا أَمْلِكُ مَعَ الشَّيْطَانِ فَجْرَةَ، وَلَا مَعَ الْعُرَابِ تَقْرَةَ .

أَيُّهَا الشَّيْخُ - وَقَفَّكَ اللَّهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكَ، وَكَانَ لَكَ فِي كُلِّ مَقَالِكَ وَفِعَالِكَ - إِنَّمَا نَشَرْتُ بِالْقَلَمِ مَا لَاقَ بِهِ؛ فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يَجْرِي بَيْنِي وَبَيْنَ الْوَزِيرِ فَكَانَ عَلَى قَدْرِ الْحَالِ وَالْوَقْتِ وَالْوَاجِبِ؛ وَالِاتِّسَاعُ يَتَّبِعُ الْقَلَمَ مَا لَا يَتَّبِعُ اللِّسَانَ، وَالرَّوِيَّةُ تَتَّبِعُ الْخَطَّ مَا لَا تَتَّبِعُ الْعِبَارَةَ، وَلَمَّا كَانَ قَضَيْي فِيمَا أَعْرَضَهُ عَلَيْكَ، وَأَلْقِيهِ إِلَيْكَ، أَنْ يَبْقَى الْحَدِيثُ بَعْدِي وَبَعْدَكَ، لَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ تَنْمِيقِ يَزْدَانُ بِهِ الْحَدِيثَ، وَإِضْلَاحِ يَحْسُنُ مَعَهُ الْمَعْرَى، وَتَكْلِيفِ يَبْلُغُ بِالْمُرَادِ الْغَايَةَ، فَلْيَقُمْ الْعُدْرُ عِنْدَكَ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ، حَتَّى يَزُولَ الْعَتَبُ، وَيُسْتَحَقَّ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ .

الليلة التاسعة والثلاثون

وقال الوزير ليلة: يعجبني الجواب الحاضر، واللفظ النادر، والإشارة الحلوّة، والحركة الرضيّة، والتّغمّة المتوسّطة، لا نازلة إلى قعر الحلق، ولا طافحة على الشفة. فكان من الجواب: أفتراح الشيء على الكمال سهل، ولكن وجدّانه على ذلك صعب، لأنّ التّمني صفو النفس الحسيّة، ونيل التّمني في الفرصة المخشوة بالحيلولة. وقد قال المدائني: أحسن الجواب ما كان حاضراً مع إصابته المعنى وإيجاز اللفظ وبلوغ الحجّة.

وقال أبو سليمان شارحاً لهذا: أمّا حضور الجواب فليكون الظفر عند الحاجة، وأمّا إيجاز اللفظ فليكون صافياً من الحشو، وأمّا بلوغ الحجّة فليكون حسماً للمعارضّة. قال: ما أحسن ما وشح هذه الفقرة بهذه الشذرة!

وحكى المدائني قال: قال مسلمة بن عبد الملك: ما من شيء يؤتاه العبد بعد الإيمان بالله أحبّ إليّ من جواب حاضر، فإنّ الجواب إذا تُعقّب لم يكن له وقع. وحكى المدائني بإسناده عن عبد الرحمن بن حوشب أنّ رسول الله ﷺ قال لعمر بن الأهتم التميمي: أخبرني عن الزبير بن بدر، فقال: مطاع في أذنيه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره. فقال الزبير بن بدر: يا رسول الله، إنه ليعلّم مني أكثر من هذا، ولكنه حسدني، فقال عمرو: أمّا والله يا رسول الله إنه لزم المرءة، ضيق العطن، لثيم الخال، أحمق الوالد، وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الأخرى، ولقد رضىت فقلت أحسن ما علمت، وسخطت فقلت أسوأ ما علمت. فقال رسول الله ﷺ: «إنّ من البيان لسحراً وإنّ من الشعر لحكماً»^(١).

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال، باب الشعر المحمود حديث رقم ٨٩٦٨ - عن أحمد بن بكر الأسدي: حدثنا أبي أنه أتى رسول الله ﷺ، فلما رأى فصاحته قال له: ويحك يا أسدي هل قرأت القرآن مع ما أرى من فصاحتك؟ قال: لا ولكني قلت شعراً، فأسمعه مني، قال: فقل قال:

وحي ذوي الأضغان تسب قلوبهم	تحيتك الأذنى فقد يرفع النغل
فإن عالنوا بالشرف فاعلن بمثله	وإن دحسوا عنك الحديث فلا تسل
وإن الذي يؤذيك منه سماعه	كأن الذي قالوه بعدك لم يقل

وقال أبو سليمان: السَّحْرُ بالقَوْلِ الأَعْمِ والرَّسْمُ المُفِيدُ على أَرْبَعَةِ أَضْرُبٍ: سِحْرُ عَقْلِيّ، وهو ما بَدَرَ من الكلامِ المُشْتَمِلِ على غريبِ المَعْنَى في أيّ فنّ كان؛ وسِحْرُ طَبِيعِيّ، وهو ما يَظْهَرُ من آثارِ الطَّبِيعَةِ في العنصرِ المُتَهَيِّئَةِ والموادِّ المُسْتَجِيبَةِ، وسِحْرُ صِنَاعِيّ، وهو ما يوجَدُ بِخِفَّةِ الحركاتِ المباشِرَةِ، وتصريفها في الوُجُوهِ الخَفِيَّةِ عن الأبصارِ المُحَدِّقَةِ، وسِحْرُ إلهي وهو ما يَبْدُو من الأَنْفُسِ الكَرِيمَةِ الطَّاهِرَةِ بِاللَّفْظِ مرّةً، وبالفِعْلِ مرّةً. وعَرَضُ كُلِّ واحدٍ من هذه الضُّرُوبِ واسعٌ، وكلُّ حِدْقٍ ومهارةٍ وبلوغٍ قاصِيَةٍ في كلِّ أمرٍ هو سِحْرٌ، وصاحبُه ساجِرٌ.

وقال المدائني: نظرَ ثابت بن عبد الله بن الزُّبَيْرِ إلى أهل الشام فَشَتَمَهُمْ، فقال له سعيد بن عثمان بن عَفَّان: أَتَشْتُمُهُمْ لِأَنَّهُمْ قَتَلُوا أَبَاكَ؟ فقال: صَدَقْتَ، ولكنَّ المُهاجِرِينَ والأَنْصَارَ قَتَلُوا أَبَاكَ.

وقال عبد الملك بن مروان لثابت بن عبد الله بن الزُّبَيْرِ: أَبُوكَ كَانَ أَعْلَمَ بِكَ حِينَ شَتَمَكَ، فقال: يا أمير المؤمنين، أَتَدْرِي لِمَ كَانَ يَشْتُمُنِي؟ إِنِّي نَهَيْتُهُ أَنْ يُقَاتِلَ بِأَهْلِ مَكَّةَ وَأَهْلَ المَدِينَةِ، فَإِنَّ اللّهَ لَا يَنْصُرُهُ بَهُمَا، وَقَلْتُ لَهُ، أَمَا أَهْلُ مَكَّةَ فَأَخْرَجُوا رَسُولَ اللّهِ ﷺ وَأَخَافُوهُ، ثُمَّ جَاءُوا إِلَى المَدِينَةِ فَأَخْرَجَهُمْ مِنْهَا وَشَرَدَهُمْ. - فَعَرَّضَ بِالحَكَمِ بنِ أَبِي العاصِ - وهو جدُّ عبدِ المَلِكِ - وكان النبي ﷺ نَفَاهُ. - وَأَمَا أَهْلُ المَدِينَةِ فَخَذَلُوا عُثْمَانَ حَتَّى قُتِلَ بَيْنَهُمْ، لَمْ يَرَوْا أَنْ يَدْفَعُوا عَنْهُ. فقال له عبدُ المَلِكِ: لَحَاكَ اللّهُ.

وقال عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ لِمُعَاوِيَةَ: أَمَا واللّهِ لو كنتَ بمكة لَعَلِمْتَ، فقال معاوية: كنتُ أَكونُ ابنَ أَبِي سُفْيَانَ يَنْشُقُّ عَنِي الأَبْطَحَ، وكنتَ أنتَ ابنَ خَالِدِ مَنزِلِكَ أَجْيَادَ، أَعْلَاهُ مَدْرَةَ، وَأَسْفَلُهُ عَدْرَةَ.

وقال المَدَائِنِيُّ: قال ابنُ الضَّحَّاكِ بن قيسِ الفِهْرِيِّ لهشام بن عبد المَلِكِ قبل أن يَمْلِكَ - وهو يومئذٍ غلامٌ شابٌ - يا بن الخَلَائِفِ، لم تُطِيلِ شَعْرَكَ وَقَمِيصَكَ؟ قال أكرهُ أنْ أَكونَ كما قال الشاعر:

قصيرُ القَمِيصِ فاحشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ وشَرُّ غِرَاسٍ في قُرْنِشٍ مُرَكَّبَا

قال: وهذا الشعرُ لأبي خَالِدِ مروانَ بنِ الحَكَمِ، هَجَا به الضَّحَّاكُ بن قيسِ.

وحَكَى أيضاً، قال: مرَّ عَطَاءُ بنُ أَبِي صَيْفِيٍّ بعبدِ الرحمن بنِ حسان بن ثابتٍ وعطاءٌ على قَرَسٍ له؛ فقال له بعدِ الرحمن: يا عطاء، لو وجدتَ زِمَامَ زِقِّ الخمرِ

= فقال النبي ﷺ: «إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحر» ثم أقرأه ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾ فزاد فيها قائم على الرصد لا يفوته أحد، فقال النبي ﷺ: دعها فإنها شافية كافية مر برقم ٨٩٥١.

خالياً ما كنتَ تَصْنَعُ به؟ قال: كنت آتي به دُورَ بَنِي النَّجَّارِ فَأَعْرِفُهُ فَإِنَّهُ ضَالَّةٌ مِنْ ضَوَالِهِمْ، فَإِنْ عَرَفُوهُ وَإِلَّا فَهوَ لَكَ لَمْ يَعُدَّكَ، وَلَكِنْ أَخْبِرْنِي أَيُّ جَدِّكَ أَكْبَرُ، أَفُرَيْعَةُ أَمْ ثَابِتٌ؟ قال: لا أَذْرِي. قال: فَلِمَ يَعْينِكَ ما في كَتَائِنِ الرَّجَالِ وَأَنْتَ لا تَدْرِي أَيُّ جَدِّكَ أَكْبَرُ؟ بل فُرَيْعَةُ أَكْبَرُ مِنْ ثَابِتٍ، وَقَدْ تَزَوَّجَهَا قَبْلَهُ أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمْ يَلْقَاهَا بِمِثْلِ ذِرَاعِ الْبَكْرِ، ثُمَّ يُطَلِّقُهَا عَنْ قَلْبِي؟ فقال لها نِسْوَةٌ مِنْ قَوْمِهَا: وَاللَّهِ يا فُرَيْعَةُ إِنَّكَ لَجَمِيلَةٌ، فما بالِ أَرْوَاجِكَ يُطَلِّقُونَكَ؟ قالت: يُرِيدُونَ الضِّيقَ الضِّيقَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

وَحَكَى أَيْضاً قال: قال أبو السَّفَرِ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ إِذْ رُفِعَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ قَبْرُ أَبِي سَعِيدِ بْنِ العاصِ، فقال أبو بكر: لَعَنَ اللَّهُ صاحِبَ هَذَا القَبْرِ، فإنه كان يُكذِّبُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فقال خالد بنُ أسيدٍ - وهو في القومِ - : لا بل لَعَنَ اللَّهُ أبا قُحَافَةَ فإنه كان لا يَقْرِي الضَّيْفَ، ولا يَمْنَعُ الضَّيْمَ، ولا يُقاتِلُ معَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذا سَبَّني المُشْرِكُونَ فَعْمُوهم بالسَّبِّ، ولا تَسُبُّوا الأمواتِ فَإِنَّ سَبَّ الأمواتِ يُغْضِبُ الأحياءَ»؟.

قال محمد بنُ عُمارة: فذاكرتُ بهذا الحديثِ رجلاً من أصحابِ الحديثِ مِنْ وَلَدِ سَعِيدِ بْنِ العاصِ، فَعَرَفَهُ، فقال: فيه زيادةٌ ليست عندكم، قلت: وما هي؟ فقال: قال خالد بنُ أسيدٍ: يا رسولَ اللَّهِ، والذي بَعَثَكَ بالحق ما يَسُرُّني أَنَّهُ في أَعْلَى عَلِيَيْنِ وَأَنَّ أبا قُحَافَةَ وَلَدُهُ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نواجِذُهُ، وقال: «لا تَسُبُّوا الأمواتِ فَإِنَّ سَبَّهُمْ يُغْضِبُ الأحياءَ».

وَحَكَى قال: رَمَى عَمْرُ بْنُ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيُّ إِلَى عُرَامِ بْنِ شُتَيْرٍ بِخَاتَمٍ لَهُ فِضَّةٌ - وَقَدْ زُوِّجَ - فَعَقَدَ عَلَيْهِ عُرَامٌ سِنِيراً وَرَدَّهُ إِلَى ابْنِ هُبَيْرَةَ. أَرَادَ ابْنُ هُبَيْرَةَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

لَقَدْ زَرَقْتَ عَيْنَاكَ يا بَنَ مُلَعِّنٍ كما كلُّ ضَبِّيٍّ مِنَ اللُّؤْمِ أَرْزَقُ
وعرَّضَ له عُرَامٌ بقول ابنِ دارَةَ:

لا تَأْمَنَنَّ فَزَارِيّاً خَلَوْتُ بِهِ على قَلْوَصِكَ واكْتُئِبْهَا بِأَسْيَارِ

وقال المدائني: وكان ابنُ هُبَيْرَةَ يُسايِرُ هِلالَ بنِ مُكَمَّلِ الثَّمِيرِيِّ، فَتَقَدَّمتْ بَغْلَةٌ الثَّمِيرِيِّ بَغْلَةَ ابْنِ هُبَيْرَةَ. فقال: غَضُّ من بَغْلَتِكَ. فَالْتَمَّتْ إِلَيْهِ الثَّمِيرِيُّ فقال: أَصْلَحَ اللَّهُ الأَمِيرَ، إِنَّهَا مَكْتُوبَةٌ. وَإِنما أَرَادَ ابْنُ هُبَيْرَةَ:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فلا كَغَباً بَلَّغْتَ ولا كِلاباً

وأَرَادَ الثَّمِيرِيُّ قَوْلَ سَالِمِ بْنِ دارَةَ:

لا تَأْمَنَنَّ فَزَارِيّاً خَلَوْتُ بِهِ على قَلْوَصِكَ واكْتُئِبْهَا بِأَسْيَارِ

وقال الوليد العنبري: مرَّتْ امرأةٌ مِنْ بَنِي نُمَيْرٍ على مجلسٍ لَهِمْ، فقال رجلٌ

منهم: أيتها الرسحاء. فقالت المرأة: يا بني نُمير، واللّه ما أطعتم اللّه ولا أطعتم الشاعر، قال اللّه عز وجل: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَنْصُرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]. وقال الشاعر:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فلا كَغِبَابٍ بَلَغْتَ وَلَا كِلَابِيَا

وقال: مرّ الفرزدقُ بخالد بن صفوان بن الأهم، فقال له خالد: يا أبا فراس، ما أنت الذي لَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَعْتَ أَيْدِيَهُنَّ، فقال له الفرزدق: ولا أنت الذي قالت الفتاة لأبيها فيه: ﴿يَتَأَبَتِ اسْتَجْرَةٌ إِنَّكَ خَيْرٌ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

قال: ودخل يزيد بن مسلم على سليمان بن عبد الملك، وكان مُصَفَّرًا نحيفاً، فقال سليمان: على رجل أجرك رَسَنَكَ وَسَلَطَكَ على المسلمين لَعْنَةُ اللّهِ. فقال: يا أمير المؤمنين إِنَّكَ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرُ عَنِّي مَدِيرٌ، فلو رأيتني وهو عَلِيٌّ مُقْبِلٌ لاسْتَعْظَمْتَ مِنِّي يَوْمَئِذٍ ما اسْتَضَعَرْتَ الْيَوْمَ. قال: فَأَيْنَ الْحَجَّاجُ؟ قال: يجيء يوم القيامة بين أهلك وأخيك، فَضَعَهُ حَيْثُ شِئْتَ.

وقال عبّاد بن زياد: كنتُ عند عبد الملك بن مروان إذ أتاه أبو يوسف حاجبُه، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه بُئِيَّة. قال: أَبُئِيَّةٌ جَمِيلٌ؟ قال: نعم، قال أَدْخِلْهَا، فَدَخَلَتْ امْرَأَةً أَدْمَاءَ طَوِيلَةً يُعْلَمُ أَنَّهَا كَانَتْ جَمِيلَةً، فقال له: يا أبا يوسف أَلتِ لَهَا كُرْسِيًا، فَأَلْقَاهُ لَهَا، فقال لها عَبْدُ الْمَلِكِ: وَيْحَكَ مَا رَجَا مِنْكَ جَمِيلٌ، قالت: الذي رَجَتْ مِنْكَ الْأُمَّةُ حِينَ وَلَّتْكَ أَمْرَهَا.

وقال سعيد بن عبد الرَّحْمَنِ بن حَسَّان: إِنَّ رَهْطًا مِنَ الْأَنْصَارِ دَخَلُوا عَلَى مُعَاوِيَةَ، فقال: يا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، قُرَيْشٌ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْكُمْ لَهْمُ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ لِقَتْلِي أَحَدٌ، فَقَدْ قَتَلْتُمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِثْلَهُمْ؛ وَإِنْ يَكُنْ لِإِمْرَةٍ فَوَاللّهِ مَا جَعَلْتُمْ لِي إِلَى صِلَتِكُمْ سَبِيلًا؛ خَذَلْتُمْ عَثْمَانَ يَوْمَ الدَّارِ، وَقَتَلْتُمْ أَنْصَارَهُ يَوْمَ الْجَمَلِ، وَصَلَيْتُمْ بِالْأَمْرِ يَوْمَ صِفِّينَ. فَتَكَلَّمَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فقال: يا أمير المؤمنين، أَمَا قَوْلُكَ: «إِنْ يَكُنْ لِقَتْلِي أَحَدٌ» فَإِنْ قَتَلْنَا شَهِيدًا وَحَيْثَا تَأْتِقُ، وَأَمَا ذِكْرُكَ الْإِمْرَةَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ أَمَرَ بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا. وَأَمَا قَوْلُكَ إِنَّا خَذَلْنَا عَثْمَانَ، فَإِنَّ الْأَمْرَ فِي عَثْمَانَ إِلَى قَتْلَتِهِ؛ وَأَمَا قَوْلُكَ إِنَّا قَتَلْنَا أَنْصَارَهُ يَوْمَ الْجَمَلِ فَذَلِكَ مَا لَا نَعْتَذِرُ مِنْهُ، وَأَمَا قَوْلُكَ إِنَّا صَلَيْتُمْ بِالْأَمْرِ يَوْمَ صِفِّينَ، فَإِنَّمَا كُنَّا مَعَ رَجُلٍ لَمْ نَأَلِهِ خُبْرًا، فَإِنْ لُمْتَنَا فَرُبَّ مَلُومٍ لَا دَنْبَ لَهُ.

ثم قام هو وأصحابه يجرُّ ثوبه مُغْضِبًا، فقال معاوية: رُدُّوهم، فرُدُّوا فَرَضَّاهُمْ حَتَّى رَضُوا، ثُمَّ انْصَرَفُوا. وَأَقْبَلَ مُعَاوِيَةَ عَلَى رَهْطٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فقال: واللّه ما قرع من منطِقِهِ حَتَّى ضَاقَ بِي مَجْلِسِي.

قال سعيد بن عبد الرَّحْمَنِ بن حَسَّان: دَخَلَ قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ مَعَ قَوْمٍ

من الأنصار على معاوية. فقال معاوية: يا معشر الأنصار، لِمَ تَطْلُبُونَ ما قِبَلِي، فوالله لقد كنتم قليلاً معي، كثيراً عليّ، ولقد قتلتم جُنْدِي يوم صِفِّين حتى رأيتُ المَنَيا تَلْطِي في أَسِنَّتِكُمْ، وهَجَوْتُمُونِي بأشدَّ من وَخزِ الأَشافي حتى إذا أقامَ اللهُ ما حاولتم مَيْلَهُ، قلتُم: ازْعَ فينا وَصِيَّةَ رَسولِ اللهِ ﷺ، هيهات، «أَبِي الحَقِيقِ العِدْرَةَ»^(١)، فقال قيس: نَطْلُبُ ما قِبَلِكَ بالإسلام الكافي به اللهُ لا سِواه، لا بما تَمُتُّ به إِلَيْكَ الأَحزاب، وأما عداؤنا لك فلو شئت كَفَفْنَا عنكَ؛ وأما هجاؤنا إِيَّاكَ فقولُ يَزُولُ باطلُهُ، وَيَثْبُتُ حَقُّهُ، وأما قَتْلُنا جُنْدَكَ يومَ صِفِّينَ فإنَّا كنا مع رَجُلٍ نَرَى أَنْ طاعَتَهُ طاعةُ اللهِ؛ وأما استقامة الأمرِ لك فَعلَى كُرْهِه كان مَبْياً، وأما وَصِيَّةَ رَسولِ اللهِ ﷺ فينا، فَمَنْ آمَنَ به رعاها؛ وأما قولك «أَبِي الحَقِيقِ العِدْرَةَ»، فليس ذُوْنَ اللهِ يَدُ تَحْجُزُكَ، فشأنك. فقَامَ مُعاويةَ فَدَخَلَ، وَخَرَجَ قَيْسٌ وَمَنْ كان مَعَهُ.

وقال محمد بن خالد القُرشي: دَخَلَ زُفْرُ بْنُ الحارِثِ الكِلَابيُّ على عبدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانَ وعندهُ خالِدُ بْنُ عبدِ اللهِ بنِ خالدِ بنِ أسيدِ وأميَّةُ بْنُ عبدِ اللهِ بنِ خالدِ، فقال زُفْرُ: لو كان لعبدِ اللهِ سَخاءٌ مُصعَبٌ وكان لمصعَبِ عِبادةُ عبدِ اللهِ لكانا ما شاء المُتَمَيِّ. فقال عبدُ المَلِكِ: ما كان سَخاءٌ مُصعَبٌ إلا لِعِبا، ولا كانت عِبادةُ عبدِ اللهِ إلا عِبا، ولكن لو كان للضَّحَّاكِ بنِ قَيْسٍ مِثْلُ رِجالِ مَرْوانَ لكانت قَيْسُ أرباباً بالسَّامِ، فقال زُفْرُ: لو كانت لمروانَ صُحْبَةَ الضَّحَّاكِ لكان؛ فقال عبدُ المَلِكِ: والله ما أَحَبُّ لهُ مِثْلُ صُحْبَتِهِ وَمَضْرَعِهِ، فقال خالد: لولا أَنَّ أميرَ المؤمنين لا يُبْصِرُ مَرَعِي لما تَرَكْنَاكَ والكلامَ. فقال زُفْرُ: ازْبَعَا على أنفُسِكُما ودعانا وَحَلِيفَتِنا واسحبا ذُيولَكُما على خِيانةِ حُرَّاسانَ وَسِجِسْتانَ والبَصْرَةَ.

وقال المدائني: غابَ مَوْلَى لِلزُّبَيْرِ عن المدينة حيناً، فقال له رجل من قريش لما رَجَعَ: أما والله لقد أَتَيْتَ قوماً يُبْغِضونَ طَلْعَتَكَ، وفارقتَ قوماً لا يُحِبُّونَ رَجْعَتَكَ. قال المولى: فلا أَنْعَمَ اللهُ مِمَّنْ قَدِمْتُ عليه عَيْناً، ولا أَخْلَفَ اللهُ على مَنْ فارقتُ بخير.

قال المدائني: كان مَرْثَدُ بْنُ حوشبٍ عند سُلَيْمانِ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ، فَعَجِرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ كِلامٌ حَتَّى تَسابَا، فقال له أبوه: والله ما أَنْتَ بابِني، قال: والله لَأنا أَشْبَهُ بِكَ مِنْكَ بِأبيكَ، ولَأَنْتَ كَنْتَ أَغْيَرَ على أُمِّي من أَيْبِكَ على أُمِّكَ. فقال له سليمان: قاتلَكَ اللهُ، إِنَّكَ لابنُهُ.

وسابَ مَرْثَدُ أَخاهُ ثُمَامَةَ، فقال له ثُمَامَةُ: يا حَلِقِي، فقال له مَرْثَدُ: يا خبيث،

(١) الحقيقين: اللببن المحقون، والعذرة: العذر. وهو مثل يضرب للكاذب الذي يعتذر ولا عذر له يقول إن اللببن المحقون لديكم يكذبكم في عذرکم.

أَتَسَابَنِي مُسَابَةَ الصَّبِيَّانِ، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَابْنِي، وَلَقَدْ عَلَّبَنِي حَوْشِبَ عَلَى أُمِّكَ، وَقَدْ أَلْفَحْتَهَا بِكَ .

وقال ابنُ عِيَّاشِ المَنْثُوفِ لأبي شَاكِرِ بنِ هِشَامِ بنِ عبدِ المَلِكِ: لو قَصَّرتَ قَمِيصَكَ، قالَ له: ما يَضُرُّكَ مِنْ طَوِيلِهِ . قالَ: تَدُوسُهُ فِي الطَّيْنِ، قالَ وما يَنْفَعُكَ مِنْ دُوسِهِ .

وقال: كان على تباله رجل من قريش، فقال لرجل من باهلة: من الذي يقول:
 إن كُنتَ تَرجو أن تَنالَ غَنيمةً في دُورِ باهِلةَ بنِ يَغرَ فَارحَلِ
 قومَ قَتِيبةِ أُمهُمُ وَأَبوهُمُ لَولا قُتَيْبَةَ أَصْبَحُوا فِي مَجْهَلِ
 فقال الباهلي: ما أذري غير أني أظنه الذي يقول:

يا شِدةَ ما شَدَدنا غَيرَ كاذِبَةٍ عَلى سَخيِنَةٍ لَولا اللَّيْلُ والحَرَمُ

قال: وتكلم ابنُ ظَبْيَانَ التَّيْمِيُّ يوماً فأكثَرَ، فقال له مالِكُ بنُ مِسمَعٍ: إيها أبا مَطَرٍ، فإنَّ للقومِ في الكلامِ نَصيباً، فقال: واللَّهِ ما إِلَيكَ جِثٌّ، ولو أن بَكَرَ بنَ وائلٍ اجتمعت في بيتٍ بَقالٍ لَأَتَيْتُهُمْ . فقال له مالِكُ: إنما أنتَ سَهْمٌ من سِهامِ كِنايتي . فقال ابنُ ظَبْيَانَ: أنا سَهْمٌ من سِهامِ كِنايتِكَ؟ فواللَّهِ لو قمتُ فيها لَطَلْتُها، ولو قعدتُ فيها لَحَرَفْتُها، وإني والله ما أراكَ تَنْتَهي حَتَّى أَرَمِيكَ بِسَهْمٍ لَمْ يُرْسَ، تَذُبُّلُ بِهِ شَفَتَاكَ، وَيَجِفُّ لَهُ رِيقُكَ .

وقال رجلٌ للأخنف: بأي شيءٍ سُدَّتْ تَمِيمًا؟ فواللَّهِ ما أنتَ بأجودِهِم ولا أشَجِعِهِم ولا أَجَمَلِهِم ولا أَشَرَفِهِم، قال: بخلافٍ ما أنتَ فيه . قال: وما خِلافٌ ما أنا فيه؟ قال: تَرَكِي ما لا يَغنيني من أُمُورِ الناسِ كما عَنَّاكَ مِنْ أُمُورِي ما لا يَغنيكَ .

ووفدَ عَلِيْمُ بنُ خالِدِ الهُجَيمِيِّ عَلى هِشَامِ وعنده الأبرش الكلبِي، فقال له الأبرش الكلبِي: يا أبا بني الهُجَيمِ، مَنْ القائلُ:

لو يَسْمَعُونَ بأَكْلَةٍ أو شَرِبَةٍ بَعُمانَ أَصْبَحَ جَمَعُهُم بِعُمانِ

أَلَكُمُ يَقولُهُ؟ قال: نعم، لنا يَقولُهُ، قال: ولكنكم يا مَعْشَرَ كَلْبٍ تُعَبِّرُونَ^(١) النِّساءَ وتَجُرُّونَ الشِّاءَ، وتَكُدُّونَ العِطاءَ، وتَوَخُّرونَ العِشاءَ، وتَبيعونَ المَءَ . فَصَحِّحَكَ هِشَامُ، فلما خَرَجَ قال الأبرش: يا أبا بَنِي الهُجَيمِ، أما كانتَ عِندَكَ بَقِيَّةٌ؟ قال: بلى، لو كان عِندَكَ بَقِيَّةٌ .

قَدَمَتِ امْرَأَةٌ زَوجَها إلى زيادٍ تُنازِعُهُ، وقد كانت سِئُهُ أَعلى مِنْ سِئِها فَجَعَلَتْ تَعيبَ زَوجَها وَتَقَعُ فيه، فقال زَوجُها: أَيُّها الأميرُ، إن شَرَّ شَطَرِي المَرءَةَ آخِرُها، وخيرَ

(١) أي تتركون ختانهن .

شَطْرِي الرَّجُلِ آخِرُهُ . الْمَرْأَةُ إِذَا كَبِرَتْ عَقَمَتْ رَحِمُهَا ، وَحَدَّ لِسَانُهَا ، وَسَاءَ خُلُقُهَا ، وَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَبِرَتْ سِنَتُهُ اسْتَحْكَمَ رَأْيُهُ ، وَكَثُرَ حِلْمُهُ وَقَلَّ جَهْلُهُ .

وقال أغشى همدان لامرأته: إنك لسلسة الثقبه، سريعه الوثبة، حديده الركبته، فقالت: والله إنك لسريع الإزاقة، بطيء الإفاقة، قليل الطاقة، فطلقها، وقال:

تَقَادَمَ عَنْهُدُكِ أُمَّ الْجَلَالِ وَطَاشَتْ نِبَالُكَ عِنْدَ النَّضَالِ
وَقَدُبْتُ حَبْلُكَ فَاسْتَيْقَنِي بِأَنْبِي طَرَحْتُكَ ذَاتَ الشَّمَالِ
وَأَنْ لَا رُجُوعَ فَلَا تُكْذِبِي مِنْ مَا حَنَّتِ النَّيْبُ إِثْرَ الْفِصَالِ

قال الغلابي عن غيره: قال رجل لامرأته: أما إنك ما علمت لسؤل متعة، جزوع هليعة، تمشين الدفقي وتقعدين الهبنقة^(١)، فقالت: أما والله إن كان زادي منك لهديّة^(٢)، وإن كانت حظوتي منك لحدية^(٣)، فإنك لابن خبيثة يهودية.

وقال المدائني قبض كسرى أرضاً لرجل من الدهاقين، وأقطعها البحرجان، فقدم صاحب الأرض متظلماً، فأقام بياب كسرى، فركب كسرى يوماً، ففعد له الرجل على طريقه يكلمه، فلما حاذاه شد عليه حتى صك بصدريه ركبته، ووضع يده على فخذه؛ فوقف له كسرى وكلمه، فقال له: أرض كانت لأجدادي ورثتها من آبائي قبضتها فأقطعها البحرجان؟ ارددها علي، فقال له كسرى: مذكم هذه الأرض في أيدي أجدادك وآبائك؟ فذكر دهرأ طويلاً، فقال له كسرى: والله لقد أكلتموها دهرأ طويلاً، فما عليك في أن تدعها في يد البحرجان عارية سنيات يستمتع بها ثم يردّها عليك، فقال: أيها الملك، قد علمت حسن بلاء بهرام جور في طاعتكم، أهل البيت، وما كفاكم من حد عدوكم، ودفعه عنكم كيد الترك وحسن بلاء آبائه قبل ذلك في طاعة آبائك، فما كان عليك لو أعزته ملكك سنيات يستمتع به ثم يردّه إليك؟ فقال كسرى: يا بحرجان، أنت رميتني بهذا السهم، ازدد عليه أرضه فردّها.

قال رجل من القحاطنة لرجل من أبناء الأعاجم: ما يقول الشعر منكم إلا من كانت أمه زنى بها رجل منّا فنزع إلينا. فقال له الثنوي: وكذلك كل من لم يقل الشعر منكم، فإنما زنى بأمه رجل منّا فحملت به، فنزع إلينا، فمن ثم لم يقل الشعر.

وقال رجل من العرب لرجل من أبناء العجم: رأيت في النوم كأنني دخلت الجنة فلم أر فيها ثنوباً. فقال له الثنوي: أصعدت العرف؟ قال: لا. قال: فمن ثم لم ترهم، هم في العرف.

(١) أي تمشين مشياً مسرعاً وجلس الهبنقة: مزهواً.

(٢) لندرته.

(٣) أي أنه كأنه يعطيها القليل مما يغنم، فمن معاني القسمة: الخدمة.

قال ابن عيَّاش: ما قَطَعَنِي إِلَّا رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ آلِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَكَانَ مَا جُنَا شَارِبَ حَمْرٍ، وَذَلِكَ أَنِّي وَقَفْتُ عَلَى بَيَانَ التَّبَانِ الَّذِي أُتِيَ بِهِ ابْنُ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيَّ فَأَمَرَ بِصَلْبِهِ، فَقَالَ لِي: مَا وَقُوفُكَ هَاهُنَا يَا أَبَا الْجَرَّاحِ؟ قُلْتُ: أَنْظُرُ إِلَى هَذَا الشَّقِيِّ الَّذِي يَقُولُ: إِنَّهُ نَبِيٌّ؛ قَالَ: وَمَا أَتَى بِهِ فِي نَبَوْتِهِ؟ قُلْتُ: بِتَحْلِيلِ الْحَمْرِ وَالزُّنَا - وَأَنَا أَعْرَضُ بِهِ - فَقَالَ: لَا، وَاللَّهِ لَا يُقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهُ حَتَّى يُبْرَأَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ.

قال المدائني: ابنُ عيَّاشِ أْبْرَصٌ.

وقال: دَخَلَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيُّ عَلَى عبيدِ اللَّهِ بنِ زيادٍ، فقال له ابنُ زيادٍ - وهو يَهْزَأُ بِهِ -: أَمْسَيْتَ يَا أَبَا الْأَسْوَدِ العَشِيَّةَ جَمِيلاً فَلَوْ عَلَّقْتَ تَمِيمَةَ تَنْفِي بِهَا عَنكَ العَيْنَ؟ فَعَرَفَ أَنَّهُ يَهْزَأُ بِهِ فَقَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ -.

أَفَنَى السُّبَابِ الَّذِي فَارَقْتُ بِهِجَتَهُ مَرُّ الْجَدِيدَيْنِ مِنْ آتٍ وَمُنْتَطَلِقِ
لَمْ يَتْرُكْ لِي فِي طَوْلِ اخْتِلَافِهِمَا شَيْئاً تُخَافُ عَلَيْهِ لَدَعَةُ الْحَدَقِ

وقال المدائني: وَقَعَ بَيْنَ العُرْيَانِ بْنِ الهَيْثَمِ النَّخَعِيِّ وَبَيْنَ بِلَالِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ كَلَامٌ بَيْنَ يَدَيْ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ وَخَالِدِ يَوْمئِذٍ عَلَى الْعِرَاقِ - وَكَانَ مِتْحَامِلاً عَلَى بِلَالٍ، وَكَانَ الْعِرْيَانُ عَلَى سُزْطَةَ خَالِدٍ - فَقَالَ الْعِرْيَانُ لِبِلَالٍ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَنَا بِأَبْيَضِ الرَّاحَتَيْنِ، وَلَا مُنْتَشِرِ الْمُنْخَرَيْنِ، وَلَا أَرْوَحِ الْقَدَمَيْنِ، وَلَا مُحَدِّدِ الْأَسْنَانِ، وَلَا جَعْدٍ قَطَطٍ، فَقَالَ بِلَالٌ: يَا عُرْيَانُ أَتُعْنِينِي بِهَذَا؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، وَلَكِنْ كَلَامٌ يَتَلَوُ بَعْضُهُ بَعْضاً. فَقَالَ بِلَالٌ: يَا عُرْيَانُ، أَتُرِيدُ أَنْ تَشْتُمَ أَبَا بُرْدَةَ وَأَشْتُمَ أَبَاكَ، وَتَشْتُمَ أَبَا مُوسَى وَأَشْتُمَ جَدَّكَ، هَذَا وَاللَّهِ مَا لَا يَكُونُ، فَقَالَ الْعُرْيَانُ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَجْعَلُ أَبَا مُوسَى فِدَاءَ الْأَسْوَدِ، وَلَا أَبَا بُرْدَةَ فِدَاءَ الهَيْثَمِ، فَمَثَلِي وَمَثَلُكَ فِي ذَلِكَ كَمَا قَالَ مِسْكِينُ الدَّارِمِيِّ:

أَنَا مِسْكِينٌ لِمَنْ أَنْكَرَنِي وَلِمَنْ يَعْرِفُنِي جِدُّ نَطِقِ
لَا أَبِيعُ النَّاسَ عِرْضِي إِنْ نِي لَوْ أَبِيعُ النَّاسَ عِرْضِي لَنَفَقِ

قال المَدَائِنِيُّ: جَرَى بَيْنَ وَكَيْعِ بْنِ الْجِرَاحِ وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ كَلَامٌ فِي مَعَاوِيَةَ وَاخْتِلَافًا، فَقَالَ الرَّجُلُ لَوْكَيْعٍ: أَلَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ أَبَا سَفْيَانَ وَمَعَاوِيَةَ وَعَتَبَةَ فَقَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الرَّاكِبَ وَالْقَائِدَ وَالسَّائِقَ»، فَقَالَ وَكَيْعٍ: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَيُّمَا عَبْدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ فَاجْعَلْ ذَلِكَ (لَهُ أَوْ عَلَيْهِ) رَحْمَةً»؛ فَقَالَ الرَّجُلُ: أَيْسَرُكَ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ وَالذِّئْبُ كَانَ ذَلِكَ لَهُمَا رَحْمَةً. فَلَمْ يَحِرْ إِلَيْهِ جَوَاباً.

تَكَلَّمَ صَعْصَعَةٌ عِنْدَ مَعَاوِيَةَ فَعَرَقَ، فَقَالَ: وَبَهْرَكَ الْقَوْلُ يَا صَعْصَعَةُ؟ فَقَالَ: إِنْ الْجِيَادَ نَصَّاحَةٌ بِالْمَاءِ.

هكذا قال لنا السِّيرافي، وقد قرأت عليه هذه الفقرة كلها، وإنما جمعتها للوزير بعد إحكامها وروايتها.

قال علي بن عبد الله: شهدت الحجاج خارجاً من عند عبد الملك بن مروان، فقال له خالد بن يزيد بن معاوية: إلى متى تقتل أهل العراق يا أبا محمد! فقال: إلى أن يكفوا عن قولهم في أبيك: إنه كان يشرب الخمر.

قال المدائني: أسرّت مزينة حسان بن ثابت - وكان قد هجاهم - قال:

مُزَيْنَةُ لَا يُرَى فِيهَا خَطِيبٌ وَلَا فِلَجٌ يُطَافُ بِهِ خَضِيبٌ
أُنَاسٌ تَهْلِكُ الْأَخْسَابُ فِيهِمْ يَرُونَ الثَّنِيسَ يَغْدِلُهُ الْحَبِيبُ

فأنتهم الخزرج يفتدونه؛ فقالوا: نفاديه بتيس؛ فعضبوا وقاموا؛ فقال لهم حسان: يا إخوتي خذوا أخاكم واذفعوا إليهم أخاهم.

وقال المدائني: فرق عمر بن الخطاب بين منظور بن أبان وبين امرأته - وكان خلف عليها بعد أبيه - فتزوجها طلحة بن عبد الله، فلقية منظور، فقال له: كيف وجدت سوري؟ فقال: كما وجدت سؤراً أبيك. فأفحمه.

وقال حاطب بن أبي بلتعة: بعثني النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى المقوقس ملك الإسكندرية، فأتيته بكتاب رسول الله - ﷺ - وأبلغته رسالته؛ فضحك ثم قال: كتب إلي صاحبك أن أتبعه على دينه، فما يمنعه - إن كان نبياً - أن يدعو الله أن يسلط علي البحر فيغرني فيكتفي مؤونتي ويأخذ ملكي؟ قلت: فما صنع عيسى إذ أخذته اليهود فربطوه في جبل وحلقوا وسط رأسه، وجعلوا عليه إكليل شوك، وحملوا خشبته التي صلبوه عليها على عنقه، ثم أخرجوه وهو بينكي حتى نصبوه على الخشبة، ثم طعنوه حتى بحرية حتى مات؛ هذا على زعمكم، فما منعه أن يسأل الله فينجيه ويهلكهم فكفى مؤونتهم ويظهر هو وأصحابه عليهم؟ وما منع يحيى بن زكريا حين سألت امرأة الملك أن يقتله فقتله، وبعث برأسه إليها حتى وضع بين يديها، أن يسأل الله تعالى أن ينجيه ويهلك الناس؟ فأقبل على جلسائه وقال: إنه والله لحكيم، وما يخرج الحكيم إلا من عند الحكماء.

قال المدائني: أبطأ على رجل من أصحاب الجنيدي بن عبد الرحمن ما قبله - وهو على خراسان - وكان يقال للرجل: زامل بن عمرو من بني أسد بن خزيمة، فدخل على الجنيدي يوماً فقال: أصلح الله الأمير، قد طال انتظاري، فإن رأى الأمير أن يضرب لي موعداً أصير إليه فعل. فقال: مؤعدك الحشر؛ فخرج زامل متوجهاً إلى أهله؛ ودخل على الجنيدي بعد ذلك رجل من أصحابه فقال: أصلح الله الأمير:

أرْحِنِي بِخَيْرٍ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ فَاعِلاً وَإِلَّا فَمِيعَادٌ كَمِيعَادِ زَامِلٍ

قال: وما فعل زامل؟ قال: لحق بأهله. فأبرد الجنيدي في أثره بريداً وبعث يبعده إلى الكورة التي يدرك بها، فأدرك بنيسابور، فنزلها.

وامتدح رَجُلُ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ - عليه السلام - بِشِعْرِ، فَأَمَرَ له بِشيءٍ؛ فقيل:
أُتْعِطِي على كلام الشَّيْطَانِ؟ فقال: أُبْتِغِي الخَيْرَ لِنَفْسِي الشَّرِّ.

قال المدائني: أتى العبداني حَمَادُ بنُ أَبِي حَنيفَةَ وقد مَلَ عينه كُخْلًا قد ظَهَرَ مِنْ
مَحَاجِرِ عَيْنِهِ، وعند حَمَادِ جَمَاعَةٌ. فقال له حَمَادُ: كأنك امرأة نُفَسَاء. قال: لا،
ولكنِّي تُكَلِّى. قال: على مَنْ؟ قال: على أَبِي حَنيفَةَ.

وقال مَرْوَانُ بنُ الحَكَمِ لِيَحْيَى: إِنَّ ابْنَتَكَ تَشْكُو تَزْوِيجَكَ وتزَعُمُ أَنَّهُ يبول في
دِثَارِهِ. قال: فهو يبول منها فيما هو أَعْظَمُ مِنْ دِثَارِهِ.

وقال مُعاوية: هذا عَقِيلٌ عَمَّهُ أَبُو لَهَبٍ. فقال عَقِيلٌ: هذا مُعاويةُ عَمَّتُهُ
حَمَالَةُ الحطَبِ.

قال: ودَحَلَ مَعْنُ بنُ زَائِدَةَ على أَبِي جَعْفَرٍ فَقَارَبَ في حَطْوهِ، فقال أَبُو جَعْفَرٍ:
كَبِرْتَ سِنَّكَ يا مَعْنُ. قال: في طَاعَتِكَ. قال: وإِنَّكَ لَجَلْدٌ. قال: على أَعْدَائِكَ. قال:
إِنَّ فِيكَ لِبَقِيَّةٍ. قال: هي لَكَ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

قال المنصورُ لِسُفيَانَ بنِ مُعاويةَ المُهَلَّبِيِّ: ما أَسْرَعَ النَّاسَ إلى قومِكَ؟ قال سُفيانُ:

إِنَّ العَرَانِينَ تَلْقَاهَا مُحَسَّدَةٌ وَلَنْ تَرَى لِلنَّاسِ حُسَادًا
فقال: صدقت.

قال المدائني: حضرَ قومٌ مِنْ قُرَيْشٍ مجلسَ مُعاويةَ وفيهم عَمْرُو بنُ العاصِ
وعبدُ اللَّهِ بنُ صَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةِ الجُمَحِيِّ وعبدُ الرَّحْمَنِ بنُ الحارثِ بنِ هشامٍ؛ فقال
عمرو: احمَدوا اللَّهَ يا مَعشَرَ قُرَيْشٍ إذ جعل واليَ أموركُم من يُغْضِي على القَدِي،
ويَتَصامَمُ عَنِ العُوراءِ، ويجرُّ ذَيْلَهُ على الخَدَائِعِ. قال عبدُ اللَّهِ بنُ صَفْوَانَ: لو لم يكن
هذا لَمَشِينا إليه الضَّرَاءَ، ودَبَبْنَا له الحَمْرَ، وَقَلَبْنَا له ظَهْرَ المِجَنِّ، ورجونا أن يقومَ
بأمرنا مَنْ لا يُطْعِمُكُم مالَ مِضْرٍ.

وقال معاوية: يا مَعشَرَ قُرَيْشٍ، حَتَّى مَتَى لا تُنْصِفُونَ من أَنْفُسِكُمْ؟

فقال عبد الرحمن بنُ الحارثِ: إن عَمْرًا ودَوِي عمرو أفسدوك علينا وأفسدونا
عليك، ما كان لو أَعْضَيْتَ على هذه؟ فقال: إنَّ عَمْرًا لي ناصح، قال: أَطْعِمْنَا مِمَّا
أَطْعَمْتَهُ، ثم خُذْنَا بِمِثْلِ نَصِيحَتِهِ، إِنَّكَ يا مُعاويةُ تُضْرِبُ عَوَامَّ قُرَيْشٍ بِأَيادِكَ في
خَوَاصِّها كأنَّكَ تَرَى أَنَّ كِرَامَها جَارُوكَ دون لثامها، وإيْمُ اللَّهِ: إِنَّكَ لتفرغ من إناءٍ فَعَمَّ
في إناءٍ ضَخَمَ، ولكأنَّكَ بالحزبِ قد حُلَّ عِقَالُها ثم لا تُنْظِرُكَ. فقال معاوية: يا بن
أخي ما أَحْوَجَ أَهْلَكَ إليكَ. ثم أُنْشِدَ معاوية:

أَعْرَ رَجالاً مِنْ قُرَيْشٍ تَشايَعُوا على سَفِهِ، مِنَّا الحَيَا والتَّكْرُمُ؟

وقال المدائني: كان عروة بن الزبير عند عبد الملك بن مروان يحدثه - وعنده الحجاج بن يوسف - فقال له عروة في بعض حديثه: قال أبو بكر - يعني عبد الله بن الزبير - فقال الحجاج: أعدد أمير المؤمنين تكني ذلك الفاسق؟ لا أم لك. فقال عروة: ألي تقول هذا لا أم لك وأنا ابن عجانز الجنة خديجة وصفية وأسماء وعائشة، بل لا أم لك أنت يا بن المستفهمة بعجم زبيب الطائف.

وقال: لما صنع هشام بن عبد الملك بغيلان الواعظ ما صنع، قال له رجل: ما ظلمك الله ولا سلط عليك أمير المؤمنين إلا وأنت مستحق؛ فقال غيلان: قاتلك الله، إنك جاهل بأصحاب الأخدود.

قال عمرو بن العاص: أعجبتني كلمة من أمة؛ قلت لها ومعها طبق: ما عليه يا جارية؟ قالت: فلم غطيناه إذا؟

وقع ابن الزبير في معاوية، ثم دخل عليه فأخبره معاوية ببغضه، فقال: أنى علمت ذلك؟ فقال معاوية: أما علمت أن ظن الحكيم كهانة.

وقيل لعمر بن عبد العزيز: ما تقول في علي وعثمان وفي حرب الجمل وصيفين؟ قال: تلك دماء كف الله يدي عنها، فأنا أكره أن أغمس لساني فيها.

وقال: طلق أبو الخندف امرأته أم الخندف، فقالت له: يا أبا الخندف طلقنتي بعد خمسين سنة، فقال: مالك عندي ذنب غيره.

وقال: لقي جريراً الأخطل فقال: يا مالك، ما فعلت خنازيرك! قال: كثيرة في مرج أفيح، فإن شئت قرينتك منها، ثم قال الأخطل: يا أبا حزره ما فعلت أعنازك؟ قال: كثيرة في واد أزوح، فإن شئت أنزيتك على بعضها.

وقال الشعبي: ذكر عمرو بن العاص علياً فقال: فيه دُعابة، فبلغ ذلك علياً فقال: زعم ابن التابغة أنني تلعباة تمرأحة ذو دُعابة أعافس وأمارس؛ هيهات، يمنع من العفاس والمراس ذكر الموت وخوف البعث والحساب ومن كان له قلب ففي هذا عن هذا له واعظ وزاجر، أما وشر القول الكذب - إنه ليعد فيخلف، ويحدث فيكذب، فإذا كان يوم البأس فإنه زاجر وأمر ما لم تأخذ السيوف بهام الرجال، فإذا كان ذاك فأعظم مكيدته في نفسه أن يمنح القوم استه.

قال المدائني: بعث المفضل الضبي إلى رجل بأضحية، ثم لقيه فقال: كيف كانت أضحيتك؟ فقال: قليلة الدم. وأراد قول الشاعر:

ولو ذبح الضبي بالسيف لم تجد من اللوم للضبي لحمًا ولا دمًا

وقال المدائني: مر عقيل بن أبي طالب على أخيه علي بن أبي طالب عليه السلام ومعه تيس، فقال له علي: إن أحد ثلاثنا أحق. فقال عقيل: أما أنا وتيسي فلا.

وَكَلَّمَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسِ حُمْرَانَ يَوْمًا فِي الْمَسْجِدِ . فَقَالَ لَهُ حُمْرَانُ : لَا أَكْثَرَ
اللَّهُ فِينَا مِثْلَكَ . فَقَالَ عَامِرُ : لَكِنْ : أَكْثَرَ اللَّهُ فِينَا مِثْلَكَ ، فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ : يَا عَامِرُ ،
يَقُولُ لَكَ حُمْرَانُ مَا لَا تَقُولُ مِثْلَهُ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ يَكْسَحُونَ طُرْقَنَا ، وَيَحُكُونَ ثِيَابَنَا ،
وَيَخْرُزُونَ خِفَافَنَا . فَقِيلَ لَهُ : مَا كُنَّا نَرَى أَنَّكَ تَعْرِفُ مِثْلَ هَذَا ، قَالَ : مَا أَكْثَرَ مَا
تَعْرِفُ مِمَّا لَا تَطَّلُونَ بِنَا .

وقال: مَرَّ جَرِيرُ بْنُ عَطِيَّةَ عَلَى الْأَخْوَصِ وَهُوَ عَلَى بَغْلٍ ، فَأَذَلَّى الْبَغْلُ ، فَقَالَ
الْأَخْوَصُ : بَغْلُكَ يَا أَبَا حَزْرَةَ عَلَى خَمْسِ قَوَائِمٍ . قَالَ جَرِيرُ : وَالْخَامِسَةُ أَحَبُّ إِلَيْكَ .
وَمَرَّ جَرِيرٌ بِالْأَخْوَصِ وَهُوَ يَفْتُسِقُ بِامْرَأَةٍ وَيُنْشِدُ :

يَقْرِئُ بَعَيْنِي مَا يَقْرِئُ بَعَيْنِهَا وَأَحْسَنُ شَيْءٍ مَا بِهِ الْعَيْنُ قَرَّتِ

فقال له جرير: فَإِنَّهُ يَقْرِئُ بَعَيْنِهَا أَنْ تَقْعُدَ عَلَى مِثْلِ ذِرَاعِ الْبُكَرِ ، أَفْتَرَاكَ تَفْعَلُ ذَلِكَ ؟
فقال الوزير: مَنْ رَأَيْتَ مِنَ الْكِبَارِ كَانَ يَحْفَظُ هَذَا الْفَنَّ وَلَهُ فِيهِ عَزَاةٌ وَانْبِعَاثٌ
وَجَسَارَةٌ عَلَى الْإِيرَادِ؟

قلتُ: ابْنُ عَبَّادٍ عَلَى هَذَا ، وَيَبْلُغُ مِنْ قُوَّتِهِ أَنَّهُ يَفْتَعِلُ أَشْيَاءَ شَبِيهَةً بِهَذَا الضَّرْبِ
عَلَى مَنْ حَضَرَ ، فَقَالَ : الْكَذِبُ لَا خَيْرَ فِيهِ ، وَلَا حَلَاوَةَ لِرَاوِيهِ ، وَلَا قَبُولَ عِنْدَ سَامِعِيهِ .
وقال: أَرْسَلَ بِلَالُ بْنُ أَبِي بُرْدَةَ إِلَى أَبِي عَلْقَمَةَ فَاتَاهُ ، فَقَالَ : أَنْتَ دَرِي لَأَيِّ
شَيْءٍ أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، لِتَضَعَّ بِي خَيْرًا . قَالَ : أَخْطَأْتُ وَلَكِنْ لِأَسِيءَ بِكَ .
فقال: أَمَّا إِذْ قُلْتَ ذَلِكَ لَقَدْ حَكَمَ الْمُسْلِمُونَ حَكْمِينَ ، فَسَجَرَ أَحَدُهُمَا بِالْآخِرِ . فَقَالَ
الوزير: أَيْقَالَ سَجَرَ بِهِ ! فَكَانَ الْجَوَابُ أَنَّ أَبَا زَيْدَ حَكَاهُ ، وَصَاحِبَ التَّضْنِيفِ قَدْ
رَوَاهُ ؛ وَسَجَرَ مِنْهُ أَيْضًا كَلَامٌ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ هُوَ أَفْصَحُ ، لِأَنَّهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ،
وَأَلَّا فَكَلَاهُمَا جَائِزٌ .

وقال حَمْزَةُ بْنُ بِيضِ الْحَنْفِيِّ لِلْفَرَزْدَقِ : يَا أَبَا فِرَاسٍ ، أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ تَسْبِقَ
الْخَيْرَ أَمْ يَسْبِقُكَ ! قَالَ : مَا أُرِيدُ أَنْ أَسْبِقَهُ وَلَا أَنْ يَسْبِقَنِي ، بَلْ نَكُونُ مَعًا . وَلَكِنْ حَدَّثَنِي
أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ : أَنْ تَدْخُلَ مَنَزْلَكَ فَتَجِدَ رَجُلًا عَلَى حِرَامِكَ ، أَوْ تَجِدَهَا قَابِضَةً عَلَى
قُمَدِ الرَّجُلِ . فَأَفْحَمَهُ .

فلما قرأتُ الجُزءَ فِي ضُرُوبِ الْجَوَابِ الْمُفْجِمِ . قَالَ : مَا أَفْتَحَ هَذَا النُّوعَ مِنْ
الْكَلَامِ لِأَبْوَابِ الْبَدِيهَةِ ! وَأَبْعَثَهُ لِرِوَاقِدِ الدُّهْنِ ! وَمَا يَتَفَاضَلُ النَّاسُ عِنْدِي بِشَيْءٍ أَحْسَنَ
مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْفَوَائِقِ الرَّوَائِقِ ، مَا أَحْسَنَ مَا جَمَعْتَ وَأَتَيْتَ بِهِ .

الليلة الأربعون

وقال مرّةً أخرى: حَدَّثَنِي عن اعتقادك في أبي تَمَامِ والبُحْتَرِيِّ .
فكان الجواب: إن هذا الباب مُخْتَلَفٌ فيه، ولا سبيل إلى رَفْعِهِ، وقد سَبَقَ هذا
من الناس في الفَرَزْدَقِ وَجَرِيرٍ وَمِنْ قَبْلَهُمَا في زُهَيْرٍ والنابعة حتّى تكلم على هذا الصدرُ
الأول، مع علو مراتبهم في الدِّين والعقل والبيان، لكن حَدَّثَنَا أبو محمد العروضي عن
أبي العباس المُبَرِّدِ قال: سألتني عبيدُ الله بنُ سُلَيْمَانَ عن أبي تَمَامِ والبُحْتَرِيِّ؛ فقلت:
أبو تَمَامٍ يَغْلُو غُلُوًّا رَفِيعاً، وَيَسْقُطُ سُقُوطاً قَبِيحاً، والبَحْتَرِيُّ أَحْسَنُ الرجلين نَمَطاً،
وأَعْدَبُ لَفْظاً؛ فقال عبيدُ الله:

قَد كَانَ ذَلِكَ ظَنِّي فَعَادَ ظَنِّي يَاقِينَا

فقلت: وهذا أيضاً شعر. فقال: ما عَلِمْتُ .

فقال: هذه حكاية مفيدة من هذا العالم المتقدم، وحكم يُلَوِّحُ منه الإنصاف،
وقد أَعْنَى هذا القول عن خَوْضٍ كثير.

ودَعِ ذَا؛ مِنْ أَيْنَ دَخَلَتِ الآفَةُ على أصحاب المذاهب حتى افترقوا هذا الافتراق،
وتَبَايَنُوا هذا التَّبَايُنَ، وَخَرَجُوا إلى التكفير والتفسيق وإباحة الدَّمِ والمالِ وَرَدَّ الشَّهَادَةَ
وَإِطْلَاقِ اللِّسَانِ بِالْجِزْحِ وَبِالْقَدْحِ وَالتَّهَاجُرِ وَالتَّقَاطُعِ!

فكان الجواب: إن المذاهب فُرُوعُ الأديان، والأديان أصولُ المذاهب، فإذا ساغ
الاختلاف في الأديان - وهي الأصول - فَلِمَ لا يَسُوعُ في المذاهب وهي الفروع.

فقال: ولا سَوَاءَ، الأديانُ خْتَلَفَتْ بالأنبياء، وهم أربابُ الصُّدُقِ والوَحْيِ
الموثوق به، والآياتِ الدَّالَّةُ على الصُّدُقِ؛ وليس كذلك المذاهب.

ف قيل: هذا صحيح، ولا دافع له، ولكن لما كانت المذاهب نتائج الآراء،
والآراء ثمرات العقول، والعقول منائحُ الله للعبياد، وهذه النتائجُ مُخْتَلَفَةٌ بالصفاء
والكَدْرِ، وبالكمالِ والنَّقْصِ، وبالقلَّةِ والكثرة، وبالخفاء والوضوح؛ وَجَبَ أن يَجْرِيَ
الأمرُ فيها على مناهج الأديان في الاختلاف والافتراق وإن كانت تِلْكَ مُنَوَّطَةٌ بالنبوة؛
ويعد، فما دامَ النَّاسُ على فِطْرٍ كثيرة، وعاداتٍ حَسَنَةٍ وَقَبِيحَةٍ، وَمَنَاشِئٍ محمودَةٍ
ومذمومة، ومُلاحَظَاتٍ قريبةٍ وبعيدة، فلا بدَّ من الاختلاف في كلِّ ما يُخْتَارُ وَيُجْتَنَّبُ،

ولا يجوزُ في الحكمة أن يقع الاتفاق فيما جرى مجرى المذاهب والأديان؛ ألا ترى أن الاتفاق لم يحصل في تفضيل أمة على أمة، ولا في تفضيل بلدٍ على بلد، ولا في تقديم رجلٍ على رجل، ولو لم يكن في هذا الأمر إلا التعصب واللجاج والهوى والمحك والذهاب مع السابق إلى النفس، والموافق للمزاج، والخفيف على الطباع، والمالك للقلب، لكان كافياً بالغاً بالإنسان كل مبلغ.

وشيخنا أبو سليمان يقول كثيراً: إن الدين موضوع على القبول والتسليم، والمبالغة في التعظيم، وليس فيه «لِمَ» و«لا» و«كَيْفَ» إلا بقدر ما يؤكد أضله ويشد أزره، وينفي عارض السوء عنه، لأن ما زاد على هذا يوهن الأضل بالشك، ويقدح في الفرع بالتهمة.

قال: وهذا لا يخص ديناً دون دين، ولا مقالة دون مقالة، ولا نخلة دون نخلة، بل هو سار في كل شيء في كل حال في كل زمان، وكل من حاول رفع هذا فقد حاول رفع الفطرة ونفي الطباع وقلب الأضل، وعكس الأمر؛ وهذا غير مستطاع ولا ممكن؛ وقد قيل: «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون».

وقال لنا القاضي أبو حامد المرزوقذي: أنا منذ أربعين سنة أجتهد مع أصحابنا البصريين في أن أصحح عندهم أن بغداد أطيبت من البصرة، وأنا اليوم في كلامي معهم كما كنت في أول كلامي لهم، وكذلك حالهم معي، فهذا هذا. أنظر إلى فضل ومرعوش - وهما من سقط الناس وسفلتهم - كيف لهج الناس بهما وبالتعصب لهما حتى صار جميع من ببغداد إما مرعوشياً وإما فضلياً.

ولقد اجتاز ابن معروف وهو على قضاء القضاة باب الطاق فتعلق بعض هؤلاء المُجَان بلجام بعلته، وقال: أيها القاضي، عرفنا، أنت مرعوشي أم فضلي، فتحير وعرف ما تحت هذه الكلمة من السفه والفتنة، وأن التخلص بالجواب الرفيق أجدى عليه من العنف والحرق وإظهار السطوة؛ فالتفت إلى الحراني - وكان معه وهو من اليهود - فقال: يا أبا القاسم، نحن في محلة من؟ قال: في محلة مرعوش؛ فقال ابن معروف: كذلك نحن - عافاك الله - من أصحاب محلتنا لا نختار على اختيارهم؛ ولا نتميز فيهم. فقال العيار: امس أيها القاضي في ستر الله؛ مثلك من تعصب للجيران.

فقال الوزير - أحسن الله توفيقه -: هذا كله تعصب وهوى وتمأحك وتكلف. قيل: هذا وإن كان هكذا فهو داخل فيما عداه من حديث الدين والمذهب والصناعة والبلد.

قال أبو سليمان: ولمصلحة عامة نهي عن المراء والجدل في الدين على عادة المتكلمين، الذين يزعمون أنهم ينصرون الدين، وهم في غاية العداوة للإسلام والمسلمين، وأبعد الناس من الطمأنينة واليقين.

ثم حدّث فقال:

اجتمع رجّلان: أحدهما يقول بقول هشام، والآخر يقول بقول الجوالقيمي، فقال صاحب الجوالقيمي لصاحب هشام: صِف لي ربك الذي تغبده، فوصفه بأنه لا يد له ولا جارحة ولا آلة ولا لسان، فقال الجوالقيمي: أيسرك أن يكون لك ولد بهذا الوصف! قال: لا، قال: أما تستحي أن تصف ربك بصفة لا ترضاها لولدك! فقال صاحب هشام: إنك قد سمعت ما تقول، صِف لي أنت ربك. فقال: إنه جعد قطط في أتم القامات وأحسن الصور والقوام. فقال صاحب هشام: أيسرك أن تكون لك جارية بهذه الصفة تطؤها؟! قال: نعم، قال: أفما تستحي من عبادة من تحب مباضعة مثله!! وذلك لأن من أحب مباضعته فقد أوقع الشهوة عليه.

فقال: هذا من شؤم الكلام ونكد الجدال، فلو كان هناك دين لكان لا يدور هذا في وهم ولا ينطق به لسان.

وحكى أيضاً قال: ابشلي غلام أعجمي بوجع شديد، فجعل يتأوه ويتلوى ويصيح. فقال له أبوه: يا بُني اصبر واحمد الله تعالى. فقال: ولماذا أحمده! قال: لأنه ابتلاك بهذا؛ فاشتد وجع الغلام ورفع صوته بالتأوه أشد مما كان، فقال له أبوه: ولم جزعك! فقال: كنت أظن أن غير الله ابتلاني بهذا فكنت أزوجوه أن يعافيني من هذا البلاء ويصرفه عني، فأما إذ كان هو الذي ابتلاني به فمن أزوجوه أن يعافيني! فالآن اشتد جزعي، وعظمت مصيبي. قال: ولو علم أن الذي ابتلاه هو الذي استصلحه بالبلاء ليكون إذا وهب له العافية شاكرًا له عليها بحس صحيح وعلم تام؛ لكان لا يرى ما قاله وتوهمه لازماً.

وحكى أيضاً أن رجلاً من العجم حج وتعلّق بأستار الكعبة فطفق يدعو ويقول: يا من خلق السباع الضارية، والهوام العادية، وسلطها على الناس، وضرّبهم بالزمانة والعمى والفقر والحاجة؛ فوثب الناس عليه وسبوه وزجروه وقالوا: ادع الله بأسمائه الحسنى. فأظهر لهم الندامة، والتقارف فخلّوا عنه بعد ما أرادوا الوقيعة به، فرجع وتعلّق بأستار الكعبة، وجعل ينادي: يا من لم يخلق السباع الضارية، ولا الهوام، ولا سلطها على الناس، ولم يضرب الناس بالأوجاع والأسقام. فوثبوا عليه أيضاً وقالوا له: لا تقل هذا فإن الله خالق كل شيء؛ فقال: ما أذري كيف أعمل؟ إن قلت: إن الله خالق هذه الأشياء وثبت علي، وإن قلت: إن الله لم يخلقها وثبت علي. فقالوا: هذا ينبغي أن تعلمه بقلبك ولا تدع الله به.

قال أبو سليمان: وهذا أيضاً من شؤم الكلام وشبه المتكلمين الذين يقولون: لا يجوز أن يعتد شيء بالتقليد، ولا بد من دليل، ثم يدلّلون ويختلفون، ثم يرجعون إلى القول بأن الأدلة متكافئة.

وكان ابنُ البَقَالِ يَجْهَرُ بهذا القول، فقلتُ له مرَّة: لِمَ مِلْتَ إلى هذا المَذْهَبِ؟ فقال: لأنِّي وَجَدْتُ الأدلَّةَ مُتَدافِعَةً في أنفسها، ورأيتُ أصحابها يُزْخَرِفُونها ويُمَوِّهُونها لتُقْبَلَ منهم، وكانوا كأصحابِ الزُّيُوفِ الَّذِينَ يُعْشُونَ التُّفْدَ لِيُنْفِقَ عِنْدَهُمْ، وتَدورُ المُعَالَطَةُ بينهم. فقلتُ له: أَمَا تَعْرِفُ بأنَّ الحقَّ حَقٌّ والباطلُ باطلٌ؟ قال: بلى، ولكن لا يَتَبَيَّنُ أَحَدُهُمَا مِنَ الآخَرِ. قلتُ: أَفَلَا تَه لا يَتَبَيَّنُ لك الحقُّ مِنَ الباطِلِ تَعْتَقِدُ أَنَّ الحقَّ باطلٌ وَأَنَّ الباطِلَ حَقٌّ؟ قال: لا أَجِيءُ إلى حَقٍّ أَعْرِفُهُ بَعِيْنَهُ فَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ باطلٌ، ولا أَجِيءُ أَيضاً إلى باطلٍ أَعْرِفُهُ بَعِيْنَهُ فَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ حَقٌّ، ولكنَّ لِمَا تَبَسَّ الحقُّ بالباطِلِ والباطِلُ بالحقِّ قُلْتُ إِنَّ الأدلَّةَ عليهما ولهما متكافئة، وإنها مَوْقُوفَةٌ على حِدْقِ الحاذِقِ في نُضْرَتِهِ، وَضَعْفِ الضَّعِيفِ في الذَّبِّ عنه. قلتُ: فكأنَّكَ قد رَجَعْتَ عن اعترافِكَ بالحقِّ أَنَّهُ حَقٌّ، وبالباطلِ أَنَّهُ باطلٌ. قال: ما رَجَعْتُ. قلتُ: فكأنَّكَ تَدْعِي الحَقَّ حَقًّا جُمْلَةً والباطِلَ باطلاً جُمْلَةً من غيرِ أَنْ تُمَيِّزَ بالتفصيلِ. قال: كذا هو. قلتُ: فما نَفْعُكَ بالاعترافِ بالحقِّ وَأَنَّهُ مُتَمَيِّزٌ عن الباطلِ في الأصل، وَأنت لا تَمَيِّزُ بينهما في التفصيلِ؟ قال: واللَّهِ ما أَذْرِي ما نَفْعِي منه. قلتُ: فليَم لا تَقُول: الرأْيُ أَن أَقْفَ فلا أَحْكَمَ على الأدلَّةِ بالتكافؤِ، لأنَّ الباطِلَ لا يُقاوِمُ الحقَّ، والحقَّ لا يَتَشَبَّهُ بالباطلِ، إلى أن يَفْتَحَ اللُّهُ بَصْرِي فأرَى الحقَّ حَقًّا في التفصيلِ، والباطلَ باطلاً على التَّحْصِيلِ، كما رأيتُهما في الجُمْلَةِ، وَأَنَّ الَّذِي فَتَحَ بَصْرِي على ذَلِكَ في الأوَّلِ هو الَّذِي غَضَّ بَصْرِي عنه في الثاني؟ قال: يَنْبَغِي أَنْ أَنْظُرَ فيما قلتُ. فقلتُ: انظُرْ إِنْ كَانَ لك نَظَرٌ، ولا تَتَكَلَّفُ النَّظَرَ ما دامَ بك عَمَى أو عَشَأ أو رَمَدٌ.

وحكى لنا أبو سليمان قال: وَصَفَ لنا بعضُ النَّصَارَى الجَنَّةَ فقال: ليس فيها أَكْلٌ ولا شَرْبٌ ولا نِكَاحٌ. فَسَمِعَ ذلك بعضُ المتكلمين فقال: ما تصفِ إِلَّا الحُزْنَ والأسفَ والبلاءَ.

وقال أبو عيسى الوراق - وكان مِنْ حُذَّاقِ المتكلمين - : إن الأمر بما يَعْلَمُ أَنَّ المأمور لا يَفْعَلُهُ سَفِيْهه، وقد عَلِمَ اللُّهُ من الكفار أَنهم لا يُؤْمِنون، فليس لأمرهم بالإيمانِ وَجْهٌ في الحِكْمَةِ.

قال أبو سليمان: انظُرْ كيف ذَهَبَ عليه السُّرُّ في هذه الحال، مِنْ أَيْنَ أَتَوْا، وكيف لَزِمَتْهم الحِجَّةُ.

وقال أبو عيسى أيضاً: المُعاقِبُ الَّذِي لا يَسْتَصْلِحُ بِعُقُوبَتِهِ من عاقِبِهِ، ولا يَسْتَصْلِحُ به غَيْرُهُ، ولا يَشْفِي غِيْظَهُ بِعُقُوبَتِهِ جائرٌ، لأنَّهُ قد وَضَعَ العُقُوبَةَ في غيرِ مَوْضِعِها. قال: لأنَّ اللُّهُ تَعَالَى لا يَسْتَصْلِحُ أَهْلَ النارِ ولا غيرهم، ولا يَشْفِي غِيْظَهُ بِعُقُوبَتِهِمْ، فليس للعُقُوبَةِ وَجْهٌ في الحِكْمَةِ. هذا عَرَضُ كِتَابِهِ الَّذِي نَسَبَهُ إلى الغريبِ المَشْرِقِيِّ.

وقال أبو سعيد الحَضْرَمِيّ - وكان من حُذاقِ الْمُتَكَلِّمِينَ بِنِعْدَادٍ، وهو الذي تَظَاهَرَ بِالْقَوْلِ بِتَكَافُؤِ الْأَدَلَّةِ - : إن كان اللهَ عَدْلًا كَرِيمًا جَوَادًا عَلِيمًا رَوْفًا رَحِيمًا فَإِنَّهُ سَيُصَيِّرُ جَمِيعَ خَلْقِهِ إِلَى جَنَّتِهِ، وذلك أَنَّهُم جَمِيعًا على اختلافهم يجتهدون في طَلَبِ مَرْضَاتِهِ، فيَهْرُبُونَ مِنْ وَقَعِ سُخْطِهِ بِقَدْرِ عِلْمِهِمْ وَمَبْلَغِ عَقُولِهِمْ، وَإِنَّمَا تَرَكُوا اتِّبَاعَ أَمْرِهِ لِأَنَّهُمْ حُدِعُوا، وَزُيِّنَ لَهُمُ الْبَاطِلُ بِاسْمِ الْحَقِّ؛ وَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ حَمَلَ هَدِيَّةً إِلَى مَلِكٍ، فَعَرَضَ لَهُ فِي الطَّرِيقِ قَوْمٌ شَأْنُهُم الْجِدَاعُ وَالْمَكْرُ وَالِاسْتِلَالُ، فَنَصَبُوا لَهُ رَجُلًا، وَسَمَّوْهُ بِاسْمِ الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ قَصْدَهُ، فَسَلَّمَ الْهَدِيَّةَ إِلَيْهِمْ؛ فَالْمَلِكُ الَّذِي قَصْدَهُ إِنْ كَانَ كَرِيمًا فَإِنَّهُ يَعْذِرُهُ وَيَزَحِّمُهُ وَيَزِيدُ فِي كِرَامَتِهِ وَبِرِّهِ حِينَ يَقِفُ عَلَى قِصَّتِهِ، وَهَذَا أَوْلَى بِهِ مِنْ أَنْ يَغْضَبَ عَلَيْهِ وَيُعَاقِبَهُ.

وقال أبو سليمان: ذكروا أن رجلاً رأى قوماً يتناظرون، فجلس إليهم فرأهم مختلفين، فأقبل على رجل منهم فقال: أتلزميني أن أقول بقولك وأنا لا أعلم أنك مُحِقٌّ؟ فإن قلت: نعم، قلت لك: إن بعض جلسائك يدعوني إلى مخالفتك واتباعه، وليس عندي علمٌ بالمُحِقِّ منكم؛ وإن ألزمتني أن أتبع كلِّكم فهذا مُحال، وإن قلت: لا يلزمك أن تتبني ولا غيري إلا بعد العلم بالمُحِقِّ منكم، لم يخل العلم بذلك من أن يكون فعلي أو فعل غيري، فإن كان العلم فعلاً لغيري فقد صرت مضطراً، ولا أستوجب عليه حمداً ولا ذمّاً وإن كان الفعل لي فمن أعظم جهالة ممن يفعل ما يلزمه الأمر والنهي به، وإن قصر صبره ذلك إلى العطب والهلاك، مع أن هذا القول يؤدي إلى أن أكون أنا المعترض على نفسي، لأنه إنما يلزميني ذلك إذا علمت أنني أقدر أن أعلم وألا أعلم.

وحكى لنا أيضاً قال: سئل عندنا رجلٌ من المتحيرين بسجستان فقيل له: ما دليلك على صحة مقالتك؟ فقال لا دليل ولا حجة. فقيل له: وما الذي أخوجك إلى هذا؟ قال: لأنني رأيت الدليل لا يكون إلا من وجوه ثلاثة:

إمّا من طريق النبوة والآيات، فإن كان إنما يثبت من هذه الجهة فلم أشاهد شيئاً من ذلك ثبتت عندي مقالته.

وإما أن يكون يثبت بالكلام والقياس فإن كان إنما يثبت بذلك فقد رأيتني مرّةً أخصمُ ومرّةً أخصم، ورأيتني أعجزُ عن الحجّة فأجدها عند غيري، وأتنبّه إليها من تلقاء نفسي بعد ذلك، فيصح عندي ما كان باطلاً، ويفسد عندي ما كان صحيحاً؛ فلما كان هذا الوصف على ما وصفت لم يكن لي أن أقضي لشيء بصحة من هذه الجهة، ولا أقضي على شيء بفساد لعدم الحجّة.

وإمّا أن تكون ثبتت بالأخبار عن الكُتُب فلم أجِدْ أهلَ مِلَّةٍ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْ

غيرهم، ولم أجد إلى تصديق كلهم سبيلاً. وكان تصديق الفرقة الواحدة دون ما سواها جوراً، لأن الفرقة متساوية في الدعوى والحجة والذنب والنصرة.

ف قيل له: فلم تدب بدينك هذا الذي أنت على شعاره وحليته، وهديته وهينته؟ فقال: لأن له حرمة ليست لغيره، وذلك أنني ولدت فيه، ونشأت عليه، وتشربت حلاوته، وألفت عادة أهله، فكان مثلي كمثل رجل دخل خاناً يستظل فيه ساعة من نهار والسماء مضيئة، فأدخله صاحب الخان بيتاً من البيوت من غير تحبير ولا معرفة بصلاجه، فبينا هو كذلك إذ نشأت سحابة فمطرت جوداً، ووكف البيت، فنظر إلى البيوت التي في الفندق فراها أيضاً تكف، ورأى في صحن الدار رذعة، ففكر أن يقيم مكانه ولا يتنقل إلى بيت آخر ويزيح الراحة، ولا يلطخ رجله بالرذعة والوحل اللذين في الصحن؛ ومال إلى الصبر في بيته، والمقام على ما هو عليه، وكان هذا مثلي، ولدت ولا عقل لي، ثم أدخلني أبواي في هذا الدين من غير خبرة مني، فلما فتشت عنه رأيت سبيله سبيل غيره، ورأيتني في صبري عليه أعز مني في تزكته، إذ كنت لا أدعه وأميل إلى غيره إلا باختيار مني لذلك، وأثرة له عليه؛ ولست أجد له حجة إلا وأجد لغيره عليه مثلها.

وحكى لنا ابن البقال - وكان من ذهابة الناس - قال: قال ابن الهيثم: جُمع بيني وبين عثمان بن خالد، فقال لي: أحب أن أناظرك في الإمامة؛ فقلت: إنك لا تناظرني، وإنما تشير علي؛ فقال: ما أفعل ذلك، ولا هذا موضع مشورة، وإنما اجتمعنا للمناظرة؛ فقلت له: فإننا قد أجمعنا على أن أولى الناس بالإمامة أفضلهم، وقد سبقنا القوم الذين يتنازع في فضلهم، وإنما يعرف فضلهم بالثقل والخبر؛ فإن أحببت سلمت لك ما تزويه أنت وأهل مذهبك في صاحبك، وتسلم لي ما أزويه أنا وفريقي في صاحبي، ثم أناظرك في أي الفضائل أعلى وأشرف؛ قال: لا أريد هذا، وذلك أنني أزوي مع أصحابي أن صاحبي رجل من المسلمين يصيب ويخطئ، ويعلم ويجهل؛ وأنت تقول في صاحبك: إنه معصوم من الخطأ، عالم بما يحتاج إليه. فكيف أراضى هذه الجملة؟ قلت: فأقبل كل شيء تزويه أنت وأصحابك في صاحبي من حمد أو ذم، وتقبل أنت كل شيء أزويه أنا وأصحابي في صاحبك من حمد أو ذم؛ قال: هذا أقبح من الأول، وذلك أنني وأصحابي تزوي أن صاحبك مؤمن خير فاضل، وأنت وأصحابك تزوون أن صاحبي كافر منافق؛ فكيف أقبل هذا منك وأناظرك عليه؟

قال ابن الهيثم: فلم يبق إلا أن أقول: دغ قولك وقول أصحابك، واقبل قولي وقول أصحابي؛ قال: ما هو إلا ذاك؛ قلت: هذه مشورة، وليست مناظرة. قال: صدقت.

وَحَكَى لَنَا الزُّهَيْرِيُّ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ آخَرَ فَقَالَ: أَتَقُولُ إِنَّ اللَّهَ نَهَانَا أَنْ نَعْبُدَ إِلَهَيْنِ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ قَالَ: وَأَمَرْنَا أَنْ نَعْبُدَ إِلَهًا وَاحِدًا؟ قَالَ: نَعَمْ؛ قَالَ: فَالْإِثْنَانِ اللَّذَانِ نَهَانَا عَنْ عِبَادَتِهِمَا مَعْقُولَانِ هَكَذَا؟ وَأَشَارَ بِأَصْبَعَيْهِ، قَالَ: نَعَمْ؛ قَالَ: فَالوَاحِدُ الَّذِي أَمَرْنَا بِعِبَادَتِهِ مَعْقُولٌ هَكَذَا؟ وَأَشَارَ بِأَصْبَعٍ وَاحِدَةٍ؛ قَالَ: لَا؛ قَالَ: فَقَدْ نَهَانَا عَمَّا يُعْقَلُ وَأَمَرْنَا بِمَا لَا يُعْقَلُ، وَهَذَا يُعَلِّمُ مَا فِيهِ فَانظُرْ حَسَنًا.

وَحَكَى لَنَا الزُّهَيْرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ الْأَخْشَادِ قَالَ: تَنَاظَرَ رَجُلَانِ فِي وَصْفِ الْبَارِي سُبْحَانَهُ، وَاشْتَدَّ بَيْنَهُمَا الْجِدَالُ، فَتَرَاضِيًا بِأَوَّلٍ مَنِ يَطَّلِعُ عَلَيْهِمَا وَيَحْكُمُ بَيْنَهُمَا، فَطَلَعَ أَعْرَابِيٌّ، فَأَجْلَسَاهُ وَقَصَّاهُ قِصَّتَهُمَا، وَوَصَفَا لَهُ مَذَهَبَيْهِمَا؛ فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ لِأَحَدِهِمَا - وَكَانَ مُشَبَّهًا -: أَمَا أَنْتَ فَتَصِفُ صَنَمًا، وَقَالَ لِلثَّانِي: وَأَمَا أَنْتَ فَتَصِفُ عَدَمًا، وَكِلَاكُمَا تَقُولَانِ عَلَى اللَّهِ مَا لَمْ تَعْلَمَا.

وَقَالَ لَنَا الْأَنْصَارِيُّ أَبُو كَعْبٍ: قَالَ ابْنُ الطَّحَّانِ الضَّرِيرُ الْبَصْرِيُّ - وَكَانَ يَقُولُ بِقَوْلِ جَهْمٍ -: إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَدَّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ الْمُؤْمِنِينَ حَسَنَاتٍ، فَيَنْدُمُونَ عَلَى مَا قَصَرُوا فِيهِ مِنْ تَنَاوُلِ اللَّذَاتِ، وَقَضَاءِ الْأَوْطَارِ بِالشَّهَوَاتِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ الْعِقَابَ، فَنَالُوا الثَّوَابَ؛ وَكَانَ يَتْلُو عِنْدَ هَذَا الْحَدِيثِ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأُولَئِكَ يَدِدُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وَحَكَى لَنَا ابْنُ الثَّلَاجِ قَالَ، قَالَ أَبُو عُثْمَانَ الْأَدَمِيُّ: إِنَّ الْجَنَّةَ لَا سَاتِرَ فِيهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ سَاتِرٍ مَانِعٍ، وَكُلُّ مَانِعٍ آفَةٌ، وَليست في الْجَنَّةِ آفَةٌ، وَلِهَذَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ: إِنَّ الْحُورَ يَرَى مَخُ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ سَبْعِينَ حُلَّةً سَوِيًّا مَا تَحْتَ ذَلِكَ مِنَ اللَّحْمِ وَالْعَظْمِ، كَالسُّلُكِ فِي الْيَابِقُوتِ؛ فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: الْجَنَّةُ إِذَا أَوْلَى مِنَ الْحَمَامِ، إِذْ قِيلَ: بِشَسِ الْبَيْتِ الْحَمَامِ، يُذْهِبُ الْحَيَاءَ، وَيُؤَدِّي الْعَوْرَةَ.

وَحَكَى لَنَا ابْنُ رَبَاطِ الْكُوفِيِّ - وَكَانَ رَئِيسَ الشُّعْبَةِ بِبَغْدَادَ، وَلَمْ أَرَأْ أَنْطَقَ مِنْهُ - قَالَ: قِيلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: مِنْ أَيْنَ جَاءَ اخْتِلَافُ النَّاسِ فِي الْحَدِيثِ؟ فَقَالَ: النَّاسُ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ مُنَافِقٌ كَذَّبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَتَعَمِّدًا، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مُنَافِقٌ مَا صَدَّقَ وَلَا أَخَذَ عَنْهُ. وَرَجُلٌ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ قَوْلًا أَوْ رَأَاهُ يَفْعَلُ فِعْلًا ثُمَّ غَابَ وَنُسِخَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ أَوْ فِعْلِهِ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ نُسِخَ مَا حَدَّثَ وَلَا عَمَلٌ بِهِ، وَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ نُسِخَ مَا قَبِلُوا مِنْهُ وَلَا أَخَذُوا عَنْهُ. وَرَجُلٌ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ قَوْلًا فَوَهَمَ فِيهِ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ وَهَمٌ مَا حَدَّثَ وَلَا عَمَلٌ بِهِ. وَرَجُلٌ لَمْ يَكْذِبْ وَلَمْ يَهْمْ، وَشَهِدَ وَلَمْ يَغِبْ.

قَالَ: وَإِنَّمَا ذَلَّ بِهَذَا عَلَى نَفْسِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: كُنْتُ إِذَا سُئِلْتُ أَجَبْتُ، وَإِذَا سَكَتُ ابْتَدَيْتُ.

وَحَكَى لَنَا ابْنُ زُرْعَةَ النَّصْرَانِيُّ قَالَ: قِيلَ لِلْمَسِيحِ؛ مَا بَالُ الرَّجُلَيْنِ يَسْمَعَانِ الْحَقَّ فَيَقْبَلُهُ أَحَدُهُمَا وَلَا يَقْبَلُهُ الْآخَرُ؟ فَقَالَ: مَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ الرَّاعِي الَّذِي يَصُوتُ بَعْنَمِهِ فَتَأْتِيهِ هَذِهِ الشَّاةُ بِنِدَائِهِ، وَلَا تَأْتِيهِ هَذِهِ.

قال أبو سليمان: هذا جوابٌ مبتور، وليس له سنن، ولعلَّ الترجمة قد حافت عليه، والمعنى انحرف عن الغاية؛ وليس يجوز أن يكون حال الإنسان كيف كان، حال الشاة في إجابة الداعي وإبائها، فإنَّ له دواعي وموانع عقلية وحسية.

فقال الوزير: هذا أيضاً بابٌ قد مضى مُستوفى، ما الذي سمعتَ اليوم؟ فقلتُ: رأيت ابن برمويه في دعوة، وترامى الحديث فقال: رأيتُ اليومَ الوزيرَ شديدَ العُبوس، أهو هكذا أبداً، أم عَرَضَ له هذا عَلَيَّ بِخُتِي؟ فقال ابنُ جبلة: لعله كان ذاك لسبب، وإلا فالبشرُ غالبٌ عَلَيَّ وَجْهه، والبشاشةُ مألوفةٌ منه. فقال ابن برمويه: ما أَحْسَنَ ما قال الشاعر:

أخو البِشْرِ محمودٌ عَلَيَّ حُسنِ بِشْرِه
ولن يَعدَمَ البَغْضاءَ مَنْ كان عابِسا
فقال عليُّ بنُ محمد - رسولُ سِجستان - : ما أَذْرِي ما أَنْتما فِيه، ولكن يُقال: ما
أَرْضَى العُضبان، ولا استَعطَفَ السلطان، ولا مَلَكَ الإخوان؛ ولا اسْتَلَّتْ الشُّخْنا،
ولا رُفِعَت البَغْضاء؛ ولا تَوَقَّى المحذور، ولا اجْتَلَبَ السرور؛ بمثل البشر والبر،
والهدية والعطية.

وقال الوزير: هاتِ مُلْحَةَ المجلس.
فكان الجواب: قال أبو هَمَّام ذاتَ يوم: لو كان النخلُ لا يَحْمِلُ بعضُه إلا
الرُّطْب، وبعضُه إلا البُسْر، وبعضُه إلا الخلال، وكنا متى تَنَاوَلنا مِنَ الشُّمْرَاحِ بُسْرَةَ
خَلَقَ اللَّهُ مَكَانها بُسْرَتَيْنِ، ما كان بذلك بأس.

ثم قال: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، لو كُنْتُ تَمَنَيْتُ بَدَلَ نَوَاةِ التَّمْرِ زُبْدَةَ كان أَصَوَّب.
وسألَ الوزيرُ: هل يُقال في النساءِ رَجُلَةٌ؟
فكان الجواب: حَدَّثنا أبو سَعِيدِ السِّيرافِيِّ قال: كان يُقال في عائِشَةَ بنتِ أبي بكرِ
الصُّدَيْقِ رضي اللهُ عنهما: «كانت رَجُلَةً العَرَبِ»، وإنما ضاعَتْ هذه الصِّفَةُ عَلَيَّ مرَّ
الأيامِ بَعْلَبَةِ العُجْمان.

فقال: إِنَّها وَاللَّهِ لكَذَلِكَ، لقد سمعتُ مَنْ يقول: كان يُقال: لو كان لأبيها ذَكَرٌ
مِثْلها لما خَرَجَ الأمرُ منه.

قال: هل تَحْفَظُ مِنْ كلامِها شيئاً؟
فقلتُ: لها كلامٌ كثيرٌ في الشريعة، والرَّواية عنها شائعةٌ في الأحكام، ولقد
نَطَقَتْ بعد موتِ أبيها بما حَفِظَ وأذيع، لكنِّي أَحْفَظُ لها ما قالَتْهُ لَمَّا قُتِلَ عثمان:

خَرَجَتْ وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ، وَعَلِيٌّ فِيهِمْ، فَقَالَتْ: أَقْتَلُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِشْمَانَ؟
 قَالُوا: نَعَمْ، قَالَتْ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُمْ إِلَى تَسْذِيدِ الْحَقِّ وَتَأْكِيدِهِ أَحْوَجَ مِنْكُمْ إِلَى مَا
 نَهَضْتُمْ إِلَيْهِ، مِنْ طَاعَةِ مَنْ خَالَفَ عَلَيْهِ؛ وَلَكِنْ كَلِمَا زَادَكُمْ اللَّهُ صِحَّةً فِي دِينِهِ، أَزْدَدْتُمْ
 تَنَافُلًا عَنْ نُضْرَتِهِ طَمَعًا فِي دُنْيَاكُمْ، أَمَا وَاللَّهِ لَهَدْمُ النُّعْمَةِ أَيْسَرُ مِنْ بُنْيَانِهَا، وَمَا الزِّيَادَةُ
 إِلَيْكُمْ بِالشُّكْرِ، بِأَسْرَعٍ مِنْ زَوَالِ النُّعْمَةِ عَنْكُمْ بِالْكَفْرِ؛ أَمَا لئن كَانَ فِينِي أَكْلُهُ، وَاخْتِرَمَ
 أَجَلُهُ، إِنَّهُ لَصِهْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مَرَّتَيْنِ، وَمَا عَلَّمْنَا خَلْفًا
 تَرْوِجَ ابْنَتِي نَبِيَّ غَيْرِهِ؛ وَلَوْ غَيْرَ أَيْدِيكُمْ فَرَعَتْ صِفَاتِهِ لَوُجِدَ عِنْدَ تَلَطُّبِي الْحَرْبِ مَتَجَرِّدًا،
 وَلِسُيُوفِ النَّضْرِ مَتَقَلِّدًا، وَلِكُنْهَا فِتْنَةٌ فُدِحَتْ بِأَيْدِي الظُّلْمَةِ؛ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ حَاطَ الْإِسْلَامَ
 وَأَكَدَهُ، وَعَضَّدَ الدِّينَ وَأَيْدَهُ؛ وَلَقَدْ هَدَمَ اللَّهُ بِهِ صِيَاصِي أَهْلِ الشُّرْكِ، وَوَقَمَ^(١) أَرْكَانَ
 الْكُفْرِ؛ لِلَّهِ الْمُصِيبَةُ بِهِ، مَا أَفْجَعَهَا! وَالْفَجِيعَةُ بِهِ مَا أَوْجَعَهَا! صَدَعٌ وَاللَّهِ مَقْتَلُهُ صَفَاءَةُ
 الدِّينِ، وَثَلَمَتْ مُصِيبَتُهُ ذُرُوءَ الْإِسْلَامِ، تَبًّا لِقَاتِلِهِ، أَعَادَنَا اللَّهُ وَإِيَاكُمْ مِنَ التَّلْبِيسِ بِدَمِهِ،
 وَالرِّضَا بِقَتْلِهِ.

فقال الوزير: ما أفصح لسانها، وأشجع جنانها، في ذلك المخفل الذي يتبلبل
 فيه كل قفل!

وَرَوَيْتُ أَيْضًا أَنَّهَا قَالَتْ: مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ عَشْرٌ: صِدْقُ الْحَدِيثِ، وَصِدْقُ
 الْبَأْسِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ، وَبِذَلُّ الْمَعْرُوفِ، وَالتَّذَمُّمُ لِلجَارِ، وَالتَّذَمُّمُ
 لِلصَّاحِبِ، وَالمُكَافَأَةُ بِالصَّنَائِعِ، وَفِرَى الضَّيْفِ، وَرَأْسُهُنَّ الْحَيَاءُ.

فقال: والله لكانها نِعَمَاتُ النَّبِيِّ ﷺ، ما كان أشهَمَها، وأعلى نظرها، وأبين
 جوابها!!

وحدَّثني أن امرأةً تطلَّمتُ إلى مسلمٍ بن قُتَيْبَةَ بِخُرَاسَانَ، فزَبَرَهَا، وَلَمْ يَنْظُرْ فِي
 قِصَّتِهَا؛ فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَعَثَكَ إِلَى خُرَاسَانَ لِيَنْظُرَ هَلْ تَثْبُتُ خُرَاسَانَ بِأَ
 عَامِلٍ أَمْ لَا؛ فَقَالَ لَهَا مُسْلِمٌ: اسْكُتِي وَيْلَكَ، فَظَلَمْتُكَ مَسْمُوعَةً، وَحَاجَّتْكَ مَقْضِيَّةً.
 وقال مسلم: ما وَخَزَ قَلْبِي قَطُّ شَيْءٌ مِثْلُ قَوْلِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ، وَلَقَدْ آلَيْتُ الْآ أَسْتَهِينُ
 بِأَحَدٍ مِنْ دُكْرٍ أَوْ أَنْثَى.

وشبيهة بهذا قول المُعَلَّى بْنِ أَيُّوبَ: رَأَيْتُ فِي دَارِ الْمَأْمُونِ إِنْسَانًا فَازْدَرَيْتُهُ،
 فَقُلْتُ: لِأَيِّ شَيْءٍ تَصْلُحُ أَنْتِ؟ عَلَيَّ غَيْظٌ مِنِّي وَتَعْظُبُ؛ فَقَالَ: أَنَا أَصْلُحُ لِأَن يُقَالَ
 لِي: هَلْ يَصْلُحُ مِثْلُكَ لِمَا أَنْتَ فِيهِ أَوْ لَا. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا وَقَرْتُ كَلِمَتَهُ فِي أُذُنِي حَتَّى
 أَظْلَمَ عَلَيَّ الْجَوْ وَنَكِرْتُ نَفْسِي.

(١) كسر وأذل.

وكان عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ إِذَا كَانَ لَهُ خَصِيٌّ وَضِيءٌ أَمَرَ أَنْ يُحَجَّبَ عَنْ نِسَائِهِ، وَقَالَ: هُوَ رَجُلٌ وَإِنْ قُطِعَ مِنْهُ مَا قُطِعَ، وَرَبِّمَا اجْتَزَّاتِ امْرَأَةٌ بِمِثْلِهَا، وَلِلْعَيْنِ حَظُّهَا.

قال عبد الرحمن بن سعيد القرشي: كان لهشام بن عبد الملك خصي يقال له خالد، وكان وضيئاً تأخذه العين، مديد القامة، فخمأً أبيض، فأمر هشام مسلماً بالغدو عليه، فغداً، فقليل: استأذن لأخي أمير المؤمنين عليه، فاستخف وقال كلمة سمعها مسلماً، فحقدما عليه، فلما دخل مسلماً إلى هشام لم يزل يذكركه شيئاً، ويشير عليه حتى حط عن فريشه وجلسا على البساط ومسلماً في ذلك يزُمُّ الخصي متى يمرُّ به، فلم يلبث أن مرَّ مَعَمَّاً بِعِمَامَةٍ وَشِيءٍ؛ فقال مسلماً: يا أمير المؤمنين، أيُّ فتياننا هذا؟ قال: غفر الله لك يا أبا سغد، هذا خالد الخصي؛ قال: فقال: يا أمير المؤمنين، لَصَمَّةٌ مِنْ هَذَا خَيْرٌ مِنْ مُجَامَعَةِ رَجُلٍ، فَقَلِقَ هِشَامٌ وَجَعَلَ يَتَصَوَّرُ حَتَّى قَامَ مَسْلَمَةً، ثُمَّ أَمَرَ بِالْخَادِمِ فَأَخْرَجَ مِنَ الرُّصَافَةِ، فَاتَّصَلَ بِبَعْضِ بَنِيهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ هِشَامٌ: إِنِّي نَحَيْتُهُ لِمَا بَلَغَكَ، فَجَفَاهُ، فَلِحَقِّ الْخَادِمِ بِالثَّغْرِ.

وَجَرَى حَدِيثُ النَّفْسِ وَأَنَّهَا كَيْفَ تَعَلَّمُ الْأَشْيَاءَ.

فقليل: النفس في الأصل علامة، والعلم صورته؛ لكتها لما لابست البدن، وصار البدن بها إنساناً، اعترضت حجب بينها وبين صورتها كثيفة ولطيفة، فصارت تحرق الحجب بكل ما استطاعت لتصل إلى ما لها من غيبها، فصارت تعلم الماضي بالاستخبار والتعرف والبحث والمسألة والتنقيح، وتعلم الآتي بالتلقي والتوكف والتبشير والإنذار، وتعلم الحاضر بالتعارف والمشاهدة ومجال الحس؛ وهذه المغلومات كلها زمانية، ولهذا انقسم بين الماضي والآتي والحاضر.

فأما ما هو فوق الزمان فإنها تعلمه بالمصادفة الخارجة من الزمان، العالية على حصر الدهر، وهذه عبارة عن وجدانها، لما لها في غيبها بالحركة اللائقة بها، أعني الحركة التي هي في نوع السكون، وأعني بهذا السكون الذي هو في نوع الحركة؛ ولما فقد الاسم الخاص بهذا المعنى، ولم يعرف في الأخبار والاستخبار إلا ما كان مألوفاً بالزمان، التبتت العبارة عنه باعتماد السكون فيما يلحظ منه الحركة، واعتماد الحركة فيما يلحظ منه السكون، فصار هذا الجزء كأنه ناقص ومنقوض، وهذا لجذب محل الحس من ثبت العقل، وخضب مراد العقل بكل ما علق بالموجود الحق.

فقال الوزير: ما أعلى نجد هذا الكلام! وما أعمق غوره! وإنني لأعذر كل من قابل هذا المسموع بالرد، واعترض على قائله بالتكبر؛ ولعمري إذا تعانت الأشياء بالأسماء والصفات، وعرض العجز عن إبانيتها بحقائق الألقاب، حاز العقل الإنساني، وحير الفهم الحسي، واستحال المزاج البشري وتهافت التركيب الطيني، وقدر الناظر

في هذا الفن، والباحث عن هذا المستكن، أنه حالم، وأن الحلم لا ثمرة له، ولا جدوى منه.

وهذا كله هكذا ما دام مقيساً إلى الأمور القائمة بشهادة الإحساس؛ فأمّا إذا صفا الناظر - أعني ناظر العقل - من قذى الحس، فإن المطلوب يكون حاضراً أكثر مما يكون غيره ظاهراً مستباناً؛ وليست شهادة العبد كشهادة المولى، ولا نور السهى كنور القمر.

قال: أنشدني أبياتاً غريبةً جزلة.

فأنشدت لهذبة العذري:

وصيحَ برنعانِ الشَّبَابِ فَنُفِّرَا
بِنا وَزَمانَ عُرْفِهِ قَدْ تَنَكَّرَا
تَسَهَّلَ مِنْ أَرْكانِهِ ما تَوَعَّرَا
عَلِينا فَإِنَّ اللّهُ ما شاءَ يَسِّرَا
مُلوكَ بَنِي نَضْرٍ وَكِسْرَى وَقِيصْرَا
فَأَعْيَا مَداهُ عَنِ مَدايِ فَأَقْصِرَا
بَرِيْبٍ ما تُشويِ الحواذِثُ مَعَشِرَا
ولا جَزيعَ إِنْ كانَ دَهْرٌ تَعْيِرَا

ساوي إلى خيرٍ فقد فاتني الصبا
أمورٌ وألوانٌ وحالٌ تَقَلَّبَتْ
أصَبْنَا بما لو أن سلمى أصابه
وإن نثجَ من أهوالٍ ما خاف قومنا
وإن غالنا دهرٌ فقد غال قبلنا
وذي نيربٍ قد عابني لينا لني
فإن يك دهرٌ نالني فأصابني
فلست إذا الضراء نابت بجبياً

فقيل: ما الجبأ؟ فقال: الجبان.

قال أبو سعيد: حكى العلماء أن فلاناً جبأ، إذا نكل.

فقال: ما أمتن هذا الكلام، وألطف هذا الجدد! وما أبعدته من تليق الضرورة،

وهجنة التكلف، لولا أن سامعه رُبما تطير به، وانكسر عليه.

فكان الجواب: قد مر في الفأل والزجر والطيرة والاعتیاف ما إذا تحقق لم يعج على مثل هذا الاستشعار؛ ولعمري إن المذکور والمسموع إذا كان حسناً وجميلاً ومحبوباً ومتمنى، كان أحف على القلب، وأخلط بالنفس، وأعبت بالروح؛ وكذلك إذا كان ذلك على الضد، فإنه يكون أزوى للوجه، وأكثر للنفس؛ ولكن الأمور في الخيرات والشؤون ليست فاشية من الطيرة والعيافة، ولا جارية على هذه الحدود المعروفة، وهي على مقاصدها التي هي غاياتها، ومتوجهاً التي هي نهاياتها؛ وإنما هذه الأخلاق عارضة للنساء وأشباه النساء، ومن بينهن ضعيفة، ومادته من العقل طفيفة، وعادته الجارية سخيفة؛ وإلا فبأي برهان صح أن الكلام الطيب يجلب المحبوب ويكون علة له؟! وأن اللفظ الخبيث يجلب المكروه ويكون علة له؟! هذا خور في طباع قائله، وتأنث في عنصر مستشعره؛ ولو سلك العلماء والبصراء هذا الطريق في كل حال وفي كل أمر لأدى ذلك إلى فساد عام؛ وآثر ما في هذه القصة أن

الإنسانَ إنْ أعجَبَه شيءٌ من هذا لا يُعوَّلُ عليه، وإن ساء منه شيءٌ لا يَحْطُ إليه، بل يكون تَوَكَّلَهُ عَلَى رَبِّهِ فِي مَسَرَّتِهِ وَمَسَاءَتِهِ، أَكْثَرَ مِنْ تَفَرُّدِهِ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، فِي اخْتِيَارِهِ وَتَكْرَهُهِ، وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى عَقْلِ رَاصِنٍ، وَهَمَّةٍ صَاعِدَةٍ، وَشَكِيمَةٍ شَدِيدَةٍ، وَلَيْسَ يَوْجَدُ هَذَا عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ، وَلَا يُصَابُ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ.

فقال الوزير: قد أخذت المسألة بحقها، والمستزيد منها ظالم، والزائد عليها متكلف.

وقال أيضاً: أريد أن أسألك عن ابن فارس أبي الفتح - فقد كنت عنده بقرميسين أياماً - وما وضح لك من تقدمه وتأخره في صناعته وبضاعته؟

فكان من الجواب: إنه شيخٌ فيه محاسنٌ ومساوئٌ، إلا أن الرجحانَ لما يَدُمُّ به لا لِمَا يُحْمَدُ عليه، فمن ذلك أن له خبرةً بالتصرف، وهناك أيضاً قسطنٌ من العلم بأوائل الهندسة، وتشبهه بأصحابِ البلاغة، ومُذَاكَرَةٌ فِي المَحَافِلِ صَالِحَةٌ؛ إِلَّا أَنَّ هَذَا كُلَّهُ مَزْدُودٌ بِالرَّعُونَةِ وَالْمَكْرِ وَالإِيْهَامِ وَالخِيسَةِ وَالْكَذْبِ وَالغِيْبَةِ؛ وَقَدْ كَانَ قَرِيْبُهُ بِقَرْمِيْسِيْنَ يَظُنُّ بِهِ خَيْرًا، وَيَلْحَظُهُ بَعِيْنَ مَا؛ فَلَمَّا سَبَّرَهُ ذَمُّهُ وَكَرَهُ أَنْ يُعَاجِلَهُ بِالصَّرْفِ لثَلَا يُحْكَمَ عَلَى اخْتِيَارِهِ بِالْخَطَا، وَعَلَى تَصَرُّفِهِ بِالْهَوَى. وَلِلْكَبْرَاءِ وَذَوِي الْقُدْرَةِ زَلَّاتٌ فَاحِشَةٌ، وَقَعَلَاتٌ مُوْجِشَةٌ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُمْ عَلَيْهَا مَعِيْرٌ لِلْخَوْفِ مِنْهُمْ؛ فَلَمَّا تَمَادَى قَلِيْلًا وَجَّهَ ابْنَ وَصِيْفٍ حَتَّى صَرَفَهُ وَقَيَّدَهُ بَعْدَ مَا وَبَّخَهُ وَقَيَّدَهُ وَهِيَ هِيَ هَذَا الْقِيَمِيُّ هَهُنَا لَا يُقْبَلُ بِقَبْضَةٍ، وَلَا يُلْتَقَتُ إِلَيْهِ بِلِحْظَةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ يَظُنُّ أَنَّ قَفَرَ الدَّوْلَةَ إِلَى نَظَرِهِ كَقَفْرِ الْمُدْتَفِّبِ إِلَى عَافِيَّتِهِ.

وله مع طاهر بن محمد بن إبراهيم شرار وقببة، وتنديد وشنعة.

وحدثني ابن أحمد أمس أن ابن فارس شارح في أمور خبيثة، وعازم على أشياء قبيحة، ومضرب بين أقوام ضمنتهم الألفة، واستحكمت بينهم الثقة، وخلصوا حافظة للدولة، وحرصاً للنعمة، وعلموا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وما أخوفني على إخواننا الذين بهم عذب شربنا، وأمن سربنا، كفانا الله فيهم وكفاهم فينا كل مكره.

فقال: هو أضيئ مبعراً، وأقماً منظراً، وأذل ناصراً من ذاك؛ والله لو نفخت عليه لطار، ولو هممت به لبار.

وأما ما قلت لي أيها الشيخ إنه ينبغي أن تكتب رسالتك إلى الوزير، حتى أقف على مقاصدك فيها، وأستبين براعتك وترتيبك بها؛ فأنا أفعل ذلك في هذه الوردات، ولم أكتب في طول هذه المدة مع هذه الأحوال العجيبة إلا رقتين ورسالتين؛ فأما الرقعة الواحدة فإنها تضمنت حديث الخادم وما عزم عليه، وقد شافهتُك به؛ وأما الأخرى فحوت حديث ابن طاهر وصاحب الرصافة، وقد سمعته مني.

رسالتان كتب بهما المؤلف إلى الوزير

أما الرسالة الأولى :

بسم الله الرحمن الرحيم: اللهم حلني بالتوفيق، وأيدني بالنصرة، واقرن منطقي بالسداد، واجعل لي من الوزير وزير الممالك عقيب فارجة من الغم، وخاتمة موصولة بالنجاح، فإنك على ذلك قدير، وبالإجابة جدير.

كنت وصلت إلى مجلس الوزير، وفزت بالشرف منه، وخدمت دولته، وعلاه من صدري بخبيته، ومن فؤادي بمحيضته، وتصرفت من الحديث بإذنه في شجونيه وفئونيه، كل ذلك آملاً في جدوى أخذها، وحظوة أحظى بها، وزلفى أميس معها، ومثالة أخصد عليها؛ فتقبل ذلك كله، ووعد عليه خيراً ولم يزل أهله، وانقلبت إلى أهلي مسروراً بوجه مسفر، ومحيياً طلق، وطرف عازم، وأمل قد سد ما بين أفي العراق إلى صنعاء اليمن، حتى إذا قلت للنفس: هذا معان الوزير ومعمره، وجنابه ومعصره، فانشرحي مستفتحة، وتيمني مقترحة، واطمئني راضية مرضية، لا كدره الشرب، ولا مذعورة الشرب، حصلت من ذلك الوعد والضمان، على بعض فعلات الزمان؛ ولا عجب في ذلك من الزمان فهو بمثله مليء، وله فقول. وبقيت محمولاً بيني وبين إذاره - قرن الله ساعاته بسعادته، ووصل عز يومه بسعادة غده؛ وغده بامتداد يده - حيران لا أريش ولا أبري، ثم رفعت ناظري، وسدذت خاطري، وفضلت الحساب لي وعلي؛ فوضح العذر المبين، المانع من استزادة المستزيدين، وذلك أني رأيت أعباء الوزارة تؤود سره، وتثعب باله، والمملكة تفرع ولهي عليه، وتلقي بجزائنها له بين يديه، والدولة تستمدده التدبير الثاقب، والرأي الصائب، سوى أمور في خلاف ذلك لا يحزرها رسم راسم، ولا يقررها قسم قاسم، ولا يخويها وهم واهم، ولا يفوز بها سهم مساهم، وهو يخطر في حواشي هذه الأحوال، متأبطاً بواهب الانتقال، مفتتحاً عويص الأفعال، سامي الطرف، فسيح الصدر، بساماً على العلات، غير مكترث بهاك وهات، يتلقى ما أعيا من ذلك باللي، وما أشكل بالإيضاح، وما عسر بالتدبير، وما فسد بالإصلاح، وما أرق بالعنق، وما خرق بالرثق، وما خفي بالتكشيف، وما بدأ بالتصريف، وما أود بالتثقيف، وما لبس

بالتعريف، حتى أجمع على هواه قاصيها ودانيها، وجري على مراده خافيها وباديها، واستجاب لأمره أبيها ومقتادها، وأتلف بلفظه نادرها ومعتادها؛ فلما تيقنت ذلك كله وقتلته خبراً، أمسكت عن إذكاره - نفس الله مدته - سالف عهده، ومتقدم وعده، عالماً بأن أسرها مرعي عنده في صدر الكرم، ومكتوب لديه في صحيفة المجد، وثابت قبلة في ديوان الحسنى.

ولكن كان ذلك الامتنان على رغم مني، لأنني قتلت في أثنائه بين جنبي قلباً مغرور الرجاء، ومثزور العزاء، على عوارض لم تسنح في خلدي، ولم أعقد على شيء منها يدي.

فالحمد لله الذي جعل معاذي إلى الوزير الكريم، البر الرحيم، والمئة لله الذي جعلني من عفاة جوده، وناشئة عرفه، ووارد عده، وقادحي زنده، ومفتسي نوره، ومضطلي ناره، وحاملي نعمته، وطالبي خدمته، وجعل خاصتي وخالصتي من بينهم راوية مناقبه باللسان الأبين، ونشر فضائله بالثناء الأحسن، وذكر آلائه باللفظ الأفصح، والاحتياج لسداد آرائه بالمعنى الأوضح؛ فلا زال الوزير - وزير الممالك - ممدوحاً في أطوار الأرض على ألسنة الأدباء والحكماء، وفي نوادي الرؤساء والعظماء، ما أب آتب، وغاب غائب، بمنه ولطفه.

قد ناديت الوزير حياً سامعاً، وخيراً جامعاً، وهزئت منه صارماً قاطعاً وشهاباً ساطعاً، واستسقيت من كرمه سحاباً هاطلاً، ونفاخاً سائلاً، وأسأله أن يجنبي مرارة الخيبة، وحسرة الإخفاق، وعذاب التسويف، فقد تلطفت بالسخر الحلال، والعذب الزلال، جهد المقل المحتال، وهو أولى بمجده، في تذيير عبده، إن شاء الله تعالى.

هذا آخر الرسالة الأولى.

وحضر وصولها إليه بهرام - لعنه الله - وتكلم بما يشبه ندالته وخسسته وتثن نيته، فما كنت آمنه؛ وما أشد إشفاعي على هذا الوزير الخطير من شؤم ناصية بهرام، وغل صدره، وقلة نصيحته، ولوم طبيعه، وخبث أصله، وسقوط فرعه، ودمامة منظره، ولامة مخبره؛ حرس الله العباد من شره، وطهر البلاد من غره وضره.

وأما الرسالة الثانية فهي التي كانت في هذه الأيام بعد استئذاني إياه في المخاطبة بالكاف، حتى يجري الكلام على سنن الاسترسال، ولا يعثر في طريق الكتابة بما يراحم عليه من اللفظ واللفظ؛ وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم. أيها الوزير، جعل الله أقدار دهرك جارية على تحكّم أمالك، ووصل توفيقه بمبالغ مرادك في أقوالك وأفعالك، ومكنك من نواصي أعدائك، وثبت أواخي دولتك على ما في نفوس أوليائك.

يَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ رَأْيًا ثَابِتًا، وَنُضْحًا حَاضِرًا، وَتَنْبَهُا نَافِعًا، أَنْ يَخْدُمَكَ مُتَحَرِّيًا لِرُسُوحِ دَعَائِمِ الْمَمْلُوكَةِ بِسِيَاسَتِكَ وَرِيَادَتِكَ، قَاضِيًا بِذَلِكَ حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي تَقْوِيَتِكَ وَحِيَاطَتِكَ. وَإِنِّي أَرَى عَلَى بَابِكَ جَمَاعَةً لَيْسَ بِالكَثِيرَةِ - وَلَعَلَّهَا دُونَ الْعَشْرَةِ - يُؤَثِّرُونَ لِقَاءَكَ وَالْوُصُولَ إِلَيْكَ لَمَّا تُجِنُّ صُدُورُهُمْ مِنَ النَّصَائِحِ النَّافِعَةِ، وَالْبَلَاجَاتِ الْمُجَدِّيَةِ، وَالذَّلَالَاتِ الْمُفِيدَةِ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُمْ إِذَا أَهْلُوا لَذَلِكَ فَقَدْ قَضَوْا حَقَّكَ، وَأَدَّوْا مَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ مِنْ حُرْمَتِكَ، وَبَلَّغُوا بِذَلِكَ مُرَادَهُمْ مِنْ تَفْضِيلِكَ وَاصْطِنَاعِكَ، وَتَقْدِيمِكَ وَتَكْرِيمِكَ؛ وَالْحِجَابُ قَدْ حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَكَ، وَلِكُلِّ مِنْهُمْ وَسِيلَةٌ شَافِعَةٌ، وَخِدْمَةٌ لِلخَيْرَاتِ جَامِعَةٌ؛ مِنْهُمْ - وَهُوَ أَهْلُ الْوَفَاءِ - دَوُو كِفَايَةٍ وَأَمَانَةٍ، وَنَبَاهَةٍ وَلَبَاقَةٍ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَصْلُحُ لِلْعَمَلِ الْجَلِيلِ، وَلِرِثْقِ الْفَتْقِ الْعَظِيمِ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يُمْتِعُ إِذَا نَادَمَ، وَيَشْكُرُ إِذَا اصْطَنَعَ، وَيَبْذُلُ الْمَجْهُودَ إِذَا رُفِعَ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظِمُ الدُّرَّ إِذَا مَدَحَ، وَيُضْحِكُ التُّغْرَ إِذَا مَزَحَ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ قَعَدَ بِهِ الدَّهْرُ لِسِنِّهِ الْعَالِيَةِ، وَجَلَابِيْبِهِ الْبَالِيَةِ، فَهُوَ مَوْضِعُ الْأَجْرِ الْمَذْخُورِ، وَنَاطِقُ الشُّكْرِ الْمَنْظُومِ وَالْمَثُورِ؛ وَمِنْهُمْ طَائِفَةٌ أُخْرَى قَدْ عَكَفُوا فِي بُيُوتِهِمْ عَلَى مَا يَعْنِيهِمْ مِنْ أَحْوَالِ أَنْفُسِهِمْ، فِي تَرْجِيَةِ عَيْشِهِمْ، وَعِمَارَةِ آخِرَتِهِمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ خِصَاصَةِ مَرَّةٍ، وَمُؤْنِ غَلِيظَةٍ، وَحَاجَاتٍ مُتَوَالِيَةٍ؛ وَلَهُمُ الْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ وَالْبَيَانُ وَالتَّجْرِبَةُ، وَلَوْ وَفَّقُوا بِأَنْفُسِهِمْ إِذَا عَرَضُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْكَ، وَجَهَّزُوا مَا مَعَهُمْ مِنَ الْأَدَبِ وَالْفَضْلِ إِلَيْكَ حَظُّوا مِنْكَ، وَاعْتَزُّوا بِكَ، لِحَضْرُوا بِبَابِكَ، وَجَشِمُوا الْمَشَقَّةَ إِلَيْكَ؛ لَكِنَّ الْيَأْسَ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ، وَضَعُفَتْ مُنْتَهُمُ، وَعَكِيسَ أَمْلَهُمْ، وَرَأَوْا أَنَّ سَفْ التَّرَابِ، أَخْفُ مِنَ الْوُقُوفِ عَلَى الْأَبْوَابِ، إِذَا دَنَوْا مِنْهَا دُفِعُوا عَنْهَا؛ فَلَوْ لَحَظَّتْ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ بِفَضْلِكَ، وَأَذْنَيْتَهُمْ بِسَعَةِ دَرْعِكَ وَكَرَمِ خِيَمِكَ، وَأَضْعَيْتِ إِلَى مَقَالَتِهِمْ بِسَمْعِكَ، وَقَابَلْتَهُمْ بِمِلءِ عَيْنِكَ، كَانَ فِي ذَلِكَ بَقَاءٌ لِلنَّعْمَةِ عَلَيْكَ، وَصِيَّتٌ فَاشٌ بِذِكْرِكَ، وَثَوَابٌ مُؤَجَّلٌ فِي صَحِيفَتِكَ، وَثَنَاءٌ مَعْجَلٌ عِنْدَ قَرِيْبِكَ وَبِعَيْدِكَ؛ وَالْأَيَّامُ مَعْرُوفَةٌ بِالتَّقَلُّبِ، وَاللَّيَالِي مَاجِضَةٌ بِمَا يَتَعَجَّبُ مِنْهُ ذُو اللَّبِّ، وَالْمَجْدُودُ مَنْ جُدَّ فِي جَدِّهِ، أَعْنِي مَنْ كَانَ جَدُّهُ فِي الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِحُظِّهِ مِنَ الْآخِرَةِ، وَلَأَنَّ يُوكَلُ الْعَاقِلُ بِالْإِعْتِبَارِ بِغَيْرِهِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُوكَلُ غَيْرُهُ بِالْإِعْتِبَارِ بِهِ.

أَيُّهَا الْوَزِيرُ، اصْطِنَاعُ الرِّجَالِ صِنَاعَةٌ قَائِمَةٌ بِرَأْسِهَا، قَلَّ مَنْ يَفِي بِرَبِّهَا^(١)، أَوْ يَتَأْتَى لَهَا، أَوْ يَعْرِفُ حَلَاوَتَهَا، وَهِيَ غَيْرُ الْكِتَابَةِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْبَلَغَةِ وَالْحِسَابِ.

وَسَمِعْتُ ابْنَ سُورِينَ يَقُولُ: آخِرُ مَنْ شَاهَدْنَا مَمَّنْ عَرَفَ الْإِصْطِنَاعَ، وَاسْتَحْلَى الصَّنَاعَ، وَارْتَاخَ لِلذُّكْرِ الطَّيِّبِ، وَاهْتَزَّ لِلْمَدِيحِ، وَطَرِبَ عَلَى نَعْمَةِ السَّائِلِ، وَاعْتَمَمَ خَلَّةَ الْمُحْتَاجِ، وَانْتَهَبَ الْكَرَمَ انْتِهَابًا، وَالتَّهَبَ فِي عِشْقِ الثَّنَاءِ انْتِهَابًا، أَبُو مُحَمَّدٍ

(١) يقال: رب الصنعة يربها - بضم الراء - إذا نماها وتعهدها.

المُهَلَّبِي، فإنه قَدَّمَ قَوْمًا ونَوَّه بهم، ونَبَّه على فضلهم وأخَوَّجَ الناظرين في أمرِ المُلْكِ إليهم، وإلى كفايتهم، منهم أبو الفضل العباسُ بنُ الحسين، ومنهم ابنُ معروف القاضي، ومنهم أبو عبد الله اليُفْرَنِي، ومنهم أبو إسحاق الصابئ، وأبو الخطاب الصابئ، ومنهم أحمد الطويل، ومنهم أبو العلاء صاعد، ومنهم أبو أحمد ابن الهيثم، وابنُ حَفْص صاحبُ الديوان، وفلان وفلان، هؤلاء إلى غير هؤلاء، كأبي تمام الزينبي، وأبي بكر الزهري، وابن قريعة، وأبي حامد المَرُورُوذِي، وأبي عبد الله البصري، وأبي سعيد السيرافي، وأبي محمد الفارسي، وابن دُرُسْتُويه، وابن البقال، والسري، ومن لا يُحصى كثرة من التجارِ والعُدول.

وقال لي ابنُ سُورين: كان أبو محمد يَطْرُبُ على اصطناع الرِّجال كما يَطْرُبُ سامعُ الغناء على الشَّبابير، ويَزْتاحُ كما يَزْتاحُ مُديرُ الكأس على العشائر. وقال عنه: إنَّه قال: واللَّه لأكوننَّ في دولة الدَّيلم، أولَ مَنْ يُذْكَر، إنَّ فاتني أنْ كنتُ في دَوْلَةِ بني العباسِ آخِرَ مَنْ يُذْكَر.

فلولا أنَّكَ - أدامَ اللهُ دَوْلَتَكَ - أذِنْتَ لي أنْ أَكْتُبَ إليك كلَّ ما هَجَسَ في النفس، وطلَّعَ به الرأْيُ ممَّا فيه مرَدُّ على ما أنْتَ فيه من هذا الثُّقلِ الباهظ، وتنبَّيه على ما تُباشِرُه بكاهلِكَ الضَّخْم، لم يَكُنْ خَطَرِي يَبْلُغُ مُوَجَهَتِكَ بلفظٍ يثقل، وإشارةً تَغْلُظُ، وكنايةً تُخَدِّشُ، لكنَّكَ - واللَّه يأخُذُ بيدِكَ، ويَقْرِنُ الصنْعَ الجميلَ بظاهرك وباطنك - قد رَخَّصْتَ لي في ذلك، وخصَّصْتَنِي به من بين غاشيةِ بابك، وخدمَ دَوْلَتِكَ، فلذلك أقولُ ما أقولُ معتمداً على حُسنِ تَقَبُّلِكَ، وجميلِ تَكْفُلِكَ، ومُنْتَظَرِ تَفَضُّلِكَ؛ وليس في أبوابِ السِّياسةِ شيءٌ أجْدَى وأنْفَع، وأنْفَى للفسادِ وأقمع، من الاعتبارِ الموقِظِ للنفس، الباعثِ على أخذِ الحَزْم، وتجريدِ العَزْم؛ فإنَّ الوِكَالَ والهَوَيْنَا قلَّما يُفْضِيانِ بصاحبِهِما إلى دَرْكٍ مأمول، وتيَلٍ مراد، وإصابة مُتَمَتِّي. وقد قال رجلٌ كبيرٌ الحكمة، مَعْرُوفُ الحُنْكَة: المُعْتَبَرُ كثير، والمعتبرِ قليل. وصدَّقَ هذا الرُّجُلُ الصالح، وهو الحسنُ البصري.

لو اعتَبَرَ من تأخَّرَ بمن تقدَّم، لم يَكُنْ من يتَحَسَّرُ في الناسِ ويَنْدَم، ولكنَّ اللهُ بَنَى هذه الدارَ على أن يكونَ أهلُها بينَ يَقْظَةٍ ونوم، وبينَ فَرَحٍ وتَرْح، وبينَ حَيْطَةِ وورْظَةٍ، وبينَ حَزْمٍ وغَفْلَةٍ، وبينَ نِزَاعٍ وسلوَةٍ، لكنَّ الأَخْذَ بالحَزْم - وإن جَرَى عليه مَكْرُوه - أعْذَرُ عندَ نَفْسِهِ وعند كلِّ مَنْ كان في مَسْكِهِ، مِنَ المُلقِي بيده، والمُتَدَلِّي بَعْرُورِهِ، الساعِي في نُبوْرِهِ؛ وما وهَبَ اللهُ العَقْلَ لأَحَدٍ إلا وقد عَرَّضَهُ للتَّجاة، ولا حَلَّاهُ بالعلمِ إلا وقد دَعاهُ إلى العَمَلِ بشرائطه، ولا هداهُ الطريقتين (أعني العَيِّ والرُّشد) إلا ليُزَحَفَ إلى أحدهما بحُسنِ الاختيار.

هذا بالأمنس أبو الفضل العباس بن الحسين الوزير - وهو في وزارته وبسطة أمره ونهيه - قيل له ذات يوم: هذا التركي ساسنكر تقياً بظله، واعتصم بحبله، واستسق بسجله، وارتو من سوره، ولا يبلغه عنك، ما يوحشه منك، ويخفيه عليك. وقد قيل:

اسجُدْ لِقِرْدِ السُّوءِ فِي زَمَانِهِ

وإذا لم تقدر على قطع يد جائرة، فقبلها متهمة منجدة غائرة. فلم يفعل، حتى وجد أعداؤه طريقاً إليه، فسلكوه وأوقعوه.

ثم قيل له في الوزارة الثانية: قد دُفِتَ مَرَارَةَ النُّكْبَةِ، وَتَحَرَّقَتْ بِنَارِ الشَّمَاتَةِ، وَتَأَرَّقَتْ عَلَى فِرَطَاتِ الْعَجْزِ وَالْفَسَالَةِ، وَقَدْ كَانَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ مَا كَانَ، وَدَارَ لَكَ بِمَا تَمَيَّنْتَ الزَّمَانَ؛ فَاَنْظُرْ أَيْنَ تَضَعُ الْآنَ قَدَمَكَ، وَبِأَيِّ شَيْءٍ تُدِيرُ لِسَانَكَ وَقَلَمَكَ، فَإِنَّ مُحَلِّصَكَ مِنْ وَرَطَّتِكَ بِالْمِرْصَادِ، وَقَدْ وَعَدْتِ مِنْ نَفْسِكَ إِنْ أَعَادَ اللَّهُ يَدَكَ إِلَى الْبَسْطَةِ، وَرَدَّ حَالَكَ إِلَى السَّرُورِ وَالْغَيْبَةِ، أَنَّكَ تُجْمِلُ الْمَعَامِلَةَ، وَتَنْسَى الْمَقَابِلَةَ، وَتَلْقَى وَلِيَّكَ وَعَدُوَّكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى هَذَا، وَالْكَفِّ عَنْ هَذَا، حَتَّى يَتَسَاوَىا بِنَظَرِكَ، وَيَتَعَبَّدَا لَكَ بِتَفَضُّلِكَ.

فكان من جوابه ما دلَّ على عتوه وثباته، لأنه قال: أَمَا سَمِعْتُمُ اللَّهَ تَعَالَى حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال لي القومسي - ولم يعلم ما في فخوى هذا الكلام -: ما ذاك؟ قلت: فحواه ولو عادوا إلى ما نهوا عنه لعدنا إلى مقابلتهم بما استحقوا عليه.

وصدق ما قال الله عزَّ وجلَّ، ما لبيك ذلك الإنسان بعد هذا الكلام إلا قليلاً حتى أوردته ولم يصدِّره، وأغتره ولم يُنعشه، وسلم إلى عدوه حتى استلَّ رُوْحَهُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ، شَافِيَاً بِهِ وَمُشْتَفِيَاً مِنْهُ، وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ خُسْرًا، وَلَوْ اتَّقَى اللَّهُ لَكَانَ آخِرُ أَمْرِهِ يُسْرًا. واللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وهذا بغده محمد بن بَقِيَّةَ طَعَى وَبَعَى، وَاقْتَحَمَ ظِلْمَاتِ الظُّلْمِ وَالْعَسْفِ، وَطَارَ بِجَنَاحِ اللَّهْوِ وَالْعَزْفِ، وَالشُّرْبِ وَالْقَضْفِ، وَمَلَّ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَضَلَّ بَيْنَ إِمْهَالِ اللَّهِ وَإِمْلَاتِهِ، فَحَاقَ بِهِ مَا ذَهَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَمَالُهُ، وَخُرَّبَ بَيْتُهُ، وَافْتَضَّحَ أَهْلُهُ، وَكَيْفَ كَانَ يَسْلَمُ؟ أَمْ كَيْفَ كَانَ يَنْجُو وَقَدْ قَتَلَ ابْنَ السَّرَّاجِ بِلَا ذَنْبٍ، وَالْجَرْجَرَانِيَّ بِلَا حِجَّةٍ، وَضَرَبَ ابْنَ مَعْرُوفٍ بِالسِّيَاطِ وَأَبَا الْقَاسِمِ - أَخَا أَبِي مُحَمَّدِ الْقَاضِي - وَشَهْرَهُ عَلَى جَمَلٍ فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ؟!!

والتَّشْفِيَّ حُلُوَ الْعَلَانِيَةِ، وَلَكِنَّهُ مُرُّ الْعَاقِبَةِ، وَكَأَنَّ الْحَفِيظَةَ إِنَّمَا خُلِقَتْ لِتُعْتَقَدَ، وَالْحَقْدَ إِنَّمَا وَجِدَ يُبْلَغُ بِهِ مَا يَسُرُّ الشَّيْطَانَ.

وكانَّ العفو حراماً، والكظم محظوراً، والمكافأة مأموراً بها.
وهذا بالأُمسِ عليُّ بنُ محمد ذو الكفائتين، اغترَّ بشبابه، ولها عن الحزَمِ
والأخذ به فيما كان أولى به، وظَنَّ أَنَّ كِفَايَتَهُ تَحْفَظُهُ، ونَسَبَهُ مِنْ أَبِيهِ يَكْنُفُهُ، وبراءتَه
تَحْتَجُّ لَه، وذنوبه الصغيرة تُعْتَفَر؛ لبلائه المذكور، وغناؤه المشهور؛ ومشى فعثر،
وراب فخر، والأول يقول:

مَنْ سَابَقَ الدَّهْرَ كَبَا كَبْوَةً لَمْ يَسْتَقِلِّهَا آخِرَ الدَّهْرِ
فَاخْطُ مَعَ الدَّهْرِ إِذَا مَا خَطَا وَاجْرِمَ مَعَ الدَّهْرِ كَمَا يَجْرِي

وقال لي الخليل - وكان لطيف المحلِّ عنده، لما كان يرى من اختصاص أبيه
له، ولما يظهر من فضله عنده - قلت له يوماً: يا هذا، في أي شيء أنت؟! وبأي
شيء تعلق؟! وقد شجذت المَوَاسِي، وحُدِّدت الأنياب، وفُتِلت المرائر، ونُصِبَت
الفيخاخ، والعيونُ مُحَدَّقَةٌ نحو القطيعة، والأعناقُ صُورٌ إلى الفطِيعَة، وأنت لاهٍ ساهٍ
عما يُرادُ بك بعدُ؛ يسبيك هذا المزرفن وهذا المرخي وهذا المعرض^(١)، وهذا
الحليق، وهذا الثئيف، وهذا المعقربُ الصُدغ، وهذا المصفوف الطرة، وبالكَاسِ
والطاس، والغناء والقصف، والناي والعود، والصَّبُوح والغُبُوق، والشراب المُرُوق
العتيق؛ واللَّه ما أذري ما أضنع، إن سَكَتُ عنك كَمَدْتُ، وإن نَصَحْتُكَ خِفْتُ
منك؛ ونَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ اشْتِبَاهِ الرَّأْيِ، واشْتِبَاكِ الأَمْرِ، وَقِلَّةِ الاحْتِرَاسِ، والإِعْرَاضِ
عما يجري من أفواه الناس.

يا هذا، سوء الاستمساك خيراً من حُسنِ الصَّرعة، وتَلَقَّى الأمرِ بالحزم والشهامة
أولى من استبداره بالحسرة والتدامة، ومن لا تَجْرِبَةَ لَهُ يَفْتَبِسُ مِمَّنْ لَهُ تَجْرِبَةٌ، فإذا نَقِبَ
الخُفُّ دَمِي الأظَلِّ.

فقال: قد فرغَ اللهُ مما هو كائن، وإذا جاءَ أجْلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ولا
يَسْتَفْدِمُونَ.

قال: قلت له: ما أطلعَكَ اللهُ على كائنات الأمور، ولا أعلمَكَ بعواقب
الأحوال، وإنما عَرَفَكَ حَظَّكَ بَعْدَ أَنْ وَفَّرَ عَقْلَكَ، وَأخْضَرَكَ اسْتَطَاعَتَكَ، وَأَوْضَحَ
لِقَلْبِكَ ما عَلَيْكَ وَلَكَ، حَتَّى يَسْتَشِفَّ وَيَسْتَكْشِفَ، وَمَلَكَكَ التَّوَاصِي حَتَّى تَمُنَّ
وَتُرْسِلَ، وما طالَبَكَ إلا بعد أن أَرَاكَ عِلَّتَكَ، ولا عاقِبَكَ إلا بعد أن أُنذَرَكَ
وَأُنظَرَكَ، وبمثل هذا تُطالِبُ أنت مَنْ هُوَ دُونَكَ مِنْ خَدَمِكَ وَحَشَمِكَ، وأولِيائِكَ
وأعدائِكَ، وهذا الذي أَعْدَلُكَ عَلَيْهِ هُوَ الذي به تَعْدُلُ غيرَكَ وتَراه ضالًّا في
مَسَلِكِهِ، متعرِّضاً لمَهْلِكِهِ.

(١) المزرفن: الذي يجعل صدغيه كالزرفين، وهي الحلقة. والمعرض: الذي نبت شعر عارضيه.

فقال: أَيُظَلِّمُنِي وَلِيُّ نِعْمَتِي صُراحاً بلا ذَنْب، وَيَجْتَاخُنِي بلا جَرِيمة؛ وَيَثْلُمُ دَوْلَتَهُ بلا حُجَّة؟ قلتُ: اللَّهُ يَبْقِيكَ وَيَكْفِيكَ، نَرَاكَ بلا ذَنْب، وَنَجِدُكَ بريئاً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، وَغَيْرُكَ لا يَرَاكَ بهذه العَيْنِ، وَلا يَحْكُمُ لك بهذا الحُكْمِ؛ فَإِنْ كُنْتَ تَرَى فُرْصَةً فانتَهزها، وَإِنْ كُنْتَ تَحْلُمُ بَعْضَةَ فَاحْتَرِزْ مِنْهَا؛ فَأَبْوَابُ النَّجاةِ مُفْتَحَةٌ، وَطُرُقُ الأمانِ مُتَوَجِّهَةٌ، وَالأخْذُ بِالاحتياطِ واجبٌ، قَدْ قَرَّبَ الشَّاهِصُ مِنْ هذا المِكانِ، وَالقِيامَةُ قَدْ قامتْ بِالإرجافِ، وَالطَّيْرَةُ قُشْعِرِيرةُ النَّفْسِ، كما أَنَّ القُشْعِرِيرةَ طَيْرَةُ البَدَنِ، وَالاسترسالُ كلالُ الحِسِّ، وَالقَالَ لِسَانَ الزمانِ، وَعُنْوَانُ الجِذْثانِ، وَلا يَقَعُ فِي الأفْواهِ إِلا ما يُوجِبُ الحَذَرَ، وَيَبْعَثُ على الرِّأْيِ والنَّظَرِ، وَاستقراءُ الأثرِ والخَبَرِ.

قال: أَمَا أَنَا بَعْدَ التَّوَكُّلِ على اللَّهِ فَقَدْ اسْتَظْهَرْتُ بِمُحَمَّدِ بْنِ إِبراهِيمِ صاحِبِ نِسابورِ، وَبِفَخْرِ الدَّوْلَةِ وَهُوَ بِهَمْدانَ على ثلاثة أَيامٍ، وَبِعِزِّ الدَّوْلَةِ وَهُوَ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ؛ وَمَتَى حَرَبَ حَارِبٍ، وَرَأَى رَائِبٍ، أَوَيْتُ إِلى واحِدٍ مِنْ هؤُلاءِ.

قال: قلتُ: هاهنا ما هو أَسهلُ مِنْ هذا وَإِنْ كان أَهْوَلَ، وَأَنْجَى وَإِنْ كان أَشْجَى، وَأَقْرَبَ وَإِنْ كان أَغْرَبَ.

قال: ما هو؟ فَرَجَّ عَنِّي وَاهْدِنِي.

قلتُ: لَمَّا يَدْخُلُ هذا الوارِدُ الدَّارَ، وَيَدْنُو مِنْ طَرَفِ البِساطِ، تُنْذِرُ رَأْسَهُ عَنِ كاهِلِهِ، وَتُلْقِي شِلْوَهُ فِي مِزْبَلَةٍ، فَإِنَّ الهَيْبَةَ تَقَعُ، وَالنَّائِرَةُ تَخْبُو، وَالعَجَبُ يَغْمُرُ، وَالظُّنَّةُ تَزُولُ، وَالصَّدْرُ يَسْتَفِي، وَالاعتذارُ يَنْتَفِي؛ وَيُكْتَبُ إِلى مُوفِدِهِ أَنَّ الرِّأْيَ أَوْجِبَ هذا الفِعلَ، لِأَنَّهُ غَلَبَ على الظَّنِّ أَنَّهُ وَاقٍ لِكَيْدِ يُوصلُهُ إِليَّ، وَبِلاءُ يُفْرِغُهُ عَلَيَّ، فَأَزَلْتُ هذا الظَّنَّ بِاليقينِ، وَدَفَعْتُ الشُّبُهَةَ بِالجلِلاءِ، وَاسْتَخْلَصْتُ النورَ مِنَ الظُّلامِ؛ وَلأَنَّ تُبْعَدُ ساقِطاً مِنْ خَدَمِكَ، يَسوءُ ظَنِّي بِهِ مِنْ جِهَتِكَ، وَيَقْدَحُ فِي طاعَتِي لَكَ، وَيُضْرِمُ فِي نارِ التُّهْمَةِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ؛ خَيْرٌ لي فِي نِصِحتِي لِدَوْلَتِكَ، وَخَيْرٌ لَكَ فِي بَقائِي على أَمْرِكَ وَنَهْيِكَ، مِنْ أَنْ يَلْتَأَمَّ ضَميرِي فِي سِياسَةِ دَوْلَتِكَ، وَتَحُولَ يَتِي عَمَّا عَهَدْتَ مِنَ القِيامِ بِحَقِّ جُنْدِكَ وَرَعِيَّتِكَ، وَحِفْظِ قاصِيتِكَ وَدائِيَّتِكَ.

فقال: هذا أَعْظَمُ، وَاللَّهُ المُسْتَعانُ.

وَلَبَّيْتَنِي أَصَبْتُ بِهذا الرِّأْيِ امرأً عَلاً عَقْلُهُ، فَيَقْبَلُهُ ببيانٍ، أَوْ يَرُدُّهُ بِبرهانٍ، فَكان يَقْوَى أَوْ يَضْعَفُ، وَيُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَوْ يُخْجِمُ عَنْهُ، فَإِنَّ المُبْرَمَ أَقْوَى مِنَ السَّجِيلِ، وَالسِّمِينِ أَحْمَدُ مِنَ التَّحِيلِ؛ ثُمَّ كان ما كان. وَكان مَشايخُ العِراقِ وَالجَبَلِ يَرَوْنَ ما حَدَثَ بِذلكِ الفَتَى امرأً قَرِيّاً، وَظُلماً عَبْقَرِيّاً.

وَحدَّثَنِي القَوْمِسيُّ أَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ بِذلكِ أَمْرٍ، وَلا سَبَقَ بِهِ إِذْنَ، وَلَكِنْ لَمَّا حَدَثَ ما حَدَثَ، وَقَعَ عِنْدَ إِمساكِ، وَسُتِرَتْ الكِراهِيةُ وَالإنكارُ.

وللأمور أيها الوزيرُ ظُهورٌ وبُطون، وهَوَادٍ وأعجاز، وأوائل وأواخر؛ وليس على الإنسان أن يدرك النجاح في العواقب، وإنما عليه أن يتحرز في المبادئ؛ ولهذا قال القائل:

لأمرٍ عليهم أن تَمَّ صُدُورُهُ وليس عليهم أن تَمَّ عَوَاقِبُهُ
وقال سليمان بن عبد الملك أو غيره من أهل بيته: ما لُمْتُ نفسي على قوتٍ
أمرٍ بدأته بحزم، ولا حَمِدْتُها على دَرَكَ أمرٍ بدأته بعجز.

هاهنا ناسٌ إذا تَلَقَّوْا يَنْفُثُ بعضهم إلى بعض بما هو صريح وكناية، ويحتاج الأمر إلى ابن يوسف، ويستملي الحبيث من الجالس فوق مشرعة مكان الروايا.

وليس يصح كل ما يقال فيزوي على وجهه، وليس يخفى أيضاً كل ما يجري فيمسك عنه؛ والأمور مَرَجَةٌ، والصدور حَرَجَةٌ، والاحتراش واجب، النصح مقبول، والرأي مشترك، والثقة بالله من اللوازم على من عرفه وآمن به، وليس من الله عز وجل بُدُّ على كل حال.

والله أسأل الدفاع عنك، والوقاية لك، في مضبحك وممساك، وفي مبيتك ومقيلك، وشهادتك وغيبتك، ولذوي مليحا في هذا الباب نفخ وإيقاد، وتناقل وائتمار، ومسألة وجواب.

وعند الشيخ أبي الوفاء من هذا الحديث ومن غيره مما يتصل به من ناحية ابن اليزيدي ما يجب أن يصاح له بالأذن الواعية، ويقابل بالثمس الراعية، ويُدَاوَى بالدواء الناجع، وتُخَسَم مادته من الأصل، فإن الفساد إذا زال حصل مكانه الصلاح. وليس بعد المرص إلا الإفراق، ولا بعد النزاع إلا الإغراق.

إلى هاهنا انتهى نفسي بالضح وإن كانت شفقتي تتجاوزهُ، وحرصي يستعلي عليه، لكنني خادم، وكما يجب علي أن أخدم بنيات الصدر، فينبغي أن ألزم الحد بحسن الأدب.

والله إنني لوأد مخلص، وعبد طائع، ورجائي اليوم أقوى من رجائي أمس، وأملي غداً أبسط من أملي اليوم؛ أشكو إليك الأرق بالليل فكراً فيما يقال، وتحفظاً مما ينال، وتوهُماً لِمَا لا يكون إن كان، وشراً العدا، الذين يتمنون لأولي نعمتهم الردى، ويبيتون النكاث، ويكسرون الأجفان، ويتخازرون بالأعين، ويتجَاهرون بالأذى إذا تلاقوا، ويتهايمسون بالألسن إذا تدانوا، والله يضرع جودهم، ويضرع خدودهم بين يديك؛ وهذه الرقة متي والحفاوة، وهذه الرعشة والقلق، وهذا التقيع والتفرع كله، لأنني ما رأيت مثلك، ولا شاهدت شبهك، كرم خيم، ولين عريكة، وجود بنان، وحضور بشر، وتهلل وجه، وحسن وعد، وقرب إنجاز، وبذل مال، وحب حكمة.

قد شاهدتُ ناساً في السَّفَرِ والحَضَرِ، صِغَاراً وكِبَاراً وأَوْسَاطاً، فما شاهدتُ مَنْ يَدِينُ بِالْمَجْدِ، وَيَتَحَلَّى بِالْجُودِ، وَيَزْتَدِي بِالْعَفْوِ، وَيَتَأَرَّزُ بِالْحِلْمِ؛ وَيُعْطِي بِالْجُرَافِ، وَيَفْرَحُ بِالْأُضْيَافِ، وَيَصِلُ الْإِسْعَافَ بِالْإِسْعَافِ، وَالْإِتْحَافَ بِالْإِتْحَافِ، غَيْرِكَ.

وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَهَبُ الدَّرْهَمَ وَالِدِينَارَ وَكَأَنَّكَ غَضَبَانُ عَلَيْهِمَا، وَتُطْعِمُ الصَّادِرَ وَالْوَارِدَ كَأَنَّ اللَّهَ قَدْ اسْتَحْلَفَكَ عَلَى رِزْقِهِمَا؛ ثُمَّ تَتَجَاوَزُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ إِلَى الثِّيَابِ الْعَزِيزَةِ، وَالخِلْعِ النَفِيسَةِ، وَالخَيْلِ الْعِتَاقِ، وَالْمَرَائِبِ الثَّقَالِ، وَالْعِلْمَانَ وَالْجَوَارِي، حَتَّى الْكُتُبِ وَالِدَفَاتِرِ وَمَا يَضُنُّ بِهِ كُلُّ جَوَادٍ؛ وَمَا هَذَا مِنْ سَجَايَا الْبَشَرِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فَاعِلٌ هَذَا نَبِيّاً صَادِقاً، وَوَلِيّاً لِلَّهِ مُجْتَبِياً، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَّنَ هَذَا الصَّنْفَ مِنَ الْفَقْرِ، وَرَفَعَ مِنْ قُلُوبِهِمْ عِزَّ الْمَالِ، وَهَوَّنَ عَلَيْهِمُ الْإِفْرَاجَ عَنْ كُلِّ مُنْفَسٍ، يَاقُوتاً كَانَ أَوْ ذُرّاً ذَهَباً كَانَ أَوْ فِضَّةً؛ كَفَاكَ اللَّهُ عَيْنَ الْحَاسِدِينَ، وَوَقَاكَ كَيْدَ الْمُفْسِدِينَ، الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمُ بِالْأَمْسِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَكَانُوا كَحَصَى فَجَعَلْتَهُمْ كَالْأَطْوَادِ؛ وَهُمْ يَكْفُرُونَ أَيَادِيكَ، وَيُوَالُونَ أَعَادِيكَ، وَيَتَمَتَّنُونَ لَكَ مَا أَرْجُو أَنْ اللَّهَ يَغْصِبُهُ بِرُؤُوسِهِمْ، وَيُنْزِلُهُ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ، وَيُذِيقُهُمْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ، وَيَجْعَلُهُمْ عِبْرَةً لِكُلِّ مَنْ يَرَاهُمْ وَيَسْمَعُ بِهِمْ، كَانَ اللَّهُ لَكَ وَمَعَكَ، وَحَافِظَكَ وَنَاصِرَكَ.

أَطَلْتُ الْحَدِيثَ تَلَذُّدًا بِمَوَاجِهُتِكَ، وَوَصَلْتُهُ خِدْمَةً لِدَوْلَتِكَ، وَكَرَّرْتُهُ تَوْقَعًا لِحُسْنِ مَوْعِدِهِ عِنْدَكَ، وَأَعَدْتُهُ وَأَبْدَيْتُهُ طَلَباً لِلْمَكَانَةِ فِي نَفْسِكَ.

وَأَرْجُو إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَلَّا أُخْرِمَ هَبَّةً مِنْ رِيحِكَ، وَنَسِيمًا مِنْ سَحَرِكَ، وَخَيْرَةً بِنَظَرِكَ. لَمْ أَوْقِفْ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْأَخِيرَةِ، وَاللَّهُ مَا يَمُرُّ بِي يَأْسٌ مِنْ إِنْعَامِكَ فَأَقْوِيهِ بِالرَّجَاءِ، وَلَا يَغْتَرِبْنِي وَهَمٌّ فِي الْخَبِيئَةِ لَدَيْكَ فَاتَّالِفَاهُ بِالْأَمَلِ. إِنَّمَا قُضَارِي أُمْنِيَّتِي إِذَا حُكِمْتُ أَنْ أُعْطَى فَيْكَ سُؤْلِي بِالْبَقَاءِ الْمَدِيدِ، وَالْأَمْرِ الرَّشِيدِ، وَالْعَدْوِّ الصَّرِيعِ، وَالْوَلِيِّ الرَّفِيعِ، وَالِدَوْلَةِ الْمُسْتَبْتَةِ، وَالْأَحْوَالِ الْمُسْتَحْبَةِ، وَالْأَمَالِ الْمَبْلُوغَةِ، وَالْأَمَانِيِّ الْمُدْرَكَةِ، مَعَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ النَّافِلَيْنِ، بَيْنَ أَهْلِ الْخَافِقِينَ؛ وَاللَّهُ يُبَلِّغُنِي ذَلِكَ بِطَوْلِهِ وَمَنَّهُ.

وَآخِرُ مَا أَقُولُ، أَيُّهَا الْوَزِيرُ: مُزُّ بِالصَّدَقَاتِ، فَإِنَّهَا مَجَلِبَةُ السَّلَامَاتِ وَالْكَرَامَاتِ، مَدْفَعَةٌ لِلْمَكَارِهِ وَالْآفَاتِ؛ وَاهْجُرِ الشَّرَابَ، وَأَدِمِ النَّظَرَ فِي الْمُضْحَفِ، وَافْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي الْاسْتِخَارَةِ، وَإِلَى الثَّقَاتِ بِالْاسْتِشَارَةِ؛ وَلَا تَبْخُلْ عَلَى نَفْسِكَ بِرَأْيٍ غَيْرِكَ، وَإِنْ كَانَ خَاطِئاً فِي نَفْسِكَ، قَلِيلاً فِي عَيْنِكَ، فَإِنَّ الرَّأْيَ كَالدُّرَّةِ الَّتِي رُبَّمَا وُجِدَتْ فِي الطَّرِيقِ وَفِي الْمَرْبَلَةِ، وَقَلَّ مَنْ فَرَعَ إِلَى اللَّهِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَإِلَى الصَّدِيقِ بِالْإِسْعَادِ مِنْهُ، إِلَّا أَرَاهُ اللَّهُ النَّجَاحَ فِي مَسْأَلَتِهِ، وَالْقَضَاءَ لِحَاجَتِهِ؛ وَالسَّلَامَ.

فَقَالَ لِي الْوَزِيرُ بَعْدَ مَا قَرَأَ الرِّسَالَةَ: يَا أَبَا مُزَيْدَ، بَيَّضْتُهَا، وَعَجِبْتُ مِنْ تَشْقِيقِ الْقَوْلِ فِيهَا، وَمِنْ لُطْفِ إِيرَادِكَ لَهَا، وَمِنْ بَلَّةِ رَيْقِكَ بِهَا.

وَاللَّهُ يُحَقِّقُ مَا نَأْمُلُهُ لَهُ، وَنَرْجُوهُ لِأَنْفُسِنَا، وَيُنَحِّسِرُ عَنَّا هَذَا الضَّبَابُ الَّذِي رَكَدَ عَلَيْنَا، وَيَزُولُ الْعَيْمُ الَّذِي اسْتَعْرَضَ فِي أَمْرِنَا، وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

رسالة في شكوى البؤس ورجاء المعونة وجّه بها المؤلف إلى الشيخ أبي الوفاء المهندس الذي كتب له المؤلف هذا الكتاب وختم كتابه بها

أيها الشيخ، سَلَمَكَ اللَّهُ بِالصُّنْعِ الْجَمِيلِ، وَحَقَّقَ لَكَ وَفِيكَ وَبِكَ غَايَةَ الْمَأْمُولِ. هَذَا آخِرُ الْحَدِيثِ، وَخَتَمْتُهُ بِالرَّسَالَتَيْنِ، وَيَتَقَرَّرُ جَمِيعُ مَا جَرَى وَدَارَ عَلَى وَجْهِهِ، إِلَّا مَا لَمَمْتُ بِهِ شَعْتًا، وَزَيَّيْتُ بِهِ لَفْظًا، وَزَيَّدْتُ مَثْوَصًا، وَلَمْ أَظْلِمِ مَعْنَى بِالْتَّحْرِيفِ، وَلَا مِلْتُ فِيهِ إِلَى التَّخْوِيرِ؛ وَأَرْجُو أَنْ يَبِينُضَ وَجْهِي عِنْدَكَ بِالرِّضَا عَنِّي، فَقَدْ كَادَ وَعَدُّكَ فِي عِنَايَتِكَ يَا بَنِي عَلِيٍّ، وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَحْفَظَ عِنَايَتَكَ عَلَيَّ، كَسَابِقِ اهْتِمَامِكَ بِأَمْرِي، حَتَّى أُمْلِكَ بِهِمَا مَا وَعَدْتَنِيهِ مِنْ تَكْرِمَةِ هَذَا الْوَزِيرِ الَّذِي قَدْ أَشْبَعَ كُلَّ جَائِعٍ، وَكَسَا كُلَّ عَارٍ، وَتَأَلَّفَ كُلَّ شَارِدٍ، وَأَحْسَنَ إِلَى كُلِّ مُسِيءٍ، وَنَوَّهَ بِكُلِّ خَامِلٍ، وَنَفَّقَ كُلَّ هَزِيلٍ، وَأَعَزَّ كُلَّ ذَلِيلٍ؛ وَلَمْ يَبْقَ فِي هَذِهِ الْجَمَاعَةِ عَلَى فَقْرِهِ وَبُؤْسِهِ، وَمُرَّهُ وَيَأْسِهِ، غَيْرِي؛ مَعَ خِدْمَتِي السَّالِفَةِ وَالْآيِنَةِ، وَبِذَلِي كُلِّ مَجْهُودٍ، وَنَسْخِي كُلِّ عَوِيصٍ، وَقِيَامِي بِكُلِّ صَغْبٍ؛ وَالْأُمُورُ مُقَدَّرَةٌ، وَالْحُظُوظُ أَقْسَامٌ، وَالْكَذْحُ لَا يَأْتِي بِغَيْرِ مَا فِي اللَّوْحِ.

فصل

خَلَّصَنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنَ التَّكْفَفِ، أَنْقِذْنِي مِنْ لُبْسِ الْفَقْرِ، أَطْلِقْنِي مِنْ قَيْدِ الضَّرِّ، اشْتَرِنِي بِالْإِحْسَانِ، اعْتَبِدْنِي بِالشُّكْرِ، اسْتَعْمِلْ لِسَانِي بِفُنُونِ الْمَدْحِ، اكْفِنِي مَوْوَنَةَ الْغَدَاءِ وَالْعِشَاءِ.

إِلَى مَتَى الْكُسْبِيْرَةُ الْيَابِسَةُ، وَالْبُقَيْلَةُ الدَّوَابِيَّةُ، وَالْقَمِيصُ الْمَرَقَّعُ، وَبِاقِلِي دَرْبَ الْحَاجِبِ، وَسَدَابُ دَرْبِ الرَّوَّاسِيَيْنِ؟

إِلَى مَتَى التَّأْدُمُ بِالْخُبْزِ وَالزَّيْتُونِ؟ قَدْ وَاللَّهِ بَعَّ الْحَلْقُ، وَتَغَيَّرَ الْخُلُقُ؛ اللَّهُ اللَّهُ فِي أَمْرِي؛ اجْبُرْنِي فَإِنِّي مَكْسُورٌ، اسْقِنِي فَإِنِّي صَدِيدٌ، أَغْنِنِي فَإِنِّي مَلْهُوفٌ، شَهِّرْنِي فَإِنِّي غُفْلٌ، خَلِّنِي فَإِنِّي عَاطِلٌ.

قَدْ أَدَلَّنِي السَّفَرُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَخَذَلَنِي الْوُقُوفُ عَلَى بَابِ بَابٍ، وَتَكْرَنِي الْعَارِفُ بِي، وَتَبَاعَدَ عَنِّي الْقَرِيبُ مِنِّي.

أغرَكَ مِسْكُونَهُ حِينَ قَالَ لَكَ: قَدْ لَقِيتُ أَبَا حَيَّانَ، وَقَدْ أَخْرَجْتُهُ مَعَ صَاحِبِ الْبَرِيدِ إِلَى قَرْمِيسِينَ؟!

وَاللَّهِ ثُمَّ وَحَيَاتِكَ الَّتِي هِيَ حَيَاتِي، مَا انْقَلَبْتُ مِنْ ذَلِكَ بِنَفَقَةِ شَهْرٍ، وَاللَّهُ نَظَرَ لِي بِالْعَوْدِ، فَإِنَّ الْأَرَاخِيفَ اتَّصَلْتُ، وَالْأَرْضَ اقْشَعَرَّتْ، وَالنَّفُوسَ اسْتَوْحَشَتْ، وَتَشَبَّهَ كُلُّ نَعْلَبٍ بِأَسَدٍ، وَقَتَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ لَعْدُوهُ حَبْلًا مِنْ مَسَدٍ.

أَيُّهَا الْكَرِيمُ، ازْحَمْ؛ وَاللَّهِ مَا يَكْفِينِي مَا يَصِلُ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَهْرٍ مِنْ هَذَا الرَّزْقِ الْمَقْتَرِ الَّذِي يَرْجِعُ بَعْدَ التَّقْتِيرِ وَالتَّنْسِيرِ إِلَى أَرْبَعِينَ دَرَهْمًا مَعَ هَذِهِ الْمَوْئَةِ الْغَلِيظَةِ، وَالسَّفْرِ الشَّاقِّ، وَالْأَبْوَابِ الْمَحْجَبَةِ، وَالْوُجُوهِ الْمَقْطَبَةِ، وَالْأَيْدِي الْمَسْمُورَةِ، وَالنَّفُوسِ الضَّيْقَةَ، وَالْأَخْلَاقَ الذَّنِيئَةَ.

أَيُّهَا السَّيِّدُ، أَقْصِرْ تَأْمِيلِي، ارْزَعْ ذِمَامَ الْمَلْحِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَتَذَكَّرِ الْعَهْدَ فِي صُخْبَتِي، طَالِبٌ نَفْسِكَ بِمَا يَقْطَعُ حُجَّتِي، دَغْنِي مِنَ التَّعْلِيلِ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ، وَالتَّسْوِيفِ الَّذِي لَا آخَرَ مَعَهُ.

ذَكَرَ الْوَزِيرَ أَمْرِي، وَكَرَّرَ عَلَيَّ أُذُنَهُ ذِكْرِي، وَأَمَلَ عَلَيْهِ سُورَةَ مِنْ شُكْرِي، وَابْعَثْ عَلَيَّ الْإِحْسَانَ إِلَيَّ.

افْتَحْ عَلَيْهِ بَاباً يُغْرِي الرَّاغِبَ فِي اصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ لَا يَسْتَغْنِي عَنِ الْمَرْغَبِ، وَالْفَاعِلَ لِلْخَيْرِ لَا يَسْتَوْجِشُ مِنَ الْبَاعِثِ عَلَيْهِ.

أَنْفِقْ جَاهَكَ فَإِنَّهُ بِحَمْدِ اللَّهِ عَرِيضٌ، وَإِذَا جُدْتَ بِالْمَالِ فَجُدْ أَيْضاً بِالْجَاهِ، فَإِنَّهُمَا أَحْوَانٌ.

سَرَّخَنِي رَسُولاً إِلَى صَاحِبِ الْبَطَائِحِ أَوْ إِلَى أَبِي السُّؤْلِ الْكُرْدِيِّ أَوْ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ هُوَ فِي الْجِبَالِ، هَذَا إِنْ لَمْ تُؤْهِلْنِي بِرِسَالَةٍ إِلَى سَعْدِ الْمَعَالِمِيِّ بِأَطْرَافِ الشَّامِ، وَإِلَى الْبَصْرَةِ، فَإِنِّي أَبْلُغُ فِي تَحْمُلِ مَا أَحْمِلُ، وَأَدَاءِ مَا أُؤَدِّي؛ وَتَرْزِيئِ مَا أُزِيئُ، حَدًّا أَمْلِكُ بِهِ الْحَمْدَ، وَأَعْرِفُ فِيهِ بِالنَّصِيحَةِ وَأَسْتَوْفِي فِيهِ عَلَى الْغَايَةِ دَعْ هَذَا، وَدَعْ لِي أَلْفَ دَرَهْمٍ، فَإِنِّي أَتَّخِذُ رَأْسَ مَالٍ، وَأُشَارِكُ بِقَالَ الْمَحَلَّةِ فِي دَرْبِ الْحَاجِبِ، وَلَا أَقَلُّ مِنْ ذَا، تَقَدَّمْ إِلَى كَسَجِ الْبِقَالِ، حَتَّى يَسْتَعِينَ بِي لِأَبِيْعِ الدَّفَاتِرِ. قُلْتُ: الْوَزِيرُ مَشْغُولٌ. فَمَا أَصْنَعُ بِهِ إِذَا فَرَّخَ، فَالشَّاعِرُ يَقُولُ:

«تُنَاطُ بِكَ الْأَمَالُ مَا اتَّصَلَ الشُّغْلُ»

قَدْ وَاللَّهِ نَسِيْتُ صَدَرَ هَذَا الْبَيْتِ، وَمَا بِالْغَيْرِي يُنَوِّلُهُ وَيُمَوِّلُهُ مَعَ شُغْلِهِ، وَأَحْرَمَ أَنَا؟! أَنَا كَمَا قَالَ:

وَبَرِّقْ أَضَاءَ الْأَرْضِ شَرْقاً وَمَغْرِباً وَمَوْضِعُ رِجْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ مُظْلَمٌ

واللَّهِ إِنَّ الْوَزِيرَ مَعَ أَشْغَالِهِ الْمَتَّصِلَةِ، وَأَثْقَالِهِ الْبَاهِظَةِ، وَفِكْرِهِ الْمَفْضُوضِ وَرَأْيِهِ الْمَشْتَرَكِ، لَكَرِيمٍ مَاجِدٍ، وَمُفْضِلٍ مُخْسِنٍ، يَزَعِي الْقَلِيلَ مِنَ الْحُرْمَةِ، وَيُعْطِي الْجَزِيلَ مِنَ النُّعْمَةِ، وَيُحَافِظُ عَلَى الْيَسِيرِ مِنَ الدَّمَامِ، وَيَتَقَبَّلُ مَذَاهِبَ الْكِرَامِ، وَيَتَلَذَّذُ بِالثَّنَاءِ إِذَا سَمِعَ، وَيَتَعَرَّضُ لِلشُّكْرِ مِنْ كُلِّ مُتَتَجِّعٍ، وَيَزْرَعُ الْخَيْرَ، وَيَخْصُدُ الْأَجْرَ، وَيُوَاطِبُ عَلَى كَسْبِ الْمَجْدِ، وَيَثَابِرُ عَلَى اجْتِلَابِ الْحَمْدِ، وَيَنْخَدِعُ لِلسَّائِلِ، وَيَتَهَلَّلُ فِي وَجْهِ الْأَمِلِ، وَلَا يَتَّبَوُّ أُمَّنَ الْفَضَائِلِ إِلَّا فِي ذُرَاهَا، رَحِيمٌ بِكُلِّ غَادٍ وَرَائِحٍ، وَلِكُلِّ صَالِحٍ وَطَالِحٍ.

وَأَنَا الْجَارُ الْقَدِيمُ، وَالْعَبْدُ الشَّاكِرُ، وَالصَّاحِبُ الْمَخْبُورُ، وَلَكِنَّكَ مُقْبِلٌ كَالْمُعْرِضِ، وَمُقَدَّمٌ كَالْمُؤَخَّرِ، وَمُوقِدٌ كَالْمُخْمِدِ، تُدْنِينِي إِلَى حَظِّي بِشِمَالِكَ، وَتَجْدِبُنِي عَنْ نَيْلِهِ بِيَمِينِكَ، وَتُعَدِّينِي بُوْعْدٍ كَالْعَسَلِ، وَتُعَشِّينِي بِيَأْسٍ كَالْحَنْظَلِ، «وَمَنْ كَانَ عَتَبَهُ عَلَى مِظَنَّةِ عَيْبِكَ، فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَقْصِيرُهُ عَلَى تَيْقَنِهِ بِنَصْرِكَ».

نعم؛ عَتَبْتُ فَأَوْجَعْتُ، وَعَرَفْتُ الْبِرَاءَةَ فَهَلَّا نَفَعْتُ؟ وَاللَّهِ مَا أُدْرِي مَا أَقُولُ، إِنْ شَكَرْتُكَ عَلَى ظَاهِرِكَ الصَّحِيحِ لَدَعْتُكَ لِبَاطِنِكَ السَّقِيمِ، وَإِنْ حَمِدْتُكَ عَلَى أَوْلِكَ الْجَمِيلِ، أَفْسَدْتُ لِأَخْرِكَ الَّذِي لَيْسَ بِجَمِيلٍ.

قَدْ أَطَلْتُ، وَلَكِنْ مَا شُفِيتُ، وَنَهَلْتُ وَعَلَلْتُ، وَلَكِنْ مَا رَوَيْتُ.

وَأَخَّرُ مَا أَقُولُ: أَفْعَلُ مَا تَرَى، وَاصْنَعْ مَا تَسْتَحْسِنُ، وَابْلُغْ مَا تَهْوَى، فَلَيْسَ وَاللَّهِ مِنْكَ بَدٌّ، وَلَا عَنَّا غِنَى.

وَالصَّبْرُ عَلَيْكَ أَهْوَى مِنَ الصَّبْرِ عَنَّا، لِأَنَّ الصَّبْرَ عَنَّا مَقْرُونٌ بِالْيَأْسِ، وَالصَّبْرَ عَلَيْنَا رُبَّمَا يُؤَدِّي إِلَى رَفْعِ هَذَا الْوَسْوَاسِ، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِ السَّلَامِ.

تم الكتاب

الفهارس العامة

- فهرس الأعلام
- فهرس أسماء الأماكن
- فهرس القبائل والأمم والفرق
- فهرس أسماء الكتب

فهرس الأعلام

الجزء الأول

حرف الألف

إبراهيم بن العباس الصولي: ٦٢.

إبراهيم بن هلال أبو إسحاق الصابي:
٦٤، ٦٨.

ابن أبي بشر: ٩٠.

ابن أبي خالد: ٦٣.

ابن أبي طالب = علي بن أبي طالب.
ابن الأثير: ٥٩، ١٠٤.

ابن الأخشاد: ٩٠.

ابن الباقلاني = أبو بكر محمد بن الطيب
القاضي.

ابن برثن: ٧٠.

ابن برمويه = الحسن بن برمويه.

ابن بقية الوزير = ٥٤.

ابن بكش: ٥٢.

ابن البيطار: ١٢٩.

ابن ثابت: ٦٢.

ابن ثوبة أبو الهيثم: ٦٢، ٦٦، ٨٣، ٨٦.

ابن جبلة الكاتب: ٥٤، ٥٧.

ابن جرير: ٦٣.

ابن جلبات = أبو القاسم علي بن جلبات.

ابن الجمل: ٦٦.

ابن الحجاج = أبو عبد الله الحسين بن
أحمد بن الحجاج.

ابن حسولة = أبو القاسم بن حسولة.

ابن حنزاية: ١٠٢.

ابن حيويه = محمد بن حيويه بن المؤمل.
ابن خلكان: ٦٨.

ابن الخمار: أبو الخير الحسن بن سوار.

ابن خيران = أبو علي الحسين بن
صالح بن خيران.

ابن دارة: ٥٦.

ابن درستويه: ١٠٣.

ابن رباح: ٩٠.

ابن ربن = علي بن ربن.

ابن رشيد: ٩٠.

ابن الرومي = أبو الحسن علي بن
العباس بن جريج.

ابن زرعة = أبو علي عيسى بن إسحاق بن
زرعة.

ابن السراج = أبو بكر محمد بن السري بن
سهل.

ابن سعدان: ٥٤، ٦٧.

ابن سكرة: ١٠٦.

ابن السماك = أبو العباس محمد بن صبح
الكوفي.

ابن المرزبان كاتب فخر الدولة: ٦٤،
١٠٧.

ابن مسكويه: ٥٠.

ابن المعلم = أبو عبد الله محمد بن
محمد بن النعمان.

ابن المقفع: ٦٦، ٦٩، ٧١.

ابن مكيخا = أبو علي بن مكيخا.

ابن الملاح: ١٠٧.

ابن موسى: ٦٠.

ابن الناظر أبو منصور: ٥٤.

ابن نباتة السعدي = عبد العزيز بن محمد
الشاعر.

ابن نوبخت: ٦٣.

ابن هارون: ٥٧.

ابن هندو: ٦٥.

ابن الوراق: ١٠١.

ابن وهب: ٨٦.

ابن يحيى العلوي: ٩٠.

ابن يعقوب: ٥١.

ابن يعيش الرقي: ٨٨، ٨٩، ١٥١، ١٥٢.

ابن يونس القنائي = أبو بشر متى بن
يونس.

أبو إسحاق الصابي = إبراهيم بن هلال
الكاتب.

أبو إسحاق مزبد المدني: ٦٣.

أبو إسحاق النصيبي: ١٠٧.

أبو بشر متى بن يونس القنائي: ٨٩، ٩٠،

٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧.

أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث: ٤٠.

ابن السمح = أبو علي بن السمح.

ابن سيرين: ٦٣.

ابن سيف الكاتب الراوية: ٤٨.

ابن شاذان: ١٠١، ١٠٤.

ابن شاهويه عامل صمصام الدولة: ٥٥،
٥٧، ٦٠.

ابن شاهويه الفقيه = أبو بكر محمد بن
أحمد بن علي.

ابن طنج: ٧٤، ٩٠.

ابن عباد = أبو القاسم إسماعيل
الصاحب بن عباد.

ابن عبدان: ٥٢، ٥٥.

ابن عبد العزيز الهاشمي: ٩٠.

ابن عبد كان = محمد بن عبد كان.

ابن عبيد الكاتب = ٥٧، ٦٤، ٨٣.

ابن العميد = أبو الفضل بن العميد.

ابن الفرات الوزير أبو الفتح الفضل بن
جعفر: ٨٩، ٩٠، ٩٥، ٩٦، ٩٧،

١٠١.

ابن فراس: ٩٠.

ابن القاسم = علي بن القاسم.

ابن القرمسيني: ١٣٤.

ابن قوسين: ٥٢.

ابن كعب: ٩٠.

ابن لالا: ٥٢.

ابن متى = بشر بن متى.

ابن مجاهد: ٦٣.

ابن المحيا: خالد بن سنان العبسي.

ابن المراغي = أبو الفتح محمد بن جعفر.

- أبو بكر القومسي: ٤٩، ٥٠.
- أبو بكر محمد بن أحمد بن علي بن شاهويه الفقيه: ٣٥.
- أبو بكر محمد بن السري بن سهل المعروف. بابن السراج النحوي: ٤٧.
- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني القاضي: ١٠٨.
- أبو جعفر الصيمري: ١٠٣، ١٠٤.
- أبو جعفر ملك سجستان: ١٠٢.
- أبو حاتم الرازي: ١٥٥.
- أبو حامد أحمد بن بشر المرورودي: ٧٩، ٨٨.
- أبو الحسن أحمد بن جعفر جحظة الشاعر: ٤٨.
- أبو الحسن الأنصاري صوابه الأنطاكي وهو أبو القاسم علي بن أحمد: ٨١.
- أبو الحسن العروضي: ٦٣.
- أبو الحسن علي بن العباس بن جريح (ابن الرومي): ٤٧.
- أبو الحسن علي بن عيسى الرماني: ٩٠، ١٠١، ١٠٤، ١٤٩.
- أبو الحسن الفلكي: ٦٨.
- أبو الحسن محمد بن يوسف العامري: ٥١، ١٥٥.
- أبو حنيفة (الإمام): ٦١، ١٠٣.
- أبو الخير الحسن بن سوار المعروف بابن الخمار: ٤٩، ٥٠.
- أبو الخير اليهودي: ١٥٢.
- أبو دعلج: ٦٩.
- أبو زكرياء: ٥٠.
- أبو زكرياء: يحيى بن عدي.
- أبو زيد اللغوي: ١٠٢، ١٥٣.
- أبو زيد أحمد بن سهل البلخي: ٤٦، ١٤٨.
- أبو سعيد بهرام بن أزدشير: ٥٥، ٥٧.
- أبو سعيد الذهبي الطيب: ١١٦، ١٤٩.
- أبو سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان: ٤٦، ٤٧، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٥٣، ١٥٤.
- أبو سليمان المنطقي محمد بن طاهر: ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٧٩، ١٠٢، ١١٠، ١٤١، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٩، ١٥٦.
- أبو شريح أوس بن حجر التميمي الشاعر: ٦٣.
- أبو شعيب درست بن رباط الفقيمي: ٦٩.
- أبو طالب الجراحي الكاتب: ٦٩.
- أبو العباس: ٩٨.
- أبو العباس البخاري تلميذ أبي سليمان المنطقي: ١٤٥، ١٤٦.
- أبو العباس المبرد: ١٠٣.
- أبو العباس محمد بن صباح الكوفي المعروف بابن السماك: ٤٠، ٤٤.
- أبو عبد الله تلميذ أبي سعيد السيرافي: ١٠٣، ١٠٤.
- أبو عبد الله الجيهاني أحمد بن محمد بن نصر: ٧٤، ٧٧، ٧٨، ٧٩.

أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج الشاعر.
 أبو عبد الله الحسين بن علي الجعل: ١٠٧.
 أبو عبد الله الحسين بن محمد النجار: ٦٣.
 أبو عبد الله بن طاهر: ٥٥، ٥٧.
 أبو عبد الله العارض الحسين بن أحمد بن سعدان الوزير: ٣٥، ١٠١، ١٠٦، ١٠٧.
 أبو عبد الله محمد بن محمد بن نعمان بن المعلم: ١٠٧.
 أبو عبد الله النصري: ١٠٣.
 أبو عبيد الله المرزباني محمد بن عمران: ٥٣، ١٠١، ١٠٤.
 أبو عثمان الجاحظ: ٣٥، ٦٣، ٦٦.
 أبو عثمان الدمشقي: ١٤٩.
 أبو علي أحمد بن محمد مسكويه: ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٧، ١٠٥.
 أبو علي الحسن بن علي الخالغ: ١٠٥.
 أبو علي الحسن بن صالح بن خيران: ١٠٧، ١٠٨.
 أبو علي بن السمح: ٤٩.
 أبو علي عيسى بن إسحاق بن زرعة: ٤٩، ٥٠، ٥٧.
 أبو علي الفسوي النحوي الحسن بن أحمد: ١٠١، ١٠٢، ١٠٣.
 أبو علي بن مكيفا: ٥٥، ٥٧.
 أبو عمرو بن العلاء: ٦٣.
 أبو عمرو قدامة بن جعفر: ٩٠.
 أبو عيسى بن المنجم: ٦١.
 أبو العيناء: ٦٣، ٦٩.
 أبو الفتح بن العميد = ذو الكفائتين.
 أبو الفتح علي بن أبي الفضل محمد بن العميد.
 أبو الفتح الفضل بن جعفر = ابن الفرات الوزير.
 أبو الفتح محمد بن جعفر الهمداني بن المراغي: ١٠١، ١٠٤.
 أبو الفضل بن العميد الكاتب: ٤١، ٥٠، ٦٤، ٦٦، ٦٨، ١٠٣.
 أبو القاسم إسماعيل الصاحب بن عباد: ٣٤، ٤٥، ٦٠، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٨، ٦٩، ٨٧، ١٠٤، ١٠٨.
 أبو القاسم بن حسولة: ٤٦.
 أبو القاسم الداركي: ١٠٨.
 أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف: ٥٤، ٥٧، ٦٤، ٦٦، ٦٧.
 أبو القاسم عبيد الله بن الحسن غلام زحل: ٥١، ٥٢.
 أبو القاسم علي بن جليات: ١٠٥.
 أبو القاسم عيسى بن علي بن عيسى الجراح: ٤٩، ٥١.
 أبو القاسم الكاتب غلام أبي الحسن العامري: ٥٠، ٦٢، ١٥٥.
 أبو محمد الحجاج بن يوسف: ٥٦.
 أبو مسلم الخراساني صاحب الدولة: ٧٢.
 أبو منصور = ابن الناظر.

أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج الشاعر.
 أبو عبد الله الحسين بن علي الجعل: ١٠٧.
 أبو عبد الله الحسين بن محمد النجار: ٦٣.
 أبو عبد الله بن طاهر: ٥٥، ٥٧.
 أبو عبد الله العارض الحسين بن أحمد بن سعدان الوزير: ٣٥، ١٠١، ١٠٦، ١٠٧.
 أبو عبد الله محمد بن محمد بن نعمان بن المعلم: ١٠٧.
 أبو عبد الله النصري: ١٠٣.
 أبو عبيد الله المرزباني محمد بن عمران: ٥٣، ١٠١، ١٠٤.
 أبو عثمان الجاحظ: ٣٥، ٦٣، ٦٦.
 أبو عثمان الدمشقي: ١٤٩.
 أبو علي أحمد بن محمد مسكويه: ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٧، ١٠٥.
 أبو علي الحسن بن علي الخالغ: ١٠٥.
 أبو علي الحسن بن صالح بن خيران: ١٠٧، ١٠٨.
 أبو علي بن السمح: ٤٩.
 أبو علي عيسى بن إسحاق بن زرعة: ٤٩، ٥٠، ٥٧.
 أبو علي الفسوي النحوي الحسن بن أحمد: ١٠١، ١٠٢، ١٠٣.
 أبو علي بن مكيفا: ٥٥، ٥٧.
 أبو عمرو بن العلاء: ٦٣.

أشجع السلمى : ٦٢.

الأصمعي : ٨٢.

أفتكين : ١٠٦.

الأقرع بن حابس : ٧٧.

أقليدس : ٧٩.

امرؤ القيس : ٩٥ ، ١٤٣.

الأندلسي : ١٤٧ ، ١٥٣.

أنو شروان : ٧٢ ، ٧٤.

الأهوازي : ٥٧.

أوميروس الشاعر : ١٢٠.

حرف الباء

باقل : ٦٤.

البخاري = أبو العباس البخاري تلميذ أبي

سليمان .

البيدهي : ٤٩.

بشر بن هارون : ١٠٦.

البلعمي الوزير : ١٠٢.

بلهور : ٧٤.

بندار المغني : ٥٤.

بهرام بن أزدشير = أبو سعيد بهرام بن

أزدشير .

حرف الثاء

ثابت : ٦٢.

حرف الجيم

جابر بن حيان : ٥٠.

الجاحظ = أبو عثمان الجاحظ .

جحظة = أبو الحسن أحمد بن جعفر .

الجراح = أبو القاسم عيسى بن علي .

أبو نصر خواشاذه : ٥٩.

أبو نصر سابور : ٥٥.

ابن وهب : ٨٣ ، ٨٦.

أبو الوفاء علي بن يحيى السامري : ٥١.

أبو الوفاء المهندس محمود بن محمد بن

يحيى : ٣٣ ، ٤٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٩ ،

٦٠ .

أبو يوسف الفقيه : ٦٣.

أحمد بن بشر المروردي = أبو حامد

أحمد بن بشر .

أحمد بن جعفر جحظة = أبو الحسن

أحمد بن جعفر .

أحمد بن سهل البلخي = أبو زيد أحمد بن

سهل .

أحمد بن محمد : ٦٥.

أحمد بن محمد مسكويه = أبو علي

أحمد بن محمد .

أحمد بن محمد بن نصر الجيهاني = أبو

عبد الله الجيهاني أحمد بن محمد .

أخشاد : ٧٤.

أديسوس : ١٢٠.

أرسطو طاليس : ٣٦ ، ١٨ ، ٦٣ ، ٩٣ ،

٩٤ .

استاينجاس : ٦١ ، ٢٠.

إسحاق بن إبراهيم الموصلي : ٧٣.

الأسدي : ٨٢.

الإسكافي : ٦٣.

الإسكندر : ٧٢.

إسماعيل بن عباد = أبو القاسم إسماعيل .

الصاحب بن عباد .

الجراحي = أبو طالب الجراحي .

جعفر بن يحيى : ٨٥ .

جميل بن معمر صاحب بثنية : ١٠٦ .

الجيّهاني = أبو عبد الله أحمد بن

محمد بن نصر .

الجيّهاني = محمد بن أحمد .

حرف الحاء

الحجاج بن يوسف = أبو محمد

الحجاج بن يوسف .

الحراني : ٥٢ .

الحسن بن أحمد بن عبد الغفار = أبو علي

الفسوي .

الحسن بن برمويه : ٥٤ .

الحسن بن سوار = أبو الخير الحسن بن

سوار .

الحسن بن عبد الله المرزيان = أبو سعيد

السيرافي .

الحسن بن علي الخالغ = أبو علي

الحسن بن علي الخالغ .

الحسن بن وهب : ٨٣ .

الحسين : ١٠٦ .

الحسين بن أحمد بن الحجاج الشاعر =

أبو عبد الله الحسين بن أحمد .

الحسين بن أحمد بن سعدان الوزير = أبو

عبد الله العارض .

الحسين بن صالح بن خيران = أبو علي

الحسين بن صالح .

الحسين بن علي الجعل = أبو عبد الله

الحسين بن علي .

الحسين بن محمد النجار = أبو عبد الله

الحسين بن محمد .

حرف الخاء

خاقان : ٧٤ .

خالد بن سنان العبسي : ٦٣ .

خالد بن صفوان : ٤٥ .

الخالدي : ٩٠ .

خراسان : ١٥٤ .

خراش بن زهير : ١٥٣ .

الخليل بن أحمد : ٦٣ .

خواشاذه = أبو نصر خواشاذه .

حرف الدال

الدار قطني : ١٠٢ .

داود (عليه السلام) : ٨٠ .

دوست بن رباط الفقيمي = أبو شعيب .

دوست بن رباط .

حرف الذال

ذو الرمة الشاعر : ٤٥ .

ذو الرياستين (ابن سينا) : ٦٣ .

ذو الكفايتين أبو الفتح علي بن أبي

الفضل .

محمد بن العميد : ٣٤ ، ٦٦ ، ١٠٥ ،

١٠٦ ، ١٣٧ ، ٩ .

حرف الراء

الرازي = أبو حاتم الرازي .

الرشيد = هارون الرشيد .

الرماني = أبو الحسن علي بن عيسى .

رؤبة بن الحجاج : ٩٥ .

حرف الزاي

- الزجاج : ١٠٣ .
 زرادشت : ٨٠ ، ٨١ .
 زكرياء (عليه السلام) : ٨٠ .
 الزهري : ٩٠ .
 زهير بن أبي سلمى الشاعر : ٥٦ .
 الزهيري : ٦٥ .

حرف السين

- سابور = أبو نصر سابور
 سحبان : ١٠٦ .
 السري السقطي : ٦٣ .
 سطيح : ٦٣ .
 سقراط : ١٤٩ .
 سكان شاه : ٧٤ .
 السلامي : ١٠٤ .
 سليمان (عليه السلام) : ٨٠ .
 سليمان بن عبد الملك : ٤٧ .
 سهل بن هارون : ٦٣ .
 سيوييه : ١٠٢ ، ١٥٤ .
 السيرافي = أبو سعيد السيرافي .
 سيف الدولة بن حمدان : ١٠٥ .

حرف الشين

- شيب بن شبة : ٧٠ .

حرف الصاد

- الصابي = أبو إسحاق إبراهيم بن هلال .
 الصاحب بن عباد = أبو القاسم إسماعيل
 الصاحب بن عباد
 الصاغانى : ٥٢ .

صبيذ : ٧٤ .

صريع الغواني : ٦٢ .

حرف العين

- عباد أبو الصاحب : ٦٥ .
 العباس بن مرداس : ٧٣ .
 عبد العزيز بن محمد بن نبأثة السعدي :
 ١٠٦ .

عبد العزيز بن يوسف = أبو القاسم عبد

العزيز بن يوسف .

عبد الله بن دارم : ٧٦ .

عبد الله بن مصعب : ٥٣ .

عبد الملك بن مروان : ٤٦ .

عبد الله بن الحسن : أبو القاسم غلام

زحل

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود :

٤٧ .

عروة بن الورد : ٦٤ .

العسجدي : ٥٧ .

عضد الدولة بن بويه : ٥٤ .

علم الجارية : ٥٤ .

علي بن أبي طالب : ٦٩ .

علي بن أبي الفضل محمد أبو الفتح بن

العميد = ذو الكفائتين أبو الفتح علي .

علي بن أحمد الأنطاكي = أبو الحسن

الأنصاري .

علي بن جعفر : ٦٥ .

علي بن جليات = أبو القاسم علي بن

جليات

علي بن ربن : ٦٣ .

علي بن العباس بن جريح = أبو الحسن
علي بن العباس .

علي بن عيسى الجراح الوزير : ٦٨ .

علي بن القاسم : ٦٤ .

علي بن يحيى السامري = أبو الوفاء
علي بن يحيى .

عمارة بن عقيل : ١٥٤ .

عمر بن الخطاب : ٤٤ ، ٨٦ .

عمر بن عبد العزيز : ٤٦ .

عمرو بن كلثوم : ١٠٨ .

عمير بن شيم التغلبي الملقب بالقطامي : ٤٥ .

عترة العبسي : ٣٨ .

عيسى بن إسحاق = أبو علي عيسى بن
إسحاق .

عيسى بن دأب الأخباري : ٦٣ .

عيسى بن علي بن عيسى الجراح = أبو
القاسم عيسى .

عيسى (عليه السلام) : ٦٣ .

حرف الغين

غزال الراقص : ٥٤ .

غلام زحل = أبو القاسم عبيد الله بن
الحسن .

غيلان بن عقبة بن نهيس = ذو الرمة .

حرف الفاء

فضالة بن كلدة : ٦٣ .

الفضل بن جعفر = ابن الفرات .

حرف القاف

قابوس : ٥٩ .

قارون : ١٠٨ .

قدامة بن جعفر : أبو عمر وقدامة بن جعفر .

قس بن ساعدة : ٦٤ .

القس نظيف النفس الرومي : ٤٩ ، ٥١ .

القطامي = عمير بن شيم التغلبي .

القنائي = أبو بشر متى .

القوهي : ٥١ .

قيصر : ٧٤ .

حرف الكاف

الكتبي : ٩٠ .

كريد أبو سيار المسمعي : ٦٩ .

كسرى : ٧٤ .

كسرى أنو شروان = أنو شروان .

الكندي : ٦٣ - ١٠٠ .

حرف الميم

متى = أبو بشر متى بن يونس القنائي .

محمد بن إبراهيم : ٦٨ .

محمد بن أحمد الجيهاني : ٧٤ .

محمد بن أحمد بن علي بن شاهويه الفقيه

= أبو بكر محمد بن أحمد بن علي .

محمد بن جعفر الهمداني = أبو الفتح

محمد بن جعفر .

محمد بن الحسين الحاتمي : ١٠٥ .

محمد بن حيويه بن المؤمل : ١٠١ ،

١٠٤ .

محمد بن السري بن سهل = أبو بكر

محمد بن السري .

محمد بن صبح الكوفي = أبو العباس

محمد بن صبح .

محمد بن طاهر = أبو سليمان المنطقي
محمد بن طاهر .

محمد بن طغج = ابن طغج .

محمد بن الطيب الباقلاني القاضي = أبو بكر محمد بن الطيب .

محمد بن عبد كان : ٦٢ ، ٦٨ .

محمد بن عمران = أبو عبيد الله المرزباني الأديب .

محمد بن محمد بن النعمان = أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان .

محمد بن يوسف العامري = أبو الحسن محمد بن يوسف .

محمود بن محمد بن يحيى = أبو الوفاء المهندس .

المرزبان بن محمد ملك الديلم : ٦٨ ، ١٠٢ .

المرزباني صاحب آل سامان : ٩٠ .
مزدك : ٨٠ .

مسكويه = أبو علي أحمد بن محمد .
المسيح (عليه السلام) : ٤٠ .

معاوية بن أبي سفيان : ٤٠ ، ٦٩ .
المعري صوابه الصيمري : ٥١ .

المقتدر الخليفة العباسي : ٨٩ .
المنذر بن ساوى : ٧٦ .

المهدي الخليفة : ٦٩ .
المهلبى الوزير : ١٠٣ .

موسى (عليه السلام) : ٨٠ .

حرف النون

النجار = أبو عبد الله الحسين بن محمد .

نصر غلام خواشاده : ٥٩ .

النصري = أبو عبد الله النصري .

النصيبي = أبو إسحاق النصيبي .

نظيف = القس نظيف النفس الرومي .

حرف الهاء

هارون الرشيد : ٤٤ .

الهروي : ٦٩ .

حرف الواو

الواسطي : ١٠٧ .

الواقدي : ٦٣ .

وهب بن يعيش الرقي = ابن يعيش .

حرف الياء

يحيى (عليه السلام) : ٨١ .

يحيى بن عدي أبو زكريا : ٤٩ ، ٥١ .

يعقوب بن السكيت : ١٥٧ .

بغفور : ٧٤ .

يوحنا : ٦٣ .

الجزء الثاني

حرف الألف

آدم عليه السلام : ٢٤٦ .

الآمدي الحلوي : ٢٧٣ .

أمّنة بنت وهب : ٢١٠ .

إبراهيم بن أدهم : ٢٤٧ .

إبراهيم بن الجنيد : ٢٠٢ ، ٢٤٦ .

إبراهيم الخليل عليه السلام : ١٧١ ، ٢٠٣ .

إبراهيم السندي : ٢٠١ .

- إبراهيم بن العباس الصولي: ١٩٣، ٢٥٦.
 ابن أبي طاهر: ١٩٤.
 ابن أبي العوجاء: ١٧٢.
 ابن أسيد القاضي: ٢٠٠.
 ابن الأعرابي: ٢٣٢، ٢٥٧.
 ابن الأنباري: ٢٢٩.
 ابن ثوبة الكاتب: ٢٥٢، ٢٥٣.
 ابن الجلاء الزاهد: ٢٠٨.
 ابن الحسحاس: ٢٠١.
 ابنة الخس: ١٧٨.
 ابن الخلال البصري: ١٩٦.
 ابن الخمار وهو الحسن بن سوار: ١٦٩،
 ١٨٣، ٢٠٠.
 ابن دأب: ٢٥٦.
 ابن ذكوان: ٢٥٧.
 ابن الراوندي: ١٧٢.
 ابن زرعة: ١٦٩، ١٨٣.
 ابن السماك الواعظ: ٢٠٠، ١٤١، ٢٤٦.
 ابن سيرين: ١٩٤.
 ابن صالح: ٢٢٢.
 ابن صبر القاضي: ٢٧٤.
 ابن طرارة: ٢٥١.
 ابن عباس رضي الله عنهما: ١٩٧،
 ٢٢٢.
 ابن عبيد الكاتب: ١٦٢، ٢٥٧، ٢٨٥،
 ٢٩٠.
 ابن عتبة: ٢٢٥.
 ابن عرس: ٢٧٨.
 ابن العصبي: ٢٧٦.
 ابن عقيل: ٢٦٨.
 ابن علوية: ٢٧١.
 ابن عمر: ٢٢٥.
 ابن العميد = أبو الفتح بن أبي الفضل بن
 العميد.
 ابن العميد = أبو الفضل الكاتب.
 ابن العوزي: ٢٧٤.
 ابن الغازي (الطبيب): ٢٧٤.
 ابن غسان البصري: ٢٧٣.
 ابن غيلان البراز: ٢٧١.
 ابن الفرات: ١٩٣.
 ابن فهم الصوفي: ٢٧١.
 ابن الكرخي: ٢٧٦.
 ابن كعب الأنصاري: ٢٥١.
 ابن الكلبي: ٢٠٧.
 ابن المبارك: ٢٠١، ٢٤٣.
 ابن المراغي: ٢٥٧.
 ابن مسعود: ٢٣١، ٢٤١.
 ابن معروف: ٢٧٥.
 ابن المغني: ٢٧١.
 ابن المقفع: ١٧٤.
 ابن مكدم: ٢٤٧.
 ابن مكرم: ١٩٣.
 ابن موسى: ٢٥٦.
 ابن ميادة: ٢٨٦.
 ابن مياس: ٢٧٩.
 ابن نباة: ٢٥٢، ٢٧٣، ٢٨٨.
 ابن نصر العامل: ٢٧٣.
 ابن هندو الكاتب: ٢٥١.

- ابن الوراق: ٢٧٦.
 ابن اليزيدي: ٢٧٢.
 ابن اليعقوبي: ١٩٦.
 ابن يوسف: ١٧٦.
 ابن يوسف صاحب ديوان السواد: ٢٧٥.
 أبو أحمد المهرجاني: ١٦٣.
 أبو الأسود: ٢٣٨.
 أبو إسحاق الصابي: ٢٥٦.
 أبو أمامة: ٢٢٤.
 أبو أيوب الأنصاري: ٢٦٧.
 أبو أيوب القطان: ٢٧٧.
 أبو بشر: ١٨٢.
 أبو بكر: ٢٩١.
 أبو بكر الجراحي: ٢٧٤.
 أبو بكر بن حزم: ٢٠٥.
 أبو بكر الصديق: ٢٢٩.
 أبو تمام: ٢٧٩.
 أبو تمام النيسابوري: ١٦٩.
 أبو الجارود = زياد بن أبي زياد.
 أبو جعفر المنصور: ١٨١.
 أبو الحارث = شيبة.
 أبو الحسن البصري: ١٩٤.
 أبو الحسن الجراحي: ٢٧٢.
 أبو الحسن العامري: ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥.
 أبو الحسن: علي بن هارون الزنجاني
 القاضي.
 أبو الحسن الفرضي: ٢٦٣.
 أبو الحسين: أحمد بن يحيى بن إسحاق
 الراوندي.
 أبو حنيفة الإمام: ٢٤٤.
 أبو حنيفة اللغوي: ٢٨٥.
 أبو الخير بن يعيش: ١٦٩.
 أبو الدرداء: ٢٢٤.
 أبو ذر الغفاري: ٢٢٣، ٢٤٧، ٢٤٨.
 أبو زكرياء الصيمري: ١٧٢، ٢١٢.
 أبو زنبور: ٢٧٨.
 أبو زيد البلخي: ١٦٩، ١٨٤.
 أبو السائب القاضي = عتبة بن عبيد.
 أبو سعيد: ٢٨٥، ٢٨٨.
 أبو سعيد: الحسن بن بهرام الجنابي
 القرمطي: ٢٠٨.
 أبو سعيد الرقي: ٢٧٩.
 أبو سعيد السكري: ٢٨٦.
 أبو سعيد السيرافي: ١٦٢، ٢٨٥.
 أبو سعيد الصائغ: ٢٧٧.
 أبو سفيان صخر بن حرب: ٢٠٦، ٢٠٧.
 أبو سليمان المقدسي = محمد بن معشر
 البيستي.
 أبو سليمان المنطقي = محمد بن بهرام.
 السجستاني: ١٦٤، ١٦٩، ١٧١، ١٧٤،
 ١٨١، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧،
 ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢١١،
 ٢١٦، ٢١٧، ٢٣٢، ٢٣٩، ٢٤٠،
 ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٦٢، ٢٦٣،
 ٢٦٦، ٢٧٦.
 أبو صالح الهاشمي: ٢٧٧.
 أبو طاهر: ١٩٢.
 أبو طاهر = سليمان بن أبي سعيد
 الحسن بن بهرام الجنابي.

- أبو طاهر بن المقنعي المعدل: ٢٧٨.
- أبو طلحة الشاهد: ٢٨٠.
- أبو الطيب: ١٨٤.
- أبو عائذ الكرخي = صالح بن علي.
- أبو العالية: ٢٤٧.
- أبو العباس (غلام الأمراء المغني): ٢٧٦.
- أبو العباس البخاري (تلميذ أبي سليمان المنطقي): ١٦٦، ١٦٧، ١٧٢، ١٧٣، ٢٦٦.
- أبو عبد الله البصري: ٢٧٦.
- أبو عبد الله المرزباني: ٢٧٧.
- أبو عبيدة: ٢٣١.
- أبو العلاء الصيرفي: ٢٧٨.
- أبو علي البصير: ٢٥٢.
- أبو علي الجبائي: ٢٠٨.
- أبو عمار = حمزة بن عبد المطلب.
- أبو عمار (قاضي الكوفة): ١٩٥.
- أبو عمرو بن حفص بن المغيرة: ٢٢٩.
- أبو عمرو الشيباني: ٢٣٣.
- أبو عمرة صاحب شرطة المختار بن عبيد: ١٩٣.
- أبو العيلاء: ١٩٣، ٢٥٢، ٢٥٦.
- أبو غانم الطبيب: ١٧٤.
- أبو الفتح بن أبي الفضل بن العميد الكاتب: ١٨٤.
- أبو فرعون الشاشي: ١٩٢.
- أبو الفضل بن العميد: ١٦٩، ١٨٤.
- أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة: ١٩٥، ٢٧٩.
- أبو مسلم الخولاني: ٢٢٤.
- أبو موسى الأشعري: ٢٢٥.
- أبو نصر = مالك بن عمارة اللخمي.
- أبو النضر نفيس: ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦.
- أبو نواس: ١٩٧.
- أبو هاشم بن أبي علي الجبائي: ٢٠٨.
- أبو الهذيل العلاف: ٢١٦.
- أبو هريرة: ١٩٤، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٤١، ٢٤٧.
- أبو الوزير الصوفي: ٢٧٢.
- أبو يوسف: ١٩٥.
- أبان بن سعيد بن العاص: ٢٠٧.
- أبقراط: ١٩٠.
- إبيقس: ٢٦٢.
- إبليس: ٢٤١، ٢٤٤.
- أبي بن كعب: ١٧٨.
- أحمد بن حرب: ٢٤٤.
- أحمد بن عاصم الأنطاكي: ٢٤٦.
- أحمد بن محمد كاتب ركن الدولة: ٢٥١.
- أحمد بن يحيى: ٢٨٨، ٢٩٠.
- أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي: ٢٠٨.
- الأخفش: ٢٥٣، ٢٩٠.
- أرسطوطاليس: ١٧٠، ١٨٥، ١٨٧، ٢١٥.
- أريوس: ١٨٢.
- أسامة بن زيد: ١٧٨، ١٧٩.
- الأسدي: ٢٣٣.
- أسطفانس: ١٨٢.

أسقليبيوس : ١٨٨ .

الإسكندر : ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٨ .

أصحمة بن أبجر النجاشي : ٢٢٦ .

الأصمعي : ١٩٤ ، ٢٠٠ .

أعشى باهلة : ٢٨٩ .

الأعمش : ٢٠٣ .

أفلاطون : ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ .

أم حبيبة بنت أبي سفيان : ٢٠٦ .

أم كلثوم زوجة عمر بن الخطاب : ٢١٠ .

الأمين (الخليفة) : ٢٩٠ .

أنس بن مالك : ٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢٤٦ .

الأنصاري : ٢٥٢ .

الأنطاكي = أحمد بن عاصم .

انكساغورس : ١٨١ .

الأوزاعي : ٢٠٢ ، ٢٤٢ .

أوميروس : ١٨١ .

حرف الباء

بشينة : ٢٧٧ .

البرداني : ٢٧١ .

بروع بنت واشق الأشجعية : ٢٣١ .

بشار بن برد الشاعر : ٢٧٩ .

بشر بن هارون : ١٩٣ ، ١٩٥ .

بلور (جاري ابن اليزيدي) : ٢٧١ .

حرف التاء

ترف الصابئة المغنّية : ٢٧٤ .

حرف الثاء

ثعلب اللغوي : ١٩٥ .

الثوري : ٢٤٤ .

ثيودسيوس : ٢٦٢ .

ثيودوروس : ١٨٨ .

حرف الجيم

جامع الصيدناني : ١٩٥ .

جحظة : ١٩٥ .

جحي : ١٩٥ .

الجراح بن عبد الله رواد : ١٧٧ .

جريح الراهب : ٢٢٤ .

جرير الشاعر : ١٧٧ .

جعفر بن أبي طالب : ٢١٠ .

جعفر بن محمد الصادق : ١٩٩ ، ٢٤٨ ، ٢٨٢ .

الجماز : ٢٩٦ .

جندب بن مكيث : ٢٣٢ .

جندل بن صخر : ١٧٧ .

حرف الحاء

حاتم الزاهد : ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ .

حافظ : ١٩٥ .

حبابة جارية أبي تمام : ٢٧٩ .

حبان الأنصاري : ٢٣١ .

حبش (البقال) : ٢٧٨ .

حجاج بن هارون : ٢٠١ .

الحجاج بن يوسف : ٢٠٠ .

حذيفة : ١٧٩ .

الحريري الشاهد : ٢٧٦ .

الجريري غلام بن طرارة : ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ .

- الدارقطني : ٢٧٢ .
 داود (عليه السلام) : ١٧١ ، ٢٤٦ .
 دجاجة المخنث : ١٩٦ .
 درة البصرية (جارية أبي بكر الجراحي) :
 ٢٧٤ ، ٢٧٥ .
 ديوجانس : ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ،
 ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ .

حرف الراء

- رافع بن مكيث : ٢٣٢ .
 الراوندي = أحمد بن يحيى بن إسحاق .
 رؤبة بن العجاج : ١٩٥ .
 الربيع (حاجب المنصور) : ٢٠٧ .
 الربيع بن خيثم : ٢٠٣ .
 ربيعة بن عامر بن مالك : ١٧٧ .
 الرشيد : ١٩٦ ، ٢٤٨ .
 الرقاشي : ٢٤٣ .
 رقية بنت عمر بن الخطاب (رضي الله
 عنه) : ٢١٠ .
 رواد = الجراح بن عبيد الله .
 روعة جارية ابن الرضى : ٢٧٦ .

حرف الزين

- زريق (صانع فقاغ بيغداد) : ٢٧٨ .
 زكرياء (عليه السلام) : ١٧١ .
 زنجويه الحمال : ٢١٦ .
 الزهري : ٢٧٧ .
 زهير بن أبي سلمى : ٢٥٦ .
 زهير بن حذيمة : ١٧٧ .
 زهير بن عمرو : ٢٣٠ .
 زياد الأعجم الشاعر : ٢٥٦ ..

- حسان بن ثابت : ٢٣٢ .
 الحسن بن بهرام الجنابي = أبو سعيد .
 الحسن بن علي : ١٩٩ ، ٢٦٨ .
 حسنون المجنون : ١٩١ .
 الحصري : ١٧٢ .
 حفص بن المغيرة : ٢٢٩ .
 الحكم بن أبي العاص : ٢٠٦ .
 الحكم بن هشام الثقفي : ٢٠٦ .
 حلية جارية أبي عائد الكرخي : ٢٧٧ .
 حمزة بن عبد المطلب : ٢٠٧ .
 حمزة الوراق : ١٦٧ .
 حميد بن الصيمري : ١٩٩ .
 حية بن نكاز : ٢٦٨ .

حرف الخاء

- الخاطف (الجارية المغنية) : ٢٧٣ .
 خالد بن أسيد : ١٩٢ .
 خالد بن جعفر بن كلاب : ١٧٧ .
 خالد بن سعيد بن العاص : ٢٠٦ .
 خالد بن صفوان : ١٧٥ ، ٢٤١ .
 خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد : ١٩٢ .
 خالد بن عدي الجهني : ٢٣٢ .
 خالد الكاتب : ١٩٦ .
 خالد بن الوليد : ٢١٨ ، ٢٢٩ .
 الخالع : ٢٥٢ .
 خباب بن الأرت : ٢٣٣ .
 خلوب (جارية أبي أيوب القطان) : ٢٧٧ .
 الخليل بن أحمد : ٢٥٧ .

حرف الدال

- دارا : ١٧٤ .

- شريك بن عبد الله القاضي : ٢٢٩ .
 الشعبي : ١٦٩ ، ١٩٦ ، ٢٤٥ .
 شعلة (مغنية) : ٢٧٢ .
 شعيب النبي عليه السلام : ٢٠٩ .
 شقيق : ٢٤٢ ، ٢٤٣ .
 الشيباني = أبو عمرو .
 شيبة أبو الحارث وهو عبد المطلب جد
 رسول الله ﷺ : ٢١٠ .

حرف الصاد

- الصابي = أبو إسحق الكاتب .
 صالح بن عبد القدوس : ١٧٢ .
 صالح بن علي أبو عائذ الكرخي : ٢٥٠ ،
 ٢٧٧ .
 صالح بن مسمار : ٢٤١ .
 صباة النائحة ببغداد : ٢٧٩ .
 صخر بن حرب = أبو سفيان .
 الصولي = إبراهيم بن العباس .
 الصيمري = أبو زكرياء .

حرف الطاء

- طالوت : ١٨٠ .
 طاهر بن الحسين : ٢٩٠ .
 الطبري : ٢٠٨ .
 طيما ثاوس : ١٨٢ .

حرف الظاء

- ظلوم : ٢٥٦ .
 ظلوم جارية أبي سعيد الصائغ : ٢٧٧ .

حرف العين

- العاص بن وائل : ٢٢٣ .

- زياد بن عبد الله الحارثي : ٢٠٠ .
 زيد بن رفاعة : ١٦٢ .
 زيد بن عمر بن الخطاب : ٢١٠ .
 زيموس : ١٨٣ .

حرف السين

- سالم : ٢٠٧ .
 السروي : ٢٧١ .
 السري : ١٩٥ .
 سعيد بن جبير : ١٩٦ .
 سعيد بن عامر : ٢٢٩ .
 سعيد بن عمرو الجرشي : ٢٦٨ .
 سعيد بن القشب : ٢٠٦ .
 السفاح (أبو العباس الخليفة) : ١٩٩ .
 سقراط : ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
 ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ .
 السكري = أبو سعيد .
 السلامي : ٢٥١ .
 سلمة : ٢٨٨ .
 سلمة بن المحبق : ٢٠٠ .
 سلمى : ٢٨٨ .
 سليمى : ٢٧٩ .
 سليمان (عليه السلام) : ١٧١ .
 سندس (جارية ابن يوسف صاحب ديوان
 السواد) : ٢٧٥ .
 السندواني : ٢٧٧ .
 سولون : ١٨٩ .
 السيرافي = أبو سعيد .

حرف الشين

- شداد بن حكيم : ٢٤١ .

- عامة السلمي : ٢٣١ .
 عقبة بن عامر الجهني : ٢٢٩ .
 علوان المغني (غلام بن عرس) : ٢٧٨ ،
 ٢٧٩ .
 علوة (جارية ابن علوية) : ٢٧١ ، ٢٧٨ .
 عليا (جارية مغنية) : ٢٧٥ .
 علي بن أبي طالب : ١٧٩ ، ١٩٩ ، ٢٠٧ ،
 ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٨٢ .
 علي بن الحسن : ١٧٨ .
 علي بن عيسى بن ماهان العائذ : ٢٤٢ .
 علي بن عيسى الوزير : ١٩٣ ، ٢٥٧ ،
 ٢٨٨ .
 علي بن المهدي الطبري : ١٨٢ .
 علي بن هارون الزنجاني القاضي : ١٦٣ ،
 ٢٦٤ .
 عمر بن أبي ربيعة : ٢٧٥ .
 عمر بن الخطاب : ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ،
 ٢١٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٦٨ .
 عمرو بن الإطنابة : ١٧٧ .
 عمرو بن العاص : ١٧٧ ، ٢٠٦ ، ٢٢٣ ،
 ٢٨١ .
 عمر بن عبد العزيز : ٢٩١ .
 العمى : ٢٧٤ .
 عنان جارية الناظفي : ١٩٧ .
 عيسى المسيح عليه السلام : ١٦٦ ، ١٧١ ،
 ١٨٧ ، ٢٠٣ ، ٢٢٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ .
 عيسى الوزير : ٢٥١ .

حرف الغين

غالوس : ١٨٣ .

- عامر بن مالك : ١٧٧ .
 العامري : ٢٨٦ .
 العامري = أبو الحسن .
 عائشة رضي الله عنها : ٢٠١ .
 العباس بن الأحنف : ٢٥٦ ، ٢٧٧ .
 العباس بن الحسن العلوي : ٢٥٦ .
 العباس الصولي : ١٩٣ ، ٢٥٦ .
 العباس بن عبد المطلب : ٢٠٧ .
 عبد الحميد بن عبد العزيز : ٢٤٧ .
 عبد الحميد الكاتب : ١٩٩ .
 عبد الرحمن بن عوف : ٢١٨ .
 عبد الرحمن بن مدين : ٢٠٠ .
 عبد الرزاق المجنون صاحب الكيل بباب
 الطاق : ٢٧١ .
 عبد الله بن الجوشن الغطفاني : ١٧٧ .
 عبد الله بن خالد بن أسيد : ١٩٢ .
 عبد الله بن مسعود : ٢٣٢ .
 عبد المطلب جد النبي = شيبه .
 عبد الملك بن مروان : ١٩٢ ، ٢٠٤ ،
 ٢٥٦ .
 عبدة : ٢٧٩ .
 عبيد الله بن جحش : ٢٠٦ .
 عتاب بن أسيد : ٢٠٦ .
 عتبة بن عبيد أبو السائب القاضي : ٢٢٩ .
 عتبة بن المنذر السلمي : ٢٠٩ .
 عثمان بن أبي العاص : ١٨٧ .
 عروة بن الزبير : ٢٠٤ .
 عزيز : ٢٤٢ .
 عطاء السندي : ٢٠٢ .
 عقال بن عقيل : ٢٦٨ .

حرف الميم

- مالك بن دينار: ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٤.
 مالك بن عبادة الغافقي: ٢٣٢.
 مالك بن عمارة اللخمي: ٢٠٤.
 مانع: ١٩٥.
 المأمون (الخليفة): ٢٩٠.
 المبرد = محمد بن يزيد.
 المتوكل (الخليفة): ١٩٢.
 مجاهد: ٢٠٢.
 محرز: ١٩٥.
 محمد بن أسلم: ٢٤٤.
 محمد بن بهرام = أبو سليمان المنطقي.
 محمد بن الحسن الجرجاني: ١٩٢.
 محمد بن زكرياء: ١٧٤.
 محمد بن سلام: ٢٨٦.
 محمد بن العباس المنقري: ٢٢٩.
 محمد بن عيسى الملقب ببرغوث رأس
 الفرقة البرغوثية: ٢٨٢.
 محمد بن القاسم: ٢٤٥.
 محمد بن المرزيان: ٢٢٩.
 محمد بن مسلمة: ٢٢٣.
 محمد بن معشر البيستي أبو سليمان
 المقدسي: ١٦٣، ١٦٧، ١٧٠.
 محمد بن المنكدر: ٢٤٨.
 محمد بن موسى: ٢٨٢.
 محمد بن نحرير: ٢٠٠.
 محمد بن واسع: ٢٤٢.
 محمد بن يحيى البرمكي: ١٩٦.
 محمد بن يزيد المبرد: ٢٨٨.

غانم: ٢٦٧.

الغريب المخنث: ١٩٥.

الغراب (ماجن): ١٩٦.

غلام الأمراء = أبو العباس.

غلام بابا: ٢٨٠.

حرف الفاء

- فاطمة بنت الحسين: ٢٠٥.
 فاطمة بنت النبي ﷺ: ٢١٠، ٢٢٣.
 فائق الغلام: ١٦١، ٢٨٢.
 فتح: ٢٦٨.
 الفتح بن خاقان: ١٩٢.
 الفرضي = أبو الحسن.
 فضيل بن عياض: ٢٤٢، ٢٤٧.
 فيثاغورس: ١٧٩، ١٨٧.

حرف القاف

- قابوس صاحب جرجان: ٢٤٠.
 قاسم بن محمد: ٢٤٦.
 قبيصة بن ذؤيب: ٢٠٤.
 قبيصة بن المخارق: ٢٣٠.
 قدامة بن جعفر: ٢٥٦، ٢٥٧.
 القعقاع بن عمرو: ٢٠٧.
 قلم القضيبية المغنية: ٢٧٢.
 قنوة البصرية: ٢٧٤.

حرف الكاف

- كبل البقال: ٢٧٨.
 كسرى أنوشروان: ١٧٥.
 الكلبي: ١٧٧.
 الكنانة المقرئ: ٢٧٩.

المختار بن عبيد: ١٩٣.
 المدائني: ٢٠٢.
 مذكورة جارية مغنية: ٢٧٩.
 مرة: ١٩٤.

مرداويج الجيلي: ١٦٩.
 المرزباني = أبو عبد الله.
 مروان بن الحكم: ٢٠٦.
 مزيد: ١٩٤.

حرف النون

مسكويه: ١٦٢، ١٨٤.
 المسيح عليه السلام = عيسى.
 مشمشة المخنث: ١٩٣.
 مصعب بن الزبير: ١٩٢.
 مطر بن أبي الغيث: ١٧٢.
 مطرف بن محمد وزير مرداويج: ١٦٩.
 معاوية بن أبي سفيان: ١٩٩، ٢٠٦.
 معز الدولة البويهبي: ٢٧٩.
 المعلم غلام الحصري: ٢٧٤.
 معمر: ٢٤١.
 المغيرة: ٢٢٩.
 المغيرة بن شعبة: ٢٨١.
 المفضل الصيرفي: ٢٨٢.
 المفضل بن عمرو: ٢٨٢.
 المقداد بن الأسود: ٢٢٢.
 المقدسي = محمد بن معشر البيستي أبو سليمان.
 المنتشر بن وهب: ٢٨٩.
 المنصور = أبو جعفر الخليفة.
 منصور بن مهران: ٢٤٧.
 منقاريوس: ١٨٣.

النابعة: ٢٩١، ٢٣٨.
 ناشرة بن سمي: ٢٢٩.
 الناطفي: ١٩٧، ٢١٠.
 نافع: ٢٢٥.
 نجاح الكاتب: ٢٠١.
 النجاشي أصحابمة بن أبحر: ٢٠٦، ٢٢٤، ٢٢٦.
 نصر: ٢٦٨.
 نضلة: ١٩٣، ١٩٦.
 النظام: ٢١٦.
 النعمان بن بشير: ٢٣٠، ٢٣٨.
 النعمان بن المنذر: ٢٩١.
 نهاية (جارية): ٢٧١.
 النوشجاني: ١٦٩.
 النيسابوري = أبو تمام.

حرف الهاء

هشام: ١٩٤.
 هشام بن سالم: ٢٣٣.
 هشام بن عبد الملك: ٢٠٠، ٢٦٨.
 هند بن أسماء بن زبياع: ٢٨٩.
 هوميروس: ١٨٨.

٣١٩ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ .

ابن أيوب القطان : ٣٧٥ .

ابن بدر : ٣١٢ .

ابن برمويه : ٣٩٩ .

ابن البقال : ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٤٠٧ .

ابن الثلاث : ٣٩٨ .

ابن جبلة : ٣٩٩ .

ابن الجصاص الصوفي : ٣٣١ .

ابن حبيب : ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ .

ابن الأزرق الجرجاني : ٢٧٦ .

ابن إسحاق الطبري : ٢٧٥ .

ابن بهلول : ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

ابن حجاج الشاعر : ٢٧٤ .

ابن حرنبار = أبو محمد .

ابن حيويه : ٢٧٦ .

ابن حسان القاضي : ٣٧٥ ، ٣٧٧ .

ابن حفص (صاحب الديوان) : ٤٠٧ .

ابن درستويه : ٤٠٧ .

ابن الدقاق : ٣٧٩ .

ابن دينار : ٣١٥ .

ابن رباط الكوفي شيخ الكرخ ونائب

الشيعة : ٣٧٥ ، ٣٩٨ .

ابن الرضى : ٢٧٦ .

ابن الرفاء : ٢٧٣ .

ابن الزبير : ٣٩٠ .

ابن زرعة النصراني أبو علي .

ابن زياد : عبيد الله .

ابن السراج : ٢٨٨ ، ٤٠٨ .

ابن سكرة : ٣٣١ .

حرف الواو

الواسطي : ٢٧٦ .

واشق الأشجعي : ٢٣١ .

وهب (هو ابن منبه) : ٢٤٨ .

وهيب بن الورد : ٢٤٤ .

حرف الياء

يحيى بن أبي يعلى : ٢٠٥ .

يحيى بن زكريا عليه السلام : ١٧١ .

يحيى بن عدي النصراني : ١٧١ ، ١٨٣ .

يحيى بن علي : ٢٩٠ .

يحيى بن معاذ : ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

يعقوب بن الليثي : ٢٠١ .

يوسف بن يعقوب : ١٩٩ .

الجزء الثالث

حرف الألف

الأمدي : ٣٠٥

إبراهيم بن الجنيد : ٢٩٣

إبراهيم (الخليل) : ٢٩٣ ، ٣٣٨ .

الأبرش الكلبي : ٣٨٥ .

ابن أبي البغل : ٤١٦ .

ابن أبي بكر : ٢٩٤ .

ابن أحمد : ٤٠٣ .

ابن الأخشاد : ٣٩٨ .

ابن آدم : ٣٠٥ .

ابن آدم التاجر : ٣٧٥ .

ابن أسادة : ٣٠٥ .

ابن الأعرابي : ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ،

٢٩٠ ، ٢٩٨ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٤١٦ ،

- ابن السكيت: يعقوب .
 ابن سلام: ٣٠٦ .
 ابن السماك: ٣٧٧ .
 ابن سمعون: ٢٧٥ ، ٣٧٢ .
 ابن سورين: ٤٠٧ ، ٤٠٦ ، ٢٧٨ .
 ابن سيارة القاضي = أبو بكر .
 ابن سيرين: ٢٩٣ .
 ابن شاهويه = أبو بكر .
 ابن ضبعون الصوفي: ٣٣٠ .
 ابن الضحاك بن قيس الفهري: ٣٨١ .
 ابن طاهر: ٤٠٣ .
 ابن الطحان الضرير البصري: ٣٩٨ .
 ابن ظبيان التيمي: عبيد الله زياد بن ظبيان .
 ابن عامر: ٣٣٥ .
 ابن عباد (الصاحب): ٣٩١ ، ٢٩٢ .
 ابن عباس: ٣٢٨ ، ٣٣١ .
 ابن عبدل المنصوري: ٣٤٥ .
 ابنا عبيد: ٣١٧ .
 ابن عبيد الكاتب: ٣٢٩ .
 ابن عمر: ٢٩٤ ، ٣٢١ .
 ابن عياش (المتوف): ٣٨٥ ، ٣٨٧ .
 ابن غسان البصري: ٣٣٢ .
 ابن غسان القاضي: ٣٧٥ .
 ابن فارس = أبو الفتح .
 ابن قريعة: ٤٠٧ .
 ابن قرارة العطار: ٣٣٠ .
 ابن القرية: ٣١٦ .
 ابن كبرويه: ٣٧٨ .
- ابن كيسان: ٢٩٥ .
 ابن المبارك: ٢٩٣ .
 ابن معروف القاضي: ٣٤٥ ، ٣٧٥ ، ٣٩٣ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ .
 ابن مقله = أبو علي .
 ابن مكرم: ٣٢٧ ، ٣٧٥ .
 ابن نويرة: ٣٢٩ .
 ابن هبيرة = عمر .
 ابن الهيثم: ٣٩٧ .
 ابن وصيف: ٤٠٣ .
 ابن اليزيدي: ٤١١ .
 ابن يوسف = عبد العزيز .
 أبو أحمد الجرجاني: ٣٧٥ .
 أبو أحمد الموسوي: ٣٧٩ .
 أبو أحمد بن الهيثم: ٤٠٧ .
 أبو الأرضة: ٣٧٨ .
 أبو إسحاق الصابئ: ٣٧٨ ، ٤٠٧ .
 أبو الأسود الدؤلي: ٣٠٨ ، ٣٨٧ .
 أبو أمية بن المغيرة: ٣١٨ .
 أبو أيوب الأنصاري: ٢٩٦ .
 أبو بردة بن أبي موسى الأشعري: ٣٨٧ .
 أبو بكر بن شاهويه: ٣٧٢ .
 أبو بكر أحمد بن إبراهيم: ٢٩٥ .
 أبو بكر الرازي: ٣٧٥ ، ٣٧٧ .
 أبو بكر الزهري: ٤٠٧ .
 أبو بكر بن سيار القاضي: ٣٧٥ .
 أبو بكر الصديق: ٢٩٦ ، ٣٤٧ ، ٣٧٢ ، ٣٩٩ .
 أبو بكر = عبد الله بن الزبير .

- أبو تمام الزينبي: ٣٤٥، ٣٧٥، ٤٠٧.
- أبو تمام (الشاعر): ٣٩٢..
- أبو الجراح (ابن عياش): ٣١٨، ٣١٩، ٣٨٧.
- أبو جعفر المنصور (الخليفة): ٣٨٩.
- أبو الجوزاء: ٣٠٧.
- أبو حاتم: ٣٣٣.
- أبو الحارث حميد: ٣١١.
- أبو الحارث = الليث بن سعد.
- أبو حازم المدني: ٢٩٤.
- أبو حامد المرورودي القاضي: ٣٤٥، ٣٩٣، ٤٠٧.
- أبو حزة = جرير الشاعر.
- أبو الحسن: ٣٧٥.
- أبو الحسن الضرير: ٢٤١.
- أبو الحسن الطوسي: ٢٩٧: ٢٩٨.
- أبو الحسن العامري: ٢٤٢.
- أبو الحسن = علي بن عيسى الرماني.
- أبو الحسن الهيثم: ٣٠٠.
- أبو الحسين البني: ٣٤٥.
- أبو حنيفة (الإمام): ٣٨٩.
- أبو خالد الكاتب = أحمد.
- أبو خالد مروان بن الحكم: (كذا) ٣٨١، ٣٨٩.
- أبو الخطاب الصابي: ٤٠٧.
- أبو خليفة المفضل بن الحباب: ٢٩٥.
- أبو الخندف: ٣٩٠.
- أبو الخير: ٣٤٨.
- أبو دلالة الأسدي: ٣٠٤.
- أبو الدود: ٣٧٨.
- أبو الذباب: ٣٧٨.
- أبو زكرياء الزاهد: ٣٤١.
- أبو زيد (النحوي)، ٣١٠، ٣٩١.
- أبو زين = بكر بن نطاح.
- أبو سعيد الحضرمي: ٣٩٦.
- أبو سعيد الخدري: ٢٩٤.
- أبو سعيد الخراز: ٣٤٣.
- أبو سعيد السيرافي: ٣٣٤، ٣٦٢، ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٨٨، ٣٩٩، ٤٠٢، ٤٠٧.
- أبو سعيد بن العاص: ٣٨٢.
- أبو السفر: ٣٨٢.
- أبو سفيان (والد معاوية): ٣٨٧.
- أبو سليمان المنطقي: ٣٣٨، ٣٤٣، ٣٥٩، ٣٥٨، ٣٤٩، ٣٤٨، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٩.
- أبو السؤل الكردي: ٤١٤.
- أبو شاكر بن هشام بن عبد الملك: ٣٨٥.
- أبو صالح: ٣٣١.
- أبو الصلت: ٣٢٢.
- أبو طفيلة الحرمازي: ٣٣٣.
- أبو الطمحان القيني: ٣٢٩.
- أبو العباس (صاحب جيش آل سامان): ٣٤٠.
- أبو العباس المبرد: ٣١٩، ٣٩٢.
- أبو عبد الله البصري: ٤٠٧.
- أبو عبد الله (هشام): ٢٩٧.

- أبو عبد الله اليزيدي: ٣٢٥.
- أبو عبد الله اليفرنّي: ٤٠٧.
- أبو عبيدة: ٢٩٧، ٣١١، ٣١٦.
- أبو عثمان الآدمي: ٣٩٨.
- أبو العلاء ساعد: ٤٠٧.
- أبو علقمة: ٣٩١.
- أبو علي: ٣٦٢، ٢٩١.
- أبو علي الحسن بن علي القاضي التنوخي: ٣٧٢.
- أبو علي = عيسى بن زرعة.
- أبو علي = عامر بن الطفيل.
- أبو علي بن مقلّة: ٣٣٠.
- أبو عمر الشاري: ٣٣٠.
- أبو عمرو: ٣٠٨، ٣٢١.
- أبو عمرو بن أمية: ٣١٨.
- أبو عيسى الوراق: ٣٩٥.
- أبو العيناء: ٣٢٧.
- أبو الفتح بن فارس: ٤٠٣.
- أبو فراس (الفرزدق): ٣٨٣، ٣٩١، ٣٩٢.
- أبو فرعون الشاشي: ٣٠٩، ٣٢٧.
- أبو فرعون العدوي: ٢٩٥.
- أبو الفضل العباس بن الحسين الوزير = العباس بن الحسين الوزير.
- أبو القاسم الحارني: ٣٩٣.
- أبو القاسم أخو محمد القاضي: ٤٠٨.
- أبو القاسم = عبد العزيز بن يوسف.
- أبو قحافة: ٣٨٢.
- أبو القمقام: ٣٢٧.
- أبو الكرشاء: ٣٠٨.
- أبو كعب الأنصاري: ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٩٨.
- أبو لهب: ٣٨٩.
- أبو محمد = الحجاج بن يوسف الثقفي.
- أبو محمد بن حرنبار (كذا): ٣٧٢.
- أبو محمد الشالوسي: ٣٧٥.
- أبو محمد العروضي: ٣٩٢.
- أبو محمد الفارسي: ٤٠٧.
- أبو محمد القاضي: ٤٠٨.
- أبو محمد = مسعر بن مكرم.
- أبو محمد المهلي: ٤٠٦.
- أبو مرزوق: ٣٠٥.
- أبو مزيد: ٤١٢.
- أبو مطر = عبيد الله بن زياد بن ظبيان التيمي: ٣٩٠.
- أبو منصور القطان: ٣١٤.
- أبو موسى الأشعري: ٣٨٧.
- أبو النجم: ٣٠٤.
- أبو النفيس: ٣٦٧.
- أبو النوايح: ٣٧٨.
- أبو هريرة: ٣١٥.
- أبو همام: ٣٩٩.
- أبو الوفاء المهندس: ٣٧٨ - ٣٧٧.
- أبو يزيد البسطامي: ٣٤٣.
- أبو يوسف (حاجب عبد الملك بن مروان): ٣٨٣.
- أحمد بن إبراهيم = أبو بكر.
- أحمد بن أبي خالد الكاتب: ٣٣٣.

- أحمد بن روح الأهوازي: ٣٣١.
 أحمد الطويل: ٤٠٧.
 أحمد بن يوسف الكاتب: ٣٣٣.
 الأحنف بن قيس: ٣٢١، ٣٨٥.
 الأحوص الشاعر: ٣٩١.
 الأخطل الشاعر: ٣٩٠.
 أردشير: ٣١٢.
 أرسطوطاليس: ٣٤٥.
 إسحاق (النبي): ٣٣٢.
 إسحاق الموصلي: ٣٣٢، ٣٣٣.
 أسد بن عبد العزى: ٣١٨.
 أسد المحاسبي: ٣٤٣.
 أسعد بن زرارة: ٢٩٦.
 الإسكندر: ٣٤٤.
 أسماء بن خارجة: ٢٩٢.
 أسماء بنت عميس: ٣٢٨، ٣٩٠.
 أسود الزيد: ٣٧٨.
 الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى: ٣١٨.
 أسيد = أبو خالد.
 الأصمعي: ٢٩٤، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣١١، ٣١٣، ٣٢١، ٣٣٣.
 الأعشى: ٢٩٧، ٣١٦، ٣٨٦.
 الأعمش: ٢٩٣.
 أم أيوب: ٢٩٦.
 أم البنين: ٢٩٤.
 أم الجلال: ٣٨٦.
 أم الخندف: ٣٩٠.
 أم عبّاد: ٣١٧.
 أم هشام السلولية: ٣٠٠.
 أمية أخو خالد: ٣٨٥.
 أمية بن عبد الله بن خالد: ٣٨٤.
 الأندلسي (أبو العباس): ٣٠٠، ٣٦٠.
 الأنصاري بن كعب: ٣٩٨.
حرف الباء
 بثينة جميل: ٣٨٣.
 البحري: ٣٩٢.
 بختيار (عز الدولة) ٣٣٢، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٤١٠.
 بشار (ابن برد): ٣٠٧.
 بكر بن عبد الله المزني: ٢٩٣.
 بكر بن نطاح: ٣١٧.
 بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري: ٣٨٧، ٣٩١.
 بهرام: ٤٠٥.
 بهرام جور: ٣٨٦.
حرف الشاء
 ثابت (ابن عبد الله بن الزبير): ٣٨١، ٣٨٢.
 ثمامة (ابن حوشب): ٣٨٤.
 الثوري: ٢٩٧، ٣٠٧.
حرف الجيم
 جابر (ابن عبد الله): ٣١٢، ٣٢١.
 جابر بن قبيصة: ٣١٤.
 الجاحظ: ٢٩٢، ٢٩٣.
 جالينوس: ٣٦٢.
 الجرجاني: ٤٠٨.

الحسن بن علي القاضي التنوخي = أبو
 علي الحكم بن أبي سليمان: ٣٨١.
 حماد بن أبي سليمان: ٢٩٤.
 حماد بن أبي حنيفة: ٣٨٩.
 حماد الراوية: ٣٢٦.
 حمالة الحطب: ٣٨٩.
 حمدان: ٣٣١.
 حمران: ٣٩١.
 حمزة بن بيض الحنفي: ٣٩١.
 حمزة المصنف: ٣٣٤.
 حملة ابن عاد (كذا): ٤١٦.
 حميد: ٣٣٥.
 الحنبلوني (كذا): ٣٠٥.
 حوشب: ٣٠١، ٣٨٤.

حرف الخاء

خالد بن أسيد: ٣٨٢، ٣٨٤.
 خالد الخصي: ٤٠١.
 خالد بن صفوان بن الأهمتم: ٣٢٢، ٣٨٣.
 خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد: ٣٨٤.
 خالد بن عبد الله (القسري): ٣٨٧.
 خالد القرشي: ٣٨٤.
 خالد بن الوليد: ٣٨١.
 خالد بن يزيد بن معاوية: ٣٨٨.
 الخطاب (والد عمر): ٣٤٦.
 خديجة (أم المؤمنين): ٣٩٠.
 الخليل: ٤٠٩.
 خيثة: ٢٩٣.

حرف الدال

دفيف (كذا): ٣١٥، ٣١٧.

الجرجائي: ٤٠٨.
 جرير (الشاعر): ٢٩٦، ٣٩١، ٣٩٢.
 جعل: ٣٧٥.
 جعيفران الموسوس: ٣٢٤.
 جميز: ٣٤٦.
 جميل: ٣٨٣.
 الجنيد بن عبد الرحمن: ٣٨٨.
 الجنيد بن محمد الصوفي البغدادي
 العالم: ٣٤٣.
 جهم: ٣٩٨.
 الجواليقي: ٣٩٤.

حرف الحاء

حاتم الأصم: ٢٩٣، ٣٣٥.
 حاتم الطائي: ٣١٣.
 الحاتمي: ٣٦٠.
 الحارث بن أسد المحاسبي: ٣٤٣.
 حاطب بن أبي بلتعة: ٣٨٨.
 حامد اللقاف المتزهده (كذا): ٢٩٣.
 الحجاج (ابن يوسف الثقفي): ٣٣٣،
 ٣٧٧، ٣٨٣، ٣٨٨، ٣٩٠.
 الحجاجي: ٣٢٨.
 حذيفة: ٣٤٦.
 حسان (ابن ثابت): ٣١١، ٣٨١، ٣٨٨.
 الحسن: ٢٩٤.
 الحسن البصري: ٣٠٩، ٣١٠، ٣٧٧،
 ٣٧٨، ٤٠٧.
 الحسن بن سهل: ٣٣٥.
 الحسن بن علي بن أبي طالب: ٢٩٢،
 ٣٨٩.

دوس : ٢٩٦ .

ديك الجن : ٣٠٨ .

حرف الذال

ذؤيب بن عمرو : ٢٩٩ .

حرف الراء

الربضي : ٣٧٣ .

رجاء بن سلمة : ٢٩٩ .

رستم (صاحب الأعاجم) : ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

رقية بن مصقلة : ٣٠٩ .

رويم : ٣٤٣ .

حرف الزين

زامل بن عمر : ٣٨٨ .

الزبرقان بن قدر : ٣٨٠ .

الزبير : ٣٨٤ .

الزبيريّ : ٢٩٨ ، ٣٧٥ .

زفر بن الحارث الكلابي : ٣٨٤ .

الزهري : ٣٤٥ .

زهير (ابن أبي سلمى) : ٣١٢ ، ٣٩٢ .

الزهيري : ٣٩٨ .

زياد : ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،

٣٣٤ ، ٣٨٥ .

حرف السين

سابق الزبيرى : ٣٢٩ .

ساسنكر التركي (كذا) : ٤٠٨ .

سالم : ٢٩٩ .

سالم بن دارة : ٣٨٢ .

السري : ٤٠٦ .

سعد بن أبي وقاص : ٣٤٦ .

سعد بن عبادة : ٢٩٦ ، ٣٨٣ .

سعد المعالمي : ٤١٤ .

سعيد بن سلمة : ٣٣٥ .

سعيد بن العاص : ٣٨٢ .

سعيد بن عبد الرحمن بن حسان : ٣٨٣ .

سعيد بن عثمان بن عفان : ٣٨١ .

سعيد بن أبي عروة : ٣٣٣ .

سعيد بن المسيب : ٣٠٧ .

السفاح بن بكر : ٣٣٤ .

سمويه القاصّ : ٣٠٢ .

سفيان الثوري : ٣١٠ .

سفيان بن معاوية المهلبى : ٣٨٩ .

سلمان (أي سليمان) : ٢٩٥ .

سلمان الفارسي : ٣٣٤ .

سلمة : ٣٢٧ .

سليمى : ٣١٠ .

سليمان بن ثوبة : ٢٩٥ .

سليمان (ابن داود عليه السلام) : ٣٠٦ ،

٣٤٧ .

سليمان بن عبد الملك : ٣٨٣ ، ٣٨٤ ،

٣١١ .

سماعة بن أشول : ٣١٨ .

سنان بن أبي حارثة : ٣٣٤ .

السيرافي = أبو سعيد .

حرف الشين

الشالوسي = أبو محمد .

شرف بن ميرة : ٤١٥ .

الشعبي : ٣٠٨ ، ٣٩٠ .

شقيق البلخي : ٣٣٥ .

عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : ٣٨١ ،
٣٨٣ .

عبد الرحمن بن حوشب : ٣٨٠ .

عبد الرحمن بن خالد بن الوليد : ٣٨١ .

عبد الرحمن بن سعيد القرشي : ٤٠١ .

عبد العزيز بن يسار : ٣٠٠ .

عبد العزيز بن يوسف : ٣٧٢ ، ٣٧٣ ،
٤١١ .

عبد الله بن الزبير : ٣٨١ ، ٣٩٠ .

عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي :
٣٨٩ .

عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس :
٣٣٠ .

عبد الملك بن مروان : ٣٣٥ ، ٣٨١ ،
٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٤٠١ .

عبيد الله بن زياد : ٣٨٧ .

عبيد الله بن زياد بن ظبيان : ٣١٦ ، ٣٨٥ .

عبيد الله بن سليمان : ٣٣٩ .

عبيد الله بن عباس : ٣١٢ .

عتبة بن أبي سفيان : ٣٨٧ .

عثمان بن خالد : ٣٩٧ .

عثمان بن رواح : ٣١١ .

عثمان بن عفان : ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٩٠ ،
٤٠٠ .

عدة الدولة : ٣٧٦ .

عرام بن شتير : ٣٨١ .

عروة بن الزبير : ٣٩٠ .

العريان بن الهيثم الهجيمي : ٣٨٧ .

عز الدولة = بختيار : ٣٣٢ ، ٣٧٤ ،

٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٤١٠ .

شمر (ابن عاد) (كذا) : ٣١٦ .
الشنبوذي : ٢٩٨ .

حرف الصاد

الصائب = أبو إسحاق .

صعصعة : ٣٨٧ .

صفية (أم المؤمنين) : ٣٩٠ .

صهيب : ٢٩٦ .

حرف الضاد

الضحاك بن قيس الفهري : ٣٨١ ، ٣٨٤ .

حرف الطاء

طاهر بن محمد بن إبراهيم : ٤٠٣ .

طفيل (ابن عاد) (كذا) : ٣١٦ .

طفيل العرائس : ٣١٩ .

طلحة بن عبد الله : ٣٨٨ .

طلحة بن عبيد الله : ٣١٤ .

الطوسي : ٢٩٨ .

حرف العين

عادية بنت فرعة الزبيرية (كذا) : ٢٩٦ .

عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن

كلاب العامري : ٣٢٧ .

عامر بن عبد القيس : ٣٣٥ ، ٣٩٠ .

عائشة (أم المؤمنين) : ٢٩٥ ، ٣٢٧ ،

٣٩٠ ، ٣٩٩ .

عباد بن زياد : ٣٨٣ .

العباس بن الحسين الوزير : ٤٠٦ ، ٤٠٧ .

العبداني : ٣٨٩ .

عبد الأعلى القاص : ٢٩٩ .

عبد الرحمن بن الحارث بن هشام : ٣٨٩ .

عصد الدولة : ٣٧٢ .
 عطاء بن أبي صيفي : ٣٨١ .
 عقبة : ٣١٨ .
 عقيل (ابن أبي طالب) : ٣٨٩ ، ٣٩٠ .
 عقيل بن علفة : ٣٢١ .
 عكرمة بن ربعي الشيباني : ٣٠١ .
 عليم بن خالد الهجيمي : ٣٨٥ .
 علي بن أبي طالب : ٣٩٠ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ .
 علي بن عبد الله : ٣٨٨ .
 علي بن عبد الله بن العباس : ٣٢٠ .
 علي بن عيسى : ٢٩٩ .
 علي بن عيسى الرماني (أبو الحسن) :
 ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ .
 علي بن محمد (رسول سجستان) : ٣٩٩ .
 علي بن محمد ذو الكفائتين : ٤٠٩ .
 عمار : ٣٠١ .
 عمار (ابن عاد) (كذا) : ٣١٦ .
 العماني الشاعر : ٣٢٠ .
 عمر (ابن الخطاب) : ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،
 ٣١٤ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ،
 ٣٤٦ ، ٣٣٦ .
 عمر بن عبد العزيز : ٣٩٠ ، ٢٩٤ .
 عمر بن عمران : ٢٩٥ .
 عمر بن هبيرة الفزاري : ٣١١ ، ٣٨٢ ،
 ٣٨٧ .
 عمرو بن الأهم التميمي : ٣٨٠ .
 عمرو بن العاص : ٣١٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ .
 عمرو بن عثمان المكي : ٣٤٣ .
 العوامي : ٣٠٥ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

عيسى بن زرعة : ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٦١ ،
 ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٩٩ .
 عيسى بن عمر : ٢٩٩ .
 عيسى بن مريم (عليه السلام) : ٢٩٣ ،
 ٣٨٨ .
حرف الغين
 الغلابي : ٣٨٦ .
 غيلان الواعظ : ٣٩٠ .
حرف الفاء
 الفتح الموصلي ٣٤٣ .
 فخر الدولة : ٤١٠ .
 الفراء : ٢٩٧ .
 فرح الرخجي : ٢٩٧ .
 الفرزدق : ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٢١ ، ٣٨٣ ،
 ٣٩١ .
 فريعة : ٣٨٢ .
 فضل (رئيس الفرقة التي تنسب إليه) :
 ١٨٨ .
 الفضل بن العباس : ٣٣٢ .

حرف القاف

قتادة : ٢٣٦ .
 قتيبة (ابن مسلم) : ٣٠٧ ، ٣٨٥ .
 قرزعة بن عاد (كذا) : ٣١٧ .
 القومسي : ٤٠٨ ، ٤١٠ .
 قيس بن سعد بن عبادة : ٣٨٣ ، ٣٨٤ .
 قيصر : ٤٠٢ .

حرف الكاف

الكروسي الشاعر : ٣٠٦ .

المدائني: ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤،
 ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠.
 مرثد (ابن حوشب): ٣٨٤.
 مرعوش (رئيس الطائفة المرعوشية):
 ٣٩٣.
 المرقش الأكبر: ٣١٣.
 مروان بن الحكم = أبو خالد.
 مزبد: ٣٢٨، ٣٣٢.
 مسافر بن أبي عمرو بن أمية: ٣١٨.
 مسعر بن مكرم: ٣٠٩.
 مسكويه: ٤١٤.
 مسكين الدارمي: ٣٨٧.
 مسلم بن قتيبة: ٣٠٨، ٤٠٠.
 مسلمة بن عبد الملك: ٣٨٠، ٤٠١.
 المسيح (عليه السلام): ٣٩٩.
 مصعب بن الزبير: ٣٨٤.
 مطرف بن عبد الله بن الشخير: ٣١٥.
 المطلب بن أسد بن عبد العزى: ٣١٨.
 مطهر بن أحمد الكاتب: ٣٣٠.
 المطيع لله (أمير المؤمنين): ٣٧٦.
 معاوية (ابن أبي سفيان): ٣١٤، ٣٢٢،
 ٣٨١، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٨، ٣٨٩،
 ٣٩٠.
 معاوية بن صعصعة: ٢٩٩.
 معاوية المهلبي: ٣٨٩.
 المعتصم الخليفة: ٣٤٧.
 المعتضد (الخليفة): ٣٣٨، ٣٣٩،
 ٣٤٧.
 المعلّى بن أيوب: ٤٠٠.

كسحج البقال (كذا): ٤١٤.
 كسرى: ٣٨٦، ٤٠٢.
 الكلابي: ٢٩٨.
 كلثوم بن الهدم: ٢٩٦.
 الكميت: ٢٩٧.
 الكندي: ٣٦٤.
 كهمس (كذا): ٢٩٥.

حرف اللام

لقمان (الحكيم): ٣٣٥.
 لقمان بن عاد: ٣١٦.
 لقيط بن زرارعة: ٣٢٩، ٣٤٥.
 الليث بن سعد: ٢٩٣.

حرف الميم

مالك بن دينار: ٢٩٣.
 مالك (ابن عاد): ٣١٦.
 مالك بن مسمع: ٢٨٨.
 المأمون (الخليفة): ٣٤٧، ٤٠٠.
 المبرد = (أبو العباس).
 مجاهد: ٣١٢.
 المحسن الضبي: ٣٣٤.
 محمد بن إبراهيم: ٣٤٠، ٤٠٣، ٤١٠.
 محمد بن بشير: ٣٠٥.
 محمد بن بقية: ٣٠٨.
 محمد بن خالد القرشي: ٣٨٤.
 محمد بن صالح بن شيان: ٣٧٥.
 محمد الصوفي البغدادي العالم: ٣٤٣.
 محمد بن عمارة: ٣٨٢.
 محمد بن عمر (الشريف): ٣٤٥.

معن بن أوس : ٣٠٠.

معن بن زائدة : ٣٨٩.

المغيرة بن شعبة : ٣١٤.

المفجع : ٣٠٩.

المفضل الضبي : ٣٩٠.

المقوقس (ملك الإسكندرية) : ٣٨٨.

المنصور (أبو جعفر الخليفة) : ٣٣٠،

٣٤٧، ٣٧٨، ٣٨٩.

منظور بن أبان : ٣٨٨.

المهلب (ابن أبي صفرة) : ٣٣٦.

مهلهل (ابن ربيعة الشاعر) : ٣٠٠.

موريس : ٣٦٢.

الموصللي (أبو إسحاق) : ٣٧٩.

ميسرة الرءاس : ٣٣٢.

ميمون بن مهران : ٢٩٣.

حرف النون

النابعة الشاعر : ٣٢٩، ٣٩٢.

نصر بن سيار : ٣٤٥.

نئض (ابن عباد كذا) : ٤٤٧، ٤١٦،

٤١٧، ٣٤٧، ٣٨٨.

حرف الهاء

هدية العذرى : ٤٠٢.

هرمز : ٢٤٧.

هشام : ٢٩٧.

هشام بن عبد الملك : ٢٩٩، ٣٨١،

٣٨٤، ٣٨٥، ٣٩٠، ٤٠١.

هشام المتكلم : ٣٩٤.

هشيم : ٣٠٦.

هلال بن مكمل النميري : ٣٨٢.

الهلاللي : ٣١٥.

هميان بن قحافة : ٣٠٧.

الهيثم بن جراد : ٣٢١.

حرف الواو

واصل بن عطاء : ٣٧٧.

الواقدي : ٢٩٦.

وكيع بن الجراح : ٣٣٠، ٣٨٧.

الوليد العنبري : ٣٨٢.

حرف الياء

يحيى بن أكنم : ٣٣١.

يحيى بن زكريا : ٣٨٨.

يحيى بن معاذ : ٣٣٦.

يزيد بن ربيع : ٣٣٠.

يزيد بن مسلم : ٣٨٣.

يزيد بن معاوية : ٣٨٨.

اليزيدي = أبو عبد الله.

يعقوب بن السكيت : ٣١١، ٣٣٥، ٣٤٦.

يونس : ٣١٢، ٣٢٩.

فهرس أسماء الأماكن

حرف الحاء

حضر موت: ٧٧

حرف الخاء

خرسان: ٥٤، ٧٤، ١٠٩، ١٥٤.

خوارزم: ٧٣.

حرف الدال

دارك: ١٠٨.

دبا: ٧٦.

دومة الجندل: ٧٦، ٧٧.

حرف الذال

ذو المجاز: ٧٧.

حرف الراء

راغة = الري

الراية: ٧٧

الري: ٣٤، ٥٠، ٥١، ٥٩، ١٠٥،

١٠٨.

حرف السين

سجستان: ٥٤، ١٠٢.

سُرْمَنْ رَأَى: ٦٩.

سَنْجَان: ٥٤.

حرف الشين

الشام: ٣٨، ٧٦، ١٣٧.

الجزء الأول

حرف الألف

أرجان: ٣٥.

إرم: ٧٦.

أردوال = أردوان: ٧٤.

أسكنان: ٧٤.

أصبهان: ٦٥.

أندلس: ٧٣.

الأهواز: ٣٥، ١٠٣.

حرف الباء

باب الجسر: ٥٩.

بابهان = أرجان.

بغداد: ٣٤، ٣٥، ٤٨، ٥٤، ١٠٣،

١٠٨.

البيت العتيق: ٤٥.

البيمارستان: ٥٠.

حرف التاء

تفليس: ٦١.

حرف الجيم

جرجان: ٥٩.

جيهان: ٧٤.

- الشيح: ٧٦.
- حرف الصاد**
- صحار: ٧٦.
- صفين: ٦٩.
- صنعاء: ٧٧.
- الصين: ٧٠.
- حرف الطاء**
- طيبة: ٧٤.
- حرف العين**
- عدن: ٧٦.
- العراق: ٣٨، ٤٥، ٧٦.
- عرفة: ٧٧.
- عكاظ: ٧٧، ١٥٣، ١٥٤.
- عمان: ٧٦.
- حرف الفاء**
- فرغانة: ٦١، ٧٤.
- حرف الميم**
- مدينة السلام = بغداد.
- المشقر: ٧٦.
- مصر: ٦١، ٩٠.
- حرف النون**
- نجد: ١٣٨.
- الثوبة: ١٢١.
- نيسابور: ١٠٨.
- حرف الهاء**
- هجر: ٧٦.
- همدان: ٦٠، ١٠٧.
- الهيبر: ٧٤.
- الهند: ٧٤، ١٢١، ١٢٦.
- حرف الواو**
- وبار: ٧٥.
- حرف الياء**
- بيرين: ٧٤.
- يونان: ١٢٤، ١٢٦.
- الجزء الثاني**
- حرف الألف**
- الأبلة: ٢٠٠.
- الأبواء: ٢١٠.
- أحد: ٢١٨.
- أدمى: ١٧٧.
- أرمينية: ٢٢٤.
- الإسكندرية: ١٩٥.
- أصبهان: ٢٦٤، ٢٧٣.
- حرف الباء**
- باب الطاق: ١٧٦، ٢٧١.
- البحرين: ٢٠٦.
- بدر: ٢٢٢.
- البصرة: ١٦٣، ١٩١، ٢٠٠، ٢٧٣.
- بغداد: ١٨٢، ٢٧٩، ٢٨٢، ٢٩٠.
- بيستي: ١٦٣.
- بين السورين: ٢٧٤.
- حرف التاء**
- تبراك: ١٦٢.
- تثليث: ٢٨٩.

ترباع: ١٦٢.

تعشار: ١٦٢.

حرف الجيم

جرجان: ٢٤٠.

جرش: ٢٠٦.

الجفرة: ١٩١.

جبي: ٢٦٤.

حرف الحاء

الحجاز: ٢٠٤.

الحديبية: ٢٣٢.

حنين: ٢٣١، ٢١٩.

حرف الخاء

خراسان: ١٦٩، ٢٠٠، ٢٧٨.

حرف الدال

دار القطن: ٢٧٢.

ديبق: ٢٧٨.

دجلة: ٢٩١.

درب الزعفراني: ٢٧٤.

درب السلق: ٢٧١.

حرف الراء

الرصافة: ٢٧٦.

الري: ١٧٤، ١٨٤، ٢٦٤، ٢٩٠.

حرف الزين

زباله: ٢٦٣.

حرف السين

سجستان: ١٩٠.

السندية: ٢٧٧.

سوق العطش: ٢٨٠.

حرف الشين

شاش خراسان: ٢٧٩.

الشام: ٢٠٥، ٢٠٩.

شطا: ٢٧٨.

حرف الصاد

الصراة: ١٩٧.

صريفين: ٢٧٨.

صفين: ١٩٩.

صنعاء: ٢٠٦.

الصين: ٢٣٥.

حرف الطاء

الطائف: ٢٠٦.

حرف العين

العراق: ١٨١، ١٩٠، ١٩٦، ٢٠٤،

٢٥١، ٢٠٥.

عقبة همذان: ٢٩٠.

عمان: ٢٠٦.

حرف الفاء

فدك: ١٧٨، ٢١٨.

حرف القاف

القادسية: ٢٦٤.

قزوين: ١٧٠.

قف النخلتين: ١٧٨.

حرف الكاف

الكرخ: ١٩٦، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٨، ٢٨٠.

الجزء الثالث حرف الألف

أجياد: ٣٨١.

أحد: ٣٨٣.

أذربيجان: ٣٧٦.

أردبيل: ٣١٤.

الإسكندرية: ٣٦٢.

أصبهان: ٣٠٥، ٣٢٧.

الأهواز: ٣٢٧.

حرف الباء

باب الطاق: ٣٣٨، ٣٩٣.

باجميري: ٣٠٠.

البصرة: ٣٠٩، ٣٧٢، ٣٨٤، ٣٩٣،

٤١٤.

البطائح: ٤١٤.

بغداد (دار السلام): ٣٢٧، ٣٩٣، ٣٩٨.

البقيع: ٢٩٨.

البيت (بيت الله الحرام): ٣٠٦.

البيضاء: ٣٧٣.

بين السورين: ٣٧٩.

حرف التاء

تباله: ٣٨٥.

تستر: ٣٢٦.

تهامة: ٣٠٦.

حرف الجيم

الجامع: ٣٧١.

جامع البصرة: ٣٤٥.

جبال شمام: ٣٧١.

الكعبة اليمانية = ذو الخليفة.

كلواذي: ٢٧٣.

الكوفة: ١٩١، ١٩٥، ٢٢٩.

حرف الميم

المدينة: ٢٠٥، ٢١٠، ٢٢٢، ٢٤٧،

٢٦٧، ٢٧٢.

المريد: ١٩٦.

المشرق: ١٧٤.

مصر: ١٩٩.

مطرق: ١٧٧، ١٧٨.

المغرب: ١٧٤.

مكة: ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٠.

منى: ٢٨١.

الموصل: ٢٩١.

حرف النون

نجران: ٢٠٦.

نيسابور: ١٦٩.

حرف الهاء

الهند: ١٦٣، ٢٣٥.

حرف الواو

الوراقين: ١٦٧.

حرف الياء

بيرين: ٢٨٦.

اليمن: ١٩٩.

اليهودية: ٢٦٤.

حرف الطاء

الطائف: ٣٩٠.

حرف العين

العراق: ٣٨٧، ٣٨٨، ٤٠٤، ٤١٠.

العقيق: ٣٢٧.

عمان: ٣٨٥.

حرف الغين

الغضا: ٣١١.

حرف الفاء

فارس: ٣٢٦، ٣٤٤، ٣٤٧.

حرف القاف

قبا: ٢٩٦.

قرميسين: ٤٠٣، ٤١٣.

قزوين: ٣١٤.

قنطرة الزيد: ٣٧٨.

حرف الكاف

الكرخ: ٣٧٥، ٣٧٨.

الكعبة: ٣٩٥.

الكوفة: ٣٢١، ٣٣٢، ٣٤٦، ٣٧٤،

٣٧٥.

حرف الميم

المدينة: ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٣، ٣١١،

٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤.

مدينة السلام (بغداد): ٣٧٤، ٣٧٥،

٤١٠.

مسجد بن رغيان: ٣٧٩.

مشرة الروايا: ٤١١.

الجبيل: ٣٧٦، ٤١١.

جرجان: ٣٩٥.

حرف الحاء

الحجاز: ٣٧٦.

الحرم: ٣٠٦.

حرف الخاء

خراسان: ٣٤٦، ٣٧٧، ٣٨٤، ٣٨٨،

٤٠٠.

حرف الدال

درب الحاجب: ٤١٣، ٤١٤.

درب الرواسين: ٤١٣.

حرف الراء

رحى البطريق: ٣٧٨.

الرصافة: ٤٠١، ٤٠٤.

الري: ٢٩٢.

حرف السين

سجستان: ٣٧٥، ٣٩٦، ٣٩٩.

سلمى: ٤٠٢.

سوق يحيى: ٣٧٥.

حرف الشين

الشام: ٣٢١، ٣٧٩، ٣٨١، ٣٧٥.

حرف الصاد

الصراة: ٣٧٨.

صفين: ٣٩٠.

صنعاء: ٤٠٤.

الصين: ٣٥٨.

نصييين : ٣٧٤ .	مصر : ٣٧٥ ، ٣٨٩ .
النقيع : ٢٩٨ .	مكتب الربضي : ٣٧٣ .
نهر الصراة : ٣٧٨ .	مكة : ٣٠٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٣ ، ٣٤٧ ،
نيسابور : ٣٤٠ ، ٣٨٨ ، ٤١٠ .	٣٨٢ ، ٣٨١ .
حرف الهاء	مهرجان قذق : ٣٢٦ .
همذان : ٣٧٢ ، ٤١٠ .	الموصل : ٣٤٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ .
حرف الياء	حرف النون
اليمن : ٣٧٦ ، ٤٠٤ .	النباج : ٣١٩ .
	نجران : ٣٧١ .

فهرس القبائل والأمم والفرق

حرف الخاء

الخرمية: ١٠٨.

حرف الراء

الروم: ٧٠، ٧٢، ١٢٦، ١٤٧.

حرف الزاي

الزيدية: ٦١.

الزنج: ٧٠، ٧٢، ٧٣، ١٤٧.

حرف السين

السودان: ١٤٧.

حرف الصاد

الصابئون: ٨٠، ١٠٠.

الصحابة: ٤٦.

صقلاب: ٧٤.

الصوفية: ٣٦.

حرف الطاء

الطبيعيون: ٨٩.

حرف العين

العجم: ٥٦، ٧٠، ٧٣، ٧٧.

العرب: ٤٥، ٤٦، ٥٦، ٧٠، ٧١.

٧٢، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٩، ٨٠.

٨١، ٨٢، ٨٩، ٩١، ٩٣، ٩٤، ٩٨.

الجزء الأول

حرف الألف

آل ابن ثوبة: ٨٣، ٨٦.

آل ابن وهب: ٨٦.

آل سامان: ٩٠، ١٠٢.

الأتراك = الترك.

أهل الذمة: ٨٤.

حرف الباء

البرصيون: ٤٦.

البغداديون: ٤٣.

بنو أسد: ٧٤.

بنو تميم: ٧٧.

بنو عبد الله بن دارم: ٧٦.

بنو عبد المطلب: ٧٣.

حرف التاء

التابعون: ٤٦.

الترك: ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٨٥، ٩٤.

١٠٦، ١٠٩، ١٤٧.

حرف الجيم

الجبرية: ٦٢.

حرف الحاء

الحكماء: ١١٠، ١١٢.

الجزء الثاني

حرف الألف

- آل أبي طالب: ٢٠٥.
 آل النبي محمد ﷺ: ٢٠٥، ٢٠٧.
 الإباضية: ٢٠٨.
 الاثنا عشرية: ٢٠٨.
 إسحاقية: ٢٠٨.
 أشجع: ٢٣١.
 الأشجعية: ٢٠٨.
 الأشعرية: ٢٠٨.
 الإماميون: ٢٨٢.
 الأنصار: ١٧٨، ١٧٩، ٢٢٥.
 أهل الذمة: ٢٩١.

حرف الباء

- البرغوثيون: ٢٨٢.
 بنو إسرائيل: ٢٤٤.
 بنو أمية: ٢٠٥، ٢٠٦.
 بنو تغلب: ١٩٩.
 بنو عامر: ٢٢٢.
 بنو عبد مناف: ٢٣٠.
 بنو عدي بن النجار: ٢١٠.
 بنو عقيل: ٢٦٨.
 بنو العنبر: ١٦٢.
 بنو فهر: ٢٣٠.
 بنو كلاب: ٢٦٣.
 بنو لهب: ٢٦٨.
 بنو مروان: ٢٠٦.
 بنو نفييل بن عمرو بن كلاب: ٢٨٩.

١٠١، ١٠٢، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٣.

العراقيون: ٦٥.

حرف الفاء

- الفرس: ٧٠، ٧٢، ٧٩، ٨١، ٩١.
 الفلاسفة: ١٣٩.

حرف القاف

القرامطة: ٥٥، ٥٧.

حرف الكاف

- كلب: ٧٦.
 الكوفيون: ١٠٢.

حرف الميم

- المعتزلة: ٦١، ١٠٨.
 الملحدة: ٦٢، ١٠٨.
 المنطقيون: ٨٩، ٩٧.
 المهندسون: ٨٩.
 النحويون: ٨٩، ٩٥، ٩٧.
 النصارى: ٨٠.

حرف الهاء

- الهنود: ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٨١، ٩١، ٩٤.
 ١٢٦، ١٤٧.

حرف الياء

- اليهود: ٨٠.
 يونان: ٧٢، ٧٩، ٩٤، ١٢٤، ١٢٦.
 ١٤٧.

بنو هاشم : ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

حرف الجيم

الجارودية : ٢٠٨ .

الجبائية : ٢٠٨ .

الجبرية : ٢٠٨ .

جشم : ١٨٥ .

جهينة : ١٧٧ .

حرف الحاء

الحارثية : ٢٠٨ .

الحكماء : ١٧٧ ، ٢٠٠ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ .

الحنبليون : ٢٨٢ .

حرف الخاء

الخوارج : ١٦٦ ، ٢٠٨ .

حرف الراء

الرافضية : ٢٠٨ .

الراوندية : ٢٠٨ .

الروم : ٢٥٤ .

حرف الزين

الزعفرانية : ٢٠٨ .

الزنج : ٢٥٤ .

الزيدية : ١٦٩ ، ٢٨٢ .

حرف السين

السنية : ١٦٦ .

حرف الشين

الشعبية : ٢٠٨ .

الشيعة : ١٦٦ ، ١٦٩ ، ٢٨٢ .

حرف الصاد

الصابئون : ١٦٩ .

صحابه رسول الله ﷺ : ٢٠٨ .

الصدف : ٢٠٦ .

الصوفية : ٢٦٣ ، ٢٧٤ .

حرف الطاء

الطبريون : ٢٨٢ .

طيء : ١٧٧ ، ١٧٨ .

حرف العين

العجم : ٢٠٧ .

العرب : ١٧٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ .

حرف الفاء

الفلاسفة : ١٦٦ ، ١٦٧ .

الفقهاء : ٢٥٢ .

حرف القاف

القدرية : ٢٠٨ .

القرامطة : ٢٠٨ .

قريش : ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ .

القطعية : ٢٠٨ .

حرف الكاف

كندة : ٢٠٦ .

حرف اللام

اللغويون : ٢٥٢ .

لهب = بنو لهب

حرف الميم

المجوس: ١٦٦، ١٨٠، ٢٠٨.

المرجئة: ١٦٦.

المستدركة: ٢٠٨.

المسلمون: ٢٠٨.

مضر: ٢٨٩.

المعتزلة: ١٦٦.

المفضلليون: ٢٨٢.

حرف النون

الناجمون: ١٧٠.

النجارية: ٢٠٨.

النحويون: ٢٥٢.

النصارى: ١٦٦، ١٩٦، ٢٠٨.

النصيرية: ٢٠٨.

نفيل بن عمرو بن كلاب = بنو نفيل.

حرف الهاء

الهجريون: ١٧٠.

هوازن: ١٧٧.

حرف الياء

اليهود: ٢٠٨.

يونان: ١٦٥، ١٧١، ١٧٤، ٢٦٢.

الجزء الثالث

حرف الألف

آل أبي طالب: ٣٤٧.

آل أبي معيط: ٣٨٧.

آل سامان: ٣٤٠، ٣٤١.

الأعاجم: ٣٨٦.

الأنصار: ٣٨١، ٣٨٣، ٣٨٤.

حرف الباء

باهلة بن يعفر: ٣٨٥.

بكر بن وائل: ٣٨٥.

بنو بدر: ٣١٤.

بنو تيم الله: ٣٠١.

بنو الجلاح: ٢٩٩.

بنو دبير: ٣١٧.

بنو عبادة: ٢٩٨.

بنو العباس: ٣٤٧.

بنو غاضرة: ٣١٧.

بنو النجار: ٣٨٢.

بنو نصر: ٤٠٢.

بنو نمير: ٣٨٢.

حرف التاء

الترك: ٣٠٠، ٣٦٢، ٣٨٦.

تميم: ٣٨٥.

حرف الخاء

الخزرج: ٣٨٧.

خوزان: ٢٩٥.

حرف الدال

الديلم: ٤٠٧.

حرف الذال

ذوو مليحا (كذا): ٤١١.

حرف الراء

الروم: ٣٦٢، ٣٧٤.

- قيس : ٣٨٤ .
- حرف الكاف**
- الكرد : ٣٦٢ .
- كعب : ٣٨٢ ، ٣٨٣ .
- كلاب : ٣٨٢ ، ٣٨٣ .
- كلب : ٣٨٥ .
- كليب بن وائل : ٣٠٩ .
- حرف الميم**
- مجاشع : ٣٢٠ .
- مزينة : ٣٨٨ .
- حرف النون**
- النبط : ٢٩٥ .
- النصارى : ٣٩٥ .
- نمير = بنو نمير .
- حرف الهاء**
- همدان : ٣٨٦ .
- حرف الياء**
- اليهود : ٣٨٨ .
- يونان : ٣٤٥ .
- حرف السين**
- سخينة (لقب لقريش) : ٣٨٥ .
- حرف الشين**
- شيبان : ٣١٥ .
- حرف الصاد**
- الصوفية : ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٧١ .
- حرف العين**
- عاد : ٣١٦ ، ٣٤٧ .
- العجم : ٣٨٦ ، ٣٩٤ .
- عدنان : ٢٩٥ .
- العرب : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ٣٨٦ .
- حرف الفاء**
- فزارة : ٣٠٤ .
- حرف القاف**
- القحاطنة : ٢٩٥ ، ٣٨٦ .
- قريش : ٣١٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

فهرس أسماء الكتب

كتاب سيويه: ١٠٢، ١٠٣، ١٥٤.

حرف الميم

المجسطى: ٧٩.

الموسيقى: ٧٩.

حرف الهاء

هزار أفسان: ٤٥

الجزء الثاني

حرف الراء

رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء:

١٦٣، ١٦٨.

السماء والعالم: ٢١٥.

حرف النون

النواميس لأفلاطون ١٧٣

الجزء الثالث

حرف التاء

التاجي لأبي إسحاق الصابغ: ٣٧٨.

التصنيف: ٣٩١.

الجزء الأول

حرف الألف

إصلاح المنطق: ١٥٧.

إنقاذ البشر من الجبر والقدر: ١٥٥.

إيساغوجي: ٥٠.

حرف الباء

البدل: ٦٣.

حرف الحاء

الحيوان للجاحظ: ٣٥، ٦٣.

حرف الفاء

فردوس الحكمة: ٦٣.

الفلاحة: ٧٩.

حرف القاف

قاطيغورياس: ٥٠.

حرف الكاف

كتاب إقليدس: ٧٩.

كتاب للجهاني في الطعن على العرب:

٧٤.

فهرس المحتويات

الجزء الأول

٥	تقديم
٦	ترجمة المؤلف
٢٤	نبذة عن كتاب الإمتاع والمؤانسة
٤٣	الليلة الأولى
٤٨	الليلة الثانية
٥٤	الليلة الثالثة
٥٩	الليلة الرابعة
٦٨	الليلة الخامسة
٧٠	الليلة السادسة
٨٣	الليلة السابعة
٨٨	الليلة الثامنة
١٠٩	الليلة التاسعة
١١٨	الليلة العاشرة
١٣٩	الليلة الثالثة عشرة
١٤٤	الليلة الرابعة عشرة
١٥١	الليلة الخامسة عشرة
١٥٥	الليلة السادسة عشرة

الجزء الثاني

١٦٢	الليلة السابعة عشرة
١٩١	الليلة الثامنة عشرة
١٩٨	الليلة التاسعة عشرة
٢٠٤	الليلة العشرون

٢١١	الليلة الحادية والعشرون
٢١٣	الليلة الثانية والعشرون
٢١٨	الليلة الثالثة والعشرون
٢٣٣	الليلة الرابعة والعشرون
٢٤٩	الليلة الخامسة والعشرون
٢٥٨	الليلة السادسة والعشرون
٢٦٢	الليلة السابعة والعشرون
٢٦٨	الليلة الثامنة والعشرون

الجزء الثالث

٢٨٤	الليلة التاسعة والعشرون
٢٨٨	الليلة الثلاثون
٢٩٠	الليلة الواحدة والثلاثون
٣٠٤	الليلة الثانية والثلاثون
٣٢٦	الليلة الثالثة والثلاثون
٣٣٧	الليلة الرابعة والثلاثون
٣٤٨	الليلة الخامسة والثلاثون
٣٦٠	الليلة السادسة والثلاثون
٣٦١	الليلة السابعة والثلاثون
٣٧٢	الليلة الثامنة والثلاثون
٣٨٠	الليلة التاسعة والثلاثون
٣٩٢	الليلة الأربعون
٤٠٤	رسالتان كتب بهما المؤلف إلى الوزير

الفهارس العامة

٤١٩	● فهرس الأعلام
٤٤٩	● فهرس أسماء الأماكن
٤٥٥	● فهرس القبائل والأمم والفرق
٤٦١	● فهرس أسماء الكتب
٤٦٣	● فهرس المحتويات